2020
2.1.2020

رواية

إريكا يونغ

الخوف من الخمسين

مذكَّرات مُنتصَف العُمر

ترجمة: أسامة منزلجي

إريكا يونغ

الخوف من الخمسين

مذكّرات مُنتَصف العُمر

ترجمة : أسامة منزلجي

الخوف من الخمسين
مذكَّرات مُنتَصف العُمر

رواية

Author: **Erica Jong**	اسم المؤلف: إريكا يونغ
Title: **Fear of Fifty: a Midlife Memoir**	عنوان الكتاب: الخوف من الخمسين: مذكَّرات مُنتَصف العُمر
Translated by: **Osama Menzlchi**	ترجمة: أسامة منزلجي
Cover Designed by: **Majed Al–Majedy**	تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
P.C.: **Al–Mada**	الناشر: دار المدى
First Edition: **2018**	الطبعة الأولى: **2018**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © 1994, 2018, Erica Mana Jong,
all righit reseved.

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com   email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول

dar@almada-group.com

+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

al-madahouse@net.sy

ص.ب: 8272

+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.

إهداء المؤلِّفة

إلى ابنتي، مولي -
جاء دورِكِ الآن

دعنا نُجيب عن كتابٍ بالحبر
بكتابٍ من لحم ودم

• رالف والدو إمرسُن

مقدّمة

إياكِ أنْ تقتدي بالكلاب

«تعلمين أنكِ في خطر عندما تقومين بدور نفسك في النسخة السينمائية من حياتك». هذا ما كان والدي يُحذّرني منه وأنا في التاسعة من العمر. ولم أفهم عمّا كان يتكلَّم.

كان قد خرج من عالم الاستعراض ليُحقّق نجاحاً باهراً في مجال الحليّ الرخيصة، وعلى الرغم من أنه تاجر بالخزف والدُمى الأثرية الزائفة، إلا أنَّ عباراته المَجازية كلها كانت مُستقاة من تلك المهنة الأخرى التي تركها وهو في عشرينيات عمره.

مقولته الأخرى المُفضّلة كانت «إياكِ أنْ تقتدي بالكلاب». ولم أفهم أبداً معنى هذه أيضاً. أو كيف تنطبق على حياتي. ولكن، كما حدث، علَّمَتني حياتي هذين الدّرسين معاً.

تقول ابنتي «يمكنكِ أنْ تستسلمي، يا ماما. أنتِ كاتبة من حقبة السبعينيات». تقول ابنتي كلمة «سبعينيات» وكأنها مُرادف «للعصر الحجري العتيق». «إنَّ التلميذات في صفّي يقُلْن إنكِ تكتبين أدباً إباحياً - أهذا صحيح؟».

شرحتُ لمولي أنَّ النساء اللائي يخترقنَ الحدود غالباً ما يُعامَلنَ باحترام أقلّ، وأعطيتها رواية *«الخوف من الطيران»* لتقرأها. وجلستْ واستغرقتْ في قراءتها أثناء رحلة بالقطار من مدينة البندقية إلى مدينة أريتزو في صيف عيد ميلادها الثالث عشر. وكلما مرّت بضع دقائق كانت

ترفع بصرها لتنظر إليّ وتسألني «هيه، ماما - هل حدثَ هذا فعلاً؟»، أو «مَنْ كان ذلك الرجل أصلاً؟».

أخبرتها الحقيقة، بأشدّ الأساليب التي أعرفها مرحاً. وبعد أنْ قرأتْ نحو مائة صفحة من الكتاب، فقدتْ اهتمامها به وأمسكت رواية ***«الحارس في حقل الجودار»***.

بعد ذلك بعام، أثناء القيام بحملة دعاية لكتابي ***«الشيطان طليقاً»***، الذي يدور حول هنري ميللر، أسرّتْ ابنتي إلى وايلدر بنفيلد الثالث في صحيفة ***«صنداي صن»*** الصادرة في تورينتو: «لقد جعلتُ مبدأي ألا أقرأ أيّاً من كتب أمي لأنَّـها تُخيفني حقاً. لقد قرأتُ مائة صفحة من ***الخوف من الطيران*** فأصابني توتّر شديد! ورحتُ أسألها أحقاً فعلتِ هذا؟ لقد صُعِقت، وكان لا بد لي من أنْ أكفّ عن القراءة».

ابتسمَتْ برضا لأنّي اقتطفت ما قالته كله ودوّنته. إنها تكاد تموت اشتياقاً لتقول لازمتها عن «أزواج أمي» - مَخرَج، يمين خشبة المسرح، الزوج رقم1. دخول، يسار خشبة المسرح، الزوج رقم2. إلى آخره - لكني رميتها بنظرة مُهلِكة ورفستها من تحت الطاولة.

في سن الرابعة عشرة كانت مولي تعلم مُسبقاً أنني مادتها الخام، تماماً كما كانت هي أحياناً مادتي. فإذا أرادت أنْ تلحق بأمٍ كاتبة، فعليها أنْ تنتقم بالكتابة.

مولي لا تخونها الكلمات أبداً.

لا أحد يستطيع أنْ يجعلها تقتدي بالكلاب.

إذن ها أنا ذي في الخمسين، صِلة وصل بين جيلَين. لقد اختُزِلتُ إلى ما يُشبه حلقة مفقودة في السلسلة الثورية. استقيتُ هذه النصائح كلها من والدي وهذه المقتطفات من ابنتي. وعليّ بصورة ما أنْ أصنع منها شيئاً ذا معنى.

وهكذا وُلِدَ هذا الكتاب.

هو في الخمسين، هي ليست كذلك

ها قد بلغتُ الخمسين، وآخر ما أردتُ هو إقامة احتفال عام. قبل حلول يوم عيد ميلادي بثلاثة أيام انطلقتُ إلى المنتجع في بركشايرز مع مولي (كانت حينذاك في الثالثة عشرة). نمت معها على السرير نفسه، ونحن نقهقه قبل النوم، فيما يُشبه حفلاً من النعاس. مارست التمارين الرياضية طوال النهار (وكأني حوذيّ، وليس امرأة كسولاً)، تعلّمت إعداد أطباق نباتية، منخفضة الدسم وشائعة، وأزلتُ رؤوسي السوداء، ودلّكتُ لحمي الرخو، ومرّنتُ عضلاتي، وفكّرتُ في النصف الثاني من حياتي.

هذه الأفكار تراوحت بين الخطأ والقبول. قلت في نفسي، إنَّ بلوغ سن الخمسين يُشبه الطيران: ساعات من الضجر تتخلّلها لحظات من الرعب الشديد.

عندما وصل زوجي (الذي ولد في يوم مولدي نفسه لكنه أكبر مني بعام)، عشيّة يوم مولدي، كان عليّ أنْ أتكيَّف مع تمزّق عالمي كامرأة. أعجبه الطعام لكنه علَّق ببراعة على الطابع المضحك للجو العام. لم تُفسِد عينه الذكرية الناقدة-الساخرة تماماً معتزلي ولكنها لوّثته قليلاً. كنتُ أقوم بعمل داخليّ تحت ستار من التمرين الخارجي، ومظهره جعل تنفيذ ذلك العمل الداخلي أصعب.

إنَّ الرجال الحقيقيين لا يُحبّون المنتجعات.

قبل ذلك بعام، عندما بلغ هو الخمسين، أقمت حفلاً لأجله. أرسلتُ دعوات تقول:

هو بلغ الخمسين

هي لم تبلُغها

تعال وساعدنا على الاحتفال

كنتُ لا أزال لا أستطيع مواجهة سن الخمسين، لذلك أدركتُ أنني لا أريد منه أنْ يُجاملني في عيد مولدي الخمسين. ولا أردت أنْ أفعل

ما فعلتْ غلوريا ستاينم[1]: أنْ أُحقّق منفعة عامة، وأجمع نقوداً للنساء، وأظهر متألقة بثوب مسائيّ، وكتفاي يتلألآن - كما كان كتفا غلوريا الجميلان - وأقول: «هكذا أبدو وأنا في الخمسين».

من يستطيع ألّا يُعجَب بمثل هذا التصريح الجريء من نساء أكبر سناً؟ لكنني تردّدتُ بين رغبتي في تغيير تاريخ مولدي في المادة المذكورة عني في كتاب «المعلومات العامة» ورغبتي في الانتقال إلى فرمونت والعمل في مجال البستنة العضوية مرتدية سروالاً كيسياً وحذاءً خفيفاً.

كنتُ في حاجة إلى شيء خاص، أنثويّ، وتأمّليّ لكي أفهم هذه المشاعر المتصارعة. كان المنتجع هو المكان المثالي. وكانت ابنتي هي الرفيقة المثالية - على الرغم من عبثها المراهق الذي لم يكن يوفّر أحداً، خاصة أمّها. ومع ذلك، هناك شيء أنثويّ خاص في المرأة التي بلغت الخمسين، علاقتها بابنتها، لا يمكن مشاركته مع عالم الذكر كله - أو حتى مع الذين يمثّلونه وتحبهم النساء وترعاهم.

لطالما أوليت أنا وزوجي الكثير من الاهتمام بعيد ميلادنا - جزئياً لأننا نتشارك فيه وأيضاً، بما أننا تقابلنا في منتصف العمر، بعد تحطّم العديد من العلاقات، لأننا نحتفظ بحب بتزامن مولدنا في أثناء الحرب العالمية الثانية، عالم من قسائم الحصص والخوف من غزو دول المحور التي لا نتذكّرها إلا بصورة غامضة من خلال حكايات العائلة المُكرَّرة. في عام كنا نصطحب بناتنا إلى البندقية - مدينتي السحرية - وفي عام آخر نذهب إلى شقّتنا الجديدة في نيويورك، التي اشتريناها مشاركة - وهي الدليل القاطع على الالتزام في عالم تموت فيه الزيجات كالعثّ.

لكنَّ سنّ الخمسين بالنسبة إلى المرأة يختلف عمّا هو بالنسبة إلى الرجل. سن الخمسين هو نوع أكثر راديكالية من المرور إلى الطرف الآخر من الحياة، وهذا ما لم نتمكّن من الاشتراك فيه. دعيه يسخر من

1- غلوريا ستاينم (ولدت عام 1934): كاتبة صحفية وناشطة سياسية واجتماعية أميركية، يهودية، منادية بالمساواة بين الرجل والمرأة - المترجم.

تأمل «عصر جديد». أنا كنتُ في حاجة إليه، كحاجة النساء في العصور القديمة. فينوس دو ميلو[2] تتخيَّل نفسها وهي تتحول إلى فينوس ويلندورف[3] - إذا لم تأخذ حذرها.

تقولين لنفسك إنَّ عليكِ أنْ تتجاوزي الغرور. تقرئين كتباً مناصرة للمرأة وتتخيَّلين نفسك عشيقة أليس ب. توكلاس[4]. ولكن ليس من السهل نسيان سنوات من غسل الدماغ. إنَّ فخ الجمال أعمق مما تعتقدين، والضغوط الخارجية وليس الداخلية هي التي تمتّن الصِلة. إنك لا تستطيعين أنْ تتخيلي نفسك في منتصف العمر - وأنت الفتاة الصغيرة الظريفة التي طالما تمتعت بالجمال حتى بعد أنْ ازداد وزنك.

لقد بقيت لسنوات طويلة عزباء شرعياً، أخشى معاً الضجر والوقوع في فخ شيء لا يُسمّى اعتباطاً بـ«رباط الزواج». والآن بتُّ أعتقد أنَّ أصعب تحدٍّ قاطبة هو الحِفاظ على الاستقلال الفكري والروحي في حين أنكِ تغذين داخلك إقامة علاقة. كان هذا يعني تفاوض مستمر حول الأولويات، شجارات صاخبة مستمرة، صراعات مستمرة على السلطة. فإذا كنتِ محظوظة بقدرٍ كافٍ بحيث تشعرين بأمانٍ كافٍ لتقاتلي وتكافحي، فأنتِ محظوظة حقاً. وإذا شعرتِ أنكِ محبوبة بقدر كافٍ بحيث تصرخين وتهتفين وتمارسين سلطتكِ صراحةً، فإنَّ فرصة نجاح الزواج هي بمقدار النصف.

لقد تورطتُ في مثل هذا النوع من الزواج فقط لأنني وصلتُ إلى

2- فينوس دو ميلو: هو تمثال فينوس (أو أفروديت) الشهير، الذي يعود تاريخ إبداعه إلى القرن الثاني قبل الميلاد، ويُعتبر مِثالاً للجمال الأنثوي - المترجم.

3- فينوس ويليندورف: معروفة أيضاً باسم «امرأة ويليندورف». تمثال من العصر الحجري اكتُشف في أوائل القرن العشرين. وهو في مواصفاته لا يعكس أياً من سِمات الجمال في تمثال فينوس دو ميلو، يمثل امرأة بدينة، متهدّلة الثديين وتخلو من أي جمال - المترجم.

4- أليس ب. توكلاس: رفيقة درب الكاتبة غرترود شتاين (ويُقال عشيقتها): كانت تخلو من الجمال ومسترجلة - المترجم.

مكانٍ لم أشعر فيه بالخوف من كوني وحيدة. لقد اكتشفتُ أنني أحببتُ صُحبة نفسي أكثر من رغبتي في الخروج مع أحدهم. وفجأةً، وأنا أحضن عزلتي، مطمئنَّة إلى مقدرتي على إعالة نفسي وابنتي، قابلتُ توأم روح وصديقاً.

فاجأتُ نفسي بهذا، الشهير بكتاباته عن العلاقات التي التهبتْ بالجنس ومن ثم انطفأتْ.

واشتعل الحديث. في أول الأمر كان الجنس بيننا كارثياً - ارتخاء العضو في لحظات غير مُناسِبة وواقيات ذكرية مُهملة ومرتخية على اللّحاف. كان هناك الكثير من الخوف من الالتزام عند كلينا حتى أصبحت النشوة أمراً غريباً. وبدل ذلك، رحنا نتحدث ونتحدث. ووجدتُ نفسي أُعجبُ بذلك الشخص قبل أنْ أعرف أنني أحببته - وهذا بحدّ ذاته كان إثارة جديدة. كنتُ أهرب - إلى كاليفورنيا، إلى أوروبا - فقط لأتصل به من أماكن نائية. شعرنا بأنَّ الصِلة بيننا قوية حتى لكأننا كنا معاً طوال حياتنا.

هل جرؤ أحدٌ على الكتابة عن كوارث الجنس الآمن في عصر الإيدز؟ هل جرؤ أحدٌ على أنْ يقول إنَّ مُعظم الرجال يُفضّلون ارتداء الواقي الذكري حول أعناقهم ليتّقوا العين الشريرة على أنْ يضعوها على قضبانهم؟ هل سبق أنْ سجّل أحدٌ رضوض عشاق منتصف الحياة الذين اختبروا كل شيء بدءاً بعُذريّة الخمسينيات إلى شَرَه الستينيات إلى الجنس إلى هوس السبعينيات بالصحة وباللياقة البدنيّة (قابلت عشّاقكِ في نوادي البحّار) إلى انحلال الثمانينيات (سيارات الليموزين الفارهة والأثواب القصيرة والرجال الذين يظهرون بمظهر سادة الكون) إلى رعب التسعينيات من الإيدز في معركته مع الشبق الجنسي الطبيعي؟

ثم هناك الأسئلة الأبديّة عن الحب والجنس: هل يمكن أنْ تنشأ صداقة بين الرجال والنساء وتدوم جنباً إلى جنب مع هيجان الهرمونات وسيطرتها؟ ما صِلة الجنس بالحب - وصِلة الحب بالجنس؟ أصحيح أننا مُهمَلون داخل مشاعرنا الجنسيّة - أم أنّ المجتمع وحده يُصرُّ على

هذا؟ ما معنى «سويّ»؟ وما معنى «مثليّ»؟ وما معنى «ثُنائيّ الجنس»؟ وهل لأيٍّ منها أهميّة في أعماق روح المرء؟ ألا ينبغي أنْ نتخلَّص من هذه التسميات في محاولة لنكون منفتحين حقاً على أنفسنا وكلٌّ منا على الآخر؟

ماذا كان يحدث لي في الجزء الثاني من حياتي؟ كنتُ أستعيدُ نفسي وأعجبتني تلك النفس. كنتُ أحصل على الحسّ الفكه، والكثافة، والتوازن التي عرفتها في طفولتي. لكنني كنتُ أستعيدها على دُفعات. سمِّها سكينة، سمّها حِكمة. كنتُ أعلم ما هو المهم وما ليس مهماً. كان الحب مهماً. والرعشة الجنسيّة الفوريّة لم تكن كذلك.

وأنا في سن الخمسين أتلفّتُ حولي وأرى نساء جيلي يتماشين مع تقدّمهن في السن. إنهنّ مرتبكات، وتفسير ارتباكهن لا يكون بتأليف كتاب آخر عن الهرمونات. إنَّ المشكلة أعمق من سن اليأس، وعمليات شدّ الوجه، أو من مُضاجعة الشبّان. إنها تتعلّق بكامل صورة النفس في ثقافةٍ عاشقةٍ للشباب ونافرة من النساء ككائنات بشرية. إننا مرعوبات ونحن في سن الخمسين لأننا لا نعلم ماذا نستطيع أنْ نصبح عندما لا نعود شابات وظريفات. وكما في كل مرحلة من حياتنا، ليست هناك قُدوات لنا. خمسة وعشرون عاماً مع حقوق المرأة (ثم عودة عنها)، ثم دعم قضية المرأة من جديد - وما زلنا نقف على حافة الهاوية. ماذا سيحدث لنا الآن بعد أنْ حرّرتنا هرموناتنا؟

قد يبدو، خلال السنوات القليلة الأخيرة، أنَّه كان هناك فيضٌ من الكتب من أجل النساء في منتصف أعمارهن، ولكن كم تغيَّرتْ الأشياء حقاً؟ هل نستطيع بسهولة شديدة أنْ نتخلّى عن خمسين عاماً من التدرُّب على تدمير ذواتنا عند منتصف العمر؟

أعتقد أنني إذا كنتُ مُضطربة، فأنتم كذلك أيضاً. قبل كل شيء، نحن جيل

السوط[5] (في طور الترخيص له)[6]: تربّينا لنكون على نمط دوريس داي، نتوق ونحن في عشرينيات أعمارنا لنصبح نُسخاً من غلوريا ستاينم، ثم قُدِّرَ لنا أنْ نُنشئ بناتنا في منتصف العمر وهن في أعمار نانسي ريغان والأميرة ديانا. والآن أصبحت هيلاري رودام كلينتون، حمداً للآلهة. لكنَّ التمييز الجنسي (كقدم الشخص الرياضي) ما زال يزدهر في أماكن مُظلمة، رطبة.

كم كان الأمر أشبه بالسكّة الأفعوانيّة! كان جنسنا يتذبذب بين الرواج وعدمه كما ترتفع حواشي الثوب وتنخفض مراراً، كما تبرز قضيّة المساواة مع المرأة ثم تغيب من جديد، كما تُبارَك الأمومة وتُلعَن ثم تُبارَك من جديد.

نشأنا في حقبة كان الإجهاض خلالها إجراءً غير شرعيّ (عندما يقع الحبل خلال فترة الدراسة الثانوية أو الجامعيّة كان يعني نهاية الطموح)، وترعرعنا داخل الثورة الجنسيّة - وهو حدث إعلامي زائف في أساسه سرعان ما استُبدِلَ بالتطهيريّة الأميركية الطيبة عتيقة الطِراز عندما بدأ وباء الإيدز يضرب ضربته. ومأساة فقدان جيل بأكمله لبعضٍ من أشدّنا موهبة كانت قد تحوّلت كما كان متوقّعاً إلى ذريعة للإطاحة بقوة الحياة ورسولها إيروس إله الحب. كان الجنس يختفي، ثم يظهر، ثم يختفي، ثم يظهر، ثم يختفي - في انعطافٍ جديد سمّاه أنتوني برجيس «القديم الذي يظهر ويختفي» في روايته ***«البرتقالة الآليّة»***.

المغزى هو: نحن جيل السوط لا نستطيع أنْ نعتمد على أي شيء في حياتنا الاجتماعيّة والجنسيّة.

فكّري في النصيحة التي حصلنا عليها ونحن نكبر. ثم فكّري في العالم الذي كبرنا فيه!

5- سُمّيَ بجيل السوط للدلالة على سرعة وتيرته وأحداثه - المترجم.
6- يُخبرني زوجي، المُحامي، أنني قانونياً على خطأ. إنَّ عبارة «جيل السوط» هي في الحقيقة «ماركة مُسجّلة» كما يقول. لكنني عشتُ حياتي وفق مبدأ «لا تُفسدي المرح»، وأحرف P مسلّية أكثر من أحرف T.

«لا تجهري بمشاعرك!».
«لا تدعي الرجال يعرفون كم أنتِ ذكيّة!».
«إنْ كان لديه الحليب، فلماذا يشتري بقرة؟».
«إنَّ الزواج من رجلٍ ثريّ سهل بقدر سهولة الزواج من رجل فقير».
«إنَّ الطريق إلى قلب الرجل يمرّ من معدته».
«إنَّ الرجل يظل يُلاحق فتاة إلى أنْ تُمسكَ به».
«إنَّ المجوهرات هي أفضل صديق للفتاة».

لو أننا كنا حمقاوات بحيث نعيش نمط حياة الأمهات والجدّات التي تُضرَب بها الأمثال، لأصبحنا جميعاً سيدات مُشرّدات يُنقّبنَ في حاويات القمامة. ولو أننا كنا حمقاوات بحيث نعيش نمط الحياة التي أوصتْ بها مجلات السينما في الستينيات والسبعينيات، لَمِتْنا كلّنا متأثّرات بالإيدز.

لمّا كنا قد نشأنا مع اعتقاد أنَّ الرجال سوف يحموننا ويدعموننا، فغالباً ما اكتشفنا أنَّ علينا نحن أنْ نحميهم وندعمهم. ونشأنا مع اعتقاد أنَّ علينا أنْ نعتني بأولادنا طوال الوقت (على الأقل عندما يكونون صغاراً)، وغالباً ما اكتشفنا أنَّ أمومة دونا ريد[7] هي رفاهية لا تقدر على تكاليفها إلا القِلَّة منا. ونشأنا على اعتقاد أنَّ الأنوثة تتألّف من الرقّة والاسترضاء، وغالباً ما اكتشفنا أنَّ بقاءنا أحياء - في الطلاق، في العمل، وحتى في منازلنا نفسها - يعتمد على مراجعتنا لتلك الأفكار عن الأنوثة ودفاعنا الشرس عن حاجاتنا.

لطالما وجدنا أنفسنا ممزّقات بين الأمهات اللواتي في رؤوسنا والنساء اللواتي احتجنا إلى أنْ نُصبح لكي نبقى ببساطة على قيد الحياة. ومع وضعنا قدماً في الماضي وأُخرى في المستقبل، نجتاز بصعوبة

7- دونا ريد (1921 - 1986): ممثلة أميركيّة سينمائيّة وتلفزيونيّة ومُنتجة. كان لديها أربعة أولاد - المترجم.

تجربة الحبّ الأولى، والأمومة، والزواج، والطلاق، والحياة المهنيّة، وسن اليأس، والترمُّل - دون أنْ نعلم ماذا أو مَنْ يُفترَض أنْ نكون، مُحددات منطقة المشاعر الجديدة عند كل مُنعَطَف - كالروّاد.

لقد كنا روّاداً في حياتنا الخاصة، والثمن الذي يدفعه الرائد هو القلق الدائم. وجائزته هي الإحساس المُذهل بالفخر بذاتنا المُنجَزة بشكل مؤلم.

ونهتف مع قدرٍ من الصدمة والدهشة «لقد نجحت! لقد نجحتُ! أنتِ أيضاً تستطيعين!».

هل تغيَّر الرجال أم النساء تغيَّرن؟ أم كلاهما؟ وعلى الرغم من أنَّ والدي وأجدادي كانوا مناصرين للمرأة، ما كان يمكن أنْ يتخلّوا عن أولادهم من أجل الرقص مع نساء أصغر سناً. لقد كانوا خنازير. وربما كانوا أقلّ من أوفياء، لكنهم كانوا على الأقلّ خنازير مُعيلين. كانوا مُناصرين للكفاح الطويل، مُزوّدين أيضاً بنوع من الأمان لم يَعُد معروفاً اليوم. لِمَ لا يتّصف جيل الرجال الذي جاء بعدهم بمثل هذا التردُّد؟

هل النساء هنّ اللواتي قضين عليه؟ أم التاريخ؟ أم تغيُّرٌ هائل حدث بين الجنسين لم نلحظ حتى الآن وجوده أو نسمّيه؟

مع تنامي قوة النساء، بدا أنَّ الرجال ازدادوا ضعفاً. هل كان هذا مظهراً خارجياً أم واقعاً؟ لما كانت النساء لا يحصلن إلى على قدر يسيرٍ من السُلطة، بدأ الرجال يتصرفون مع حسّ بالاضطهاد - كأننا تسبّبنا في إعاقتهم التامة.

هل النساء كلهن مُضطرات إلى التزام الصمت لكي يتكلّم الرجال؟ هل على النساء كلهن ألا يكون لهن سيقان لكي يتمكن الرجال من المشي؟

إنَّ بنات جيلي يبلغن سن الخمسين مع إحساس بالارتباك والحنق. فلم يتحقّق أيٌّ من الأشياء التي اعتمدنا عليها. ما زالت الأرض تهتز من

تحت أقدامنا. وأي طبيب نفسي أو مُحلل نفسي سوف يُخبرك أنَّ أصعب ما يمكن التعامل معه هو التضارُب. وقد عرفنا قدراً من التضارُب في حياتنا الخاصة جديرٌ بإصابة أي شخص بانفصام الشخصيّة. لعلَّ جدّاتنا كنَّ أفضل في مقدرتهن على توقّع الاضطهاد من مقدرتنا على التلاؤم مع حريّتنا التي أكثرنا من التبجُّح حولها. وحريتنا على أية حال موضع نقاش. ما زالت «حريتـ»ـنا كلمة يمكن أنْ نضعها بين قوسين لتثير الضحك.

لم نتمكّن، على امتداد عقود، منْ توقُّع الحصول على إجازة أمومة ومن استعادة أعمالنا، ناهيك عن عناية بالأطفال مقبولة التكاليف. ولا توجد عناية يوميّة، ولا أميركيات يُرِدْن مُربيات - ومع ذلك كنّا (وما زلنا) نُعاقَب على استئجار اللواتي احتجن إلى عمل العناية بالأطفال.

إنَّ السرّ القذر في أميركا هو أنَّ كل امرأة عاملة كان عليها أنْ تخرق القانون لكي تجد مَنْ يعتني بطفلها. وأنا خرقتُ القانون. ومعظمنا فعلن ذلك. (إنَّ النساء المسكينات يلجأن إلى مُربّيات يوميات غير مُجازات ونساء من الطبقة المتوسطة كمربيات من دون إذن بالعمل). ابحثي عن امرأة تُتقن عملها وسوف تجدين نفسك مع امرأة ليس لديها أطفال. أو مع رجل.

مع تصاعُد الآمال وانحدار مستوى المعيشة، تساءلنا عن الخطأ الذي وقع. لم يقع أي خطأ. كل ما في الأمر أننا نشأنا في ثقافة وبلغنا سن الرشد في ثقافة أخرى. وها نحن نبلغ سن الخمسين في عالمٍ يلعبُ من جديد دوراً مؤثّراً في قضية المرأة. ولكن هذه المرة لدينا سببٌ وجيهٌ ليتتابنا الشك.

إنَّ جيل السوط، على طريقته، جيلٌ ضائع. وكالمشاهدين في مباراة لكرة المضرب، لا نكفّ عن تحريك رؤوسنا من طرفٍ إلى طرف.

فلا عَجَبَ أنَّ رِقابنا تؤلمنا!

ربما كل جيل يعتبر نفسه جيلاً ضائعاً وربما كل جيل على صواب. ربما هناك مُستهترات من العشرينيات تُقنَ إلى الأمان الذي عاشت فيه

جدّاتهن. لكنَّ الموجة الأولى من الحركة النسويّة الحديثة على الأقل تحمل عُضواتها قُدُماً على متن تيارٍ من الأمل. والموجة الثانية (من أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات) جعلتنا نحلم بأنَّ حقّ المرأة في المساواة سوف يتحقّق قريباً على نطاق العالم. لذلك رأينا أنا وزميلاتي في المدرسة أنَّ آمال المرأة ترتفع وتندفع، وترتفع وتندفع، وترتفع وتندفع من جديد في حياتنا اللّا مديدة. لقد كان قِصَر الدوائر مُدوِّخاً – ويُثير الغضب.

ما زالت وسائل الإعلام تحاول أنْ تواسينا بالأفكار المُبتذَلة. يقولون إنَّ سن الخمسين رائع. يجب أنْ نضع كريم لعلاج البواسير على تجاعيدنا ونمشي تحت شمس الغروب. يجب أنْ ننسى قروناً من الاضطهاد في مقابل قبعة جديدة مع عبارة «الخمسين الرائع» مُطرّزة على حافتها.

وماذا عن حاجتنا – نحن النساء والرجال معاً – إلى الاستعداد للموت في ثقافةٍ تسخر من كل سِمة روحانيّة بوصفها ادّعاء «عصر جديد»؟ ماذا عن حاجتنا إلى رؤية أنفسنا كجزءٍ من دفق الخليقة؟ وماذا عن الوحشة العميقة التي تولِّدها ثقافتنا الفردانيّة؟ ماذا عن رفض الجماعة والقيم الجماعيّة؟ ماذا عن سخرية المجتمع من كل الأنشطة التي يحصل عليها الآخرون ويُمارسونها؟ ماذا عن يأسنا الشديد لدى رؤيتنا الكذّابين والمتلاعبين يُصبحون أثرياء وأقوياء بينما الذين يقولون الحقيقة يُهزَمون على الدوام ويسقطون من تلك الفتحات الضيّقة «لشبكة النجاة» التي نسجها الكذّابون مع إحداث فُتحات واسعة لهم ولأولادهم؟

ولكن فوق كل شيء، ماذا عن المعنى وماذا عن الروح؟ هاتان ليستا كلمتين فارغتين. إنهما الغذاء الذي نزداد جوعاً إليه مع تقدّمنا في السن.

كتبت الشاعرة لويز بوغان في سنواتها الأخيرة «فيَ القلب تجري من الأشياء أكثر مما يجري من الدم». بوصفنا كائنات بشريّة، نتوق إلى ممارسة طقسٍ يقول لنا إننا نشكّل جزءاً من قبيلة، جزءاً من نوع، جزءاً

من جيل. بدل ذلك يُقدَّمُ لنا عِلاجٌ كبديل للهرمون أو أحاديث حيويّة عن مدى روعة أنْ تَصلي إلى سن الخمسين المشرق.

فلنكن واضحات: إنَّ هذه الأحاديث الحيويّة تُهين ذكاءنا. لا يمكننا أنْ ننسى بسهولة بالغة أننا نشأنا في عالمٍ يسخر من نضج الأنثى. لا يمكننا أنْ ننسى فوراً أجيالاً من النكاتَ الوقور حول، حقائب عتيقة، وأبقار، ونساء نبيلات، وساحرات، وعجائز شُمط. كان جدّي الفنان يقول عن النساء اللواتي شاركنه الإقامة في محترفه في عُصبة طلاب الفن إنهن «رسّامات سنّ اليأس». حتى أنني لم أُدرك أنَّ هذه الإشارة تناصر المساواة بين الجنسين والتقدُّم في السن. وتخلّصتُ من الحقائب القديمة - كما فعل هو - دون أنْ أعلم أنني أتخلَّص من مستقبلي أنا.

لمجرد أنَّ أفكاراً مبتذلة جديدة تُبثّ على موجات الأثير، أو تُطبَع على ورق صقيل، لا نستطيع أنْ نتوقَّع لتصوراتنا عن ذواتنا أنْ تُعالَج. نحن أكثر من مجرد مُستهلكات للمجلات، والعروض التلفزيونيّة، ومساحيق التجميل، وعمليات شدّ الوجه، والملابس. إننا نحمل ندوباً داخليّة، جراحاً داخليّة، احتياجات داخليّة. لا يمكن أنْ نُعامَل كالعبيد على مدى خمسين عاماً ومن ثم فجأة يتملّقوننا بمطاوعة سياسيّة لأنهم اكتشفوا (في وقتٍ متأخر جداً) أننا نُصوّت.

الأصوات العالية الجديدة تقول إنَّ سن الخمسين رائع لأنَّ جيل ما بعد الحرب العالمية قد وصل إلى ذلك السن الخطر رسمياً وأننا الآن نُدير الأعمال - أو بالأحرى أزواجنا يفعلون أو إخوتنا.

لكنني أتلفّتُ حولي وأرى صاحبات أفضل العقول في جيلي ما زلن يُقاومن النظام. ما زالت المديرات يستجدين رؤساء الاستديو من الذكور من أجل المال. والكاتبات والمُحرّرات ما زلنِ يُدافعن عن قضاياهن أمام كبار الموظفين من الذكور. والممثلات ما زلن يتزاحمن للحصول على حفنة من الأدوار التي تعكس حقاً حياتهن. فنانات ما زلن يتلقّين

مبالغ وتُعرَض لهن أعمالهن أقلّ كثيراً من نظرائهن من الذكور. وقائدات الأوركسترا ومؤلفات الموسيقى نادراً ما يُسمَعن. إنَّ النساء في كل مكان يرضين بنصف رغيف أو حتى بفُتات. إنَّ هؤلاء النساء لسن فاشلات، بل هن الأشدّ شراسة وذكاءً. لسن شاكيات، ولا باكيات، وحتماً لسن كسولات، لكنهنّ ما زلن خاضعات لمعيار مزدوج لا يرحم.

في الوقت الذي يرتقي رجال عاديّون باستمرار في مراتبهم، مُزوَّدين بمظلاتهم من البلاتين، وخيارات الأسهم، والزوجات الشهيات، وعائلات جديدة، وسيارات جديدة، وطائرات جديدة، وقوارب جديدة، نتقدَّم نحن في السن ونُصبح أقَل صلاحيّة للاستخدام أكثر فأكثر. وطبعاً، نحن أقوى روحياً - مَنْ يشكّ في هذا؟ لكنَّ القوة الروحيّة وحدها لا تتغلَّب على التمييز الجنسيّ.

في عالمٍ تعمل فيه النساء باجتهاد مُضاعَف ثلاث مرات مقابل نصف أجرٍ، أُنكِرَ علينا إنجازنا، وانقلب الزواج والطلاق معاً ضدّنا، واستُخدِمَتْ الأمومة كعائق في طريق نجاحنا، واستُخدمَ شغفنا كفخّ، وتعاطُفنا مع الآخرين كذريعة لتخفيض أجرنا.

في ذروتنا، ننظر حول العالم فنرى الاغتصاب سائداً حتى من دون التبليغ عنه في الصحف الرئيسة. وخلال سنوات حملنا، غالباً ما لا نُنجِز أعمالنا المطلوبة إلا بالتخلّي عن النوم. وبدأ غضبنا يتصاعد، غضب حقيقيّ، غضب للمرة الثانية في مرحلة بلوغنا. لكننا الآن بتنا نعلم أنَّ الوقت قصير.

أخيراً تعلّمنا كيف نكبح ثورة غضبنا ونستخدمها من أجل تغيير العالم. لكننا لم نكفّ عن أنْ تنقلب كل منا ضد الأخرى. وإلى أنْ نكفّ عن ذلك، سوف تبقى العلاقة الأخوية نظريّة مواسية وليست واقعاً يومياً.

هذا هو الموضوع المُحرَّم العظيم التالي: متى ستتعلَّم النساء ألا يتفرّقن بل أنْ يتّحدن؟ وكيف لنا أنْ نتعلَّم أنْ نتحالف في وقت ما زال المجتمع يؤلِّبُ بعضنا على البعض الآخر كتذكار؟

في سن الخمسين، تتحرَّر المرأة المجنونة التي تُقيم في العليّة، تهبط الدَرَج بخُطى قوية، وتُضرِم النار في المنزل. إنها ترفض أنْ تُسجَنْ أكثر من ذلك. الموجة التالية من الغضب أقوى من الأولى. فجأة لا تعود الانقسامات بين النساء تهمّ. وسواء أكنا عجائز أم شابات، سمراوات أو بيضاوات، مثليّات أو مستقيمات، متزوجات أم لا، فقيرات أم ثريّات – نُعامَل كلنا بتمييز لمجرّد أننا نساء. ولن نعود إلى عالم الظلم القديم. لا نستطيع. لقد فات الأوان.

إنَّ غضب منتصف العمر هو غضب ضار. في عشرينيات أعمارنا، ولا يزال تحقيق النجاح وبلوغ الأمومة ينتظراننا، كان في استطاعتنا أنْ نتخيَّل أنَّ شيئاً ما سوف يُنقذنا من المرتبة الثانية - الإنجاز أو الزواج أو الأمومة. والآن بتنا نعلم أنَّ لا شيء يمكن أنْ يُنقذنا. يجب أنْ نُنقذ أنفسنا.

***

لطالما ألَّفتُ كتبي بدافع من الشغف المفرِط. وعلى الرغم من أنني كسبتُ بصورة ما لقمة عيشي غير المستقرّة ككاتبة محترفة على مدى ثلاثة وعشرين عاماً، لا أستطيع أنْ أكون كاتبة مأجورة. يجب أنْ أشعر بضغط داخلي عميق مفاده: هذا الكتاب لم يوجد بعد. يجب أنْ أصنعه. إنني دائماً أكتب وكأنَّ حياتي تعتمد عليه – لأنَّ هذه هي الحقيقة.

في بداية كتاب *«مدار السرطان»*، يقتطف هنري ميللر قول والدو إمرسون: «سوف تُفسح الرواية الطريق، شيئاً فشيئاً، للمذكرات أو للسير الذاتيّة – إنها كتب آسرة، إذا عرِفَ الإنسان كيف ينتقي من بين ما يُسميه تجاربه تلك التي اختبرها بنفسه حقاً وكيف يكون صادقاً في تسجيلها». في الواقع، لقد حقّقتْ النساء هذه النبوءة أكثر مما فعل الرجال. لقد تناولت الكاتبات نبوءة إمرسون وصنعت نِتاجاً كاملاً من الأدب منها – أدباً غيَّرَ أيضاً الأسلوب الذي يؤلِّف به الرجال الكتب.

إنَّ ما أسعى إليه هو «الحقيقة الصادقة». ونحن بكل وضوح نعيشُ في

عصرٍ تمنحنا الشهادة عليه قوة كانت عادة من نصيب الأدب. والروايات والمذكرات التي نعتبرها دلائل لعيش حياتنا تتّصِف بخاصيّة الفوريّة، بالحقيقة التي تُقال بصدق، على حساب التواضُع الزائف، والعار، أو الفخر.

بقدر ما أنَّ قول الحقيقة بلا ارتداء قِناع مُريح أمرٌ صعب، فإنَّ «السيرة الذاتيّة يجب أنْ تكون خطيرة إلى درجة أنه يمكن للمرء أنْ يُقاضي نفسه بتهمة التشهير»، كما قال توماس هوفينغ - وهو لا يعلم، كما هو واضح، مِمَّن يقتطف. وميري مكارثي تذكر المصدر، في كتابها *«المذكّرات الفكريّة»*، الذي هو جورج أورويل: «إنَّ السيرة الذاتيّة التي لا تُخبر شيئاً سيّئاً عن الكاتب لا تتصف بأي قدر من الجودة». ثم تعترف مكارثي بآثام تفوق عدد تلك التي يمكن للمفترين عليها أنْ يُلفّقونها لها: ونُفتَن. ثم تموت - ودائماً بصورة فاتنة في المرأة أكثر مما لو كانت حيّة.

إنَّ الخوف من النقد أسكتني مراتٍ عديدة في حياتي ككاتبة. وكان النقد غالباً عنيفاً، وشخصياً، وجارحاً. لكنَّ النقد - كما تعلم الكاتبات جميعاً من أفرا بن إلى جورج ساند إلى جورج إليوت إلى ميري مكارثي - هو أحد الأشياء الأولى التي على الكاتبة أنْ تتعلَّم كيف تتحمّلها. إنها لا تكتب عن تجارب تُهلّل لها الثقافة السائدة لأنها «مهمة»، وهي لا تكتب، كأية كاتبة أخرى، مع ضمانة. ولا شك في أنَّ المهمّة الأكثر أهميّة بالنسبة إلى الكاتبة هي أنْ تتعوَّد على السخرية منها.

كثيراً ما احتلتُ على نفسي لأكتب بلا تحيُّز بإخبار نفسي أنني لن أنشر (أو سوف أنشر فقط تحت اسم مُستعار - وربما أيضاً باسم ذكر مُستعار). ولاحقاً، قد أقتنع بتوقيع كتابي بكلمات الحب التي تلقّيتها من القرّاء أو بحاجة الناشر إلى اسم علامة تجاريّة. في أثناء عمليّة الكتابة، كان في استطاعتي أنْ أكون حرّة، أنْ أهزم الرقابة - أكانت أمي؟ أمْ جدَّتي؟ - وأتخلّص منها بإعطاء وعد لنفسي بألا أدع كلماتي ترى النور.

كتبتُ *«الخوف من الطيران»* بتلك الطريقة وكتباً عديدة أخرى تالية

(بما فيها هذا). لطالما صاحب الكتابةَ الرعبُ، وفترات الصمت، ومن ثم دفقات عنيفة من الضحك الخاص يجعل فجأة كل إحساس بالخوف ذا قيمة.

لكنَّ الرفيق الأكبر لسن الخمسين في ثقافةٍ ليست رفيقة بالنساء الأكبر سناً هو أنّه يقلّ اهتمامك بالنقد ويقلّ خوفك من المواجهة. وفي عالمٍ لم يُخلَق للنساء، يُلاحقنا النقد والسخرية طوال أيام حياتنا. في المعتاد هما دلالتان على أننا نقوم بعملٍ صائب.

هل سنّ الخمسين صغيرٌ جداً ولا يصلح للبدء فيه بكتابة سيرة ذاتيّة؟ طبعاً هو كذلك. ولكن ربما كان سن الثمانين كبيراً جداً.

إنَّ سن الخمسين هو الوقت الذي يبدأ به الزمن نفسه يبدو قصيراً. مؤخراً تفوّق وباء مرض الإيدز ووفاة العديد من الأصدقاء وهم لا يزالون في ثلاثينيات، وأربعينيات، وخمسينيات أعمارهم، في خطورته على الإحساس بفوات الأوان. مَنْ يدري إنْ كان سيأتي وقت آخر أفضل؟ إنَّ الوقت هو دائماً الآن.

في سن التاسعة عشرة، والتاسعة والعشرين، والتاسعة والثلاثين، وحتى - فلترحمني الإلهة - سن التاسعة والأربعين، كنتُ أؤمن بأنَّ رجلاً جديداً، عشيقاً جديداً، انتقالاً، تغييراً للمدينة، للبلد، سوف يُدخِل تغييراً على حياتي الداخليّة.

لم يعُد الأمر كذلك الآن.

أنا أعلمُ أنَّ حياتي الداخليّة هي إنجازي الخاص سواء أكان هناك شريك في حياتي أم لا. أنا أعلم أنّ علاقة حب مشبوب أخرى، مجنونة، سوف تكون مجرد فترة إلهاء مؤقّتة - حتى وإنْ كان معنى كلمة «مؤقّتة» سنتين أو ثلاث. أنا أعلم أنَّ علي، فقط مع شريك، أنْ أُغذّي روحي وأطوّرها وأنَّ مشكلات ارتقائك جَبَلَكِ الخاصّ ليست مختلفة جداً.

في علاقةٍ ما، تبقين في حاجة إلى الاستقلاليّة، إلى الانفصال، إلى الخصوصيّة. وخارج أية علاقة، تبقين في حاجة إلى حبّ نفسك واحترامها.

إنني أكتبُ هذا الكتاب من موقع قبول الذات، والغضب المُطهِّر، والضحك الأجشّ.

إنني كبيرة في السن إلى درجة تجعلني أعرف أنَّ الضحك، وليس الغضب، هو الوحي الحقيقيّ.

لقد افترضتُ أنني لا أختلفُ كثيراً عن أية امرأة.

أريد أنْ أكتبَ كتاباً عن جيلي. وبكتابتي عن جيلي وبصدقٍ أعظميّ، أستطيع فقط أنْ أبدأ بنفسي.

-1-

الخوف من الخمسين

عندما يقول الناس
«لقد قلتُ لكِ خمسين مرة»،
يقصدون به التأنيب، وغالباً ما يفعلون.
وعندما يقول الشعراء «لقد كتبتُ خمسين بيتاً»،
ينتابك الخوف من أنْ يلقوها على مسمعك أيضاً.
في عصابات من خمسين شخصاً، يرتكبُ اللصوص جرائمهم.
في سن الخمسين يُصبح الحب للحب نفسه أمراً نادراً، وهذا صحيح،
ولكنه أيضاً، بلا شك، صحيح،
أنَّ أية صفقة جيّدة تتمّ مقابل خمسين قطعة لوي.

• جورج غوردن، أو لورد بايرون، من
«جون خوان»

(أكان بايرون خائفاً من الخمسين؟ ربما. لقد مات وهو في السادسة والثلاثين)

«عندما تعهّدتُ بأنْ أكتب عن نفسي اكتشفتُ أنني انطلقتُ في مغامرة متهوّرة نوعاً ما، البدء بها أسهل من التخلّي عنها. ولطالما رغبتُ في تدوين أحداث العشرين عاماً الأولى من حياتي. ولم أنسَ أبداً إشارات الأسى

التي كانت ذاتي المراهقة تُرسِلها إلى المرأة الأكبر سناً التي ستستوعبني لاحقاً، جسداً وروحاً. كنتُ أخشى ألّا يتبقّى أي شيء من تلك الفتاة، أكثر من ذرّة من رماد. وناشدتُ خليفتها أنْ تستدعي روحي الشابّة ذات يوم عالم النسيان الذي أُودِعَتْ فيه. وربما كان السبب الوحيد لتأليف كتبي هو جعل إنجاز هذه الصلاة الصامدة أمراً ممكناً. عندما كنتُ في الخمسين، بدا لي أنَّ الوقت قد حان».

• **سيمون دو بوفوار، من كتاب *«ريعان الحياة»***

إذن ها أنا ذي في منتجع مولي الصحي، أواجه يوم مولدي الخمسين، شاعرة باكتئاب فظيع. لم أعُد الأكثر شباباً في المكان، ولا الأشدّ ظُرفاً. لن أكونَ أبداً مادونا أو تينا تيرنر أو جوليا روبرتس. وكائناً مَنْ كانت الشخصيّة المُفضّلة خلال الشهر في الوقت الذي يظهر فيه هذا الكتاب - فلن أكون مثلها أبداً. لقد كانت تلك قيَمي طوال بضع سنين - سواء اعترفتُ بهذا لنفسي أم لا - ولكن لم يعُد في استطاعتي أنْ أتحمّل تكاليف تلك القيَمْ.

في كل عام ينهال عليّ حشدٌ آخر من الجميلات في شوارع نيويورك. بخصور أنحل وشعور أكثر شُقرة وأسنان أكثر استقامة، وبطاقةٍ أكبر على المنافسة (وأقلّ سُخرية من العالم)، ومجموعة عام 1994، أو عام 1984 أو 1974، تحلّ محلّ مجموعتي بعناد لا يرحم - برنارد 63 - تفووه! ثلاثون ونيّف من السنين بعد التخرّج من الجامعة. معظم مُعاصريّ هم *grandperes* (أجداد) كما تقول ابنتي. ينهالون عليّ في الحفلات بصورٍ لأطفال، أطفال الأبناء والبنات.

بما أنني بدأتُ متأخّرة، فلم أحصل على أحفاد بعد، ولكن لديّ اثنين من أولاد قريباتي يزحفون في أنحاء لبنان، ولوزان، ومقاطعة ليتشفيلد. وأطفال أختي الأكبر سناً يُقرّبونني أكثر فأكثر من حالة الجدّة. إنني أُمثّل

الجيل الأكبر سناً الآن، ولستُ متأكّدة من أنني أحبُّ هذا. أحياناً تبدو الخسائر أوضح بكثير من الأرباح.

إنَّ الطاقة الهائلة التي تتمتع بها المرأة التي تجاوزت سن اليأس (كما وعدت مارغريت ميد) حاضرة، أما التفاؤل اللازم لتغذيتها فغائب. إنَّ العالم يبدو بشكل مؤكّد أكثر أنه واقعٌ في قبضة النزعة الماديّة والأشياء السطحيّة. إنه لا يرى إلا صور، صور، صور. ومن ناحية كوني صورة، إنني حتماً أُصبحُ ضبابيّة.

ماذا حدث لسنواتنا الخمس والعشرين من الاحتجاج على عدم رغبتنا في أنْ نُصبح نُسخاً من الدمية البلاستيكية باربي؟ ماذا حدث لغضب ناعومي وولف وهي تُحلّل أساطير الجمال، أو لجيرمين غرير وهي تحتفل بشراسة بالشيخوخة، أو غلوريا ستاينر وهي تبيِّن لنا كيف نتقبّل الشيخوخة بصدرٍ رحب ونتحول أخيراً إلى الداخل؟

هل قلقنا كله (ومحاولتنا تغيير ذاتنا) مجرد علف آخر تغذّيه برامج الحوار بينما ثقافة الشباب تطحن بلا رحمة؟ هل نحن مجرد حفنة من العجائز يتبادلن الأحاديث في حمّام البخار، لتُبهِج كلٌ منا الأخرى؟

إننا نكتب ونتحدث وتشدّ أزر إحدانا الأخرى، ولكنْ يبدو أنَّ الهوس بالجديد وبالشباب لا يتغيَّر. إنَّ عالمنا عالم صور فيديو متغيِّرة حقيقيّة أكثر ومؤثِّرة أكثر من الكلمات وحدها. وعصر التلفزيون قد حلّ، وأصبحنا نحن أهل الكلمة بقايا من الماضي عندما كان في استطاعة الكلمة أنْ تغيِّر العالم لأنَّ الكلمة كانت لا تزال تُسمَع.

أصبحتْ الصورة الآن هي كل شيء. وعصر الصورة هو دائماً الآن. ولم يعُد للتاريخ وجود داخل عَرض هذا الضوء الخفّاق.

تلك كانت بعضاً من أفكاري وأنا أتجوّل في أنحاء المنتجَع باليوركشير مع مولي، نقوم بأداء خطوات التنفُّس الهوائي، والـ aqua-trimming (حزام مطاطي للتنحيف يوضع حول الخصر)، والمشي السريع، وباقي طقوس تمارين اللياقة البدنيّة، وتجنُّب انعكاس صورتي

الخاصة في المرآة. كانت مولي تُخرجني من السرير بالقوة من أجل كل درس، وكنت أفقدُ المقدار نفسه من الوزن الزائد الذي أفقده دائماً (ثم أكتسبه من جديد)، أشرب الماء، أبخّر مسامِي، وأشعر باسترداد عافيتي - لكنَّ الكآبة تبقى. (كنتُ أواجه السؤال الأبديّ: هل أشدّ وجهي أم لا أشدّه - وهل أفعل ذلك قبل القيام بجولة كتابي التالي؟).

الأسوأ من يأسي بسبب انحداري الجسديّ المحتوم (وتساؤلي إنْ كان ينبغي أنْ «أُصلحه» أم لا) كان يأسي بسبب بلوغي منتصف العمر. قلتُ في نفسي، لن أدخل أي مكان بعد الآن وأقابل رجلاً جذّاباً يُغيِّر حياتي. وتذكّرتُ العلاقات المجنونة التي بدأَتْ بومض من العينين ودفقٍ من الأدرينالين، والاضطرابات التي تُفضي إليها حتماً. وبتجنّب الاضطرابات وتقبُّل الاستقرار، وبتخلّصي من ميلي إلى تدمير حياتي - إنْ صحّ التعبير - بعد كل سبع سنين، أدخلتُ السكينة إلى نفسي. كنتُ أسعى إلى التأمُّل، لا الملل. وإلى الحِكمة، وليس اليأس. وإلى الصفاء، وليس الركود. والطاقة الجنسيّة التي كانت دائماً تستدعي تأليف الكتاب التالي، روح المغامرة في حياة لا تعرف الاستقرار، بدأَتْ تبدو متهوّرة وحمقاء في سن الخمسين. أخيراً «استقررتُ» لكي أعتني بحديقتي. والآن كل ما أحتاج إلى فعله هو أنْ أُحدِّد مكان حديقتي وماذا أزرع فيها.

لأنَّ هذا، قبل أي شيء، هو السؤال، أليس كذلك؟ لا يمكنكِ أبداً أنْ «تُصلحي» الفناء والموت حتى وإنْ كان في استطاعتك أنْ تشدّي ذقنك وأكياس العينين. يمكنكِ أنْ تظهري بشكل حسن من الخارج، ولكن في الحياة الواقعيّة، تبقى الندوب. وينبغي للمشكلة الحقيقيّة أنْ تتعلّق بأنْ تكوني موجَّهة من داخلك في مجتمع يوجّهه الآخر بلا رحمة. وبتغذية روحك في وسطٍ ماديّ. وأنْ تسيري على وقع إيقاعك الخاص في وقت تحاول إيقاعات الروك البديل، والراب، والهيب-هوب أنْ تُغرقك.

إنَّ ثورو هو كاتبنا الأساسي في تعريف ورطة أميركا المركزية: «إياكم وكلّ المشاريع التي تتطلّب ملابس جديدة». في هذا، تُعتبَر النساء

المعاصرات وريثات ثورو أكثر من الرجال. وفلسفة بيل. و[1] Bill. W حول المُدمنين مجهولي الهويّة هي فلسفتنا الروحيّة الأساسيّة (سواء أكنّا مُدمني كحول أم لا)، لأننا دائماً في اشتياقٍ إلى الروح، نبحث عنها في كل الأماكن الخطأ (الخمر، المخدرات، المال، الملابس الجديدة)، وأخيراً لا نعثر على أنفسنا إلا بخسارة أنفسنا، بالتخلّي عن النزعة المادّية التي نشأنا عليها.

إنَّ الفناء هو المشكلة الأساسيّة، وليس شدّ الوجه. هل نستطيع أنْ نتقبّل الفناء، بل وحتى أنْ نحبّه؟ هل نستطيع أنْ نورِث معرفتنا إلى أطفالنا ومن ثم نموت، ونحن نعلم أنَّ الموت يُمثّل التسلسل الطبيعي للأشياء؟

هذه هي المشكلة التي أواجه مع كل بنات جيلي في سن الخمسين. لقد ارتطمنا بالفراغ الروحيّ في حياتنا. بلا روح، من المستحيل مواجهة الشيخوخة والموت. وكيف يمكن للمرأة أنْ تجد الروح في مجتمعٍ تكون فيه الهويّة الوحيدة الدائمة لها هي أنْ تكون مُستهلكة قبل أي شيء، حيث يُعيق كل كفاح من أجل تحقيق الاستقلاليّة والهوية الشخصية ما يُمليه منطق السوق - السوق الذي ما زال يرانا مُستهلكات لكل شيء بدءاً بالهرمونات وحتى القبّعات، ومن مساحيق التجميل إلى إجراء الجراحة التجميليّة؟

أتجول في أرجاء المنتجع مع ابنتي، وأنا أعلم أنَّ جسدي ليس هو المشكلة. المشكلة هي ما إذا كان لي الحق في روحي الخالدة أم لا.

حتى العبارة تبدو مُريبة. نساء؟ خالدة؟ روح؟ لا يمكنك أنْ تسمعي إلا صراخ السخرية. ومع ذلك فالتساؤل حول إنْ كان للنساء الحق في أرواحهن أم لا هو السؤال برمّته. إنها لا تتعلّق بالأزياء والموضة، وليست مسألة عصر جديد أو خطوات الإدمان الاثني عشرة. إنها جوهر التساؤل ما إذا كان مسموحاً لنا أنْ نكون بشراً بالكامل أم لا.

إذا امتلكتِ روحك، فلستِ مُضطرة إلى الخوف من الخمسين.

1- بيل. و: أو وليم غريفيث ويلسون (1895 - 1971): مؤسس جمعية المدمنين مجهولي الهوية لمساعدتهم على التخلص من إدمانهم - المترجم.

أعود بذاكرتي إلى زمنٍ هو بالضبط قبل عيد مولدي الخمسين بثلاث سنوات، عندما كانت ساعة الشيخوخة داخلي تتكّ بلا رحمة.

إنني على متن طائرة، عائدة إلى سويسرا لحضور حفل زفاف عشيق سابق، أصبح الآن مجرّد صديق. إنه وسيم من روما يصغرني بعشر سنين، ويوشك أنْ يتزوج من أميرة ألمانيّة أصغر منه بعشر سنين. أنا سعيدة من أجلهما، وفي الوقت نفس، أشعر بالوحشة. وهذا لا يعني أنَّ العريس وأنا ما نزال على علاقة حب، بل يعني فقط أننا تحدّثنا مُطوّلاً حول إلى ما ستؤول إليه علاقتنا (لأنَّ لا هو ولا أنا سنتزوج أبداً)، والآن هو يتزوج وأنا لا أفعل. أعتقد أنني لا أريد أنْ أتزوّج من جديد (وأنا على مشارف سن السابعة والأربعين). أنا حرّة. وحرّيتي مسألة مهمة إلى درجة أنني متورّطة مع علاقة ثلاثيّة عن بُعد مع إيطاليّ آخر لذيذ، علاقة ثلاثيّة أهليّة مع رجل لا يستطيع اتخاذ قرار بترك زوجته، وأنا أيضاً أقابل تشكيلة من الرجال يرتعدون من فكرة الالتزام مثلي. إنَّ حياتي سيرك اجتماعيّ، لكنني لا أستطيع أنْ أسترخي وأركن إلى السرير مع كتاب. سوف أحضر هذا العرس، على الرغم من أنني قد أُنكِر هذا، كالمعتاد، بحثاً عن الرجل المثاليّ. طبعاً أنا لا أؤمن بوجود الرجل المثاليّ. طبعاً أنا آمل مع ذلك في أنْ أقابله.

العرس يُقام في قاعة صغيرة في قرية في الجبال السويسريّة تبدو وكأنها تنتمي إلى ساعة حائط مع كوكو. يُوقّع العروس والعريس الجميلَين على الوثيقة، ويُعلنان تعهّدهما – العريس يقول (Si)، والعروس تقول (Ja) – وعلى الأثر يسقط القاضي الذي يعقد قرانهما على الأرض كتلة واحدة، ويتحول لون بشرته إلى الأزرق–الرمادي بسبب إصابته بنوبة قلبيّة مُفاجئة. ومن الواضح تماماً بالنسبة إليّ أنَّ القاضي قد مات *gestorben morto*. ويهرع الأقرباء للاتصال بنظام وحدة العملة الأوروبيّة ويُطمئن أحدهم الآخر بطريقة مسعورة. (على الأقلّ يُطمئن أحدهم الآخر بأنَّ القاضي سوف يكون على ما يُرام. والإيطاليون، من ناحية أخرى،

يُتمتمون بغموض *Maledizione, Maledizione* (أعوذ بالله، أعوذ بالله).

سرعان ما تهرع سيارة الإسعاف دون فائدة إلى المستشفى حاملة جثّة القاضي التي لا يمكن إحياؤها، ويشق حضور حفل الزفاف البسيط، الصامت، طريقهم في شوارع البلدة التي يكسوها الثلج لإقامة استقبال في الشاليه الأنيق الخاص بأمّ العروس. شربوا الأنخاب، وقرعوا كؤوس الشمبانيا. وأنكر الأقرباء الألمان حدوث أي شيء، وظل الإيطاليون يعصرون أيديهم ويقبضون على عورتهم لإبعاد العين الشريرة.

خيَّمتْ الكآبة على العرس بسبب ذلك الحادث - على الرغم من إنكار الجميع. لكنَّ الطفل الذي يولَد بعد مرور الأشهر اللازمة جميل وأشقر، كامل من النواحي كلها. والعروس والعريس سعيدان مثل كانديد وكونيغوند[2] في هذا العالم الأسعد بين العوالم الممكنة كلها. لقد غطى الموتُ الحياةَ بمسحة من الكآبة، لكنَّ الحياة تستمرّ.

على مائدة عشاء العرس، الذي أُقيم في قصر مُخصَّص للصيد ضخم جداً لكنّه بسيط ويخصّ أقرباء آخرين للعروس، جلستُ إلى جوار شاب عابث وسيم من موناكو، وميلانو، وباريس ولندن، يُحاول، عندما يرى اسمي على بطاقة المكان، أنْ يُقدِّم لي عرضاً بارعاً: «أنتِ تؤلفين كتباً بذيئة. هلا تصرفتِ معي ببذاءة؟».

غاص قلبي بين أضلعي، وتولّتني الكآبة وسط الاحتفالات. إنَّ سُمعتي أشبه بنكتة قذرة، وأفضل أصدقائي تزوّج توّاً. وأُفرِطُ في الشرب، وأرقص بهستريا، وأُقبِّل العروس والعريس، ثم أغادر إلى الثلوج متّكئة على ذراع صديق مثليّ (أنا ضيف حفلته). سوف أستيقظ في الساعة الثالثة صباحاً في علّيته المُخصَّصة للضيوف، وأنا أعصرُ يديّ وأبكي.

في الصباح، كانت الأبخرة قد تلاشت، بدَّدتها أشعة الشمس المُسلَّطة على الثلوج. أمضي بسيارتي خلال جبال الألب مع صديق، ونتوقف في

2- بطلا مسرحية «كانديد» لفولتير - المترجم.

مطعم يُقدِّم سمك التروت لكي نأكل ونتحدّث، وأخيراً نمرّ ببحيرة كومو وبميلانو ونصل إلى البندقيّة، حيث ينتظر عشيقي.

وكما يحدث دائماً، الجنس الذي نمارسه هو تبديد ساحر للوقت، وتغمرني السعادة على مدى ثلاثة أيام. نجلس في قاربه نتهادى فوق مياه البحيرة، نراقبُ سراب مدينة البندقية يطفو فوق مستوى المياه. ونتضاجع في أوقات غريبة، وأماكن غريبة، متجنّبين أقاربه. ثم نفترق، على وعد بالاجتماع معاً «ذات يوم». (سوف أشتري القصر المُجاور لقصر زوجته، وسوف يقوم بزيارتي في الصباح وفي المساء - عبر نفق تحت أرضي، كما نفترض).

لكنَّ نعيم حياة صديقي القديم الجديدة غيَّر المعادلة. طبعاً أنا في حاجة إلى روحي لأواجه بها سن الخمسين، ولكن ألا أحتاج أيضاً إلى شريك أو صديق؟

يمكنني طبعاً أنْ أستمرّ بضع سنين أُخَرْ في استعارة الأزواج. هناك دائماً عددٌ وفير منهم متوفر للاقتراض. ولكن ليس هذا هو المهم. قد تكون لدي منازلي الخاصة، وأرصدتي المصرفية الخاصة، وابنة رائعة، وقدرٌ من التحكُّم في مستقبلي، لكنَّ الحقيقة هي أنني أشعر بأنني أنجرف في العالم. لا أستطيع أنْ أتحكَّم في التقدُّم في السن، ولا في مصير كتبي. وأشعر بالوحشة. قد لا أحتاج إلى زوج، لكنني حتماً أحتاج إلى صديق.

وللمرة الأولى في حياتي الراشدة أجد نفسي أفكِّر في زواج أبويّ. أشعرُ بالحنين إليه وكأنه زواجي أنا. لقد كان والديّ يُصبحان صديقَين في آخر النهار - يضحكان ضحكاً مكبوتاً في السرير ويقرأ كل منهما بصوت مرتفع للآخر في صحيفة ذا نيو يوركر. وبدا أنهما لا يملّان الضحك. أتذكّر سريرهما المغطّى بالكتب وأحاديثهما الحيوية التي تقطعها قراءات بصوت عال لشذرات من س. ج. بيرلمان[3].

3- س. ج بيرلمان (1904 - 1979): كاتب فكه. له مقالات ساخرة - المترجم.

أنا على مشارف سن الخمسين وليس لديّ مَنْ يقرأ لي وأنا في السرير. لديّ عُشّاقٌ ولديّ أصدقاء. لكنَّ الصديقَ الذي كان أيضاً عشيقاً تزوّج الآن. وهذا يُبرِزُ أكثر إحساسي بالوحشة.

لِمَ تشعرُ كل النساء المُستقلّات اللواتي أعرفهن بالوحشة؟ ولِمَ كل أصدقائي من الرجال يتزوّجون من نساء أصغر سناً؟ وأعود إلى نيويورك والجُرح الذي أصاب درع دفاعي نكأ فجأة. وعندما يريدُ صديقٌ أنْ يُقدّمني إلى صديق آخر، أُفاجأ بأنّني أقول نعم أقبل.

طبعاً بدأ كل شيء مع زواج والديَّ. كانت في السابعة عشرة وكان في التاسعة عشرة عندما تقابلا في جبال كاتسْكيل. كان من براونسفيل، وكانت من مرتفعات واشنطن. كان والده ووالدته يهوديَّين بولنديَّين يحملان اسماً ألمانياً: وايزمان. وكان والدها ووالدتها يهوديَّين روسيَّين من إنكلترا ويحملان اسماً روسياً: ميرسكي.

وقعا في شِباك الحب بسبب طبل. ولمّا اكتشف موهبتها في الرسم (مُعتقداً أنها ماكرة وحارة)، دعاها «لترسم طبله». ولمّا رأتْ أنه وسيم أزرق العينين وعازف جيد على الطبول، وافقتْ. رسمت طبله وتبادلا الغزل. ونال شرف مرافقتها إلى سريرها. ومع انصرام فصل الصيف، كان كلّ من إيدا ميرسكي وصمويل ناثانييل (سايمور) وايزمان قد قرّرا أنْ يتزوّجا. كانا صغيرين جداً وحلّ الكساد الاقتصاديّ.

قال لها والدها: «ماذا؟ تتزوجين من barabanchik (أي قارع طبول، بالروسيّة)».

وقالت له أمه: «أعتقد أنها تستغلك».

لكنَّ الغدد الحيوانيّة كانت أقوى مفعولاً من تحذيرات الأبوين. وتزوّجا في مبنى البلدية في 3 آذار، 1933.

سنواتهما الأولى كانت صعبة. كان يعمل طوال الليل في مصانع

صغيرة للمعلّبات - بال موزيت، وبال تاباران - ومكثَتْ هي في المنزل. وتعرَّضَ للتحرّش من العديد من المغنّيات ومن المُدمنات. كانت تُترَك وحدها حتى الساعات الأولى من الصباح، وتساءلتْ إنْ كانت قد ارتكبتْ خطأً. حينئذٍ كان والدها قد أصبح رسّام صور ذاتيّة مُزدهراً وفناناً تجارياً تُحيط به كوكبة من الزبائن المشهورين. كان مسقط رأس جدّي ميرسكي مشهوراً بالسجّاد الشرقيّ والخزَف العَظميّ وعاش حياةً بعيدة جداً عن تلك البلدة الروسيّة.

حتى خلال فترة الكساد الاقتصاديّ، كان والدا أمّي ثريَّين - على الرغم من أنَّ جدّي كان قد فرَّ من عهد فتوّة من الفقر المُدقِع في أوديسا وكانت جدّتي متزوجة، كالعديد من الجدّات، من شخص أدنى منها منزلة. فقد كانت ابنة جِراحيّ روسيّ وتاجر أخشاب، أُغويَ وتزوج، باللغة الروسيّة، في لندن، قبل قيام الحرب العظمى. وكان *والداها* يُديران متجراً للبقالة من الطرف الشرقي من لندن إلى أنْ أنقذتهما ثروة ابنهما الأكبر وتقاعدا وعاشا في مزرعته التي لا يعمل فيها في الريف. إذن كانت عائلة والدتي قد باشرتْ الارتقاء في مراتب العالم عندما تزوّجتْ موسيقياً مُعدَماً واضطرت إلى البدء من جديد.

وذات يوم، وهي غارقة في واقع كونها زوجة موسيقي جوّال مُعدَم، استيقظت من ذلك الواقع - كما فعلتْ جدّتي من قبلها. إنَّ زواج الشبّان ليس أمراً سهلاً. (بل إنه أشدّ صعوبة بالنسبة إلى الذين في منتصف العمر). مارستْ أمي الرسم، وعملتْ في مخزون بلومينغديل للفن المعروض، وفي تصميم الملابس والأقمشة، بينما حصل والدي على عمله الأول في عرض موسيقيّ في برودواي - بمناسبة *يوبيل* كول بورتر - حيث عزف مقطوعة Begin the Beguine مع الفرقة الموسيقية على المسرح.

وما زال يتفاخر قائلاً «لقد قدّمتُ تلك الأغنية».

كان النجاح يلوح في الأفق. ولكن عندما حملتْ أمي بمولودتها الأولى في عام 1937، قدّمتْ لوالدي إنذاراً: إما عالم الاستعراض أو نحن.

وتسأل «هل سبقَ أنْ أخبرتكِ عن والدكِ عندما جلب إلى المنزل عشرين فتاة استعراض وكان حملي في أواخره بأختك الكبرى؟ حسن، كانت الفتيات غاية في الجمال وكان حملي ثقيلاً جداً حتى أنني امتطيتُ درّاجتي في صباح اليوم التالي وقطعت المسافة كلها حتى ريفرسايد درايف، آخذة عهداً على نفسي أنْ أستمرّ في قيادة الدرّاجة إلى أنْ أفقد الطفل»، وتضحك، «كنتُ حاملاً في الشهر الثامن!».

لكنَّ الطفل رفض أنْ يسقط. تشبّثَ كتشبُّث قشريّات البحر بالصخور، كما يفعل الأطفال جميعاً. وأخيراً تركَ والدي العمل في مجال الاستعراض.

كيف يستطيع أيّ إنسان أنْ يختار بين الحبّ والعمل؟ (إنَّ النساء يُجبَرنَ على فعل هذا منذ قرون، وأخيراً اعترفنا باستحالة الاختيار). أنا أعلم أنَّ والدي جديرٌ بأنْ ينجح في أي مجال يُصمِّم على العمل فيه: كان عنيداً إلى تلك الدرجة. لكنَّ أمي رفضَتْ كونه موسيقياً جوّالاً عندما تخلَّتْ عن كونها فنانة مشهورة من أجل الأمومة.

عندما وُلِدَتْ أختي الكبرى، عادتْ أمي، المُرهقة من الجهد الثقيل الذي تبذله في تنشئة الطفلة، إلى منزل والديها المُريح. كان والدي لا يزال يعمل في الليل وأمي لا تزال تحظى بالعديد من المُعجبين.

وتسأل بفصاحة «كيف استطعت - أنا المرأة المتزوّجة مع طفلة - أنْ أحظى بكل ذلك العدد من المُعجَبين؟ لكنني فعلت».

أحدهم كان طبيباً - شخصاً لديه عمل حقيقيّ. وفكّرتْ أمي في الطلاق.

جاء شقيق أبي ليُعيد ملابسه إلى بروكلين.

قالت جدّتي (التي كانت قد فعلت الشيء نفسه بزواجها) لأمي: «لا تبقي معه إذا لم تكوني سعيدة. سوف أساعدك بكل طاقتي».

كُدتُ لا أولَد.

لكنَّ الغريزة الحيوانيّة سادت واجتمع والديّ من جديد. وأصبح سايمور بائعاً جوّالاً للحليّ الرخيصة. وحبلتْ إيدا من جديد. وولِدتُ في عام 1942.

في سيرته الذاتيّة «*سيارة أجرة عند الباب*»، يقول الكاتب في. س. بريتشارد «إننا نولد وما حدث قبل ذلك هو من قبيل الأساطير». وفي كتاب فلاديمير نابوكوف «*تكلّمي، أيتها الذاكرة*»، يتحدث عن عربة خالية من الركاب على شرفة منزل، في انتظار مولده. إننا نتعجّب من الأيام السابقة لخروجنا إلى الوعي لأنها، في الحقيقة، تتنبّأ بفنائنا (الذي يستغرق تصالحنا معه حياتنا كلها - هذا إنْ فعلنا أصلاً).

ماذا لو أنني لم أولَد؟ ماذا لو أنَّ تلك البويضة وذلك الحيوان المنوي لم يتقابلا أبداً؟ هل كان الوضع سيصبح أسوأ من الموت؟ أم أفضل؟ (إنني أندفعُ نحو الانعدام الختاميّ للذات - لذلك يُستحسن أنْ أبتَّ في هذا الأمر سريعاً. لم يعُد يتوفّر لدي من الوقت بقدر ما انقضى).

أتذكّر تلك الثغرة في زواج والديّ التي تزامنت مع تردّدي وتساؤلي إنْ كنتُ سأتجسّد. ناداني حبّهما - المتأرجِح كأيّ حبٍّ آخر - فأتيتُ إلى العالم طفلةً سقيمة، مع إسهال يُسبّب التجفاف، وورمٍ وعائيّ أحمر اللون على العنق وحساسيّة ضد الحليب.

في أيّ وقت وُلِدتُ؟ كثيراً ما سألتُ أمّي، رغبة مني في معرفة خريطتي الفلكيّة. (لقد ضاعت شهادة ولادتي. والمستشفى الذي وُلِدْتُ فيه أغلقَ أبوابه، والسجلّات لم يُعثَر عليها في أرشيف المدينة).

تقول «مَنْ يدري؟ كانت الحرب دائرة. وعدد الأطباء كان قليلاً جداً. والممرضة وضعت قناع التخدير على وجهي لتُخفي حقيقة كوني وَلَدْتُ قبل حضور الطبيب. عضضتُ يدَ الممرّضة! زَعقْتُ: لقد وُلِدتْ الطفلة! إياكِ أنْ تُخدريني!».

إذن وُلِدتُ وسط فوران حركة تحرير المرأة: وعضّت أمي المتوتّرة يد الممرضة، رافضةً المُخدِّر.

لا بدَّ أنني بدوتُ شنيعة.

وقد نُقِلَ عن والدي أنه قال حالما رآني «هل يجب أنْ نأخذها معنا إلى المنزل؟»، (إما أنني كنتُ قد وقعتُ عن المذود وحصلتُ على ذلك الورم الوعائي الشهير – أو أنني وُلِدتُ به. على أية حال، الجميع يوافقون على أنني كنت في حالة مُزرية).

تقول أمي «كل الأطفال الذين وُلِدوا في ذلك الجناح ماتوا متأثّرين بعدوى الإسهال».

«كلهم؟».

«أعتقد ذلك. لم ينجُ غيرُكِ – لذلك صمّمتُ على أنْ أحافظ على حياتكِ».

لا أستطيع أنْ أُثبتْ إنْ كان الوباء قد قتل كل طفل آخر أم لا. الأمر المهم هو أنّ أمي كانت – وما زالت – مُقتنعة بأنني كنتُ الناجية الوحيدة من وباء الأطفال.

حاول والدي، الذي كان جلياً أنَّ أمله قد خاب لأنه لم يحصل على صبي، أنْ يجعل مني صبيّاً، فعلّمني الضرب على الطبول، وكيف أُطلقُ النار على السِلال، وكيف أحتقر كل الحدود الأنثوية. وبقيتُ وقتاً طويلاً أعتقد أنني صبي يرتدي ملابس فتاة. وعندما أشارت تحليلات متنوعة لاحقة إلى شيء يُدعى «حسد القضيب»[4]، رفضتُها، وقلت إنَّ لديّ قضيباً **فعلاً**. فلِمَ الحسد؟

تقول أمي «لقد أحببتُكِ أكثر لأني جاهدتُ كثيراً لأُحافظ على حياتك». ومن ثم تحكي لي من جديد حكاية العائلة القديمة عن الحليب الخالي من اللاوكتوز الذي جرى البحث عنه في أثناء نوبات العمل الليليّة وكيف أنني «كدتُ أموتُ جوعاً» وكيف أنها أحبّتني على الرغم من الورم الوعائي القبيح قرمزيّ اللون – الذي انكمش بصورة مُعجِزة حتى اختفى خلال الشهرين الأوّلَين، تاركاً طفلة ورديّة اللون كتّانيّة الشعر.

4- يقول فرويد إنَّ الأنثى تحسد الذكر على قضيبه – المترجم.

تقول «حالما أصبحْتِ جميلة، لم أعدْ آبه، لأنه كان ينبغي أنْ أحبّك فقط لأُبقيكِ حيّة».

أختي الكبرى، سوزانا (شوشانا ميريام، المُلقّبة بـ«نانا» تيمُّناً باللفظ الخطأ لأحد الأطفال)، كانت كاملة الأوصاف عند ولادتها: مستديرة، صهباء الشعر، لامعة العينين. بينما خُلقْتُ أنا بطّة قبيحة - لكنني تلقّيتُ حباً أكثر لهذا السبب - أو هذا ما تقوله الحكاية.

كنتُ دائماً أسخر من هذه الحكاية وأنا أصغر سناً، أما الآن فإنني أُصدِّقها. إنَّ الرغبة العارمة في المُحافظة على حياة طفلة أمرٌ هائل. إنها تُغطّي على كل اعتبار آخر. وحافظ شغف أمي ونوبات عمل والدي في منتصف الليل على حياتي. هذا من حُسن حظ أبوَيّ لأنهما عثرا على طبيب أطفال مُناهِض للتقاليد القديمة.

كان الدكتور أوبري مكلين اسكتلندي شرس تجرَّأ على احتكار تجارة الحليب. قبل خمسين عاماً من وقته أعلنَ أنَّ لديّ حساسيّة ضد حليب البقر، وجعلني أتغذّى على الحليب المُخمَّر والكبد النيِّئ المفروم. ومهما تبرَّزتُ، كان ينبغي أنْ آكل وآكل؛ في النهاية لا بدّ أنْ يعلق بعض الغذاء. كان يأتي يومياً لكي يتفحّصني، ويجلس مع أمي يناقشان شؤون الأطفال، والحياة، والقَدَر، ومدى كراهيته للمؤسسة الطبيّة مما تسبّبَ في طرده بسبب آرائه الليبراليّة. وكان أيضاً سكّيراً.

يقول والدي «لقد أنقذَ حياتك. إنه على قدرٍ كبير من الأهميّة. أو ربما كان فقط عاشقاً لأمك». كيف لنا أنْ نعرف ذلك؟ يا دكتور مكلين، كائناً ما كنتَ: شكراً لك.

بما أني ولدتُ في وقت الحرب لعائلة كبيرة على الطريقة الأوروبيّة - أبواي، وأختي، وجدّاي لأمي اللذان يتكلّمان الروسيّة (لم يُعلّماننا الروسيّة أبداً لكي يُصبح لديهما لغة سرّية) - أتذكّر ألعاباً مُبكِّرة مثل «الهرب من النازيين» أو جدّتي وهي تغسل يديَّ بصابون عاجيّ لإزالة آثار «الألمان». وهكذا دخلت الحرب إلى عالم طفولتي. وأتذكّر أنني

كنتُ أُبلِّل سريري ليلاً عن عمد لكي أنتقل إلى سرير والديّ، وأنا بينهما في ذلك المكان الأكثر أماناً في العالم - أُفرِّقُ بينهما وأجمع بينهما. وأتذكّر أنني كنتُ أنظر عالياً إلى سقف غرفتهما لأشاهد استعراض الأضواء الموشوريّة - كنتُ أسمّيها «البقول والجزر»، وأقصد بذلك شذرات لون الأخضر والأحمر داخل جدران جفنيّ عندما أُغمِضُ عينَيّ من جديد في سريرهما الكبير الدافئ.

لقد سمّى الشاعر ديلون توماس هذا المخلوق الخفّاق «الغاوي تحت الجفن». أهذا الغاوي هو ما يصنعُ شاعراً؟

إنَّ ذكرياتي عن الأيام الأولى قليلة، وكلّها بصريّة. وربما أتذكّر أنني كنتُ داخل عربة، تدور خلال متنزّه، أنظر عالياً إلى عدد هائل من الأوراق الخضراء وهي تمزّق الضوء. لا شيء يُضاهي سعادتي وأنا أنظر عالياً إلى أوراق الأشجار، وأتخيَّل أنَّ لهذا صِلة بشعور مُبكِّر بالحيوية والنشاط الطفوليين. أوراق الأشجار في المتنزّه، والوهم البصري الذي تُثيره حجارة آجر صغيرة مُثمَّنة الشكل في غرفة الحمّام، التي بدا أنها تشكّل قمعاً داخل عالم آخر كما علِمتُ فوق مقعدي على عرش غرفة الحمّام وحدّقتُ إلى أشكالها المتغيِّرة على الأرض - هذه هي الذكريات الأشدّ حيوية التي أحملها.

مع حلول عامي الثاني، كنّا نقيمُ في شقّة تكرَّر ظهورها في أحلامي كلها - كانت على الطراز القوطي الجديد تشكّل الطوابق الثلاثة العليا من مبنى يقع في 44 غرب الشارع سبعة وسبعين، قبالة متحف التاريخ الطبيعيّ. انتقلنا إلى هناك من قرية كاسل في مرتفعات واشنطن في عام 1944، وبقينا فيها حتى عام 1959، حين انتقلنا إلى قصر مُخمِّر، بيرسفورد، على الجانب الشمالي من المتحف.

إنَّ ذكريات طفولتي عن المنزل هي في وقت واحد مُخيفة وفخمة. المبنى الكائن في الشارع السابع والسبعين كان قد بُنِيَ من أجل الفنانين في بداية القرن، والمُحترَف يدخله النور من الشمال. يبدو أننا كنا دائماً نسعى إلى الضوء الشماليّ، كنبات غريب ينمو ملتوياً ليبلغ الشمس.

الشقّة التي أتذكّرها ربما ليست الشقّة الموجودة اليوم - اليوم هي أرقى مما كانت عليه خلال عهد طفولتي في الأربعينيات. كانت رؤوس الأسود تحفّ بإطار موقد غرفة الجلوس. وكانت غرفة الطعام مكسوّة بألواحٍ خشب قاتمة وتماثيل قوطيّة وتواجه فناءً. وكان المطبخ يحتوي موقداً قديماً يعمل بالغاز له غطاء ومغسلة من الزنك. غرف النوم كانت تمتد على طول رواق ملتو. وردهة حجريّة، بحواف خشبيّة على الطراز القوطي، مفتوحة على رواق حجريّ حيث تستدعي مصعداً مكسوّاً بالخشب ويضمّ مرآة ويبدو خشبه الملتوي أشبه ببوم منتصف الليل شبه مختفٍ في أشجار منتصف الليل.

كان سقف غرفة الجلوس شديد العلوّ ومكسواً بشيءٍ يُسمّى «رقائق الذهب». (في ذهني الطفولي، تخيّلتُ أنه حصاد من أشجار ذهبيّة). وأربعة مصابيح تبدو من صناعة مدينة البندقيّة كانت تتأرجح من مربعاتها الذهبيّة المُعتِمة. والنوافذ الأماميّة كانت تواجه المتحف بواجهتها الحجريّة البُنيّة وبُريجاتها المخروطيّة الشكل والخضراء. والنوافذ الخلفيّة ترى الفناء المُشمس والحدائق غزيرة الخُضرة التابعة للجمعيّة التاريخية في نيويورك ولصفّ قصور الحجر الكلسي في الشارع السادس والسبعين. وفوق غرفة الجلوس كانت شرفة، يتدلّى من حاجزها أقمشة ملوّنة على الطريقة الباليّة رُسمَ عليها شياطين شريرة يرقصون بشكلهم الجانبيّ. وأعلى من ذلك بمطلَعَي دَرَج كان مُحترَف بابا (جدّي)، مُزوّداً بباب سِحريّ، وسقفٍ مُدبَّب نحو الأعلى كقبَّعة الساحرة، وثمة نافذتان ضخمتان - واحدة تقابل جهة الشمال (ذلك الضوء الثابت الذي يسعى إليه الفنانون)، والأخرى تقابل جهة الجنوب (وضعها شديد التغيُّر، ولذلك فهي مُعتِمة بمظلات سميكة خضراء اللون ومُزوّدة ببكرات).

مُحترَف بابا، الممتلئ بأدوات الفنانين - أقنعة جصّيّة (لوجوه بيتهوفن، وكيتس، وفولتير)، وجمجمة حقيقيّة، وهيكل عظميّ حقيقيّ، ونُسخ لأحصنة سلالة تانغ الحاكمة - كان ملاذاً ومكاناً مُخيفاً. كان

يفوح برائحة زيت التربنتين وزيت الدهان، وكأنه غابة مسحورة. لكنَّ أقنعة موت بيتهوفن وكيتس، والهيكل العظميّ والجُمجمة، أضفتْ على المكان جواً مُخيفاً. ولا يمكن أنْ ترغب في أنْ تكون هناك وحدك ليلاً.

كل عام في عيد كل القديسين، يتحول المُحترَف إلى موقع لرواية قصص الأشباح ومصّاصي الدماء. فتُضاء الجمجمة بشمعة، ويُغطّى الهيكل العظمي وقِناعا الموت بقطع من القماش الأبيض كأعضاء عصابة كلو كلوكس كلان العنصريّة، ويضع بابا رسماً لجمجمة أخرى (ليوريك ربما؟)[5] على حامل اللوحات القديم المُلوّث بالدهان (الذي كان قد رافقه في أسفاره إلى إدنبرغ، وبريستول، ولندن قبل سنين عديدة في أول عهد هجرته إلى العالم الجديد، ومن جديد هرباً من قرعة الخدمة العسكريّة كما كان قد هرب من الخدمة الروسيّة عندما كان فتى مراهقاً في أوديسا). إننا نظنّ أنَّ حياتنا فريدة من نوعها، لكنَّ قِوى التاريخ ترفعنا عالياً ثم ترمي بنا أرضاً. لقد فرَّ جدّي (كما فعل جدّك أنت وأنت) من أوروبا فنشبت الحروب.

كانت أمي تحكي قصة دراكولا - جاعلة إياها أكثر دمويّة - وينكمش الأطفال خوفاً واستمتاعاً بسماعهم عن اللّا موتى، والأنياب، والفتيات الشاحبات الممتقعات من اللقاءات الليليّة.

في أيام العمل العاديّة، كان جدي دائماً يرحّب بي كي أرسم إلى جواره. كان يُعدّ لي رقعة كَنَفَا صغيرة (كان دائماً يقوم بفخر بشدّ رقعته)، ويُعطيني صفيحة إضافيّة مملوءة بالألوان المائعة، كقرمزي أليزارين، والصِباغ الوردي، وأخضر الزبرجد، وأزرق الكوبالت، وأصفر الكروم، والبُنّي المُصفرّ، والأبيض الصينيّ، ويضع حاملين للكؤوس من المعدن، واحداً من أجل زيت بذر الكتّان، وواحد من أجل التربنتين، في ثقب إبهام رقعة الألوان. ويقول بابا «لا تُعكّري الألوان»، وهو يُعطيني فَراشِيَ

5- يوريك: هناك شخصيتان روائيتان شهيرتان في الأدب الإنكليزي تحمل اسم يوريك، المهرج في مسرحيّة «هاملت» لشكسبير؛ وشخصيّة أخرى في رواية «تريسترام شاندي» للورنس ستيرن.

من شعر السمّور والخنزير معاً. ثم أباشر الرسم إلى جوار جدّي، تغمرني السعادة القُصوى، منبهرة برائحة التربنتين وبصوت ضربات الريشة. ويُصفّر بابا أغانٍ شعبيّة روسيّة وأغاني الجيش الأحمر وهو يعمل. كان يمكن للشارع السابع والسبعين أنْ يكون أيضاً ضفّتي نهر الدنيبر.

كان بابا صارماً في أداء المهامّ. فإذا «عكّرتُ الألوان» أو لم أتعامل مع الرسم بجديّة، يثور غضبه ويُطاردني وأنا أهبط الدرَج شاهراً العصا التي يتكّئ عليها، ويسوط الهواء. ولم يضطر أبداً إلى ضربي. كان هدير صوته كافياً لبثّ الرعب في نفسي. وقد قرأتُ بذهول كل تلك الكتب عن سِفاح الأطفال وسوء معاملتهم، وأعلم أنَّ هدير صوت جدّي هو من فئة سوء المعاملة. ما أشدّ فظاظة تبليغي أنّه لم يعمد أحد إلى إساءة معاملتي في طفولتي. ما عدا من الناحية النفسيّة. كان ذلك كافياً.

كان لدى جدّي مُحترَف، وكان لدى والدي مكتب، لكنَّ أمي كانت تضع حامل اللوحات القابل للطيّ متى وأينما استطاعتْ وكرهتْ هذا بمرارة. في تلك الأثناء، كانت جدّتي تحكم المنزل، تلاحق خادمتنا الجامايكيّة، أيفي، لتتيقّن من أنها تُتقن أداء عملها.

كانت إيفيانا بانتون هي المرأة النشطة من منطقة الهند الغربيّة التي تُدير شؤون منزلنا (عندما تدَعُها جدتي تفعل). كان ظاهر يديها قويّاً ومرناً وأسود اللون وكفّاها لونهماورديٌّ رائع. أحببتُ رائحتها، وأسلوبها في الكلام على طريقة أهل الهند الغربيّة ما زالت تغوي أُذنيّ.

كانت أيفي قبيحة، ولها كيس دهنيّ كبير على أنفها، تنبتُ منه شَعرَة، لكنها كانت تنبض بالحيوية وقويّة. وقد تعلّمتُ في وقتٍ مُبكّر أنَّ كون الإنسان حيوياً وقوياً أشدّ أهميّة بكثير من كونه جميلاً.

على الرغم من التحليل الكافي لدعم بلد صغير، إلا أنني كبتُّ كل ذكريات طفولتي عن أمي. أنا أعلم أنها تعبدني وتكره أنْ تعبدني معاً، وكان ينبغي التخفيف من مقدرتها القُصوى على التطايُر كسموم تنزل من حنفيّة المنزل، وقد أحببتُها أكثر من حبّي للحياة وكنتُ أيضاً أرتعبُ من تحوّلها.

كانت أختي الكبرى غالباً ما تعاملني بعنفٍ جسديّ، تلوي ذراعي إلى أنْ أقع على الأرض وأنا أتلوّى من الألم. وكانت أيضاً تُعذّبني بـ«ربح» ساعة يدي الذهبية في ألعاب الورق، وتُحرجني أمام صديقاتي. هناك امرأتان أساءتا معاملتي معظم فترة طفولتي، لكنَّ ذاكرتي لا تحتفظ بأي شيء منها. ومع ذلك، أخلصُ إلى قول إنَّ مزاجي التصالحي، وميلي إلى إخفاء غضبي حتى عن نفسي، ثم انفجاره بعد ذلك بسنوات، أو استخدامي قلمي لأُسمِّم به الأقارب، لا بدّ أنه نتج من سنوات من طغيان المشاعر المنسيّ.

لا شكاوى. الجميع يحتاجون إلى شيء لتشكيل شخصيّة مُعقّدة. كان الطغيان هو القوة التي خلقتْ لديّ حبّ الحريّة، ودعمي للمُضطهَدين، وشغَفي بحقوق الرجل - والمرأة.

عندما وُلِدَتْ أختي كلوديا في عام 1947، تغيَّر وضع العائلة برمّته. أصبحتْ هناك فجأة «طفلة». فجأة أصبحنا داخل الزيادة الكبرى في المواليد بعد انتهاء الحرب وأصبح والدي ثرياً - أو هكذا بدا. فجأة أصبح الوالدان يفعلان أشياء كالطيران إلى هافانا أو جامايكا لقضاء عُطل فصل الشتاء أو إلى لندن وباريس لقضاء عُطل فصل الصيف. فجأة أصبحت هناك مُربّية لأطفال لن تدعني ألمس الطفلة الوليدة لأنني أُصِبْتُ بعدوى القوباء الحَلَقيّة من صديقتي العزيزة القطة.

العودة إلى المنزل من روضة الأطفال مسافة بدا كأنها الأبديّة، لقد نفتني مربية الأطفال من غرفة الأطفال. ودمّرتْ المُتطفلة الصغيرة حمراء الشَعر - أختي - حياتي. كان الجميع يُثيرون الجَلَبَة حولها. أمي تستلقي على السرير كسيدة لا عمل لها، وجدّاي انتقلا إلى شقّة مُجاورة (نُفيا أخيراً لأنَّ والديَّ جرى تحليلهما الآن وكبرا على أفكار وسط أوروبا الرجعيّة تلك كما يحدث للعائلات المتوسّعة). وتغيّرتْ الحياة تغيُّراً شاملاً. وأشدّ ما أتذكّر وقوفي داخل مغطس، رافعة ذراعي المُضمَّد بالشّاش وأمي تغسلني بخرطوم المياه، أرادتْ أنْ تنتهي مني بسرعة لكي تهرع إلى «الطفلة». الطفلة الملعونة - كم جعلناها نانا وأنا تعاني. كنا

ندثّرها بالملابس حتى تكاد تختنق ونُجبرها على الجلوس في عربة الدمية، ونجرّها إلى داخل خزانة الملابس، التي كانت لا تزال الكهف الذي نلجأ إليه هرباً من النازيين، لأنه على الرغم من أنَّ الحرب كانت قد انتهتْ، إلا أنها لم تكن قد انتهت في تفكيرنا. وهناك، كنا نأكل شطائر الزبد وصلصة التفاح والسكّر الناعم (على أساس وصفة وردتْ في رواية لبوث تاركينغتون كانت أختي تقرأها). كنا نختبأ هناك ونتهامس، ونخرج راكضات إلى المطبخ لجلب المزيد من الذخيرة عندما يخلو الشاطئ.

كانت كلوديا تبتسم بعذوبة وتتحمّل سوء معاملتنا كلها. لقد كانت «الطفلة»، وكانت تعرف مكانتها. واليوم تُخبرني كم كانت تمقتنا. وهذا لا شيء مُقارنة بمقتنا لها لمُجرّد أنها وُلِدَتْ. وفي الوقت الذي كنّا نتردّد فيه إلى المدرسة، كانا يأخذانها إلى جزر الكاريبي لتستمتع بأشعة الشمس. وعندما كنا نُترَك مع الماما والبابا، كانت هي تبقى مع إيدا وسايمور. كانت، بيننا نحن الثلاث، هي الوحيدة التي تخاطب والديّ بمامي ودادي. وكرهناها أيضاً من أجل ذلك. لقد بدا والديّ لنا أنا وأُختي الكبرى أشبه بطفلَين بصورة غامضة. وبدا جدّاي كأنهما والدايّ الحقيقيّان. ربما لهذا السبب كان يجب نفيهما.

عندما بلغت سن الثامنة، وبلغتْ أختي الكبرى الثالثة عشرة، وأُختي الصُغرى الثالثة، أبحر جدّاي إلى باريس، آملَين في أنْ يعثرا على باريس الفنانين التي عرفها والدي في شبابه. كان قد أقامَ هناك كطالب فن روسي فقير قبل أنْ يتزوّج، يقتات على الموز الذي كان يمدّه به مُحسِنٌ يهوديّ مُحبّ للفن – ربما كان روتشيلد – أو هكذا جرت حكاية العائلة.

يقول والدي «أراد ميرسكي أنْ يرحل من دونها. اعتقدَ أنَّ في استطاعته أنْ يترك الماما معنا».

تقول أمي «لكنني رفضتُ. كيف جرؤ على أنْ يتوهّم أنَّ في استطاعته أنْ يُعيد عهد شبابه؟».

أبحر الجدّ والجدَّة على متن الباخرة ***«موريتانيا»***. وضمّت دفاتر

مُربّعة بيضاء وسوداء من الورق الصقيل سجل ذلك اليوم المصيريّ: أنا وكلوديا نتسابق حول متن السفينة مرتديتان معطفينا التشسترفيلد الإنكليزي، وقبعتين مناسبتين، ونلبس قفازات للأطفال؛ نانا النسخة المُراهقة من إليزابيث تيلر، عابسة، متجهّمة، تتمدَّد على أحد مقاعد الباخرة المتناسقة وتنفثُ دخاناً وتوسِّع منخريها أمام عدسة آلة التصوير.

لا بدّ أنّ والديّ شعرا بأنهما قد تحرّرا وشعرنا نحن بأننا منبوذتان. أما الجدّ والجدّة، فيمَ كانا يُفكّران بحقّ الله؟ كيف يمكن لباريس عام 1951 أنْ تفشل في أنْ تُخيِّب أمل فنان غادر مونبارناس في عام 1901؟ فهو لم يعُد شاباً ولا عزباً، ولم يعُد يحبّ الموز. لقد أصبح الفتى الروسي-اليهودي من أوديسا عالِماً بالأمور (أو على الأقلّ يعرف مانهاتن). فكيف يعود في الزمن؟ وقد اتّضحَ أنه لا يستطيع. لقد اشتاق هو وجدّتي إلى حفيداتهما كثيراً. وبرهنتْ باريس على أنها ليست بديلاً لنا. وبعد مرور ستة أشهر، أبحر الجدّان عائدَين.

تبع ذلك شجار عنيف. أراد الجدّ والجدّة أنْ يعودا لينضمّا إلينا، ولم يقبل والداي (وطبيباهما النفسيّان) ذلك. لقد كان الجدّ والجدّة عتيقَي الطراز وينتميان إلى عصر ما قبل فرويد ولم يفهما ذلك كله، ولم يبْرأا أبداً من الأذى الذي أصابهما. ووجدتْ لهما أمي مكاناً في ويست سايد (مع ضوء شماليّ)، على مسافة قصيرة، لكنَّ الجدّ والجدّة لم يُسامحاها. ولم يُسامحا أيضاً باريس لأنها تغيَّرتْ خلال خمسين عاماً. كان من المُفترَض في الزمن أنْ يتوقف. للأسف، لم يفعل.

إذن أنا في الخمسين والجدّ والجدّة توفّيا. غداً سوف أخرج لأتناول طعام الغداء مع أبي لأتبيَّن كم كنتُ مُخطئة في هذا الفصل الافتتاحيّ.

-2-

كيف كان والدايَ «وكل ذلك الهراء الشبيه بقصة ديفيد كوبرفيلد»

«إذا أردتَ فعلاً أنْ تسمع حكايتي، فربما أول ما قد ترغب في معرفته هو مكان ولادتي، وكيف كانت فترة طفولتي التعسة، وكيف كان والدايَ مشغولَين وكل شيء عنهما قبل أنْ يُنجباني، وكل ذلك الهراء الشبيه بقصة ديفيد كوبرفيلد»

• ج. د سالنجر، من رواية *«الحارس في حقل الجودار»*

«محظوظات نحن البنات المولودات في عائلات طموحات، واسعات الاطّلاع، التي لم يولَد لها أبناء...»

• تالي أولسن، من كتاب *«صمت»*

إنه يوم خميس واتّفقتُ مع والدي على موعد على الغداء من أجل إقرار *«كل ذلك الهراء الشبيه بقصة ديفيد كوبرفيلد»*.

يقول والدي «إنَّ والدتك لا تتذكّر أي شيء، ولكنَ أنا أتذكَّر».

الآن، يجب أنْ تعلم أنَّ والدي من النوع الذي لا يتناول طعام الغداء

معي وحده لأنه يعتقد أنَّ أمي قد تشعر بالغيرة. فإذا تقابلنا خلال أيام الأسبوع - وهذا قد يحدث مرة بعد مرور سنين عديدة أو ما شابه - نتناول وجبة غداء سريعة في مطعم صغير قذر كزانيَين على عجل. ولكن هذه المرة التاريخ له أهميّة. فوالدي يُبدي اهتماماً تملّكياً بعملي الأدبيّ - بكل شيء؛ بدءاً بنقل الكتب في أرجاء مخازن الكتب (بحيث تُخفي رواية *«الخوف من الطيران»* أو *«فاني»* آخر إصدارات ستيفن كينغ، ودانييل ستيل، أو جون غريشام)، وانتهاءً بالاشتراك في صحيفة ***بيليشرز ويكلي*** (وتقديم تقرير قلق عن آخر صيحات التخفيضات الشديدة)، وعصر يديه بسبب مقالات نقديّة ضدّي.

ويسأل «لماذا يسمّونك كاتبة إباحيّة، يا عزيزتي؟»، وفي الواقع، كان أحياناً يُشير إلى عبارة ساخرة فاتتني. إنني أحاول أنْ أتجنّب قراءة المقالات النقديّة - جيدة كانت أم رديئة - وكان والدي، باهتمامه القلِق، قد لفت انتباهي في الواقع إلى المزيد من المقالات المغمورة.

ويسأل كما فعل النبي يعقوب «لماذا، لماذا، لماذا؟». إنَّ المَطهَر بالنسبة إليه هو أنْ يكون لديك ابنة تقسو الصحافة في انتقادها مرة كل حين. عند هذه النقطة، أعتقد أنه يتألَّم أكثر مني. فإنني أرغب في أن أستدعي كل النقّاد وأقول: «اسمعوا، إنَّ أبي في الحادية والثمانين وهو رجل لطيف - ترفّقوا به». (هذا ما كان طلّابي في كليّة سيتي في الستينيات وأوائل السبعينيات يفعلونه معي: «إذا منحتني علامة متدنية فسوف تُصاب أمي بنوبة قلبيّة. بالإضافة إلى أنَّ الأمر سينتهي بي في فيتنام». مناشدة خاصة. وغالباً ما تنجح).

إذن تقرَّرَ أنْ نتقابل في صالة عرض والدي عند الساعة العاشرة والنصف. لكنَّ الأمطار تهطل غزيرة في نيويورك، لذلك يستغرقُ من سيارة الأجرة لقطع المسافة بين الشارع التاسع والستين والشارع الخامس والعشرين قُرابة أربعين دقيقة، وكعادتي، أصلُ متأخّرة.

والدي يرقص في أرجاء صالة العرض بكثير من الإثارة والنزق،

رغبةً منه في أنْ يقابلَ طاقمُ الإدارة الابنةَ المشهورةَ. يأخذني في جولة في «الخط الجديد»: دُمى «أثريّة»، طاسات من الخزف وأباريق شاي على شكل نبات القرع والباذنجان، وأطباق مُزخرفة على شكل زهرة عبّاد الشمس والهليون، والورد، والبصل. وتمرُّ سنونٌ بين تلك الزيارات لصالة العَرض، وأنا دائماً أنبهِر بما يصنعه والدي وصهري - أشياء مُثيرة للفضول كصناعة الكتب من صفيحة ورق بسيطة وقلم حبر. يا لغرابة الطريقة التي يجني بها الناس المال في أميركا! في فترة الكساد الاقتصادي كان في وسع قارع طبول أنْ يُصبح مليونيراً من صُنع دُمى «أثريّة» ويبيعها عبر قناة دكان المنزل في التلفزيون. أي بلد آخر يتباهى بمثل هذه التفاهات؟ في أميركا يمكنك أنْ تغيِّر الطبقات الاجتماعيّة بسرعة كبيرة، لأنه في أميركا لا توجد حقاً طبقات اجتماعيّة - ولكن سأناقش هذا في فصلٍ تالٍ.

وأُبدي إعجابي بما صنعه أبي وأُحيّي طاقم عمله؛ ثم ننطلق لتناول وجبة الغداء في مطعمٍ لوجبات الغداء في مبناه - تتألّف من شطائر لحم الديك الرومي وكوكا كولا للحمية.

والدي أزرق العينين، نحيل، بل شديد النحول، وما زال وسيماً. يبدو في نحو الخامسة والستين. حسن، يبدو في الخامسة والسبعين. ولكن ليس في الحادية والثمانين. (كيف يبدو المرء في الحادية والثمانين؟) أساس حياته الفيتامينات والتمارين الرياضية. اكتشفَ فيتامين C قبل لينوي بولينغ، وبيتا كاروتين قبل هاري ديموبولوس، ويبوح لي بأنَّ السر يكمن في «الاستمتاع بالجوع».

لقد أعدَّ وثيقة لأجلي، مُدركاً جاذبيّة كتابتي سيرة ذاتيّة، لكنّه اتّصل بزوجي خِفية ليقول: «إنني أُقدِّم لإريكا كل هذه المعلومات. وآمل في ألا تُخطِّط لاستخدامها». إنَّ هذا وضعٌ نموذجيّ لخليط الرسائل الذي يسود في عائلتي.

ها أنا أُقدِّم نسخة عنها، حرفياً:

المستشفى. تقع حالات وفاة عديدة في غرفة الحضانة نظراً لكثرة الإصابات والإسهال. عند الولادة كان لديكِ بالون كبير ممتلئ بالسائل - أعتقد أنَّ اسمه هايغروما. قال الدكتور أوبري ماكلين إنه سوف يجري امتصاصه ويختفي. ولكن لم تستطيعي الاحتفاظ بالطعام في معدتكِ - كانت أمك تُغذيك على امتداد 24 ساعة - بنوع من العصيدة الكثيفة أجبرتكِ على ابتلاعها. وكانت تُجبرك أيضاً على ابتلاع لحمٍ نيء مفروم. كانت نجاتك مسألة دقيقة جداً. كان الدكتور أوبري، الذي طُرِدَ من مستشفى أطفال الكنيسة المشيخيّة بسبب معالجته غير التقليدية للأطفال المرضى، يأتي في كل يوم ليفحصك. كان الحليب ممنوعاً. لكنَّ إنتاجاً جديداً من الحليب ظهرَ. (كنتُ أُحضِّر مقدار زجاجتين كل يومين). وأصبحتِ أقوى لأنَّ مقدار الطعام الداخل أكبرُ مِنَ المُصَرَّف. وبعد مُضيّ قُرابة ستة أشهر استقرّ الأيض عندك وزاد وزنك. وتم هضم محتوى بالونك ثم اختفى.

في سن السنتين كانت العائلة تخرج بالسيارة كل أسبوع لتناول الطعام في أحد المطاعم ويدور الكثير من الحديث. وتصرخين «هذه ليست سيارة للحديث، يا ناس»، ومن ثم تستمرين في حديث مع نفسك عن المشهد العام. عندما نمرّ بدير في أثناء عبور المقاطعة تسمّينه القرد[1].

كانت لعبتك المُفضّلة في المطعم هي تشكيل ركام من الملح على الطاولة، ومن ثم تُمرّرين إصبعك بعناية على شكل دوائر وتُبدعين عملاً فنياً جديداً يُدعى «الزاد». هذا الإبداع ظهر في المطعم عندما لمحتِ مِرشّة ملح مملوءة.

عندما كان عمر أختك كلوديا حوالي السنتين أخفيتها أنتِ وأختك نانا داخل خزانة وهي تصرخ بصورة غامضة «الألمان قادمون!».

---

1 - تقصد السخرية من تشابه لفظَيّ كلمتَيّ Monastery (دير) وMonkey (قرد) - المترجم.

في عمر السادسة أو السابعة كنتِ تلعبين مع صديقاتك في سنترال بارك فاختاركِ مُنتجٌ طموح من محطة NBC لتكوني راقصة بالية صغيرة. وظهرتِ على محطة NBC بثوب رقص أسود اللون للمرة الأولى كراقصة باليه طفلة.

في أول رحلة لكِ عَبْرَ البِحار على متن السفينة ليبرتي أعددْتِ حقيبةً ضخمةً وملأْتِها بأحمر شفاه بالألوان كلها، والرذاذ، والبودرة، والمراهم، ومُجعّدات الشَعر، حتى انتفختْ كحقيبة عيّنات هيلينا روبنشتاين.

أتذكّر جنين الخنزير الذي أحضرته إلى المنزل من الدكتور بارنارد - مع المبضع وكل شيء. وسرعان ما بادلتها بأقلام الرصاص وورق. وبحركة واحدة وسريعة خسرنا طبيبة وكسبنا كاتبة.

ردّة فعلي على هذا؟ الارتياح لأنني لم أخطئ كثيراً في فهم التفاصيل. والتعجُّب من السبب الذي دعا والدي إلى كتابة هذا كله إذا لم يكن راغباً في استخدامه.

لكنني أيضاً فوجئتُ بأنَّ الأمر كلّه يحكي عنّي وليس عنه. لقد افترضَ أنَّ حياته ليست لها أية أهميّة وكل ما أردتُ أنْ أسمع كان كيف تطوّرتُ من طفلة تُحدق بها الأخطار إلى جنين الخنزير الذي أنهى أحلامي في دراسة الطب. وأردتُ أنْ أُجري معه حديثاً عن حياته. لكنه لم يقبل.

لذلك أبدأ باستجوابه وكأنه شخص غريب عمّن عُيِّنتُ لكتابة مقالة عنه. ويندمج والدي بسهولة في اللعبة. ويُحبّها. وهو يُفنّد الأقاويل.

كيف كان شكل بروكلين بعد أنْ كبرتَ؟

كانت تعمّها الحدائق والأفنية، وكان الناس ينتقلون من الحي الشرقي

السفلي وكأنهم ينتقلون إلى الريف. كانت الأنفاق جديدة وكانت براونزفيل تُعتبَر خطوة نحو الارتقاء.

هل كان الجميع يهوداً؟

تقريباً 90٪ كانوا من اليهود، و10٪ إيطاليين.

وماذا عن والديك، ماكس وآني - ماذا تتذكّر عنهما؟

أتذكّر والدي يجلب أعمال الخياطة إلى المنزل ويتمعّن في بنطلون. كان يؤدي عملين، سرّاً. كان الجميع يقومون بعملين أو ثلاثة. كان هناك ستة أطفال! كان يقوم بمناوبات من أجل جني المزيد من المال. وكانت أمي دائماً تراقب الطبخ وتضربنا بعنف عندما نمرّ بها. أتذكّرُ هذا ونصيحتها عندما أصبحتُ أكبر سناً: «إيَّاكِ أنْ تُبدِّدَ حياتَكَ في القلق». القلق! يا لها من كلمة! كانت في كل يوم تُهدِّد بالقفز من النافذة. وفي كل يوم أعمل على إقناعها بالعدول عن ذلك. كان هذا عملي بوصفي الابن الأول. ومرة كل أسبوع كانت تصل رسالة من ألمانيا أو بولندا أو كائناً ما كانت حدود البلد. ويقوم والدي بقراءتها بصوت مرتفع على مسمع من والدتي بلغة اليديش. لقد وصلت من بلدة صغيرة. أظن أنها من مكان يُدعى تشيكوير. كان والداي يعيشان في عالمين - براونزفيل وتشيكوير. وأعتقد أنَّ تشيكوير كانت حقيقيّة أكثر بالنسبة إليهما.

متى بدأتَ تهتم بالموسيقى؟

كان سامي ليفينسون هو الذي عرَضَ عليّ نوعاً مختلفاً تماماً من الحياة. كان قد تلقّى دروساً في الموسيقى، على آلة كمان أماتي. كان يعزف الطبقة العالية باعتدال. وأنفقَتْ عليه عائلته ليدرس. كان والدي يتوقّع مني أنْ أُحضر نقوداً إلى المنزل. كنتُ أتلقّى درساً في مدرسة

نيويورك للموسيقى - وهي مكان مؤقَّتْ أغلقَ أبوابه لاحقاً. درس واحد! وبعد ذلك، أصبحنا نشترك في حفلات - أعراس، احتفال بلوغ، والأعراس الذهبيّة. قال والدي: «ها قد بدأتَ تكسب لقمة عيشك، فلِمَ تُبدِّد نقودك على الدروس؟» (وأخفى أيضاً أوراق انتسابي إلى كوليج سيتي. وبعد ذلك بسنين، علِمتُ بهذا وتولّاني الحنق). كان يحتاج إليّ لأساعد في إعالة العائلة. لم يفهم أهميّة الدراسة. في الأعراس الذهبيّة، كنا نعزف كل الموسيقى المبتذلة: «فقط حديقة تحت المطر» و«آه كم رقصنا يوم زفافنا». وقرَّرت ألا أرتاد الأعراس الذهبية أبداً. فضّلتُ الموت على ذلك. رقصات روسيّة - دائماً رقصات روسيّة - خاصة في الأعراس. كانوا يرقصون الكازاتشوك إلى أنْ يسقطوا من التعب.

كيف وقعتَ في هوى عالَم الاستعراض؟

عندما كنتُ مع سامي في المدرسة الثانوية، كان لا يزال هناك مسرح منوَّعات. ثمانية. ثمانية عروض [يكتب ذلك على فوطة]. عندما بدأ إنتاج شوكولاتة هيرشي بالبندق بدأوا يَلجؤون إلى أدوات وأفكار جديدة. كان المُفترَض أنْ يكون هناك دولار في كل عشرة قوالب شوكولاتة - وهكذا كنا نبيع الحلوى وكأنها لم تعُد رائجة. ولم يكن هذا صحيحاً - طبعاً. والدولار لم يكن يظهر أبداً، لكنَّ الناس سُذَّج فيما يتعلَّق بهذه الهدايا المجانيّة. كانوا يُصدِّقونها. إذن كنا نتسكَّع أمام المسرح الاستعراضي ونحصل على خمسين سنتاً مقابل كلّ دولار نبيعه. صفقات جيّدة.

لِمَ نصحتني بألّا أقتدي بالكلاب؟

لأنه في المسرح الهزلي لا يمكن التنافُس مع الكلاب والأطفال الصِغار. أيضاً، هو موقع قذر في البرنامج - الوسط. يجب أنْ تحتلّي الموقع الأخير - أو الأول. إياك والوسط. وبقيَ مسرح المنوعات على امتداد حقبة العشرينيات. وكانت النكات الساخرة سخيفة بصورة

لا تُصدَّق حتى بمعايير تلفزيون هذه الأيام. لكنَّ القاعدة بقيَتْ: هناك نكات ساخرة، وكلاب، وساحر، وعرض تعرِّي، والنجم اللامع. فإياكِ أنْ تقتدي بالكلاب. على أي حال، أنا كنتُ دائماً في الفرقة الموسيقيّة.

لِمَ غيّرتَ اسمَك؟

عندما كنتُ في العشرين من العمر، انضممتُ إلى الاتّحاد - المحلّي 802. بدا سايمور مان وفرقته الموسيقيّة جيدين - ولكن كان هناك أيضاً سببٌ آخر. كان هناك محتال يُدعى إيزي وايزمان في الاتّحاد متورّط في فضيحة من نوعٍ ما. لذلك لم يكن وايزمان اسماً حسن السُمعة يمكن قبوله في الاتحاد المحلي 802. وأعجبني جرس اسم سايمور مان وفرقته. حينئذٍ لم تكن السِمة اليهوديّة بارزة في عالم الاستعراض. ثم تحوّل اسم كوهين إلى كينغ. وموسكوفيتش أصبح موسّ. وروبينوفيتش أصبح روسّ. وغولدفيش أصبح غولدوين. لم يكن التمييز العِرقيّ قد ساد حينئذٍ.

أين قابلتَ إيدا؟

في مكانٍ يُدعى يوتوبيا في جبال كاتْسكيل. كان حقاً يُسمّى يوتوبيا (مدينة فاضلة). كان مُنتجعاً عائلياً يقع بالقرب من إلينفيل في «الجبال». كانت أمُّكِ تلبسُ رداءً من المخمل الأسود (في منتصف الصيف) وتجرّه معها في حقولٍ من أزهار الربيع وبراز البقر. كانت فنّانة - بوهيميّة جداً.

سألتُ، مُستخدماً أشدّ ما كنتُ أعرف من العبارات ابتذالاً، «ماذا تفعل فتاة جميلة مثلُكِ في مكان قذر كهذا؟». وحسبتُ أنها سهلة المنال لأنها كانت تنام في الغرفة نفسها التي يُقيم فيها مالك المكان. ولكن اتّضحَ لاحقاً أنه لم يلمسها - في الحقيقة، لم يتمكّن من ذلك. شكّلتْ تحدّياً له. على أية حال، كانت ترسم لوحات جداريّة، لذلك طلبتُ منها أنْ

ترسم طبلي. وربط بيننا حبٌّ مجنون. وبعد انقضاء فصل الصيف، صرت أقوم بزيارتها مرّة في الأسبوع، سالكاً النفق الممتد من بروكلن إلى منطقة ريفرسايد درايف العليا. كان أبي وأمي دائماً يتركوننا وحدنا. وانتهزنا فُرَصاً لا تُصدَّق. أعتقد أنني قلت لها إني أُحبّها للمرة الأولى ونحن في الطبقة العليا من حافلة مفتوحة في الجادّة الخامسة. أتعلمين أنه كانت هناك حافلات مفتوحة في الجادّة الخامسة؟ كنتُ أعملُ في محل بولز رانديفو مع فرقة موسيقيّة من خمسة أعضاء وأيضاً كنتُ أحاول بصورة ما أنْ أذهب إلى جامعة نيويورك ليلاً. لم يكن في طاقتي أنْ أدفع سبعة دولارات مقابل كل علامة. (كما قلت، لم أكنْ أعلم أنني قُبِلتُ في سيتي كوليج). كان ماكسويل بودنهايم[2] يأتي عادة إلى محل بولز رنديفو لكي يُلقي الشِعر في مقابل المشروب: «يأتي الموت كأحجار كريمة سقطتْ في حقيبة من المخمل...». هذا ما أتذكّر منه. تزوّجنا في عام 1933 لأنَّ قانون تحريم الخمر كان قد أُلغيَ ورأينا أنَّ العمل سيزداد في النوادي. ونُصِّبَ روزفلت رئيساً في شهر آذار. وكان الناس يُعانون الجوع: باعة التفّاح في الشوارع، وهوفرفيل[3] على النهر. وشقّتنا الأولى كانت تقع في الشارع الثاني والعشرين بين الثامن والتاسع. داخل نُزُلٍ مزوَّدٍ بمغطس للاستحمام موضوع في منتصف المطبخ. كنا نحصل على امتياز شهرين على الإيجار وننتقل حالما تنتهي مدة الامتياز. وبتلك الطريقة أقمنا في أماكن عديدة. في وقت من الأوقات أقمنا في الشارع 118 وفي ريفرسايد درايف – وفرحتُ لأننا كنا في جادة واحدة مع جورج غيرشوين. كان الموسيقيّون يعملون من الساعة الثامنة وحتى فقدان الوعي. كانت إيدا تقابلني ونمشي حتى المنزل ليلاً في أعلى برودواي ونتناول الإفطار في مطعم نيديك. جو رومانسي. وكانت تعمل طوال النهار في عرض

2- ماكسويل بودنهايم (1893 – 1954): شاعر أميركي، ساهم في تطوير الشِعر الأميركي الحديث – المترجم.

3- هوفرفيل: بلدة من الأكواخ بناها العاطلون عن العمل والمُعدمون خلال فترة الكساد الاقتصادي في أميركا خلال حقبة الثلاثينيات – المترجم.

مخزون الفن في معرض بلومسديل. كان عليها أنْ تأخذ اللوحات معها إلى المنزل، لذلك بدا أنها صفقة جيدة. لم نكن ننام أبداً. ثم، عندما بلغت الرابعة والعشرين، في عام 1935، حصلت على أوّل فرصة كبيرة. فقد أعدّ لي ميكي غرين الوكيل - لا تستغلّي اسمه، إنه ما زال حياً - جلسة استماع مع كول بورتر من أجل *اليوبيل* - وحصلت على العمل. ومنذ ذلك الحين وأنا أعمل.

فماذا حدث؟

كانت أمّك تكره عالم المسرح الاستعراضي. الساعات الطوال، فقدان الأمان. كانت أفضل فنانة في مدرسة الفن لكنها لم تنل جائزة بري دو روم لأنها لا تُمنَح للإناث. أيضاً، كانت هناك تلك المنافسة الشرسة مع جدّك. وكرهتْ اتحاد الموسيقيين - الذي كان منحرفاً حينئذٍ ويحتاج إلى هزّات عنيفة. أيضاً، عندما وُلِدَتْ أختك نانا انتقلنا إلى جدّك وجدّتك لنحصل على بعض المساعدة في تربية أختك.

ولكن ألم تشتق إلى عالم الاستعراض؟

كنتُ أشتاق إليها أكثر. كان يجمعنا حبٌ حقيقيٌ. لم أكنْ لأُنجِز أي شيء من هذا من غيرها. وأمك عاشت حياةً صعبة. لم تعرف والدها إلى أنْ بلغت سن الثامنة، في الحقيقة، لأنه ترك العائلة في إنكلترا عندما كانت في الثانية من العمر وأختها كيتي لم تكن قد أكملت سن الثالثة. هرب من التجنيد في إنكلترا. كان اليهود دائماً يهربون من التجنيد. لِمَ يموتون من أجل قيصرٍ مُعادٍ للساميّة؟

هل كنتَ قد وقعت في الحب قبل ذلك؟

أوه، كانت هناك فتاة في المدرسة الثانوية - ولكن لم يكن الأمر جديّاً.

كنتُ في التاسعة عشرة عندما قابلتُ أمك. كان الزواج مسألة جديّة، كان التزاماً. والطلاق كان أمراً غير وارد. لا تظنّي أننا لم نواجه مشكلات. واجهنا. لكنَّ الطلاق كان أمراً مُستبعداً.

وماذا كان رأي والديك فيها؟

جاءت أمي إلى يوتوبيا لكي تتفحّصها. قالت «انتبه - تلك الفتاة تستغلّك» [يضحك].

وماذا كان رأي والديها فيك؟

لقد اعتبرا أنني لستُ صالحاً بالقدر الكافي، لكنهما بقيا يتركاننا وحدنا في الشقّة.

ألم يُزعجك ترك مجال المسرح الاستعراضي في الوقت الذي بدأتَ تنجح فيه؟

لقد ألَّفتُ بعض الأغاني نُشِرَتْ، لكنني كنتُ أعلم أنني لا يمكن أنْ أُجاري كول بورتر أو لورينز هارت. أو إرفينغ برلين. أو غيرشوين. كان أولئك سادتي. اسمعي - كنتُ مستعداً لبيع روحي مقابل أنْ أؤلِّف شيئاً يُعادل «الجبل النضر» أو «أليسَ هذا رومانسياً؟»، لكنَّ كل ما استطعتُ إنجازه كان «صندوق الموسيقى الصغير والوحيد».

من أين استمدَدْت الثقة في النفس لحضور تجارب الاستماع، أو لتكون بائعاً جوّالاً؟

كنتُ دائماً أُخفي خوفي عندما أخرج لتقديم نفسي. توقّعتُ أنْ أشعر بالخوف، لكنني تعلّمتُ ألا أدعه يُسيطر عليّ. الجميع يشعرون بالخوف. وفي حفل *اليوبيل*، سوف يشرب أكبر النجوم الخمرَ من قوارير من الفضّة قبل أنْ ترتفع الستارة. كانت الفوضى تشيع بينهم. كان الخوف

أمراً متوقَّعاً، مُنتظَراً. لم يكن عادياً ألّا تشعري بالخوف. لكنك تستمرين في كلِ الأحوال. وعندما تخلّيتُ عن مجال الاستعراض وأصبحتُ بائعاً جوّالاً، لم أتوقَّعِ الفشل. وعندما باشرتُ هذا العمل وعرِفتُ كيف أكسب المال، لم أتوقَّع أنني لن أكسبه.

إذن ما أشدُّ ما تفخر به في حياتك؟

بأنني منحتكِ ما لم يتمكن والدَيَّ من منحه لي – الثقافة.

ولكن ما أشدّ ما تفخر به من أجل نفسك؟

تقصدين هذا. لا يمكن الفوز في مواجهة بنات أقوياء لهنّ آراؤهن الخاصة ولا يمكن فرض أزواج عليهنّ – ولكن يمكن جعلُهُنّ يتثقّفن. يمكن فعل هذا على الأقلّ. إذا أردْتِ أنْ تلتحقي بمجال الطب الآن – سوف أسمح لك.

شكراً، أبي. لكنني أتذكّر جنين الخنزير من بارنار. كنتُ أُشكِّلُ تهديداً بذلك المِيضع وكاد المُخدِّر يرميني أرضاً.

ربما اختلف شعورك حياله الآن.

ما زلت تودّ أنْ تراني طبيبة، أليس كذلك؟

اسمعي، أنتِ كاتبة ممتازة، لكنّكِ في حاجة إلى وكيل علاقات عامة. النجاح كله يكمن في العلاقات العامة. وعلاقاتك العامة سيئة جداً. انظري إلى مادونا، إنها ليست موهوبة، لكنَّ علاقاتها العامة عظيمة. لِمَ لا تستشيرين وكيل ديلا فيمينا؟ سوف ينفحك بالنصيحة.

إنه رجل دعاية، يا أبي، وليس وكيل علاقات عامة. وهو صديق قديم لي، لكنَّ العلاقات العامة ليست في مجال عمله.

إنَّ العلاقات العامة من اختصاص الجميع هذه الأيام. وعلى أحدهم أنْ يتولّى أمورك. ماذا عن حقوق الفيلم السينمائي؟ لماذا لم يُنجِزوا ذلك الفيلم؟ الكتب رائعة، ولكنْ مَنْ يقرأ الآن؟ أنتِ في حاجة إلى أكثر من الكتب لصنع مُستقبل مهنيّ.

يبدو أنني لستُ محظوظة كثيراً في مجال الفن الاستعراضي. كلما أراد أحدهم أنْ يُحوّل أحد كتبي إلى فيلم سينمائيّ أو مسرحيّة، أُبدِّد سنين عديدة من حياتي وينتهي بي الأمر إلى التورُّط في مشكلة قانونيّة. إنني لا أُحسِن التواصُل مع أهل هوليوود. إنهم لا يتكلّمون لغتي، أو ربما أنا التي لا أُحِسن التكلّم بلغتهم. إنهم لا يفهمون سبب تمسُّكي بالتفاصيل الصغيرة في كتبي - على غرار القصة أو الشخصيات - وأنا لا أفهم كيف يكسبون كل ذلك الكمّ من المال لمجرد كلامهم عبر الهاتف. ليس هناك انسجام.

هراء، كل ما في الأمر أنَّ علاقاتك العامّة سيِّئة.

إذن قمنا بالرحلة التي دائماً نقوم بها: منه إليّ. وبما أنني الجزء منه الذي من المُفترَض أنْ أخرج وأغزو عالم الفن الاستعراضي، فهو ينتقدني، كما ينتقد نفسه. إنني أتحمّل عبء أحلامه وهو يستمرّ في دفعي وحثّي، ولا يخطر في باله أنني أعتبرها نقداً. في إحدى المرّات، عندما بدا أنَّ أحد كتبي لم يلقَ الرَّواج المتوقَّع له، صرختُ في وجهه عبر الهاتف: «عليك أنْ تحبّني سواء أكنتُ على لائحة الكتب الرائجة أم لا!». وأعتقد أنَّ الرسالة وصلته. لم يحدث قبل ذلك قطّ أنْ فهم والدي أنّه عندما كان يُحاول دفعي قُدُماً، كنتُ أشعر بأنّه ينتقدني. ولكنْ لا حيلة للآباء في ذلك. إنهم يرون بوضوح تامّ ما يمكن لأولادهم أنْ يُصبحوا، وهم مؤهَّلون جداً في هذا المجال. قد أفعل الأمر نفسه مع ابنتي- أدفعها، أحثّها، أُبيّن أنني لستُ راضية عنها، بينما الحقيقة هي أنها بالضبط ما أريدُ لها أنْ تكون وأكثر: صريحة بينما أنا خجولة، هي

ثابتة وأنا رعديدة، وتفيض بالأحلام والطموحات، ولكن على طريقتها الخاصة. باختصار، إنها سهمي الموجّه نحو الأبديّة - لكنها لا ترى الوضع على هذه الصورة.

أبي، إنني كلما طرحتُ سؤالاً عنك، يتّبيّنُ لي أنك تتحدّث عنّي.

أحقاً؟ حسن، لطالما رأيتُ أنكِ سوف تفعلين ما لم أفعله أنا - وقد فعلتِ بصورة ما - كلّ شيء ما عدا مسألة العلاقات العامة.

كيف يمكن أنْ أشرح له أنَّ تقلّبات مسيرتي المهنيّة لا يمكن التخلّص منها بمجرّد «علاقات عامة». لقد كسرتُ قواعد غير مرئيّة له لأنه رجل: كتبتُ بصراحة عن الجنس، جعلتُ النساء يقمن بمُغامرات تشرُّد مُخصّصة للرجال، وسخرتُ من أبقار مجتمعنا المُقدَّسة. عشتُ كما رغبتُ، تزوّجت، طُلِّقت، وتزوجت من جديد، وطُلِّقت، وتزوجت من جديد وطلّقتُ من جديد - والأسوأ من ذلك، تجرّأتُ على الكتابة عن أزواجي السابقين! وهذا أشدُّ آثامي شناعة - ليس لأنّني فعلتُ هذه الأشياء، بل لأنني اعترفتُ بها كتابة. ومن أجل هذا أُعتبَرُ خارجة عن الأصول. لا يمكن لأي اختصاصي علاقات عامة أنْ يُصحِّح هذا الوضع! إنه ليس أكثر أو أقلّ من قَدَر نساء متمرّدات. في الماضي كانوا يرجموننا في الساحة العامة. وبصورة ما، ما زالوا يفعلون.

وما زال يودّ أنْ يُرسلني إلى مدرسة الطب! هل أعتبر ذلك إهانة أم مديحاً؟ وهل ينبغي أنْ أقبل عَرضه؟ إنَّ الكتابة ليست وسيلة سهلة لكسب لقمة العيش

ثم تأخّر الوقت - إنها حوالي الثالثة والنصف، ويجب أنْ نستقل الطائرة. والدي يُسدد الفاتورة ونمشي عائدَين إلى قاعة العرض. أستقل سيارة أُجرة وأتوجَّه إلى قلب المدينة، مع عدد هائل من الملاحظات المُبهمة وآلة تسجيل أدرِكُ أنها لا تسجّل أيَّة كلمة.

حسن. سوف أُعيد ترتيب تسلسل الحديث كما أفعلُ دائماً على أية حال، في كتابة الروايات. إنَّ كل شيء مُفبرك على أية حال. خاصة الأجزاء التي تبدو حقيقيّة.

أراجعُ هذا الحوار، وأخشى أنني جعلتُ والدي يبدو أشبه أكثر مما ينبغي بميل بروكس عمره ألفيّ عام. لكنَّ شيئاً آخر يظهر، شيء يبدو أنه فاتني عندما كنتُ أصغر سناً. لقد تخلّى كلٌّ من والديّ عن طموحه الفنيّ - تخلّى هو عن الموسيقى، وهي عن الرسم - لكي يبنيا عائلة ومجالاً للعمل معاً. واستغلّ العمل موهبتهما - موهبتها في التصميم والرسم وعرض الأزياء وبراعته في تخمين النزعات الشائعة وفي البيع. أصبح صنع الدُمى هو إنتاجهما المُشترَك، كبناتهما. كانت عملية قام بها أبي وأمّي. وفي ختامها لم يتبقَّ لكلِ منهما غير الآخر - وتسعة أحفاد - والكثير من المال. بالنسبة إلى أطفال وُلِدوا في فترة الكساد الاقتصادي، ومع والدَين يتكلّمان اليديّة والروسيّة، كادتْ تلك تكون معجزة. وزيادة على ذلك، كان ذلك مَثلَهما الأعلى في الزواج: الشراكة، الوسطيّة، وطبعاً، مشروع شيوعيّ - وِفقاً لُقدرات كلٍّ منهما، ولحاجات كلّ منهما. وفي النهاية لم يشعر أيٌّ منهما بأنه قد خُدِع. (الوسط قصّة أخرى). وتقبَّلَ كل منهما نجاح الآخر. لا تجد الكثير من مثل هذا الزواج في جيلي. ولا معي. وبلوغ ذلك مثَّلَ أصعب معركة في حياتي. لكنني أستبقُ قصتي. أولاً، يجب أنْ أخبرك عن أمّي.

ما أصعب الكتابة عنها وكم هو ضروريّ. من أين أبدأ؟ من الماضي أم من الآن؟ وهل أحكي القصة من وِجهة نظري أم من وِجهة نظرها؟ إننا مرتبطان بصِلة وثيقة بحيث من الصعب معرفة الفرق. إنني أقول لنفسي إنَّ أمي لن توافق أبداً على إجراء حديث معها، وأنها سوف تسخر من الفكرة بمرارة. (سوف يتَّضح أنني مُخطئة). لكنني أعتقد أنَّ خيبة أملها قبل كل شيء هي السبب في نجاحي. ثم إنها كانت تغار

مني وتفخر بي بقوة معاً. لقد صنعت مني كل ما أنا عليه الآن - مع سيئاتي وكل شيء.

متى فهمتُ حدود الأنثى للمرة الأولى؟ من أمّي. ومتى فهمتُ للمرة الأولى أنه مُقدَّر لي بصورة ما أنْ أصبح نسخة من أمي؟ في سن البلوغ. وحتى ذلك الحين كنتُ متحرِّرة في طموحي وفي حماسي. توقَّعْتُ أنْ أصبح الشاعرة إدنا سينت فينسنت ميلاي، ومدام كوري، وبياتريس ويب في نسخة واحدة. توقّعتُ أنْ أُمسك العالَم من أُذنيه وأهزّه إلى أنْ يقول، نعم، يا إريكا، نعم، نعم، نعم، نعم. والآن بتُّ أفهم أنَّ أمي كانت قد مرّت بالتجربة نفسها. ولكن بسبب الظروف التي مرّتْ بها، علِقَتْ في تلك التجربة وأنا لم أعلَقْ - وهذا أحد الأشياء التي حرَّرتني.

إنني أعود بعيداً، بعيداً، بعيداً في الزمن. أحاولُ أنْ أسمو بأساطير العائلة وبذكريات السينما الجماعيّة وأنتقل إلى عصرٍ أعرفه بشكل رئيس من حياة هنري ميللر - وليس من حياة والديّ - عصر الجاز، والانهيار الاقتصادي، والحانات غير المُرخّصة، وجوارب النايلون، وتحريم الخمر: عام 1929.

كانت أمي تدرس في مدرسة الفنون في الأكاديمية الوطنيّة للتصميم. سمراء بشعرٍ قصير وعينين بنّيتين واسعتين وفمٍ مُحكم الإغلاق، كانت أفضل واضعة تصاميم ورسّامة في صفّها وتتمتّع بكل المقوّمات لربح الجوائز الكبرى - بما فيها المنحة الجامعية الخارجيّة الكبرى - جائزة روما. كانت مُدرِّسة الفنون تقول للشبّان: «احذروا تلك الفتاة ميرسكي، سوف تتفوّق عليكم جميعاً».

كان هذا الكلام يُزعج أمّي ويُعذّبها لأنها كانت تعلم (لكنها لم تكن تعلم) أنَّ جنسها يمنعها من الذهاب إلى روما. وعندما فازت بالميدالية البرونزيّة وقيل لها - بكل صراحة (حينئذٍ لا أحد كان يشعر بالخجل من تبنّيه التمييز الجنسيّ) - إنها لم تفُزْ بجائزة روما لأنها، بوصفها امرأة، من

المتوقَّع أنْ تتزوج، وتحبل، وتَهدُر مواهبها، ثار غضبها. وذلك الغضب منحني القوة في الحياة – وأيضاً، من نواحٍ متعددة، أعاقها.

إنها دائماً تقول «أتوقّع من العالم أنْ يُمهّد طريقاً حتى باب بيتي. لكنَّ العالم لا يفعل هذا أبداً. بل يجب أنْ تجبريه على فعل ذلك».

كانت الحركة النسويّة في أوجها أيضاً في عصر أمي. كانت حقبة العشرينيات هي زمن الأمل بالنسبة إلى حقوق المرأة. لكنَّ تلك الحقوق لم تدخل في القانون. ومن غير القانون، لا تقوم لحركة تحرير المرأة قائمة. ووضعتْ أمي اللّوم على نفسها لـ«محاولاتها الفاشلة». لم تفكِّر أبداً في لوم التاريخ. وأنا لم أرغب في أنْ يستنزفني الغضب كما فعل معها. أردتُ طاقة الشمس، لا طاقة الليل. أردتُ الوفرة، لا النُدرة؛ والحبّ، لا الخوف. أحياناً أعتقد أنَّ أمي هي التي دفعتْ أبي إلى ترك مجال الاستعراض لكي يُنكِر ذاته كما فعلتْ هي. وإذا كان الأولاد سيقفون حجر عثرة في طريقها، فيجب أنْ يقفوا في طريقه هو أيضاً. لم تكن لتقبل دورها «الأنثويّ» كحاثّة. إنها لن تدعه يُصبح فناناً إذا لم تُصبح هي نفسها كذلك. لذلك فإنَّ تفاعُل الأم–الابنة هو موضوع لا أستطيع تفادي التطرُّق إليه إذا اضطررتُ أنْ أقول «كلّ ذلك الهراء الشبيه بقصة *ديفيد كوبرفيلد*». وقد دعم إحساس أمي بالإحباط معاً مناصرتي لتحرير المرأة وكتاباتي. لكنَّ معظم القوة كانت تنبع من غضبي ومن روح المنافسة عندي: أي رغبتي في التفوُّق عليها، وكراهيتي لاستسلامها لأنثويَّتها، رغبتي في أنْ أكون مختلفة لأنني كنتُ أخشى اعتقادي أنني أشبهها أكثر ممّا ينبغي.

لقد كانت صِفة المرأة فخّاً. إذا كنتُ أُشبهها أكثر مما ينبغي، فسوف أقعُ في الفخ الذي وقعتْ فيه. ولكن إذا رفضتُ قدوتها، فسوف أكون خائنة لحبّها. لقد شعرتُ بأنني مُخادِعة كيفما اتّجهتُ. وكان ينبغي أنْ أجد وسيلة لأشبِهها ولا أُشبهها في وقتٍ واحد. كان ينبغي أنْ أجد طريقة لأكون فتاة وصبياً معاً.

بهذه الطريقة قد أكون أَبْرَزَ مِثالٍ لجيل السوط الذي أنتمي إليه. ورموز الأمومة التي كانت لدينا لم يُساعدْنَنا في الحياة التي عِشناها. لقد لزمت أمهاتنا منازلهن، أما نحن فانخرطنا في الحياة. كثيراً ما كنا أول عضوات إناث في عائلتنا ينزلن في غرف الفنادق وحدهن، ويربّين الأطفال وحدهن، ويواجهن مشكلات الضريبة وحدهن، ويحدّقنَ إلى السقف الزجاجي وحدهن ويتساءلنَ كيف يمكن تحطيمه واختراقه. وكنا مُذنِبات، ولذلك متردّدات في حياتنا، لأنَّ العديد من أمّهاتنا لم يصلنَ حتى إلى ذلك الحدّ.

عندما أتحدّث إلى طالباتي في الجامعة، فإنَّ الموضوع الذي يخطر في بالي مرة بعد أخرى هو الإحساس بالذنب اتّجاه أمهاتنا.

إحدى طالباتي في كليّة بارنار قالت على وجبة عشاء صغيرة قبل إعادة الشمل أعددناها بمناسبة عيد ميلادنا الخمسين، «نحن جيل الساندويش»، وقالت أخرى «لقد عانى جيلنا لأنّه لم يكن لدى أمّهاتنا ما يصبين إليه في سن الخمسين»، وقالت أخرى «لقد كبحنا أنفسنا لكي لا نخسر حبّ أمهاتنا». واتفقنا على أنَّ «الرسائل مختلطة». رسائل مختلطة عن التنافُس وعدم التنافُس، عن كسب النقود وعدم كسب النقود، عن الحزم والخضوع. هذه هي العلامات المُميِّزة لعصر السوط.

أعتقد أننا كبحنا أنفسنا من أجل ولاء في غير محلّه لأمهاتنا. وبما أنهنّ لم يكنّ أحراراً بشكل كامل بحيث يتصرّفن بحزم، بقينا نحن مغلولات إلى حدودهن وكأنَّ هذه العبوديّة كانت برهاناً على الحب. (في الحقيقة، غالباً ما كنا نساوي بين العبوديّة والحب). في منتصف العمر، عندما شعرنا بسرعة وتيرة مرور الزمن، انتزعنا الشجاعة أخيراً لنتحرّر. أخيراً تخلّصنا من التناقُض الذي كان نصيب أمهاتنا – وحطّمنا الزجاج واخترقنا السقف داخل أنفسنا، لنصل إلى الحريّة الحقيقيّة.

إنَّ حركة تحرير المرأة الأميركيّة المعاصرة تدفع ثمناً باهظاً، في اعتقادي، لرفضها فرويد. وبتصنيفنا فرويد بأنه مع التمييز الجنسي لا

أكثر، ورمي مفهومه الثوريّ عن اللا وعي مع ميله إلى التمييز الجنسيّ، نخسر الأدوات نفسها التي نحتاج إليها لفهم ما يجري بيننا وبين أمّهاتنا. ومن غير هذا الفهم، من الصعب المُحافظة على ثبات حركة تحرير المرأة. إنَّ تيار التناقُض التحتي الهائل يُهدّدنا في كل إنجازاتنا. وبسبب إحساسنا بالذنب لنجاحنا حيث فشلتْ أمهاتنا، فإننا نُخرِّب أحياناً نجاحنا دون وعي منا، ونحن نوشك أنْ نتذوّق ثماره. وأخشى أنَّنا إذا لم ننظر إلى الأجيال من الناحية النفسيّة، فسوف يكون مصيرنا أنْ نعود إلى الدوران داخل دورة تحرير المرأة نفسها والحركة الرجعيّة مع تعاقُب الأجيال.

في عام 1929، عندما تخرّجتْ أمي من مدرسة الفنون وفشلت في نيل الجوائز التي تستحق، كان العالم على محور مُشابه بين جِدَّة حركة تحرير المرأة والأساليب القديمة المعتادة للشوفينيّة الذكريّة. لكنَّ الأفكار هي فقط مُجرّدات. إنها لا تدخل جسد الأمّة إلا إذا حملتها قلوب الكائنات البشريّة الفرديّة. وتلك الكائنات البشريّة ربّاها آباء جيل مختلف، بمجموعة مختلفة من الافتراضات. وكل شخص ينقل معه حرباً داخليّة بين الأجيال. ونتيجة تلك الحرب هي التي تُحدِّد إنْ كان العالم يتغيَّر وكيف.

إنَّ هذه الحرب، مع النساء، تتصف بقسوة خاصة. فالنساء يتطابقنَ مع أمهاتهن تلقائياً وبقوة، ولكنْ عليهنّ أيضاً أنْ يُصبحنَ أنفسهن. وإذا تصرّفَ كل جيل على عكس تصرُّف جيل أمّهاته، فسوف نستمر في الحصول على تعاقُب أجيال الدفاع عن حقوق المرأة والأجيال الرجعيّة التي نعرفها جيداً بصورة كئيبة. سوف نواصل السير على الدرب الصغير نفسه، دون أنْ نصل إلى أي هدف بل نظلّ ندور وندور.

إنَّ الأمهات يعمدْنَ إلى بثّ بذور تمرّدهن المكبوت في بناتهنّ. والنتيجة، أجيال متمرّدة تتبع أجيالاً هادئة، وأجيالٌ هادئة تتبع أجيالاً متمرّدة، ويبقى العالم على حاله دائماً. وفي اللحظة التي تعثر النساء على طاقاتهنّ الفكريّة أو الفنيّة، تتدخّل الهرمونات، جاعلة التوق إلى الحَبَل بالأطفال طاغياً. إذا تعلّمنا من أمهاتنا أنَّ الحَبَل بالأطفال يتغلَّب على

الإبداع، فسوف نتمرّد بألا نُنجب أطفالاً أو نتمرّد بجعل الحمل بالأطفال هو عملنا الإبداعي الوحيد. فلِمَ لا نكسر هذه الدائرة الشريرة ونصبح النساء اللواتي أرادتهن أُمهاتنا؟ لأننا نشعر بأننا لا نستطيع أنْ نفعل هذا من غير قتل أمهاتنا، وهكذا، عِقاباً لنا على أمنيتنا الإجراميّة، نقتل، بدل ذلك، الأمّ داخلنا.

في عشرينيات عمري، وبعد الفوز بمُعظم جوائز الكتابة في الجامعة بل وبعد نشر قصيدة أو اثنتين، مررتُ بفترة استعصاء موجعة. كنتُ أجلسُ على طاولة الكتابة أحاول أنْ أكتب ويجتاحني القلق عندما أتخيّل رجلاً يشهر مُسدساً محشواً يقفُ خلفي، على استعداد لإطلاق النار عليّ إذا كتبتُ بيتاً واحداً. كنتُ محظوظة لأنني خضعتُ لتحليل شخص ذكيّ وصبور بقدر كافٍ ليقودني إلى العثور على رابط بين الرجل حامل المُسدس وأمي الوهميّة، التي أرادتني أنْ أكتب وأرادتْ أنْ تقتلني لأنني أكتب. الأم في مخيّلتي شعرتْ بأنني خائنة للكتابة، على الرغم من أنَّ أمي الحقيقيّة التاريخيّة لم تشعر بذلك. لقد اضطُررتُ إلى خوض هذه المعركة بين نفسي وروحي لكي أكتب بيتاً من الشِعر. وبصورة ما كانت تلك المعركة تنشب مع كل كتاب أكتبه. وفي كل مرة يكون الحلّ هو نفسه: أحضري الشياطين إلى الوعي وقد يدعونك وشأنك فترة كافية لكي تخترقي الاستعصاء وتنتهي من تأليف الكتاب.

إنَّ الإبداع لا يطلبُ أقلّ من كل ما تملكين. وهذا يعني الكشف عن غضبكِ المُجرِم، عن الرامي البارع الكامن خلف طاولة الكتابة، والشياطين الداخليّة التي تُربكنا جميعاً.

كيف يمكن للإبداع أنْ يكونَ إلا قوة مُرعبة مملوءة بالمنعطفات غير المتوقَّعة؟ فإذا وهبتِ حياتك للإبداع، فإنّكِ تتخلّين إلى الأبد عن التعهُّد بأنْ تكوني فتاة عاقلة. سوف يؤدّي بك إلى أنْ تُفشي أسراراً عائلية خفيّة،

إلى متاهة لكي تواجهي المينوطور[4] بشجاعة وتستمري في إسكات الفنّانة داخلك.

إنني أتخيَّل أمي في التاسعة عشرة أو العشرين، تعاني من مثل هذا الإبداع الأنثويّ. لا بدّ أنها كانت تقول في نفسها «سوف أهزم الشياطين!». واختارت رجلاً قاسمها ما تحب. اختارت رجلاً أحبَّ فنّها. لكنَّ تخريب العالم أثّرَ بشكل ممتع على تخريبها لذاتها. إنَّ الفنّ صعب. يجب أنْ تدعمي نفسك. ومن الصعب على المرأة أنْ تدعم نفسها بنفسها عندما يُقال لها إنه من المُفترَض بها أنْ تدعم كل شخص آخر. إنَّ العالم يُقوّي شكوكك كلها. ثم يولَد الطفل والحاجة إلى كسب لُقمة العيش - وما لا تقتله الفرصة الفريدة، يجعله الحبُّ يباباً.

إنَّ تربية طفل تعادل عمل ثلاثة أشخاص بالغين بدوام كامل. لا أحد يُخبركِ بهذا وأنت حامل، وإلا لربما قفزتِ من فوق الجسر. لا أحد يُخبركِ كم هو مُهلكٌ أنْ تكوني أمّاً - كيف أنَّ القراءة تخرج من النافذة والتفكير أيضاً.

إنَّ هذا كله يفترِض أنَّ الطفلَ طبيعيّ وصحيح الجسم. فماذا لو أنَّ الطفل كان عليل الصحّة، أو جائعاً، أو ماذا لو كانت الأمّ هي كذلك؟ إنَّ كلّ أمٍّ في المُطلَق واجهتْ تلك اللحظة التي يُدير طفلٌ رضيعٌ فمَه النَّهم نحو ثديها وتعلَّم أنه ليس له غيرها.

أُصيبَتْ أمّي بالرعب وذهبتْ إلى جدّي وجدَّتي - بكل تنافسهما على التمسُّك وعنايتهما بالأطفال. لقد اختارت الدرب الذي يتطلب أقل مقاومة وكرهت نفَسها لفعلها ذلك. من الصعب أنْ تنفصلي عن والديك عندما تكونين أنت أيضاً أماً. إنَّ اتّكاليّة الطفل تربط المرأة بأمّها. وهكذا يضيع أحد الأجيال وسط حروب الجيل السابق. لقد انتقلت صراعات جدّتي إليّ عبر أمي. وقد أبدتْ جدّتي، بزواجها المُنهار من

4- في الأساطير الإغريقيّة: وحش برأس ثور وجسم رجل، حُفِظَ داخل متاهة في جزيرة كريت. كان يتغذّى على اللحم البشري، إلى أنْ جاء ثيسيوس وقتله - المترجم.

جدّي الاستبداديّ، وعمليات الإجهاض البربرية التي أجرتها على طاولة المطبخ وعذوبتها وتنشئتها الأموميّة اللتان لا تنضبان، إعجابها قبل أي شيء بصديقتها التي كانت طبيبة أسنان. ولطالما تكلَّمتْ عنها برهبة وبفخر.

تقول أمي «إنَّ حصولها على صديقة تعمل طبيبة أسنان منحها منزلة مرموقة. الجدّة أيضاً كانت مُناصرة لحقوق المرأة - ولم تكن تعلم ذلك».

وهكذا فإنَّ أجيالاً من النساء ترابطتْ بتناقُضها. ويستمر الأمر ويستمر، ويستمر.

كنتُ قد انتظرتُ إلى أنْ بدأتُ أزدهر ككاتبة قبل أنْ أستسلم لمُغوَيات الأمومة. كان كتاب *«الخوف من الطيران»* بمثابة إعلانٍ تحرُّري - وقد منحني أيضاً، مُصادفةً، النجاح الماديّ لكي أُعيل الطفل الذي أحمل.

أمّي لمْ تحظَ بمثل ذلك الحظّ. فقد نشأت بين والدَين من المهاجرين تركا والديهما وهما صغيران وبالتالي احتاجا إلى أنْ يضمّا أطفالهما بقوة إلى صدرَيْهما، وبدأتْ تمرّدَها على أمّها في وقتٍ مُبكّر وتركته يُخفِق قبل الأوان. وتراجعت إلى شكلٍ مقبول أكثر من الإبداع الأنثوي وهي تواجه ظُلم عالم لا يُنصِف النساء الفنّانات - كما فعلت المرأة عبر العصور. ثم شحنتْ بنّاتها بحنق المُطالبة بحقوق المرأة - كما فعلت المرأة أيضاً عبر العصور.

لكنَّ هذه الآليّة وحدها ليست كافية لدعم طموحي. إنَّ والدي أيضاً احتاج إلى أنْ أكون ابناً له. وقد نبع دافعي من خمر قويّ أعدَّه أبواي معاً. كانت مكوّناته مناسبة بالضبط لصُنع فتاة اعتقدتْ أنه يُسمَح لها أنْ تكون صبيّاً. ولكن كان عليها أنْ تُعاقبَ نفسها على هذا الافتراض.

هذا الخمر ليس حتماً وصفة للرضا. لقد خرجتُ واندمجتُ في العالم كصبيّ، ومن ثم كفّرتُ عن ذلك بمخاوف الأنثى - الخوف من الطيران، الخوف من حامل المسدس الواقف خلف طاولة الكتابة،

والخوف من الخمسين. لقد دفعتُ ثمن نجاحي بجعل نفسي بدينة، بحرمان نفسي من العلاقات الجيدة، وبحرمان نفسي، على مدى سنوات طويلة، من مُتع الأمومة. وأبعدتُ أمي لأنَّ قُدوَتَها كانت مُخيفة جداً. وهي أبعدتني لأنَّ نجاحي كان مؤلماً بصورة لا تُطاق، في رقصة التنافُر والتجاذُب المشتركة تلك، أشعر بأنَّ أمّي وأنا نموذجان مثاليّان لأمهات وبنات جيل السوط.

إنني أحاول أنْ أنظر إلى أمي كشخصٍ منفصل، ولا أستطيع. إنها جزءٌ مني، جزء ينتقد وينتقص ويستهجن. ولن ترضى أبداً لأنَّ ما تريده مُستحيل في أساسه: تريد أنْ أكون نسخةً منها وفي الوقت نفسه أنْ أنجح حيثُ فشلتْ هي.

لقد كنتُ في الحقيقة حامل المُسدس الواقف خلف طاولة الكتابة، وليست أمي ولا حتى أمي الوهميّة. لقد أردتُ أنْ أقتل النفس الخائنة التي أرادتْ أنْ تنفصل عن أمي. كنتُ أعلم أنَّ كتابتي كانت وسيلة للهرب، وأردتُ أنْ أبقى، وأيضاً أنْ أذهب في وقتٍ واحد. وهكذا ابتكرتُ المجاز المثالي الذي كان الخوف من الطيران.

لقد أردتُ أنْ أطير، ولكن ليس من غير خوف. أردتُ أنْ أطير، ولكن دائماً وأنا أتعذَّب – ثمة شفرة حادّة خلف الأسنان تقول: إنكِ لا تجرئين، بل تجرئين. وطرتُ لكنني عانيتُ بسبب عجرفتي كما حدث لإيكاروس. حتى الأعراض التي انتقيتُها كان نصفها من أبي، ونصفها من أمي. حتى أعراضي المُختارة عبَّرتْ عن الشرخ الحادّ في روحي.

لقد ابتكرتُ في شخصية إيزادورا وينغ بطلةً نموذجيّة تعبِّر عن جيل السوط. لقد طارت، وناكَتْ وأنجزتْ في العالم، لكنها عاقبتْ نفسها بالرجال. ومع قلبها المتوجِّه إلى الماضي وعقلها المتوجِّه إلى المستقبل، قُدِّرَ لها أنْ تعاني مهما فعلت. لقد أصبحت سخريتها من نفسها وحسّها الفكه هما أداتا بقائها حيّة، لأنه فقط عبر السخرية يمكنك أنْ تقولي شيئاً، وتعني شيئاً آخر.

أعتقد أنَّ إيزادورا أثّرتْ في نساء جيلي لأنَّ العديد منّا لديهن مثل تلك الازدواجيّة. نحنُ أمهاتنا، لكننا أيضاً نساء المستقبل. نكسبُ لقمة عيشنا، ونعيلُ أطفالنا، ونكافح في مسيرتنا المهنيّة في عالمٍ ما زال لا يمنحنا المساواة الاقتصاديّة مع الرجال، لكنَّ هذا التيار السُفْلي يُعيدنا إلى أمهاتنا، يجعلنا نشعر بالذنب حتى من فُتات الاستقلال التي حصلنا عليها.

إننا كثيراً ما نُعبِّرُ عن أشدّ تناقضاتنا غموضاً مع رجالنا وأولادنا. ولأننا منافسات شرسات في مجال العمل، ننهار في علاقاتنا أو نصبح عبيداً لأولادنا. بعضنا يتخلّين عن الرجال في نهاية المطاف لأنَّ المُعاناة لم تعُد تُطاق. إننا نهبُ أكثر مما ينبغي في الحب، لذلك يُقرّر بعضنا ألا يُعطي أي شيء. بعضنا يتحوّلن إلى نساء، نأمل بهذه الطريقة أنْ نكسر السلاسل المازوشيّة الساديّة[5] التي تقيّدنا.

الأمر مع أولادنا أصعب. فإننا غالباً ما نُفسدهم لأنه ليس لدينا قُدوة للأمومة تتضمَّن الاستقلال. إننا لا نستطيع أنْ نلزم المنزل كما فعلتْ أمهاتنا، لكنَّ الأمهات في رؤوسنا ما زلن يتمتّعن بالقُدرة على جعلنا نشعر بالذنب. لذلك نُغالي في وضع الحدود ونشتري الكثير من الأطايب التي لا نقدر على تكاليفها وبالتالي نربّي أطفالنا الذين يُملون علينا تصرفاتنا، وطوال الوقت نشعر بانعدام الأمان.

عندما أفكّر في حياة أمي، تغلبني المشاعر. إنَّ الموهبة لم تكن يوماً كافية. لقد كان لدى أمي موهبةٌ يجب استغلالها. كان في مقدورها أنْ ترسم وتلوّن، وتصنع تماثيل، وتُصمم أزياء، وتصنع لوحة مُلصقات من قِطع صغيرة من الحرير والورق، وتبتدع أثواباً لرقص الباليه من ورق الكرِيب العادي، وتزيِّن باللون الأخضر غابة بشغل الإبرة دون الاستعانة بغير النموذج الذي ترسمه في ذهنها. وذات مرة حوّلتني إلى جنّية غابة

5- المازوشيّة-الساديّة: انحراف جنسيّ يتلذّذ فيه المرء بإنزال العذاب بالآخرين أو بنفسه - المترجم.

من أجل عيد كل القديسين، وغطَّتْ ثوب الرقص بأوراق شجر ملوّنة بالأخضر والذهبيّ والبرتقاليّ إلى أنْ رفرفتُ في وجه الريح كشجرة مرتعشة في الخريف. صنعتْ لي لوحة مُقطّعة لتلوينها، وخاطتْ لدُميتي الطفلة قلانيس وتنانير على النمط الفيكتوريّ، ورسمتْ بالألوان صوراً شخصية صغيرة لتضعها على رفّ المدفأة في منزل دميتي. لم يكن هناك شيء لا تستطيع أناملها الرشيقة أنْ تنجزه، ولا شيء لا يستطيع ذهنها المُبدِع أنْ يتصوّره. لكنَّ هذه الموهبة كلها لم تكن كافية. كانت تفتقر إلى الشجاعة لتتبع موهبتها إلى داخل الغابة المُظلِمة المُقدَّرة لأي فنان. لم تستطع أنْ تتحمّل نقد العالم كما تحمّلتُه. لقد كان نقدها اللاذع الداخلي حادّاً وموجِعاً حتى أنها لم تستطع أنْ تُجازف بالبوح بأي منه.

أو ربما حافزها كأمّ كان مفرط القوة. ولم تستطع أنْ تكتفي بإنجاب طفل واحد فقط كما فعلتُ. لقد أنجبتْني ومنحتني القُدرة على الكفاح للتحرُّر. وكيف أستطيع أنْ أحتجّ على إنجابها لي؟

أنا أيضاً عانيتُ، ونوعيّة كتابتي لم تُنقذني من النقد، ولكنّني اتّصفت أيضاً بعناد أبي المجنون. إنَّ الرفض والنقد يؤلمان، ولكن في استطاعتي أنْ أتحمّلهما ما دمتُ أواصل الكتابة. أنا أعلم أنَّ العالمَ لم يُمهّد درباً يوصِلني إلى باب أي شخص. إنني أجرُّ العالمَ إلى باب بيتي بعدم استسلامي.

وهذا لا يعني أنَّ أمي استسلمتْ. كل ما في الأمر أنها اختارتْ درباً أنثوياً مقبولاً أكثر: استسلاماً خارجيّاً، وامتعاضاً خارجياً – القصة القديمة، القديمة، نفسها. إنَّ العالمَ يتحكَّم في المرأة بتلاعبه بحاجتنا إلى الاستحسان، إلى الحب، إلى إقامة علاقة. إذا كنا مُهذّبات، واستأصلنا دوافعنا الإبداعيّة الجامحة، كوفئنا بالـ«حب»، وإذا لم نفعل، يُمنَعُ عنّا. إنَّ المرأة المُبدعة تدفع ثمناً مُخيفاً ما دامت مكبوحة باستخدام الحب. إنَّ الإبداع شيء مُبهَم، مُتمرِّد، ويعني الاستسلام لغضبٍ يؤدي إلى الجنون.

إنَّ أوضح ما أتذكّر عن أمي هو أنها كانت دائماً غاضبة.

لقد أردتُ أنْ أكسر هذه اللعنة، أنْ أفكّ هذه الدائرة المُغلقة، بحيث يُصبح الرجال والأمومة مسألة ثانويّة أطول مدّة ممكنة. كان الرجال مقبولين طالما أنهم ينشرون لي قصائدي، والأمومة بكل صراحة ترعبني. شعرتُ أنها كانت المعركة الكبرى بالنسبة إلى أمي، ولم يكن في نيّتي أنْ أخوض تلك المُجازفة.

قال أحد أزواجي عن الكميات الهائلة من الهلام التي كنتُ أستخدمها مع وضع الغشاء الواقي[6]: «لا يمكن لأيّ حيوان منوي أنْ يخترق هذه الكتلة». لم أكن أحبّ الاعتذار. كنتُ أكره فكرة فقدان السيطرة وأعلمُ أنَّ إجراء عمليّة إجهاض سوف تُحطِّم قلبي. لقد كان الغشاء هو حارس طموحاتي الأدبيّة، ولم يكن لديّ أي تناقُض حولها. لقد كنتُ شديدة العناد. كان أبرز أسباب نجاحي وإخفاقي!

الآن، وأنا في الخمسين، وبعد أنْ فات الأوان، أتمنى لو أنني أنجبتُ المزيد من الأطفال. يا له من حنين آمن! ولكن عندما كنتُ خصبة، كنتُ في الغالب أرى الأمومة عدواً للفن وفقداناً مُفجِعاً للسيطرة. لقد كانت أمّي دائماً شديدة التمزُّق. كانت تقول «إنَّ دافع المرأة لحمل الأطفال أقوى من أي شيء» - كنتُ أشعر بأنها تقول ذلك بشيء من الحزن. وأنا لم أواجه ذلك الدافع إلى أنْ بلغتُ الخامسة والثلاثين، وحينئذٍ، كنتُ كاتبةً أولاً وأمّاً ثانياً. حصل لديّ، كما حدث لكوليت[7]؛ «حملٌ ذكوريّ» - قمت بجولة لترويج أحد كتبي في شهري السادس، وكنتُ أُنهي فصلاً حول الحفلات التنكّريّة في القرن الثامن عشر عندما بدأ مائي يتدفّق. وكنتُ أعتني بالطفلة وأنا أكتب الجزء الثاني من رواية عن حياة التشرُّد.

على امتداد سنين عديدة، بقيتُ بتصميم كاتبةً في المقام الأول، وأما ثانياً. واستغرقَ مني كامل العقد الأول من حياة ابنتي لأتعلَّم الاستسلام

6- قبل الممارسة الجنسيّة - المترجم.

7- كوليت: روائيّة فرنسيّة مشهورة - المترجم.

للأمومة. وما إنْ تعلّمتُ ذلك الاستسلام الأساسي حتى كانت هي قد وصلتْ إلى سن البلوغ ووصلتُ أنا إلى سنّ اليأس.

علامَ أندم؟ لا شيء. لقد ربّيتُ ابنةً لا تعترف أيضاً بالحدود. وتعلّمتُ على الأقلّ أنَّ أمي كانت على صواب. إنَّ الاستسلام للأمومة يعني الاستسلام للمقاطعة. إنّ مولي تعود من المدرسة فيتوقف العمل. وتُطالب بانتباهي كلّه. وأصبحُ صديقتها الحميمة، صديقتها المُقرَّبة، ووصيفتها العجوز، وبطاقتها الائتمانيّة التي تمشي على قدمَين. إنني أكره هذا، لكنني أيضاً أحبّه أكثر من أي شيء آخر. إنها تملَؤني بالمشاعر أكثر مما يفعل أي شيء آخر. وأيضاً لديها القُدرة على جرْفي إلى حافة الجنون. إنها تُطالبُ بأولويَّتها، وعلى كل الأبناء الأصحّاء أنْ يُطالبوا بهذا. ولو أنَّ هناك ثلاثة مثلها - كما كان لأمي - ربما ما كان هذا الكتاب خرج إلى النور. أكان هذا أمراً مهماً؟ أم أنه كذلك فقط بالنسبة إليّ؟ مَنْ يدري؟ إنني أكتب لأنني مُضطرة. وآمل أنْ تكون كتبي مفيدة لكن أيضاً لو أنني لم أكتبها، لكنتُ حتماً شبه حيّة، وشبه مجنونة.

إذن لديَّ خياراتي وأنا في الغالب سعيدة بها. أحياناً تجعلني كثافة أمٍّ واحدة - ابنة واحدة أتمنّى لو كان لدي ملء منزل من الأطفال الصاخبين، لكنَّ الحقيقة هي أنني أعرف الآن أنه حتى أنا، بكل طاقتي المُعجزة، لا أستطيع أنْ أقوم بكل الأعمال. في نهاية المطاف لا يمكن للأمومة أنْ تُفوَّض. قد تستسلم الرضاعة الطبيعية للزجاجة؛ ويمكن للآباء أنْ يقوموا بعمليات العناق والتدليل وبالعناية الطبيّة بالأطفال (ولا شك في استطاعتنا أنْ نجعل الحياة أسهل على الأمّهات بشكل أفضل ممّا نفعل)، ولكنْ عندما يحتاج طفل إلى أمّ يُكلِّمها، لا يمكن لغير الأم أنْ تفعل ذلك. الأمّ هي أمّ، كما كان جديراً بغرترود شتاين أنْ تقول لو أنّها أصبحتْ أمّاً.

لا شك في أنَّ الأطفال يحتاجون إلى شخصيّات أبوية: أم، أب، جدّان، مُربيات، أقرباء، معلّمون، عرّابون - ومع ذلك، لا أحد يحلّ

محل الأم التقليدية الطيّبة. هل أنا امرأة شوفينيّة؟ فليكن. عندما تفكرين في سُلطة كونك أمّاً فسوف تجدينها هائلة جداً. مَنْ غيرُ مُصابةٍ بجنون العَظَمَة قد ترغبُ في أنْ تتولّى تلك السلطة من دون أنْ تُلقي نظرة خلفها؟

بعد مرور سنين على إنجابي، أصبحتُ أمّاً رُغم أنفي لأنني وجدتُ أنَّ ابنتي احتاجتْ إلى أمّ. وما كنتُ أُفضّله حقاً هو أنْ أبقى كاتبة تهوى العمل في مجال الأمومة. بدا ذلك مُريحاً أكثر، وآمناً. لكنَّ مولي لم تسمح بذلك. كانت في حاجة إلى أمّ، أو إلى مَنْ تقوم بعملها. ولأنني أحبّها أكثر من حبّي لنفسي، أصبحتُ ما احتاجَتْ منّي أنْ أكون.

تقول «رسالة من الأرض إلى أمي: ادخلي على الخط. أنتِ تخرجين من المجال من جديد». إنَّ مولي تكره أنْ أتجوَّل في أرجاء المنزل (والمخزن، ومدرستها)، وأنا أكتب داخل ذهني. لذلك أعود إلى مجالها - وهو أصعب عمل أقوم به - وأحاول أنْ أكون حاضرة من أجلها. هل أستطيع أنْ أُفوِّض أي شخص آخر بهذا؟ كلا. هل أريد ذلك؟ أحياناً، نعم. (إذن أنا لستُ أُمّاً مثاليّة - ومَنْ كذلك؟) لكنني أحاول أنْ أُركِّز على أنْ أضع حاجاتها فوق حاجاتي الخاصة. وأعلم في قلبي (كما أعلم أنني سوف أموت) أنَّ مولي أهمّ من كتابتي. إنَّ أي طفل هو كذلك. ولهذا السبب فإنَّ الأمومة شديدة الصعوبة على المرأة الكاتبة. إنَّ مطالبها مُلزِمة، ومهمة بوضوح تامّ، وأيضاً مُرضية بعمقٍ شديد.

مَنْ يستطيع أنْ يشرح هذا لمَنْ لا أطفال لديها؟ تستطيعين أنْ تتخلّي عن نفسك، وأخيراً لا تعودي تأبهين. تصبحين دليل طفلك إلى الحياة على حساب تلك الأنا المتضخّمة التي ظننتِ أنها لا تتغيَّر. ولم أكنْ لأقبل أنْ يفوتني هذا مقابل أي شيء. لقد قهر أنانيتي ووسَّعَ مجال روحي. أيقظني على الأبديّة. جعلني أتعرَّف على إنسانيّتي الخاصّة، وفنائي الخاصّ، وحدودي الخاصّة. ومنحني فُتات الحِكمة التي أتّصفُ بها اليوم.

ماذا أتمنى لمولي؟ الشيء نفسه. العمل الذي تحبّ وطفلاً يُرشدها

إلى نفسها. لِمَ ينبغي على أي منا أنْ ترضى بأقلّ من هذا؟ نحن نعلم السبب: لأنَّ العالم صعَّبَ الأمور على المرأة عن عمد، بحيث لا تحظى بالأمومة ولا بالحياة الفكرية. قد يكون جيلي هو الأول الذي ليس بالأمر المستحيل أنْ تكون المرأة كاتبةً وأمّاً فيه. تقول مارغريت ميد في موقعٍ ما إنه عندما أنجبتْ أخيراً طفلتها الوحيدة في عام 1939، وهي في سنِ الثامنة والثلاثين، نظرتْ إلى موجز سِيَر النساء الشهيرات واكتشفتْ أنَّ معظمهن ليس لديهن أطفال - أو لديهن طفل واحد فقط. وهذا الوضع لم يبدأ بالتغيُّر إلا مؤخَّراً.

ولكن ما زال الأمر صعباً. وما زال الوقت مُبكّراً على انتهاء المعارك: معركة الإجهاض، معركة «القيم العائليّة»، ومعركة «هل ينبغي على الأمّ أنْ تعمل خارج المنزل؟» - وكلها أعراض ثورة ناقصة. الثورات الناقصة تُنتِجُ مشاعر عنيفة وغضب.

إنَّ النساء اللائي تخلّين عن العمل، والفن، والأدب، وحياة الفِكر، من أجل التنشئة الطبيعيّة يحتقرن اللواتي لسن مُضطرات إلى فعل ذلك. إنَّ امتياز الإبداع جديد العهد على المرأة. وامتياز الإبداع وأيضاً التنشئة عهدهما أقرب. إنَّ اللواتي تخلّين عن التنشئة يشعرن أيضاً بالامتعاض. إنهنّ يشعرنَ بأنه ربما كان في وسعهنّ أنْ يُنجزن الأشياء بطريقة مختلفة، ولكن بعد فوات الأوان. أيُعقل أنْ يضعن اللوم على قرار *روف. ويد*[8] على جِدَّة الخيارات التي لم تُضطر أمهاتهن إلى القيام بها؟

إنَّ الأمومة هي خيار كبير. مَنْ تقوم به باستخفاف، بعد أنْ يقع هذا كله؟ ربما بعض النساء ما زلن يشعرنَ بأنَّ من الأفضل ارتكاب زلّة وعدم القُدرة على التراجُع عنها. ربما يُفضّلن أنْ يصلنَ إلى حالة الأمومة بالمُصادفة.

إنَّ الاختيار شيء مُرعِب. ماذا لو قمتِ بالخيار الخطأ؟ لقد كان

8- قرار أصدرته المحكمة العليا الأميركية في عام 1973 تحمي فيه حقّ المرأة في الإجهاض قبل نموّ الجنين - المترجم.

الإكراه والاحتقار هما قَدَر المرأة لزمن طويل إلى درجة أننا تعوّدنا عليهما، إذا لم يحدث شيء آخر. إنَّ صعوبة الحريّة لا تُحتَمَل. الحرية تضع المسؤوليّة بكل ثقلها على كاهلنا.

وصحيحٌ أنَّ سيطرة المرأة على خصوبتها قادتْ الرجال إلى التخلّي عن بعضٍ من مسؤولياتهم العريقة. إنَّ الاختيار يمنح الرجال الخيار أيضاً. الاختيار يوضِّح الأمومة وينزع بعضاً من السلطة الأنثويّة العريقة. وبالنسبة إلى المرأة التي تتمتع بسُلطة أخرى، قد يكون هذا أمراً رائعاً، أما بالنسبة إلى امرأة لا تتمتع إلا بسلطة الأم الهائلة، لا شك في أنَّ هناك إحساساً بالخسارة. على أية حال، لم يمضِ أكثر من مائة عام على تغيُّر حياة المرأة بسبب الإنجاب المُعقَّم والسيطرة الموثوقة على الخصوبة. هذان الأمران غيَّرا العالم كلياً. هذان الأمران، وليس فقط أيديولوجيا تحرير المرأة، أحدثا ثورة في حياة المرأة. وبعض النسوة ما زلن يشتقن إلى الماضي.

هل هذا شديد الغرابة؟ قد يكون الماضي قيداً، لكنه كان قيداً مألوفاً. لقد منحت مُعادلة المرأة مع أمومتها على الأقلّ هويّة ثابتة. وبوصفنا مُناصرات لحقوق المرأة علينا أنْ نتفهَّم مشاعر الخسارة هذه بدل أنْ نسخر منها. علينا أنْ نعترف بالسلطة الهائلة لعقدة الأم وبالأهميّة الكبرى التي منحَتْها للأمّ. بما أننا نُشرِّف ذلك الإحساس بالخسارة، يمكننا إذن أنْ نُصرّ على حقّ كلّ امرأة بالحصول على سُلطة الأم أو تركها دون استعمال. إنَّ إنكار الذات هو نوع من القوة.

عندما أرى حشوداً غاضبة تهاجم عيادات الإجهاض، أو أخرى تقفُ متأمّلة وتتلو صلوات خرساء ضمن دوائر خارج مسيرات داعمة للاختيار، أفكّر في أننا نشهد آخر جيل يحنّ إلى أوامر العالم السفلي القديمة للحياة الإنسانيّة. وإلا لماذا يُطلقون النار على الأطباء باسم «الحياة»؟ إنهم يريدون أنْ يقتلوا فكرة الاختيار نفسها. يريدون أنْ يقتلوها أولاً داخل نفوسهم، ثم داخلنا. إنَّ احتضاننا حريّة الاختيار

تُلغي حياتهم بصورة ما. إنهم على استعداد للقتل من أجل «الحياة». يريدون أنْ يعودوا إلى زمن لم يكن باستطاعة المرأة فيه أنْ تقوم بخيارات وهكذا لن يشعروا بأنهم على خطأ أبديّ. (على الأقلّ هذا ينطبق على بعض النساء اللواتي يتقبّلن تلك التسمية المغلوطة «حق الحياة»).

أما الرجل فقصّة أخرى. إنه يريد أنْ يتحكَّم في المرأة. والقادة الإنجيليّون الذين يغذّون نار حركة الحق-في-الحياة يريدون السيطرة السياسيّة. إنهم ببساطة يستغلّون مال الكنيسة الذي لا يدفعون عليه ضرائب لكي يؤثّروا على جماعة الضغط لغايات سياسيّة. يجب أنْ نأخذ ضرائب من مُنظمَّاتهم كما نأخذها من جماعات الضغط المحترفة.

ومع ذلك، فالأمومة ليست خفيفة، اختياريّة، وخالية من التناقُض؛ إنها قوة غامضة، وساحرة، تتفوق على العديد من الأشياء المُفضّلة الإنسانية.

يجب أنْ نفهم أنَّ بعض النساء (والعديد من الرجال) يخشون أي تنقيص من الأمومة. ربما لو فتحنا عقولنا لكي نفهم هذا، نستطيع أنْ نكافح أفكار المُنادين بحق الحياة بفعاليّة أكبر. أعتقد أنني أفهم هذا بسبب أمي، أمي التي لطالما كانت ممزَّقة بين الأمومة والفن، أمي التي لم يحدث أبداً أنْ وجدتْ حلاً لذلك التناقُض لكنها، بدل ذلك، أورثته إليّ.

إنَّ أشدّ ما أحبّ أنْ أهب ابنتي هو الحريّة. وهذا شيء يجب أنْ يوهب بالقُدوة، وليس بالنصيحة. الحريّة مِقْودٌ فالِتْ، إجازة لكي تكوني مختلفة عن أمك وتبقي محبوبة. الحريّة لا تعني أنْ تُقيّدي قدمَي ابنتك، وليس إجراء عمليّة ختان رمزيّة، وليس الإصرار علي أنَّ ابنتك تُقاسمك حدودك. الحرية تعني أيضاً أنْ تدَعي ابنتك ترفضكِ عندما تحتاج إلى ذلك وأنْ تعود عندما تحتاج. الحريّة هي حبٌّ بلا شروط.

مولي، أريد أنْ أُحرِّرك. إذا كنتِ تكرهينني أو تريدين أنْ ترفضيني، سوف أتفهَّم. إذا لعنتني، ثم أردتِ أن تُكفري عن ذنبك، فسوف أتفهّم أيضاً. إنني أتوقّع أنْ أكون الكرة التي تُسجّلين بها الهدف الأخير: تُرفَس، تُجرّ على الأرض، لكنكِ دائماً تعودين إليها. أتوقّع أنْ أكون التربة التي تنبتين منها.

ولكن إذا حرّرتكِ أكثر مما ينبغي، فماذا ستحاربين؟

أنتِ في حاجة إلى قبولي، ولكنك قد تحتاجين أكثر إلى مُقاومتي. أعِدُ بأنْ أصمدُ بثبات بينما أنتِ تتحرّكين. أعِدُ بوهبك حبي المستمرّ بينما أنتِ تختبرين الكراهيّة. الكراهيّة طاقة أيضاً - أحياناً طاقة تحترقُ ببريق أكثر سطوعاً من الحبّ. الكراهية في الغالب شرطٌ مُسبَق للحريّة.

إنني مهما حاولتُ أنْ أختفي، أخشى أنني أرمي ظلاً طويلاً جداً. سوف أمحو ذلك الظلّ إنْ استطعتُ. ولكن إذا محوته، كيف ستتعرّفين على ظلّك أنتِ؟ كيف ستطيرين من غير ظل؟

أريد أنْ أُحرّركِ من مخاوفك التي قيّدتكِ بها، لكنني أعلمُ أنكِ أنتِ وحدكِ تستطيعين أنْ تُحرّري نفسك. إنني أقفُ هنا مرتدية قفاز مُتلقّي الكرة. وأصلّي كي لا تحتاجي إليّ لأتلقّفك إذا وقعتِ. لكنني هنا أنتظر على أية حال.

الحريّة مملوءة بالخوف. لكنَّ الخوف ليس أسوأ ما نواجه. بل العجز.

أُحرِّرك، أحبّك. أُحرِّركِ، أضمّك بين ذراعيّ.

-3-

سُحاقيّة مجنونة في العليّة

«إذا لم يُسمَح للمرأة بالتعبير عن غضبها أو حتى بالاعتراف به داخلها، فإنها، ببساطة، ترفض القوة والسيطرة»

• **كارولين هيلبرون، من كتاب**
«تدوين حياة امرأة»

بينما أكتبُ هذا، تقبع خالتي، أخت أمي الوحيدة، بقميص المجانين في جناح المجانين الموصَد في مستشفى لينكس هيل. وهي هناك ليس فقط لأنها تُعاني من خرف الشيخوخة وربما من الزهايمر، بل لأنها امرأة وحيدة، مُدبّرة منزل سحاقيّة مطرودة، تخلّت عنها عشيقتها البالغة الثلاثين من العمر عندما بدأتْ تصدر عنها تصرفات غريبة، ولم يرغب أي شخص آخر في أنْ يكون مسؤولاً عنها بشكل دائم. وليس لديها أولاد (ما عدا طفل عشيقتها التي ساعدتْ في تنشئته). ومنذ سنين طويلة جداً لم يجمع بينها وبين أمي أي حديث. وأصول العداء لا تقلّ غموضاً عن أصول العداوات العائليّة كلها. لكنَّ النتيجة تبقى واحدة: أمي لا تريدها، وأختي لا تريدها، وأنا لا أريدها، وابن العشيقة الذي ربّته لا يريدها، وعشيقتها كانت قد انتقلتْ منذ وقت طويل إلى مروجٍ أشدّ نُضرة.

يمكن لأي شخص أنْ يُصبح عجوزاً ووحيداً - وبالنسبة إلى المرأة

يمكن للاحتمالات الإحصائيّة أنْ تكون هائلة. ولكن في حالة خالتي كيتي، ثمة عوامل أخرى أيضاً لعبتْ دوراً. إنَّ خالتي فنّانة، سُحاقيّة في سن غامضة، مُدبّرة منزل وحاضنة. وهذه صِفات لا تُكسِبُ المرأة مسكناً ولا حتى عش عصافير، ولا يُحبّذها مجتمعنا. وخالتي مُصابة بالزهايمر فاقمَهُ الإدمانُ على الكحول - والمرض في أميركا مُخصَّص فقط للأثرياء. هذه الأشياء كلها تلعبُ دوراً في مصيرها. ومصيرها، لأسبابٍ سوف أشرحها في الحال، سقط بين يديّ. في هذه الأثناء، تنتظر كيتي في مستشفى لينكس هيل، حيث أخذها شخص غريب (يبدو أنه أخذ أيضاً نقودها واستعمل بطاقتها الائتمانية عندما انهارتْ في مُتحف ميتروبوليتان للفن قبل بضعة أسابيع).

بينما أتدبّر حول ما ينبغي أنْ أفعل - بما أنني لا أرغب في تنكُّب المسؤوليّة، لكنني أعلم أنها مسؤوليتي رُغماً عنّي بسبب غياب المسؤول - تأسرني بعض الصور الفوتوغرافيّة العائلية. لديّ ثلاث صور لأمي وخالتي قبل بلوغ عامهما الأول وعامهما الثاني، والسابعة والثامنة، والسابعة عشرة والثامنة عشرة.

على خلفيّة الصورة الأولى ختم «بطاقة بريدية أميركيّة، محلات تصوير، لندن والأقاليم» تبيِّن الفتاتين الصغيرتين - واحدة بعمر تسعة أشهر، وواحدة بعمر عام ونصف - جالستين على أريكة من الطراز الفيكتوريّ وتنظران إلى آلة التصوير. الطفلة التي على اليسار هي أمي: بعينين واسعتين، بنّيتين (مع تحديق قويّ مُذهل)، مع كتلة من الشعر بلونٍ مائلٍ إلى البُنّي، وأصابع قدمين ملتوية، وفم كبرعم وردة، ويدين مضمومتين؛ والتي على اليمين هي خالتي كيتي، بعينيها الكبيرتين الخاليتين من التعبير والبريئتين كعينيها اليوم، وفم كبرعم الوردة، ويدين صغيرتين تتشبثان بدُمية. لم تكن الصورة تُنبئ بأي شيء. كان لأمي ثلاث بنات، وخالتي ليس لديها أولاد من إنجابها. لكنّ العلاقة واضحة. فتاتان متشابهتان كتوأم، تنموان معاً. مُقدّر لهما أنْ تعكس كلٌّ منهما صورة الأخرى وصور الأعداء.

في الصورة التالية، هما ربما في سن السابعة والثامنة وترتديان بلوزتين بحريّتين، وتنتعلان حذائين بأزرار، وجبينين بشَعر كثّ. تُمسك كل منهما بيد الأخرى. إيدا تنظر أمامها مباشرة؛ وكيتي تُميل برأسها نحو رأس إيدا. ومن جديد هذه صورة أُخِذَتْ داخل الاستديو، على أريكة فرنسيّة الطراز، التُقِطَتْ في إنكلترا. وأمي المُستقبليّة تبدو أشدّ الفتاتين حزماً، وبدتْ خالتي الأكثر «أنثويّة» - إذا اعتبرنا كلمة أنثويّ تعني (كما كانت طوال حياتها) مرنة ولطيفة. هذا المزاج هو الذي أوصلها إلى حيثُ هي الآن.

الصورة الثالثة والأخيرة، التُقِطَتْ في نيويورك قبل القيام برحلة إلى باريس (كما قيل لي)، تبيّن مُراهقتين في العشرينيات، والسابعة عشرة والثامنة عشرة من العمر، بشعرٍ مقصوص قصيراً جداً، وترتديان جوارب من الحرير، وتنتعلان حذاءين من شرائط الحرير، وترتديان ثوبَين قصيريّ الطول ومنخفضَيّ الخصرَين. ومرة أخرى تلك العيون البنيّة والمستديرة، وأصابع أمي القصيرة والسمينة وأصابع خالتي النحيلة، وتعبير وجه أمي الجريء وحياء خالتي الناعم. إيدا تلمس كتف كيتي بطرف أحد أصابعها؛ وكيتي تُريحُ مِرفقها الحريريّ في حجر إيدا وتميل عليها بدفءٍ وحميميّة، الأخت الأكبر سناً تبدو شديدة الشبه بالصُغرى، والصُغرى تبدو شبيهة بالأكبر سناً.

ماذا حدث بين زمن التقاط هذه السلسلة من الصور الفوتوغرافيّة وهذا اليوم؟ هذا هو اللغز الذي وضعته أزمة كيتي بين يديّ. ربما هو عصيّ على الحلّ، لكنني مع ذلك سوف أحاول أنْ أحلّه. لماذا؟ من طبيعتي ألا أترك كتلة متشابكة تمرّ من بين أصابعي من غير أنْ أحاول أنْ أفكّ تشابكها. فربما حلّتْ بذلك جزءاً من تشابك نفسي.

إنني أتعلَّم أنَّ السيرة الذاتيّة أصعب بمراحل من تأليف الأدب. ففي الأدب، يمكن للكاتب أنْ يفرِض نظاماً، إذا لم نقُل مغزى أخلاقياً، على الأحداث. طبعاً ليس الشخصيات كلها تطيع أوامر الكاتب كالدُمى

الخشبيّة، بل يمكن حتماً استدراجها إلى رقص متناغم الحركات ممتعها، وتبدو كأنَّ لها بدايات، ووسط ونهايات، وحساً بالهدف، والحبكة والدافع.

الوضع يختلف في الحياة. وخاصة فيما يتصل بحياة الأقرباء. أحياناً يقوم الناس بزيارة قبورهم من غير أنْ نعرف أسرارهم، وحتماً من غير أي حسّ بالغاية، والحبكة، والدافع. بما أنني كاتبة أدب، فإنني أريد أن أُضفي شكلاً وتناغُماً على هذه القصة، لكنني عالقة بالوقائع - ببدائيتها وتشوّشها.

إنَّ الحقائق تتكشّف نحو الخلف، كما تفعل دائماً. وغداً، سوف أقابل خالتي في المحكمة لكي أحاول أنْ أحصل على السلطة القانونيّة لأصبح المسؤولة عنها. ثم سوف أحاول أنْ أجد مكاناً لأجلها. هذه الليلة، أقطعُ عهداً على نفسي بزيارتها في لينكس هيل، لكنني لا أفعل. بدل ذلك أبقى جالسة على طاولة الكتابة، أُمحّص صور العائلة القديمة وأتساءل عن معناها.

إنَّ الذاكرة هي أساس إنسانيتنا. من دون الذاكرة ليست لنا هويّة. هذا *بالضبط* هو السبب في كتابتي سيرتي الذاتيّة. وليس من قبيل المُصادفة تلك الصفعة التي تلقّيتها وأنا في بداية كتابتها، إنَّ فقدان خالتي لذاكرتها يتبوّأ مركز مسرح أحداث حياتي.

تقابلنا في قاعة المحكمة، وهي مبنى رصين ومُعمَّد يقع في شارع سنتر. وطاقم الشخصيات هو: خالتي كيتي، التي بدتْ مذهولة، وشعرها الذي كان بُنيّاً أصبح رمادياً عند جذوره، وعلى وجهها الطفوليّ العجوز تعبير مرتبك. وشريكتها السابقة ماكسين (وهي شخصيّة مهيبة ذات شعر أحمر مُجعّد، وتضع أحمر شفاه برتقاليّ اللون، وترتدي بذلة مرجانيّة، وتضع حجراً ثميناً ضخماً). ومحاميّة شابة تتخذ هيئة السيطرة، تُدافع عن حقوق كيتي المدنيّة في مدينة نيويورك. ومحامٍ ذكر في أربعينيات عمره،

متأنّق، يضع ربطة عنق حمراء على شكل فراشة، عيَّنته المدينة ليكون حارس كيتي *ad litem* (بالتعيين). وصديق شاب لكيتي اسمه فرانك، دون الثلاثين من العمر ويضع العديد من الأقراط على شكل طوق في أُذنه اليُسرى. ووالدي، وزوجي، الذي يتصرَّف كأنه مُحامي العائلة. وممرضة مُساعدة من هاييتي تتبع وكالة خاصة، وتعتني بكيتي. وقاض صيني-أميركيّ، يتّخذُ موقفاً مُعادياً من كل المُلتمسين الذين يُحاولون أنْ يضعوا أقرباءهم الأكبر سناً في أي مكان آخر غير منازلهم الخاصة. (بما أنني كنتُ متزوجة من صينيّ-أميركيّ، أُدركُ أننا لم نكن محظوظين في الحصول على هذا القاضي بالذات. إنَّ الصينيِّين لا يُخزّنون العجائز، بل يُشرّفونَهم).

لقد حضرنا إلى هذه المحكمة بسبب استحالة اتّخاذ قرار حول صالح كيتي من دونها. إنَّ المحكمة في مجتمعنا غالباً ما تكون الملاذ الأخير للعناد.

قبل نحو عام، بدأتْ تَصدِر تحذيرات باستمرار حول عجزها عن أنْ تعيش وحدها. وانهارت وأُخِذَتْ إلى إحدى المستشفيات، وحاولنا جميعاً أنْ نقتفي أثرها بمساعدة عدد من وحدات الشرطة. وعندما عثرنا عليها أخيراً في مستشفى صغير في الشارع السادس عشر الشرقيّ، أصرّتْ على أنها على ما يُرام وأرادتْ فقط أنْ تخرج. وعلى الرغم من أنها كانت لا تزال قادرة على التأثير بسِحرها على الجميع، إلا أنَّ العمّال الاجتماعيين والمُحللين النفسيين حذّرونا من أنها تعاني من «عجز خطير في الذاكرة» (كما يُسمّونه) وغير قادرة على العيش وحدها. وأوصيَ بإيداعها داراً للرعاية، ولكن لا أحد استطاع أنْ يُقنِع كيتي بهذا الحلّ. وقمت بزيارة الدار، وأبديتُ حبّ المشاهير لمدير قبول الحالات، وأحضرتُ لخالتي صوراً لغرفتها المُحتَمَلَة، وعلى الأثر رفضتْ رفضاً باتّاً أنْ تقوم حتى بزيارة. وذات ليلة خرجت ببساطة من المستشفى، وعادتْ إلى علِّيتها، وأخبرتْنا بأنها قرّرت أنْ تبقى هناك إلى الأبد.

ارتحتُ. وخدعتُ نفسي، وما زلتُ غير مستعدّة لمواجهة نهاية موضوع دار الرعاية، بشأنْ أهليّتها. وفعلاً سارت أمور كيتي بشكل حسن في المنزل فترة وجيزة. كان فرانك خلالها يقوم بزيارتها في كل يوم وكانت ماكسين تأخذها إلى آل هامبتون كلما أملى ضميرُها عليها ذلك. ومع ذلك، تدهورتْ حالة ذاكرة كيتي كثيراً حتى أنّها لم تعُد تتذكّر النزهات ولا المكالمات الهاتفيّة، ولا أسماء الأقارب ولا أوقات تناول أدويتها. وبات جلياً باطِّراد أنَّ هذه الذريعة لن تدوم طويلاً.

وتسأل وهي شاردة «أليس لديك غرفة إضافية لي؟». وتساءلتُ مع شعورٍ بالذنب لماذا ليس لديّ. كان لديّ غرفة من أجل ابنتي، وزوجي، والضيوف، لكنَّ حاجة كيتي كانت ستشغل حياتي، وببساطة لم أستطع توفيرها.

إنَّ الزهايمر لا يبقى مُستقراً. فالذاكرة تنحلّ، والأشخاص الذين ليست لديهم ذاكرة ينسون أنهم بلا ذاكرة. وذات أمسية أحضرتْ سكيراً متشرداً إلى علّيتها وتقاسمت المفاتيح معه. ووجده فرانك هناك، يتصرَّف وكأنه في بيته. وعندما حذّر فرانك كيتي من الخطر المُحدِق، ثارت وغضبتْ وأمرته أنْ «ينْقلِع» من حياتها.

استمرَّ هذا الوضع بعض الوقت. وبدأتْ الأغراض تختفي من العلّيّة. وأصبح الأصدقاء يكرهون الذهاب إلى هناك خشية أنْ يتعرَّضوا للهجوم من قِبَل أشخاص غرباء. واستمرتْ كيتي في الكفاح. كانت تعلم أنها وحيدة، ولكن لا أكثر.

كان المُشرّدون في الشوارع، والسكارى ومدمنو المخدرات في حي تشيلسي هم أهلها. قالت «إنهم مجرد أناس وحيدون»، وهذا صحيح. ولكن عندما بدأتْ تُثير الشجار في عدد من الحانات المحليّة، أصبحت هناك أماكن لم تعُد ترحّب بدخولها. وأصبحت معروفة أكثر فأكثر بأنها مجنونة (على أي حال ما «المجنون» إلا شخص لا يمكن التنبّؤ بتصرّفاته، وبلا ذاكرة، وغير متلائم؟). ومع حلول وقت ذهابها إلى

مستشفى لينوكس هيل، عَلِمَ الجميع أنه ينبغي العثور على حلٍّ آخر. ماذا نفعل بهذه العجوز فاقدة الذاكرة في هذه المدينة المتوحِّشة؟ إنَّ من الصعب جداً العيش هنا مع ذاكرة.

وعُقِدَ اجتماع في شقّتي. وافقتْ ماكسين على تقديم عريضة من أجل إعلان كيتي عاجزة. ولكن قبل عقد جلسة الاستماع بأسبوع، فقدتْ أعصابها. ومع وجود عريضة وغياب مُقدّمتها ووجود كيتي في جناح المختلِّين عقلياً في لينكس هول، اتّفقنا أنا وفرانك على أنْ نتولّى الأمر. لم يكن أمامنا خيار.

وأُعلِنَ انعقاد المحكمة. جلستُ مع كيتي، ممسكةً بيدها بينما بدأ مُحلِّلٌ نفسيّ، استُدعيَ كشاهد خبير، يتكلَّم عن حالة ذاكرتها، وعن تشخيص إصابتها بالزهايمر، وبالخرف، وما يُصاحبها من ظواهر.

سألت كيتي «أهو يتكلَّم *عني*؟ لماذا؟ *وأين* نحن؟».

كانت قد جاءت مباشرة من لينكس هيل لكي تُشارك في جلسة الاستماع تلك. وكانت لا تزال تحت تأثير المُخدِّر قليلاً بفعل المُهدِّئات التي أعطوها إياها بسبب غياب أية أفكار أكثر ذكاءً حول الاعتناء بها. وتحت تأثير ذهولها من غرابة وجودها في قاعة محكمة، ظلت تُردِّد «أهم يتحدثون *عني*؟».

لا بدّ أنه كان بمثابة كابوس أنْ يستيقظ المرء ويجد أنْ عقلانيَّته موضع نقاش ولا يتعرَّف على أحد – إنه جوٌّ يُشبه أجواء روايات كافكا. ولكن في استطاعتك أنْ تتخذ قراراً بالنيابة عن امرأة أخرى – حتى بعد أنْ زالتْ ذاكرتها؟ مَن نحن، بلا ذاكرة؟ كيتي لا تعلم. ولا أنا.

الحقيقة هي أنه كان ينبغي علينا أنْ نكون قادرين على الاعتناء بها من غير اللجوء إلى خدع المحكمة، ولكن بما أنَّ أقرب الناس إليها، أمي، لن تُشارك، وبما أنّ شريكة حياتها السابقة ووريثتها ترفض أنْ تتنكّب مسؤوليّة إيداعها داراً للرعاية لم يتبقَّ أمامنا من خيار غير إيصال الأمر إلى المحكمة. إنَّ القانون أحياناً، على الرغم من أنه أخرق في غالبية

الأحيان، هو السبيل الذي يُجبَر به الناس على مواجهة ما يرفضون مواجهتَه خارجه. إنَّ القانون على الأقلّ يتميَّز بمقدرته على جمع الأطراف المعنيّة في مكان واحد. وبإقحام سُلطة الدولة المُريبة في شأنْ عائليّ، تُضطر العائلة إلى المُطالبة بهيمنتها - حتى وإنْ كان عبر التمرُّد.

وهذا ما يحدث هنا. لمّا كان القاضي صينيّاً، ومنحازاً ثقافياً لصالح كرامة الشيوخ، فقد بدا أنه يسدّ أُذنيه لشهادة المُحلّل النفسي ولا يرى إلا لائحة من الأقارب الجشعين يحاولون أنْ يسجنوا سيدة عجوز لطيفة.

بعد شهادة المُحلِّل النفسي جاء دور شهادة ماكسين. راحتْ تصرّ، مُفعمة بالقلق والإحساس بالذنب، على أنها لا تريد أغراض كيتي. هذه الاحتجاجات بثّتْ الريبة في نفس القاضي. والمُحامون الذين عيَّنتهم المدينة أيضاً لم تكن لهم أية فائدة تُذكر. أولاً المحامي المتأنِّق، بربطة عنقه على شكل الفراشة وضَّحَ أنه اعتبر كيتي بمثابة أمٍّ له ولا يستطيع أنْ يواجه تدهور حالتها العقليّة. والمُحامية الشابة المُعيَّنة لتدافع عن حقوق كيتي المدنيّة بربرت بكلام مُبهم ودافعت عن نفسها، دون أنْ تُعطي أي انطباع عن الخطر الذي تتعرّض له موكِّلَتُها. وطوال هذا الهراء القانوني، كنتُ جالسة مع كيتي، سعيدة لأنها لا تستطيع أنْ تفهمَ كلَّ ما يُقال أمامها على المنصّة، والانتقاص من تلك الفضائل، شخصيّتها وهويّتها، أمام رياء المُحامين والمُحلِّلين النفسيّين. لقد كان خطؤها الوحيد أنها فقدت ذاكرتها (وبالتالي اعتُبِرَت أنّها فقدت عقلها).

إنَّ إجراءات المحكمة تستغرقُ وقتاً طويلاً، والقُضاة يميلون إلى الدقّة في المواعيد. فضَضْنا الاجتماع عند الساعة الخامسة بالضبط، وفوّضوني لإعادة كيتي إلى لينكس هيل. كانت ماكسين قد اختفتْ حالما أنهتْ شهادتها مباشرة، لكنَّ المحاميَين اللذين عيَّنتهما المحكمة ظلّا يتسكّعان بلا معنى، ويُثيران ضجيج المحامين. المهم هو أنَّ لا أحد حقاً كان مُستعداً لتولّي العناية بكيتي على مدار الساعة. كانت ماكسين منهمكة بمجال العقارات. وفرانك كان مُهندس مناظر وعاشقٍ يُحتَضَر

بتأثير إصابته بمرض الإيدز. وأنا لديّ ابنة وموعد مُحدَّد لتسليم أحد كتبي. وزوجي لديه قضايا أخرى، خلافاً لهذه القضيّة، سوف تُسدِّد تكاليف حياته. وكان على والدي أنْ يذهب إلى أمي في المنزل ويتظاهر بأنه لم يكن حيث كان في الحقيقة لأنَّ أمي، وكأنَّ الزمن قد توقّف، ما زالت تتّهم أختها بأنّها تُغويه. كم كانت ستُصاب بالذهول لو أنها حضرتْ إلى المحكمة! إنَّ خالتي لم تتذكّر مَنْ هو والدي. بل إنها لم تتذكّر اسم الشخص الذي عرفته طوال ثلاثة وستين عاماً.

لدى عودتي من المحكمة، ذهبتُ إلى المستشفى مع كيتي وممرِّضتها الخاصّة.

سألتْ كيتي «هل يمكننا أنْ نتوقف ونتناول مشروباً؟ هل نستطيع أنْ نتناول وجبة العشاء في مكان ما، على الأقلّ؟ هل أستطيع أنْ أرافقك إلى منزلك؟».

كان متوقَّعاً حضوري حفلة عشاء رسميّة على شرف أحد الأصدقاء في غضون ساعتين، لكنني فجأة أردتُ أنْ أُحضِرَ كيتي معي أو لا أذهب أصلاً. مستحيل. لقد كانت مُرهَقَة، مُشوَّشة، وترتدي ملابس غريبة ورثّة كانت ماكسين قد أحضرتها لها (بلوزة مُبقَّعة من الحرير، وحذاءً ضيّقاً، وجوارب ممزّقة، ومعطف فرو أكلَه العثّ). لذلك عدنا إلى المستشفى من أجل قضاء الليل. وغداً سوف أرافقها إلى علّيتها، وأُوفّر لها مُدبّرة منزل وممرضة، ومن ثمّ نرى ماذا سوف نفعل.

في الجناح (الذي لم تُدرك كيتي أنه جناح في مستشفى)، نزعتُ عنها حذاءها ودلّكتُ لها قدمَها المتقرّحة. قالتْ «باركك الله»، ثم أردفَتْ «ما اسم هذا الفندق؟».

قُلت «فندق القلوب الكسيرة[1]».

قالتْ كيتي «عنوان غريب».

1- عنوان أغنية مشهورة لإلفيس بريسلي - المترجم.

سالتُ الممرضة «أين الهاتف؟». حدّقتْ إليّ وكأنني أُصِبتُ بلوثة.

قالت بنزَق «هذا جناح للمرضى العقليين».

قالت كيتي «يبدو لي كغرفة في فندق».

كنتُ عندئذٍ قد تأخّرتُ كثيراً، لكنني لم أستطع أنْ أغادر.

ظلّت كيتي تُكرّر مراراً «هيا نتناول مشروباً». وكلما قالت هذا، أضحك. ضحكتُ لكي لا أبكي. إنَّ الطلب المتكرِّر الصادر عن عجوز بلا ذاكرة هو ما يجعله صعب التحقيق. إننا نعتبر التكرار مُهيناً، وهذا سُخفٌ منّا. ليتنا نتخلّى عن أنانيّتنا ونعيش لحظة بلحظة كما يفعل الطاعنون في السن والفتية الصِغار. تخيَّل أنكَ في حالةٍ تتكرَّر وتتكرّر لأنَّ كل لحظة لا تتّصل بأيٍّ من اللحظات الأخرى.

قالت كيتي من جديد «هيا نتناول مشروباً». هذا كان طقسَها المسائيّ، وتشبّثتْ به كتشبُّثها بطوف النجاة حتى بعد اختفاء المعالِم الأخرى كلها. لا فائدة من إخبارها أنَّ المشروب هو الذي عمل على *تدمير* ذاكرتها. لن تأبه ولن تتذكّر معنى أنْ يكون *لديها* ذاكرة.

وجبة عشاء في عشّ الكوكو. المرضى يتوافدون على الكافيتيريا ليحصلوا على وجباتهم. هتف رجل يميل على جنبه، أحوَل العينين، ينتعل خفّاً من الورق: «هاي، كيتي! كيف حالك؟».

تقول لكل شخص ولا لأي شخص مُعيَّن «أُعرّفك على ابنة أختي، الكاتبة المشهورة». تخزني وجنتاي من فرط الارتباك. حتى بعقلها المُفكَّك، تستطيع كيتي أنْ تُطالب بالاعتراف بشُهرتي. يا لها من نكتة أنْ نُثير مسألة متقلِّبة كالشهرة وسط هذه الفوضى الإنسانيّة كلها.

أعتقد أنَّ لا شيء يُنقذنا من التقدُّم في العمر. لا الشهرة، ولا الموهبة، ولا سِحر الشخصيّة، ولا الثروة، ولا الفطنة. وسُخف المُتاجرة بشهرتي يُصيبني بالخزي بصورة ما. في مستشفى المجانين هذه، شعرتُ بأنني مُلتحمة بكيتي: إنَّ زلّاتها هي أيضاً زلّاتي.

يا إلهي - لقد تأخّرتُ. إنَّ صديقتي، وابنتي، وزوجي، كلهم في انتظاري. وكالمعتاد، كنتُ مُشتّتة بين مطالب متصارعة، وشعرتُ بأنني لم أُنجِز أيّاً منها بكفاءة.

في المصعد، بدأتْ امرأة تُكلّمني، كعادة النساء. قالت «إنَّ أفضل صديقاتي أُصيبت بنوبة أخرى، وحاولَتْ من جديد أنْ تنتحر. لقد عادتْ إلى هنا من جديد».

قلت «خالتي مُصابة بالزهايمر». هزّتْ المرأة رأسها متعاطفةً. لا أحد مشهور هنا. هناك فقط امرأتان تعتنيان بامرأتين أُخريين، كما هو مصير النساء غالباً. قالت «أتمنى لكِ حظاً سعيداً». قلت «ولكِ أيضاً».

كان القمرُ بدراً وتحيط به حلقة من الضياء وكان الليل شديد البرودة. تلفّعتُ بوشاحي وشددتُ معطفي حولي وهرعتُ على طول جادة لكسنغتون باتجاه شقّتي.

أصبحتُ امرأة حرّة - ولكن لِكم من الوقت؟ ذات يوم أنا أيضاً لن أتمكّن من الخروج من المستشفيات وحدي. وحينئذٍ، ماذا سيحدث لي؟

لم أرغب في التفكير في هذا.

كان من المُفترَض أنْ تستأنف المحكمة البحث في قضية كيتي في اليوم التالي، لكنَّ قضية أخرى على الجدول ألحّتْ. وهذا مكّنني من زيارة كيتي في المستشفى وإعادتها إلى المنزل. ونصحني العديد من الأشخاص بالعدول عن ذلك، لكنني وجدتُ أنَّ عليّ أنْ أفي بوعدي - سواء أتذكّرَتْه كيتي أم لا.

من الأسهل دائماً إيداع العجائز دُورَ الرعاية ونقلَهم من المستشفى وليس من المنزل. لذلك كنتُ أزيد الثقل على كاهلي بوفائي بذلك الوعد، لكنَّ الوفاء بالوعود غالباً ما يعني أعباءً. ومع حلول موعد شرب الشاي، كنتُ قد رجعتُ إلى المستشفى لأُحرِّر كيتي، وأشغالها الورقيّة،

ووصفاتها، وممتلكاتها الرثّة. أعدتها إلى منزلها وعلّيتها في حي تشلسي مع ممرضة ممتلئة من هاييتي اسمها كلوي.

كانت الفوضى تعيث في العلّية، والمطبخ قذراً، وعلى الجدران بقعٌ عارية كانت تُعلَّقُ عليها لوحات. وبدتْ الشقّة جزئياً مقلوبة رأساً على عقب. وفي أرجاء المكان تناثرت قطعٌ من أثاث جَدِّي - في الغالب رفوف للكتب، وحامل لوحات جدّي لأبي مُلوّث بالدهان. ولوحات كيتي العملاقة، المُضيئة، التي تمثِّل مشاهد بحريّة، وكانت تكسو العلّية، تمّ انتقاؤها، والعديد منها اختفى. ولم تلاحظ كيتيّ أياً من هذا. كانت سعيدة بصدق بوجودها في مكان ما زالت تتعرّف عليه على أنه منزلها.

وفي الحال تمدّدتْ كلوي على طولها على الأريكة وأدارت جهاز التلفزيون، موضّحة بذلك أنها لا تعتبر أي شيء آخر من اختصاصها. وعلى سبيل المزاح المحض، طلبتُ منها أنْ تُحضر بعض الوصفات المُعدّة لكيتي وتساعدني في تنظيف المطبخ. فرفضتْ بحزم. قالت «*هذا* ليس من صميم عملنا». إنها جليسة أطفال - لا أكثر - على الرغم من أنَّه جدير بهذا بالمقارنة أنْ يجعل جليسة الأطفال تحمرّ خجلاً. ماذا يمكن لامرأة من سكان المريخ أنْ تعتقد إذا عادتْ إلى الأرض وشاهدت نساءً عجائز بيضاوات خرفات «ترعاهنّ» نسوة شابات سوداوات ممتلئات جالسات تشاهدن التلفزيون - وتراقبن الساعة؟ ما أغربها من طريقة يُنظِّم بها البشر مجتمعهم! قد تقول إلهة متعاطفة «انسفوا كل شيء وابدؤوا خلقاً جديداً!».

تجوّلت كيتي في المكان متأمّلة، تخشى أنْ تخلع معطفها. أجلستُها، وجعلتُها تنتعل حذاءً مُريحاً - خفّاً من القماش الصينيّ - وتشرب فنجاناً من الشاي.

سرعان ما دخلتْ ماكسين مع فرانك وعشيقه، أدريان، ورجلين ضخمين وسيمين من شركة هامبتونز.

قالت ماكسين لكيتي «مرحباً، يا عزيزتي! لدينا سيارة نقل واقفة في

الأسفل. سوف نأخذ بعض اللوحات لكي نُقيم معرضاً لكِ هناك». ومن ثم بدأ الرجلان الضخمان من شركة هامبتونز يُخرجون اللوحات الزيتيّة، وأضابير، وأسَداً بالحجم الطبيعيّ كان قد مكثَ في علّية كيتي طوال فترة وجودها هناك (وكيتي من برج الأسد، لذلك كان زئير الأسد هو طلسمها).

سألَتْ كيتي «ماذا *تفعلين*؟ هذا أسدي *أنا*».

قالتْ ماكسين «كلا، يا عزيزتي، بل هو أسدي *أنا*. *أنا* التي أحضرْته».

قالت كيتي «كلا لم تفعلي».

«أنا فعلتُ أيضاً». فجأة تذكّرتُ كلّ هرج سنين سابقة عندما «انفصلتْ» كيتي عن ماكسين وطردتْ ماكسين كيتي من المنزلَين اللذين ساعدتْ في بنائهما وتجديدهما - واحد في تشلسي، وواحد في ساوثامبتون - واشترتْ لها هذه العلّية المتواضعة وأعالتها.

قالت كيتي «لا تأخذي أسدي! إنه كلّ ما أملك».

قالتْ ماكسين، بينما كان الرجلان ينقلان آخر رموز شخصيتها «إنني فقط *أحفظه* من أجلك، يا عزيزتي».

صُعِقْتُ وذُهِلتُ من تفاهة الأمر كلّه وصخبه، ولزمتُ الصمت.

وددتُ لو أقول «أنا أعلم أنكِ وريثتها، لكنني أتمنى لو تكفّين عن التصرُّف كما لو أنها ماتت فعلاً»، أو «إكراماً لله - يمكن لهذا أنْ ينتظر، أليس كذلك؟»، وانتقتْ ماكسين، التي أحسّت باستهجاني، دفتراً ضخماً يضمّ رسومات جدّي بقلم الحبر ووضعته بين يديّ المرتجفتين.

قالت «اعتني به. احفظيه». كان الكتاب-الرشوة ممتلئاً برسوم تعبِّر عن هلوسات الجدّ عن عهد طفولته في أوديسا. المزيد من الذكريات أملأ بها سيرتي الذاتيّة. وأخذته.

وحمل الرجلان الأسد إلى الخارج.

وأخذتْ ماكسين تنشط، تجلب البقالة، وتُعلن لكيتي أنها لا تستطيع

أنْ تمكث لأنّ اليوم عيد مولدها وهناك مَنْ سيأخذها لتناول وجبة العشاء في الخارج.

بقي فرانك، وأدريان وأنا لنتولّى أمر العناية بكيتي، التي كانت عندئذٍ قد أرادت أيضاً «أنْ نأخذها ونخرج لتناول العشاء».

قلت «سيكون على حسابي. أيّ مكان تقترحين؟».

اتّفقنا على مطعم صينيّ قريب، وبدأنا فرانك وأنا نُلبِس كيتي استعداداً للخروج.

قال فرانك «شعرك غير مُسرَّح. دعيني ألوّنه لك غداً مساءً، اتفقنا؟». وأخذ يُسرِّح لها شعرها بحبّ، ويُدخِل القرطين اللذَين صنعهما من أجلها من ثُقبيّ شحمتيّ أُذنيها، ويساعدها في تبرّجها. وفي تلك الأثناء، استعرضتُ ما لدى كيتي من ملابس، بحثاً عن شيء ليس ممزّقاً أو مُلوّثاً أو متهرّئاً. فوجدتُ كنزة وتنورة مقبولَين، ولم أعثر على أي حمّالة للصدر، ولا سروال داخلي ليس قذراً. فتركتها بخفّها الصينيّ المُريح. ورأيتُ أنَّ أول شيء يصلُح هو الاستعداد، ثم الغسيل، ثم الحياة نفسها. ولكن ليس بسرعة كافية. للأسف، الحياة تتلكّأ في غياب الغسيل بما أنَّ كل شيء يعود في أصله إلى الطفولة في النهاية. ليس لدينا مؤشرات، ولا كتب حول مراحل التطوُّر الأخيرة هذه، ولا طقوس مُهدِّئة. في بداية الرحلة، يكون لدى الطفل أمٌّ مُحبَّة تُقلِّبُ صفحات كتب الدكتور سبوك بحثاً عن أجوبة وإشارات. ولكن في الطور السابع من عمر المرأة، لا يعود هناك أمٌ مُحبَّة (تكون حينئذٍ قد ماتت منذ زمن طويل) ولا شخص مُعيَّن يرعى، ولا كتب. إننا نقوم بهذه الرحلة عائدين إلى الماضي وحدنا، منتعلين خفّاً صينياً.

ارتدت كيتي ملابسها. وارتدينا، فرانك، وأدريان، وأنا معاطفنا.

قالت كيتي عن كلوي، التي كانت لا تزال تتمدد أمام جهاز التلفزيون «وماذا عن عشائها هي؟».

قالت كلوي، وومض التلفزيون ينعكس على وجهها المستدير المُشرِق «لا عليكم منّي، لقد أكلتُ وانتهيت».

ألحّتْ كيتي، محاولة أنْ تعتني بمَنْ تعتني بها - وهي سِمة تشيع بين أفراد عائلتي «ألستِ جائعة؟».

قالت كلوي «كلا، يا عزيزتي. اذهبي وتناولي عشاءك».

حدَّقتْ كيني بعينيها البُنّيتين المستديرتين.

قالتْ «ولكن هي أيضاً يجب أنْ تأكل. هذا هو العدل».

قال فرانك «لا تقلقي، يا عزيزتي، لقد أكلتْ».

سألتُ كلوي، لكي أهدِّئ من قلق كيتي «هل نُحضِر لك شطيرة بيض؟».

قالت كلوي «حسن».

قالت كيتي «ماذا قلتِ؟ أنا لستُ في حاجة إلى شطيرة بيض. لماذا يعتقد الجميع أنَّ شطيرة من البيض سوف تُحدِثُ فرقاً؟».

مشينا على طول الشارع الثالث والعشرين نجرّ أقدامنا في البرد. الشابّان، واحدٌ مُصاب بالإيدز والآخر يخشى نتائج فحوصات الدم، وامرأة عجوز تردّد قائلة «البرد قارص، البرد قارص» و«إلى أين نحن ذاهبون؟»، وأنا وسط خوفي من سن الخمسين.

في المطعم الصينيّ، أجلس قبالة عشيق فرانك، الذي حكى لي قصة الجزء الحديث من حياته.

أسألُ «ماذا تعمل؟».

قال «إنني أبحث في العجز، في مرض الإيدز».

«وماذا كنتَ تعمل *قبل* ذلك؟».

قال «التحقتُ بمدرسة جويليارد لكي أدرس آلة الفلوت، ثم عملتُ موسيقياً وكسبتُ لقمة عيشي من عملي كمُساعد خصوصيّ للموسيقار ليونارد برنشتاين - وهو عمل شاقّ».

سألتُ «ومتى تمَّ تشخيص حالتك؟».

«أوه – قبل خمس سنوات».

«هل غيَّر ذلك حياتك؟».

تغيَّرَ تعبير وجه أدريان الشابّ ذو الفك البارز والوسيم إلى التأمُّل.

قال «أعتقد أنه فعل. وبدأتُ أفكّر في الطريقة التي أردتُ أنْ أعيش بها حياتي. فتركتُ عملي لصالح بيرنشتاين لأنَّ الضغط كان شديداً عليّ – لقد كان مُتطلِّباً كثيراً – وبدأتُ أعزف الموسيقى لنفسي وأفكِّر وأتأمّل. لقد غيَّرَ حياتي. وقرّرتُ أنني أريد أنْ أحبَّ شخصاً ما حقاً قبل أنْ أموت».

سألتُ «ثم ماذا حدث؟».

قال، مُبتسماً لعشيقه، «ثم قابلتُ فرانك».

سألتْ كيتي عندما وصلت وجبتها «مَنْ طلبَ هذا لأجلي؟».

قال فرانك «أنتِ فعلت، يا عزيزتي».

قالت كيتي، وكانت مماحكتها تثبِت وجودها، «أنا لم أفعل».

قال فرانك برقّة «بل فعلتِ، يا عزيزتي».

قالت كيتي، وهي تعبث بالزلابية المقليّة، «حسن، أعتقد أنَّ في استطاعتي أيضاً أنْ آكلها».

قلت «يمكنك هذا أيضاً». كنتُ أفكِّر في مدى غرابة هذا المشهد وفي غرابة كل التجمّعات التي تجري في الحياة إذا تركتَ نفسك تركِّز عليها. ما أغربَ هذا العشاء الأخير. شابان ربما لم يتبقَّ لهما عمر مديد يعيشانه، وخالتي التي لم يعُد لديها ما تعيش لأجله، وأنا في الوسط كوضعي دائماً، أراقبُ وأحاولُ أنْ أتخيّل كيف يمكن أنْ أصنع قصة مما أشاهد. هل ستساعد القصة أحداً؟ آمل ذلك. حتى وإنْ كان ذلك الشخص هو فقط أنا.

تسألُ كيتي من جديد «مَنْ طلبَ هذا؟».

قال فرانك «أنت فعلتِ، يا عزيزتي».

لاحقاً، بعد أنْ دُسَّتْ كيتي في السرير، وكان فرانك يقرأ لها، استقللتُ سيارة أجرة إلى قلب المدينة، متأبّطة دفتر رسومات الجدّ.

قالت ابنتي «لقد تأخّرتِ. أكان الأمر فظيعاً؟».

«في الحقيقة، كان أقلّ فظاعة من المكوث في المنزل والتفكير في كيتي وعدم فعل أي شيء. إنها لا زالت كائناً مُعترَفاً به. لكنَّ ذاكرتها بالية في بعض الأماكن، كمكان الرُكبتين في بنطلونك الجينز».

قالت مولي «يا الله - شيء يدعو للاكتئاب. أنا سعيدة لأنني لم أذهب».

قلت «هكذا تشعرين وأنتِ في سن الرابعة عشرة - وليس وأنتِ في الخمسين».

قالت مولي «أنتِ لستِ في الخمسين. أنتِ في الخامسة والثلاثين وثابتة. نعم - هذا صحيح. لقد وُلِدتُ عندما كنتِ في الواحدة والعشرين».

ضممتُها بقوة إلى صدري، وأنا آمل ألا تُضطر إلى أنْ تفعل ما أفعله من أجل كيتي.

وضعتُ مع صديقتي الحميمة خطّة. سوف نتناول حفنة من الأقراص المُنوّمة، ومن ثم نخرج إلى الثلوج بالقرب من مزرعتها في كاربونديل، كولورادو. وبينما غزلان الإلكة والرنّة تمشي بتشامُخ على الثلج الأبيض الناصع، وبينما تنهضُ فينوس فوق جبل سوبريس، سوف نصنع ملائكة من الثلج ونموت بهدوء من انخفاض درجة حرارة جسدينا، ونوفّر على أولادنا فوضى وجلبة الاعتناء بنا. وسوف تلمع الكواكب والنجوم في جو كولورادو الصافي بينما نحن نتجمد حتى الموت بسلام وبلا ألم.

ولكن هل سيحدث هذا *حقاً*؟ مَنْ يدري؟ حتى ذلك الحين ربما ننسى كم سبّبنا من متاعب. إنَّ الذاكرة هي الأسرع في زوالها بين الممتلكات كلها. وعندما تزول، تخلِّفُ وراءها آثاراً قليلة كأنها نجومٌ تختفي.

عند منتصف الليل يجدني زوجي في غرفة مكتبي، أستعرض دفتر رسومات جدّي.

ها هي أمّه، جدَّتي الكبرى، مُمدَّدة بعد وفاتها متأثّرة بمرض التيفوس. تابوتها يتحول إلى تموجات على سطح المحيط. وبين أمواجه تبدو وجوه أولادها، وأحفادها، وأحفاد أحفادها. الأم الرئيسة تعود إلى البحر - أشبه بفينوس معكوسة. بعد ذلك تأتي سلسلة من رسوم أوّليّة بالحبر الهندي لجياد تقفز لطالما أسَرتْ ريشة جدّي. بعضها يقفز إلى البحر. وبعضها يتعرَّض لهجوم كلاب بريّة، وبعضها يمتطيها قوقاز يعتمرون قبعات ضخمة من الفرو، يلوّحون بهراوات صاعقة في وجوه أشخاص بؤساء ينكمشون خائفين تحت حوافر جيادهم.

تلك كانت روسيا الوعرة التي قطعها جدّي سيراً على قدميه وهو صبي في الرابعة عشرة. مشى عبر أوروبا عندما كانت أوروبا أكبر مما هي عليه الآن. وتحدّى قسوتها لكي يصنع لنا جميعاً حياة ناعمة في أميركا. كانت أمّه قد توفيت حديثاً متأثّرة بمرض التيفوس عندما انطلق ليعبر روسيا وأوروبا. وكان جدّي، الذي لا يعرف الرحمة مثل غويا أو هوغارث[2] في رغبته في مواجهة لا إنسانيّة الإنسان، دائماً يُسجّل ماضيه برسوم أوّليّة وهو يعيش حاضره. ذلك كان الإرث الذي تركه لي. تابعْ الرسم. حاولْ ألا تسأل عن السبب. فقد لا يكون هناك جواب.

يقول كين، وهو ينظر من خلف ظهري، «كم كان فناناً رائعاً». إنني أشعر بوجود جدّي في الغرفة وأنا أُقلِّب رسوماته. وهو أيضاً السبب في أنني أتولى الاعتناء بكيتي. إنه بصورة ما يصون حياتي، ولهذا أصون أنا أيضاً حياة الأشخاص الأشدّ أهمّية بالنسبة إليه.

كان يقول «كيتينكا. المسكينة كيتينكا. اعتني بها الآن بعد أنْ أصبحت بلهاء إلى درجة عجزها عن الاعتناء بنفسها».

2- فرانشيسكو غويا (1746 - 1828): رسام أسباني. ووليم هوغارث (1697 - 1784): رسّام ونحّات إنكليزي.

أقول «هيا بنا لننام». ويعانقني كين.

يقول «لقد مررتِ بيوم عصيب».

«كانت مراقبة الأسد وهو يُنقَل هي الأقسى. كنتُ أودُّ لو أنني لم أر ذلك».

يقول «سوف تكتبين عن هذا».

«وهل يُكفِّر هذا عنه؟ هل يُخفِّف من الألم؟».

يقول «بل يجعله مسموعاً، يُعرِّف الطريقة التي كان الجدّ يجعل بها حياته مقبولة».

أغلقتُ دفتر الذكريات. لقد واستني معرفة أنّه موجود ويمكن فتحه من جديد.

عندما استيقظنا في صباح اليوم التالي، كانت عاصفة تجتاح المدينة وتُهدِّد بتحويل مانهاتن إلى جزيرة من جديد. أمطار قوية ورياح بقوة إعصار، وأنفاق غارقة، وأمواج عاتية في الشوارع.

نجحنا أنا وكين بصورة ما في شقّ طريقنا إلى دار المحكمة، ولكن لم يكن هناك غيرنا. لقد غرقت ملابس كيتي وفرانك بمياه المطر وعادا أدراجهما. وماكسين اعتذرتْ عن الحضور. والمحاميان الآخران وصلا متأخرَين جداً بحيث لم يتبقَّ وقت لاستئناف جلسة الاستماع. ومن جديد اضطروا إلى إرجاء شهادتي. وعُيِّنَ تاريخ جديد.

غادرتُ مع كين دار القضاء وسط المطر العاصف، وشاهدنا الحشود المتجمّعة مع مظلّات ممزّقة تنتظر عند مواقف الحافلات. كانت قطارات الأنفاق مُعطّلة. والمدينة برمّتها مشلولة. أغلقتْ المكاتب أبوابها باكراً. وبدتْ نيويورك كأنما كارثة حلّتْ بها – وكأنَّ التسونامي الأعظم ضربها وناطحات السحاب السامقة على وشك أنْ تُغمَر بالمياه.

هتفَ كين «تاكسي!». أهو سراب أم أنها فعلاً سيارة أُجرة صفراء تلك المتوقفة عند أسفل دَرَج دار القضاء؟ قعقعنا ونحن نهبط الدَرَج الذي غمرته المياه. وحالما بلغنا موقع السيارة، هجم اثنان آخران على

البابين الآخرَين المُقابلين. وفجأة مدَّ كين مظلّته لكي يتخلّص من الدخيلَين.

صرخ السائق، خارجاً من السيارة، «لن أقلّ *أياً* منكم!». ودفعَ كين نحو المجرور المغمور بالمياه.

صرخ كين، وهو يُحاول أنْ ينهضَ واقفاً ويلج سيارة ذلك الرجل المجنون، «سوف أدوّن رقم رخصتك».

أقول «أمجنون أنت؟ أفضّل أنْ أمشي».

لكنَّ كين يجرّني إلى داخل سيارة الأجرة ثم نتقدَّم مسافة قصيرة، وسائق السيارة ينهال علينا بالشتائم.

يصرخ كين «خُذنا إلى مركز الشرطة».

يترنح السائق بسيارته على طول الشوارع وهو يسبّ كمهووس. وعند إشارة المرور الحمراء الأولى، أفتح الباب وأجرّ معي كين إلى الخارج.

يقول كين «لا أدري ماذا ألمَّ بي».

«إنها العاصفة - وكيتي».

يقول كين «ما رأيك بالذهاب إلى محلٍّ يُقدِّم الشعيريّة في تشايناتاون». ونطلق بحثاً عن هونغ فات. الريح تزأر، والأمطار تلسع. والطبيعة كلها أفلت عِقالها، تعاطُفاً مع كيتي.

رحنا نراقب العاصفة، وقد جنحنا للمرة الأولى منذ سنين عديدة في نيويورك على امتداد أسابيع، وهي تختزل مانهاتن إلى سارية عائمة على البحر الذي يكتنفها. ومع ازدياد ضراوة العاصفة، ازدادت حالة كيتي سوءاً أيضاً.

بعد زوال تأثير المُهدّئات، تُصبح شرسة. تطرد كلوي من علّيتها، ويثور غضبها على فرانك عندما يأتي لكي يصبغ لها شعرها، وترفض أنْ تدع لصوق النتروغليسيرين تقوم بعملها على صدرها. ودائماً تنسى سبب وجود اللصقة هناك وتنزعها في ثورة حنق. وتنقر على صدرها، «ما هذا؟ ما هذا؟».

ويثور غضب العاصفة كما غضب صاحبنا لير.

أنا وأختي الأصغر سناً نتناوب على زيارتها. وأخيراً نُقنع الوكالة بإرسال مُدبّرة منزل أخرى. ماذا في وسعنا أنْ نفعل بحقّ الله والقضيّة تتلكّأ في المحكمة؟ إنَّ كيتي ليست مؤهّلة للإقامة في المنزل حتى مع وجود شخص يعتني بها. سوف نُضطر إلى البحث عن دار للرعاية من أجلها وإقناعها بدخولها. لن يكون القاضي سعيداً، ولكنْ على الأقلّ سوف تكون كيتي على قيد الحياة.

لم أكنْ في حاجة إلى مَنْ يُخبرني بأنَّ معظم دور الرعاية شديدة البرودة. كنتُ أعرفها كلها. ولكن كانت هناك واحدة، قال الأصدقاء إنها استثنائيّة. كانت قُدوة في وسائل الراحة - نظيفة، جميلة، ممتلئة بالقطع الفنيّة. لكنَّ لائحة الانتظار كانت طويلة: كان الحصول على مكان يستغرقُ وقتاً طويلاً جداً، كما قيل لي. كانت عملية الانتساب أشبه بمحاولة إدخال طفلك مدرسة خاصة ممتازة. لا يمكن إلا للقرعة والعلاقات العامة أن تُتيح لك الانتساب. والقرعة والعلاقات العامة هي المُفضّلة لدى صهري. كان موجوداً في فلوريدا، يُدير الجمعيّة الخيريّة اليهوديّة عبر الهاتف والفاكس. كان رئيس عُصبة بالم بيتش ستيرن.

قال «أحضري لي لائحة بهيئة المدراء». وبعد يومين نقلوني بسيارة مع سائق خاص تابعة للمدير أبيض الشعر لدار الرعاية اليهوديّة للمُسنّين.

قلت، عندما فُتِحَ باب السيارة «مايسترو»، لأنَّ جيكوب رانغولد، المدير، بدا أشبه بقائد أوركسترا سيمفونيّة أوروبيّة. قابلتني صدمة من الشَعر الأبيض، ووجه متسلّق جبال تركتْ تقلبات الطقس آثارها عليه، وابتسامة ودود، وأسلوب يميل إلى الحديث مُتبّل بالـ *mamaloschen* (لغة الأم). تحدثنا عن الموسيقى، والفن، وأوروبا، واليابان، والجبال، والبحار - عن كل شيء ما عدا كيتي. كان تودّداً. والهدف كان تخصيص سرير لكيتي، ولكن سأكون أنا بمثابة المهر.

منزل رعاية المُسنّين العبري مزدحم بالتُحف الفنيّة الحديثة (أهداه

أقرباء توّاقون إلى التخلُّص من كبارهم في السن)، ومملوء بالمبتكرات – مغاسل وأحواض تطفو في الهواء – صُمِّمَتْ خصيصاً من أجل الشيوخ العجزة. وهناك مناظر جميلة لنهر هدسن، وصالونات لتصفيف الشَعر، وصالات للألعاب الرياضية، ومُحترفات للفن. هذه هي نقطة التوقُّف التالية بعد المُنتجع! الفرق هو أننا هنا لا نأمل في أنْ تعوِّض اللياقة البدنيّة عن الصحّة في المُستقبل. هذه نهاية الخط. هذا هو المكان الذي تلجأ إليه إذا كنتَ ثريّاً أو مشهوراً بما يكفي لتستحق خَرَف الحالة الفنيّة.

صرخت امرأة تجرّ نفسها خلف مُرافقتها في المشي في وحدة الخرَف الأوّلي، «اخرجي من هنا، أيتها الشيء الأسود الكبير!». والمُرافقة المقصودة بدتْ شاردة، كأنها تركِّز على وجبة غداء، أو تتذكّر ممارسة الحب في الليلة السابقة. لقد تدرّبتْ على تجاهُل نوبات الهذيان تلك.

يقول المايسترو «إنها لا تعلَم أين هي. كثير منهم لا يعلمون».

هنا الشخص العظيم أو شبه العظيم مُرحَّب به – أو هكذا بدا لي في تلك الزيارة. هنا مُخيَّم تجمُّع الشخصيات البارزة السابقة وأصحاب النفوذ السابقين وأصحاب القرار السابقين الذين لم يعُد أقرباؤهم يُريدونهم.

هناك مجانين أقرباء لبارونات وسائل الإعلام، وأخوات نجوم سينما، وأمهات دبلوماسيين مشاهير. رودولف بينج موجود في وحدة الخَرَف الأوّلي ونات هولمن في القسم العادي – أي وحدة الذين مشكلتهم الوحيدة أنهم عجائز. هل هذا أفضل من صُنع ملائكة من الثلج في كاربونديل؟ مَنْ يدري؟ عندما يحين وقت إيداعك هذا المكان، لا تعود تعرف.

يقول المايسترو «عِديني بأنكِ سوف تُطلقين النار عليّ، يا عزيزتي، قبل أنْ تضطري إلى إيداعي هذا المكان».

ومع ذلك يبدو النزلاء سعداء – حسب فهمك للكلمة. في وحدة مرضى الزهايمر، سيدة عجوز تضع قلنسوة زرقاء، ورجل يُحدِّق يرتدي

قميصاً عليه مُربّعات وشعره مُشعّث، وعجوز متجهمة بارزة الذقن، تجلس على طاولة في غرفة تُحاكي مطبخاً في مُسلسل كوميدي عائلي. ولكن لا أحد منهم يتفاعل مع الآخر. إنه حتى لا يُعادل اللعب على عربة أطفال متحركة. ذات القلنسوة الزرقاء تنقّب في ملابس عتيقة. (يقول المايسترو «في الواقع، إنهم بهذه الطريقة يستهلكون قِواهم. إنه نوع من العلاج») وذو القميص المُربَّع يعبث بالطعام الموضوع أمامه على صينيّة. وصاحبة الذقن البارز تُغمغم - لا تُخاطب أحداً مُعيَّناً - «سوف أحرص على أنْ تقع في المشكلات! سوف أتصل بالحاكم. إنه يعرفني! إنني أُدير شركة كبرى! إنني أساوي ملايين! لا أحد يضحك عليّ!».

أحياناً الشيخوخة تجرِّد المرء من مظهر التحضُّر الخادع، لا تترك إلا بقايا عِدائيّة وعُدوانيّة من الطبيعة الإنسانيّة. أحياناً تترك المزايا الاجتماعيّة سليمة إلى أنْ يُقدِّم أحدهم الطعام لك أولاً أو يأخذ قبعتك. (يقول نزيل آخر، وهو ينتزع القلنسوة الزرقاء: هذه *لي*!». «كلا *ليست* لك!») وهذا يُذكّرني بمراقبة طفلين في عمر سنتين داخل صندوق الرمال - ولكن ذينك الطفلين أشدّ ظُرفاً، بوجنتين ممتلئتين وأصابع ورديّة تقطع شوطاً طويلاً تحو ترقيق نظرتنا إلى السلوك العدواني. وعندما يمتلئ الوجه بالأكياس الدهنيّة والشعر النامي، حتى أشدّنا تنويراً يجده أقلّ جاذبيّة. إنَّ ملائكة الثلج تبدو حلاً أفضل. إنَّ كل هؤلاء العجائز الأثرياء يستنزفون موارد يمكن أنْ تُطعِم وتُعلِّم مُدُناً بأكملها. هل هذا حلٌّ جيد للجنس البشري؟ من السهل طرح مثل هذا السؤال لكنَّ الإجابة عنه أصعب. كل ما أعرف هو أنني لستُ مُقدِمة على جعل كيتي تنساب فوق طوف جليدي أو أدفعَها إلى الثلوج. ربما هذا المكان وُجِدَ لاستعباد ضمائر الأثرياء والأقرباء أصحاب النفوذ، لكنه مع ذلك يبقى أعجوبة. ولوحات وارهول وبيكاسو وإرته[3] شواهد على إحساسنا بالذنب.

3- إرته: اسمه الحقيقي *رومان دو تاروف* (1892 -1990): رسام ومصمم أزياء. ولد في روسيا. معروف بأزيائه المبهرجة ولوحاته لفولي بيرجير في باريس - المترجم.

ومديرنا هو بديلنا، هو نائبنا.

يسأل، بفصاحة «أتعلمين لماذا لا أستطيع أبداً أنْ أُقيم علاقة حب؟ خشية أنْ أحجز غرفة في فندق على الطريق ويراني شخص ويسألني: هيه، جيك - كيف حال أمي؟».

بوصفِه أصغر مجموعة من الأطفال، وُلِدَ المايسترو ميالاً بالفطرة إلى العناية بالآخرين، ومُعيلاً مُعيَّناً لعائلته. لا أحد يحصل على عمل كهذا بالمُصادفة. إنه بارع في رعاية الآخرين، يتولى إدارة تلك المنظومة المتناغمة من الإحساس بالذنب، وإنكار الذات، وجمع التمويل الذي يجعل لهذا المكان وجود.

يقول «إنَّ معظمهم مُصاب بسلس البول، ولكن لا تشمين رائحة بول. كيف نفعل ذلك؟ إننا نقوم بالتنظيف *طوال* الوقت، هكذا نفعل».

والحق هو أنَّ المكان يفوح برائحة النظافة والنضارة، رائحة المال. إنَّ دار الرعاية العبريّة للمسنّين، كصوت دايزي بيوكانون[4]، شاهدة على كل ما يمكن للمال أنْ يُنجِزه. وعلى الرغم من ابتهاجي لوجود مكان كهذا، إلا أنني أيضاً مضطربة. حتى في مرحلة الشيخوخة الخرفة لا توجد مُساواة. خاصة في تلك المرحلة.

أذهبُ إلى المنزل حاملة رسالة من دار الرعاية، تعِدُ فيها بقبول كيتي نزيلة فيها.

كادت المهمّة تنتهي. ولكنْ يبقى هناك إقناع القاضي الصينيّ.

ماذا أتذكّر عن الخالة كيتي قبل أنْ تصل إلى هذه المرحلة الحرجة؟

لم يُسمَح لي أبداً برؤيتها كثيراً بسبب العداوة الغامضة بينها وبين أمي. ومع ذلك، أتذكّر أشياء معيَّنة.

أتذكّر أنني ذهبتُ إلى شقّتها التي تغمرها أشعة الشمس وتواجه جادة

4- دايزي بيوكانون: بطلة رواية *«غاتسبي العظيم»* لـ ف. سكوت فيتزجيرالد - المترجم.

ويست إند وفتّشتُ في أغراضها: دروعها الصغيرة من أجل التشكيل بالغضار، وأقنعتها الإفريقيّة وتمائمها المحفورة، ومكتبتها التي تضم كُتُباً مُذهلة.

إنَّ كيتي هي التي عرَّفتني إلى الكاتبة كوليت، عندما أعطتني رواية *«شيري»* و*«نهاية شيري»* لكي أقرأهما عندما كنتُ في الخامسة عشرة وأصغر بكثير من أنْ أفهم الحب المشبوب لامرأة في التاسعة والأربعين، لرجل وسيم في العشرينيات. وكالكثير ممَّن ليس لديهم أطفال من صُلبهم، لم تفهم كيتي الأطفال. ولكن كان هذا الأمر مُحرِّراً. لقد عاملتني كأنني بالغة - دون إصدار أحكام وبعيداً عن الرصانة الواقية الأبويّة المتكلِّفة. وبعد مرور سنين، عندما أصبحتُ في أربعينيات عمري وأعاني من حب شاب أصغر مني بكثير، أعدتُ قراءة نسخة من *«شيري»* ومن *«نهاية شيري»* اللتين كانت كيتي قد أهدتهما إليّ. وأخيراً، شعرتُ بالامتنان لتلك الهدية. كان عليها أنْ تنتظر وقتاً طويلاً على رف مكتبتي إلى أنْ تتطابق حياتي مع أجوائها، ولكن لا بدّ أنَّ كيتي كانت تعلم هذا أيضاً بصورة ما.

في فاير أيلند، في إيست هامبتون، في المنازل التي تقاسمتها كيتي مع صديقتها ماكسين، كانت تسود دائماً روح غريبة. ليس بسبب جو الأعمال الفنيّة العارية أو كون المرأتين تنامان في سرير واحد. ففي المنزل الذي نشأتُ فيه كانت هناك أيضاً الكثير من الأعمال العارية، ولكن ما كان مُحرِّراً أكثر في منزل كيتي هو الحضور الكلي للجنس في أرجاء المكان. كان الأزواج من كل الأنواع يأتون. كانت أمي تُتمتم بغموض عن «التأثيرات السيئة. لكنني تذوّقتُ أول طعم للحريّة في ذلك المنزل. لقد كان عالماً لا تحكمه أصول الحياة البورجوازيّة، الحياة فيه نسبياً أكثر ثراءً وامتلاءً بالمُمكن. كان أشبه بمُخيَّم صيفيّ غريب الأجواء مُخصّص للبالغين - وبالنسبة إليّ كان يفوح بعبق التحرُّر: التحرُّر من الأعراف، التحرُّر من الروابط العائليّة. تلك الروح الغريبة منحتني جزءاً من نفسي، أكّدتْ عليّ وسط فوضويَّتي - الجنسيّة وغيرها.

لم أدع نفسي أبداً أحبّ كيتي علناً، لأنَّ أمي بيّنتْ بوضوح أنها تعتبر ذلك خيانة. ومع ذلك، شكّلَ أسلوب حياة كيتي جزءاً من ثقافتي. لقد بيّن لي أسلوب حياتها أنَّ هناك أكواناً بديلة، وأصواتاً أخرى، وغُرفاً أخرى.

بمعنى ما، أعتقد أنَّ أمي كرهت كيتي بسبب الحريّة التي سمحت بها لنفسها. أمي أيضاً كانت قد بدأتْ بوهيميّة، ومن ثم أسَرَتها الحياة البورجوازيّة. كمٌّ من ضغينتها القديمة على أختها سببها كراهيتها للمثليّة الجنسيّة؟ وكمٌّ منها بسبب حبٍّ فاشل؟ لقد كانت أمي تعبد كيتي ذات يوم، وكان حقدها الشديد من العنف بحيث لا يمكن إلا أنْ يكون نتيجة حبّ أخفق.

إننا نعيشُ في عالمٍ مُقسَّم إلى «مثليّ» و«طبيعيّ». لقد جزّأنا ثقافتنا الجنسيّة. ولكن لماذا؟ هل الأمر كلّه قضيّة سياسيّة؟ وهل تتعارض السياسة مع إنسانيتنا؟ من الواضح أنَّ المثليين لا يستطيعون أنْ يُطالبوا بحقوقهم المدنيّة إلا إذا انتظموا في مجموعات. من الواضح أنهم في حاجة إلى الحقوق نفسها فيما يتعلّق بالميراث، والزواج، والرعاية الصحيّة، وحضانة الأطفال، ككلِ إنسان. لكنَّ هذا التقسيم للعالم إلى «مثليّ» و«طبيعيّ» هو ضد الطبيعة الإنسانيّة كما أعرفها. قد يكون هناك عشّاق مثليّون، ولكنِ هل هذا يعني أنَّ هناك *أناساً* مثليين؟ هل للحب بالضرورة جنس؟ إنَّ أعظم علاقات الحب تُغيِّر جنسها. أعظم علاقات الحب تتبادل الأدوار بين ذكر وأنثى. ثم ما معنى «ذكر» و«أنثى»؟ أليستا *صفتين* وليس شخصَين؟

فقط عندما كنتُ يافعة ومغسولة الدماغ وأنظر إلى نفسي بطريقة سيئة تخيّلتُ أنَّ القضيب الذكري هو الأداة الوحيدة للحبّ. إنَّ أفضل مَنْ أحببتُ من الرجال في حياتي كانوا دائماً يتصفون بمزيّة الرعاية، وأفضل النساء اللواتي أحببتُ كنَّ دائماً مُقاتلات.

في مجتمع سليم العقل، يجرّب الرجال والنساء تبادُل الجنسَين

وعلاقات الحب ببساطة تعادل بساطة تغيير ملابسهم. وكيتي هي التي علَّمتني هذا كله بصورة ما، ورفض أمي لها عرَّفني إلى وجود النزعة التطهيريّة التي لم أرغب أبداً في أنْ تكون من صِفاتي.

لقد كان درب كيتي مختلفاً عن درب أمي. ومع ذلك، ومن نواح متعددة، كانت مُميَّزة بخياراتها الجنسيّة بقدر تميُّز أمي بخياراتها. قد تكون عشقتْ النساء، لكنّها أيضاً عشِقتْ *كما* تعشق المرأة. لقد تخلّتْ عن السلطة من أجل عيش حياة المنزل وحياة الفنانة، وعندما أصبحتْ عجوزاً ومريضة، لم يكن هناك مَنْ يعتني بها. لا أحد غيري أنا - المنقوصة كعنايتي. كنتُ قد وصلت إلى منتصف طريق حياتي عندما اكتشفتُ أنَّ في استطاعتي أنْ أجد مُتّسعاً للكتابة وللعناية.

إنَّ كون المرء كائناً بشرياً أهمّ بكثير من كونه كاتباً. أم هل أقول إنَّ الكتابة تُصبح مهمة فقط عندما تُنضِج إنسانيتك؟

بعد دخول كيتي دار رعاية المسنين العبرية بشهر، أقوم بزيارتها. القضية لا تزال مستمرة في المحكمة، ولم تُحلّ. تبدو كيتي كأنني لم أرها من سنين عديدة. وجنتاها متوردتان، وشعرها مقصوص ومُصفّف.

تقول «هذه صديقتي الحميمة، بيرل، شريكتي في الغرفة».

قدَّمتني إلى سيدة نحيلة بيضاء الشعر وزرقاء العينين تدفع أمامها دواليب المشي.

تقول بيرل «هذه صديقتي الحميمة كيتي. أنا أحبّها».

نذهب أنا وكيتي لنجلس في حجرة جلوس تُشرف على النهر. كان نهر هدسن يتلألأ تحت نور الشتاء.

تقول كيتي «لقد أتيتُ في زيارة ذات يوم فأعجبني الطعام، وبقيت. لكنني قلقة على الشقّة».

«لا تقلقي، كيتي، سوف أمرُّ عليها».

«يجب أنْ أغادر ذات يوم، لكنَّ ذلك يُسبّب لي الاضطراب لسببٍ ما».

«إنك تبدين في أحسن حال».

«إنني أنام جيداً هنا. والناس ظرفاء. كم الساعة الآن، يا عزيزتي؟ لا أريد أنْ تفوتني وجبة العشاء».

أنظر في ساعة يدي. إنها تُقارب الرابعة والنصف. العشاء يُقدَّم هنا في وقت شرب الشاي، كما في دار الحضانة.

أمشي مع كيتي إلى قاعة الطعام وأجلسُ معها.

هذه وحدة الخَرَف الأوّليّ، والنزلاء في مراحل مختلفة من فقدان الذاكرة.

نجلس على طاولة مُخصّصة لأربعة أشخاص مع امرأة اسمها بلانش لا تتوقف عن لعق شفتيها، وامرأة اسمها بريندا تلتقي ذقنها مع أنفها.

تقول كيتي «أقدّم لكما قريبتي»، لعلّها لم تتذكّر اسمي. «أليس لطيفاً أنْ تزورني؟».

تقول بريندا «أنتِ الشهيرة هنا».

تقول كيتي «أنا لستُ كذلك».

تقول بلانش «نعم، أنتِ كذلك».

تقول بريندا «هناك عرض غنائي ورقص هذه الليلة».

«ألا تستطيعين أنْ تبقي لمشاهدة العرض؟».

أقول «لا أعتقد».

تقول كيتي «أمر مؤسف جداً».

يبدأ توزيع الوجبات على النزلاء. ويُقدَّم لي عصير فاكهة، يأتيني في الحال. أتلفّتُ حولي إلى العجائز الذين يبدون غائصين داخل أنفسهم. إحدى النساء تعتمر قبّعة سوداء كبيرة من ريش النعام. وأخرى تتنقّل من طاولة إلى أخرى تُركّزُ بتمعُّن شديد على لا شيء معيَّن، تتفحّص وجبات باقي النزلاء. والآن تترنّح وتميل مادةً يدها إلى كأس العصير.

تقول كيتي «لماذا تفعلين *هذا*؟ لا تأخذي عصير ابنة أختي».

تستدير المرأة بحركة آليّة وتمشي مبتعدة وهي تعرج.

على الجدار لافتة عليها أعياد ميلاد النزلاء التي وقعتْ في شهر كانون ثاني. وتحت ذلك مُلصَق عليه كلمة شتاء بأحرف مصنوعة من كرات القطن. وتحتها رجل ثلج من القطن. هذه روضة أطفال مُخصّصة للطاعنين في السن. لكنهم يبدون راضين هنا. وخالتي تبدو آمنة وسعيدة. لم أكن قد رأيتها مرة في حياتي هادئة هكذا، تنتظر مجيء صينيّة طعامها.

تقول «يُعجبني الطعام هنا. هل ترغبين في تذوّقه؟».

أقول «كلا، شكراً. يجب أنْ أتناول العشاء في الخارج».

هل أخشى أنْ آكل خوفاً من أنْ أُضطر، كما حصل لبيرسفون في هيدس[5]، إلى البقاء؟

بحلول الساعة الخامسة والنصف أُسرِعُ بمغادرة ذلك المكان، وأعِدها، طبعاً، بأنني سوف أعود قريباً.

5- بيرسيفون: في الأساطير الإغريقيّة، ابنة زيوس وديميتر. اختطفها هيديس وتزوجها وجعلها ملكة العالم السُفلي. ولكن سُمِحَ لها أنْ تُمضي جزءاً من العام على الأرض - المترجم.

-4-
كيف أصبحتُ يهوديّة

«أنْ تكون يهودياً في القرن العشرين
يعني أنْ تتلقّى هدية».

• ميوريبا ريوكيسر، من *«رسالة إلى الجبهة».*

«انتشرتْ أخبار أميركا بسرعة بين الأكواخ الأوروبيّة.
تقول إنه حتى وإنْ لم تكن شوارع *«أرض الذهب*
مُعبَّدة بالذهب، فإنَّ لليهود على الأقلّ فرصة».

• جيف كيسْلوف، من *«يجب أنْ تتذكَّر هذا».*

كلما تقدّمنا في السن في عائلتي، أصبحنا يهوداً أكثر. وقد أعلن والد أمي إلحاده عندما كان شيوعياً في شبابه، لذلك لم نكن ننتمي إلى كنيس ولم نحتفل بسن البلوغ. ولكن انتهى بنا الأمر في دور رعاية عبريّة للمسنّين في مقابر على بواباتها أحرف عِبريّة. بهذه الطريقة يُطالب إرثنا بنا – حتى في أميركا، أرضنا الموعودة. في عائلتي، إذا كنت لا تزال تحتجّ قائلاً إنك موحِّد، فأنتَ لستَ *عجوزاً* بالقدر الكافي. (أنا أُشير،

طبعاً، إلى أحد أزواجي السابقين الذي، بما أنه تزوّج من غير يهوديّة، يؤدي عباداته في كنيسة توحيديّة محليّة. وأتوقّع لهذا أنْ يتغيَّر).

من ناحية أخرى، يُرسل والدي نقوداً إلى إسرائيل ويحمل معه بطاقة يُفتَرَض أنها تيسِّر دخوله مستشفى جبل سيناء، وبعد ذلك، الجنّة، بوصفه الواهب الأكبر. هذا هو نوع الأشياء التي كان يمكن أنْ يسخر منها في أيام عروضه على المسرح الهزلي. والآن تؤدي مولي هذه الحركات الساخرة. الشبّان قُساة. ويجب أنْ يكونوا كذلك لكي يحلّوا محلّ العجائز. إنَّ العجائز يُشكّلون عبئاً، لا يتحرّكون، ويتمسّكون بمالهم. وعلى الشبان أنْ يكونوا خشنين إذا أرادوا أنْ يكبروا.

قبل أي شيء، ما مغزى طقس الختان بالنسبة إلى صبيّ يهوديّ؟ *«انتبه. في المرة التالية سوف أقطعه كلّه»*. لذلك فالفتية اليهود شبقون، ولكنّهم أيضاً ممتلئون بالخوف مما إذا كانت قضبانهم سوف تنجو من شبقهم. وألكسندر بورتْنوي[1] هو مثال الصبي اليهوديّ الطيب البدائي. والصبي اليهودي السيِّئ يسكنان الشخص نفسه - إذا لم نقُل رأس القضيب نفسه. أما الفتيات اليهوديات فهنَّ أوفر حظاً. إنَّ حياتهن الجنسيّة نالها ضررٌ أقلّ - مهما كانت النكات التي تدور حول إسقاط قطع ورق الزجاج تُشير ضمناً. إنَّ الفتيات يُسمَح لهنّ بأنْ يكنّ مُثيرات جنسياً ما دمن يبقين ذلك داخل نِطاق العائلة. إنَّ الزواج أمر مُقدَّس ما دمتِ تتزوجين من بديل لأوديب. إنَّ عبارة الزنا اليهوديّ لفظان متناقضان. ولهذا نقرأ كتب أبدايك[2]. إنَّ الرجال اليهود الذين يخدعون ينتهي بهم الأمر إلى أنْ يكونوا نُسخاً من سول واتشتلر[3] أو وودي آلن. في ورطة كبرى. حتى السحاقيات اليهوديات مطلوب أنْ يكون لديهن أوانٍ فضيّة وخزف عليه عِظام سمك من محل تيفاني. مطلوب من

1- ألكسندر بورتني: بطل رواية *«شكوى بورتني»* لفيليب روث. والبطل في رواية يُعاني من عقدة الارتباط المَرضيّ بأمه، ومن شبقه الجنسي المرضيّ - المترجم.

2- جون أبدايك: روائي أميركي.

3- سول واتشلر (ولد عام 1930): محامي أميركي وسياسي جمهوري. شغل منصب القاضي الأعلى لمحكمة النقض في نيويورك - المترجم.

السحاقيات أنْ يقعن في حب نساء يُذكّرنهنّ بأمهاتهن. وفي عصر الدفاع عن حقوق المرأة الذي نحن فيه فهنَّ طبيبات أو مُحاميات.

كيف حدث وأصبحتُ يهوديّة؟ أنا التي لم تتلقَّ أي تعليم دينيّ؟ اليهود يُصنعون بوجود مُعاداة الساميّة - أو هذا ما قاله جان بول سارتر، الذي كان يعلم. وعلى الرغم من الأساطير المُعاكسة، هناك *الكثير* من مُعاداة الساميّة في أميركا (وإلا لقُلنا «في العام القادم في أويستر باي» أو «في مدينة غروس بوينت» بدل «العام القادم في أورشليم[4]»). لكنَّ مُعاداة الساميّة الأميركيّة تتّخذ شكل عنجهيّة طبقيّة بارع. دعيني أُريك ما أعني.

نقول إنَّ أميركا هي مجتمع بلا طبقات، لكنَّ الحقيقة هي أنه ليس كذلك. كل ما في الأمر هو أنَّ فروقنا الطبقيّة أدقّ بكثير من تلك التي في البلاد الأخرى بحيث إننا حتى لا نرى أنها فروقٌ طبقيّة. إنها فروقٌ طبقيّة أميركيّة بصورة فريدة وترافقنا طوال حياتنا. إننا نذهب إلى دار رعاية المُسنين العبريّة ونحن سعداء، لعِلمنا أنّه في المكان الذي يتعلّق بالشيخوخة وبالموت، فقط الذين مثلنا *يُريدوننا*. عندما نكون شباناً وظرفاء، نستطيع أنْ نختلط مع مَنْ ليسوا من اليهود - ولكن مع أفول شمسنا، نرتدّ إلى الكعك وكرات خبز الفطير. نقوم بأعمال خيِّرة - كالتي قمتُ بها بإدخال خالتي إلى مركز الرعاية العبريّ. فجأة نتذكّر - على غرار «الخدمة العامة» في المدرسة الثانوية - أنَّ علينا أنْ نجتهد في إنجاز 613 عمل خيِّر لكي نُعتبَر يهوداً صالحين. في سن الخمسين، نتعامل مع أعمال الخير تلك بجديّة - خلاف أدائنا للخدمات الاجتماعيّة في المدرسة الثانوية. ولكن كم لدينا من الوقت؟ ليس الكثير. الأفضل أنْ نبدأ العمل - خاصة النساء بيننا. نحن لسنا بالضبط مرشّحات للفوز. إنَّ الحاخامات الأرثوذوكس ما زالوا يمنعوننا من الصلاة على حائط المبكى، فلماذا نفترض أنهم سوف يُدخلوننا جنّة اليهود الغامضة؟ إذا كان الرجال يحتاجون إلى 613 عمل خيِّر، أعتقد أنَّ النساء يحتجن إلى 1839 عمل.

4- *«العام القادم في أورشليم»*: مطلع النشيد الذي يُردده يهود الشتات في عيدهم الكبير تعبيراً عن رغبتهم في العودة إلى أرض الميعاد - المترجم.

عندما كنتُ أنشأ في نيويورك التي بدا أنّه يسيطر عليها اليهود الذين فرَّ آباؤهم أو أجدادهم من أوروبا، لم أفكّر بوعي في صِفة اليهوديّة. أو في الطبقة الاجتماعيّة. ومع ذلك تحكّمتْ في حياتي حواجزُ خفيّة - حواجز ما زالت قائمة.

حتى في عهد الطفولة علِمتُ أنَّ صديقتي الحميمة، غليندا غلاسكوك، التي كانت تنتمي إلى الكنيسة الأسقفيّة والتحقتْ بمدرسة خاصة، تُعتبَر أكثر رُقياً منّي. كنّا نُقيم في الوحدة السكنيّة القوطيّة الكئيبة نفسها بجوار سنترال بارك ويست. وكلانا كان لها أبوان من الفنانين. لكنَّ اسم غليندا ينتهي بلفظ «**كوك**»[5] واسمي لا ينتهي به. وكنتُ أعلم أنَّ الأسماء التي تنتهي بلفظ كوك في أصلها أكثر رُقياً.

ماذا كان اسمي على أي حال؟

وُلِدَ والدي حاملاً اسم وايزمان ثم أصبح مان. وكان والدا أمي اليهوديان الروسيان يُسمّيانها يهودا عندما وُلِدَتْ في إنكلترا، لكن موظف مكتب التسجيل المُتصلِّب غيَّره أولاً إلى جوديث ومن ثم إلى إديث («اسمان إنكليزيان محترمان») - تاركاً انطباعاً بأنَّ اليهود لا يُسمح لهم حتى بالاحتفاظ بأسمائهم الخاصة. كانت الثقافة السائدة حول منطقتنا (الذهنيّة) تتطلّب أسماء ليس لها جرس يهودي أو أجنبي. وهذا أيضاً ترك انطباعاً قوياً.

كانت هناك تصنيفات للأميركيين في بلدنا المُفترَض أنه مُساواتيّ، وأنا لا أنتمي إلى الفئة الأفضل (على غرار عبارة «ملابس أفضل»). غليندا كانت تنتمي إليها. كنيتها تنمُّ عن ذلك. حتى لقبها - الفتيات اليهوديات لم يكنَّ حينئذٍ يحملنَ ألقاب تَحبُّب كلقب غليني - قد نمَّ عن ذلك. ومع ذلك كنا متقاربتين كتوأم، كأفضل الصديقات، لا نتوقف عن زيارة كل منا الأخرى في شقّتينا - إلى أنْ حدث ذات يوم وكنا معاً في الحمّام واتّهمتني بأنني تبوّلتُ في مياه حوض الاستحمام لأنَّ هذا «ما

5- كوك، يعني قضيب - المترجم.

يفعله اليهود». فثار غضبي، لأنني لم أقُم بمثل ذلك العمل. (إلا إذا كانت ذاكرتي تمارس عليّ الرقابة).

«مَنْ قال إنهم يفعلون ذلك؟».

قالت غليندا بثقة «أمي».

نقلتُ هذا الحديث إلى والديّ وجدّيّ، وسادت صداقتي مع غليندا برودةٌ غامضة.

ثم انتقلتْ هي إلى مدرسة خاصة. وأنا لم أنتقل. كنتُ ألتحق بما يُسمّى «برنامج الموهوبين فكرياً – في المدرسة الحكوميّة رقم 87، الكائنة عند تقاطع الشارع السابع والسبعين وجادة أمستردام. كانت مبنى ضخماً حينئذٍ على الطراز الفيكتوري، لها مدخلان واحد للفتيات وآخر للفتيان. وهناك اكتشفتُ تصنيفات طبقيّة أخرى. كلما كان مسكنكَ قريباً من سنترال بارك ويست وكان المبنى الذي تُقيم فيه «أفضل» كنتَ راقياً أكثر. الآن أصبح لي موقعٌ اجتماعيّ. الأدنى مني كانوا الأطفال اليهود الأشدّ فقراً الذين نجا آباؤهم من المِحرقة وأقاموا في مبانٍ أدنى مستوى أبعد نحو الغرب، أطفالاً أيرلنديين عاشوا في مساكن تقع في شوارع جانبيّة، والأعداد القليلة الأولى من الأطفال الذين وصلوا من بويرتو ريكو إلى نيويورك أقاموا في منازل أخرى، في شوارع جانبية تشبه التي ظهرت في فيلم «قصة الحي الغربي». وفي حقبة الأربعينيات، كانت نيويورك أبعد ما يمكن عن الاندماج العِرقيّ. ولم أقابل أطفالاً سوداً من حي هارلم إلى أنْ التحقتُ بالمدرسة الثانوية للموسيقى والفنون، حيث الموهبة، وليس الحيّ، هو المؤهِّل. الأفارقة-الأميركيون الوحيدون الذين قابلناهم – كانوا يُسمّون بالزنوج حينئذ – كانوا خدَماً. في عهد الطفولة، كان عالمي يهودياً، أيرلندياً، وإسبانياً – واليهود هم المهيمنون على الجميع.

في ذلك الوقت كان الأطفال البيض البروتستانت من أصول أوروبيّة WASP يوجدون في المدرسة الخاصة، يُقابلون أمثالهم لكي يلتحقوا بجامعة ييل، ويُديرون الـ CIA، ويحكمون العالم (كما فعل جورج

وباربرة بوش). الأطفال اليهود لم يكونوا يلتحقون بالمدارس الخاصة في نيويورك *ذلك* الزمان - إلا إذا كانوا فاحشي الثراء، ويُعانون من مشكلات في الانضباط، أو كانوا أرثوذوكساً.

سرعان ما أدركتُ أنَّني في مدرستي كنتُ من الطبقة الراقية، وأنني في العالم لم أكن كذلك. فالأطفال الذين يظهرون في العروض التلفزيونيّة وفي كتب القراءة الأولى لا يحملون أسماء مثل وايزمان، رابينوفيتش، وبلوتكين، وراتنر، أو كيسلْغوف. وحتماً ليس غونثاليس أو أوشيا. كانت هناك أميركا أخرى في عالم التلفزيون ولم نكن نشكّل جزءاً منه. في تلك الأميركا الأخرى، كانت الفتيات يحملن أسماء على غرار غيدجت والفتية لهم أسماء مثل بيفر ويفر. لم يكن عالمنا موجوداً - إلا عندما تُدرج أسماء المشتركين في فيلم.

باستبعادنا من تلك الأميركا *اللائقة*، تعلّمنا أنْ نتحكَّم بها بإعادة اختراعها (أو بتمثيلها - كما في أي وكيل). بعض آبائنا فعلوا ذلك كممثلين، ومُنتجين، أو كتّاب، لذلك كنا نعلم أنَّ ذلك ممرٌ مُحتَمَل لنا. الآخرون كانوا رجال أعمال، أو فنانين تحوّلوا إلى رجال أعمال - كوالدي. والمشكلة كانت أننا كنا منبوذين نتوقُ إلى أنْ نُصبح مقبولين. وفي تلك الأيام، علِمنا أنَّ جامعتَي برينستون وييل قد لا ترغبان بقبولنا - إلا إذا كنا أثرياء إلى درجة شراء الجامعة. كنا نعلم أنَّ الأحرف الأولى التي تمثّلنا هي MCA (متحف الفن المعاصر) وليس CIA. كنا نعلم أننا لم نولَد في طبقة حاكمة، لذلك اخترعنا طبقتنا الخاصة الحاكمة. مايك أوفيتز[6]، بدل جورج بوش. وسويفتي لازار[7]، بدل بيل كلينتون. ومورت جانكلو[8]، بدل آل غور.

كم تغيَّر العالم منذ حقبة الأربعينيات! وما *أقلّ* ما تغيَّر! فيما عدا هنري

6- مايك أوفيتز: رجل أعمال ومُستثمر أميركي. ساهم في إنشاء وكالة الفنانين المُبدعين.

7- سويفتي لازار: مكتشِف مواهب أميركي في مجال التمثيل والتأليف الأدبي.

8- مورت جانكلو : أحد أكبر وكلاء الأدباء في أميركا.

كيسنجر، مَنْ الذي غيَّر هذه القوانين عن الطبقة والطائفة؟ ولا حتى مايك أوفيتز. إنَّ ما ترى أبويك يفعلانه هو ما تعتقد أنَّ في استطاعتك *أنتَ* أنْ تقوم به. وهكذا نُعرَّف، ونُصمَّم. وبما أنَّ والدي كان مؤلِّف أغاني وموسيقي تحوّل إلى مُستورِد، وجدّي يرسم لوحات شخصيّة، وأمي مُدبّرة منزل ورسّامة لوحات شخصيّة، *افترضتُ* أنني سوف أقوم بعملٍ مُبدِع. *وافترضتُ* فقط أيضاً أنني سوف أتخرَّج من الجامعة، وأعيش في «بناء راقٍ» إلى الأبد. وافترضتُ أيضاً أنني لن أتحوّل أبداً إلى أي شيء آخر كما تفعل تلك العائلات الأميركيّة التي شاهدتها في التلفزيون.

كانت عائلتي فخورة بشراسة بكونها يهوديّة، ولكن ليس من الناحيّة الدينيّة – إلا إذا كانت ديانتنا تشتري أحذية ميري جين إنكليزيّة جديدة من محلات ساكس وكساء للقدمين من الجلد الإنكليزي ومعاطف تشسترفيلد بياقة من المخمل من محلات بينا. كنا نرتدي ملابسنا كأننا أميرات إنكليزيات صغيرات، وفهمتُ أنَّ تلك هي الطبقة التي طمحنا إلى بلوغها.

إنَّ الثوب يحكي لك كل شيء عن الطموح. لقد كرهت كساء الساقين الجلدي اللعين لكنني اضطررتُ إلى ارتدائه لأنَّ الأميرتين إليزابيث ومارغريت فعلتا ذلك. فكيف أصبحتا هما أميرتين لليهود؟ الأفضل ألا نسأل. لقد كان مفهوماً ضمنياً، تماماً كما كان مفهوماً أنَّ غلاسكوك كان اسماً أفضل من وايزمان (أو حتى مان).

إنني أبتسم وأنا أكتبُ هذا. إنني أحاول (أخشى أنها محاولة خرقاء) أنْ ألج من جديد عالم نيويورك حقبة أربعينيات القرن الماضي بدُورِ عروضها السينمائيّة «مكيَّفة الهواء» (المُكتملة بالشخصيات الفخمة وبأقسام خاصة بالأطفال، أرضيتها مكسوة بالأغلفة الورقيّة)، ومظلاتها المُخطَّطة على الأبنيّة السكنيّة في فصل الصيف، وحافلتها الرخيصة، ومراكز الهاتف (الخاصّ بي كان إنديكوت2)، ومحلات بيع السكاكر ونوافير الصودا، ونُضُد تناول الغذاء الرخاميّة التي تبيع ألذّ شطائر اللحم المُقدَّد، والخس، والبندورة، وأكواز المثلجات الطازجة.

لقد اندثرتْ، اندثرتْ إلى الأبد. ولكن كما أعاد امتداد أشعة الشمس على سلسلة من حجارة الرصيف أو مذاق الكعك المغموس بالشاي بروست[9] إلى طفولته السعيدة، أتوقفُ أنا أحياناً عند منعطف شارع في نيويورك وأعود إلى حقبة الأربعينيات. الروائح تفعل ذلك. ما زالت مداخل محطة قطار الأنفاق تنفثُ، أحياناً، دفقاً من رائحة العلكة المنفوخة كالقطن، ممزوجة برائحة العرق والفشار، مع البول وأيضاً البيرة (الذي تولَّدَ عنها). وعندما أستنشق بعمق، أعود إلى سن السادسة، وأنا واقفة في النفق، مُحدّقة إلى غابة من الرُكَبْ. في عهد الطفولة، تشعر بأنك لن تكبُر أبداً. وأنَّ العالم سوف يبقى دائماً مُبهماً. أولاً يكون الأكل هو أهمّ شيء، ثم يُصبح لك اسم، ثم تصبح فرداً من عائلة، ثم تبدأ بطرح الأسئلة الصعبة عن الأفضل/ الأسوأ التي هي بداية الوعي الطبقيّ. إنَّ الكائنات البشريّة هي حيوانات ذات ترتيب هَرَميّ بالفِطرة، والديمقراطيّة ليست ديانتهم الأصليّة.

في مدرسة الأحداث العالية انفتحَ عالمي إلى ما بعد الشارع السابع والسبعين والويست سايد. ولأنَّ والديّ وأنا كنا نرتعب من جو العنف السائد في مدرسة الأحداث العالية المحليّة، التحقتُ بمدرسة خاصّة – وهي مكان هزليّ ممتع حيث الطلاب الذين يدفعون نقوداً هم يهود من بارك آفنيو، وطلابُ المنح الدراسيّة في معظمهم من البيض الأوروبيين من واشنطن هايتس آباؤهم بروفسورات، ورجال دين، ومبشّرون.

الأساتذة كانوا من غير اليهود ومن الوافدين البيض من أصل أوروبيّ، من نوع الطلاب الحاصلين على المنح الدراسيّة، ويحملون الأسماء اللائقة ذات الجرس الأميركي كالذين يظهرون في التلفزيون. كانت المدرسة قد افتُتِحَتْ على أيدي سيّدتين مهيبتين من نيو إنغلند هما مس بيرش ومس واثن، لعلهما عشيقتان – ولكن في تلك الأيام كنا ننعتهما

9- بالمناسبة، أنا لا أُقارن نفسي ببروست، ولكن هل يُسمح لي بأنْ أكون قد قرأته؟ – المؤلِّفة.

بالعانستين. إحداهما كانت تشبه غرترود شتاين، والأخرى تشبه أليس ب. توكلاس. كانتا تنطقان كلمة shirt وكأنها تحتوي ثلاثة أحرف i في منتصفها، وتنطقان كلمة poetry وكأنها poy-et-try (وتنطقان poy كأنها goy). كنتُ أعلم أنَّ ذلك دلالة على الرقيّ. كنتُ أعلم أنها سِمة البيض الوافدين.

في مدرسة بيرش-واثن، كان معظم الأطفال اليهود أكثر ثراءً مني وكانوا يُقيمون في إيست سايد في شُقق مملوءة بالقطع الفنيّة باهظة الثمن وبعضهم يحمل أسماءً ألمانيّة. كانوا يتردّدون على معبد إيمانويل - الآن أقربائي يُسمّونه بالمعبد الأسقفيّ - يتلقون دروس الرقص وحُسن السلوك (يا له من تعبير عتيق الطِراز!) في معهد فيولا وولف. ومن جديد برز إحساسي الطبقيّ. مع وجود جديّ الروسيين ومنزلي البوهيميّ في ويست سايد، لم أكن أتلاءم مع أولئك الأطفال أيضاً. وأطفال المِنح الدراسيّة كانوا يتكتّلون معاً. كنتُ أجدهم قذرين - على الرغم من أنني الآن أُدركُ أنهم لا بدّ كانوا خائفين من الموت. والطلاب الذين يدفعون نقوداً كانوا يحصلون على المُخصّصات الأكبر - وبعضهم كان يأتي إلى المدرسة بسيارات كاديلاك، ولينكولن، ورولز رويس، مع سائق خاصّ. لا بدّ أنَّ ذلك كان يُصيب بالإحباط الأطفال الذين يستقلّون قطار الأنفاق. وأصابني أنا بالإحباط.

التعصُّب شرذمنا. انضمّ أطفال البارك آفنيو إلى أقرانهم. وفعل أطفال المِنح الدراسيّة الأمر نفسه.

كنتُ أتنقّل بين المجموعتين، لا أعرفُ إلى أيّهما أنتمي، تارة أسرق المعروضات من محلات ساكس مع الأطفال الأثرياء (صرتُ أعلم أنه كلما ازداد ثراء الأطفال، ازدادت سرقاتهم)، وطوراً أذهبُ إلى كولومبيا مع أطفال المنح الدراسيّة (الذين كان آباؤهم بروفسورات). شعرتُ بأنني لا أنتمي إلى أيّ منهما. ولإحساسي بالخزي لأنَّ والدي كان رجل أعمال، كنتُ أتمنى لو كان بروفسوراً. إذا لم يكن في الإمكان الحصول

على اسم ينتهي بـ *cock*، أو على شقّة في الجادّة الخامسة، فعليك على الأقلّ أنْ تحصل على درجة دكتوراه.

عندما بدأ الدوام في المدرسة الثانوية، انضممتُ إلى عالمٍ جديد آخر - عالم مُختلَط عِرقياً ومملوء بأطفال الأقليات (في ذلك الوَقت سمّيناه هارلم)؛ أولئك الأطفال الذين اختيروا لموهبتهم في الرسم أو الغناء أو العزف على آلة موسيقيّة، شكّلوا أشدّ ما قابلت من المجموعات تنوُّعاً. كانوا ينتمون إلى طبقة الموهوبين. وعلى غرار كل مَنْ لا يشعر بالأمان، يواجهونك بصراحة.

في المدرسة الثانويّة بدأتُ أكتشف طبقتي الحقيقيّة. هنا لم يكن مجال المنافسة هو المال أو اللون أو الحيّ بل مدى براعتك في الرسم أو العزف. في مجال الموسيقى والفن، هناك نظامٌ هَرَميٌّ جديد، إنه نظام براعة الأداء الفردي الهَرَميّة. هل عُرِضَ رسمك في المعرض نصف السنويّ؟ هل اختُرتَ للأداء في فرقة موسيقيّة أو في إذاعة WQXR للموسيقى الكلاسيكيّة؟ في ذلك الوقت، كنا جميعاً نعلم أننا لا ننتمي إلى عالم التلفزيون في أميركا - وكنا فخورين بذلك. وكوننا غير منتمين كان بمثابة وسام استحقاق. لم يكن لدينا فُرَقٌ، أو مُهللون، والزي الرسمي المدرسي الجميل كان ذا سِمة وجوديّة مُبكِّرة: جوارب سوداء، وصنادل مصنوعة يدوياً، وأحمر شِفاه أسود اللون للفتيات: وياقة سوداء ضيّقة، وجينز أسود، وسترات جلديّة سوداء للفتية. وكان الشعر القصير والمنتصب مطلوباً للجنسين. جرّبنا المُخدّرات. وتجولنا في منطقة فيليج آملين أنْ يُظنّ خطأً أننا هيبّيون. حملنا كتباً من تأليف كافكا، وجينيه، وسارتر، وألن غينسبرغ. كنا نُحدِّق بنظرات وجوديّة إلى كوب الكابوتشينو في مقهى رينتزي أو البيكوك. أردنا أنْ نغوي عازفي الجاز السود، لكننا خشينا أنْ نفعل. وأخيراً عثرنا على طبقتنا الخاصّة.

كثيرٌ منا تفوّقوا. واعتُبِرتُ من بين مُغنّيي البوب من زملائي في المدرسة الثانوية، ومُنتجي التلفزيون، والمُخرجين، والممثلين، والرسّامين،

والروائيين. وعديد منهم أسماؤهم معروفة. قليل منهم يكسبون عشرات الملايين من الدولارات في العام. والتحقتْ غالبيتنا بالجامعة - ولكن ليست الشهادات ما حدَّد وضعنا، بل بقاؤنا جذّابين، وارتفاع أسهمنا على لوائح المتفوقين كالصاروخ، والانضمام إلى نقابة تدعمك، أو وجودنا ضمن لائحة الأكثر مبيعاً، ونُترجَم إلى خمسة وعشرين لغة أجنبيّة. حتى البروفسورات حسدونا على *تلك* المكانة: إنَّ التميُّز بالمال وبالاسم يُعادل كل الطبقات الاجتماعيّة في أميركا. وبالتالي الهوس بالشهرة. حتى في أوروبا يمكنكَ أنْ تنتقل إلى «أفضل» الأوساط، على الرغم من أنَّ أصول الانتساب إلى طبقة اجتماعيّة تختلف تماماً هناك.

بعد أنْ أنهيتُ فترة وجودي وسط المجموعة الأوروبيّة القذرة، أشعر دائماً بالذهول من كيف ما زال في إمكان لقب أرستقراطيّ أنْ يُغطي على العديد من الآثام في أوروبا. في إنكلترا، وألمانيا، لا زال لقب لورد أو صاحبة العِصمة، أو *غراف* أو *غرافن*، *فون* أو *تزو*، له وزنه. الإيطاليون أشدّ سُخرية فيما يتعلّق بالألقاب. صديقاتي الأكثر رُقيّاً من إيطاليا قد يحملن ألقاب *كونتيسه، أو مركيزه أو أميرة*، لكنهن أبسط من أنْ يستعرضن ذلك. إنهنَ يُفضلن أنْ يكنَّ مشهورات عبر أغنية ناجحة، أو كتاب مهم. أما الذهاب إلى أحد المنتجعات المائيّة الأنيقة - كسان موريتس، على سبيل المثال - والانتساب إلى أفضل النوادي فما زال يتم عبر لقب العائلة، وليس الإنجاز الشخصيّ. ادخل إلى نادي كورفيغليا وأعلن أنك Ice-T [10] أو مادونا. لن يُسمح لك يا عزيزي، في حين أنَّ أي عجوز يحمل لقب نياركوس أو فون ريبنتروب سوف يدخل. إنَّ العديد من أصدقائي الأوروبيين ما زالوا يسكنون عالماً يمكن فيه لاسم عريق أو ثروة أنْ يصبحا عائقاً *فعلياً* للإنجاز. هناك من الأشياء التي ينبغي تنفيذها *أكثر* من مجرد أنْ يكون لك عمل. فإذا أردتَ أنْ تكون في فلورنسا في شهر أيلول، وفي سولوني في شهر تشرين أول، وفي نيويورك في شهر

10- مغني الراب والممثل ومؤلّف الأغاني الأميركي الشهير - المترجم.

تشرين ثاني، وفي سان بارت في شهر كانون أول وكانون ثاني، وفي سان موريتس في شباط، وفي نيويورك في آذار، وفي اليونان في شهر نيسان، وفي براغ في أيار - فكيف يمكنك بحق الله أنْ تقبل (ناهيك عن أنْ تحتفظ) بعمل؟ والتجهيزات، والحفلات، والمنتجعات الصحيّة، والعلاج من الإدمان! وكما سأل أحد أزواج باربرة هتون[11] ذات مرة: «متى سيتوفّر لدي *وقت* لأعمل؟» إنَّ الطبقة الراقية الحقيقيّة تعني ألا تُضطر أبداً إلى *التحدُّث* عنه (أقصد العمل).

إنَّ الأميركيين في أساسهم غير طبقيّين - لذلك *يكاد* يصلح لليهود. إنَّ كل ما نتحدث عنه هو العمل. وكل ما نريد أنْ نفعل هو أنْ نجعل أسماءنا بارزة إلى درجة لا نعود معها *نحتاج* إلى كنية (والسيدة شيكون[12] هي الأميركيّة المثاليّة هنا). ونحن نؤمن بالتغيير بالحماس نفسه الذي يدفع الأوروبيين إلى الإيمان بالوضع الراهن. نؤمن بأنَّ المال سوف يشتري لنا الجنّة (وتعريف الجنّة هنا هو أنها عضلات ضخمة، وعدم وجود ترهُّل تحت الذقن، وأخذ الفائدة على الفائدة، واسم يبثّ الرعب في رئيس الخدم في مطعم). وحالما يتحقّق ذلك، يمكننا أنْ نباشر بإنقاذ العالم: توظيف بعض المال في بحث حول الإيدز، والغابة المطريّة، والمُرشحين السياسيين. ربما نستطيع حتى أنْ نخوض منافسة المناصب بأنفسنا (انظر ما فعله السيد بيرو[13]). وفي مجتمع يُعتبَر فيه

11- بربارة هتون (1912 - 1979): سيدة مجتمع ومرتادة للحفلات ووارثة فاحشة الثراء. عاشت حياة مُضطربة، انتحرتْ أمّها وأهملها والدها، وأصبحتْ غير قادرة على إقامة علاقات إنسانيّة، تزوجت وطلقت مرات عديدة بسبب استغلال أزواجها لها، وعاشت حياةً بائسة على الرغم من ثرائها، ولجأت إلى الخمر والمخدرات والجنس. كانت تلقّب بـ«الفتاة الصغيرة الثريّة المسكينة» - المترجم.

12- شيكون: الاسم الأصلي لملكة البوب المغنية مادونا. اسمها بالكامل: مادونا لويز شيكون. وهي دائماً تستخدم اسمها الأول ولم تُضطر إلى استخدام كنيتها - المترجم.

13- هنري روس بيرو (ولد عام 1930): قطب اقتصادي أميركي وسياسي سابق. خاض معركة الرئاسة الأميركيّة عام 1992. مؤسس أنظمة البيانات الإلكترونيّة. أصبح مليارديراً - المترجم.

التعرُّف إلى أحد المشاهير هو أهمّ شيء، يكون المشاهير هم الأكثر تعادلاً من أي شخص آخر. ولكن من الصعب جداً الحِفاظ على مكانة شخصيّة مشهورة (كالمحافظة على نضارة جسد يشيخ). إنَّ الأمر يحتاج إلى حشدٍ من المُدرّبين، واختصاصيين في العلاقات العامة، وناشرين، ومُستشارين في وسائل الإعلام. بالإضافة إلى أنكَ يجب أنْ تواظب على الخروج بإنتاج جديد - وربما بفضيحة جديدة. (انظر ما فعله وودي آلن). وربما السبب في أنَّ المشاهير يتزوّجون كثيراً هو ببساطة لكي يُحافظوا على أسمائهم متداولة في نشرات الأخبار. وربما - بقصد منهم أو بغير قصد - يخترعون فضيحة من الترويج لأفلامهم (من جديد، انظر ما يفعله وودي آلن، المولود باسم آلن كونينغسبيرغ).

أه - ها قد عُدنا إلى موضوع اليهود والأسماء. هل نستطيع أنْ نحتفظ بأسمائنا؟ نعم، ما دام في استطاعتنا أنْ نُحافِظ على *شهرتها*. وإلا علينا أيضاً أنْ نغيِّرها. قد نحصل، كما يقول المُنظِّر السياسيّ بنجامين باربر «على أرستقراطيّة كل شخص»، ولكن ليس كل شخص يستطيع أنْ يكون مشهوراً في الحال. وهكذا، يُصبح الحافز إلى التفوُّق بلا رحمة وينطوي على الإدمان في أميركا كما الحِمية. ومهما كنتَ مشهوراً، هناك دائماً خطر أُفول تلك الشهرة.

الأمر يُشبه الفنائيّة إلى حدٍ بعيد، أليس كذلك؟ فلا عجب أنْ يكون شِعارنا «انتهز فرصتك». وهذا ما يجعل أميركا بلداً قلقاً جداً ويجعل أرقى المشاهير فيه يشعرون بعدم الأمان.

آه، يا أصدقائي، كم أتمنى لو أنني وُلِـدتُ مع عضوية في نادي كورفيغليا، ولكن أعتقد أنني حينئذٍ ما كنتُ ألّفتُ أيَّ كتاب.

هل حدث مرّة أنْ تساءلتَ لماذا كان اليهود كُتّاباً لا يعرفون الرحمة؟ ربما اعتقدتَ أنَّ السبب يعود إلى أننا من أهل الكتاب. لعلك اعتقدتَ أنَّ السبب هو أننا انحدرنا من عائلات تُشدِّد على القراءة. ربما اعتقدتَ أنه ينطوي على حافز جنسي مكبوت. إنَّ هذا كله صحيح. لكنني أُقرّ بأنَّ

السبب *الحقيقيّ* هو حاجتنا المُستمرّة لتحديد طبقتنا. بالكتابة نُعيد ابتكار أنفسنا. بالكتابة، نخلقُ شجرة نَسَبنا. إنَّ بعض بطلات رواياتي هنَّ يهوديات مثلي من ويست سايد في نيويورك. لكنَّ البطلات الأثيرات لديّ – فاني في روايتي *«فاني هاكابوت-جونز»*، وجيسيكا في روايتي *Serenissima* (الصافية) – هما اللتان وُلُدتا في القصور الريفيّة، الفارسات الصغيرات الطيِّبات، وتستطيع أنْ تُراهِنَ على أنَّ لديهن عِظام وجنات عالية[14].

لقد نشأتْ فاني في لايمْوورث، المقرّ الريفي للورد بيلارس. ونشأتْ جيسيكا في الجزء العلوي من إيست سايد من مانهاتن، في منطقة *«المستطيل الذهبي»*. كانت تنتسب بكل معنى الكلمة إلى الجن والنادي الريفيّ. ما الذي يدفع بنت ويست سايد إلى ابتكار مثل هاتين البطلتين؟ هل أنا أحاول أنْ أهرب من تصنيفي كفنانة-موسيقيّة؟ المُثير للاهتمام، أنَّ بطلاتي أيضاً يهربن دائماً. فاني تهرب من نشأتها الأرستقراطيّة، وتُصبح مومس تجوب الشوارع، وعاهرة في ماخور، وملكة قراصنة. وجيسيكا تترك الإيست سايد العِلويّ من مانهاتن إلى هوليوود! وكلتاهما تندمان على ما فعلتا، وتعثران على سعادتهما الختاميّة في منزليهما.

إنَّ البطلات اللواتي يُشبهنني *ظاهرياً* – كإيزادورا وينغ وليلي ساند – يُغيِّرن أوضاعهن، أو يُرسّخنها، عبر العمل الإبداعي. أعتقد أنَّ كتابتي تُخبرني شيئاً لا أعي وجوده فيَّ: إنني أكتبُ لأمنح نفسي تصنيفاً، لكي أبتكر اسمي، ومن ثم أوفّر لنفسي مقرّاً ريفيّاً.

أعتقد أنَّ العمليّة لا تختلف كثيراً مع الكتّاب الآخرين – مهما بدا أنَّ كتبهم لا تهتم بالتصنيف. إنَّ أبطال روايات سول بيلو يبدؤون تائهين وينتهون بروفسورات. لكنَّ أفضل أبطاله المُشردين، هندرسن ملك المطر، هو أبيض من أصل أوروبي أرستقراطي يذهب إلى إفريقيا ويتقبّل تعدُّد مصادر ثقافته، وهكذا يعثُر على هويّته الحقيقيّة. وأبطال روايات فيليب روث يهتمون كلهم على قدم المساواة بقضايا التصنيف الاجتماعي

14- دلالة على الجمال، خاصة عند نجمات السينما – المترجم.

والصِفة اليهوديّة. وعلى الرغم من أنهم كلهم تقريباً من اليهود، إلا أنهم يطمحون إلى شقّ طريقهم لينخرطوا في مجتمع البيض من أصول أوروبيّة - وهذه حركة مألوفة بالنسبة إلى المُبدعين اليهود الأميركيين (الذكور). يمكننا أنْ نسمّيها أعراض آني هول. طبعاً وودي آلن حدّدها إلى الأبد عندما يحدث - في أثناء جلوس بطله الذي يتطابق معه على مائدة عشاء عائلة آني هول في الغرب الأوسط، وسط قوم بيض من أصل أوروبي - أنْ تنبت له فجأة ضفائر طويلة ورفيعة[15] وتظهر على رأسه قبعة كبيرة سوداء.

يا للخوف اليهودي-الأميركيّ البدائي! إذا أكلنا طعاماً مُحرّماً[16]، قد تنمو لنا ضفائر فجأة! وربما السبب في أنَّ اليهود في أميركا تبنّوا عيد الشُكر وجعلوه عطلة رسميّة عندهم هو أننا نأمل، إذا اعتبرنا الحجّاج آباءنا، أنْ نخدع بذلك باقي الأميركيين أيضاً!

إنَّ حماي السابق هاوارد فاست هو مِثال مثاليّ هنا. إنَّ كتبه عن الثورة الأميركيّة - *«صباح الاثنين»* و*«المواطن توم بين»* و*«الهسّي[17]»* - تشهد على حنينه إلى جمعية ماي فلور[18] أو على سيدات العصر الكولونيالي في أميركا. لقد كتبَ عن روما القديمة (*«سبارتاكوس»*) وعن هجمة الذهب في سان فرانسيسكو (*«المهاجرون»*)، لكنَّ موضوع تأسيس أميركا هو الذي كان يلحّ عليه مراراً وتكراراً... في قراره، كان هاوارد فاست يتوق إلى نسب غور فيدال.

15- المقصود بها الضفائر الرفيعة التي يُنمّيها اليهود من الرجال على جانبيّ رؤوسهم - المترجم.

16- أي أنه ليس حلالًا، بالعُرف اليهوديّ - المترجم.

17- الهسّي: الشخص الذي ينتسب إلى منطقة هسّ في ألمانيا، والمقصود به أنه جندي من المرتزقة الذين عملوا مع القوات البريطانية في أثناء الثورة الأميركيّة - المترجم.

18- جمعية ماي فلور: جمعيّة شائعة في الولايات المتحدة ولها فروع كثيرة. الغرض منها إحياء ذكرى المهاجرين الأميركيين الأوائل، أو الحجّاج كما يسمّونهم، وعددهم 106، ووصلوا إلى ماي فلور، حالياً اسمها بليموث في ماساتشوستس، عام 1620 - المترجم.

قد يهيم اليهودي على وجهه من مصر إلى ألمانيا إلى أميركا إلى إسرائيل، ويتبنّى لغات مختلفة وشعراً ولون عينين، لكنه يبقى مع ذلك يهودياً. وما هو اليهودي؟ اليهودي شخصٌ لا يشعر بالأمان *في أي مكان* (بمعنى، أنّه دائماً مُعرَّضٌ لأنْ ينمو له ضفائر في أوقات غير مناسِبة). اليهوديّ هو الذي يستطيع أنْ يتحوَّل إلى المسيحيّة من الآن وحتى يوم القيامة، ومع ذلك يقتله هتلر إذا كانت أمّه أو أمّها يهوديّة. وهذا يُفسّر سبب هوس اليهود بأمور الهويّة. إنَّ بقاءنا يعتمد على هذا.

الأميركيون، أيضاً، مهووسون بتعريف الهويّة. في بوتقة الثقافات المتعددة، حيث تُعتبَر الألقاب الأرستقراطيّة شيئاً مُضحكاً (انظر الكونت دراكولا، أو الكونت تشوكولا، عندما يُقدَّم له الأطفال - كوجبة إفطار)، ينبغي علينا دائماً أنْ نختبر حدود الهويّة. وقولُ أندي وارهول إنه في المستقبل سوف يُصبح كل شخص مشهوراً مدة خمس عشرة دقيقة يُصوِّر بدقّة جوهر الورطة الأميركيّة. يمكننا أنْ نُصبح مشهورين، ولكن ربما لن *نبقى* مشهورين. وبعد أنْ نتعرَّف على تلك الشهرة مرة واحدة، كيف سنعيش ما تبقّى لنا من حياة؟ ثمّ، كيف ستتمّكن من الانتساب إلى دار الرعاية العبريّة للمسنّين؟

يبدو أنَّ العديد من الأميركيين محكومون بتعريف وارهول. أتتذكّر جورج بوش وهو يُصارع ليبقى رئيساً للجمهورية رغم المدّ التاريخيّ؟ أو ستيفن كينغ وهو يطمح إلى أنْ يتبوّأ لوائح الكتب الرائجة الثلاث دفعة واحدة؟ أو بيل كلينتون وهو يربط البيت الأبيض بشبكة من خطوط البرق كي يتحول إلى شبكة إعلاميّة بحدّ ذاته؟ لا يمكن للأميركيين أنْ يرتاحوا. ولا يمكنهم أنْ ينضمّوا إلى عضوية النادي الريفيّ ويتسلّوا بالتزلّج ليُصبحوا جزءاً من القرية رائعة الجمال. إنَّ سرعة تزلّجهم لم تكن *أبداً* كافية. عليهم دائماً أنْ يعودوا إلى كرسي المصعد ويُعيدوا الكرَّة، مرّة، ومرّة.

أرى أنَّ نادي كورفيغليا قد أصبح الرمز الذي اخترته للـ *sprezzatura*

الأرستقراطي - وهي كلمة إيطاليّة جميلة تعني فن جعل الصعب يبدو سهلاً. ربما انتقيتُ هذه الصورة لأنها تستحضِرُ عالماً من الأناس المُسعدين ليسوا مُضطرين إلى أنْ *يفعلوا* أي شيء غير أنْ *يُوجَدوا*. كم أتوق إلى مثل هذا الوضع كما لا يستطيع ذلك إلا يهوديّ أميركيّ. ما أجمل أنْ أحظى بفرصة ولوج العالم الذي لا يمكن إلغاؤه. ما أجمل أنْ *أولَد* داخل هويّة.

إنَّ توقي هو حقيقيّ على الرغم من أنني أعرفُ عدداً من الناس وُلِدوا داخل تلك الهويات استخدموها كذريعة للإدمان على تعاطي المُخدرات والتشرُّد. أعلمُ أنه ليس سهلاً أنْ يكون المرء نبيلاً وثريّاً. ومع ذلك، كما يحدث لشخصيات ف. سكوت فيتزجيرالد الروائيّة، ثمة شيء فيّ يلحُّ على أنْ الثريّ «يختلف عني وعنك». لقد اختبر فيتزجيرالد هذا الافتراض في رواية *«غاتسبي»*، مُبيّناً لا مبالاة فاحشي الثراء بالحياة، بأيّ عضو، وبالحب. ومع ذلك *يبقى* التوق عند الكتّاب الأميركيين. ربما هذا هو السبب في أنَّ هذه الرواية القصيرة، المكتوبة بأسلوب جميل أصبحت أثراً كلاسيكياً. إنها تجسِّد الحلم الأميركيّ بالهوية وبالتصنيف.

إنَّ تاجر الكتب الممنوعة الذي برز فجأة، يحلمُ بعالمٍ لا يُضطر فيه إلى العمل لكي يُصبح غاتسبي. وما زال هذا هو الحلمَ الأميركي الأساسيّ. حتى اليانصيب يسعى إلى ذلك، واعداً بالمنازل وباليخوت. إننا نحلم بالجذور، بما أننا بلا جذور.

إنَّ الروائيّين الأميركيين هم في المعتاد أمثلة جيدة على هذا. وأول ما يفعلونه بعد إصدار كتابٍ رائج هو أنْ يشتروا منزلاً وقطعة أرض. ألكس هيلي[19] اشترى مزرعة في الجنوب. وغور فيدال استقرّ في فيلا في رافيللو جديرة بأرستقراطي إيطالي. وآرثر ميلر اشترى مزرعة في كونكتيكت من أجل شخص أميركي من كونكتيكت. وكذلك فعل فيليب روث.

19- ألكس هيلي: الكاتب الذي ألّفَ رواية *«جذور»* واسعة الانتشار وتحولت إلى مسلسل تلفزيوني شهير - المترجم.

وأنا لا أختلف عنهم. بعد صدور رواية «*الخوف من الطيران*»، اشتريتُ منزلاً في إنغلند. لاعتقادي أنّه عندما يموت الكتّاب فإنهم يذهبون إلى الجنّة، والجنّة كانت كونكتكت، اشتريتُ قطعة من ذلك العقار الأدبيّ. بالنسبة إلى الكاتب، الذي تعوَّدَ على اختلاق العالم باستخدام الحبر والورق، فإنَّ الجذور والتصنيف الطَّبَقيّ هما شيء واحد. وتحصل على كليهما عبر *الكلمات*. والذين لا جذور لهم غالباً ما ينجذبون إلى حقول التجربة حيث ينبغي على التصنيف أنْ يخلق نفسه باستمرار. وربما لهذا السبب يزدهر الإبداع خلال فترات الاضطرابات الاجتماعيّة الكُبرى وغالباً بين أفراد الطبقات الدنيا السابقة. ربما هذا ما يجذب اليهود إلى الكلمة والصورة. وإذا فكّرتَ في حيويّة الكتابة الإفريقيّة-الأميركيّة خلال حقبتيّ الخمسينيات والستينيات، وحيوية الكتابة النسائيّة في السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات، وحيوية الكتابة الإفريقيّة-الأميركيّة خلال السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات، فسوف ترى أنَّ هناك صِلة واضحة بين تغيُّر الوضع والإنتاجيّة. وعندما تُصبح جماعة ما قلقة وغاضبة، فإنها تُنتِجُ كُتّاباً.

قد أحلمُ بما كان يمكن أنْ أفعل بحياتي لو أنني وُلِدتُ في مزرعة يجب إلصاق العديد من القسائم فيها، ولكن ربما ما كانت طموحاتي الأدبيّة تحققتْ أبداً. ربما كنتُ سأكتب شِعراً مُبهماً، لا يستطيع قراءته إلا الطلاب المتخرجون المتقدمون. لكنْ الأغلب أنّني كنتُ سأفتقِر إلى القلق والروح العِدائيّة اللازمتين لإنهاء كتاب كامل. إذ إنَّ الكتابة ليستْ مسألة موهبة في استخدام الكلمات، بل وحافز وطموح، وقلق وحنق. إنَ الكتابة عمل صعب. والتهليل لا يأتي بعد الانتهاء من كتابة الفِقرة الأولى. والثمار العفنة لا تظهر إلا عند طبع الكتاب. ومع حساب الزمن الذي استغرقه العمل، سوف ترى أنَّ المورد المالي ليس بالشيء الكثير. وبأخذ الضرائب والوقت الذي استغرقه بعين الاعتبار، فإنَّ غالبيّة الكتّاب يكسبون أقلّ ممّا يفعل أطبّاء الأسنان.

لكننا لا نكتب من أجل المال. بل نكتب لنمنح أنفسنا تصنيفاً.

بعد أنْ أنهيتُ دراستي في معهد بارنارد، تابعتها لأتخرّج من المدرسة، لأنني ببساطة لم أكن أعلم ماذا أفعل ***غير ذلك***. كنتُ أعلم أنني أريد أنْ أُصبح كاتبة، لكنني لم أكن متيقّنة من أنني أمتلك الـ*sitzfleisch* (الجَلَد) على الجلوس الطويل وتأليف كتاب كامل. وفي أثناء انتظاري ريثما أصبحُ أكثر نُضجاً بقليل، درستُ الأدب الإنكليزي. لقد أدركتُ بصورة ما أنّ دراسته ستكون سهلة.

لكنَّ الفترة التي قمتُ بدراستها - القرن الثامن عشر المرِح الذي مثّله هوغارث حفراً[20] - كانت الفترة التي شهدتْ مولد أميركا، وحقوق المرأة، والرواية. لقد بدأتْ الرواية كشكل يعكس الطبقة الدنيا، على أساس افتراض أنّ قراءتها لا تصلُح إلا للخادمات، وهي الشكل الأدبي الوحيد الذي تميَّزت به النساء في وقتٍ مُبكّر جداً وبشكلٍ ممتاز إلى درجة أَنّه حتى الكراهيّة المفرطة التي يكنّها تاريخ الأدب للنساء لا تستطيع أنْ تمحوه. هل سبقَ لك أنْ تساءلتَ حول صِلة النساء بالرواية؟ إنَّ النساء، كأي طبقة دنيا، تعتمد لبقائها على تعريف نفسها بنفسها. والرواية تسمحُ بهذا - لا يزال في الإمكان إخفاء الصفحات تحت طوق التطريز.

لم يكن بين عقل الكاتب وعقل القارئ من وسيط غير المطابع. يمكنكَ أنْ تلزم المنزل، ومع ذلك تُرسل كتابك خارج البلاد إلى لندن - إنه الوضع المثاليّ للمرأة.

في عالمٍ ما زالت فيه المرأة تُعتَبَر الجنس الثاني، ما زال العديد من النساء يحلمْنَ بأنْ يُصبحن كاتبات لكي يستطعن العمل في المنزل، ويقمن بواجباتهن، ويعتنين بالأطفال. وما زالت الكتابة مناسبة للفترات الفاصلة في حياة المرأة. وعبر وساطة الكلمات، لدينا آمال في تغيير تصنيفنا. وقد لا يكون القلم مُعادلاً دائماً للقضيب. وفي عالم الحواسيب، ربما ما زال في إمكان أصابعنا السريعة أنْ تُكسِبنا العالم. وذات يوم سوف تُصبح لنا

20- وليم هوغارث (1697 - 1764): رسّام وحفّار. مشهور خاصة بسلسلة حفرياته التي يسخر فيها من الآثام ومظاهر الادّعاء التي تميَّز بها عصره - المترجم.

مرتبة. وهكذا نكتب بحماس شديد كما لا يستطيع ذلك إلا المحرومون. إننا نكتب لكي نعود إلى أنفسنا، لكي نبني منازلنا ونزرع حدائقنا، لكي نمنح أنفسنا أسماء وتواريخ، لنبتكر أنفسنا ونحن نفعل ذلك.

-5-

كيف أصبحتُ من الجنس الثاني

«تولّدَ لدينا انطباع غامض بأنَّ الكاتبات مُعرَّضات للتحامُل»

• *شارلوت برونتي*، من مذكراتها.

«ولكن كمْ كان مستحيلاً عليهنّ أنْ يأتين بأية حركة. لا بدّ أنَّ الأمر تطلّبَ الكثير من العبقريّة ومن الاستقامة لمواجهة كل ذلك الانتقاد، وسط ذلك المجتمع الذكوريّ الصِرف، للتمسُّك بقوة بالشيء كما رأينه بلا أي خوف. وحدها جين أوستن فعلتْ ذلك وأيضاً إميلي برونتي. إنه إنجاز آخر، ربما كانتا الأفضل في حياتهما. لقد كتبتا كما تفعل النساء، لا كما يفعل الرجال».

• فيرجينيا وولف، من كتاب *«غرفة المرء الخاصة»*.

ما الذي يجعل المرأة قادرة على الإنجاز في عالم ما زلنا فيه الجنس الثاني؟ تقول تيلي أولسن، تلك الشاعِرة الملحميّة المُعبِّرة عن صمت الأنثى، إننا محظوظات لأننا وُلِدنا في عائلات خالية من الأبناء. لكنَّ أخواتي يدّعين أنهنّ لم يشعرن أبداً حتى بالحريّة المتأرجحة لكي يُنجزن كما شعرتُ أنا.

ما الذي أحدثَ فرقاً في حياتي؟ لا شك في أنَّ هذا أحد أسباب تأليفي

هذا الكتاب. أعني لكي أفهم الأشياء التي دعمتني والأشياء التي أعاقتني. ما الذي جعل حياتي مختلفة عن حياة أمي؟ وماذا جعلها كحياتها؟

لا أتذكّر وقتاً لم أفترض خلاله أنني سوف *أُنجِزُ* شيئاً مهماً في حياتي. ولم أعلم *ما هو*. الكتابة، والرسم، والطب، كلها شغلتْ تفكيري بعض الوقت. لقد افترضتُ أنه سوف يتوفّر لديّ وقت فراغ، وسوف يتوفّر لدي ما يكفي من المال، وسوف يُصبح لديّ موقع في العالم، وكنتُ أُلقي خطابات قبول جائزة نوبل أمام المرآة وأنا في سن الثامنة أو التاسعة. ولم أعلم علامَ نلت الجائزة - ولم آبه. الشيء الأهمّ كان: إنني *افترضتُ* أنني فائزة. كنتُ قد نجوتُ من حجرة حضانة مملوءة بالأطفال القذرين! ربما هذه العظمة هي مقدّمة للإنجاز، وما دامت الفتيات يُحبَطنَ تقليدياً ليُمنعن من بلوغ العظمة، فسوف يواجهن صعوبة في الإنجاز. لا أحد أحبطني في المنزل - على الرغم من أنّ قُدوات النساء اللواتي قابلتهن لم يكنّ متحرِّرات على غرار أولئك الرجال (على سبيل المثال، أمي مع حامل لوحاتها القابل للطيّ). ولطالما علِمتُ بصورة ما أنَّ النساء الأخريات سوف يكرهنني ويحسدنني على تلك الحريّة.

كانت أختي نانا تقول «إنَّ الجميع يعتقدون أنكِ ظريفة لأنكِ *شقراء*. أما أنا فكنتُ أعلم كم أنتِ بنت حرام».

في الخمسينيات، كان البون بين الشقراء والسمراء شاسعاً. كانت ديبي رينولدز في مقابل إليزابيث تيلر. وكان دائماً محكوماً على الساحرة السمراء المُثيرة أنْ تكون الفتاة الشريرة. وكان يُفتَرَض أنَّ الشقراء جيدة كالذهب. حينئذٍ لم أكن أعلم أنَّ المواجهة بين الأختين - صاحبة الشعر الداكن وتلك صاحبة الفاتح - لها تاريخ أدبي قديم. ولكن كم صمدت تلك التصنيفات السحيقة في القِدم! لقد كرهتني أختي الأكبر سناً لأنني شقراء ولأنني واثقة من نفسي معاً. كنتُ الصبي - البنت المتخفّية على صورة ديبي رينولدز - لا أشعر بأية حدود لأنَّ والدي ووالدتي كانا داخلي، يُحبّانني. اندفعتُ إلى العالم وذُهِلتُ إذ اكتشفتُ أنَّ الفتيات هناك لسنَ متساويات.

عرفتُ ذلك في عهد المراهقة. وما زلتُ أتذكّر عندما سألني ذلك الفتى من المدرسة الإعداديّة إنْ كنتُ أنوي أنْ أُصبح سكرتيرة فأجبتُ «سكرتيرة! سوف أُصبح طبيبة *وأيضاً* كاتبة مشهورة - على غرار تشيخوف!» أضفتُ موضِّحةً (إنني حتى لا أتذكّر اسمه) من دون حتى أنْ أتعلَّم الضرب على *الآلة الكاتبة!* وحتى يومنا هذا أؤلّف كتبي يدوياً كشغل الإبرة والتطريز. آه، في حوزتي عددٌ كبيرٌ من الحواسيب، لكنّني لم أتعلّم استخدام أي منها. أصبحت مُهمَلة تنتظرني كي أتعلَّم. وبحثتُ بعض الوقت في ذلك العالم البديل ورجعتُ إلى قلمي - رمز القضيب. إنني لا أكنُّ أي حسد من القضيب. أي امرأة طموح *لا تكنّ* حسداً من القضيب في عالم يمنح فيه الصولجان غير الموثوق السلطة؟

أحياناً أتساءلُ لماذا استغرقَ الأمر مني وقتاً طويلاً لأُدرك أنّه من المُفترَض أنْ أكون الجنس الثاني؟ ما الذي عزلني في وقت لم تنعزل خلاله أختاي؟ لطالما شعرتُ بأنني الوريثة المُعيَّنة. ولكن وريثة ماذا؟ وريثة طموحات والدتي في العمل الاستعراضي وفن والدتي؟ وريثة حامل لوحات جدّي ودفاع أمي الشرس عن حقوق المرأة؟ كأنها تقول *«نفِّذي ما أقول، وليس ما فعلت. لقد خُدِعتُ، ولكن في إمكانك أنْ تنالي كل شيء»*.

في الواقع إنني أتذكّرها تقول «إذا بلغتِ الشهرة، فسوف تحصلين على ما تريدين من الرجال الوسيمين».

تحتجّ أمي «أنا *لم* أقُلْ هذا».

لكنها قالت.

أو بالأحرى أنا قلت ذلك. (ولن أعرف تعقيدات تلك القاعدة إلا بعد ذلك بوقت طويل).

لا أبناء[1]. عائلة بلا أبناء. في عائلة من البنات، قد تُصبح إحدى البنات

1- يقول التلمود «الهفي على الأب الذي لم يُنجِب إلا بنات». إنني أُباركُ أبي لأنه تحلّى بالشجاعة بحيث يسخر من هذا الكلام - المؤلِّفة.

صبيّاً. هل هذه هي الصفقة التي نعقدها مع الشيطان؟ كل ما أعرف هو أنني أصبحتُ بصورة ما أرزح تحت عبء الآباء والأجداد. وما أثقله من عبء. كان عليّ أنْ أكون بصورة ما فنانة، وممثلة هزليّة، وأكسب الكثير من المال. لقد أردتُ أنْ أكون هذين الضدَّين: شاعرة ورائجة. أردتُ أنْ أكون فنانة مليونيرة. كانت طموحاتي مستحيلة إلى درجة أنني شعرتُ أنني فاشلة مهما أنجزتُ. وما زلت.

ولكن أين تلقّيتُ الرسالة القائلة إنني الجنس الثاني؟ في المدرسة. إننا نتعلَّم في المنزل ونتعلَّم في المدرسة. وبين نمطيّ التعلُّم هذين، المدرسة ربما هي الأكثر تدميراً. إننا ننتظر من المدرسة أنْ تمنحنا السيطرة على العالم. نتوقّع من المدرسة أنْ تُخبرنا إنْ كان ما نتعلّمه في المنزل صائب أم خاطئ. والمدرسة أيضاً غالباً ما تُعزِّز أسوأ أضرار ثقافتنا: الميل إلى تصنيفنا بغباء كما لو أنّه يمكن قياس ذكاءنا، الميل إلى تكوين الجنسين، أنْ ننظر إلى الذكر والأنثى كشيئين منفصلَين متناقضين بدل أنْ يكونا صِفات نحملها جميعاً، والميل إلى تعليمنا عبر الحفظ الصمّ والإقصاء وليس عبر الحرية والامتداد.

عندما كنتُ في المدرسة الثانويّة، كنتُ قد بدأتُ أصفُ نفسي بالمُدافعة عن حقوق المرأة، وكنتُ أحملِ نسخة من كتاب ***«الجنس الثاني»*** [2] كبرهان على ذلك. ولا أتذكّر إنْ كنتُ قد قرأته. لم أكن في حاجة إلى ذلك. كنتُ أعلم أنَّ على المرأة أنْ تقاسي الكثير. كنتُ أعلم أنَّ الرجال متعجرفون وأنَّ المرأة تعلَّمتْ كيف تسترضيهم لتحافظ على حياتها. كنتُ أعلمُ جيداً أنّ هناك مشكلة. والشيء الوحيد الذي كنتُ أفكّر فيه هو *حلّ* تلك المشكلة.

على الرغم من أنني كنتُ أقرأ وأكتب طوال الوقت، والقراءة والكتابة كانتا أفضل ما أحب القيام به، إلا أنني أخبرتُ معظم الناس أنني سوف أصبح طبيبة. وهذا لا يعني فقط أنني كنتُ أنجذبُ إلى فكرة المُداواة –

2- *«الجنس الثاني»*: كتاب لسيمون دو بوفوار – المترجم.

وما زلت - بل أنني كنتُ أفتش عن مهنة لا تكون فيها المرأة مغلوبة على أمرها. والطب، من زاوية نظر المراهقة المثاليّة، يبدو هو المهنة المناسبة.

إنَّ هذا الفصل لا يدور حول ما إذا كانت المرأة متساوية مع غيرها في مجال الطب. إنّه يدور حول تعلُّم كيف تكونين غير متساوية، ومعظم ذلك التعلُّم يحدث في عهد المراهقة.

ويعمد الشبان إلى فكّ زر حامل صدرك. وتعيشين في رعب من تسرب الدم من حشوتك. وفجأة يُصبح جسدك عائقاً، مصدر سُخرية. فهو ليس فقط أشد قُبحاً بين الأجساد كلها، بل يمثّل هشاشة جسد الأنثى بالذات، يمكن أنْ ينزف دماً بصورة غير متوقَّعة ويجعل منك حتماً ضحيّة مُحتملَة.

طبعاً لا يفيدنا أنْ نعلم أنَّ النساء يتعرّضنَ للاغتصاب في كل مكان، وأنَّ واحدة من كل ثلاث نساء تتعرَّض للأذى على يد الرجل الذي تعيش معه وتسمّيه زوجاً أو حبيباً. وحتى لو كان العالمُ آمناً، فإنَّ فترة المُراهقة سوف تعني الضعف بالنسبة إلى الفتيات. وفجأة تُصبحين فريسة جنسيّة وفجأة تعلمين ذلك. فجأة تنتهي فترات بعد الظهيرة الطويلة والمُشمسة وأنتِ تقرئين ألغاز نانسي درو على شاطئ البحر. وتلجين عالماً جديداً - عالم الخطر.

عندما باشرت الدراسة في معهد الموسيقى والفن، كانت عائلتي تُقيمُ عند تقاطُع الشارع الواحد والثمانين وسنترال بارك ويست. وفي صباح كل يوم عند الساعة الثامنة، أُضطر إلى ركوب قطار الأنفاق الهادر والتوجّه إلى التقاء الشارع رقم 132 وجادة كوفنت. في الغالب يكون القطار شبه خالٍ من الركّاب - وحركة السير كلّها كانت تجري في الاتجاه المعاكس. وكثيراً ما كنتُ أشاهد أشخاصاً يستعرضون أنفسهم في النفق - رجالاً عجائز وأزرار فتحات بنطلوناتهم محلولة وقضبانهم مكشوفة يعبثون بها ويهمسون لي كي آتي إليهم، تعالي، تعالي. وأحياناً أخاف أنْ أنظر. أحياناً أندفع إلى أقرب سيارة، وقلبي يضرب بقوة في صدري.

كانت أمي تقول لي «أوه، إنَّ المُستعرِضين لا يؤذون. إنهم يخافون من خيالهم». وكان هذا الكلام يُريحني وكأنَّ أحداً أخبرني بأننا بعد أنْ نموت سوف نعود إلى الأرض على شكل ثمار بندورة. كان شيئاً مُرعِباً، حتى بالنسبة إلى طفلة عاشت فترة طفولة محميّة تماماً. لا أحد تحرّشَ بي في المنزل، ولكن مع بلوغي سن الثالثة عشرة، لم يعُد في استطاعة أحد أنْ يحميني. كانت الذكورة تتربص بي هناك – كقوة فوضويّة، جامحة. إنَّ النساء لا يستعرضنَ أنفسهن في الأنفاق. لقد تعلّمتُ أنَّ النساء جديرات بالثقة وأنَّ الرجال ليسوا كذلك.

والآن، عندما أرسلُ ابنتي إلى المدرسة في نيويورك التي تضاعف العنف فيها عشرين مرة عما كانت عليه وأنا طفلة، أُرسلها على متن حافلة خاصة. وإذا اغتصبها أحدهم، فسوف أقتله وأتوقّع أنْ أُبرَّأ. وعلى الرغم من أنها ممشوقة القامة وأطول مني بكثير، إلا أنها فتاة صغيرة رقيقة القلب. ما زلتُ أدسّها في السرير مع دمية الدب. إنني أرسلها إلى المدرسة وأنا أرتعشُ من الخوف. وأقول، كما سبق أنْ قلتُ ذات مرة «فلتباركها الإلهة وتحرسها» من فوق سريرها. إنني أحياناً ألجأ إلى السِّحر وإلى الإلهة الأمّ لأنني أريد أنْ أستدعي قِوى الكون الأولى. إنني أحتاج إلى كالي[3] وإيزيس[4]، وإنانا[5] ومريم، ليصونوا ابنتي.

إنّ المجتمع الذي لا يستطيع أنْ يحمي نساءه الشابات هو مجتمع محكوم بالموت. إنَّ عُدوانيّة الذّكر كانت موجودة على امتداد التاريخ، لكنها كانت دائماً توجَّه، توظَّف في المُثاقفات والحملات، كانت تُحتَوى. ولكن ليس الآن. لماذا لم نعُد نهتم ببناتنا؟

كان ردّ أمي على المُستعرِضين ردَّ شخصٍ متعاون مع العدوّ – مهما صدّقته هي نفسها. إنَّ عالمَ الذَّكر يُعلِّم المرأة ما ينبغي تصديقه عن

3- كالي: إلهة الدمار عند الهندوس.

4- إيزيس: إلهة الخصب عند قدماء المصريين.

5- إنانا: إلهة الحب عند السومريين.

الرجال، وعن النساء. إنه يُعلّمهن القيمة، يعلمهنّ المرتبة الثانية. إنه يسخر من خطر الاغتصاب.

خلال حقبتَي الخمسينيات والستينيات، عندما كنتُ في المرحلة الثانوية ثم الجامعيّة، لم نكن قد أعلنّا عن المشكلة بعد. كانت مناصرة مساواة المرأة حركة هادئة. ولم يكن للمشكلة، كما تقول بيتي فريدان، اسم. كان مفهوم مُساواة المرأة أيام فيرجينيا وولف، وإيما غولدمان[6]، وميري ويلستونكرافت[7]، وأفرا بن[8]، قد انتهى واندثر. في ثقافة ذكوريّة، يجري دفن قضية مساواة المرأة باستمرار. وينبغي دائماً إعادة اكتشافها وكأنما للمرة الأولى.

حتى في مدرسة بارنارد، وهو معهد للنساء، أسّسته نساء مناصرات لحقوق المرأة ومُشبَّع بتراث من التفوُّق الأنثويّ، لم ندرس أعمال شاعرات وروائيات. كان الجوّ مُشبّعاً بتشجيع النساء الشابات، لكننا شعرنا بأننا وُلِدنا، على غرار فينوس، من زَبَد البحر. لم تكن هناك قُدوات. (كيف كان يمكن أنْ نعلم أنَّ قُدواتنا قد تم التخلّص منهن عن عمد؟) لقد كانت أعمال جورج صاند وكوليت قد اختفت من المكتبات. والشاعرات لا تُدرَّس. الشاعرتان اللتان اكتشفتهما وحدي أيام مرحلتي الثانويّة، إدنا سينت فينسنت ميلاي ودوروثي باركر، كان يُنظَر إليهما باستخفاف. كنا ندرس لنُصبح بديلات للرجال. درسنا شعراء قوة-القضيب - إليوت، باوند، ييتس - وحاولنا أنْ نكتب مثلهم. وفعلنا ذلك. وطبعاً، أَحَبَّ أساتذتنا ذلك كثيراً، وكانت أذهاننا رشيقة، لكنَّ السياق الذي وُلِدنا فيه كان يؤمن بالتمييز الجنسيّ إيماناً أعمى. كيف يمكن حتى أنْ نُقدِّر الأثر الهائل الذي كان يمكن لهذا أنْ يتركه على مخيّلتنا؟ كان علينا أنْ نتحرَّر فقط *لنبدأ*.

6- -إيما غولدمان (1869 - 1940): ناشطة سياسيّة فوضويّة وكاتبة - المترجم.

7- ميري وولستونكرافت (1759 - 1797): كاتبة إنكليزيّة وفيلسوفة ومُدافعة عن حقوق المرأة - المترجم.

8- أفرا بن (1640 - 1689): روائية وكاتبة مسرحية إنكليزية - المترجم.

لكنَّ مناصرة حقوق المرأة لم تكن حركة مُعلنة. ولم أُسأل إلا في عام التخرُّج عندما ذهبتُ لإجراء المقابلة من أجل نيل منحة وودرو ويلسون (أُقسِمُ على هذا): «ما الذي يدعو فتاة جميلة مثلك إلى أنْ تعمل في مكتبة يعلوها الغبار؟» وصُعِقتُ إذ أدركتُ أنَّ العالم كله ليس جامعة مُخصّصة للنساء. وازدادت قوة الصدمة في مدرسة كولومبيا للتخرُّج، حيث واجهت الجو الأكاديميّ الذكوري البارد المنحاز جنسياً. وعلى خطى جدّ أمي الروسيّ، لم يولِ ليونيل تريلينغ - الذي كان حينئذٍ يؤلّه في جامعة كولومبيا - انتباهه للفتيات. انظري إلى يمينك، وانظري إلى يسارك، إحداكن لن تتولّى منصباً: والأخرى ستكون بلا قضيب.

كنتُ أتمنى أنْ أقول إنّ كل شيء قد تغيَّر خلال ثلاثين عاماً. ولكنْ ما زال عدد النساء من ذوات المناصب متدنٍ بصورة تدعو إلى الرثاء. لا يمكن أنْ يكون سبب ذلك غير التمييز الجنسيّ: نحن الأفضل في القراءة والكتابة في سن العاشرة، أمّا إذا بدأتِ في سن المراهقة فسوف يوضَع في طريقك ألف عائق. إنَّ حياتنا تُصبح (كما قالت جرمين غرير في كتابها عن النساء الرسّامات) *سباق عوائق*.

من زاوية نظر سن الخمسين المثاليّة، تبدو دورة التمييز الجنسي واضحة جليّة. وهذا هو الفرق بين امرأة في الخمسين وأخرى في العشرين. في العشرين نعتقد أنَّ في استطاعتنا أنْ نهزم النظام. وفي الخمسين نعلم أنَّ لدينا أسباباً لليأس. نصبحُ، كما تقول غلوريا ستايْنِم، أكثر راديكاليّة مع تقدّمنا في السن.

فجأة نُدرك كيف تدرّبنا، طوال حياتنا، على تهدئة الرجال وإطرائهم، *وليس* على مواجهتهم. في اجتماع نقابة المؤلفين، أو في حفل، أو في اجتماع عمل، أبتسم وأغازل وأُطري وأتصرّف بظُرف. ربما أريد أنْ أقول الحقيقة للرجال من حولي - لكنني *أعلم* أنهم لا يستطيعون تحمّلها. إنَّ وجودي بحدّ ذاته يُهين بعضهم. والجنس في كتاباتي، وعدم قدرتي على التذلّل، وإصراري على المواجهة - *هنا* على الأقلّ - تُسبب هذه الأشياء

المهانة *آلياً*. إنها تسير ضدّ التيار. هناك فقط رجلٌ واحد أقول له الحقيقة كاملة - الرجل الذي أعيشُ معه - وحتى هناك أكبحُ نفسي أحياناً وأتكلّم بإبهام، ربما أكثر مما أعرف.

الحقيقة هي أنني *لا أضع* اللوم على أفراد بعينهم من الرجال بسبب هذا النظام. إنهم في الغالب يُطبّقونه من غير عِلم. والنساء أيضاً يتقبّلنه من غير عِلم. لكنني أتساءل أكثر فأكثر حول كيفيّة تغييره. إنني أتلفّتْ حولي فأرى مُعسكرَين مُسلَّحَين: معسكر النساء اللواتي يعتقدنَ أنَّ الرجال والجنس معاً هما العدو، والنساء اللواتي لا يردن أنْ يتحدّين وجود التحيُّز الجنسي، اللواتي يُسعدهنّ أنْ يتعاونّ - ما دمن يحصلنَ على فُتاتِهن القليل من القوة. ثم هناك كل الرجال الذين يستفيدون من كونهم الجنس الأول ولا يعلمون هذا. إنهم يشعرون أيضاً بأنهم ضعفاء وضائعون. يتساءلون لماذا تعاملهم النساء بخشونة - فيخرجون ويمارسون الجنس مع امرأة في نصف أعمارهم.

أعتقد أنَّ العالم مملوء برجال مرتبكين ومتألمين بسبب غضب المرأة بقدر ارتباك المرأة من التمييز الجنسيّ، الذين لا يريدون إلا مَنْ يُحبّهم ويرعاهم، ولا يفهمون لماذا أصبحَ فجأة من الصعب تحقيق هذه الرغبات البسيطة. كيف يمكن وضع اللوم على الرجال الذين نعيش معهم على عالمٍ لم يصنعونه؟ لا نستطيع ذلك، ولكن أحياناً، وبأفضل إرادة في العالم، نلومهم. إنَّ مشكلة التحيُّز الجنسي أنها تعصى على الحل إلى درجة تُشعِرنا بالإحباط. لقد مللنا التحدث عن المشكلة، والكتابة عن المشكلة، والعلاقات الموبوءة بالمشكلة. نريدُ حلاً لها.

إنَّ مشكلة التحيُّز الجنسيّ كبيرة بالنسبة إلى النساء *جميعاً*، أما بالنسبة إلى النساء اليهوديات فهي مشكلة أكبر بسبب التعصُّب الأعمى المُستتر في مُعاداة الساميّة المنحرفة التي تتقنَّع بقناع غطرسة طبقيّة. إنَّ أشرس مَنْ يُمارس التحيُّز الجنسيّ هم رجال الفكر اليهود الذين يُعانون من أعراض آني هول مُزمنة. والغريب في الأمر أنَّ التمييز الجنسي الأدبيّ ضد اليهوديات تفاقم

أكثر، ولم يتحسّن، خلال العقود القليلة الأخيرة. في بداية القرن وطوال عقد الثلاثينيات، كانت أسماء اليهوديات من النساء ترتبط بالراديكاليّة، والإصلاح، والعقل، والمثاليّة. إيما غولدمان، الكاتبة الراديكاليّة. وإيما لازاروس، الشاعرة. وآني ناتان ماير، إحدى مؤسسات كليّة بارنارد. وروز شنايدرمان، المُنظِّمة النقابيّة (التي نشرت عبارة «نريد خبزاً ووروداً أيضاً» وكانت إحدى مؤسّسات اتحاد عاملات غارمنت العالمي)، كنّ يمثّلن الصورة الأشدّ مثاليّة للمرأة اليهوديّة من السيدة بورتنوي[9] أو مارجوري مورننغستار[10]. وكلما اندمجَ اليهود أكثر في الولايات المتحدة، ساءتْ أكثر معاملة الكاتب اليهودي الذَكَر لأمّه (كتابةً، على الأقلّ). بالنسبة إلى هنري روث في رواية «*سمّه نوماً*» (1934)، كانت بطلةً تتميَّز بكفاحها وقوَّتها الأنثويّة. وبالنسبة إلى فيليب روث في رواية «*شكوى بوتنوي*» (1969)، كانت مخلوقة خبيثة تُخصي الرجال بقِوى سِحريّة.

مع أفلام وودي آلن، يتدهور وضع المرأة اليهوديّة أكثر من ذلك. في الواقع إنَّ المُبدعين اليهود الذكور يُبرهنون نظرية تقول إنَّ أفراد جماعة من الأقليات يمارسون عِدائيتهم ضد بعضهم البعض بدل أنْ يمارسوها ضد مُضطهِديهم، ويكرهون النساء اليهوديات بقدر كراهيتهم لأنفسهم. وأكثر من ذلك، في الواقع. إنهم يوجّهون كراهيتهم الذاتيّة إلى النساء اليهوديات. والمشكلة هي: إننا نُذكّرهم بأمهاتهم القويّات. إنهم يُفضّلون اللجوء إلى قناة «ذا مونكي»[11]، أو ديان كيتون، أو ميا فارو، أو سون-يي، على *أي شخص* يُشبه الأم. إنَّ قوتنا مُفرِطة في قُربها،

9- السيدة بورتنوي: والدة بطل رواية فيليب روث «*شكوى بورتنوي*» التي تؤثّر على ابنها سلباً وتُفسد عليه حياته. وتتميز هذه الرواية بالتفاصيل الجنسية في أثناء مُصارحة السيد بورتنوي لطبيبه النفسي بتفاصيل ممارساته الجنسيّة. صدرت الرواية عام 1969 وكانت السبب في شهرة روث - المترجم.

10- مارجوري مورننغستار: اسم بطلة الرواية التي تحمل اسمها من تأليف هرمن ووك. صدرت عام 1955، وتتحدث عن امرأة تحاول أنْ تصبح ممثلة. تحولت القصة إلى فيلم سينمائيّ عام 1958 وقامت ببطولته ناتالي وود - المترجم.

11- لعلّ المقصود هنا قناة مونكي التلفزيونيّة المُسلّية.

وتهديدها، وتذكيرها بعمليّة الختان الصغيرة الأولى عندما وقفتْ الأم اليهوديّة بسلبيّة بينما الرجال اليهود يقطعون تلك القطعة الصغيرة من ذلك القضيب الصغير من رجل القضيب المستقبلي الصغير.

هذا ما لن يغفره لنا أولئك الرجال اليهود. لقد وضعوا اللوم علينا على ذلك الختان. إننا نحمل على رؤوسنا آثام الآباء، فإذا جرؤنا على استعراض جراءة قلمنا، ينتقمون بقطعِهِ وهو في يدنا - أي كرمز للقضيب.

وهكذا تُهمَّش المرأة اليهوديّة مرّتين، ويمارَس ضدها التميّيز مرتين. التميز ضدها بوصفها امرأة وبوصفها يهوديّة. يمارس التمييز ضدها من قِبَل غير اليهود - الذين يعتبرونها جعجاعة، وبدينة، وكثيرة المطالب - ويمارسه ضدها اليهود - الذين يعتبرونها تجسيداً مُضحيّاً ضارياً للإلهة الأم. إنَّ التمييز يُمارَس ضدها أولاً كامرأة، ومن ثم كامرأة مُسنّة، ثم كامرأة مُسنّة **يهوديّة**. والتهميش، طبعاً، مؤلِم، ولكن من نواحٍ معيَّنة هو نعمة أيضاً.

غالباً ما يخشى أعضاء النادي أنْ يكتبوا بصدقٍ عن أنفسهم، فلديهم الكثير مما يمكن أنْ يخسروه. ومن ناحية أخرى، نحن النساء اليهوديات المُسِنّات ليس لدينا ما نخسر. فنحن في الأصل في أسفل البرميل. بما أنّه يُعتقَد أننا مناسِبات فقط لجمع التمويل وارتقاء مراتب المجتمع، فإننا أصلاً مُختزَلون للعناية بالأقارب العجزة، وللاهتمام بصحة رجالنا من خلال أزمة منتصف العمر، وجرّ أولادنا المراهقين إلى المقابلات في المدرسة. ليس هناك من اتّجاه إلا إلى أعلى. ليست لدينا مكانة، بل لسنا حتى أقلّية أنيقة بحيث نُنفّذ نصيبنا من الإنجاز. ولأسباب غريبة، لم يعُد اليهود في أميركا يُعتبَرون ضحايا التميز. ولذلك فإنَّ نساء جيلي من اليهوديات كنَّ يتمتّعن بالمقدرة على التعرُّف المُرتاب على التميز الذي مارسه ضدنا رجالٌ يهود (بروفسورات، مُستخدمون، عشّاق) عندما كنّا صغيرات، ولكن بعد ذلك تعرّضنا لتميز منتصف العمر لأننا «بيضاوات». إنَّ العقل ليس فقط يتردَّد - بل ويرقص الهورا.

بعد نشر كتابي الأخير، نعتتني إحدى الناقدات في منتصف العمر

بأنني كاتبة في منتصف العمر. وكادتْ تنعتني بـ«كاتبة يهوديّة في منتصف العمر» على الرغم من أنها هي كانت كذلك. وقد فكّرتُ مطوّلاً في استخدام لقب «في منتصف العمر» وسبب انزعاجي الشديد منه. فقبل كل شيء، كان هذا موسم نشر مملوءٍ بكتبٍ تحكي عن ذروة منتصف العمر - وتساءلتُ ما المُفترَض أنْ يكون الخطأ في كون المرء «في منتصف العمر»؟ بالنسبة إلى جيلي من النساء الكاتبات، كان «منتصف العمر» هو فترة مُشرِّفة.

على أي حال، مَنْ كانت قدوتنا؟ سيلفيا بلاث، آن ساكستون، فيرجينيا وولف - كلّهن قتلن أنفسهن قبل بلوغهن منتصف العمر أو في أثناء ذلك. ومَنْ كانت بطلاتنا في الأدب؟ شارلوت برونتى، التي ماتت وهي حامل. وميري وولستونكرافت، التي ماتت وهي تضع مولودها. وسيمون دو بوفوار وإميلي ديكنسون، اللتان كرهتا الأولاد. وحدهما جورج صاند وكوليت حصلتا على الحب والفن. ووحدها كوليت كتبتْ عن التقدُّم في السن بحب. لكنها كانت *فرنسيّة*، والفرنسيات يُسمح لهنّ بالتقدُّم في السن. بل يُسمح لهنّ بأنْ يحصلن على عشّاق أصغر منهن سناً. وأنْ يكتبن عنهم. (وإنْ كانت حتى كوليت أُقصيَتْ من الأكاديمية الفرنسيّة).

لكنَّ معظم مرشداتنا في الأدب لم يصلن إلى منتصف العمر. وينبغي أنْ نفخر، لا أنْ نشعر بالخزي، لأننا بلغناه. لكنَّ النمط المنحاز جنسياً عميق إلى درجة أنَّ ناقدة في منتصف العمر وصفتْ امرأة أخرى بأنها «في منتصف العمر» وتتوقع أنْ تكون قد وجّهتْ بذلك لطمة - علامَ؟ على مناصرتها لحقوق المرأة؟ كلا - بل لتعاونها. لأنَّ الناقدة تعلم أنها وصلتْ إليه بعد مُعاناة. ولكي تحتفظ بوظيفتها، توقّعتْ أنْ تحطّ من قدر نساء أُخريات - خاصة النساء الأخريات الشهيرات المغرورات. وهكذا تجعل الثقافة منا جميعاً زعيمات.

إنَّ اللواتي من بيننا يحتججن على التعاون سوف يُعاقبن بطُرُق متنوعة:

بألا يحصلن على نقد مُنصِف، بأنْ تُمنَع عنهن المِنح المهمة والجوائز، بألا يُنتخَبن في الأكاديميات. إنَّ القواعد هي في وقتٍ واحد دقيقة ووقحة. إذا كانت النساء الصحفيات ما زالت إحداهن تصِف الأخرى بأنها «في منتصف العمر» فكيف نجرؤ على لوم الرجال لافتقارهم إلى إحراز تقدُّم أكبر في مجال مناصرة المرأة؟

إنَّ انتقاص المرأة من امرأة أخرى يُعلَّم في كل مكان – في المدارس، ومراكز العمل، وفي الصحافة. إنَّ النساء لم يولدنَ وهن يعرفن كيف ينتقصن من نساء أخريات. بل يتعلَّمنَ ذلك بعناية. إنهنَّ يتعلَّمن أنَّه ليس هناك متّسع إلا لرمز واحد، لأثيرٍ واحد للأستاذ، لزعيم واحد عمله تبيان عدم وجود تمييز جنسي. لقد نجحَتْ رغم الصِعاب كلّها، وهي موجودة لتبرهن على أنَّ لا أحد يستطيع أنْ يفعل مثلها.

بالاعتماد على تاريخ حياتي، كان ينبغي أنْ أُصبح زعيمة. كنتُ أينما ذهبتُ أصبح المرأة الرمز – عضوة في جمعيّة فاي بيتا كابا، وفي جمعية وودرو ويلسون، وجيدة في وضع الحواشي، ومؤلّفة دراسات البحث، وبارعة في سِحر بروفسورات عجائز. باختصار، كنتُ بارعة في كوني ابنة صالحة. هذا كان دوري في المنزل. أختي الأكبر سناً كانت متمرّدة. وأختي الأصغر سناً كانت الطفلة المحميّة. وجدّي ووالدي كانا مولعين بي، وخرجتُ إلى العالم بشعر أشقر طويل وتنورة شديدة القِصَر، متوقّعة أنْ أقابل نظراء لجدّي ووالدي في كل مكان.

وطبعاً، قابلتهم. ولكن أدركتُ بصورة ما أنَّ تلك المغوَيات لأصبحَ المرأة الرّمز كانت أكاذيب، وخيانات لآبائي وأجدادي. تذكّرتُ أمي الموهوبة – الزوجة المجنونة القابعة في العليّة – وأختها الموهوبة – السُحاقيّة المجنونة. واحدة صاحبتْ الرجال والأخرى صاحبت النساء، ومع ذلك كلتاهما تعرّضتا للتمييز بالقدر نفسه لمجرد كونهما من النساء. وحملتُ هاتين الأمّين في قلبي. لم يتمكن العالم من سماع صراخهما، أما أنا فكدتُ لا أسمع أي شيء آخر غيره. لذلك عندما مُنِحتُ دور الرمز،

رفضته. ودرستُ لأصبحَ صوت المجنونة القابعة في العليّة. أدركتُ أنَّ قَدَرَها كان يمكن أنْ يكون بسهولة قَدَري.

في معهد بارنارد، وقعتُ في حب بليك، وبايرون، وكيتس، وشكسبير، وتشوسر، وبوب، وبوزويل، وفيلدينغ، وتوين، وييتس، وروثكه، وأودن. أحببتُ أنْ أوجَدَ في مكانٍ حيث للكلمة قيمة، وللشِّعر أهميّة، وبدأتُ أُشكِّل وأُعيد صياغة قصائدي أنا. كان لديّ أستاذ للشِعر - هو نفسه شاعر - لاحظَ أنَّ اختصاصي هو الكلمة، لا الطب، وأنقذني من انتقاء الطب ومن التشريح المروِّع لخنزير ميّت.

وقبلتُ بامتنان أنْ أجلس في ظلّ وصايته وتبِعتُ توجيهاته لأتعلَّم كتابة السوناتات والقصائد السُداسيّة قبل أنْ أجرِّب الشِعر «الحرّ». وأخيراً أصبح هناك مُرشِد لتعليم حِرفة الشِعر. أخيراً أبدى أحدهم اهتماماً كافياً بتعليمي. ولسوف أبقى ممتنّة دائماً لبوب باك لإدخال الدقّة المتناهية إلى دراسة الشِعر.

قال بوب (كنتُ حينئذٍ أخاطبه بالسيد باك): «تعلَّمي كيف تكتبين سوناتا على النمط الشكسبيريّ، وبعد ذلك يمكنكِ أنْ تُحلّقي».

أتذكّر أنني كنتُ أُرهِقُ ذهني في قراءة قاموس والدي في الشِعر القديم (من الأيام التي كان يكتب خلالها القصائد الغنائيّة)، وعرفتُ مدى صعوبة كتابة الشِعر بالإنكليزيّة، وأتذكّر أنني أحضرتُ نتيجة جهودي إلى بوب وأنا أرتعش. وأول قصائدي التي أُعلِنَ أنها ناجحة كانت التالية، وتدور حول إرسال خصلة من الشَّعر إلى حبيبي:

عن إرسالي إليكَ خصلة من شَعري:

هناك منزل من الخشب الأبيض بالقرب من هامستد
هيث
ما زال في حديقته عندليب يُغرِّد.

على الرغم من أنَّ كيتس قد مات، إلا أنَّ الطائر الذي
يُغني عن الموت
يعود مع أنغامه، على جناحين هادئين.

تبقى خصلة من الشَعر تلقّاها حبّ الشاعر
في الغرفة التي قصَّتْ أول مرّة
إرثاً ثميناً، تاريخه لا يكاد يُصدَّق،
بهتَ لونها الآن وتهرَّأ شريطها.

على أرضيّة مُلمَّعة، من خلال مربعات شمس
الصيف
شعرتُ بخُطاه تتنقّل، وكأنَّ الجنية القزمة -
الجنيّة المُخادِعة، كما سمّاها - لم تكن قد انتهتْ
من التصرُّف بخبث لتتسلّى.

رأيته يقصّ تلك الخصلة الشاردة من الشَعر
وعلى الرغم من أنّه لم يُقدّمها إليّ،
شعرتُ بأنني مُميَّزة، وأنا واقفة هناك،
واعتبرتُ لفتته هي ميراثي.

القصيدة تُخبرني عن نفسي وأنا في السابعة عشرة - فتاة واقعة في حب إيماءات شِعريّة، تحاولُ أنْ تربط حياتها بحياة شعراء رومانسيين إنكليز بِيض مَيْتين، ولم تكن حتى قد بدأتْ بمواجهة القضايا التي كانت فيرجينيا وولف قد طرحتها في كتابها «*غرفة المرء الخاصّة*»:

«من العبث الذهاب إلى الكتّاب الرجال العِظام طلباً للعون، ولكن في الغالب تلجأ المرأة إليهم طلباً للمتعة. لامب، براون، ثاكراي، نيومان،

ستيرن، ديكنز، دو كوينسي - أو كائناً مَنْ كان - لم يُساعدوا أيّ امرأةٍ بعد، على الرغم من أنها ربما تعلّمت بضع خدع منهم واستخدمتها. إنَّ ثقل عقل الرجل، وخطوته المتمهّلة، والواسعة، تختلف تماماً عن خطوتها ولا تستطيع أَنْ تأخذ أي شيء ضخماً منه بنجاح. إنَّ القرد أبعد ما يكون عن المثابرة. ربما أول ما سوف تعثر عليه، عندما تباشر الكتابة، هو أنه لا توجد جُملة عامة تنتظر استخدامها».

في الجامعة، لم أجد أنَّ الأمر كذلك. ربما بحثي عن الهويّة كان شديد التخلّف. لقد حاكيتُ شكسبير، وكيتس، وبايرون، وكتبتُ رواية قصيرة بأسلوب فيلدينغ (استعداداً لتأليف روايتي *فاني هاكاباوت-جونز*)، وكنتُ فائقة الامتنان لأنني نشأتُ في دير حيث استطعتُ، على مدى أربع سنوات من النعيم، أنْ أكرِّسَ نفسي للاكتشافات اللفظيّة. وفي الأعوام من 1959 وحتى 1963 لم تكن قضية المرأة قد برزت بعد. ولم تكن فيرجينيا وولف، وإيما غولدمان، وغرترود شتاين، وسيمون دو بوفوار، وكوليت، وميوييل روكيسر وإدنا سينت فينست ميلاي، ودوروثي باركر، وهـ. د. وأنتونيا وايت، وجاي رايس، ودوريس ليسنغ، وريبيكا ويست، يُدرَّسون في بارنارد على أيامي - فكيف كنا سنعلم بوجود تراث أنثويّ؟ كيف كنا سنعلم أننا لم نولد من الطينة نفسها. لقد أحسنتْ فيرجينيا وولف التعبير عن هذا:

«الحق، بما أنَّ الحريّة والتعبير الكامل هما جوهر الفن، فإنَّ غياب ذلك التراث، ونُدرة الأدوات وانعدام كفاءتها، تبدّت بشكلٍ شديد الوضوح في الكتابة النسائيّة. وزيادة على ذلك، إنَّ الكتاب لا يتألّف من جُمَلٍ مُرتّبة واحدة بعد أخرى، بل من جُمَلٍ مبنيّة، إذا صحّتْ الصورة، على هيئة أقواس وقِباب. وهذا الشكل أيضاً يصنعه الرجال وِفقَ حاجاتهم الخاصة واستخداماتهم الخاصة. وليس هناك من سبب للاعتقاد أنّ شكل المسرحيّة الملحميّة أو الشِعريّة مناسِب للمرأة أكثر من الجُملة».

لكنَّ أشكال الأدب الأقدم عهداً كلها كانت قد أضحتْ قاسية وثابتة في الوقت الذي أصبحتْ فيه فيرجينيا وولف كاتبة. إنَّ الرواية وحدها كانت شابّة بما يكفي لتكون مادة طيِّعة بين يديها - وهذا، ربما، سبب آخر لتأليفها روايات.

إنَّ الافتقار إلى تراث المرأة (أو، في الحقيقة، *التجاهُل* المُتعمَّد لتراثٍ موجود، رُغم كل شيء) كان قضيّة لم تُناقَش في بارنارد عندما كنتُ أنغمس بسعادة في تعلّم تراث الذكر، وأنال العلامات الأولى وأفوز بجوائز الشِعر، شاعرة بأنني محظوظة لكوني أثيرة أساتذتي من الذكور. عندما أعود بذاكرتي، يبدو الافتقار إلى الوعي الذاتي فيما يخص مناصرة المرأة أشبه بالبراءة. حينئذٍ لم أشعر بأنني مخدوعة بغياب المرأة عن المُقرَّر الدراسي. شعرتُ، بالأحرى، بأنَّ عالماً بأكمله من الثراء ينتظرني أنْ أبحثَ فيه وبأنني محظوظة لإتاحة هذه الفرصة لي. كان أستاذ الشِعر شاباً، وسيماً، وجاذبيته طاغية إلى درجة لا يمكنه معها أنْ يبقى في مؤسسة برنارد التي تغصّ بالعوانس (خاصة بعد أنْ تزوّج من إحدى تلميذاته)، وكان بلا أدنى شك خنزيراً مناصراً للتمييز الجنسيّ. لكنّه غيَّر حياتي، ووجّهني نحو الاهتمام بالكلمات إلى الأبد. غازلني بجنون، لكنه لم يُضاجعني. وتخيّلات شوقي إليه غذّتْ دون أدنى شك شِعري. (حينئذٍ كان هناك كثير من الكلام يدور حول إقصاء موضوع الجنس من الأكاديميّة، لكنَّ الحماس إلى التعلّم كان ينطوي حتماً على جانب جنسيّ. وهذا لا يعني أنه يجب استخدامه كلعبة استعراض القوة ضد الفتيات المراهقات أو أنْ يجري التعبير عنه بحَرْفيّة. ولكن ينبغي أنْ يكون الجنس موجوداً كنارٍ أسطوريّة، حتى عندما لا يتحقّق. أم أنَّ هذا لهب شديد الرهافة ولا يمكن للبشر أنْ يتعرّضوا له؟ ألا نستطيع أنْ نحتفظ بنوازعنا الجنسيّة ولكنْ أنْ نُصعِّدها إلى قصائد؟).

هناك أستاذ آخر أحببتُه حبّاً جمّاً هو جيم كليفورد، الجونسونيّ[12]، مُحرِّر أوراق بوزويل، وموهوب - وهذا أمرٌ نادرٌ في الأكاديميّة - في تدريس الأدب وكأنه جزءٌ لا يتجزّأ من حياته. كان طويل القامة من الغرب الأوسط بدأ كمُغنّي أوبرا، ومُناصِراً بالفِطرة لقضايا المرأة وشجّعنا على قراءة كتب فاني بيرني، وميري أستيل، والليدي ميري وورتلي مونتاغيو وعلى التفكير بعمق في ظروف حياة النساء في القرن الثامن عشر: افتقادهن للاستقلال الماليّ، وحرمانهن من حق التصويت، ومن تحديد النسل. كان يؤمن بأنّكِ لن تفهمي الناس وطريقة تفكيرهم إلا إذا فهمتِ إصلاحات أنابيب مياههم (أو عدمها) وأدويتهم المُسجّلة. لا شك في أنَّ هذا يصحّ على النساء قبل أي شيء. كيف يمكننا أنْ نستحسن فنّهنّ إذا لم نفهم ملابسهن الداخليّة - مُثبِّت المشدّ والتنانير المُثبّتة - وتحديدهن للنسل أو غيابه، وأربطتهن القياسيّة، وأحواض غسيلهن، ومراحيضهنّ؟ إنَّ المرأة الاستثنائيّة تعتمد على المرأة العاديّة، حسب قول فيرجينيا وولف الشهير. وبتشديد جيم كليفورد على الناحيّة الجسدية للحياة في لندن في القرن الثامن عشر، جعلنا نفكّر في ظروف كون المرء امرأة في ذلك القرن. لقد كانت هِبة عُظمى.

استلهاماً من تعليم جيم كليفورد، كتبتُ ملحمة ساخرة بأسلوب ألكسندر بوب ومن ثم رواية قصيرة بأسلوب هنري فيلدينغ. وعرفتُ المزيد عن القرن الثامن عشر بالتركيز على الأبيات الشِعرية الثنائية المنتهية وجُملِه اللاتينيّة أكثر مما عرفت من الكتب التي تحكي عن الكتب التي طُلِبَ مني لاحقاً أنْ أقرأها في مدرسة التخرُّج. ذلك أنَّ فحوى كل عصر يكمن في إيقاعاته اللفظيّة. وبالتركيز على أسلوبه، تركّزين على العصر نفسه - وكأنكِ تحاولين أنْ تجرّبي ارتداء صدريّة أو تنورة منفوخة من القرن الثامن عشر.

ماريستيلا ديه بانيتزا لورك - أمٌّ إيطاليّة ضئيلة لثلاثة أطفال أنجبتْ طفلتها الأخيرة، دوناتيلا (أصبحتْ الآن مُراسلة في صحيفة *النيويورك*

12- جونسونيّ: نسبة إلى الكاتب صمويل جونسون - المترجم.

تايمز)، بينما كنتُ طالبة أدرسُ عندها مادة الأدب الإيطاليّ – كانت ثالثة ذلك الثالوث من مرشدي مؤسسة بارنارد وأهمّهم دون أدنى شك. كانت ماريستيلا فقيهة في الإغريقيّة واللاتينيّة وخبيرة في أدب عصر النهضة الإيطالي، وأصبحت قُدوتي على امتداد حياتي وصديقتي. غيّرتْ حياتي بمجرّد كونها نفسها: فقيهة شغوفة وفي الوقت نفسه أمّاً شغوفة.

في تلك الأيام معظم البروفسورات النساء في بارنارد رجعنَ إلى تراث آخر للتميُّز الأنثويّ. كنَّ غير متزوجات (بالنسبة إلينا على أية حال) ولهنّ أصوات عميقة وشعر شديد القِصَر. طبعاً كان هناك جنس في حياتهن، لكنَّ طالباتهن كنَّ آخر مَنْ يعلم هذا. كنَّ يرتدين بدلات رجّالية – اقتداءً بمس بيرتش والمس واثن – أو توغا[13] يونانيّة وينتعلن صنادل سويديّة للرقص. كنتُ أراهُنّ نائيات كالقمر.

ولكن لم يكن في استطاعتي أنْ *أقتدي* بمارستيلا. فبعد تدريسها دانتي ورعايتها لدوناتيلا، كان مجرد *وجودها* في بارنارد نصراً للحريّة.

عندما أعود بذاكرتي، أجد أنَّ من المُحزِن أنني كنتُ شديدة الامتنان لحصولي على مُدرِّسة كمارستيلا. كان ينبغي أنْ يكون هناك عدد كبير من مثيلاتها! لكنَّ الحقيقة هي أنَّ الأمهات الفقيهات نادرات الوجود. إنني ممتنّة لأنَّ ابنتي سوف تلتحق بالجامعة في زمنٍ توجد فيه الكثير من الجامعات. يوجد عدد كبير بحيث يكاد الأمر يبدو غير ذات أهمية.

إنَّ فترة المراهقة فترة مُضطربة. فجأة تصبح هشّة، فجأة يسيطر عليها الجنس، ننظر إلى العالم لكي يُخبرنا ماذا نفعل بأجسادنا وبعقولنا، ويبدو العالم كأنه يقول: *عليكِ أنْ تختاري.*

إنَّ الشغف الحالي بالدقّة السياسيّة لم يجعل الوضع أفضل. فبعيداً عن تلقّي المزيد من الخَيارات، ما زالت تُملى على المرأة المفاهيم التقليديّة. وبعض الكاتبات أصيلات – غرترود شتاين، فيرجينيا وولف، أدريين

13- توغا: ثوب روماني فضفاض – المترجم.

ريتش، وتوني موريسون - وأخريات لسن كذلك. والكاتبات الملوّنات والكاتبات السحاقيات يتلقّين إطراءً بإسراف سواء أكنَّ جيّدات أم لا، كأنما تصحيحاً لقرونٍ من الإهمال. وهذا نادراً ما يخلق تنوُّعاً وشعوراً بالفخر في الإرث الأنثويّ. وعلى المدى الطويل، لن يُخدَع أحد، أو يُرفَع، أو يُلهَم إذا ما احتُفِيَ بكاتبة رديئة بسبب ميلها الجنسيّ أو لون بشرتها. ولكن في الأكاديمية اليوم، لا يُطبَّق قانون الصالح والطالح. وكلمة «عظيم» مُحرَّمة. فقط النسبيّة الاجتماعيّة والسياسيّة مقبولة في مناقشة الأعمال الأدبيّة. ومبادئنا الشعبيّة الأميركية الموضوعة في غير محلّها استدعتْ أخيراً التهوُّر لنسف «الأدب العظيم» بالتشديد على أنَّ العبارة بحدّ ذاتها تدلّ على تعصُّب شديد. آمل أنْ يتغيَّر هذا. لا يمكن أنْ تُصبح قضية المرأة ذريعة لعدم المعرفة. إنَّ التطهير العِرقي في المُقرّر المدرسيّ من أجل التخلُّص من «الذكور البيض الموتى» هو حركة انتقاميّة صِرف لا مكان لها في مكافحة الانحياز الجنسيّ والتمييز العنصريّ. والهدف الثمين لإيجاد مُقرّر مدرسيّ أكثر تنوُّعاً سوف يعود بالضرر عليه إذا انتهى به الأمر إلى حرمان المرأة، والمُلوّنين، والفقراء في المُتَع مما كان يُسمّى «الثقافة الكلاسيكيّة». نعم - لقد كنا «مُضطهدات في بارنارد، لكننا على الأقلّ تعلّمنا التراث لكي نتمكّن من مُحاكاته بسخرية. ونلجه. كان على هذا أنْ يكون أفضل من أنْ نُستبعَد تماماً.

في بارنارد، أعدتُ ابتكار نفسي وأصبحتُ صورة تمهيدية لزيّ شائع - ربما تمرُّداً على صورة المدرسة القذرة - أو ربما تمرُّداً على تحصيلي الموسيقي والفني أيام الجوارب السوداء. كنتُ أنتعل كعباً بطول ثلاث بوصات كان يعلق في دروب كولومبيا القرميديّة الحمراء (وغالباً يفقد ارتفاعه)، وتنورة بسيطة ضيّقة، وسترة وبلوزة من الكشمير مع لآلئ. كنتُ أغيِّر لون طلاء أظافري في كل يوم. ولا أخرج من غير تبرُّج كامل - بجورب جديد مع زجاجة من عطر شانيل رقم 5 في حقيبتي.

هل كان يُفترَض بفتيات بارنارد أنْ يكنَّ كادحات ومتذمّرات؟

سوف أُريهن. سوف أكون كادحة بعد ذلك تبدو كأنها فتاة غلاف مجلة *سفنتين*.

قابلتُ صديقي خلال الشهر الأول لي في المدرسة، وخطّطتُ عن عمد كي أفقد عذريّتي بعد ذلك بثلاثة أشهر، وشعرتُ بالامتنان لفقدي إياها. استمرّتْ علاقتي بمايكل أربع سنوات «دون انقطاع». ووجدتها جيدة. جعلتني علاقتي برجل واحد أتفرّغُ لعملي - وعلاقتي الأحاديّة برجل يطبع لي قصائدي على الآلة الكاتبة.

كان مايكل قصير القامة، ذا عينين بنّيتين وامضتين، وشعر قصير بنّي، وصاحب موهبة لامعة في استخدام الكلمات. وطوال حياتي، كنتُ أولَع بالصِفات نفسها في الرجال: متبجِّح، مُداهِن، بارع في استخدام الكلمات، وماهر في العزف على آلة موسيقيّة. وأيضاً، مولع بالكتب. كان مايكل يتلو شِعر شكسبير بطبعته الأصليّة وكان يعرف عن الأدب الكلاسيكيّ، وأدب القرون الوسطى، والشِعر الحديث أكثر من أي شاب عرفته. كان مُضحكاً، وذكياً. كان مُفعماً بطاقة جامحة. كان يتّسم بلمسة شاعر لطالما وجدتُها لا تُقاوَم.

كتب درايدن يقول «أصحاب الفِطَن هم الأقرب إلى الجنون / لا تفصل بينهم إلا حواجز رقيقة». هذه هي قصّة حياتي - أو على الأقلّ حياتي العاطفيّة.

كيف كان لي أنْ أعرف أنّه بعد أنْ نتزوج بعام، سوف يودَع مايكل مستشفى جبل سيناء إثر وقوع حادث يدلّ على انفصام في الشخصيّة وأُعطيَ آلاف المليغرامات من عِقار مُهدِّئ؟

كنتُ قد سردتُ قصة انهيار أعصاب مايكل - أو النسخة الروائيّة منها - في كتاب *«الخوف من الطيران»*. لذلك، كما يحدث مع مُعظم الكتّاب، لم أعد أتذكّر ما حدث بالفعل. لقد تلاشت ذكرياتي داخل السرد الروائيّ. لا أتذكّر إلا نُتفاً وشذرات: اختفاءَه (كان يمارس التجذيف في بحيرة سنترال بارك): وظهورَه من جديد (حاول أنْ يقودني لنخرج من النافذة

ليبرهن لي أنَّ في استطاعتنا معاً أنْ نطير). ودخولَه المستشفى (خاطبني بيهوذا واقتطفَ من شِعر دانتي بالإيطاليّة ليبرهن لي على ذلك).

كان مايكل قد ترك مدرسة المُحاماة وعمل لصالح باحث عبقريّ مجنون في مجال الأسواق كان يُدخِل إلى الكومبيوتر عادات الأميركيين في الشراء ويبيع النتائج إلى وكلاء للدعاية. وأصبحَ رئيس مايكل ثريّاً لكنَّ مايكل أُصيبَ بالجنون. ومَنْ لا يُصاب بالجنون وهو يقضي ليلة بعد أخرى يراقبُ تلك الكومبيوترات الضخمة في حقبة الستينيات تبصقُ أخبار مسحوق تايد، وسائل التبييض كلوروكس، ومسحوق «بياض الثلج» وكيف أنَّ رغوة الصابون ترتبط بالحالة الثقافيّة ومشاهدة التلفزيون؟ وكره مايكل نفسه بسبب العمل الذي يقوم به. ولكنْ أَسَرَه الوعدُ بكسبِ مبالغَ تفوق أشد أحلامه جموحاً. وللأسف، لقد انهار قبل أنْ يتدفّق عليه الذهب.

أصبحتُ زائرة يوميّة لجناح المجانين في مستشفى جبل سيناء خلال فصل صيف عام 1964 الحارّ والطويل، عندما احترق حيّ هارلم. كانت المدينة تتمايل على حافة القيامة، وكنا نتمايل معها. عنّفني مايكل بقسوة، وهو مذهول، وحانق، وحاول أنْ يدفعني إلى مساعدته على الهرب. كنتُ ممزّقة بين الولاء له ورغبتي في مواصلة دراستي، وكتاباتي، وحياتي.

وصل والداه - أمّه الضئيلة بين أسنانها الأماميّة فراغ كما عند زوجة باثيش، مولعة بارتداء خفٍّ طوله ثلاث بوصات ومفتوح عند أصابع القدمين، ومتعوّدة على تدخين ثلاث علب من السجائر، ووالده رجل أصلع، طويل القامة، مُبلبَل، ولكن ميَّال إلى القتال - وصلا من كاليفورنيا وقرّرا على الفور أنني *أنا* التي دفعتُ ابنهما إلى الجنون. *الذنب كله ذنبي*. فقبل كل شيء، أنا الزوجة. كانت والدة مايكل، أميرة يهوديّة من ويست هارتفورد، كونكتيكت، تزوجتْ من رجلٍ دونها منزلة (على غرار الأميرات اليهوديات جميعاً) وانتهى بها الأمر

لتُصبح زوجة جندي بحريّة في سان فرانسيسكو. ووضعت اللوم في سبب فشل زواجنا على ثروة أبوَيّ الظاهريّة. كان والدا مايكل قد كافحا لإضافة شُرفة إلى منزلهما وفطيرة على المائدة. ووجدهما والداي سوقة بدرجة لا رجاء فيها. وبدورهما، وجد والدا مايكل أنَّ والدَيّ متغطرسان بدرجة ميؤوس منها. (والأربعة كلهم كانوا على صواب، طبعاً). الأربعة كلهم لم يتّفقوا إلا على ضرورة إنهاء زواجنا.

ونجحوا. بعد انتهاء فترة صلاحيّة الضمان الصحيّ الخاصّ بمايكل، عقد والده ووالداي اتفاقاً: *أعيدوه إلى كاليفورنيا*. وعُيِّنتُ ممرضة له. وانتقلتُ مع والدي بالطائرة إلى سان فرانسيسكو مع مايكل ومُحلّل نفسي. وُضِعَ مايكل تحت تأثير مُخدِّر قويّ لكي يُسمَح له بالسفر بالطائرة.

ويا لها من رحلة! عميان يقودون شخصاً مُخدَّراً! ولاحقاً، في أثناء إقامتي في ألمانيا مع ألان، حاولتُ أنْ أستعيد ذلك الزمان بقصيدة: تصِف قصيدة «أطير بك إلى المنزل» التفاصيل التي تُشيع البرودة في الجسم لعلاقة حب بين شخصٍ يُفضّل فجأة مغادرة الافتراضات التي تؤلِّف ما يُسمّيه العالم «صحّة العقل». كان ذكاء مايكل قد ارتفع عدة نقاط وتحوّل إلى جنون. إنَّ العالم الذي نسير فيه رسمه رسّامون سرياليون. اعتقدنا أنَّ في استطاعتنا أنْ نهبط داخل بركة شكّلها ماء المطر ونتحدث مع التفّاح. في أول الأمر، انجذبتُ إلى هذا كله ولم أنفر. لقد اتّضحَ أنَّ بي أيضاً أكثر من مجرد لمسة جنون.

أطير بك إلى المنزل

-1-

«آخذُ قضمة من التفاحة ومن ثم أملّ
قبل أنْ أقضم الثانية» كما قلتَ.
أنت كنتَ أيضاً شمشون. وأنا قصصتُ

شَعرَك وسجنتُك.
إلى جوار غرفتك كان هناك مخبول.
تركَ نزيلٌ سابقٌ مُلهِمته
فارشة جناحيها على إطار الصورة.
تحت شمس آخر النهار المائلة
شاهدنا ثدييها الضخمين الأحولين يظهران
يحفران كالألماس
على رعاع هارلم.
تتلقى الأقراص على لسانك وتلعن النزلاء.
تسميني يهوذا.
نسيتَ أنني فتاة.

—2—

يداك لم تكونا عصفورَين. إطلاق
اسم عصفورين عليهما أمرٌ سهل جداً.
إنهما يُشكلان دوائر حول أفكارك
وأفكارك أحياناً قُطُوع مُكافِئَة.
في يوم الأحد ذاك عندما استيقظتَ
ووجدتَ نفسك خلف المرآة،
ويداك جاثمتان على مائدة الإفطار
تنتظران إشارة.
لم يكن لديّ ما أقول لهما.
كانتا تتحدثان مع البيض.

—3—

مشينا.
انفتحت مظلتك تلقائياً

في مكانها فوق رأسك
كهالة سوداء.
فكّرنا في هبوط برك مياه المطر
وكأنها فتحة يمكن المرور منها
قلتَ إنَّ انعكاس صورة الأبنية
يؤدّي إلى الجحيم.
الأشجار رقصت لأجلنا،
والناس المقطوعون انعطفوا جانباً
واختفوا داخل أصواتهم.
المدن داخل كؤوسنا ابتلعتنا.
وقفتَ على ميزان، وسمعت القرش يسقط –
لكنَّ المؤشِّر بقيَ ثابتاً!
مما دلّ على أنك الله.

–4–

المصعد يُفتَح وأظهر منه
أحمل أزهار بنفسج إفريقيّة.
بعد ذلك بساعة أختفي
في صدعِ أبعاده
23 ساعةً.
مُخدّراً، هشاً،
تختال في الأروقة
بين المُحلِّلين النفسيين الشبّان النشطين،
والفتيات اللواتي ينسجن السجّاد طوال النهار،
ويحلّونه طوال الليل،
حالات البدانة تضيع في نفسها.
تُهمهم. تقول إنك تكرهني.

أودّ لو أهزّكـ.
أَتَذكُرُ كيف حدث الأمر؟
كنتَ واقفاً عند النافذة
تتحدّث عن الطيران.
امتدّتْ يداكـ إلى نحري.
عندما وصلتا اكتشفتا
أنَّ أذرعنا مُبعثرة على الأرض
كدُمى مكسورة.
كنّا معاً نبكي.

-5-

تثبُتْ. في مكان ما في عمق عقلي،
تثبُتُ. الفاكهة تكلِّمك
قبل أنْ تكلّمني. التفاح بكى
عندما قشَّرتَه.
المندرين بربر باليابانيّة.
حدّقتَ إلى محارة
وامتصصتَ الله.
كنتَ الرجل الأجوف،
وميلتون يلجُ قَدَمَكَ اليُسرى.

-6-

يا زوجي الأول! – الله –
أصبحتَ تجريداً،
ما يُشبه الفكرة. لا أستطيع حتّى أنْ أسمع
صوتَكَ. فقط الشَعر الأسود
المُجعّد على بطنك يجعلك تبدو حقيقيّاً –

أرسم عقصات سوداء على كل الرجال الذين أكتب
عنهم.
إنني حتى لم أعُد أنظر.

-7-

فكّرتُ فيك في اسطنبول.
بوجهك البيزنطي،
والشفتين الرقيقتين والوجنتين المُجوَّفتَين،
والعينين البنّيتين الذائبتين المتعصّبتين.
في أيا صوفيا يُزيلون
جصّ المسلمين
بحثاً عن الفسيفساء تحته.
القطع في مواقعها المناسبة.
كنتَ تصلح أنْ تكون قديساً.

-8-

أنا بارعة في الأماكن الداخليّة.
ثرثرة، حواف حادّة، قصائد مطبخ -
ولا حظَّ لديّ على الإطلاق مع الخرائط.
لأنني امرأة
أضعُ كل شيء في الداخل.
أزيِّن الكهف،
أُعلِّقُ على جدرانه جلود حيوانات وأصواف
الأرضيّة ملساء جداً،
بحيث إنَّكَ عندما تسقط
تعتقد أنَكَ سقطتَ عليّ،
كان لديكَ حسٌّ ممتاز بالرموز
حتى النهاية،

كانت دائماً تُشير إلى جهة الشمال.

—9—

أطير بك إلى المنزل –
يا إلهي – أطير بك إلى المنزل،
كنتَ مذعوراً.
أمسكتَ بيدي، وأمسكتُ
بيد والدي وهو
سرق أقراصاً من المُحلِّل النفسي
الذي جاء ليعاينك.
المُحلِّل النفسيّ كان في السادسة والعشرين وخائفاً.
كان يأمل في أنْ أُبقيكَ هادئاً.
وهكذا طرنا.
طرنا ونحن نُمسكُ يداً بيَدٍ بيَدٍ بيَدْ.

فور وصولنا إلى كاليفورنيا تقريباً، قمنا جميعاً، الطبيب النفسي، ووالدي وأنا، بتسجيل مايكل في عيادة جنوب كاليفورنيا التي تشبه كثيراً مُنتجعاً صحّياً لكنها كانت مزرعة من نوع غريب. كانت ستُصبح بمثابة مرحلة تدرُّب ما قبل التخرُّج بالنسبة إلى مايكل: ثورازين 101. («مخرج الزوج رقم واحد»، حسب تعبير ابنتي – في أية مناسبة).

وطبعاً اتّهمني مايكل بأنني يهوذا وبأنني خُنتُه مقابل عشرين قطعة فضيّة. بكيتُ. أبعدني والدي كما فعلت يوريديتشه[14] خارج العالم السُفلي. وخلاف ما فعله أورفيوس، لم ينظر والدي خلفه. وهربتُ. أبطلَ مُحامي العائلة البارع زواجنا وكأنّه لم يكن. بعد ذلك لم أرَ مايكل أبداً. اتّصل بي مرة أو مرّتين بخصوص النقود إبّان نشر كتاب ***«الخوف***

14– يوريديتشه: حورية غابة تزوجت من أورفيوس الذي لحق بها إلى العالم السفلي بعد أنْ توفّيت، وكان يمكن أنْ تخرج معه لو لم ينكث وعده وينظر خلفه إليها – المترجم.

من *الطيران*». وأتذكّر أنني شعرتُ بالإحباط. فقبل كل شيء، على مدى فصل صيف قصير، ظننا نحن الاثنين أنه المسيح.

كان ينبغي أنْ نعيش معاً بعض الوقت وألّا نتزوّج أصلاً. لكننا كنّا في العام 1963؛ وفي العام 1963 كانت الفتاة تتزوج من أوّل شابٍّ تُضاجِعُه. (ابنتي تجد هذا أمراً مُضحكاً) فالجنس كان مُباحاً فقط إذا كان مُقترناً بالحبّ. والحبّ يقود، حتماً، إلى الزواج.

ولكن في نيويورك في فصل الخريف التالي، قمتُ بتدريس اللغة الإنكليزيّة في سيتي كوليج وأثرتُ «ضجيجاً حول درجة الدكتوراه» في مدرسة كولومبيا للتخرُّج. وأفضل أصدقائي في ذلك العام كان ابن بقّال من بلاكبرن، في لانكشير، إنكلترا، اسمه رسل هارتي. ولما كان قد تخرّج حديثاً من مدرسة جيغلسويك في يوركشير، وقبل ذلك، من أوكسفورد، كان رسل يتدبّر أموره ريثما يحين الوقت المناسِب. ولاحقاً سوف يُصبح أحد أشهر مُضيفي برامج الحوار البريطانيّة.

في غمرة نشوته لوصوله إلى نيويورك بعيداً عن جيغلسويك، وقع رسل في حبّي وفي حبّ عائلتي اليهوديّة البوهيميّة من ويست سايد، التي كانت تتَّصِف بكل ما لا تتّصِف به عائلته.

سألتُ «أينَ قمتَ بالتدريس؟».

«في جيغلسويك».

قلت «أنت اختلقتَ هذا».

أخبرني «ليتني *فعلتُ*».

انجذبتُ إلى رسل، لكنه كان يرفض أنْ يُقبّلني. طبعاً كان يعبدني، وجمعت بيننا قواسِم كثيرة مُشتركة من الفِطنة، ولكن في الختام، أدركتُ أنه يعشقُ الصِّبية.

كان مُقدَّراً لنا أنْ نُصبح صديقين على مدى الحياة، بل كنا أحياناً نعشقُ معاً الرجال أنفسهم. (قال لي ذات مرة على مائدة عشاء لأربعة أشخاص

في مطعم لانغان: «إذا أحضرتِ شبّاناً جذّابين معكِ إلى لندن، أرفضُ أنْ أكون مسؤولاً عن سلوكي»). لاحقاً أصبحَ رسل ليس فقط مشهوراً بل وسيِّئ السمعة. وبرزت لكنته الخاصة بنورث كاونتي. وأصبحَ شخصية مشهورة في لندن من النوع الذي تحبّ صحافة الفضائح أنْ تكرهه. وطبعاً، أجرى معي حديثاً تلفزيونياً.

في ذلك الوقت، كانت أيامه في تصحيح دفاتر الطلاب في حجرة سيتي كوليج الصغيرة قد انتهت، وكذلك أيامي. وكان مُقدّراً لنا أيضاً أنْ نحظى بالنوع نفسه من الشُهرة: مشهورَين بكوننا مشهورين، مشهوران بسبب الجنس، والمُخدرات والروك أند رول، مشهوران لنقدنا الشائن. والمفارقة في الأمر هي أننا معاً بدأنا كأننا عميدا جامعة. كان رسل قد درسَ في أوكسفورد مع نيفيل كوغيل، في حين كنتُ أدرسُ في كولومبيا مع جيمس كليفورد. وأصبحنا عميدَي جامعة بلا زيّ رسميّ.

طبعاً هو مات بسبب مرض الإيدز - وكان أشدّ الأمراض حصداً للموتى في بداية الثمانينيات. في تلك الأيام، كان الناس ببساطة يختفون وبعد مرور أشهر نعلم أنهم قد ماتوا. وفقدتُ العديد من أصدقائي بتلك الطريقة الخرساء: رسل هارتي. توم فيكتور، المُصوّر. ديفيد كالستون، الفقيه الأدبي والكاتب. بول وورنر، المحامي المُتكلِّف. في أحد الأيام كنا نضحك في نيويورك أو لندن أو البندقيّة، وفي اليوم التالي بدا كأنهم قد اختفوا. وبعد فترة توقّف قصيرة، يدور خبر مُبهم يقول: «بعد صراع طويل مع المرض» - دون أيّ ذِكرٍ للإيدز خلال الأيام الأولى، أو للشريك الذي تركه حزيناً. كأنَّ أولئك الأصدقاء زحفوا إلى داخل جحور وماتوا، قبل أنْ تُصبح أعراض الإيدز أو HIV مقبولة.

مؤخراً أخبرتُ ابنتي عن تلك الميتات التي وقعت في البداية غير المُعترَف بها لسنوات الطاعون.

قلت «لقد اختفوا هكذا ببساطة، خجلاً من مرضهم، خِشية ألّا يفهمهم أحد. بعضهم عادوا إلى كنف عائلاتهم، ولم يسمع أحدٌ عنهم

أي شيء بعد ذلك. والبعض الآخر احتفظوا بممرّضة لتعتني بهم. لكنك لا تعرفين عنهم أي شيء إلا إذا أصبحتِ جزءاً من مجتمعهم. لقد كان هناك الكثير من الإحساس *بالخزيّ*» -

قالت مولي «اكتبي عن هذا، يا أمي، لكي يعرف أصدقائي بالأمر. حينئذٍ كنّا مجرد أطفال صِغار».

إذا أغمضتُ عينيّ، فما زلتُ أرى أسنان رسل الناتئة، ومفترق شَعره البنيّ المائل إلى الحُمرة، وعينيه البنّيتين الواسعتين. ما زلتُ أسمعه يقول: «إنَّ أمي تتساءل لِمَ لم أتزوج أبداً - والشيء اللّعين هو أنه قد فات الأوان لإخبارها».

أتخيّل رسل يتحدّث مع كلّ مَنْ في ذلك الحمّام في السماء الذي هو جنّة المثليّين. آمل أنّه يقضي وقتاً ممتعاً مع أوسكار وايلد، ومارسيل بروست، ووليم شكسبير، ومايكل أنجلو بوناروتي، وباقي الجوقة. لا بدّ أنّ الزحام شديد هناك.

إذن درَّستُ في سيتي كوليج في نيويورك، حيث كان طلابي يُهدّدون بأنني أتسبّب في إرسالهم إلى فيتنام إذا أسقطتهم في الامتحان، وكتبتُ أُطروحة التخرُّج العصيّة على القراءة «المرأة في قصائد ألكسندر بوب» - وهي وثيقة عن أصل حركة تحرير المرأة إنْ كان لها وجود. (في تلك الأيام، كانت المثقّفات من النساء يكتبن عن الشعراء الذكور في مجلة «القانون»، لكنّنا في المعتاد كنا نحاول أنْ نُثبت أنهم في الحقيقة نساء من تحت شعورهم المُستعارة!)

خرجتُ مع أحدهم. حدث ذلك في عام 1965 وكان لي شَعر أشقر طويل والكثير من الجاذبيّة الجنسيّة. كان الرجال موجودون دائماً. لم يُعجبني أيٌّ منهم بالإضافة إلى رسل، لكنني افترضتُ من غير تفكير - وأنا في الخامسة عشرة - أنه على الفتاة أنْ تحصل على رجل سواء أعجبها أم لم يُعجبها.

تعرّفتُ على سلسلة من الطلاب الخريجين الذكور الشوفينيِّين الخنازير الذين يعتقدون أنّ على المرأة أنْ تكون مُساعدتهم في أبحاثهم. ثمّ وقعتُ في حبّ موسيقيّ فَحل حقيقيّ لكنه شارد وبارد، ذهبتُ معه إلى أوروبا بوصفي عاملة في معسكر خلال المهرجانات الموسيقيّة. وعندما بات جلياً أنه يريد أنْ ينفصل عنّي ليخرج مع صديقة قديمة له في لندن، انطلقتُ إلى إيطاليا، أرض أحلامي، وهناك انتقمتُ منه بمُضاجعة رجل متزوّج (الأول من سلسلة من أمثاله).

كان باولو أو جينو أو فرانكو أو ساندرو يهذي في السرير «كليه كالمثلجات، يا حبيبتي!». ضحكتُ من أعماقي، حسبتُ أنني سأبتلع *تبعه*.

كوني عزباء كان أمراً دقيقاً دائماً بالنسبة إليّ لأنني كنتُ فتاة لا تستطيع أنْ تقول لا. كنتُ أحبّ الرجال حبّاً جمّاً، وأحببتُ أيضاً الكثير من الرجال المختلفين. وعندما لا أكون بالقُرب من الرجل الذي أحبّ، أحبّ أقرب رجل مني – حسب قول يب هاربرغ[15]. لذلك كان الزواج ملاذاً، طريقة للتركيز على العمل.

في خريف عام 1965، قابلت مُحلِّلاً نفسياً فرويديّاً أميركيّاً من أصلٍ صينيّ ما زلتُ أتذكّر كنيته، وتأثّرتُ به بعنف. كان وسيماً، جذّاباً وقليلَ الكلام (قال جدّي «إنه يتواصل كأنه برقيّة، كأنّ الكلمات تُكلِّفه نقوداً»)، لكنّه كان يتّصف بالعنصر السِّحري – الطبّ النفسي. ولما كان كاهن اللا وعي، كان بمثابة الترياق لجنون مايكل – أو هكذا أملتُ.

يقول زوجي الحالي «لطالما عشتِ حياتك بانتقال عنيف بين نقيضَين». قلت بخشونة «أوه، أحقاً؟». لكنني أعلم أنه على صواب. الشيء الوحيد الذي لا أعرفه هو أيّ النقيضَين يُمثّل هو.

تقابلنا أنا وألان وتزوجنا خلال شهرَين. تزوجنا سريعاً، وندمنا

15- يب هاربرغ (1896 – 1981): مؤلف أغاني أميركي.

متمهّلين، كما يقول المثل السائر. ودافعي للزواج من الدكتور يونغ يُبيِّنُ لي كم كنتُ متأثّرة من انهيار أعصاب مايكل. إنني أشكُّ في أنني أحببتُه، ولكنْ يبدو أنَّ الحبَّ ليس هو الهدف من الزواج. لقد علِمتُ أنني أريد أنْ أبتعد عن عائلتي. علِمتُ أنني كرهت التخرُّج من المدرسة. علِمتُ أنني في حاجة إلى تحليل نفسيّ. علِمتُ أنني في حاجة إلى أنْ أكتب. علِمتُ أنني خائفة من القيام بهذه الأعمال وحدي.

والحقيقة هي: إنني خفتُ أنْ أكون بلا رجل. خفتُ لأنني، لأسباب لا أعرفها، كنتُ أجذبُ الرجال كوعاء من العسل ولم أكنْ مُزوّدة بشبكة طبيعيّة. وافترضتُ أنني بوجودي في كنف زوج مُحلّل نفسي كئيب – من المُفترَض أنّه يعرف أسرار اللا وعي – أكون في أمان. واتّضح أنني على صواب وعلى خطأ بهذا الشأن. ثم، كان زواجي من ألان في ذلك الوقت أشبه بوجودي في حجز انفراديّ. والحجز الانفرادي أمر عظيم بالنسبة إلى ممارسة الكتابة.

انطلقنا بحراً إلى ألمانيا في شهر شباط من عام 1966. كان ألان قد طُلِبَ للخدمة العسكريّة وهو في عمر الثانية والثلاثين واختار ألمانيا ليمكث ثلاث سنوات ويتفادى احتمال إرساله إلى فيتنام. كان متيقّناً من أنه إذا ذهب إلى فيتنام فسوف يُقتَل بسبب سِحنته الصينيّة وزيّه الرسمي الأميركيّ. في ألمانيا، أمضى ثلاث سنوات من الذعر بشأن الحرب الفيتناميّة (التي كان يُناهضها)، لأنَّ استدعاءه إلى الجيش أبعده عن ممارسة مهنته الخاصة (التي كان ضعيفاً أمامها)، واشتاقَ إلى التحليل النفسي (الذي كان ضعيفاً أمامه). وسرعان ما اكتشفنا كم نحن غير مناسب أحدنا للآخر. أنا كنتُ أحبّ الضحك والكلام. وهو لم يحبّهما. لقد انتقيتُ لنفسي مُعذِّباً صينياً. فإذا كان الجحيم هو الآخرون، كما قال سارتر، فقد كنتُ إذن في الجحيم. وكنتُ شديدة الفخر باعترافي بأنني ارتكبتُ خطأً آخر.

وهكذا أوصدتُ على نفسي باب غرفتي ورحتُ أكتب. ربما كان ذلك هو الهدف من الأمر كله. لعله كان نُسختي الخاصة من شخصية ويلي عند

كوليت. وطوّرتُ نظريّة مناسبة مفادها أنَّ كل امرأة كاتبة في حاجة إلى رجل لتوصد على نفسها باب غرفة بعيداً عن أمّها لكي تتمكّن من الكتابة.

أقمنا في مكان لا يبعُد إلا مسافة انتقال قصيرة من هايدلبرغ، يُدعى هولباينرينغ، كان فيه جيراننا كلهم من ضباط الجيش مع «تابعيهم». كنتُ أُعطي دروساً لدورات للفرقة العسكريّة لما وراء البحار في جامعة ميرليلاند - حيث كانت الفتيات يُخاطبنني بـ«سيدي» - وأكتبُ عموداً عن نبيذ المهرجانات والمطاعم لصالح مجلة مجّانيّة اسمها هايدلبرغ ديس فوخ. وفي الغالب كنتُ أوصدُ على نفسي في غرفة النوم الثانية في شقّتنا الشنيعة الخاصّة بالجيش ورحتُ أكتبُ قصائد وقصصاً.

عشتُ في عالمٍ من اختراعي، وهو، طبعاً، ما ينبغي على كل كاتب أنْ يبدأ به. قرأتُ الإصدارات الفصليّة الشِعريّة - ***سيواني ريفيو، والشِعر، وسذرن ريفيو*** - التي كانت تصلنا متأخّرة أشهراً عبر البريد البحريّ. وتعبّدتُ على مذبح *ذا نيويوركر*. كنتُ أقارنُ بين قصائدي الضحلة بتلك التي تُنشَر. وقرّرتُ أنَّ نبرتها مُغرَقة في أُنثويّتها المُنمّقة، وحاولتُ أنْ أُحاكي النبرة الرائقة، الحياديّة التي اعتبرتُ أنها لذكر وبالتالي تُرضي المُحرّرين.

ولكن بلا فائدة. لم أستطع أنْ أجعل نبرة صوتي حياديّة وأُصبح شاعرة من حقبة الستينيات تنشر في *نيويوركر*. ولم أتمكن حتى أنْ أقترب من القصائد التي عثرتُ عليها في سيواني ريفيو. وكما كان يحدث في أيام المدرسة حاولتُ كثيراً أنْ أكتب شِعراً مُبهماً ويئست عندما خرجت قصائدي واضحة، وفي هايدلبرغ حاولتُ أنْ أُصيغَ نفسي بما تخيّلتُ أنه ذوق العصر. ويُسعدني أنْ أقول إنني فشلتُ بصورة بائسة. ولعِلمي أنّه أنْ يكون المرء أنثى شيء مكروه إلى أقصى مدى، أردتُ أنْ أجد طريقة أُصبحُ فيها شيئاً - أي شيء - آخر. ولكن ما هو ذلك الشيء الآخر، لم أعلم.

تساءلتُ، كيف كان يمكن لشِعري أنْ يُصبح لو أنني درستُ ميوريل

روكايزر[16] في معهد بارنارد بالإضافة إلى والاس ستيفنس؟ كتبتْ تقول في ديوانها *«نظرّية الطيران»* أستنشق تجربةً، وأزفر شِعراً». لقد كنتُ أكافحُ حاملة الخوف الأنثويّ نفسه من أنْ ينمو لي جناحان، ولكنْ لم يكن من الممكن أنْ أعرف أنني لستُ الوحيدة في ذلك. كيف كان يمكن لعملي أنْ يكون مختلفاً لو أنني علِمتُ أنني أشكّل جزءاً من تراث؟ لكنّ روكايزر كانت مُهمَلة على غرار روث ستون، وإدنا سينت فنسنت مبلاي، وآنّا ويكام، وHD، ولورا راينغ، ومارينا تسفيتايفنا. كان يمكن لهنّ أيضاً أنْ يكتبنَ بحبرٍ خفيّ.

لقد كانت هذه ورطة نموذجيّة جداً بالنسبة إلى امرأة شاعرة في منتصف حقبة الستينيات. وبما أنه لم يكن لدينا دورات للدراسات النسائيّة في المدرسة ولا *«منتخبات أدبيّة بأقلام نساء»*، لا بروفسورات على غرار شوالتر، وستيمسون، وغيلبرت، وغوبار، كان على جيلنا أنْ يُسمّي المشكلة ويُحدِث الدورات التي لم تكن قد أُحدِثَتْ بعد.

بينما أنا جالسة في غرفة نومي الثانية بجوار الغابة السوداء، كان عليّ أنْ أجد وسيلة لأكون امرأة شاعِرة في وقت كانت فيه «المرأة الشاعرة» عبارة تنمّ عن مُحاكاة ساخرة. إنَّ كامل تاريخ الشِعر الإنكليزي- الذي يُشدّد - وهذا ما أعرفه جديداً، للأسف - على أنَّ الرجل هو المُبدِع والمرأة هي الطبيعة. من شكسبير إلى ووردسوورث إلى ييتس وغريفز، كان الشعراء الذكور يحرثون الطبيعة الأنثى لكي تُعطي ثمراً خُنثى. كانت الأنثى هي المُلهِمة - والمُلهِمات يُفترض بهنّ أنْ يكنّ خُرساً.

سألتْ فيرجينيا وولف «مَنْ الذي سيقوم بتقدير حرارة وعنف قلب الشاعر عندما يعلق في جسد المرأة ويتشابك معه؟»، وهي تنسج حكايتها عن أخت شكسبير الوهميّة (التي أصبحتْ اسماً تحمله فرقة

16- ميوريـل روكايزر (1913 – 1980): شاعرة أميركيّة، كانت تركّز على القضايا الاجتماعيّة والسياسيّة – المترجم.

إنكليزية لموسيقى الروك[17]. ومَنْ يستطيع أنْ يُقدِّر حجم الضرر الذي أحدثته أجيالٌ من الشاعرات المُدّعيات جرّاء تلك الأساطير والنماذج المُحبِطة؟

في أحد الأيام من عام 1966، أرسلتْ إليّ صديقة لأختي تُقيم في نيويورك ديوان شِعر بعنوان *Ariel*. مؤلِّفته امرأة اسمها سيلفيا بلاث، كانت قد توفيتْ، لكنَّ القصائد كانت تتسم بحيويّة هائلة. وكم كانت مُدهِشة تلك القصائد! لقد تجرّأتْ القصائد وأعلنتْ حياة امرأة عاديّة مادّتها. تجرّأتْ بالانفتاح فيما يخصّ الغضب الذي كان مُحرَّماً على جيلي من النساء. تجرّأتْ بالكتابة عن هسيس المطبخ، ورائحة براز الطفل الكريهة، وإثارة الإصابة بجرح في الإصبع، ولحم حمَلَ يوم الأحد المُقدّس بشحمه.

كانت مُبدعةُ تلك القصائد الشرسة قد ماتت عندما كنتُ في منتصف عام تخرّجي من بارنارد. في عام وفاتها، نشرتْ *النيويوركر* صفحة من قصائدها. قرأتها، لكنني لم أكن مستعدّة بعد لتشرّبها. كنتُ لا أزال أُحاكي أسلوب كيتس، وبوب، وفيلدينغ، لا أزال أُقلِّدُ بسخرية الشعراء الذكور بثقافتي التي حصّلتها من بارنارد وكولومبيا، لم أكنْ قد أدركتُ بعد كم كنتُ نهمة إلى مثل تلك القصائد.

عندما يُصبح الشاعر مستعداً، تظهر المُلهِمة.

في ألمانيا، كنتُ مُستعدّة. لقد جعلتني قصائد بلاث أتفتَّح. وانبجسَ الدم إلى الصفحة.

فجأة أدركتُ أنَّ في استطاعتي أنْ أتخلّى عن قصائدي الحياديّة عن النوافير الإيطاليّة وقبور الشعراء الإنكليز وأكتبَ عن الحياة التي عشتها – حياة «زوجة مُجنَّد» (حسب تعبير الجيش) – حياة السوق، والمطبخ، وسرير الزواج. كان في استطاعتي أنْ أكتب قصائد عن

17– فرقة Shakespeare's Sister – المترجم.

التفاح والبصل، قصائد تُصبح فيها أغراض الحياة اليوميّة أبواباً تؤدي إلى حياتي الداخليّة كامرأة.

أخذتني سيلفيا بلاث إلى آنْ سكستون. كان كتاب ***«إلى بدلام ونصف طريق العودة»*** قد نُشِرَ في عام 1960، وكتاب ***«كل أشيائي الجميلة»*** عام 1962، و***«عِشْ أو مُتْ»*** كان قد طُبِعَ تواً في عام 1966. وفجأة أثبتت قصائد «الطمث في سن الأربعين» و«نوعها» صحّتها على كفاحي من أجل العثور على الساحرة الممسوسة داخلي، المُغنّية ذات الرحم النازف، وتاريخ «المرض الأحمر» الذي يُصيب الحب.

ما الذي سبّبَ الإثارة التي سمحت فجأة لشاعرات أمثال آنْ سكستون أو بلاث أنْ يجدنَ آذاناً صاغية؟ أكانت حركة الحقوق المدنيّة التي اتّسمَتْ بها سنوات دراستنا وعلّمتنا كم كان مجتمعنا جائراً؟ أم اغتيال كينيدي الذي وَسَمَ أوائل عشرينيات أعمارنا وعلَّمنا ألا نُصدِّق أبداً ما نقرأ في الصحف؟ أكانت حرب فييتنام التي طبعتْ أواسط عشرينيات أعمارنا وعلَّمتنا ألا نُصدِّق أبداً قادتنا؟ لقد كانت السلطة ذَكَراً ولم تكن معصومة أبداً.

نشرتْ بيتي فريدمان كتاب ***«الغموض الأنثويّ»*** في عام تخرّجي من معهد بارنارد. وأصغيتُ إلى أختي الأكبر سناً وهي تتناقش حوله مع أمي. كانت أختي متحمّسة – وأمي أقلّ منها في ذلك، بما أنها كانت قد شهدتْ في شبابها استئصال الحركة النسائيّة وكأنها لم تكن. وعلى الرغم من أنني كنتُ لا أزال عالقة في القرن الثامن عشر، متظاهرة بأنَّ ألكسندر بوب هو أنثى، إلا أنَّ الحركة النسويّة لاحت في الجو من جديد، وطبعاً كنتُ أتشرّبها. لقد منحتْ الإذن بالكتابة من وعي المرأة.

كان كامل ثقافتي التي حصلتُ عليها من جامعة كولومبيا بمثابة تخلٍّ عن تلك الإثارة، وربما هذا هو السبب الذي جعلني أجد كولومبيا باطِّراد لا تُطاق. لقد أردتُ أنْ أؤلِّف كتبي الخاصة التي تتحدث عن كتبٍ تتحدث عن كتبٍ تتحدث عن كتبٍ يمكن أنْ تُحقق لي السيطرة. وهكذا تزوّجتُ

من ألان ليكون بمثابة بطاقة دخولي أوروبا وهروبي من جامعة كولومبيا المُنحازة جنسياً والخاصة بالبروفسورات ومانهاتن الخاصّة بوالديّ. كنتُ أعلم أنني في حاجة إلى الابتعاد، بل إلى أنْ *أحاول* أنْ أدوِّنْ الحقيقة.

الشِعر هو الحياة الداخليّة للثقافة، وجهازها العصبيّ، وأعمق أساليب تخيّلها للعالم. الثقافة التي تُهمِل شعراءها، وتخنق جهازها العصبي، تُصبح مُصابة بمرضٍ مميت. هكذا كان حال أميركا حينئذٍ. (يمكن القول إنّ الوضع بات أسوأ الآن). كان كل الشعراء الذكور الذين ينشرون في النيويوركر في الستينيات (الذين يكتبون قصائد عن كِلابهم وعشيقاتهم) يتجاهلون تقريباً كل ما يحدث في العالم. كان الواقع يضجُّ في الخارج. كان ألان غينسبرغ، غريغوري كورسو، ولورنس فرلينغيتّي، هم الأقرب حتماً لِما كان يحدث في الستينيات. ولكن لم تكن هناك أية فُسحة في الغابة للشاعرات النساء - إلى أنْ جاءت بلاث وسكستون، وجذبتا افتتاننا الرهيب بموتهما المُنمَّق. وسِرنا على خُطاهما (منتعلات أحذية لعب التنس - كما قالت دوروثي باركر عن تتبُّعها الخاص لخُطى إدنا سينت فينسنت ميلاي في العشرينيات). كان علينا أنْ نُفسِح لأنفسنا بصورة ما حيِّزاً. ونجحنا، نوعاً ما.

سبقَ شِعري رواياتي وأنار ليَ الطريق إلى قلبي. وكان إنتاجي الروائي لا زال يتبع (منتعلاً حذاءً رياضياً بجلد لمّاع) الخُطى الذكوريّة النخبويّة لفلاديمير نابوكوف، الذي كان الروائي المُفضّل لديّ وأنا في الجامعة وفي مدرسة التخرُّج. وكان بمثابة ثناء له أنني قمتُ بمحاولتي الروائيّة المُخفِقة (وأجهضتُها) والتي وضعتُ لها العنوان المؤقَّتْ *«الرجل الذي اغتال الشعراء»*. وتظاهرتُ بأنني رجلٌ مجنون على نمط روايات نابوكوف يخرجُ ليغتال طيفه الذي لا يقلّ جنوناً. وقُدِّرَ للكتاب ألا يخرج إلى النور قط. لقد كافحتُ معه على مدى سنين عديدة، إلى أنْ تخلّيتُ عنه عندما بدأتْ فكرة *«الخوف من الطيران»* بالظهور. وبما أنني لستُ مجنونة ولا رجلاً، مُنِعَ كتابي بسموّ. وافترضتُ بلا وعي أنَّ رجلاً فقط يمكنه أنْ يسرد رواية. لكنَّ زوجي الأول كان هو المجنون، وليس أنا.

في تلك الأثناء، كان صوت المرأة في القصائد قد بدأ يُبرز. وصفَ العالم وشبّهه بفم شرِه، نهم. كان مُفعماً بالتهديد بكونه امرأة. كان ممتلئاً بإحباط كونه امرأة ذكيّة. كان مشحوناً بعبث كونه امرأةً تتمتع بالعديد من التأثيرات لصالحها.

المُعلِّمة

المُعلِّمة تقفُ أمام طلاب صفّها.
تتحدّثُ عن تشوسر.
لكنَّ الطلاب ليسوا توّاقين لسماع أخبار تشوسر.
بل أرادوا أنْ يلتهموها.
إنهم يلتهمون رُكبتيها، وأصابع قدميها، وثدييها،
وعينيها
ويبصقون
كلماتها.
ماذا يريدون من الكلمات؟
إنهم يريدون درساً حقيقياً!

إنها عارية أمامهم.
المزامير مكتوبة على فخذيها.
عندما تمشي، تُقسَّم السوناتات
إلى ثُمانيات وسُداسيات.
الثُنائيات تقع في مكانها
عندما تعبث أصابعها بعصبيّة
بالطباشير.

لكنَّ الكلمات لا تعبِّر عنها.
لم تعُد أية كمية من الشِعر قادرة على إنقاذها الآن.
ليس هناك مُتّسع كافٍ لإخفائها.
لا قاموس ويبستر الموسَّع، ولا قاموس أوكسفورد.

الطلاب ليسوا أغبياء.
إنهم يريدون درساً.
ربما ذات يوم أمسكوا الحياة
من وشاح عنقها
ببيتين أنيقين.
أما الآن
فهم في حاجة إلى دماء.
لقد تركوا تشوسر وشأنه
وأكلوا المُعلِّمة

لقد تلاشت الآن.
لم يتبقَّ منها
إلا صفحة مكتوبة.
لقد تجاوزت مُساعدتنا لها.
ربما أصبحتْ جزءاً من طلابها.
(لا تسأل كيف)

كُلْ هذه القصيدة.

إنَّ عيشي في قلب ألمانيا ووعيي ليهوديّتي شكّلا أيضاً جزءاً حاسِماً من هذا التطوُّر. كنتُ أقضي أيامي في استكشاف الآثار شبه المَمْحُوَّة للرايخ الثالث، أغوص في الكتب المُسودَّة التي أُزيلت عنها السِمة النازيّة التي في المكتبة العامة، بل ومُكتشِفةً مُدرّجَ مسرحِ نازيّ مُهمَل داخل الغابة. وتذكّرتُ آن فرانك. تخيّلتُ نفسي شبحَ طفلةٍ يهوديّة قُتِلَتْ في يوم مولدي. فهمتُ أنني لم أُفلِتْ من الموت إلا بخدعة من التاريخ.

اجتمعتْ قصائد بلاث مع محرقتي العقليّة من أجل خلق إحساسي الجديد بالهويّة كيهوديّة وكامرأة. مخطوطة قصائدي الأولى «بالقُرب من الغابة السوداء»، كانت ممتلئة بصور من هايدلبرغ بعد انهيار الرايخ الثالث، وقصيدة «عالم ليس يهودياً خالٍ من الرجال» نتجتْ عن الكارثتين التوأم المِحرقة والحرب.

إنَّ المرأة الشاعرة هي *حقاً* يهوديّة مُطارَدة، منبوذة إلى الأبد. يُطلَبُ منها منذ البداية أنْ تُخفي جنسها، وتغيِّر اسمها، أنْ تمتزج مع شِعر الذَّكَر المتفوِّق المقبول. إنَّ الذين يُعانون من التمييز يختلقون أسماءً جديدة، ويُغيّرون لون بشرتهم، ويكبّرون أنوفهم، ويُنكرون كيانهم لكي يبقوا على قيد الحياة. أدركتُ أنَّ هذا ما فعلتُه في الجامعة وفي مدرسة التخرُّج. وفجأة اكتشفتُ أنه لم يعُد في استطاعتي أنْ أفعل هذا. واتّضحَ أنَّ هذه هي بداية تعليم نفسي الكتابة.

مالكة الأرض في هايدلبرغ.

لأنها فقدتْ والدها
في الحرب العالميّة الأولى،
وزوجها في الثانية،
لم نُجادل
«ليس في أميركا Gemutlichkeit (مودّة)»

إننا نكسبُ قلبها
بسجائر مع فيلتر.
تقول، وهي تنفثُ الدخان،
«لا يمكنكَ أنْ تحكُم على بلد
بعد اثني عشر عاماً فقط»

الأيام كئيبة،
والريح تمخرُ الشوارع الجانبيّة،
وأنا أمشي في صورة فوتوغرافيّة من حقبة الثلاثينيات،
عصر ما قبل التاريخ
قبل أنْ أولَد.

هذه البلدة لم تُدمّر بالقنابل.
ما زالت النساء ينتعلنَ أحذية غريبة الشكل،
ويضعنَ فرواً طويلاً وقذراً.
ويفُحن برائحة الكافور والبابونج،
صور فوتوغرافيّة قديمة.

لا يحدث الكثير هنا.
بضعةَ محالّ لبيع المجوهرات تغيّرَ مالكوها.
مخزن للتقطير. مصارف.
الجامعة ترفع النجمة النازيّة، وتنزلها.
الطلاب يهتفون الآن هو تشي منه ويكرهون الأميركيين
كمبدأ.
أبي يعتمر قلنسوة موزِّع منشورات

ولا يكبر أبداً.
إنه يجلس على المائدة مع كعك الشاي.
أمي وجدّتي أرملتان.

إنهما تهتمان بالأشياء.
الدنيا تُمطر كل يوم تقريباً.
كل يوم، تغسلان النوافذ.
الأدغال المحروثة في الصالونات،
مناطق استوائية غنيّة

داخل إطار من الستائر البيضاء المُخرَّمة.
إنها تغوي بسماد، وتحفّ أوراق النبات.
وكل نبات يُشرق كطفل بدين.
إنها تأمل بسطوع الشمس،
بالعيش في عالم بلا يهود خال من الرجال.

أدركتُ أنَّ أُمنية الألمان تحقّقتْ: لقد تخلّصوا من اليهود ومن الرجال في وقتٍ واحد. وخرجت النساء. وحيدات، يشعرن بالمرارة، لكنّهنّ يُسيطرن على الأمور بشكل كامل، إنهنّ يُنظّفن النباتات والأرضيات. يَبدين قويّات بقبعاتهن الرثّة والفرو الذي أكله العثّ، يربِّين الأطفال، ويعتنين بالحدائق، ويُنجبن من أجل مستقبل ألمانيا، ألمانيا التي نعرفها اليوم. الآن هناك جيل آخر من الرجال الألمان. الآن تظهر المشكلات من جديد.

تتحدّث فيرجينيا وولف، التي فهمتْ مشكلات إبداع المرأة ربما أكثر من أي كاتب آخر عن:

«تراكُم حياة غير مُسجّلة... مُستمدَّة من النساء الواقفات عند

منعطفات الشوارع وأذرعهن على خصورهن، والخواتيم ترصِّع أصابعهن المتنفخة البدينة، يتحدثن بالإيماء كتأرجُح كلمات شكسبير. أو من بائعات البنفسج وبائعات الكبريت والعجائز الطاعنات في السن يقفن على مداخل الأبواب. أو من الفتيات المنسابات اللواتي تشير وجوههن، كأمواج في الشمس والغيوم، إلى اقتراب رجال ونساء والأضواء الخفّاقة لواجهات المَحالّ التجاريّة. كل هذا سوف تُضطرين إلى أنْ تكتشفيه...».

إنها تستحضر الجزء الضخم من حياة النساء التي لم ينل منها التواصُل مع الرجال. هذا الجزء - وهو الأكبر - من المُفترَض ألا يكون ذا أهميّة، وليس موضوعاً صالحاً للأدب. وما دام الرجال هم الذين يضعون البرنامج الأدبيّ، سوف يبقى هذا الحال على ما هو عليه. وحده الحب - رومانسياً كان أم زنا - سوف يُعتَقَد أنه مادة صالحة للأدب.

لماذا؟ لأنَّ الرجال هم محوره، والرجال لا يُحبّون أنْ يتذكّروا أنَّ هناك *أي* جزء من حياة المرأة لا يُشكّلون مركزه. ونتيجة لذلك، سوف تنتج العديد من النساء أدباً على النمط الذي يعتبره الرجل مهماً. ومن هنا يأتي تركيز الأدب على «الحب».

ماذا قد يحدث إذا تحدّثنا على حياتنا نحن، من غير الإشارة إلى جنس الذكر؟ هل نستطيع حتى أنْ نتخيَّل مثل تلك البدع؟ فكّري في السخرية التي واجهتْ فيوليت دو دوك، ومونيك فينيغ، وأنييس نن، وماي سارتون. بعد أنْ ينتهي «الحب»، يبقى هناك الكثير من الحياة، كما تقول كوليت، مُحدِّدة أساس البدعة. وقد عوقِبَتْ أيضاً لتحديدها لها - وحُرِمَتْ من الجنازة التي كانت تُليقُ بها (الجنازة التي كان سيحظى بها أي رجل لقامتها)، وباقات الورديّ، والأشرطة، والنياشين. أشكُّ في أنّها اهتمَّتْ بذلك.

العزلة المُريحة، سعادة امرأتين عاشتا معاً كصديقتين أو عشيقتين،

سعادة أم وابنة، تتشاركان السرير، تتحدثان طوال الليل. سعادة أختين بعد رحيل زوجيهما، وفاتهما، أو سفرهما. سعادة العمل. والاعتناء بالبستان. والرعاية بالأطفال. والتسوُّق. التمشّي. إدارة منزل - هذه كلها بِدع.

في مُعظم حياتنا نبدو وحيدات، أو مع نساء أُخريات، ومع ذلك يُطلَب منا أنْ نُلقي ضوءاً على الجزء الضئيل من حياتنا الذي نتقاسمه مع الرجال. وهذا لا يعني أنَّ حياة الأنثى كلها ظلام ما عدا ذاك، ولكنْ يُطلَبُ منّا أنْ نتظاهر بأنها كذلك وأنْ نكتب عن الحب، الحب، الحب - إلى أنْ ينال الضجر حتى منا نحن.

هذا هو المعنى *الحقيقيّ* لكوننا الجنس الثاني. إنَّ مسرّاتك كلها وآلامك تُعتبَر ثانويّة بالنسبة إلى تلك التي تتقاسمينها مع الجنس الآخر.

هل الرجال مُثيرون للاهتمام إلى هذه الدرجة؟ هم كذلك بالنسبة إلى *أنفسهم*. ولكن، لاحقاً، اكتشفتُ أنَّ النساء أشدّ إثارة للاهتمام بكثير. لقد عشتُ الجزء الأكبر من حياتي إرضاءً للرجال إلى درجة أنَّ هذه النتيجة صعقتني. هل كنتُ موثقة بالتقاليد بشدّة إلى درجة أنني، أنا المُفترَض أنني متمرّدة، شخصية تقليدية كأية امرأة من عصري؟ أم أنَّ الجنسَ شلّني لأنني لطالما علِمتُ أنها الطريقة الأولى لإغواء المُلهِمة؟ إذا أردتُ أنْ أكون صادقة مع نفسي، فينبغي أنْ أُجيب عن هذا السؤال.

-6-

الجنس

«يمكن للإثارة الجنسيّة الأنثويّة أنْ تبلغ كثافةً لا يعرفها الرجل. إنَّ الإثارة الجنسيّة للذكَر حادّة لكنها متمركزة، وأيضاً - فيما عدا ربما لحظة الرعشة - تترك الرجل متمالكاً تماماً لنفسه. أما المرأة، من ناحية أخرى، فتفقد رشدها حقاً. وهذا الأثر بالنسبة إلى العديدين يُحدِّد اللحظة الحاسمة والشهوانيّة لعلاقة الحب، لكنها تتّصِفُ أيضاً بسِمة سِحريّة ومُخيفة».

• سيمون دو بوفوار، من كتاب
«الجنس الآخر»

«إما أننا كنا ملايين من المنحرفين نتشبّث بكتّيباتنا المتّسخة شاعرين بالخجل، أو أنَّ تلك الأوهام الجنسيّة أمر عاديّ كفطيرة تفاح».

• سوزي برايت، من كتاب *«الحقيقة الجنسيّة: قارئ عالم الجنس الحقيقيّ»*

«إنَّ المرأة التي تتمتَّع بأي قدر من الحسّ السليم باتت تعلم، بعد مرور كل تلك القرون، أنه لا ينبغي أنْ تُقاطع الرجل عندما يبدأ بإخبارها عن شعورها حيال الجنس».

• دوريس ليسينغ، من كتاب
«المفكّرة الذهبيّة»

قال بايرون «لقد راودني حُلمٌ، لم يكن حُلماً على الإطلاق. أنا، أيضاً، عشتُ قصيدة رعويّة ذات صيفٍ مثاليّ في حياتي. عندما يقول الناس «الشهوة»، أعرف ماذا يعنون - على الرغم من أنهم قد لا يعرفون. وعندما أحتاج إلى وهم لإثارة أقصى شغف يمكن لامرأة أنْ تتحمّله، فهذه هي نقطة إسنادي.

في ذلك الوقت لم أكنْ متزوجة - في موقع ما بين زيجتي الثالثة والرابعة - وكنتُ قد وقعتُ في حب رجل بدا لي أشبه ببان[1]، يفوح برائحةٍ مزيج من الصيف والجنس، يُبحِرُ قاربه في بحيرة مدينة البندقيّة وفي البحر الأدرياتيكيّ.

كانت علاقتنا قد بدأتْ قبل ذلك بعام - وقع أحدنا في حب الآخر ونحن على متن قاربه، وانتظرنا عاماً كاملاً في حالة ترقّب، ومن ثم، عندما رجعتُ إلى البندقيّة في الصيف التالي، انتزعتُ ساعات مثاليّة في المنزل الذي تقاسمه مع شريكة حياته. استمرت علاقتنا بعد ذلك عبر الهاتف والفاكس على مدى سنينٍ عديدة، ونتقابل قدر استطاعتنا. كنتُ أحملُ ساعتيّ يد لكي أعرف دائماً التوقيت في مدينة البندقيّة، وكان لدينا مواعيد هاتفيّة للعشّاق، عندما يودّع كلّاً منّا الآخر عند النوم واصفَين ما سنفعل، وما فعلنا، كل منا للآخر.

كان يقول (بالإيطاليّة) «إنني أنفجر، إنني ممتلئ بالنجوم...»، وهو يقذف. كان كلّ شيء مجازياً بحجم الكواكب. كان الجنس كونياً - بنسيجٍ بصريّ.

كنتُ أذهب إلى البندقيّة وأنزل في جناحٍ جميل في الغريتّي (حيث الماء يرشح من السقف) ويأتي لزيارتي صباحاً ومساءً.

ولكن ذات صيف (أكان الثاني أم الثالث؟ لا أتذكّر)، قرّرتُ أنْ أستأجر طابقاً أول شاسعاً مع قاعة استقبال من قصر مدة ثلاثة أشهر -

---

1- بان: في الأساطير الإغريقيّة، إله الغابات والمراعي والرعاة.

لكي يوفِّر لنا وقتاً غير محدود لاكتشاف هذه الصِلة ونرى إنْ كان في الإمكان أنْ تُصبح دائمة. وما عرفته كان أنَّ الشهوة الجنسيّة لا تدوم أبداً، أو بالأحرى ظروف دوامها ليست دائمة.

وصلتُ وحدي في شهر حزيران، وأقمتُ في القصر المُستأجَر - بنوافذه المُطلَّة على قنال غيوديكا، وسفنٌ منقوش عليها أحرفٌ سيريليّة[2] تنساب مارّة، وحدائقه المُسوّرة المملوءة بالورود وشجرة إجاص (*pero*) تحمل ثماراً مذهلة في المركز، مُثقلة بالإجاص اليانع.

وصل بييرو (دعني أُسمّيه هكذا) عند الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم الأول ليقول مرحبا *(per salutarti)*، كما قالها بالإيطاليّة. وحيّا حلمتيّ، وعنقي، وشفتيّ، ولساني، وأمسك يدي ومشى بي إلى غرفة النوم، وهناك جرّدَ جسمي ببطء، مُبدياً دهشته من فرط جمال كل جزء، وولجني على السرير، ممسكاً بي بحزم كأنما إلى الأبد، بينما كنتُ أمتلئ بالسائل كثمار الإجاص على شجرة الإجاص وبدأتُ أرتجفُ كأنَّ عاصفة تهزّها وتُسقِطها إلى الأرض.

ارتفعتُ بكل كياني نحوه ممتلئة برائحته، بكلماته، بلسانه، بقضيبه المتمهِّل بصورة لا تُصدَّق، وكأنَّ خلايا جسمي تنفصل ثم تلتئم من جديد. كان شيئاً أشبه باستحالة خبز القربان وخمره إلى جسد المسيح ودمه - الدم والجسد يُصبحان خبزاً وخمراً بدل أنْ يحدث العكس. رفعتُ بصري إلى عينيه البنّيتين الشبيهتين بعينيّ إله الحقول، وإلى شَعره الذهبيّ المحمرّ المُجعّد، قال *Mio dio del bosco* أو - يا إلهة غابتي - إذ هكذا كان إحساسنا بالأمر. وكأنني ممسوسة بكبير سَحَرَةٍ شديد الرقّة، أو برجل أيل، أو بإله ذي قرنين، بإله الساحرات، أو بالرجل الأخضر. كأنني ممسوسة بالطبيعة كلها، متخلّية عن كل عقلانيّتي، وإرادتي، وانفصالي، للحافز الأخضر الذي يدفع الزهرة إلى النموّ.

2- سيريليّة: أي الشكل الذي تُكتَب به الأحرف الأبجدية الروسية وباقي دول أوربا الشرقية والسلافيّة - المترجم.

سطعتْ أشعة الشمس على شكل مُربّعات على سريري، وتموّجتْ مياه القنال على سقفي المدهون (بأشكال هيرا، وفينوس، وبيرسيفون، وتشكيلة من العرّافات)، وتمر القوارب ذات المحركات، وفي أعقاب اتّحادي مع الغابة والبحر، رأيتُ بوضوح معنى حياة رجل وامرأة، نصفان ينطبقان معاً، خارج الزمن، وإلى الأبد. عرفتُ أنَّ الناس يتعاطون المخدرات مُحاولين أنْ يُحاكوا هذا، يسعون وراء المال والسلطة من أجل هذا، وحاولوا أنْ يُدمّروه في الآخرين عندما لم يتمكنوا من تحقيقه بأنفسهم. لقد كان هِبة بسيطة جداً - لكنَّ بساطتها لم تجعلها أقلّ مُراوَغَة - ومعظم الناس لم يعرفوه أبداً. كل تلك الحركة كانت سعياً وراءه.

قال «يجب أنْ أذهب»، وتبعته إلى الحمّام - وأنا أضحك، وأقفز حرفياً من الفرح - بينما هو يغسل إبطَي ذراعيه ومُلتقى فخذيه، ويرتدي ملابسه، ويُرسل قُبلة تُرفرفُ بين ثدييّ.

قال «سوف أتصل بك في الخامسة».

وجلستُ لأُنجز كتابة ذلك النهار، ونسغه بين فخذيّ، ورائحته على أصابعي وفي فمي.

واصلتُ الكتابة حتى الساعة الثالثة، وأنا أرتدي ثوب الاستحمام تحت رداء خفيف، وقطعتُ أرض الطابق السفلي نحو بركة السباحة، حيث سبحتُ جيئة وذهاباً تحت أشعة الشمس، شاعرة بأعضائي ثقيلة كالماء، وبرّاقة كالهواء. ثم تناولت بعض الطعام وقطعت الطابق السفلي عائدة، وكأنني أطفو فوق الحجارة.

عند الساعة الخامسة اتصلَ. سألَ: *Sei sola?* (أأنتِ وحدك؟)

طبعاً كنتُ وحدي. ثم رجعنا إلى السرير، وضوء بعد الظهيرة، وليس ضوء الصباح، يعبثُ على السقف، وقضيبه وصولجانه يواسيانني، وقُبُلاته المالحة تتحول في فمي إلى بحيرة تُغرِقُ الشمس بلونها الورديّ الناريّ.

أحياناً كنا نتمشّى معاً على أرض الطابق السفلي أو نتوقف لنشرب

كأساً من النبيذ في بار هاريز دولتشه - ومن ثم يذهب إلى حياته الأخرى وأعود أنا إلى حفلات العشاء مع الأصدقاء، والحفلات الموسيقيّة، والأوبّرا، والتنقّل سيراً على الأقدام في المدينة.

أحياناً، أراه يتمشّى في البحيرة، بمُصاحبة السيدة الأخرى. وأحياناً، أتساءلُ أين كان. ولكن دائماً باستمتاع، وليس بألم.

استمر هذا الوضع ثمانية أيام. وفي مساء اليوم الثامن اختفى دون أنْ يتفوّه بأية كلمة. كان في رحلة بحريّة مع أناس لا أعرفهم. ورحل، ولم أعلم إنْ كان سيعود يوماً أم لا.

أصبحتْ الأيام أطول. وظهر رجل من الوطن طالباً يدي، ولاحقاً ظهر آخر من باريس. وفشلا في طرده من سريري. وأخيراً جاءت ابنتي ومُساعدتي، وشغلتُ يومي بقيامي بدور الأم وبالعمل.

غضبتُ من بييرو، ليس بسبب رحيله، بل لأنه غادر من دون أنْ يترك أية كلمة، وأخذتُ عهداً على نفسي على ألّا أراه بعد ذلك. مرَّ الصيف بطيئاً، وحارّاً، ورطباً، بلا فائدة. كانت البندقيّة أشبه بسفينة سياحيّة أعرف الذين على متنها وأثاروا ضجري. وأخيراً اضطرتْ ابنتي إلى زيارة والدها وكان على مُساعدتي أنْ تقابل عشيقها. ووصل بعض الأصدقاء وأخذوني معهم في جولة لا تنتهي من الحفلات - وفي صباح أحد الأيام، اتَّصلَ بي هاتفياً وكأنَّ شيئاً لم يحدث.

سألَ: *Sei sola?*

صرختُ *Cretino!* (أبله!)

«لقد اضطررتُ إلى الذهاب إلى مورانو بالقارب - هلّا أتيتِ؟».

انطلقتُ خارجة من المنزل وفي نيَّتي أنْ أنتزع عينيه.

في القارب، رحتُ أضرب صدره بقبضتَي يديّ.

«كيف تتركني وأنا التي جئتُ إلى هنا لأكون معك؟».

«لم يكن أمامي خيار - كنتُ *مُضطراً*».

وانطبقَ فمه على فمي، ليُسكتني.

وسرعان ما رسونا خلفَ ضفّة موحلة، تعجّ بنبات الأسل، وتضاجعنا. وتمايل القارب معنا وأشرقتْ الشمس.

كان ضيوف المنزل يتسلّون وأنا ألعنه، ثم أهرعُ إليه، ثم ألعنه من جديد. كنا نتقابلُ في المُحترَف الصغير السرّي القريب من حديقتي المُسوَّرة، التي فات أوان وردها لكنَّ شجرة الإجاص كانت لا تزال تُسقِطُ ثمارها. كنا نتضاجع صباحاً ومساءً، ومن ثم يهرب.

لقد سامحته لأنني كنتُ مُضطرة إلى ذلك. عندما كان يلجني، أشعرُ بأنني كاملة. ولكن عندما يرحل، لم أكنْ أثقُ في أنه سيعود.

لم يكن لتلك القصة خاتمة. إذا ظهر هنا اليوم ولمسني فسوف يُعيدني إلى تلك الغابة، وتلك البحيرة، ورقصة يوم العطلة الدوّامة تلك.

لقد جعل الإحساس بعدم الدوام تمسّكه بي دائماً، ولا واقعيّته جعلته واقعياً. في بعض الليالي كنتُ أنام وأنا أفكّر في أنني سوف أستيقظ في ذلك البلد الآخر مع ذلك الزوج الآخر. إنه زوجي على سطح القمر، وعندما يُصبحُ بدراً، أفكّر فيه. كان يسكن أحلامي.

عندما يقول الناس «جنس»، أتذكّره.

ماذا كان سيحدث لو أنني ضممتُ حياتي إلى حياته؟

أستطيع فقط أنْ أفكّر. إنه يدّعي أنه لا يُضاجع السيدة التي يعيش معها، وربما هذا صحيح، وربما لا. كل ما أعرف هو أنني كنتُ أُفضّل أنْ أكون المرأة التي يهرع إليها على أنْ أكون تلك التي يهرب منها، وبصورة ما ضمنتُ ذلك الوضع بعدم بقائي. إنني أُفضّل أنْ أُبقي الجنسَ حياً في حياتي الوهميّة على أنْ أقتله بالزواج. ولكن لعلّني أُضلل نفسي. أكان في استطاعتي أنْ أعيش مع إله الغابة؟ فقط في جزء من الوقت. إنه لم يكن راغباً في أنْ يتواجد هناك *إلا* في جزء من الوقت. وقد قبلتُ شروطه وتابعتُ عيش حياتي.

عندما كنتُ فتاة صغيرة أحببتُ القصة الخرافيّة التي تحكي عن اثنتي عشرة أميرة ترقص. ذهبتْ الأميرات لينمن في أسرتهنّ كما تفعل الفتيات العاقلات، ولكن مع حلول الصباح كانت أحذيتهن الجلديّة قد تهرّأتْ لأنهنّ كنَّ قد رقصنَ طول الليل. وكتابتي أشبه بهذا. قد أعيش أشدّ أنواع الحياة تزمّتاً، لكنَّ كتبي تكشف عن تهرُّء في الحذاء الجلدي، والشمس، والبحر، وأشجار الإجاص، ونسغ ما بين الفخذَين. لقد عشتُ على هذا المنوال طوال صيف واحد - أو بالأحرى مدة أسبوعَين من صيف واحد. أودّ لو أعيش هكذا دائماً، ولكن أخشى أنَّ هذا مستحيل.

إنَّ الشخص المثاليّ، حتى عندما تعثرين عليه، قد لا يكون الرفيق المثالي. يجب أنْ يبقى الشغف جزءاً من الحياة العادية. إنَّ الحياة العاديّة تميل إلى السيطرة وإلغاء الشغف، الحياة العاديّة هي أقسى الأعشاب الضارة قاطبة.

أول مرّة اكتشفتُ فيها الجنس كان في أحلامي وأنا في الثالثة عشرة. كنتُ قد اشتهيتُ فتى طويل القامة أحمر الشَعر (لم أعرف اسمه قط). هرع - مرتدياً وشاح هارفارد - إلى محطة قطار الأنفاق المُجاور لمتحف التاريخ الطبيعي في سنترال بارك ويست. وعندما ظهر لي في الأحلام، احمرَّ وجهي خجلاً، وازدادت رطوبة فخذَيّ، وتسارع خفق قلبي. وعندما لمحته عن بُعد، حدثت هذه الأمور من جديد. ولم أعرف اسمه أبداً، لكنني أحببتُه مع ذلك. لقد أيقظَ أحاسيسي الجنسيّة.

بعد انتهاء السنة الأولى في المرحلة الثانوية، لم أره من جديد إلا مرّة واحدة، في باث، في إنكلترا، حيث كنتُ أُجري بحثاً من أجل تأليف روايتي *«فاني هاكاباوت- جونز»*، التي تُحاكي بسخرية أسلوب أدب القرن الثامن عشر، جاء إلى سريري ذي الأعمدة الأربعة قاطع طريق ذو شعر أحمر مُجعّد وعينين خضراوين مائلتين ومارس معي جنساً مثالياً. أكان حلماً، أم شيطاناً، أم مُتسللاً؟ لم أعرف. لكنني حوّلته إلى عشيق فاني، لانسلوت، وجعلتُ منه بطل روايتي.

لطالما قاومتُ الجنس. كان تأثيره عليّ من القوة حتى اضطررتُ إلى محاربته لكي أحافظُ على حياتي لنفسي. وعندما كنتُ مراهقة واكتشفتُ الاستمناء قلتُ في نفسي: «سوف أُبقي حياتي متحرّرة من *الرجال*».

لقد رغبتُ في الرجال جنسياً لكنني لم أُرِدْهم لكي *يُسيطروا* عليّ. كان هناك شيء لا يستطيع الرجال أنْ يقبلوه. إنَّ مُعظَم الرجال يُحبّون السيطرة أكثر من حبّهم للجنس، فإذا مَنَحْتِهِم واحداً دون الآخر، فسوف ينتهي بهم الأمر إلى التمرُّد.

لهذا السبب يختفي العشّاق العِظام. إنهم لا يريدون أنْ يُصبحوا رهن إشارتكِ. لا يريدون أنْ تُصبح أفعالهم متوقَّعة. وحالما تعثرين على نصفك القَمَريّ، استعدّي لفقدانه. إنه لا يُحبّ حرارة الشمس.

هناك أنواع أخرى كثيرة من الحبّ - مُشبِعة بكل الطرق الأخرى. هناك الحب بالكلام، وحب العناق، وحب الطبخ - وبعضها مصحوب برعشات نابضة هائلة. وليس هذا هو المهم.

في قلب كل امرأة، هناك إله للغابات. وهذا الإله ليس مُتاحاً للزواج، أو لبناء منزل، أو لإرضاء الشعور بالأمومة.

ولا شكّ في أنَّ لدى الرجال نظيراً له: إنها ليليث[3]، وليست حوّاء. ولكن صدرتْ كتب كثيرة عن الرجال. ولا أريد أنْ أُضيفَ واحداً إلى المخزون. والمهم هو: أنتِ دائماً تحتفظين برجُلَين. تتزوَّجين واحداً في قلبك وآخر في رحمك. وأحياناً يجتمع القلب والرحم مدة ليلة أو ليلتين. ومن ثم يفترقان من جديد.

الصورة التي في خيالي هي لعلاقة ثلاثيّة: زوج قمر، وزوج شمس، وأنا. لم أتوصّل بعد إلى الطريقة التي نستطيع بها أنْ نعيش معاً. ولكن عندما أتوصّل إلى ذلك، سوف أخبرك. أعلمُ أنَّ الكثير من النساء يَتُقْنَ أيضاً إلى هذا. والخوف وحده والإكراه في مواجهة الرقّة العقيمة تدفعهنّ إلى نكران ذلك.

3- في الأساطير اليهوديّة، هي زوجة آدم الأولى؛ روح شريرة - المترجم.

إنَّ كل الكتب التي صدرت عن الحب والجنس، تكاد تخلو من أي حسّ بذلك اللغز. أحياناً، في الليل، أتنقّل بين القنوات التلفزيونيّة، حتى أصل إلى عروض الجنس. اتّصل برقم 1--900 أثداء أو 1--900 فحول أو 1--900 خصي. الرجال يبدون ساخرين وفجّين والنساء كلهن يتكلّمن بلكنات أهالي حي برونكس. الرجال يعشقون أنفسهم ولا مكان لديهم لأي شخص آخر. ليس هذا ما يرِدُ في خيالي.

ذات مرة، ذهبتُ مع زوجي الثالث إلى منتجع أفلاطون. دخلنا بوصفنا مُراسلين صحفيين نكتب في الجنس، نحمل دفاتر صغيرة وطويلة. في أول الأمر لم نخلع ملابسنا، ثم تعرّينا، لنبدو مُحتملَين.

تنقّلنا من غرفة المُعالجة (مياه يعلوها الزَبد، وأجساد تكسوها الثآليل) إلى غرفة الوجبات الخفيفة (زبدة الفول السوداني والهلام، وسجق بولونيا ومستردة - كما في حفل للأطفال من الطبقة الدنيا)، إلى غرفة الحشيّة (أطباء أسنان من نيو جرزي ينكحون أطباء العادات الصحيّة بالماء). وأخيراً، عودة القضيب إلى ترهّله والعودة إلى المنزل. ومن جديد ليس هذا ما أتخيّله. خيالي يُفضّل مشاهدة دلفين بيلوغا وليس بولونيا، ولكن هذا ليس كل شيء. لقد أردتُ حفلاً صاخباً يقترب من تلك الأحلام التي تلازمك طوال النهار. لم يكن مُنتجع أفلاطون يرقى إلى مستوى حلمي.

آه، كم من أمور تجري باسم أفلاطون! الحبّ العفيف أصبح اسمه «الحبّ الأفلاطونيّ». لكنَّ ما نسعى إليه في الحقيقة هو حب *مثاليّ* - كالعشّاق المتودّدين في الجنوب الريفيّ. إنَّ التحقُّق الجسديّ هو الأقلّ أهميّة. المثل الأعلى في *التوق* - العاشق الذي لا يمكن امتلاكه - هو الذي يسعى إلى الكمال الريفيّ.

ربما لا يمكن امتلاك العاشق لأنه يهرب. ربما لا يمكن امتلاك العاشق لأنَّ الزمن يتدخّل في انعدام الزمن. أو ربما ما تبقّى من حياتنا موعود لشخص آخر. ووحدها الأحلام يمكننا أنْ نُساهم فيها في هذه العلاقة ثلاثيّة الأطراف.

المستحيل هو جزء من جوهرها. المستحيل وحده يجعلها ممكنة. أو ربما أنا فقط أقول هذا لنفسي لأنني جبانة. ربما لا أريد أنْ أُجازف بحدود التجربة.

لم يلمس الفتى الطويل أحمر الشَعر وأنا أحدنا الآخر. ولكن عندما بلغتُ الرابعة أو الخامسة عشرة، اختارني شخص أقلّ روحانيّة لأنني *inamorata* (فاتنة). كان اسمه روبي وكان طويل القامة بُنيّ الشَعر، ذا أنفٍ أفطس غير متناسِق قليلاً وقضيب كبير جميل.

قال بتردُّد، لعِلمه أنه ضد «الأصول»، «قد تضمّينه ذات يوم داخل فمك». وكم كان لدينا من أصول في عام 1955! خارج حمّالة الصدر أم داخلها، خارج السروال الداخلي أم داخله، داخل بنطلون الركوب القصير أم خارجه. إذا كان تأليف الشِعر الموزون يُشبه لعب كرة المضرب بوجود شبكة (أنا أقتطف من روبرت فروست)، فإنَّ «النجاح» في عام 1955 كان بمثابة خوض مباريات مع أصولها الدقيقة. تكفي حركة زائفة واحدة وتخرجين من اللعبة. وحتى ذلك الحين، كان في استطاعتك أنْ تتمادي إلى أبعد ما تستطيعين – متفادية، طبعاً، الولوج عبر الفم أو الفرج.

العذر إذن كان الأطفال. الحبَل كان شرطاً لا يمكن الرجوع عنه. أو أنه فُهِمَ هكذا – كحال الإيدز اليوم. التوق إلى كسر المُحرّمات لم يكن قوياً بقدر الحاجة إلى الحصول على شبكة الأمان. لذلك اختلقنا أنواع الحيل كافة: النكاح بالإصبع، القذف باستخدام مختلف المُزيّتات المُتاحة، مُحاكاة النكاح مع أحدهم. كنتِ تريدين أنْ تحصلي على كعكتك وأنْ تأكليها أيضاً. كنتِ تريدين «العُذريّة التقنيّة». وفي فترة لاحقة من حياتي، خلال زواج تعيس، كنتُ أسمحُ لنفسي بممارسة الزنى باستخدام واقٍ – لكي لا يلمس الجلد أو السائل. أو أمارس الجنس بالفم، لكنني امتنعتُ عن ممارسة الجنس الطبيعي. هذه الحدود كانت *مهمة*. إنَّ الكائنات البشريّة هي دائماً أكبر في الحجم منها في المُحتوى.

إنَّ تجربة الذوبان التي اخترتها مع روبي كان لها استحقاقاتها. فقد أُصِبتُ بفقدان الشهيّة بسبب الإحساس بالذنب وتوقفتُ تماماً عن الأكل، بل وتوقفت حتى عن شرب الماء. رمزياً، لا بدّ أنني اعتقدتُ أنَّ فتحاتي كلها واحدة.

لذلك إذا استطعتُ أنْ أكفّ عن تلقّي الأشياء بفمي، فربما يُعوّض ذلك عما تلقّيته بفرجي. أتذكّرُ الرعب والمسّ، الشغف بأنْ أتراجع عما فعلت! *ما الذي* فعلته؟ ليستْ لديّ حتى تسمية له! أعتقد أننا اختلقناه!

هل ستوجد ذات يوم فترة مُراهقة شبيهة بجُزُر تروبرياند[4] حيث الجنس حرّ ويمكن للأطفال أنْ يُحجموا عن فعل هذا الشيء ثم الرجوع عنه؟ إنني لا أتوقّع هذا.

إنَّ الجنس الموجود في الكتب، وفي أفلام السينما، وفي التلفزيون مُجرّد تماماً من الغموض إلى درجة تُخيفني. إنَّ الغموض هو جوهر إنسانيتنا. إنه ما يجعل منا ما نحن عليه.

في وقتٍ ما من أربعينيات عمري، تدلّه شاعر شهير يكبرني بنحو عقد من الزمن بحبّي بجنون. تناولنا الغداء في منزلي في نيويورك وتبادلنا القُبَل والعناق بشيءٍ من التردُّد. ثم رحل إلى وطنه أيرلندا وذهبتُ أنا إلى منزلي في كونيكتيكت لقضاء فصل الصيف. وأخذتْ الرسائل تنهال عليّ عبر الأطلسي. كان يملؤها بأحزمة سيقان سوداء، وجوارب من الحرير الأسود، وأبيات من الشِعر، وجُملاً مزدوجة المعنى. كانت بدايةِ لرواية إباحيّة.

وانتظر كلٌ منا رسائل من الآخر. ورددنا برسائل جوابيّة بارعة قدر الإمكان.

4- جزر تروبرياند: جزر صغيرة تقع قبالة غينيا الجديدة في بحر سليمان، لها قوانينها البدائية الخاصة بها. ومن بين عاداتها الغريبة حرية الزواج للرجل والمرأة واتخاذ كل منهما أي عدد من الشركاء كأزواج والممارسة الجنسيّة الحرة منذ عهد الطفولة – المترجم.

بعد ذلك بنحو شهرين، طرتُ إلى البندقيّة، وفي نيَّتي أنْ أقابله في لندن بعد ذلك ببضعة أسابيع، حدثَ بعض التعقيد. فقد قابلتُ بييرو من جديد وباشرنا علاقتنا العاطفيّة العنيفة.

فجأة بردتْ حرارة الشاعر الأيرلندي نحوي. ومع ذلك كان مُستعدّاً أنْ يُقيم الدنيا ويُقعِدها من أجل أنْ تأتي امرأة حياته إليه في لندن.

جاء إلى الفندق الفاخر الذي أنزل فيه حاملاً حقيبة من الورق المُقوّى وعلبتَي سجائر من الكرتون (كان قد صمَّم حتماً على البقاء!). تلفّتَ حوله في أرجاء جناحي البيضاويّ المُطلّ على المتنزّه وقال بلهجة وضيعة «لا بدّ أنَّ كتبك تلقى رواجاً واسعاً».

كانت يداه ترتجفان وراح يُشعِل سيجارة بعد سيجارة ويتمشّى. وأخيراً، قال «دعينا نقرأ الشِعر كلٌّ منا للآخر، لأننا تقابلنا عبر الشِعر».

حاولنا. وهذا أيضاً لم يُخفِّف من توتّرنا.

أخيراً، خرجنا لتناول الطعام في حانة قذرة شعر فيها بالارتياح. حاول أنْ يشرب إلى أنْ يفقد توازنه، لكنّه ظلَّ متوتّراً تماماً. ووجدتُ النبيذ الرخيص الذي طلبه مُنفِّراً.

ولكن في الفندق، رحتُ أتساءل كيف أتخلّص منه. كان آخر قطار يتوجّه إلى القضاء القديم الذي يُقيم فيه قد غادر. ولم يُطاوعني قلبي على تركه يبيتُ في فندق زريّ في المحطة. فدخلتُ الحمّام، كما كنتُ لأفعل دائماً عندما تُصيبني الحيرة.

عندما خرجتُ وجدتُ أنه قد استقرَّ على سريري، يُدخّنُ سيجارته رقم 28.

قال «يمكننا أنْ ننام معاً طلباً *للدفء*»، وابتسم ابتسامة برزت منها أسنانه الناتئة. كانت رسائله مقبولة أكثر بكثير.

أيها القارئ: لقد جعلته يضع الواقي الذكري ونكحته. ثم خرجتُ إلى غرفة الجلوس ونمتُ على الأريكة، متدثّرة بلحاف من الساتان.

في الصباح قدّمتُ له إفطاراً ممتازاً، سخِرَ من أناقته، قبل أنْ يمضي في طريقه. واكتشفتُ أنه تافه، متغطرس، مُعادٍ للساميّة، وليس لطيفاً جداً.

لكنني ما زلتُ أحتفظ برسائله. أحياناً، أُخرِجها وأقرؤها، متظاهرة بأنني لا أعرف خاتمتها. فالقصة أفضل من غير خاتمة.

إنَّ الجنس، تعريفاً، هو شيء تحصلين عليه مع رجل ليس زوجك - وهذا لا يعني أنَّ الآخر ليس جيداً. بل هو ببساطة ينتمي إلى فئة أخرى. سمّه أي شيء يتعلَّق *بالزواج* ويختفي الغموض. الجنس يتّصِفُ بالغموض، بالسِّحر، بقبسٍ من المُحرَّم.

إنه ليس عملياً. ولا صِلة له بالمال. لهذا السبب لم يتمكّن أولئك الـ 900 من إثارتي حتى وإنْ تطابقوا مع تخيّلاتي. ادفعي نقوداً مقابله وتخرجين من عالم الغموض. يُصبح مجرّد صفقة، جزءاً من مُجمل الإنتاج القومي، شيئاً نُدخِله في حوارنا الوطني المُخدِّر حول ما إذا كان الأدب الإباحي مفيداً لمساواة المرأة. نحن هنا خارج عالم المال والسياسة. نحن في عالم الأسطورة، والحكاية الخرافيّة، والحلم.

في أسطورةٍ أخرى أحببتُها وأنا طفلة، كان للأميرة لانغوايدر من بلاد أوز ثلاثون رأساً، لكل يوم من الشهر رأس. بعضها طيب والبعض الآخر شرير، لكنها لم تكن تميِّز بينها إلا بعد أنْ تضعها - وعندئذٍ، يكون الأوان قد فات.

الفتاة الطيبة لا تُلام لكونها شريرة. والفتاة الشريرة كانت حقاً طيّبة مع اختلاط رؤوسها!

في مخيلتي، أنا الأميرة لانغوايدر، أرتدي ثوباً من الشيفون الأبيض البسيط المنساب وأُحيطُ رسغي بمفتاح من الياقوت من أجل الخزائن التي أودِعها رؤوسي. أفتح الخزانة، وأضع الرأس الأسود، الأشعث،

الشبيه برأس الميدوسا، وفجأة أصرخُ في وجه الشاعر الأيرلندي: «اخرج! كيف تجرؤ على جلب هذه الحقيبة الكرتونيّة إلى غرفتي!».

لا أضاجعه. أرسله إلى منزله، إلى زوجته التي طالتْ مُعاناتها وأسترخي بترفٍ وحدي على سريري الفسيح في الفندق.

العدوّ هو الكياسة، وحُسن السلوك، ومحاولة أنْ أكون طيّبة.

كلما انتابني هذا الشعور، أقول لنفسي: *بدّلي الرؤوس!*

ابنة صالحة، أختٌ صالحة، نسيبة صالحة، زوجة صالحة، أمّ صالحة - والمكان الوحيد الذي أكون فيه صادقة هو سرير الزنا. إنَّ الجنس المُحرَّم يمنحنا أنفسنا لأنَّ الذات ما زالت مُحرَّمة على النساء. والجنس هو جذر هذا كلّه، الجنس هو المفتاح. الجنس هو المُحفِّز على التحوُّل. لهذا السبب لا يمكننا التخلّي عنه.

وهكذا أجلس في القصر أراقب القوارب تنساب مارَّة.

الهاتف يوشك أنْ يرنّ.

طبعاً سوف أوافق.

لا شيء يُثبّط الهمّة أكثر من امرأة تخلّتْ عن الجنس. إنها تذكّركِ بقولٍ لأوسكار وايلد: «إنَّ عشرين عاماً من الرومانسيّة تجعل المرأة تبدو حُطاماً. ولكن عشرين عاماً من الزواج تجعلها تبدو كنُصُبٍ تذكاريّ».

هذا هو الفرق بيني وبين أوسكار وايلد. بعد كل العذاب الذي عاناه، وكل بشاعة العقاب الذي أُنزِلَ به لعشقه الرجال، لا أحد يقرأ أقواله ويسأله: «ما رأي صاحبك في هذا؟». السجن، النفيّ - هذان كانا مصيره. أبداً لا يسألون «ما رأي صاحبك في هذا؟».

ربما نالت المرأة حقّ التصويت، لكنها ليست حرّة ما دامتْ ردّة الفعل تلك تنفجر. حتى اللواتي **بلا** أزواج يُحكَم عليهن وكأنهنّ أُهِنَّ فقط بقولهن الحقيقة.

إنَّ السور المُحيط بحريّة المرأة شديد الصلابة بحيث لا تستطيع أنْ تفعل أي شيء من دون أنْ يُطلَب منها أنْ تفكِّر في تأثيره على رجلٍ ما يُفترَض أنّه أشدّ أهميّة منها.

إذن الأمر يكمن في أحاسيس المرأة الجنسيّة. دائماً يوضع تحت تصرُّف النوع. ولهذا السبب من الصعب حتى تحديد موقع تخيّلك - ناهيك عن التعبير عنه. حتى عالم الحلم مُسوَّر بالمُحرّمات.

أنا كاتبة منهجيّة. لا أحتاج إلى اختبار الأشياء التي أكتبُ عنها. أهي مُروّعة؟ هذا أفضل. إنَّ روايتي، المتعمّقة في أحزان أية امرأة، تدور أحداثها حول فنانة في نيويورك الثمانينيات. وقد قررتُ أنْ تشكّل المازوشيّة-الساديّة[5] جزءاً من القصة. أنا لا أعرف أي شيء عن جانبها الرسميّ - صالونات الوثاق، والسلاسل، والسياط - وكل ما أعرفه عن المازوشيّة-الساديّة وصلني من عائلتي. لكنني قرّرتُ أنْ أعرف. لجأتُ إلى خدعة الصحفيّ. وذهبتُ لأُجري «مقابلة» مع إحدى المُسيطرات[6].

فرِحتْ لأنها ستُجري مُقابلة. كان لها طلب واحد فقط: أنْ أستخدم اسمها الحقيقيّ في أي شيء أكتبه. وهو الطلب الوحيد الذي لم أستطع أنْ ألبّيه. أكانت تلك بداية علاقتنا الماسوشيّة-الساديّة؟

طبعاً فتحتْ أبواب «مُحترفها» لأجلي وسمحتْ لي بالمشاهدة. وطبعاً حكتْ لي كل شيء عنها. لكنها أرادتْ المزيد. أرادتْ مني أنْ أنغمس في حياتها.

ذات يوم قالت لي عبر الهاتف «سوف أُرسلُ جاريتي الخاصة لتُحضركِ إلى مُحترفي».

5- الماسوشية-الساديّة: انحراف جنسيّ يتلذّذ فيه المرء بإنزال العذاب بالآخرين أو بنفسه.

6- أحد الذين يمارسون الماسوشيّة-الساديّة. (المادة السابقة) - المترجم.

وفعلتْ. وصلتْ فتاة مُبتسمة برداء ضيِّق أسود اللون وسترة سوداء بسيارة مزوّدة بجهاز لا سلكي سوداء لتقلّن إلى مبنى شاهق في قلب المدينة الأنيق حيث تعمل السيدة المجهولة. لم أكنْ قد اجتمعت أبداً بـ«جارية شخصيّة» قبل ذلك، وتساءلتُ حول السلوك المُتَّبع.

كان لسان حال جسد الفتاة يقول «أسيئي معاملتي». كانت خائفة. كانت مجرد فتاة، وليست امرأة بالغة. لا أعلم كيف عرفتُ ذلك.

في المُحترَف - كانت شقّة من ثلاث غرف نوم تقع في الطابق التاسع والثلاثين - كانت هناك ثلاث ي. خ. متأهبات للعمل. واحدة نحيلة كعارضة أزياء، حمراء الشَعر، وترتدي زياً خفيفاً من المطاط الأسود، وواحدة شقراء وأنيقة، ذات عِظام وجنتين حادّة وترتدي ثوباً من المخمل الأحمر مفتوحاً من الجهات كلها، وواحدة سوداء الشَعر، ذات وجه وساقَي فتى نحيل، تنتعل حذاءً طويل الرقبة من المخمل الأسود، يُضاينُ إلى الأبد. وكلهنّ كنّ طالبات. إحداهن كانت تدرس للحصول على شهادة الدكتوراه في اللغة الإنكليزيّة.

سُمِحَ لي بفرجة مجّانيّة للعروض الخياليّة، وأنا أستتر خلف قِناع من المطاط ومكان الفم مُزود بسحّاب. ورحتُ أتنقّل على هواي من غرفة إلى غرفة.

كم كنَّ مُبتذلات كلهن! حُقن شرجيّة، مخالع، أناشيط، أدوات لشدّ الساقين. وأوضاع الخضوع كلها مُكرَّرة. التمدُّد الكامل على الظهر، أو على البطن، أو الركوع الذليل كبائع أحذية. الشيء الرئيس هو - ألا ينال الأذى أحداً. الشيء الرئيس هو - كل شيء خارج السيطرة.

إذا كنتِ مُقيَّدة بالسلاسل وخاضعة لتخيلات جنسيّة رُغماً عنكِ، تحصلين على المتعة وغياب تام للمسؤوليّة. والأمر يشبه قليلاً أميراتي الراقصات ذوات الاثني عشر عاماً. إنكِ تفعلين ذلك كما لو أنكِ في حُلم، ولذلك أنتِ لا تقومين به.

هل انتظاري في القصر هو نسخة من الأمر نفسه؟ أنا، أيضاً، خارج

السيطرة. أنا، أيضاً، أشتاقُ إلى عشيق يمكن أن يسمح لي بتقبيل حذائه.

إنها مباراة في التقشُّف: توطّنين نفسك على العيش على الهواء. إنه جنس مُعتدل. تحصلين على القليل جداً منه حتى أنكِ تعتقدين أنكِ اكتفيتِ منه.

حصلتُ على كفايتي من زيارتي تلك للممارسات المازوشيّة-الساديّة، لكنَّ السيدة المجهولة لم تكتفِ. لقد أرادتْ مني أنْ أعود لمشاهدة المزيد. أرادتْ أنْ تُقدّمني إلى صديقات في باريس، وميلانو، وروما، يؤدِّين أغاني فريق Black Sabbath الصاخبة ويبحثن عن دمٍ جديد. كان عالم المازوشيّة-الساديّة قد انتشر في كل مكان. والمتردِّدات عليه كثيرات التنقُّل.

في باريس، قابلتُ زوجة مغني أوبرا شهير معروف عنه أنه مؤسِّس قبو شهير لممارسة الجنس. جلسنا في بهو فندق كريلون في وقت شرب الشاي وتحدثنا عن بروست. كانت السيدة شديدة الاحتشام. ولم أصدِّق حتى أنَّ لديها جسداً، ناهيك عن جسد موثوق. كانت ذاهبة لحضور مهرجان موسيقيّ في براغ. ولم تُعطني مفتاح قبو حبّها.

أعترفُ بأنَّ بحثي لم يكن شديد العمق، لكنني لم أكن قد تأثّرت بعد بما شاهدته من مازوشيّة-ساديّة.

المُسيطرة «الخاصة بي» تسعى إلى الشهرة أكثر من سعيها إلى الجنس. كانت قد استأجرت وكيلاً للدعاية. افتح أية مجلة أنيقة وسوف ترى صورتها. لقد أعلنتْ سرّها للعالم أجمع. وبعد أنْ حصل هذا، لم يعُد في استطاعتها أنْ تُثير مشاعر التحريم. تستطيع فقط أنْ تُقدِّم برامج مقابلات مثل الدكتور روث، والإعلان عن الواقيات الذكريّة، وأدوات الشطف، وأخيراً مناشف للبالغين على شاشة التلفزيون. وانضمّتْ إلى عالم التجارة، وعندما تفعلين هذا، يتخلّى إله المراعي عنك. وحينئذٍ لا تستطيع كل البذلات المطاطيّة التي في العالم أنْ تنقذك.

قفز قلبي بين أضلعي عندما سمعت ضجيج قارب آلي في القنال. إنَّ ما يُحفّزني جنسياً هو: القوارب الشراعيّة، شمس البحر المتوسط، عشيق لا يمكن أنْ أتّخذه زوجاً ولو بعد مليون عام.

لا أصدِّق أنَّ في الإمكان إخضاع الخيال إلى أي معيار. إنَّ الخيال، بطبيعته، فريد من نوعه. لقد نقّبتُ في كتب التخيلات، بحثاً عن تخيلاتي، ولم أجدها. إنَّ السيدة المجهولة تقول إنها سوف تُعدّ «مشاهد» من أجلي في مدنٍ أجنبيّة. إنني أرفضُ ليس بسبب الإيدز أو بسبب ما قد يظنه زوجي، بل أرفض لأنني أخشى الوحدة. فعندما تغادرين استديو الممارسات الماسوشيّة-الساديّة تخرجين إلى أشعة الشمس المُبهِرة، بعد أنْ شاهدتِ ما شاهدت، تُصبحين أشدّ إحساساً بالوحدة من أي وقت سابق. هذا هو السرّ الذي اكتشفَته أوه O [7].

إنَّ القوارب مُثيرة جنسياً، وكذلك السيارات، والقطارات. على متن القطار المهتزّ، وفي أثناء اختراق نفق جبليّ، تستطيعين أنْ تمارسي الجنس مع رجل يجلس قبالتكِ، وتفترقان، ثم تعيدين ترتيب شأنْ ملابسك وكأنَّ شيئاً لم يكن. وفي لمح البصر، يأخذكِ ويُعيدك. هذا هو الجنس تحت جفن العين. أهو الغاوي الذي يغويكِ، ذلك الشيطان، نفسِك؟

لِمَ لا يمنحنا أفراد العائلة المالكة بعض الجنس الملكيّ؟ شيء لطيف أنْ نتخيّل الملكات والأميرات مُجرّدات من السراويل الداخلية، ولكن هل ينبغي أنْ يعبثن مع رجالٍ عفا عليهم الزمن، وأكلهم العثّ؟ وهل ينبغي أنْ يتظاهرن دائماً بحاجتهن إليهم لأسباب *أخرى؟ مُستشار ماليّ؟ سائس خيل؟* ألن يكون من الأفضل القول سائس عضو جلالتها الخاص؟

7- أوه: الاسم ذو الدلالة لبطلة رواية «*قصة O*» - المؤلِّفة.

لو كنتُ الملكة، لاحتفظتُ بأكبر عدد ممكن من الرجال الوسيمين. وبعد ذلك أقتلهم أو أخصيهم - أو حتى أتخلّص منهم بتزويجهم. إنَّ *الرجال* يفعلون هذا منذ قرون، وزوجاتهم المنبوذات (على غرار آنْ بولن، وكاثرين هوارد[8]) ذهبن إلى حتفهنّ الرهيب وهنّ يُسبِّحْنَ بحمد ملكهن. يكفي أنْ تُترَك للمرأة الحريّة إلى درجة رفضها غسل الأطباق - وسوف نُنعَتْ بالعاهرات أو المومسات. ولكن إذا بُحتِ بتخيّلٍ كهذا فسوف تُفتَح عليك أبواب جهنم كلها. بوحِي بها، أيتها امرأة: تريدين أنْ تنكحيه، إذن اقتليه، بعد أنْ تنالي مأربك.

الوحوش الشاذة. غونيريل، ريغان[9]، ليدي ماكبث. ما هنَّ إذا لم يكنَّ نساء يضمرن حنقاً بدائياً مكبوتاً؟ ومن غير ذلك الحنق البدائي **لا يوجد** جنس. كان ينبغي على جاريتي الشخصيّة أنْ تكون ذَكَراً.

قبل سنين عديدة، كان هناك كتاب على رفّ الكتب ذات الطبعة الرخيصة عنوانه «*قوة الاستسلام الجنسيّ*». ويا له من عنوان عتيق الطراز بمعايير هذه الأيام. أنا لم أقرأ الكتاب أبداً، ولا أستطيع أنْ أُعلِّق على محتوياته. كان من المُفتَرَض أنه من تأليف «الدكتورة ميري روبنسون». حينئذٍ كان من المهم أنْ يقترن اسم مؤلّف كتب الجنس بلقب دكتور. وفي الحياة الواقعيّة، كانَ الكتاب منَ تأليف كاتبٍ ذَكَر وزوجته الطبيبة النفسيّة. ولاحقاً قابلتُ ذلك الكاتب، عندما تزوّجَ من شاعِرة صديقة لي.

كانت عاشقة. واستسلمتْ. أخبرتني بأنَّ الجنس كلّه استسلام. وأشارت إلى عنوان الكتاب. وهذا صحيح، كما قالت. لقد عاشت التجربة وتعرفها.

8- آن بولن وكاثرين هوارد: زوجتا الملك هنري الثامن السفّاح اللتين حكم عليهما بالإعدام - المترجم.

9- غونيريل وريغان: ابنتا الملك لير الأكبر سناً في مسرحيّة شكسبير الشهيرة، ممسوستان بالسلطة وتحلمان بالإطاحة بوالدهن الملك والاستئثار بحكم بريطانيا - المترجم.

والآن، هناك أنواع مختلفة من المُستسلمات. أنْ تستسلمي لشخص يُجسِّد خيالك هو أمر، لكنَّ الاستسلام لمُغتصِب أمر آخر.

إنَّ إمكانية حدوث الجنس هو إمكانيّة الاستسلام. بعض الناس يحتاجون إلى أزياء، إلى أماكن بعيدة، ولغات مختلفة، وسلاسل - وبعضهم يبلغون ذلك أسرع وبضجيج أقلّ - لكنَّ حقيقة الاستسلام هي نفسها. إنَّ رواية «*قصّة O*» تعمل لصالحي كما لم يعمل أي كتابٍ إباحيّ آخر لأنه يتناول ذلك الاستسلام. إنه لا يُخبركِ كيف تعيشين حياتك. إنه يعترف بأنَّ الجنس *منفصِل* عن الحياة، وربما حتى يُناقِضها. لذلك من الطبيعيّ أنْ يُدينه أولئك الذين يريدون كُتيِّبات عمليّة قبل أي شيء. لا مكان للتخيُّل في أميركا. الكتب هنا يجب أنْ تكون تعليميّة - وإلّا.

ولكن لا يمكن كبت الخيال الجامح بصورة تامة. سوف يظهر على السطح في الروايات الرومانسيّة، وكتب الرعب، والإثارة.

إننا نصرخ، أبعدونا، اجعلونا نستسلم! أعطونا مكاناً خالياً من الحيوانات الأليفة. امنحونا مكاناً نستطيع فيه أنْ نسترخي فقط! على امتداد قرون حصل الرجال على مواخير، ولكن هل توفّرتْ مرة مواخير *للنساء*؟ إنها وسط ما بين النادي الصحّي وصالون التجميل، ولكن يُديره رجال وسيمون، مُسايرون؟ (طبعاً، يكونون قد خضعوا لاختبار الإصابة بالإيدز). يمكنكِ أنْ تذهبي إلى هناك وتقضي مدة ساعتين الفاصلة بين الذهاب إلى المكتب والذهاب إلى المنزل. لا أحد يشي بكنّ لأزواجكن. أو لأولادكن. لا أعمال خيريّة. لا جمع تبرعات ولا تطوُّع. لا تأمينات نهاية الخدمة. لا شبكات اتّصال مع وسائل الإعلام. لا مقابلات مع أوبرا أو مع سالي جيسي[10]. لِمَ يبدو هذا الخيال الجامح مُريباً؟

لأنَّ بعض النسوة شاهدنك هناك وتخيّلنَ أنَّ زوجك سوف يُبلِّغ عنك، وتُشنّ غارة على المكان.

10- سالي جيسي (مولودة 1935): كانت مُذيعة مشهورة في برامج الحوارات التلفزيونيّة الأميركيّة.

إنَّ النساء لا تحمي مُتع إحداهن الأخرى. لأنهنّ لم يُمارسن ما يكفي منها، ويردن من النساء الأخريات أنْ يُعانين أيضاً.

ثم هناك مسألة *الانتقال*. ولا أقصد هنا وسائل التنقّل. إنَّ المرأة العاشقة توشك أنْ تفقد عقلها. إنها لا تستطيع أنْ تُقسِّم إحساسها الجنسي إلى أجزاء في *مكان*. وبعد قليل تنسف النظام من أساسه. فقط لتبرهن على الطبيعة المُتفجّرة للحب. والنساء ضمن مجموعات يُصبحن مُتطهّرات. إنكِ لا تجدين امرأة متهتّكة في النادي الريفي الذي تنتسبين إليه، أو في نادي الحديقة، وفي جلسات المُساهمة في حفل الزفاف، وبين فتيات الكشّافة! حتى العاهرات يتحوّلن إلى متطهّرات ضمن المجموعات. في أي مكان يتجلّى المُتحكِّم والمُتحكَّم فيه أكثر من الحريم؟

ما سرّ هذا الاندفاع نحو التطهّر عند النساء؟ إنَّ الجنس غاية في الأهميّة بالنسبة إلينا. إننا نفقد أنفسنا. وعلى مدى أجيال، كان هذا صحيحاً *حرفيّاً*: الموت عند الولادة، الموت في أثناء الحبَل القسريّ، وكل حالات المِخاض الصعبة التي تمرّ بها المرأة. ما زالتْ لدينا ذاكرة عنصريّة عن ذلك الضياع. ما زال الجنس يُثيرنا أكثر مما ينبغي ولا نستطيع أنْ نجعله حراً.

لهذا السبب من الصعب جداً أنْ نُطبّق أخيلة الذَكَر الجنسيّة على المرأة. إنها لا تنطبق عليها. إنَّ التشريح مختلف، ولكن كذلك حال سياق الجنس. الرجل يوزِّع قضيبه. وكسّ المرأة هو مجاز دال على كيانها. إنها *تريد* أنْ تؤخذ. *تريد* أنْ تُحمّل بعيداً.

على مدى عدد من السنين انضممتُ إلى جماعة تخضع للمعالجة. أعضاؤها كانوا جميعاً من النجوم - فنانين، ممثلين، راقصين. بعضهم مستقيم، وبعضهم مثليّين، وبعضهم مزدوجي الجنس - وكلهم لديهم مشكلات جنسيّة مع شركائهم.

ليس دائماً. بل أحياناً. كلما أحبّوا، أصبح الجنس مُراوِغاً أكثر.

وليستْ قِلَّة الحب هي الحلّ، بل فيضه. والخوف من الانغماس الذي يُسببه الفيض المُفرِط.

أحد الرجال أفرط في حبّ زوجته فلم يقدر على نكاحها. وعندما كانت تخرج إلى السوق، كان دائماً يستدعي صديقته السابقة، تلك التي لم يتزوجها، ويحدث لديه انتصاب بمجرد البدء بطلب رقم هاتفها. وعندما يصل إلى شقّتها، يُصبح قضيبه منتصباً وتظهر بقعة رطبة على مقدّمة بنطلونه الجينز.

أحد أعضاء المجموعة كان عجوزاً مثليّاً اختار أنْ يكون عزباً. كان يُحضِر صِبية جميلين ليكون صديقاً لهم وناصحاً. وفي أثناء نومهم في غرفة ابنه (كان ابنه قد غادر إلى الجامعة)، كان ينسج أخيلة عنهم ويقذف بشدة. ولا يلمس أياً من أولئك الصِبية، ولا زوجته، التي كانت أفضل صديق له.

وهكذا دارت الحكايات. الممثل الذي أصبح عنيناً مع زوجته عندما مثّلتْ فيلماً لقى نجاحاً ساحقاً ولم يحدث ذلك له. والفنان الذي هجر زوجته وانتقلَ إلى جبال كولورادو مع مُدرِّب التزلج على الجليد. لقد بدا الجنس بالنسبة إليهم جميعاً أحجية – أقصد، الجنس الزوجيّ. ومع ذلك كانوا جميعاً يتوقون إلى الجنس – خاصة عندما يكونون عزاباً.

المُعالج كان امرأة تؤمن بالزواج. وكان زوجها هو المُعالج الآخر، كان يغفو في أثناء الجلسات، يغفو وهي تُعطي تأويلاتها البارعة.

مع تنامي الدليل على أنَّ عبارة الجنس الزوجيّ عبارةٌ من لفظين متناقضَين، راحت تُحلّل وتُحلّل، مؤوّلة الخِدار الجنسي بأنه خوف.

في أثناء حضوري تلك المجموعة، كنتُ عزباء. كنتُ أوزّعُ حياتي الجنسيّة بين ثلاثة متقدمين لطلب يدي، بمَنْ فيهم بييرو، وعلى الرغم من أنَّ الأمر كان فوضويّاً وليس مُرضياً دائماً، إلا أنه لم يكن مملاً.

تساءلتُ، لماذا يتزوج هؤلاء الناس إنْ كان الزواج ينفي الجنس؟

وأشفقوا عليّ لأنني عزباء. واحتقرتُ وضعهم كمتزوجين. لكنني كنتُ أشعر أيضاً بالغيرة. واشتقتُ إلى وجود زوج، شريك، أو صديق حميم. كنتُ أعلم أنَّ الزواج هو بحثٌ عن هذا.

كان بعض أعضاء المجموعة قد فارقوا شركائهم، وأقاموا علاقات، وتزوّجوا من جديد، واضطربت حياتهم من جديد. أنا أيضاً تزوّجتُ من جديد في نهاية المطاف، وارتحتُ كثيراً لتمكُّني من ضرب جذوري في مكان واحد، ووجدتُ ارتياحاً عظيماً في حصولي على ذلك الصديق الحميم.

ومع ذلك الجموحُ لا يزول. والشوق لا يزول. في الأحلام، في التخيُّلات، يظهر على السطح، مُثيراً أشدّ أفكارنا شهوانيّة.

نحن في حاجة إلى حفلة عربدة، إلى مهرجان صارخ، إلى فترة راحة للساحرات، أكثر من حاجتنا إلى الطلاق والزواج من جديد. نحتاج إلى مكان نحلمُ فيه، مكان لمواجهة الغاوي تحت جفن العين. ألعاب الفيديو لا تُحقّقُ هذا. ولا حتى أدوات الواقع الافتراضي. إنها فقط تحكمُ علينا بأنْ نلعب من جديد أخيلة فنان الفيديو الكارتونية مراراً وتكراراً. نحن في حاجة إلى أخيلة ماديّة، وليس إلى أخيلة تتجسّد في فيلم سينمائي ولعب القمار. لكننا تجاوزنا بأشواط الألغاز القديمة للعذارى الطاهرات، وإلهة الذرة - أم أننا لم نفعل؟

ليلة أمس، في منتصف هذا الفصل، ذهبتُ لأنام وحلمت. حلمتُ بأنه جاءني اتصّال هاتفي من صديقٍ قديم اسمه لورنس. قابلني في كونكتكيت، بالقرب من منزلي في غابة الشوكران، وسرنا معاً تحت الشجيرات وفوق الحواف الصخريّة. وهناك في غابة نيو إنغلند كانت حديقة مُنظَّمة لم يكن لديّ عِلم بوجودها: أقواس، سياجات، مروج، وشائع من خشب البقس بأشكال بارعة من العصر الإليزابيثيّ - قلوب، ثعالب، أسرَّة مزودة بمظلات. مشينا في أرجاء الحديقة كلها، بحثاً عن متاهة خاصّة نتمدَّد فيها.

كانت عائلتانا تلاحقاننا. وهناك صراخ وضحك مكبوت خارج الوشائع. لكننا حثثنا خطانا، بحثاً عن ملاذ.

ثم تغيَّر المشهد. كنتُ أرتقي دَرَجاً إلى غرفة تدليك عالية فوق مستوى الغابة. هناك امرأتان في انتظاري. إحداهما تضع عدستين داخل عينيّ لتجعل الغرفة مُظلمة. والأخرى تنزع عني جوربي وحمّالة صدري. لم أكن أرتدي سروالاً داخلياً، بل أضعُ فقط رباطاً للجورب فوق مركزي الرطب. مدّدتاني على الطاولة وبدأتا تلعقانني - كنوع من المعالجة، طبعاً. إحداهما لعقتْ شفري ومصّتْ بظري بينما أخذتْ الأخرى تدلّكُ عنقي، وذراعيّ، ورأسي، وتلعق شفتيّ. وظل الهاتف يرنّ، لكنني تجاهلته. كان لورنس وبيرو وزوجي كلهم في الخارج، يضربون بإلحاح على الباب. وأُتمتم، وأنا ناعسة، «ابتعدوا».

استيقظتُ ورطوبة الحلم لا تزال بين ساقيّ.

ولا أزال في أحلامي، أتجوَّل، بحثاً عن إنجاز لم يتحقَّق. الحلم هو بحث والبحث هو الحلم. إنْ كان هناك رعشة جنسيّة في الحلم، فهي غير مُكتملة في المعتاد. ما يتحقّق لا يُثير أحلامنا. إنَّ أفضل زواج في المعتاد أشبه بنوم خالٍ من الأحلام: غير متضارب، وبريء.

أستيقِظُ لأرى رجلاً ضخماً، ملتحياً يُعانقني ويُحضِر لي عصير برتقال. فخذاي رطبان بأشواق الحلم. أهي مُفارقة؟ إنها لا تختلف عن الحياة.

يقول «أخبريني عن تخيّلاتك، أخبريني». ويمدّ يده إلى مُلتقى فخذَيّ. يقول «أنتِ رطبة جداً».

أقول «كنتُ أكتبُ في نومي».

مع تكشُّف هذا الفصل على طاولة مكتبي - هذه التخيُّلات، وأحلام اليقظة، والذكريات - تُصبحُ حياتي اليقظة مع زوجي أغنى بالجنس أكثر

فأكثر. نرى نفسينا نمارس الجنس في كل ليلة، نضحك ونتبادل القُبل في الصباح. وأجد نفسي أُخبره عن أحلامي وتخيُّلاتي، وأقرأ له صفحات ويُفرحني ذلك، ويُزعجه كأنه عشيق حديث العهد. لقد ولجنا طمأنينة المنزل.

إنَّ هذا يُدهشني. في كل يوم أكتبُ أنَّ الجنس في الزواج أمر مستحيل. وفي كل ليلة أُثبتُ العكس.

ربما الحقيقة هي أنَّ المُشاركة الصادقة في التخيُّل هو الذي يجعل الجنس أمراً ممكناً وأنَّ التزاوج في الأسر في المعتاد يتناقَض مع هذا الصدق. ونؤدي دورينا كزوجَين. نجسّد أبوينا. ننسى الأحلام والحكايات الخرافيّة التي بثّتْ الدفء في عهد مراهقتنا. إننا نسمح للغضب أنْ يُقيم جدار برلين الخاص به.

ثم تلاشى الجنس. في أميركا، نتطلَّق، ونتزوج من جديد. في أوروبا، نبقى بلا زواج ونقوم بـ«مغامرات». ولا نواجه المشكلة في أي مكان.

لا يُصبح الزواج حرّاً ومصحوباً بالجنس إلا عندما لا يكون أَسْراً. والزواج لا يكون مصحوباً بالجنس إلا عندما يتضمّن التخيُّل ألّا نكون متزوِّجين. وأنْ يكون المرء حرّاً في الزواج يشكّلُ ربما التحدّي الأصعب. إنَّ كلاً منا لا يمتلك تخيلات الطرف الآخر. وتقاربنا كله - الجنسيّ وغيره - يعتمد على معرفة هذا.

ونحن طبعاً لا نؤمن بالزواج الواحد. وسواء اخترنا أنْ نمارس الزواج الأحادي أم لا، فإنه يرسخ فينا ونحن نمحوه ونتحمّل المخاطر. إنَّ المرأة المتحرِّرة هي التي تعرف ما تريد، ولا تُخفيه. وتخيلاتها تخصّها وحدها. وتستطيع أنْ تتقاسمها إذا شاءتْ.

أنا أعلم أنَّ الجنس في الزواج يأتي ويذهب. وأحياناً نُحضِرُه معنا وأحياناً لا نفعل. أحياناً نتصرّف بوقاحة صبيانيّة، ونُبعِد الشخص الذي نعتمد عليه بشدّة، ونذهب لننام ونحلم بآخرين. وهذه سِمة

إنسانيّة. نحن أطفال بأدمغة كبيرة بين أيدينا الكثير من المادة الكئيبة بحيث لا نستطيع أنْ نكون متماسكين. ونكون أشدّ سعادة لو أنَّ الفصّ الأمامي من أدمغتنا أقلّ انهماكاً بالعمل - ولكننا أيضاً نكون أقلّ إنسانيّة. فالبشر هم قرود وملائكة في وقت واحد. ولهذا السبب أحاسيسنا الجنسيّة شديدة التعقيد. إننا نحلم بأشياء تتجاوز إدراكنا. وتراودنا أحلامٌ مُزعجة.

ليلة أمس، شاهدتُ فيلماً سينمائياً مأخوذاً عن رواية صديق لي. وفيه، يُبدِّد رجلٌ حياته بأكملها من أجل بضع دقائق من الشغف مع فتاة جميلة بصورة غريبة، وحزينة بصورة غريبة تحتاج إلى أنْ تبثّ الاضطراب في حياة الآخرين، وتدفعها نحو المأساة.

الجمهور ضحك على مشاهد الجنسِ العنيفة. وساد الجو انزعاج واضح. لم يكونوا يرغبون في أنْ يعرفوا أنَّ التخيلات يمكن أنْ تُغِيْر على حياتنا وتدفعها نحو الظلام. لم يرغبوا في أنْ يُؤمنوا بالطاقة المُدمِّرة، المتملِّكة، للجنس.

ومع ذلك كلنا نقفُ متوازنين على شعاعٍ ممتد فوق العماء. نحاولُ أنْ نحافِظ على انتظام حياتنا، لكنَّ العماء يهتف لنا من خلال الجنس، من خلال المرض، والموت. إنَّ الإيدز والسرطان يكمنان تحت مُتعنا. والجمجمة تكمن تحت الجلد.

في سن التاسعة عشرة، ذهبتُ إلى إيطاليا للمرة الأولى ونزلتُ في فيلا فلورانسيّة تشرفُ على نهر آرنو من تل بيلوسْغواردو.

هناك، كنتُ قد ذهبتُ بقصد دراسة الإيطاليّة، فدرستُ بدلاً عنها الإيطاليين أنفسهم، وتعلّمت ما تتعلّمه العديد من الفتيات الأميركيات، وأنَّ الجنس أفضل من اللغة الأجنبيّة لأنه يمكن ترك الإحساس بالذنب في المنزل.

في حديقة الفيلا المُشوّشة نوعاً ما، بين وشائع خشب البقس، تعلّمتُ

مع رفيقاتي في الصف، ونحن نُشرِفُ على أضواء المدينة المتلألئة، رقصة الشغف التي تنطوي على الاقتراب-والتفادي. تحت ضجيج صرّار الليل، في ضوء القمر الحزين، شعرتُ للمرة الأولى بالخطر العذب للجنس.

كتبتُ قصيدة في ذلك الصيف هي أشدّ حِدَّة مما كتبتُ في أي وقت. وحتى هذا اليوم، لا أعلمُ كيف عرفتُ ما عرفت.

تساءلتْ القصيدة «منذ متى يُخضِعُ الصيف الأشياءَ المُغرِّدة للرقابة؟» وتُجيب عن سؤالها بنفسها:

«نحن نعلم أنَّ الدم وحشيّ - لكنه يُغني».

ما دخل السياسة في هذا كلّه؟

بعض مَنْ أعرفُ من النساء تخلّينَ عن الرجال لأنهنّ لا يستطعن تحمُّل الألم.

أي ألم؟

ألم رؤية رجل في الخمسين يواعد فتيات في الثامنة والعشرين «يصلحن حفيدات له»، ألم انتظار مكالمات هاتفيّة لا تصل، وألم فرط الحاجة، وفرط الرغبة، ألم السأم من فرط الحاجة، وهكذا تُقرّرين، مرّة وإلى الأبد، أنْ تكفّي عن الرغبة في الرجال.

يمكنكِ أنْ توطّني نفسك على هذا. يمكنكِ أنْ تكوني كالرجل الذي يُدرِّبُ حصانه على ألّا يحتاج إلا أقلّ فأقلّ من الطعام، ويُدهَش عندما يموت الحصان في نهاية المطاف. يمكنكِ أنْ تعيشي بلا عِناق، ولا نكاح. يمكنكِ أنْ تختمي على جلدك، وعينيك، وفمك.

ولكن عاجلاً أو آجلاً سوف يأتي الحب ليُطالبَ بك. سوف تجفّين وتُصبحين كزهرة هشّة تكفي هبّة ريح لتُطيح بك وتحوّلك إلى مسحوق باهت اللون.

إنني أفضّل أنْ أبقى منفتحة على الحب على الرغم من أنَّ الحب يعني

الفوضى، وربما الألم. كم من مرّة أعدتُ ترتيب الستائر ورفوف الكتب؟ كم من مرة أعدتُ تركيب حياتي؟

إنني أكره العماء، لكنّه أيضاً أبقاني شابّة. إنَّ الفوضى هي الواجهة المُقدّسة للحياة، والجنس يولِّدُ الفوضى. والشعوب البدائيّة فهمت هذا أفضل منا. لقد أفسحوا مساحات في حياتهم المُنظّمة للفوضى. كل ما تُرِكَ لنا هو مهرجان ماردي غرا.

إنني أكره أسلوب الأميركيين في ممارسة الجنس. خلال عقد من الزمان تظاهرنا بأننا ننكح الجميع، وفي العقد التالي تظاهرنا بأننا عازبات. ولم نتوصّل أبداً إلى موازنة الجنس مع العزوبة. ولم نعترف بالبحث عن إله المراعي والبحث عن العزلة - قُطبَي حياة المرأة. ولم نعترف بأنَّ الحياة نفسها مزيج من الحلو والمُرّ.

إنَّ المُدافعين عن حقوق المرأة يمكن أنْ يكونوا أسوأ المتطهّرين قاطبة. قد يقول قائل، بما أنّ الذكورة هي طاقة مُكرّسة للفوضى، فلنتخلّص من الذكورة برمّتها. إنَّ الرجال المُصابين بالعُنّة وحدهم يفون بالغرض. ويُعتقَد أنَّ الرجال المثليين وحدهم أنقياء. واليوم تجد المرأة نفسها واقعة في فخّ الحشو. والشبان السيئون يُثيروننا جنسياً، لكنَّ الشبان السيئين غير صحيحين سياسياً. هل هذا يعني أنَّ التعرُّض *للإثارة الجنسيّة* أمر غير صحيح سياسياً؟ بالنسبة إلى البعض، هو كذلك.

على امتداد حياتي كنتُ أهرب من الجنس أحياناً. أنا أيضاً يمكنني أنْ أكون متطهّرة. لكنني أعلمُ أنَّ من المهم أنْ *أحارب* من أجل بلوغ تطهّري. أعلمُ أنَّ فم باخوس ممتلئ بالثمالة القرمزيّة. ويمكن لفمه أنْ يمتلئ أيضاً بأسنان حادة - لكنَّ الجمال يُقيم هناك. الجمال دائماً يتآلَف مع الخطر. الجمال دائماً يتآلف مع الموت.

-7-

إغواء المُلهِمة

«فكِّرْ، لو أنَّ لورا كانت زوجة بترارك،
لظلّ يكتب القصائد طوال حياته؟»

• جورج غوردون، لورد بايرون،
من «دون خوان»

«ثمة شكل أكثر أهميّة للتفاؤل يتعلَق بموقفك من عملك... حاول أنْ تبتعد عن ذلك الموقف «الناجح أو الفاشل»... دعه يبتلعك، وكأنكَ في واجهة محل أو في حديث شيِّق أو كأنك تُعيد تزيين غرفة...».
• أنتونيا وايت، من *«مذكرات 1926 - 1957»*

متى اكتشفتُ للمرة الأولى أنَّ الجنس والإبداع متحالفان؟ كان ذلك في عام 1969 وكنتُ في السابعة والعشرين. كنتُ قد أمضيتُ ثلاثة أعوام ونصف من التحليل في ألمانيا - تحليل يُركِّز على جمود كتابتي وعلى زواجي. إذا لم يكن قد حرَّرني بالكامل، فإنه على الأقلّ أذاقني طعم الحريّة.

1969 كان عام اكتشاف الجنس. (الشاعر فيليب لاركن قال إنه كان عام 1963). كان عام الرحلة إلى القمر، وسير رواد الفضاء الذكور على

القمر الأنثى وتثبيت أحذيتهم المُرزّزة فيما سُمّيَ «خطوة واحدة للإنسان، وقفزة عملاقة للبشريّة».

لم يكن للمرأة أي ذِكر وسط كل ذلك الاقتحام الذكوريّ، الاندفاع الذكوريّ. كنا فكرة متأخّرة، وُلِدتْ من أضلاع التمرّد، لكنَّ الزمن كان يتغيَّر. ومع وجود فريق البيتلز يملأ أجهزة الراديو بقصص الحب، وروّاد الفضاء يُغوون الفضاء، ومتظاهري الحقوق المدنيّة يُهاجمون النظام الكونفدرالي القديم، ومُحتجِّي الجامعة يلعنون حرب فييتنام، لن يطول الوقت حتى تطلّ قضية مساواة المرأة برأسها القبيح.

بعد الإقامة في رايخي الثالث الخاصّ، أصبحتُ مُستعدّة للاحتجاج. وفي 26 آب، عام 1970، خرجتُ في مسيرة خلال سنترال بارك مع أخواتي، احتفالاً بحقوق المرأة، وشجباً لأخطاء المرأة. كان الأمل يعمّ. ولم نتوقّع أقلّ من تغيير العالم. في الحال.

مع صدور أول ديوان شِعر لي، *«فاكهة وخضروات»*، عام 1971، كانت الموجة الثانية من حركة تحرير المرأة تتلاطم على شواطئنا. كانت المرأة قد عادت إلى المشاركة - ومعها عاد الجنس من جديد. ولكن ليس لمدة طويلة.

كنتُ قد رجعتُ من ألمانيا الغائمة والماطرة إلى عالم برّاق لم أكن قد لاحظتُ وجوده. في شوارع نيويورك: أميركيون- أفارقة، خلفيّات جميلة، وأثـواب الداشيكي الإفريقيّة، وسترات نهرو، والأقمشة المطبوعة، وأحذية رياضيّة، ومجوهرات زوني، ورائحة الماريغوانا، وعُصابات للرأس لربط جراح الرأس... خلال وجودي في هايدلبرغ لأتعلَّمَ الكتابة أصبح العالمُ *جامحاً*. وأردتُ أنْ أُصبح جامحة مثله.

كان هوسي بالخياطة شيئاً تعلَّمته من ذائقة أمّي في الملابس - الملابس التي يمكن أنْ تتحوّل إلى أزياء ترتديها موديلات لوحاتها. وكان الجموح بدائياً أيام معهد الموسيقى والفن. كنتُ أرتدي *حينئذٍ* كالوجوديين، لكنني قرّرتُ أنْ أتحوَّل إلى الأناقة الراقية في الجامعة.

ولأنَّ والديَّ كانا بوهيميين في بروفنستاون في الثلاثينيات، كان تمرُّدي الأوليّ واضحاً. وأصبحتُ «زوجة صالحة» (تطبخ أرزاً على البخار لزوجها الأميركيّ-الصينيّ). وكنتُ قد كبتُّ تمرّدي. أما الآن فأردتُ أكثر من أي وقت أنْ أكون مُشاغبة!

كانت هناك وجهات نظر لجنوني في هايدلبرغ في *نهاية حقبة الستينيات*. دخّنتُ الحشيش في حفلات الطلاب وتمنيتُ لو أنني لم أكن متزوجة. كنتُ قد شاهدتُ الطلاب يُهرولون على حجارة رصف الطرقات، ساخرين من نظرائهم الباريسيين، وهم يهتفون *هو هو هو تشي منه، هو هو هو تشي منه* (بلكنةٍ ألمانيّة) على طول هاوبتشتراس. لكنها لم تكن ثقافتي، وبمعايير نيويورك، كانت هايدلبرغ منطقة ريفية على غرار منطقة شينيكتادي.

كان الطلاب الألمان في حقبة الستينيات يحتجّون على آبائهم النازيين، والطلاب الأميركيون يحتجّون على آبائهم الذين ينتمون إلى الحرب العالمية الثانية (الذين كانوا يؤمنون حقاً بأنَّ فييتنام هي نفسها بلاد الشمس المُشرقة). كانت حرب جيل تضطرم. ولا يهمّ أبداً إنْ كان أبواك من النازيين أم لا. كان يكفي أنهم *آباءٌ*. وكان ينبغي سحق الآباء.

أطلقنا على اسم بلدهم هم *Amerika*. فماذا كان اسم بلدنا؟ وودستوك؟ أم هيت-آشبيري[1]؟ أم هوس البيتلز؟ أم مجلّة[2] *كُتيِّب كامل الأرض*؟ أم غابة آردن[3] – مع مسبحة الحب؟ كانت الماريغوانا هي سلاحنا. وكذلك الشَعر المسترسل. وكذلك الجنس. هل استقرّ آباؤنا ليُنجبوا أطفالاً بعد الانتهاء من حربهم؟ إذن، لن نستقرّ *أبداً*. سوف نمارس الجنس، الجنس، الجنس، ونرفض أنْ نكبُر! وتبعنا قادتنا

1- هيت-آشبيري: منطقة في سان فرانسيسكو، كانت مكان تجمّع الهيبّيين ومتعاطي المخدرات في حقبة الستينيات – المترجم.

2- مجلة *«كتيّب الأرض كلها»*: مجلة كانت تمثّل ثقافة مُضادة في أواخر الستينيات أوائل السبعينيات. بقيت تصدر بصورة متقطّعة حتى عام 1998 في أميركا. المترجم.

3- غابة آردن في مسرحية شكسبير، وترمز إلى الابتعاد عن النفاق والخداع، وتوفر التناغُم.

- أو على الأقلّ مُغنِّينا الكبار: *كل ما تحتاج إليه هو الحب، الحب، الحب...*

ما بين عاميّ 1969-1970، رجعتُ إلى جامعة كولومبيا، وهذه المرّة إلى مدرسة الفنون، لدراسة الشِعر. وعدتُ أيضاً إلى التدريس في سيتي كوليج، كمُرشِدة متواضعة، ثم كمُساعدة بروفسور متواضعة - بلا ضمان صحّي، ولا ضمان عمل، ولا أيّ شيء. ونشأتُ على حب طلابي. ونُقِلتُ لأتمدَّد معهم على شوارع ويست سايد احتجاجاً على مذبحة كينت ستيت[4]. تمدّدنا على ظهورنا على الأرضيّة السوداء لجادّة أمستردام خارج دار الجنازات في ريفرسايد، وعيوننا شاخصة إلى السماء. الجُثث تموت لكي تُدفَنْ، وكنا نُعيق سير عربات الموتى. ولنْ أنسى دهري رجال الشرطة يدورون وأضواء الشوارع تومضُ خضراء ثم حمراء ثم خضراء ثم حمراء بينما نحن نواصل ذلك السهر الصامت خارج دار الجنازات. حتى الموت توقّف من أجلنا.

كنتُ قد قابلتُ تواً العالم الجديد الجريء للتسجيل المفتوح في سيتي كوليج. طلاب لامعون لم يُزعج أحدٌ نفسه بتعليمهم القراءة والكتابة، وطلاب ليسوا لامعين كثيراً أثبتوا أنه ليست لديهم أية قدرة على التعلُّم، أُرسِلوا إلينا لنُنقِذهم. بتعليم عِلاجيّ بمستوى الجامعة أثار حنق الهيئة الإداريّة المُهيمنة - وهذا أمرٌ غريب أنّهم لم يضطروا إلى *فعل* ذلك. لقد تركوا الأمر *لنا*.

أحياناً كان الوضع مُبهِجاً. وأحياناً أخرى كان مستحيلاً. وأفضل أوقاتي أمضيتها دائماً مع طلابي الأكبر سناً: ربّات البيوت وموظّفي المكاتب الذين كانوا يعودون إلى المدرسة ليلاً. لقد تفهّموا قتل عُطيل لديدمونة في ثورة غضب، أو عندما حثّتْ الليدي ماكبث زوجها ماكبث

4- في عام 1970، أطلقت الشرطة الأميركيّة الرصاص على طلّاب متظاهرين سلميِّين وقتلت أربعة منهم وجرحت عدداً آخر. وقعت الحادثة في جامعة كينت ستيت في أوهايو - المترجم.

على تلطيخ يديه بالدماء. كانوا حتى ذلك الحين قد شاهدوا العديد من أمثال عُطيل والليدي ماكبث. وكان في استطاعتهم بكل سهولة أنْ يربطوا بين شكسبير والحياة في حيّ الأقليات. أولئك الطلاب كانوا الناجين. والتعليم حرّكهم.

كانوا يقولون «مس مان، هل كل *الأدب*[5] يحتوي الكثير من الجنس؟».

لم يُزعج الطلاب النهاريون البورجوازيون من حي برونكس أنفسهم بطرح هذا السؤال.

في مدرسة كولومبيا للفنون، سرعان ما تولّعتُ بأساتذة الشِعر - ستانلي كونيتز (جدّ أدبيّ آخر) ومارك ستراند (فتى سيِّئ جميل، والشاعر الوحيد في أميركا الذي يُنافس كلينت إيستوود). كنتُ أحدِّقُ إلى مارك في أثناء إلقاء الدرس - إلى مسقط جانب وجهه المثاليّ، المُحفور كتمثال، وعينيه الساخرتين، اللتين تُثيران القشعريرة، وأبدأ بكتابة قصائد له وهي لا تتحدث عنه قط.

«إنْ كان هو حُلمي فسوف ينطوي داخل جسمي
أنفاسه تكتبُ رسائل من الضباب على زجاج وجنتَيّ
وأدثّره بي كما الظلام
وأتنفّس داخل فمه
وأجعله حقيقياً».

أصبحت قصيدة «الرجل تحت السرير» (الموصوف في المقطع السابق) هي الفزّاعة العالميّة، مصّاص الدماء، زاحف الليل الذي تسمع

5- كلمة «أدب» نُطِقَتْ بلكنة إنكليزيّة مُبالَغ فيها يلجأ إليها أفراد الطبقة الأرستقراطيّة عادةً، على سبيل السُخرية من تلك اللكنة ومن أصحابها - المترجم.

كل فتاة أنفاسه تحت سريرها، في انتظار أنْ يوقِعها في فخّه - كما تأمل. كان مارك ذلك النوع من الرجل الوهمي. وكان أيضاً غاليفر الذي يقطع بخطواته العملاقة أرض ليليبوت، يعلو فوقنا كلنا نحن أهالي أرض ليليبوت ونحن نعدو تحته. ونرمي بشكل مسعور الحبال الرفيعة لنطوِّق بها ساقيه الضخمتين.

«أريد أنْ أفهم الشيء المنحدر
الذي يرتقي السُلَّم إلى نحرك
إنني لا أفهمك.
أينما نظرتُ أراك -
كعلامة شاسعة، كبركان
يُبرِزُ رأسه من خلال الغيوم
كغاليفر منطرح بالكامل عبر أرض ليليبوت».

كان مارك يُدرِّس بطريقة باردة، تكاد تكون مقيتة - وكأنَّ الطلاب لا يكادون يستحقون بذل أي عناء من أجلهم. لكنه لفتَ انتباهنا إلى بابلو نيرودا وإلى رافائيل ألبرتي، وحرَّرني من القافية القسريّة، وشجّعني على التجريب في كتابة القصائد النثريّة وعلى القفز إلى صوري. وهو أيضاً أثارني - مما علَّمني المزيد عن الشِعر أكثر مما فعل أي شيء، كنتُ أعود إلى المنزل وأكتب قصائد إلى هو المستحيل - هو فارس أحلامي - أدونيس، أبي، جدّي، مع كلينت إيستوود والعجوز الذي يستعرض عضوه في النفق. إنَّ ما نخشاه نرغب فيه أيضاً، وما نرغب فيه نخشاه. لقد كان تهديد الذَكَر موجوداً في تلك القصائد المُبكِّرة، ولكن أيضاً اشتياق حقيقيّ إلى عشيق مجهول. أنا وألان تضاجعنا، ولكن كنا حينئذٍ قد توقّفنا عن أنْ نكون عشيقَين - إذا كان تعريف

العشيق هو الشخص الذي تتوقين إليه. كنتُ أكتب الشِعر وأنا في حالة اشتياق مجنون. وقصائد الاشتياق تلك موجودة ضمن ديوان *«فاكهة وخضروات»* و*«أنصاف حياة»*.

وكلما ازداد اشتياقي كتبتُ أكثر. إنَّ الاشتياق عاطفة أساسيّة للشاعر.

هل الاشتياق روحيّ أم جنسيّ؟ مَنْ يقول إنَّ الاثنين ليسا شيئاً واحداً؟ الروميّ والكبير[6] ومعظم الشعراء الفرس يرونهما وجهين لطاقة واحدة - ولكن، طبعاً، الفرس هم الذين ابتكروا الحب. لقد اكتشف كلٌ من إلويز وأبيلار مدى تقارُبهما - وكان أسفهما لا حدود له لذلك. وحدها التطهيريّة البروتستانتية أقامتْ جداراً بين الاشتياق الجسديّ والاشتياق إلى الله.

في صف مارك، اشتقتُ إلى الله في الإنسان، وفي صف ستانلي اشتقتُ إلى الإنسان في الله. كان رعبي من ستانلي أقلّ منه من مارك. ستانلي يُغريك بعناقه. مارك كان متحفّظاً. وفي سن السابعة والعشرين، وجدتُ التحفُّظ أشدّ إثارة جنسياً. حتى زوجي في ذلك الوقت كان بارداً وشارداً. لم أستطع أنْ أتخيّل عاشقاً لا يُشبه زوجي - وهذا يتكرر حدوثه أكثر مما نهتم بالاهتمام به.

في ذلك العام الأول، بعد عودتي من ألمانيا، كنتُ أتعبَّدُ كل أسبوع في الشارع الثاني والتسعين Y. كانت نكهة الشِعر الأسبوعيّة تجذب انتباهي الكامل. كنتُ أيضاً أتردد على مهرجانات الشِعر، ومقاهي الشِعر، وحانات الشِعر.

حسبتُ، أنا عاشقة الشِعر، أنَّ في استطاعتي أنْ أعيش على الهواء. حسبتُ، أنا عاشقة الشِعر، أنَّ في استطاعتي أنْ أعيش مع ألان.

عندما جاء يهودا أميتشاي، الشاعر الإسرائيلي، إلى نيويورك، قرأنا

6- الكبير (1440 - 1518): زعيم ديني هندي، جمع بين التعاليم الهندوسيّة والإسلاميّة، فيما اعتُبِرَ إرهاصاً لمذهب السيخ - المترجم.

الشِعر معاً في عيادة الدكتور كرم، ومرَّرنا القبعة، وجمعنا 121 دولاراً – معظمها قطع فضّية. وتقاسمناها، واتّفقنا على أنه كان أفضل مبلغ من المال كسبه كلٌ منا في حياته. وما زال كذلك.

كان الدكتور كرم أسمر، تفوح منه رائحة البيرة، وتعلق به الكثير من نشارة الخشب وقشور الفول السوداني. شعراء، ومشاريع شعراء، وبؤساء. ومجانين أيضاً. كانت جلسات قراءة الشِعر دائماً ممتلئة بالمجانين. أحدهم هدَّد بقتلي قبل إحدى جلسات قراءاتي الأولى في فيلادلفيا. كان قد أرسل إليّ رسالة حب لم أتمكّن من الردّ عليها. غلى الدم في عروقه وأقسم على أنْ ينتقم. ما كان يمكن أنْ يكون انجذاباً قاتلاً: فأنا ما زلت موجودة هنا.

الحقيقة هي: لا أحدُ يُزعج نفسه بقتل الشعراء في أميركا. يكفي دفنهم في الجامعات، فلا يقرأهم أحد.

كان زمن مهرجانات النساء الشاعرات. كارولين كايزر وأنا تقابلنا ونحن في الطريق لحضور أحدها. جلسنا خلف السائق مباشرة. وباشرتْ كارولين حواراً مع نفسها رائعاً عن حياتها كشاعرة. شعرتُ بالفخر لكوني كاتمة أسرارها.

قالت في نهاية حكاية طويلة «ثم استيقظتُ، لأجد نورمن ميلر جالساً على وجهي!».

كانت الحافلة تنحرف عن الطريق.

قابلت تد هيوز الشرير، المندفع، بعد أنْ أدّى قراءته في الشارع الثاني والتسعين Y. على نسختي من ديوانه *Crow* كتبَ: «إلى مفاجأة جميلة، اسمها إريكا يونغ». ثم ملأ صفحة العنوان الداخلي برسمٍ لأفعى على شكل قضيب يتلوّى خلال قصيدة جديدة عن غراب.

قال الدكتور جونسون «في الإهداءات الأنيقة لا يكون الرجل تحت القسم». لكنَّ الشعراء غالباً ما يتصرّفون كقوّادين بإهداءات الكتب.

ذهبتُ إلى العشاء مع تد (وحاشيته) وطوال السهرة كنا نتبادل النظرات. في تلك الأيام، كان معروفاً عن تد في أوساط المُدافعين عن حقوق المرأة بأنه قاتل نساء، أو بالأحرى كان الشيطانَ مُجسَّداً. وهذا زاد من إثارتي. أصبحتُ رطبة، وأنا أتخيَّل المؤلِّف الضخم الوسيم لقصيدة *«غراب»* في السرير. ثم فررتُ بسيارة أجرة - وأنا أكافح تخيلاتي. وطفا خيال سيلفيا بلاث وآسيا غوتمان[7] أمام عينيّ كأطياف شكسبير، يُحذّرانني. كنتُ أعلم أنني أريد أنْ أكتب وأعيش، لا أنْ أكتب وأموت.

لماذا كان دائماً قَدَر المرأة الشاعرة أنْ *تموت*؟ هل كنا نُعاقب أنفسنا لأننا تجرّأنا وأمسكنا بالقلم؟ هل كنا نحاول أنْ نتخلَّص من حياتنا لكي نتخلَّص من هذه الجراءة؟ هل تبنّينا قواعد اللعبة التأديبيّة؟ (إذ حتى حينئذٍ لم أصدِّق أنَّ انتحار سيلفيا بلاث كان، في نهاية المطاف، خيارها هي، لا خيار أي شخص آخر). ومع ذلك، لقد فهمتُ مدى صعوبة أنْ تكون المرأة شاعرةً في عالمِ للأدب وضع الرجلُ قواعده.

في شيكاغو واحتفالاً بمحلّة *«شِعر»*، اصطدمتُ بشاعر جنوبي شاب جميل (لن أذكر اسمه بسبب المُصادفة غير السارة لكونه ما زال مع زوجته). هذا الشاعر كتبَ عن بحثه عن نفسه، وعن توقه الشديد والعنيد إلى الحب، وعن الإحباطات العديدة التي تسبّبَ بها زواجه الطويل المُملّ، عن توقه اللا نهائي الذي لا يجد ما يُخفّفه.

كان الاشتياق هو أحد أسمائي. وهكذا رجعنا إلى شقّة ليك شور درايف الخاصة بأحد مموّلي مهرجان الشِعر (وُضِعَ الشعراء كلهم في غرف خاصة بالخادمات في تلك القصور المجيدة التي تطفو في الهواء)،

7- آسيا غوتمان (1927 - 1969): فتاة ألمانية من أب يهودي من أصل روسي وأم ألمانيّة. هربت من النازيين واستقرت في تل أبيب، في فلسطين أيام الانتداب، معظم فترة شبابها، ثم انتقلتْ إلى بريطانيا. كانت موهوبة لُغوياً وشديدة التحرُّر. وكانت عشيقة تد هيوز، زوج الشاعرة سيلفيا بلاث. انتحرت على غرار ما فعلت سيلفيا، بعد أنْ قتلت ابنتها ذات السنوات الأربع - المترجم.

وتسللنا زاحفين مارّين بأعمال فنيّة لجاسبر جونس، ولوحات لبلدة مذرويل، ولروثكو، وفرانكنثالر[8]، ونيفلسون، وكالدر، وزوزنكويست، وداين، عبوراً للمطبخ إلى غرفة الخدم، حيث مارسنا الجنس الرقيق طوال الليل. وعند الفجر، استيقظنا (كأنما على صوت انفجار) وتمشّينا على طول ضفة بحيرة ميشيغان. في الأساس لم نشعر بأنَّ الأغنياء يُرحّبون بوجودنا. وفجأة انتابنا شعور بالذنب حيال زوجته وزوجي.

في المنزل، كتبتُ قصيدة له - أو كائناً ما كان يُمثّل - وكتبَ هو قصائد لي - أو كائناً ما كنتُ أمثّل. تراسلنا لبعض الوقت. ما زلنا نتبادل نسخ الكتب الموقَّعة بعذوبة.

هذه اللقاءات عملتْ بصورة ما على تغذية أول ديوانَي شِعر لي. وأدّتْ أيضاً بشكل حتميّ إلى تأليفي *«الخوف من الطيران»*. قصيدة «المُلهِمة تنكح» استخدمتها كمُزحة، وقحة لكنها صحيحة. في *«الإلهة البيضاء»* يقول روبرت غريفز إنَّ الشِعر الحقيقيّ ينبع من العلاقة بين إلهة الإلهام (الإلهة البيضاء) والشاعر. إنها تعتمد على معرفة الشاعر الجنسيّة بها، مُجسَّدة بامرأة دنيويّة. وغريفز يُطبِّق نظريته الخاصة مع إحساس مُضطرد باليأس مع تقدّمه بالسن. وأخيراً، أصبح مُحاكاة ساخرة لذاته الشابّة. وهنري ميللر فعل الشيء نفسه - وإنْ كان فقط في مجال «الحب». وعندما لا يكون حكيماً يُصبحُ تيساً عجوزاً - الحِكمة جنباً إلى جنب مع المسخرة المبتذلة. والعديد من الشعراء العجائز يكتشفون أنَّ عليهم أنْ يُحرّكوا الشِعر بـ«الحب». وما يخرج بصورة طبيعية في عهد الشباب يُصبح محض خِداع للنفس في الشيخوخة.

إنّ إلهة الإلهام، بالنسبة إلى المرأة الشاعرة، تاريخياً تخوض مغامرتها مع الذَكَر: أدونيس، أورفيوس، أوديسيوس. وبما أنَّ المرأة الشاعرة

8- هيلين فرانكنثالر (1928 - 2011): رسّامة أميركيّة تعبيريّة. من أبرز الرسّامين الأميركيين بعد الحرب العالمية - المترجم.

تكتشف أيضاً الإلهام عبر ضفيرتها الشمسيّة[9]، فإنَّ تحريم مشاعر المرأة الجنسيّة تؤذينا من الناحية الإبداعيّة بقدر ما تؤذينا مُتعنا.

في تلك الأيام كان هناك العديد من المُلهِمين. في المعتاد كنتُ أحافظ عليهم مُقدّسين بألّا «أعرفهم» جسدياً. وأولئك الذين ضاجعتهم، هربتُ منهم بسرعة، وحوّلتهم إلى أصدقاء بالمراسلة.

لقد كنتُ أفتش عن الإلهام، وليس عن العلاقات - مهما كانت. كل ما أستطيع أنْ أتعامل معه كان قارب-العلاقة أو ألواح تزلج-العلاقة. كان ينبغي أنْ ألجأ إلى المنزل بسرعة لكي أكتب كل ما لديّ. فقبل كل شيء، كان هذا هو الهدف. ثم، لم أرغب في أنْ أُصاب بالخيبة على يد رجل بشريّ. بل أردتُ مُلهِماً، وهو، تعريفاً، لا يظهر إلّا في لحظات من النشوة ولا يُتيح الفرصة للإصابة بخيبة الأمل. إنه الأمير الذي قد يتحول إلى ضفدع إذا استقبلته، هو أوديسيوس الذي قد يتحوّل إلى خنزير. وإذا لم تتريّثي، فلن تعرفي. وسوف تحصلين على القصيدة.

في كل مرة أنطلقُ لأُنجزَ شيئاً في حياتي، يكون انغماساً كاملاً. في ذلك الوقت، كان الشِعر هو عُنصري. كان بالنسبة إليّ الخبز والهواء الذي أتنفّسه، والزوج، والعشيق، والطفل. أما ألان فكان مجرد رفيق باهت، غراباً جالساً على شجرة.

يبقى الشِعر هو عزائي. إنني في الواقع *أقرأ* قصائد أناسٍ آخرين. إنَّ الشِعر يُعيد ملء البئر عندما ينضب مَعِيني. الشِعر يعثرُ عليّ عندما أضيع. والرضوض المؤقّتة التي تخلّفها علاقة مؤلمة، وإحباطات المهنة، وآلام الأمومة، وموت الأصدقاء، كلّها يشفيها الشِعر. لو أنني أترك نفسي لأستسلم للشِعر، فسوف يأخذني في نهاية المطاف إلى الرواية التالية، متوقّعة نقاطها الرئيسة.

إنَّ المُبتدئين في الفنون يعتقدون أنَّ عليك أنْ تبدئي بإلهام الكتابة أو

9- الصفيرة الشمسيّة: مجموعة من الأعصاب تقع في فم المعدة عند الإنسان - المترجم.

الرسم أو تأليف الموسيقى. في الحقيقة، كل ما عليك أنْ تفعليه هو أنْ *تبدئي*. إنَّ الإلهام يأتي إذا *استمررتِ*. التزمي بالجلوس بثبات في عُزلة على مدى ساعات عديدة في اليوم وسوف يقوم الإلهام حتماً بزيارتك. كان هنري ميللر يقول «إنني أكتبُ خمسين صفحة إلى أنْ أسمع نبض قلبي المُميت».

إنّ فعل الجلوس الآليّ في عزلة بحد ذاته، وإغلاق الهاتف، وإعطاء نفسك الوقت للَّعب وارتكاب الأخطاء، وألا تُطلقي الأحكام على نفسك، والإطاحة بالرقباء عن كاهلك، يكفي لدفع المرء إلى العمل. وأقول لنفسي، ***إنه ليس نقشاً على الحجر. يمكنكِ دائماً أنْ تنقّحي وتُعيدي الكتابة لاحقاً. لستِ حتى مُضطرة إلى النشر إذا كنتِ لا ترغبين. هذا من أجل نفسك فقط.***

إنني أكتبُ كما أنه من أجل *samizdat* (نفسي)، وليس للعامة. وكل أصدقائي من الكتّاب من بلدان الكتلة الشرقيّة يُخبرونني أنَّ الكتابة للذات تُضفي المزيد من النبرة الحميمة على الكتب. إنهم يشعرون بأنهم يكتبون للأصدقاء، وليس للأعداء. يشعرون أنهم يكتبون رسائل - رسائل لأنفسهم.

إنَّ السماح بالفشل، بالإضافة إلى أهداف مُصطنعة معيَّنة - ***سوف أكتبُ عشر صفحات بخط اليد، ثم أتوقّف*** - غالباً طريقة تنجح. وهو أيضاً يهزم تعذيب الذات المعتاد الذي يُصاحب الكاتب في عمله. إذا جرأتِ على اللعب، تستطيعين أنْ تُخاطري بكل شيء على الصفحة.

كان حِفظ القصائد في مكان آمن مسألة أخرى. في أول الأمر كان أمراً مستحيلاً بالنسبة إليّ. كان قلقي عظيماً إلى درجة أنني كنتُ أسمع عبارات السخرية لمجرّد أنْ *أفكّر* في وضع مجموعة من القصائد داخل مُغلَّف. وقد حلَلْتُ هذه المشكلة عملياً. في هايدلبرغ، اشتريت صندوقاً من البلاستيك بأبعاد خمس وثلاث بوصات وسمّيتُه: **قصائد مُرسَلة**. وعلى كل بطاقة تاريخ، ولائحة بأسماء القصائد، والمجلّة المُرسَلة إليها،

وتاريخ القبول أو الرفض. وكانت تلك ببساطة طريقة خداع خوفي. فإذا لم أستطع أنْ أتخلّص من الخوف، على الأقلّ أستطيع أنْ أحتويه داخل صندوق من البلاستيك.

قلت لنفسي «سوف أعرف أنني شاعرة فاشلة عندما يمتلئ هذا الصندوق». وكنتُ قد نشرتُ ديوان شِعر حتى قبل أنْ يمتلئ الصندوق ولو جزئياً.

هل كان تهديدي لنفسي أجوف؟ إنَّ الشعراء لا يصنعهم استحسان المُحرّرين لهم بل *استحسانهم لأنفسهم*، كما يُذكّرنا بذلك قَدَر إميلي ديكنسون ووالت ويتمان.

عندما يمتلئ الصندوق البلاستيكي، سوف تقول الشاعرة الحقيقيّة ببساطة: «إذا امتلأ الصندوق الثاني، أو الثالث، أو الرابع...»، لكنها سوف تواصل إرسال قصائدها - ولو فقط من باب جعل جلدها أكثر صلابة.

هل كنتُ كاتبة حقيقيّة أم كنتُ فقط أسعى إلى حصد الاستحسان؟ لقد أصبحتُ مشهورة وأنا في سنٍ مُبكّرة جداً بحيث أنني لا أعرف الجواب. ولم أعرف الحقيقة إلا لاحقاً عندما توقّف الاستحسان لكنني تابعتُ الكتابة رُغم ذلك.

عاجلاً أو آجلاً، *كل* فنّان يُواجه الرفض - حتى أكثرهم شهرة. فإذا ثابرت على امتداد حياتك في عملك، *فلا بدّ* أنْ يمرّ بفترات يُصبح خلالها غير متوافق مع السياسة أو مع نظريات الأدب في زمنك. ويجب أنْ تعمل *وتتجاوز* هذا، حتى إنْ كان يعني الرفض. إنَّ السياسة تتغيَّر. لكنَّ وقت العمل لا يمكن استعادته. وجدير بنابوكوف أنْ يُصاب بالدهشة لرؤية أعماله منتشرة في أرجاء روسيا كلها. لقد تكهّن بأنْ هذا لا يمكن أنْ يحدث.

إنَّ الرفض من الخارج هو دائماً أفضل من رفضك الداخلي لذاتك الكاتبة. إنَّ ذاتك الكاتبة هي كل ما تملك. فإذا حرمت نفسك منها، فلن تعرف أبداً كم أنَّ الرفض الخارجيّ أمرٌ غير مهم على الإطلاق. ولكن

إذا تحالفتَ مع قِوى الرفض، فكأنك ارتكبت انتحاراً إبداعياً. بنات الحرام لن تكون فقط قد اكتفتْ بإحباطك، بل وقتلك أيضاً، باشتراكك الحماسي في ارتكاب هذه الجريمة.

قادني هوسي بالشِعر سنوياً إلى تكوين مجموعات شِعرية وإرسالها إلى مسابقات تعِدُ بنشر الديوان الأول. في كل عام بدءاً بعام 1967 وحتى عام 1970، جمعتُ ما اعتقدتُ أنها أفضل قصائدي (راجعتُ بعضها منذ الفترة الأولى لولادتها)، ورتّبتُها حسب موضوعها، ووضعتُ لها عناوين، وأرسلتُها إلى يونيفرسيتي بريس X، ويونيفرسيتي بريس Z – وكلٌّ منها مرَّ بعملية يا نصيب أدبيّة. لم أكن أعرف كيف أتواصل مع ناشر تجاريّ، وعلى كل حال بدت لي يونيفرسيتي بريس أشدّ أناقة، وأنا التي كنتُ أتصف بعجرفة مدرسة التخرُّج (أو بخوف مُستتر من الرفض). حتى في ذلك الحين كان ناشرو نيويورك يُشكّلون الشِعر، لكنه لم يكن قد بلغ مرحلة الحل النهائيّ بعد.

المجموعة الأولى التي سلّمتها كانت «*بالقرب من الغابة السوداء*». بما أنها كانت مُثقلة بقصائد عن اكتشافي هويتي اليهوديّة في ألمانيا، فإنها تحتوي أشياء ما زلتُ أقرؤها بين حين وآخر، متسائلة ***كيف عرِفَ ذلك التافه الحقير ذلك***؟ المجموعة التالية، المُسمّاة «*الغاوي تحت جفن العين*» تضم أفضل قصائد هايدلبرغ، بالإضافة إلى مجموعة من القصائد الجديدة حول غواية الإلهام، والزواج من الشِعر، وملاحقة الحب على شكل فاكهة وخضروات. والمجموعة الثالثة، «*فاكهة وخضروات*»، دفعتْ بهذا المنحى أبعد. كانت مملوءة بقصائد ساخرة عن الشاعرة في المطبخ، والشاعرة كربّة منزل، والجنس، والحب، والدعوة إلى مناصرة المرأة، والمرأة اللاسعة. وبما أنها تتصِف بالحرية أكثر من الاثنتين الاوّليتين – في الشكل والمحتوى معاً – فما زالت تسرّني (في الغالب). لقد كنتُ أُجدِّدُ نفسي، وأجد في هذا النوع الحادّ من الخضار تجدُّدَ روحي المتواصل.

في وقت تجميع مواد ديوان «*فاكهة وخضروات*»، كنتُ نزقة بشراسة

أريد نشرها. لقد بدا أنَّ فقط كتاباً مطبوعاً أو قصائد يمكن أنْ تمنحني ما أفتقر إليه. لم تعُد المجلّات الصغيرة ودوريات الشِعر تُرضيني. كنتُ توّاقة إلى أنْ يسمعني شعراء مُعاصرون. ورأيتُ أنَّ ديواناً من الشِعر سوف يُغيِّرُ حياتي. كنتُ متشوّقة لأصبح واحدة من المُشرّعين المعروفين لشؤون المرأة، لأصلَ إلى الجمهور العريض من عشّاق الشِعر الذين كنتُ أؤمن بوجوده، لأسوط العالم بالشِعر وأُعيده إلى وعيه.

كم تبدو هذه الادّعاءات جنونيّة تماماً الآن! لقد عشتُ من أجل الشِعر، وافترضتُ أنّ العالم فعل الشيء نفسه. وبحلول ذلك الوقت كان مُعلّماي في الشِعر قد أصبحا ثلاثة. كان ويس أونترماير، ذلك الأحمر العجوز المتحدّي وجامع المُقتطفات الذي لا يكلّ، قد انضمَّ إلى مارك ستراند وستانلي كونيتز في هيكل العظماء الخاصّ بي. وكان لويس قد قرأ إحدى قصائدي في مجلة دوريّة كئيبة وكتب لي رسالة: «ماذا تفعلين وسط تلك الكتلة من الابتذال؟». كانت النظير الأدبيّ لقول «ماذا تفعل فتاة لطيفة مثلك في مكانٍ كهذا؟». وبعد ذلك مباشرة، دعاني إلى العشاء في منزله في كونكتيكت، وجمعتْ بيننا في الحال علاقة حب - كما تفعل شاعرة في عشرينيات عمرها مع جامع مقتطفات أدبيّة في ثمانينيات عمره (والعكس بالعكس).

تبعَتْ تلك الدعوة دعوات عديدة على العشاء الأدبيّ – وجبات عشاء مع آرثر ميللر وإنج موراث، وهوارد وبيت فاست ـ وميوريل روكايزر، وروبرت أندرسن وتيريسا رايت، وآرفن وجويس براون، ومارثا كلارك، وأعـداد من الشعراء الآخرين، ومؤلفي المسرحيات، والروائيين، والممثلين، والراقصين، والمُخرجين، والحُمر العجائز.

بسبب لويس وزوجته، برينا، صدَّقتُ أنَّ كونكتيكت هي نسخة مُصغَّرة في نيو إنغلند لجبل الأولمب. وبسبب لويس وبرينا، قابلت الزوجين فاست، اللذين عرّفاني إلى والد ابنتي. وبسبب لويس وبرينا، قمتُ بمراجعة ديوان الشِعر من جديد.

وهكذا أرسلتُ مجموعتي الشِعريّة الجديدة إلى فلان، وفلان، وفلان. وبضربة حظ، اتّضحَ أنها معجزة متزامنة كبرى، أرسلتُها أيضاً إلى دار هولت، في تلك الأيام كانت تُسمّى هولت، راينهارت ووينستون.

كنتُ قد رجعتُ إلى الوطن من ألمانيا في الصيف السابق لانتهاء «جولتنا لأداء الواجب»، لأجد جدَّتي تحتضر. كانت تجلس باسترخاء هزيلة على أغطيتها الكتّانيّة الأصليّة، تُحدِّقُ من نافذة ويست سايد المُشمِسة. كانت تغيِّر ملابسها لتجعلها أضيق - «لكي يتوفّر لديّ ما ألبس عندما أخرج من جديد». لكنها لم تخرج بعد ذلك أبداً. لقد قتلها سرطان البنكرياس بأسرع مما قتل الإيدز صديقي رسل. لكننا معاً كنا نُنكِر أنه السرطان. لم يذكر أي منا كلمة واحدة عنه.

سألتني بوهن عما أفعل. قلت بتردّد «أعمل على قصائدي». بلا أي تردُّد حثّتني «اذهبي وقابلي غراسيلا، غريسي، غريس» (كانت جدّتي دائماً تُكرِّر الأسماء ثلاث مرات أو أربع، وغالباً ما تخاطبني بـ«إريكا، كلوديا، نانا، إديتشكا، كاتينكا»).

كانت «غراسيا، غريسي، غريس» هي ابنة صديقة قديمة لأبوَيّ، سيدة روسيّة لا تُقهَر اسمها بيسي غولدنغ. وقد اكتشفنا أنا وغريس لاحقاً أنَّ بيسي أصبحتْ عشيقة جدّي في أثناء انتظار جدَّتي في لندن ريثما تُستدعى إلى «الأرض الذهبيّة». ولم يستغرق ذلك أكثر من ثماني سنوات.

عندما وصلت أمي إلى نيويورك، عثر أبي في الحال على زوج شيوعي مناسب لبيسي. كان دائماً يصِفها بـ«فوضويّة، إحدى أتباع إيما غولدمان، مؤمنة بالحب الحرّ». باختصار، كانت عكس جدّتي اللائقة تماماً، التي تؤمن باللآلئ الأصليّة، وقفازات الأطفال ذات اللون الكريم مع أزرار من اللآلئ، وأغطية الكتّان الأصلية، ومفارش الطاولات الكتانيّة الأصليّة مع مناديل مشغولة عليها الأحرف الأولى من الاسم،

ولُحف محشوة بالريش مع أغطية مُزخرفة. وآمنتْ أيضاً بعصير البرتقال الطازج، وزيت كبد سمك القد، والبيض المسلوق قليلاً مع «جنود» مُحمّصين (بقطع طويلة لغمسها)، ومعاطف تشسترفيلد إنكليزيّة بياقات من المخمل من أجل الفتيات الصغيرات. وآمنتْ أيضاً بكساء الساق الجلديّ. ولكن ليس بالحب الحرّ. لم تؤمن بهذا حتماً.

انطلقتُ مع قصائدي إلى غراسيلا، غريسي، غريس (من إنتاج بيسي والشيوعي المناسِب الذي انتقاه جدّي لها). كنتُ أحمل مخطوطاتي الثلاثة على التعاقُب من القصائد برباط مطاطي مراكشي متين.

أقلّتني حافلة عبر البلاد وأوصلتني بالقرب من المتنزّه والشارع الثامن والستين، حيث تعمل غريس (التي أمضتْ حياتها في عالم النشر) لصالح مجلة *فورين أفير*.

أوقفَ رون كوهن سيارته الليموزين (RMC–NY)، بما عليها من شريط بحريّ كلسيّ وأصْدَاف المحار، وواجهتها الكلسيّة الرائعة، بمُحاذاة سيارة أخرى على الجانب المقابل من الطريق، وكانت قنصليّة العلاقات الخارجيّة، التي كانت تنشر مجلة *فورين أفّير*، مكاناً ضخماً. وبوصفها وكراً لغير اليهود من الأوروبيين، وطائفة الكالفينيين، وخريجي هارفارد، كانت القنصليّة تنشر إشاعات عن تلاعبات السي آي أي. يمكنك أنْ تتخيّل أنَّ جيمس بوند قد تخرَّج من هناك. بالإضافة إلى درج سرّي، وخزانات للكتب تدور حول نفسها لتكشف عن *oubliettes* (زنزانات) مُخصّصة لعملاء أشرار أجانب لا يمكن ذِكر أسمائهم، أو أسماك قرش تأكل البشر تسبح في برك مياهها دافئة كالبول تغوص إلى غور في الصخر.

دخلتْ بجرأة، أخفي خوفي وراء تبجُّحي التافه المعتاد بالشجاعة. (كان خوفي من *كوني* مذعورة، أشدّ من خوفي من أنْ *أبدو* كذلك – وهو ما ورثته عن والدي). وارتقيتُ الدَّرَج الملتوي الجميل المؤدِّي إلى مكتب غريس.

كانت غرفة المكتب عبارة عن مغارة من الكتب والأزهـار، من المطبوعات واللوحات الملوّنة. كانت ملاذاً غنيّاً يترأسه تجسُّدٌ للإلهة الأم العظيمة: غريس. في تلك الأيام، كانت قصيرة وبدينة، ذات شعر قصير جداً يغزوه الشيب وكانت ترتدي الملابس الفضفاضة الخاصة بالبدينات لكي يُخفين أنفسهن عن أنفسهن.

غصتُ في الأريكة الجلديّة الخضراء العميقة المُجاورة لطاولة مكتبها، ووضعتُ ساقاً على ساق من تحت تنورتي مفرطة القِصَر الحمراء ذات الثنيات، وعدّلتُ من شأنْ ثوبي الكتّاني الأحمر وبلوزتي المطبوعة بأزهار حمراء. شعرتُ وأنا أضع ساقاً فوق ساق وأنتعل صندلاً أحمر للمشي بأنني على الموضة ولكن خائرة القِوى.

سألتْ غريس، تحاول أنْ تُدخِل الطمأنينة إلى قلبي «كيف أساعدكِ؟». لكنني لم أطمئن. نظرتُ إلى عينَي غريس البنّيتين الرقيقتين ولم أقوَ على الكلام.

قالت غريس بلطف «تقول الماما إنكِ تكتبين الشِعر».

كذبتُ قائلة «أعتقد ذلك، ولكن لعله ليس جيداً». كنتُ أعلم أنَّ هذا أفضل من قول «إنه ليس جيداً أبداً». تلك كانت تعويذتي الواقية لإصابة العيون الشريرة الكامنة في الجدران بالعمى.

«هل لي أنْ أراه؟». كان الرباط المراكشي الأسود رطباً من كفيّ اللذين يتصبب منهما العرق.

«أتريدين حقاً؟».

«وإلّا لما طلبت».

تناولت الحزمة، وفتحتها على العنوان، الذي كان حتى ذلك الحين «فاكهة وخضروات»، وفتحت القصيدة الأولى، وقالت بسرعة، «إنَّ الشِعر شيء خاص جداً. إنَّ حياة شخص بأكملها موضوعة داخل تلك الهوامش البيضاء الواسعة».

وبصمت، بدأتْ تقرأ.

اضطربتُ.

قلتُ في نفسي، إنها تكرهها، وهي مُهذّبة ولا تريد أنْ تتخلّص مني، وتقدِّم لأمي معروفاً عقيماً لأنَّ أمي تحتضر.

ظلّتْ تقرأ على مدى عشرين دقيقة، باستغراق، دون أنْ ترفع بصرها.

ثم أعلنتْ، «سوف تصبحين أشهر شاعرة في جيلك».

شعرتُ كأنّ موجة من المُحيط ضربتني وغمرتني. كنتُ مقطوعة الأنفاس.

لكنني قلت، «أشكركِ شكراً جزيلاً».

ثم رفضتُ ما قالت واعتبرته مجرد كلام.

قالت «كلا – أنا جادّة. هناك قصائد رائعة. تتمتّع بصوت متفرِّد، وطابع متفرِّد، وخيال متفرِّد، أريدُ أنْ أرسلها إلى صديقٍ لي في دار هولت».

قلت «إنها ليست جاهزة. يجب مُراجعتها».

قالت غريس، وهي تعرف ألاعيبي من غير أنْ تعرفني شخصياً، «يمكنكِ أنْ تُجري كل المراجعات اللازمة كأسلوبٍ لتفادي المُجازفة بنشرها».

وهكذا اضطررتُ إلى ترك ديوان «*فاكهة وخضروات*» (الذي كنتُ قد أرسلته إلى عدد من الناشرين) مع غراسيلا، غريسي، غريس. وبما أنني لم أكن أعرفها أرسلَتْه إلى روبن ليتل كيرياكيس في دار هولت، التي أرسلته بدورها إلى آرون أشر، الناشر.

ومرّت أسابيع. إنَّ ديواناً من الشِعر يبدو دائماً كورقة من وردة ترفرفُ هابطة إلى أسفل غراند كانيون، أما هذا فبدا أشبه بورقة من زهرة الربيع تنجرف داخل التواءات الزمن.

قلتُ لنفسي، وأنا أُعدُّها لتلقّي الضربة التي ستنهال عليّ حتماً: «إنهم يُحبونني، إنهم لا يُحبونني».

بعد مرور ما يُقارب الشهرين، وصلتني رسالة من أحد الناشرين، يعرض عليّ نشر الديوان، ورسالة من ناشر آخر، يعرض نشره، ورسالة ثالثة، يقول فيها الناشر إنني أول شاعرة بديلة (وهلّا زوّدته بالمزيد في العام التالي؟).

في اليوم التالي وصلتني رسالة من دار هولت، تعرضُ دون أدنى شك أنْ تنشر *«فاكهة وخضروات»*.

هل كنتُ سعيدة؟ كان رعبي أشدّ من سعادتي.

تولّاني الفزع، ثم إحساسٌ بالذنب، ثم بالخجل. لقد كسرتُ القاعدة - استسلمتُ للعروض الأربعة - والآن سوف يكتشفون أنني مُخادعة. كذبتُ على *ناشرين في يونيفرسيتي بريس المهيبة!* لم أكشف عن خطّتي الشريرة. كنتُ بائسة. حتماً لن يستطيع أحدٌ الآن أنْ يحميني. وخلال ثلاثين ثانية، حوّلتُ النجاح إلى فشل.

قلتُ في نفسي، وأنا أتقلّب من الأرق بجوار ألان «سوف يكرهني الشعراء. لقد ارتكبتُ عملاً لا أخلاقياً!».

كيف كان لي أنْ أعرف أنَّ الشعراء سوف يكرهونني أصلاً بعد كتاب *«الخوف من الطيران»*؟ وكيف كان لي أنْ أعرف أنّه لا سيطرة لي على ذلك؟

ذهبتُ أتناول طعام الغداء مع آرون أشر وسرعان ما جمعتنا علاقة حب. بعينيه الزرقاوين، وفكاهته الملتوية، والتاريخ الخرافي لنشر كتب شاؤول بيلو وفيليب روث. إذا أثرتُ إعجابه، فأنا جيدة *حتماً*. في ذلك الربيع نفسه نشر *«فاكهة وخضروات»*، ونَشَرَ لكاتبة مجهولة أخرى، كان اسمها توني موريسون، روايتَها الأولى *«أشدّ العيون زُرقة»*، كانت قد رفضتها جهة أخرى لأنه مَنْ يهتم لأمر طفلة سوداء قبيحة اسمها بيكولا حبلى بطفل والدها؟ وفي تلك الأيام، كان يُفترَض أنَّ السود من الناس غير الصالحين للقراءة، ويُفترَضَ أنَّ البيض لا يريدون أنْ يقرؤوا عن السود. أما آرون فكانت لديه ذائقة رفيعة - وأيضاً، وهو الأهمّ، الشجاعة.

قال آرون، الذي كان يُخطط لتأليف رواية بنكهة الشِعر: «قولي لهم إنَّ عليكِ أنْ تأتي إلى دار هولت لأنكِ أنتِ أيضاً تُخططين لتأليف رواية» (كم يبدو هذا الآن شيئاً قديماً!) «أخبريهم إنني أنا ناشر كل إنتاجك!».

على الرغم من فرحي لأنَّ عملي أثار كل تلك النزعة التملّكيّة، إلا أني بقيتُ أتألَّم. حاولتُ أنْ أكتب رسائل «شكراً لك ولكن كلا لا أريد»، أبعثها إلى ناشري يونيفرسيتي بريس، لكنني لم أستطع. شاعرة رائجة تعمل مع ناشر من نيويورك؟ أنا؟ روائيّة (وشاعرة) واعدة؟

كان آرون قد قال «اذهبي واكتبي رواية بالنبرة الشجاعة التي تتسم بها تلك القصائد».

رفضتُ أنْ أُصدِّق أنه كان جادّاً. واستمررتُ في تعذيب نفسي بسبب هذه النفحة الصغيرة من النجاح. لقد كانت كبيرة جداً مقارنة بمحاولات أمي الفاشلة ومحاولات جدّي الفاشلة. وبعد كل العمل المضني لأحقّق هذه الدَرَجة الأولى، لم يكن في استطاعتي أنْ أفكِّر إلا في تخريب صعودي وأسقط عائدة إلى عائلتي العُصابيّة.

هذا النموذج بقيَ يُلازمني طوال حياتي ككاتبة. لقد تردّدتُ، أعدتُ كتابة كتبٍ مرة بعد مرة وكان ينبغي أنْ أُخرِجها إلى العالم. أهو مسار خوفي؟ بل هو غضب عائلتي. التعرُّض لسخريتها - التي لا تعرف الغفران كسُخريتي.

عندما انتقلتُ إلى الغرب بعد نجاح *«الخوف من الطيران»*، اشتريت سيارة رخيصة، ماركة بيسر، بدل الرولز رويس كورنيش التي كنتُ أحلمُ بها. فيم كنتُ أفكِّر؟ في أنَّ سيارةً رخيصة ستجعلني محبوبة؟ لقد أردتُ أنْ أكون محبوبة أكثر من رغبتي في سيارة رولز. ولم أتمكن من العمل إلى أنْ كففتُ عن القلق حول ذلك.

وكونكِ محبوبة أمرٌ لا يتوقّف على الآخرين أكثر من توقّفه على أي شيء تفعلينه. والموهبة ليست محدودة. وهناك الكثير منها. والموهوبون يعرفون أنَّ في استطاعتهم أنْ يستغلّوا إنجازك كمصدر للإلهام. لكنَّ

أصحاب الأرواح الضئيلة يعتقدون أنَّهم بتحطيمك وتحطيم عملك أيضاً، فسوف يزدهرون. وهم مُخطئون طبعاً، لكنَّ هذا كله خارج عن سيطرتك. يمكنكِ فقط أنْ تنجزي العمل. وكما يقول ت. س. إليوت في *«الرباعيات الأربع»*: «أما ما تبقّى فليس من شأننا».

أخيراً واتتني الشجاعة لأخبر مطابع يونيفرسيتي بريس الصبورين بأنني مرتبطة، أو على الأقلّ متعهِّدة. ثم وقّعتُ عقداً مع هولت كما كنتُ أنوي أنْ أفعل. وبما أنني بعت كتابي، أصبحت بعد ذلك أستأجر وكيلاً ليأخذ جزءاً منه. وكيل يوحي بالثقة. وأحببتُ أنْ أقول «وكيلي» لوالدَيّ وأصدقائي. والمبلغ المدفوع مُقدَّماً لديوان *«فاكهة وخضروات»* كان ضخماً بالنسبة إلى الشِعر: 1200$. تلقّى الوكيل 120$، وامتناني المُتواضع، واختياري العمل على رواية عنوانها *«الخوف من الطيران»*.

انتبه، أيها العالم. ثمة شاعرة أخرى توشك أنْ تختفي وتغوص في الغراند كانيون.

ولكن كان عليّ أولاً أنْ أصنع لنفسي اسماً.

بدأتُ أنشر تحت اسمي قبل الزواج، إريكا مان، والذي لطالما كان، في الأصل، اسمي. ولكن عندما قال زوجي الفرويديّ بتشاؤم: «إنَّ الشاعرة ليس لها زوج» حطّمني إحساس عقيم بالذنب.

بدل أنْ أتراجع ببطء، قلت «طبعاً ليس لها زوج! إنَّ الشاعرات يتزوّجن من مُلهميهنّ!» وجعلته يعبسُ في وجهي ليدفعني إلى استخدام اسمه.

ولأكون مُنصِفة، كان يمكن أنْ يرضى باسم «إريكا مان يونغ». وأنا التي كنتُ خائفة من أنْ أتعرَّض للسخرية لأنني «شاعرة تحمل اسماً ثلاثياً». وعبثتُ باسم «إ. م. يونغ» (لكي أُخفي جنسي ذي المرتبة الثانية)، ثم باسم «إريكا أورلاندو» تيمُّناً بروايتي المُفضّلة[10]، ثم بـ«إريكا مان يونغ»

10- تقصد رواية *«أورلاندو»* لفيرجينيا وولف - المترجم.

تيمّناً باسم والدِي وزوجي. وأخيراً استقررتُ على اسم إريكا يونغ لأنَّ جرسه غامض، مُربِك، وله أربعة إيقاعات، كاسمي قبل الزواج.

كان قراري بإسقاط اسمي قبل الـزواج قـراراً أتحدّى به سخرية المناصر للتفرقة الجنسيّة، لكنني مع ذلك وقعت في فخ ذلك المناصِر. في عشرينيات عمري لم أكنْ قد عرفتُ بعد أنَّه *مهما* فعلت امرأة – استخدام أسماء ثلاثيّة، وإسقاط اسمها قبل الزواج، والإصرار على أنها «لوسي ستونرز[11]» (رمز للمرأة التي تحتفظ باسمها قبل الزواج كمبدأ) - سوف تبقى على خطأ لأنَّ خياراتها ببساطة لا يواجهها الرجال. وأخيراً تتعرَّض للسُخرية – كما حدث لهيلاري رودام كلينتون: فهي مُدانة إذا فعلتْ ومُدانة إذا لم تفعل، لكنها تُثير صيحة فرح سرّية في قلب كل امرأة.

ماذا يوجد في الاسم؟ خيبة أمل والدي لأنَّ اسمي لا يشرقُ مباشرة على اسمه. وحيرة ابنتي لحملها اسم شخص لم تُقابله قط. (سمّيناها مولي ميراندا يونغ-فاست. مولي لكي تزدهر وميراندا[12] لكي تدفعها العواصف كلها وتُعيدها إلى الوطن، ويونغ كـ *nom de plume* (كاسم مُستعار) وفاست اسم والدها وعائلته).

لكنَّ الاسم يُضفي أسطورة. إذا عومِلَ بازدراء لفكّ السحر الأسود الأبويّ، فإنَّ حاملته تزدري إلى الأبد اسمها الخاص.

كان اسمي حيلة، حيلة استهجان ألان، حيلة مناصر للتفرقة الجنسية يهزأ بـ«شاعرات ثلاثيات الأسماء»، حيلة إريكا مان[13]، ابنة توماس مان الكاتبة، التي ألهمتني اسمي.

إنَّ الخوف ليس سبباً وجيهاً لاسم. الاسم ينبغي أنْ يُتَّخَذ كعمل

11- لوسي ستونرز (1818 – 1893): مدافعة عن حقوق المرأة. كانت تصرّ على استخدام اسمها قبل الزواج، كنوع من الاستقلال بشخصيتها عن زوجها – المترجم.

12- إحدى شخصيات مسرحية شكسبير *«العاصفة»* – المترجم.

13- إريكا مان (1905 – 1969): الابنة الكبرى للكاتب الألماني توماس مان، ممثلة وكاتبة – المترجم.

تحرُّر، واحتفال، وتصميم. الاسم ينبغي أنْ يكون بمثابة تضرُّع سحريّ لإلهة الإلهام. الاسم ينبغي أنْ يكون مباركة للذات.

لسوء الحظ كان يمكن لاسم «إريكا أورلاندو» أنْ يوحي بعالم ديزني وفلوريدا للناس أكثر مما يوحيه اسم فيرجينيا وولف. واسم «إريكا بوركينا» تيمّناً باسم الشاعرة من أميركا الجنوبيّة التي أحببتها، كان سيُصبح في نهاية المطاف نكتة تشير إلى وزني. وفكّرتُ في أنْ أُسمّي نفسي «إ. م. ج. بارا» تيمّناً باسم نيكانور بارا[14]، وهو شاعر آخر مُفضّل لدي، لكنّه كان سيكون مُربكاً، حتى لي في نهاية المطاف. والأسماء المُصطنعة التي ابتكرتها لفترة مؤقّتة بدتْ كلها سخيفة تحت ضوء الشمس: إ. م. برونتي، إ. م. بلومزبري، إريكا دو يونغ. إلى جانب أنها كانت أسماء كاذبة بالنسبة إلى شخص كان كامل صراعه يدور حول بقائه صادقاً.

إنْ كنت امرأة وشاعرة، فليكن. وسرتُ مع اسم إريكا يونغ وجعلته جالباً للحظّ بتبنّيه. والآن أودّ أنْ أُضيف اسمي قبل الزواج، وشكراً في ذلك لهيلاري، وقد أفعل.

ولكن، للأسف، إنَّ اسم إريكا مان يونغ هو أبويّ كما اسم إريكا يونغ. وعندما كانت ابنة توماس مان، إريكا، لا تزال حيّة. كانت فوضى الأسماء تُزعجني. كان والداي قد قابلا توماس مان وأُعجبا به. وأحبّا اسم ابنته وتمنيا أنْ يحلّ الإبداع عليّ. واسم *إريكا* يعني بالألمانيّة زهرة بيضاء، ويعني ملكة باللغة الاسكندنافيّة، أما بالنسبة إليهما، فكان يعني *كاتبة*.

حينئذٍ كنتُ قد تعوّدتُ على اسم يونغ، الذي يتناغم مع كلمة فيت-كونغ، ودونغ، وبينغ-بونغ، وهاي-فونغ، وسونغ، تونغ، وlong, wrong, among, young. ويصلني بريد من قرّاء يُخاطبنني بـ«عزيزتي إريكا دو يونغ» و«عزيزتي إريكا مان يونغ» و«عزيزتي إريكا مان يونغ فاست بوروز» و«عزيزتي الكاتبة الأسيويّة-الأميركيّة» و«اسمعي أيتها

14- نيكانور بارا (1914 – 2018): شاعر ورياضيّ وفيزيائيّ من تشيللي.

الشرموطة الإباحية الشيوعيّة اليهوديّة - كان ينبغي على هتلر أنْ يقضي عليكم حتى آخر واحد!».

ماذا يوجد في الاسم؟ كل شيء ولا شيء. أحياناً أريد أنْ أكون فقط إريكا - على غرار كوليت (التي وقّعت للمرة الأولى باسم «ويلي»، ثم بـ«كوليت ويلي» ثم بـ«كوليت ويلي دو جوفينال») وأخيراً أصبحتْ كوليت. ولكن اسم «كوليت» كان، قبل كل شيء، كنية ولدها. ويصلح أنْ يكون معاً اسماً وكنية لشخص كان يمكن لولا ذلك أنْ يُصبح سيدوني غابرييل كوليت ويلي دو جوفينال غوديكيت.

في مجال أسماء النساء، أنا أؤمن بابتكار الذات: باسم يُجسِّد الرغبة. يجب أنْ تقبليه عندما تُكرّسين نفسك لعمل حياتك. ولا ينبغي لأي شيء أنْ ينزعك عنه.

هل تأخّر الوقت لفعل هذا بالنسبة إليّ؟ إنَّ اسمي ككاتبة أصبحَ مُلتحماً بصورة غريبة مع جوهري. وقد أستعيد اسمي قبل الزواج (الذي، قبل أي شيء، مجرد الـ*nom de theatre* الاسم المسرحي لوالدي: مان). وعلى مدى ثلاثة وعشرين عاماً، كنت «مان» بكل تحدٍّ. ثم استسلمتُ لزواج فرويديّ.

ربما مع الانتهاء من تأليف هذا الكتاب، سوف تظهر المؤلِّفة.

أمرٌ غريب أنْ يستغرق مني كل ذلك الوقت لأعثر على اسمي، لأنني في هايدلبرغ كنتُ محظوظة لأحصل على ذلك النوع النادر من التحليل الذي يضعُ أساس حياة كل فنان.

ما كان يمكن لتحليلي أنْ يحدث إلا عبر تدخّل ملائكة التحليل النفسي. إذا نجحت العمليّة، فذلك عادة بسببها. إنها تحوم فوق غرف الاستشارة في القارات الثلاث، تهبّ على الخاضعين للتحليل النفسي كرياح منفوخة الوجنتين ذات لحية على خرائط عتيقة.

عثرتُ، وأنا وحدي مع زوجٍ لا أستطيع أنْ أتحدث معه في هايدلبرغ،

عبر طبيب نفسي في نيويورك، على بروفسور يُدعى الهير دكتور ألكسندر ميتشرليخ. قيل لي إنه يتكلّم الإنكليزيّة. وتصادفَ أنه كان يمارس مهنته في هايدلبرغ.

كنتُ قد استشرتُ الطبيب المُشار إليه بشأن رُعبي من الزواج – خوفي من أنْ يستعبدني ذلك الزواج من أجل أداء الواجبات المنزليّة، التي تتعارض مع كتابتي.

كان المُحلّل قد قال «هذا هراء. إنَّ الرجال أيضاً يعملون في المنزل. يُشذبون العشب، ويُصلحون أغراضاً في المنزل، ويُخرجون القمامة. إنها مسؤوليّة متساوية، ألا تعتقدين؟».

لم أعتقد ذلك. ولكن لم تكن بحوزتي الحقائق المُناصِرة للمرأة لكي أُثبت كلامي. وبقيتْ المشكلة بلا حلّ. وحسبتُ أنني جُننت.

خلافاً لطبيب نيويورك الذي أوصى به، لم يكن الدكتور ميتشرليخ مع التمييز الجنسيّ. لم يكن يؤمن بالشِعارات المُبتذلة. كان قد فرَّ من ألمانيا خلال السنوات الاثنتي عشرة من الحكم النازيّ ليعيش ويمارس مهنته في سويسرا وإنكلترا. وانتظر انتهاء الحرب. وهذا لم يمنعني – أنا الجاهلة – من نَعتِهِ بالنازيّ وأنا على الأريكة، وهذا كان دائماً يجعل صمت الموتى يُخيِّم عليه.

كنا في شهر تشرين أول من العام الأول لمقامنا في ألمانيا عندما استقللتُ للمرة الأولى الحافلة إلى مكتبه. ولجتُ الفناء المرصوف بحجارة الرصف لعيادته التي يعود عهدها إلى القرن التاسع عشر بجدرانها الصفراء العالية. وغمزتني النوافذ الطويلة، المائلة من مكانها.

ارتقيتُ ثلاثة مطالع للدرج شديد الانحدار. كان الدكتور ميتشرليخ قابعاً في غرفة مكتبه المُدجّجة برفوف من الكتب. وكان سجّادٌ شرقيّ ممدود في كل مكان على الأرضيّة الخشبيّة. وهدَّدتني أريكة عتيقة الطراز للتحليل، ورفضتُ أنْ أتمدّد عليها.

قال الطبيب «إذن اجلسي قبالتي».

ورضختُ.

كان رياضيّاً طويل القامة، في ستينيات عمره. طويل الوجه، وعيناه جدّيتان ثابتتان بلون أزرق مع رمادي، ويضع نظارة سميكة لامعة مستطيلة الشكل مُربّعة بعض الشيء، من النوع الذي يجذب الانتباه كلّه.

كان يرتدي معطف العيادة الأبيض، ويضع ربطة عنق من الصوف القرمزيّ المنسوج، وينتعل حذاءً يُصدر صريراً ضعيفاً في أثناء المشي. بدا معطفه الأبيض كنوع من الـ*Engelhemd* أو «قميص الملائكة» (كما يُسمّي الألمان رداء المستشفى). والحق، لقد بدا أنه يجعله يبدو أشبه بملاك. وعندما بدأتْ أتكلّم، توجّه بكامل عينيه إليّ.

لماذا أتيت؟

كنتُ في حالة استعصاء في الكتابة، وحالة استعصاء في زواجي، وحنين إلى نيويورك، وسعادة لأنني بعيدة عن عائلتي. كنتُ في حاجة إلى زوجي. كنتُ أكره زوجي. كنتُ ضجرة من زوجي. أردتُ أنْ أكتب. لم أتمكن من الكتابة. لم أتمكن من إرسال أي عمل لأنني كنتُ في حالة مستمرة من المراجعة. كنتُ متوقفة في منتصف طريقي. كنتُ أعلم أنني لا أرغب في أنْ ينتهي بي الأمر إلى حالة الاستعصاء والإحساس بالمرارة.

بدءاً بالجلسة الأولى وما بعد عاملني بجديّة، وتعامل مع شِعري بجديّة - حتى قبل أنْ يُصبح لديه سبب لفعل ذلك.

سرعان ما استسلمت لأريكة التحليل، التي استطعتُ منها أنْ أستعرض عناوين الكتب بالإنكليزيّة، والألمانيّة، والهنغاريّة، والتشيكيّة، والفرنسيّة، والإيطاليّة، والإسبانيّة. وتذكّرتُ أحلامي وربطتُ فيما بينها.

بتنقّلي من الأحلام إلى الذكريات، إلى حياتي في هايدلبرغ، قمتُ ببساطة «بتعليم الحاضر التعيس كيف يروي الماضي»، إلى أن بدأ يتلعثم عند السطر الذي يقول «بدأتْ الاتّهامات قبل زمن بعيد» - كما يَصِفُ

أودن العمليّة في قصيدته عن فرويد. هناك الإبرة مغروزة الأخدود، تخز قلبي إلى أنْ عبّرتُ عن الألم.

التحليل النفسي هو استسلام - ومَنْ يُريد أنْ يستسلم؟ لا أحد. إننا نتقاتل إلى أنْ لا يتبقّى لدينا أي خيار، إلى أنْ يُصبح الألم عظيماً ويضطرنا إلى ذلك. إنَّ الذات تريد قوة وحشيّة - والصحة مطلوبة. الذات تفضّل الموت على الاستسلام. لكنَّ الحياة لا تكفُّ عن التشديد على ذاتها. وبقينا نتعثَّر بالعقبات نفسها إلى أنْ كان يوم، بعد حلّ بعض الخيوط البسيطة، بدتْ فيه الأرضيّة نظيفة بما يكفي لنا لنسير مسافة قصيرة من دون أنْ نتعثَّر.

واستمر الأمر هكذا - اثنين بعد اثنين، وثلاثاء بعد ثلاثاء، وأربعاء بعد أربعاء، وخميس بعد خميس، وجمعة بعد جمعة. أصبح الأمر أسهل بعض الوقت، ثم أخذ يزداد صعوبة. وأصبح مُضجراً، ثم لا يُطاق، ثم مستحيلاً من جديد. إننا نستمر وكأننا نتقدَّم ببطء في تأليف رواية نكرهها. لم يحثّنا على المتابعة إلا التزامنا حتى النهاية. ومع الاقتراب من الانتهاء، سطع النور من جديد، وكأنما من خلال كوّة في السقف.

كان مكتب الدكتور ميتشرليخ في هايدلبرغ يحتوي كوى في السقف. وبقيت تلك الكوى بمثابة مجاز لجأتُ إليه للتعبير عن الطريقة التي بدأ فيها التحليل يُلقي ضوءاً على ألمي. وأخذتْ الأيام الغائمة تتوالى دون توقّف. وأمطرتْ وأمطرتْ، كما يحدث دائماً في ألمانيا. وذات يوم، وجدت أشعة الشمس لها منفذاً.

بعد انتهاء العام الأول من تحليلي النفسيّ، نقلَ الدكتور ميتشرليخ مكتبه إلى فرانكفورت. كانت المسافة من شقّة الجيش الكئيبة تُقطَع بخمس عشرة دقيقة ركوب بالسيارة إلى هايدلبرغ بانهوف، وساعة ركوب بالقطار إلى فرانكفورت، وعشرين دقيقة ركوب بالحافلة إلى مؤسسة سيغموند فرويد.

نادراً ما كنتُ أشتاق إلى الجلسة.

كنتُ قد توقفت عن وصف الدكتور م. بالنازي - بعد أنْ عرفتُ أنَّ صمته كان يُخفي سُمعته كمُناهِض للنازيّة، وككاتب، وكباحث في الظروف التي جعلت النازيّة تنمو. والعبارة التي التصقت به هي ***مجتمع بلا أب***. كان قد أصبح مشهوراً بنظرياته عن الأسباب الكامنة للنازيّة. كان نجماً ولم أكنْ حتى قد علِمتُ بذلك. والأهم من ذلك، كان دائماً يُعاملني كأنني ***أنا*** نجمة قبل أنْ أصبح كذلك بوقت طويل. وإيمانه بي جعل كامل حياتي الخلاّقة أمراً ممكناً.

تنقّلتُ بين هايلدلبرغ وفرانكفورت وكأنَّ حياتي تتوقف على ذلك. وقد كانت كذلك فعلاً.

كنتُ أغادر المنزل عند الساعة السابعة وعشرين دقيقة وأصل إلى محطة هايلدبرغ في الساعة السابعة وخمس وثلاثين دقيقة، وأركنُ سيارتي الفولكسفاغن الخنفساء الـ Beetle (كنت أحبّ أنْ أقول Beatle)، وألحقُ بقطار الساعة السابعة وخمسين دقيقة المتوجّه من فرانكفورت إلى دارمشتات، وأصل إلى فرانكفورت بانهوف عند الساعة الثامنة واثنين وخمسين دقيقة، وأنتظر حافلة الساعة السابعة وسبع دقائق (في أية حالة جوية)، ثم أمشي مسافة قصيرة وأُصبح في غرفة الانتظار في مؤسسة الدكتور م. بحلول الساعة التاسعة وأربعين دقيقة. كانت ساعتي تبدأ في العاشرة تماماً.

لم أكن أجري مثل تلك الترتيبات المعقّدة واحتفظُ بها، إلا عندما أكون عاشقة.

أعتقد أنني كنتُ كذلك.

على مدى أربعة أيام في الأسبوع، كنتُ أقوم برحلة العودة الطويلة نفسها، أهرع لألحق بقطار الساعة الثانية عشرة ونيف، وأصل إلى شقتي في هايدلبرغ بحلول الواحدة والنصف أو الثانية.

كنتُ أقوم بتسوُّق البقالة، وأقضي ثلاث ساعات في الكتابة، وأُعدّ وجبة العشاء. وفي الليل كان الهرج والمرج يسود بين أفراد الجيش

بحضور الضباط وزوجاتهم. وكانت الرحلة الشاقة إلى فرانكفورت تبدو دائماً تستحق العناء. ولم يكن قد تبقّى إلا يومين عندما خرّبتُ جدول الجلسات حين فاتني القطار. وفي مناسبتين وقفتُ على الرصيف أحدِّقُ خلفه وهو يبتعد.

أصبحتْ حياتي متعلّقة بالقطار. كنتُ أقرأ، وأكتب في دفتري، وأخطّ القصائد والقصص. كانت حركة الاهتزاز تُهدِّئني وتراودني خيالات جنسيّة. كنتُ أدوّنها، وأصنعُ منها حكايات خرافيّة، وأناقشها مع الدكتور م.

ويمكن القول إنَّ كتاب *«الخوف من الطيران»* نتج بصورة ما من تلك الرحلات بالقطار. وعلى متن القطارات يمكن لك أنْ تحلمي بأنَّ الرجل الجالس أمامك سوف يخلع نظارته السميكة، ويتعرّى حتى تظهر عورته الوحشيّة ويمارس معك جنساً شبِقاً في نفقٍ لا ينتهي، ثم يختفي كمصّاص دماء داخل أشعة الشمس. إنَّ القطار يهزّك جيئة وذهاباً وأنت تحلمين أحلاماً جنسيَّة. إنه يزيل الحاجز الرطب بين الداخل والخارج ويمزجهما. وقد استقللتُ قطارات دونَ أنْ ألمس نفسي. إنها فقط مسألة تركيز. كان هو (أو هي) المستحيل يحلُّ فيَّ. ويستولي عليّ التخيُّل. إنَّ الزمن يتوقّف عندما يهتز القطار. وفجأة يمتلئ الحُجر بالنجوم.

بعد مضيّ ثلاث سنوات، افترقتُ عن الدكتور م.، واعدة بأنْ أكتب. وفعلتُ: رسائل، وقصائد، وروايات.

كان قد بيَّنَ لي السبيل إلى ذلك. علَّمني أنْ أتحلّى بالشجاعة وأغوص عميقاً داخل نفسي. إنَّ اللا وعي مملوء بالظلام، وبالبدائل الأوديبيّة، وبالأساطير المُحطّمة، وبالحكايات غير المُكتملة. يهبط إليه سُلَّمٌ متداع درجاته عفنة. وثمة سلّمٌ آخر ذهبيّ قد يوصلكِ إلى النجوم. ولكن عليكِ أولاً أنْ تعثري على نفسك في الظلام. وإذا لم تعرفي نفسك، كيف يمكن أنْ تعثري على أي شيء؟

يسأل توماس مرتون «كيف يمكن أنْ أتلقّى بذور الحريّة إنْ كنتُ عاشقاً للعبوديّة وكيف يمكن أنْ أرعى الرغبة في الله إنْ كنتُ مملوءً

برغبة أخرى ومُضادة؟ لا يمكن لله أنْ يزرع حرّيته فيَّ لأنني سجين ولا أرغب حتى في أنْ أكون حراً».

لقد جعلتني رحلة التحليل النفسي *أرغبُ* على الأقلّ في أنْ أكون حرَّة.

«إنَّ الفرح الحقيقيّ الوحيد في العالم هو الفرار من سجن ذاتنا الزائفة» - يقول مرتون من جديد. وكان يصِفُ البحث عن حياة التأمّل. لكن الكتابة تتطلَّب أيضاً الحياة التأمُّليّة.

إنَّ التحليل النفسي اليوم مرفوض بوصفِهِ نخبويّ، وينطوي على تفرقة جنسيّة، وانغماس في حب الذات. ولا أوافق على هذا. كيف يمكن أنْ تُحبّي نفسك كامرأة إذا كنتِ تنظرين إلى نفسك من خلال جدار من السكاكين؟ وكيف يمكنكِ أنْ تُحبّي أُختك إذا كنتِ تعتبرين أنَّ تلك السكاكين مصنوعة من الفولاذ وليس من مخاوفك؟ إننا بوصفنا نساء نحتاج إلى أنْ نعرف أنفسنا أكثر من أي وقت سابق. نحتاج إلى حقائق اللا وعي أكثر مما احتاجت أمهاتنا وجدّاتنا. إنَّ السخرية واليأس يغويانَنا. إننا خائفات من الوقوع في شِباك الحب. ونفضّل «الرفاهية العفنة لمعرفة [أنّنا] ضائعون» حسب تعبير توماس مرتون.

يمكن للتحليل أنْ يكسر اليأس. يمكن أنْ يكون صلاةً وتأمّلاً معاً. لكنه يتطلَّبُ رغبة قويّة في التغيير.

عندما غادرتُ ألمانيا، كنتُ أكتبُ بسلاسة. وما زلت أُعذّبُ نفسي، ولكن ليس إلى درجة التحليل الصِرف. ما زلتُ أسيرة فخّ نفسي اليائسة، لكنّني على الأقلّ عرفتُ أنَّ اليأس هو هروب من التغيير.

رجعتُ إلى الولايات المتحدة مع مخطوطات شِعري. ورجعتُ إلى المنزل وأنا نحيلة حقاً. لم يكن ذلك من أهداف التحليل النفسي، ولكن أصبح لديّ أسباب أقلّ للاختباء.

قرّرتُ، وأنا في السابعة والعشرين، أنْ أكون كاتبة. رأيتُ أنني أصبحتُ

بالغة بالمقارنة مع نيرودا، الذي بدأ ينشر وهو في التاسعة عشرة، ***وبالغة*** بالمقارنة مع إدنا سينت فينسنت ميلاي، التي كتبتْ «نهضة» وهي في العشرين، ***وبالغة*** مقارنة بمارغريت ميد، التي كانت قد أضحت فعلاً شخصية عالمية مشهورة وهي في السابعة والعشرين. لذلك أعطيتُ نفسي مهلة حتى سن الثلاثين لأحقّق النجاح، مُعتقدة أنه حالما يُنشَر ديوان الشِعر، سوف أصبح سعيدة إلى الأبد. كان الأمل هو قوّتي الدافعة.

كيف كان لي أنْ أعرف أنَّ كاتباً له كتاب منشور هو أبعد مخلوقات الأرض عن السعادة؟ لقد سمّانا هنري ميللر بـ«أظافر القدمين النامية نحو الداخل». إننا نجلس على مدى سنين عديدة نضع الخطط، ونُنظِّف سُرَرَنا من النُسالة، ولا نعرف إلّا ذلك السقوط المفاجئ؛ النشر – الذي غالباً ما يؤكِّد أسوأ مخاوفنا، بنشر أشياء لا يقولها عنّا إلّا أسوأ أعدائنا.

إنَّ المهنة، بالنسبة إلى امرأة، محفوفة بمخاطر مُضاعفة. وعاجلاً أو آجلاً تنهض الكاتبات لمواجهة مشكلة أنَّ امرأة تبرع في استخدام القلم هي دائماً منبوذة.

إنَّ المتوقَّع من الكاتبات أنْ يكنَّ مُرشِدات في خوض مستنقعات حب الجنس الآخر. يُسمَحُ لنا أنْ نكون روائيات لأدب خفيف (يرعاهن أصحاب الأموال الذين يُديرون الكتل الضخمة)، لكنَّ حشود النقد الأدبي يرفضوننا بوصفنا سيدات القذارة. ويُسمَح لنا أنْ نكتب قصصاً خرافيّة حسّية لكي تستخدمها نساءٌ أُخريات كمُسكّنات، كمُهدِّئات لكي يرضين بقدرهن الرهيب. وعندما لا نفعل، بل ننفّس عن أنفسنا بدل الهجاء أو خلق عوالم خياليّة منحرفة، نُلام ليس على كتُبنا بل على ***أنوثتنا*** الناقصة، بما أنَّ ***الأنوثة*** هي، تعريفاً، عيب.

لماذا؟ لأنها ليست رجولة.

ولكن إلامَ كانت ستؤول حياتي لو أنني وُلِدتُ رجلاً؟ إنَّ زوجي يُحاول أنْ يُقنعني بأنه بالنظر إلى مواصفات عائلتي، كان يمكن أنْ أُجبَر على العمل الشاق في صناعة الحِلِي الرخيصة ولَمَا أصبحت كاتبة أبداً.

يقول «لم تنجي من ذلك المصير إلا لأنكِ امرأة. لو أنكِ كنتِ ولداً لأمضيتِ حياتك تعملين بائعة متجولة للهدايا».

لعلّه على صواب، لكنني أرى صورة مختلفة. أرى نفسي وقد مُنِحتُ تلقائياً لقب الذَكَر المُبدِع: إنَّ رجلاً يكتب لا يُعتبَر تلقائياً مُغتصِباً للمكانة.

إنَّ الكاتب الذَكر ينبغي حتماً أنْ يعثر على خصوصيّته، ولكن هل عليه أيضاً أنْ يُقنِع العالم أولاً بأنه يحقّ له أنْ تكون له خصوصيّة؟ والمرأة الكاتبة ليس عليها فقط أنْ تخترع الدولاب، بل وأنْ ترعى نمو الشجرة ثم تقطّعها، وتُنَجِّره وتشكّله، وتتعلّم كيف تجعله يدور. ثم ينبغي عليها أنْ تمهِّد الطريق لنفسها (على الرغم من صيحات استهجان الفضوليين).

وحتى يومنا هذا، عندما يتم استعراض كتاب لامرأة مقابل ثلاثة كتب بأقلام رجال، فليس مقبولاً ذِكر النِسب المئويّة. فليس من اللياقة في معاملة المرأة تذكّر هذا، ولكن لصالح عدم اللياقة العنيدة في معاملتنا، سوف تبقى النسبة واحد إلى اثني عشر.

لطالما تطابقتُ مع أبطال من الذكور التي وردت في كتب عهد طفولتي المُفعَم بالكتب، وأخيراً حاولتُ أنْ أكتب روايات عن حياة التشرُّد للنساء. في أول الأمر فعلتُ ذلك بلا وعي (*الخوف من الطيران، كيف تنقذين حياتك*). ولاحقاً صرتُ أفعل ذلك عن عمد، ساخرة من أسلوب قصص حياة التشرُّد نفسه كما في: *فاني: التاريخ الحقيقيّ لمغامرات فاني هاكابوت-جونز*. وقد دفعني سؤال فيرجينيا وولف «ماذا لو أنّه كان لشكسبير أخت؟» إلى التساؤل «ماذا لو أنَّ توم جونز كان امرأة؟» وإلى مُطابقة حبي للقرن الثامن عشر مع إجرائي بحثاً عن قَدَر إحدى نساء القرن الثامن عشر.

في ذلك الوقت كنتُ قد عرفتُ أنني من غير وعي طابقتُ شكل بطل ذَكَر مع حياة امرأة غير بطوليّة. وكان ذلك هو الجانب المرح.

كان يُسمَح للمرأة بتأليف بضع قصص بطوليّة. وكانت إعادة إحياء

النموذج الأصلي لإلهة الذئب أو القمر قد بدأتْ مؤخَّراً. في ظل النظام الأبويّ، كانت قصص النساء تنتهي حتماً بالزواج أو بالموت. وكل البدائل الأخرى كانت تُعتبَر غير صالحة للرواية.

بوصفي كاتبة مبتدئة في هايدلبرغ، فكّرت في لغز هذه الحدود وقرّرتُ أنْ أكتب روايتي الأولى من منظور ذَكَر. أطلقتُ على الرواية عنوان *«الرجل الذي اغتال الشعراء»*، وتماديتُ فيها إلى أبعد ما استطاعت مُحاكاتي لعالم مرايا نابوكوف أنْ تأخذني. ولكن ليس بعيداً جداً. وبما أنني لم أكن أعرف شعور الرجل جسدياً، توقّفتُ، وتركت الكتاب ناقصاً.

اليوم ربما بات في *استطاعتي* أنْ أكتب من وِجهة نظر رجل. لقد عشتُ مع عدد كافٍ من الرجال بحيث أعرف مشاعرهم وكأنما من الداخل. لكنني الآن أعرف أيضاً كم تحتاج المرأة إلى أنْ تروي قصصها الخاصة.

قال أحدهم، إنَّ كل كاتب هو إما رجل أو امرأة. ولكن بالنسبة إلى الرجل، هناك قالبٌ يجب كسره أو مشايعته، وبالنسبة إلى المرأة، هناك فراغ يُغوي. إنَّ الكُتّاب في المعتاد يبني كلٌّ منهم على أساسات الآخر. هنا أتذكّر مدن جبيل، وسبليت، واسطنبول. إنَّ حُطام حضارة ما يُعاد استخدامها لتصميم حضارة أخرى. والنساء الكاتبات دائماً يَتُقْن إلى مثل ذلك الحطام الغنيّ والخلاّق. وبما أنه مُقدّر لنا أنْ نبدأ من الصِفر، فقد بدأنا سجلات حضارتنا بدُفعات وبدايات. إنَّ الكبيرات بيننا أُسدِلَ الستار عليهن، وأساطيرنا مُحيَتْ. ويبدو أننا دائماً نُصغي إلى كتب ذكور مشاهير وهم يحكون لنا ما *ليس* نحن عليه.

خلال السنوات القليلة الماضية، ابتكرنا بعض الصيغ الجديدة ونبشنا بعض التقاليد القديمة. لكنَّ السماح لنا بأنْ نكون مُبدعات ما زال أمراً غريباً إلى درجة أننا نميل إلى أنْ تُعامِل كلٌّ منا الأخرى بخسّة. إننا نفضّل أنْ تشجب إحدانا الأخرى على أنْ نشجب الذي نصَّبَ نفسه مُعلِّماً علينا وجعل منّا منافسات.

بوصفنا مناصرات لحقوق المرأة، نطلبُ من الأدب أنْ يفعل أكثر مما في استطاعة الأدب أنْ يقوم به: مقاومة الثورة، ودفن الموتى، وإقامة التماثيل لبطلاتنا المُفضّلات. وهذه ليست الوسيلة المناسبة لاستفزاز أدب يعكس الحياة. إنَّ الحياة أشد فوضى مما تسمح به السياسة عادة بكثير، وأقلّ مُلائمة مما يُظنّ. إنَّ الحياة هي فقط *الأمر التالي الذي يحدث ولِمَنْ*. وبطلبنا من الحياة أنْ تكون ذات طابع سياسيّ عن عمد وإصرار، إنما نخذل حاجتنا إلى الحلم، إلى الاختراع.

باسم مناصرة حقوق المرأة، حُرمت بعضُنا النساءَ من أنْ يكنَّ خالقات عابثات. وجدير برائداتنا - ميري وولستونكرافت، وميري شيلي، وجين أوستن، وإميلي ديكنسون، والأخوات برونتي، وجورج صاند، وكوليت، وفيرجينيا وولف، وسيمون دو بوفوار، ودوريس ليسينغ - أنْ يُصَبْن بالرعب من رؤيتنا نبعد اللعب والحرية عن فنّنا. إنَّ اللعب هو الأساسي للحريّة. إذا أصبحنا فنانات للدعاية السياسيّة، فيمكن أنْ نكون قد وُلِدنا في إيطاليا موسوليني، وألمانيا هتلر، أو اتحاد سوفييتي ستالين. ينبغي على المدافعين عن حقوق المرأة فوق كل شيء أنْ يُقاتلوا من أجل نيل حريّة التعبير، لأنّه من غيرها سوف يُحكَم علينا بالصمت - بحجّة «اللياقة».

ولكن عند نشر ديوان *«فاكهة وخضروات»* في عام 1971 لم أكنْ أعرف أيّاً من هذه الأشياء.

لقد خرجت من المنبع نفسه الذي خرج منه ديوان جرمين غرير *«الأنثى الخَصِيّة»*. ومع الانفجار الجديد لحركة تحرير المرأة، استُقبِلَ استقبالاً حافلاً. أقصد ديوان الشِعر.

أقام ناشري حفلة في كشك فخم للفاكهة والخضار، اسمه سوق الشتاء في الجادّة الثالثة. وُضِعَتْ أوعية براقة من الفاكهة على الرصيف. ولمعتْ ثمار الليمون والبرتقال تحت أشعة الشمس.

ارتديتُ سروالاً داخلياً صغيراً جداً ومُخرّماً قرمزيّ اللون وقميصاً

يتماشى مع جيوب وُضِعَتْ بشكلٍ استراتيجيّ فوق الحلمتين. كنتُ آمل مع نظّارات قرمزية أنيقة، وحذاء قرمزي، أنْ أبدو غير لائقة بصورة لائقة - كما كان مطلوباً في عام 1971.

كان الشعراء والناشرون يتجوّلون، يأكلون كباب الفاكهة ويتبادلون العبارات والنكات اللاذعة.

جلستُ على صندوق من البرتقال، أقرأ قصيدة عن بصلة:

«أفكّر في بصلة من جديد، بفميها
على شكل O، أشبه بثقبين فاغرين في لا أحد. في
السطح الخارجي، الأسمر المائل إلى الورديّ، مُقشّر ليكشف
عن منطقة تميل إلى اللون الأخضر، أصلع ككوكب ميّت، زلق
كزجاج، مع رائحة أشبه برائحة حيوان. إنني أعتبر
مقدرته على استجلاب الدموع، مقدرته على تفحّص الذات،
على تقشير نفسه، قشرة بعد قشرة، بحثاً عن
قلبه الذي هو ببساطة منطقة أخرى من السطح، ولكن
أعمق وأشدّ خُضرة. أتذكّر بير غينت. أحياناً
أفكّر في قلبه المُضاعَف أحياناً...

غرقت طبقات قشوري في ضجيج الحفلة. كانت كارين ميندر، وكيلة الإعلانات الشابة الجميلة التي نظّمتْ الحفلة، قد نجحتْ بصورة مُذهلة في إحضار فريق أخبار المساء. (يوم بطيء في فيتنام، أعتقد).

صوّروني وأنا جالسة على صندوق البرتقال، أُلقي أبياتاً غير مسموعة عن البصل. كان فخذاي في وضع استعراضيّ. كذلك كان صندلي ذو الكعب العالي والضيق.

قال الصوت العالي «لا يحدث هذا إلّا في نيويورك، حفلة لكتّاب في سوقٍ للفاكهة والخضروات».

سأل المُعلّق اللحّام «ما رأيك في الشِعر؟».

مضغ طرف السيجار الكبير وقال «بصراحة، أنا أُفضّل *اللحم*».

سأل المُعلِّق، وهو يحثّه، «أحقاً؟».

«الفاكهة لذيذة، ولكن لا شيء يُضاهي قطعة جيدة من صدر حيوان».

عندما يكون الاختيار بين اللَّحم والشِعر، تكون دائماً الكلمة الأخيرة للَّحم.

عرضت أخبار المساء المقابلة مرّتين، ولم تذكر اسم الكتاب، أو اسم الناشر، أو اسم المؤلِّفة.

في كل الأحوال انتشرتْ القصائد في العالم، وعادتْ جالبة معها أخبارها الخاصة. وبدأتُ أتلقّى الرسائل، والدعوات، والمراجعات، وصوراً ملوّنة لرجال عراة، وسِلالاً من الفاكهة، والبصل، والباذنجان. وعُرِضَتْ عليّ قراءات، وجوائز الشِّعر. والمجلَّات الصغيرة التي كانت قبل ذلك قد عاملتني بعجرفة دعَتني الآن إلى إرسال مواد. وطُلبَ مني أنْ أُدرِّس الشِّعر في مقامي، الشارع الثاني والتسعين Y.

كنتُ أجتمع بطلابي حول طاولة غرفة الجلوس في شقة ويست سايد التي تقاسمتها مع ألان يونغ. حيث باشرت بكتابة قصائد، وأعدتُ كتابة أخرى، وأزهرتْ علاقات حب، وماتت زيجات. لقد أعطاني طُلّابي دروساً في الشِّعر وفي الحياة.

جمعتُ قصائد جديدة في ديوان سمّيته ***«أشباه حيوات»***.

سأل آرون «أين الرواية؟».

أقسمتُ على أنها «قادمة». لكنني كنتُ لا أزال أتلكّأ مع ***«الرجل الذي اغتال الشعراء»*** وكنتُ أعلم أنه لا يمكنني أنْ أعرض عليه ***هذه***. (وأخيراً قدّمَ لي معروفاً عظيماً ورفضها، وشجّعني على كتابة رواية بالنبرة التي اكتشفَتْها قصائدي).

في شهر تموز عام 1971، انطلقتُ مع ألان للاشتراك في مؤتمر للتحليل النفسي في مدينة فيينا - وكانت المرة الأولى التي يعود فيها مُحلِّلون نفسيُّون إلى فيينا منذ أنْ فرَّ فرويد هرباً من النازيين عام 1939.

كانت آنّا فرويد حاضرة. وكذلك برونو بتلهايم، وإريك إريكسون، وألكسندر ميتشرليخ.

وصل طبيب نفسيّ شاب ووسيم من إنكلترا يلبس مسبحة الحب ويرتدي *الكورتا* الهنديّة. ووقعتُ في حبّه كوقوع طنٍّ من كتب الطب النفسي.

وأصبح لاحقاً مُلهِمي لتأليف روايتي الأولى[15].

15- وكان هذا المؤتمر المذكور هو نواة أحداث روايتها «*الخوف من الطيران*» - المترجم.

-8-

الخوف من الشهرة

«كان الطموح معبودي، وانكسر،
على مذابح الحزن والسرور...»

• جورج غوردون، اللورد بايرون، من *«دون جوان»*

«لو أنَّ كتبي كانت أشدّ رداءة، لما دُعيتُ إلى هوليوود، ولو أنها كانت أفضل، لما لبّيتُ الدعوة».

• ريموند تشاندلر، من *«منتخبات من رسائل ريموند تشاندلر»* تحرير فرانك ماكشين.

«حذارِ مما قد ترغب فيه في شَبابك لأنك سوف تحصل عليه في منتصف عمرك».

• غوتّه.

كانت زيارة فيينا هي غوصٌ من جديد في الماضي النازيّ. ولطالما كان *الذهاب إلى أوروبا* عذر أفراد عائلتي للغوص في النزّ البدائيّ لوجودهم. كانوا جميعاً رحّالة عِظاماً وناقمين عِظاماً. كانت أوروبا هي المكان المناسب لجمع المال، لإحياء الأحلام، والمُثُل العليا، والقصص، والجنس. كان جدّي قد حلُمَ بباريس عند منعطف القرن

الجديد طوال حياته في نيويورك. وحلُمَتْ أمي بمعرض باريس عام 1931 بما يحتوي من نماذج لمعبد أنغكور وات الهندوسي، وبالشبان الوسيمين الذين كانوا يُلاحقونها وهي بجواربها الحريريّة الطويلة وتعتمر قبعتها الواسعة الظريفة. وكانت هي وخالتي تثرثران حول بريمين (لاحقاً أصبح اسمها *ليبرته*، وهي أول سفينة عتيقة وبطيئة عبرتُ أنا أيضاً المحيط على متنها)، حيث كان الشبان النازيون بشعرهم الصقيل اللمّاع والعطر برائحة البنفسج يُلاحقونهما خلال سوق الأعمال اليدويّة، دون أنْ يعلموا أنهما *يهوديّتان*. (كانت أمي دائماً تحظى بالعدد الأكبر من المُعجبين) من *بريمن* حتى *ليبرته*، تبعنا خُطاهما.

كان تراثاً عائلياً: أوروبا كانت تعني الجنس بالنسبة إلينا – المكان الذي يتقاعد فيه الإحساس بالذنب، وتومض راقصات الكان-كان، ويذوب الشبان الذين تقبلينهم تحت الجسور في نهر السين، أو التايمس، أو آرنو، دون أية عواقب. كانت أوروبا تعني قضاء ليلة حب مع شبان يكادون لا يعرفون أية كلمة من لغتك وبالتالي لا يستطيعون أنْ يُفشوا السرّ. كانت أوروبا هي الشِعر والملذات الحسّية والخمر والجبن وأرض أميرات الرقصات الاثنتي عشرة. لا شيء كان يُحسَب له حساب هناك. فقبل كل شيء، لقد خرجنا إلى الحرية في الوقت المناسب. إنَّ المِحرقة لم تستهلكنا. لكننا لعبنا بالخطر عند حافة اللهب، ولعقنا الجنس، والدعوة إلى الحريق. وكوننا نجونا في اللحظة الأخيرة من أكبر مذبحة في التاريخ جعلت من أوروبا الأكثر جاذبية بالنسبة إلى يهود أميركا من جيل بعد الحرب. إنَّ الله لم يخلق إلا قوّتين – الحب والموت – وكلما اقترب أي منهما أكثر أصبحتْ الحرارة عُظمى.

عندما كانت جدَّة زوجي الحالي البالغة من العمر 101 عاماً تُسأل «ألا ترغبين في الذهاب إلى أوروبا، يا جدّتي؟» كانت تُجيب «لقد ذهبتُ إلى هناك».

لكنَّ عائلتي لم تُدِرْ ظهرها أبداً للبلد القديم. في فصل الصيف الذي

بلغتُ فيه الثالثة عشرة من العمر، ذهبتُ إلى أوروبا على متن *ليبرته* مع والديّ، أجرُّ معي حقيبة من مواد التجميل مملوءة بخمسة عشر إصبعاً من أحمر الشِّفاه، وعشرين لوناً لطلي الأظافر، خلال فنادق غروسفينور هاوس، وجورج الخامس، وتريانون بالاس في فيرساي. وغازلت كل عمّال المصاعد الأقزام أولئك داخل أقفاصهم الذهبيّة الصاعدة. ورقصتُ مع متودِّدين وسمّيتهم pursuers. وفي الصيف الذي بلغت فيه عمر التاسعة عشرة، حزمتُ أمتعتي للذهاب إلى فندق توره دي بيلوسغواردو في فلورنسا لكي أدرس الإيطاليّة، وفي الصيف الذي بلغت فيه سن الثالثة والعشرين، رجعتُ لكي أفعل الشيء نفسه من غير اللجوء إلى الذريعة الواهنة للمدرسة الصيفيّة.

وقعتُ في حب إيطاليا وكأنها رجل - رجل مزوَّد بعدد من الـ *campanili* (الأجراس). ولطالما كانت إيطاليا بلد الحب. وما زال - على الرغم من زجاجات البلاستيك والواقيات الذكريّة التي تُجرف على الشواطئ الملوّثة والشخصيات البارزة تعني الآن زيارة إلى السجن.

تقول اليافطة *Willkommen in Wein* (أهلاً بكم في فيينا). لم تكن تلك إيطاليا، لكنها قريبة منها. وعبر جبال الألب مباشرة تمتد أرض النكاح، وحذاء الرقص العنيف، وصقلية التي ترفس الأفق اللّازَوَرديّ. فيينا تغني على الرغم من أنها كانت مزدحمة بالنازيين وبالمُحلِّلين النفسيِّين وعلى الرغم من أنني كنتُ مع زوجي.

سرعان ما تدبّرت هذا الأمر، وأنا أنظر وفي الوقت نفسه أقع في حب بطل غير مناسب بصورة مُناسِبة - طبيب نفسي هيبّي لانغي Langian راديكاليّ ذو عينين خضراوين رائعتين (إحداهما جدار)، وشعر أشقر شعث، وفيض من الحيويّة. كل ما أردتُ كان علاقة عابرة أُخفّف بها ملل العلاقة الزوجيّة، لكنني انتقيت شخصاً مُختلّاً عقلياً أشدّ ما يحبّ كان العبث بحيوات الآخرين - ومع زوجات مُحلِّلين نفسيِّين آخرين.

كان اسمه الحقيقيّ سخيفاً إلى درجة أنه ما كان يمكن أنْ أستخدمه في

كتاب. واستعضتُ عنه باسم «غود لوف» - على أمل أنْ أُقدِّم نسخة عن زوج كلاريسا السيد لوفليس. وفيما عدا ذلك جعلته في الغالب يُخفِق. إنَّ الوقوع في شِباك الشهوة العارمة يؤدي إلى الإخفاق. والجموح يؤدي بالعاشقة إلى لعب رمي السِهام مع الهدف من اضطرابها العاطفيّ. إنَّ رمي السِهام يتماشى مع الحب. حتى إله الحب يلجأ إليه. وبما أنني طُعِنتُ في قلبي، فإنني انتقمتُ بالطريقة نفسها.

في كل المناسبات العامة - وجبات العشاء على نهر الدانوب، والولائم في المستشفى، ومؤتمرات نجوم طب التحليل النفسي اللامعة الذين يضعون سماعات الآذان - كنا نستعرض أساليبنا في المغازلة. ولاحظ الجميع ذلك. وكان من المُفترَض أنْ يفعلوا. كان ذلك يمنحنا الحافز الذي نحتاج. لم نكن نرغب كثيراً أنْ نتناكح بقدر ما رغبنا في أنْ نُثير حفيظة كل شخص آخر - خاصة حفيظة زوجي وطبيبي النفسيّ. لكنَّ طبيبي النفسي لم يكن يُراقب. وحده زوجي كان يفعل.

بعد محاولة أوّلية في نُزُل فاينر حيث كان كل البريطانيين ينزلون، علِمتُ أنه لا يمكن الاعتماد عليه في السرير. وفي كل الأحوال كنتُ مجنونة به. كان حديثه يغويني. لم يكن يرغب في أكثر من أنْ يأخذني إلى أعماقي. وتركته يغويني. لقد كان الغاوي الذي أبحثُ عنه.

أول ديوان شِعرٍ لي صدر في ربيع ذلك العام وكنتُ أنتظر جائزتي. لطالما جعلني نشر أحد الكتب نهمة إلى العماء. إنَّ الكتاب ينظم مقطعاً من الحياة ويضع نهاية له. كانت تلك المرحلة قد انتهت. وهناك أخرى توشك أنْ تبدأ. وبحثتُ عن طوف يقلّني إلى اتخاذ قرار لا عودة عنه. وكان الطوف هو دائماً رجل.

أتيتُ، شاهدتُ، وانتصرت. وحيلتي لتحويل العبد إلى سيّد لم تخذلني. وأسرع نبض قلبي وكسّي بذلك الوشم القديم: *خذني، خذني، خذني وإلا سوف أموت.*

بقيتُ وزوجي يقظَين طوال الليل نُحلِّل الجاذبيّة. كان من المُفترَض

بذلك أنْ يقضي عليها، لكنّ كل ما فعل أنه جعلها أشدّ حِدَّة. وبما أنَّ كل كتاب هو بمثابة إزالة قشرة أخرى، كنتُ حينئذٍ مسلوخة الجلد. أردتُ أنْ أُربّي لحماً جديداً لكي أُغطّي الدم.

وهذا ما تفعله العلاقة الغراميّة - تُنمّي كساءً جديداً، ولو كان مجرد نسيج ندبة. وليس ضرورياً أنْ يتضمّن الأمر حبّاً. لقد كان الرجل جميلاً في عيني. لكنّه أثارني، وبدت تلك الإثارة أشبه بالحب.

بعد مرور أسبوعَين على ذلك، انطلقنا معاً في سيارته الـ MG لا نعرف لنا وِجهة. تصرّف وقح، مؤامرة لقتل الملك. ألان كان الملك، وأنا كنتُ القاتلة. أردتُ أنْ أقتل الملك داخل رأسي. الشطرنج لم ينفع. على الرجل أنْ يكون لحماً. وهو كان يريد أنْ يتكلَّم، أنْ يتفلسف، أنْ يتحدّى، لا أنْ ينكح. وعلى خُطى عُشّاقي كلهم، كان يُريد أنْ يُثير التهوُّر في صدري. قال «لا تريدين، إذن لا تستطيعين». قلت «أستطيع! وسوف أفعل!».

يا لها من طريقة بلهاء لبداية رحلة! سلكنا دروب جبال الألب الملتوية. سالزبرغ، سينت غيلغن، برختسغادن، مخبأ هتلر. توقفنا من أجل سرير متواضع ووجبات إفطار. لقد قُدِّرَ لنا ألا يُّحب أحدنا الآخر كما فعلنا في لقائنا الأول.

وحلّ الرعب. ومن أجل التخفيف عنه، حكيتُ له قصة حياتي. وحثّني «أدريان غودلَف» على المتابعة، على الصراحة. ومع وصولنا إلى باريس، كنتُ قد استمعتُ إلى قصة حياتي - على الرغم من أنني فعلتُ ذلك بأسلوب شهرزاد لكي أُحافظ على اهتمامه. وطبعاً، زخرفتها، وبالغتُ في أحداثها، واخترعتُ أقارب إضافيين. هذا ما يفعله الرواة.

تركني في باريس من غير سيارة. كان سيُقابل صديقته وأطفاله. وثار غضبي. وعضضتُ شفتيه. وعنقه. فضحك وطلب نسخة موقّعة من ديوان شِعري. بعد أنْ ترجَّلتُ على الضفة اليسرى من الجحيم على طريقة ميللر، وأورويل، وهيمنغواي، وآلهة ساقطة أخرى، استعدتُ معنوياتي، واستعدتُ زوجي بعد ذلك بقليل.

تقابلنا أنا والطبيب الهيبّي من جديد في لندن، في هامبستد هيث. جلسنا في حديقة كيتس وانتظرنا تغريد العندليب. حثّني أدريان، مُلهِمي، على البدء بتأليف الكتاب. قال: «اكتبيه، ولن تندمي».

سألتُ «وبعد ذلك؟».

قال «سوف تكتبين آخر ثم آخر».

«أهذا كل شيء؟».

«هذا كل المتوفِّر. تنتهين ومن ثم تبدئين من جديد».

«ماذا لو أنه لم يُحقّق النجاح؟».

«وما دخلك في هذا؟ أنتِ الكاتبة، ولستِ ناقد كتابك».

«ماذا لو أنني أعجز عن فعل هذا؟».

«بل تستطيعين. أنتِ تعلمين أنَّ في مقدورك أنْ تقهري مخاوفك. هذا هو الكاتب – قاهر المخاوف».

«وهكذا ذهبتُ إلى المنزل وباشرت. وكلما تعثّرتُ، أُدير شريطاً عليه تسجيل لصوته. سجّلناه ونحن على أوتوستراد خارج ميونيخ، بدا أشبه بضجيج سيارات شحن ونفير أبواق. ولكن خلف هدير حركة المرور، سمعتُ صوته يُثيرني.

وما زلتُ أسمعه. لقد وضعني على دربي الصحيح. كتبتُ القصة كمتشرّدة هاربة. كان إطارها هو سلوكي كشهرزاد. في كل يوم، في كل ليلة، أكتبُ بقلب يخفق بقوّة. كانت شبه اعتراف، شبه تحدٍّ. كتبتها لأنني اعتقدتُ أنني لا أستطيع، مدفوعة بقوة الخوف.

بدأتُ الكتاب في شهر أيلول ومع حلول شهر حزيران أصبح لديّ مسوّدة للنهاية. وقد كلَّفتني النهاية من الألم أكثر مما كلَّفتني باقي كتبي الأخرى مجتمعة. كنتُ أعلم أنّه *مهما* جعلتُ بطلتي تفعل في الختام، فسوف يكون خطأً بالنسبة إلى سياسة ***شخص ما***. لذلك تركتها في مغطس الحمّام، بعد أنْ وُلِدَتْ من جديد.

إنَّ الولادة الجديدة هي النقطة الحقيقيّة. والطلاق، والزواج، والموت

كلها يمكن أنْ تقود إلى هناك أو لا تقود. الروايات المعاصرة في المعتاد تفضّل الطلاق. في القرن الأخير كانوا يُفضّلون الزواج. لم تكن أيٌّ من النهايات تهمّ ما دامت البطلة سوف تولَد من جديد. لأنَّ العديد من البطلات يمتن، وأنا أردتُ لبطلتي أنْ تولَد من جديد.

بعد أنْ أنجزتُ ما يُقارب الأربعمائة صفحة، انطلقتُ إلى مكتب ناشري ووضعتها على طاولته. لعله توصّل إلى أنَّ الرواية لن تُنجَز. وهرعتُ خارجة من الباب وتوجهتُ إلى كيب كود، حيث كان منتجع الأطباء النفسيين.

عندما اتصل آرون بي هاتفياً ليُخبرني كم أحبَّ كتابي، كنتُ بعيدة جداً وشبه خائفة من أنْ أُصغي. وأكاد لا أتذكّر أنه قال «إنّه يحتوي كل شيء - الدفاع عن حقوق المرأة، والجنس، والسخرية، والتناقُض، ويحكي القصة من وِجهة نظر فريدة من نوعها». أيمكن أنْ يكون هذا هو *كتابي*؟ ثم انهمكتُ في عمليّة دامت ستة أشهر من التعامُل مع النهاية.

إنَّ أشدّ ما أتذكّر هو رغبتي في استعادة الكتاب من المطابع. كانت تنتابني نوبات من الرعب والتعرُّق في الليل وأنا أتوقَّع أنْ تكون نهايتي قد حانت. كنتُ أعلم أنَّ هذا الكتاب هو إعلان تحرُّر. لكنني لم أعلم إنْ كنتُ سأعرف **كيف** أكون حرَّة.

كنتُ أقضي الليالي يقظة أرغبُ في تمزيق العقد، في إيداع الكتاب درج المكتب وأقفله، إلى إحراقه على الشاطئ! كان التحدّي المحض يحثني على المُثابرة. لم أعُد أعلم مَنْ أتحدّى. نفسي؟ أم زوجي؟ أم عائلتي؟ أم التقاليد التي حكمت على المرأة المُعتّدة بنفسها بالموت؟ وعرفتُ ولم أعرف كل ما كنتُ أفعل.

وعاودني استعصاء الكتابة. كنتُ قد كتبتُ الكتاب باستعجال لكي أتغلّب على الاستعصاء، لكنَّ الصفحات الخمسين الأخيرة استغرقَت من الوقت بقدر ما استغرقت الصفحات الأربعمائة السابقة. كانت المقاطع المحذوفة توضيحيّة. في أحدها، تكتب إيزادورا رسائل طويلة،

بأسلوب هرتزوغ، إلى فرويد، وكوليت، وسيمون دو بوفوار، ودوريس ليسينغ، وإميلي ديكنسون. وفي أخرى، تموت جراء إجراء عملية إجهاض فاشلة. وفي أخرى، تتخلّص من بينيت وتذهب إلى والدن بوند لتعيش وحدها في الغابة. وفي أخرى، تعِدُ بالعبوديّة الأبديّة، ويستعيدها.

لم تنفع أيٌّ من هذه. إنَّ نهاية كتاب ما هي التميمة السِحريّة بالنسبة إلى الكاتب بقدر ما هي كذلك بالنسبة إلى القارئ. نحن *نعلم* أنَّ الكتب تجعل الأحداث تقع، لذلك نتوقف، راغبين في أنْ نتراجع عن إحداثها. ورجعتُ إلى ما كنتُ أعرف أنَّ عليّ أنْ أفعل: أنْ أجعل النهاية متلائمة مع الشخصيّة. كانت تمشي في طريقها. لكنها لم تكن قد وصلتْ بعد. إنها لن تحبو، لكنها أيضاً لن تُحلِّق وتطير. سوف تغيِّر رأيها، ولكن ليس الطاولة التي تكتب عليها. ليس الآن. لم تكن قد أصبحت جاهزة لذلك. كان لا يزال أمامها دربٌ جبليٌّ عليها أنْ تجتازه.

عندما بدأ الكتاب يدور ويوزَّع وهو بألواحه الطباعيّة الأصليّة بلونها الأخضر الباهت، رنَّ جرس إنذار. لم أفهم هذا. كان حماساً واستنكاراً معاً. كانت ألواحه قد سُرِقَتْ ووُزِّعَتْ. اختفتْ.

اشتدَّ رُعبي مع بداية النجاح. كنتُ أعلم أنني أسعى إلى النجاح. ولكن هل أردتُه *بتلك* الطريقة؟ لقد أفزعني عُريّ الكتاب. لقد كتبته على جلدي ووقفتُ أمام العالم كسيدة عارية يُغطيها الوشم. وكانت الحرارة عالية.

في أول فصل صيف أمضيته في الكيب، حلمتُ بأنني تراجعتُ عن تأليف الكتاب. وفي الصيف الثاني في الكيب، كان قد تحوّل إلى ألواح طباعيّة. وعانيتُ في وضع النهاية، وتصحيحها (وحتى قراءة الحوار وتسجيله على شريط وسماعه لأرى إنْ كان يبدو واقعياً). كنتُ قد راجعت المخطوط وأنا أُمسك فرشاة الورق المائع بيدي إلى أنْ تخدّرتُ بفعل رائحة الدخان.

اقترب يوم الطباعة في شهر تشرين ثاني واضحاً كوضوح يوم بدأتْ

المفصلة تعمل في ساحة البلدة. لو كان في استطاعتي أنْ أُقحِم رأسي فيها وأُنهي بؤسي لفعلتُ.

إنَّ قدراً من الحساسيّة يتماشى مع المقدرة على ملاحظة المشاعر ووصفها. وهذا لا يُعزّز اللا وعي المرح. إنَّ الكتّاب شكّاكون، مُلزمون، يُعذّبون ذاتهم. والعذاب لا يتوقف إلا لحظات قصيرة.

وهكذا خرج الكتاب إلى العالم، شاقاً طريقه الخاصّ، وله قَدَرُه الخاص. ولم يكن قَدَرُه مُتوقَّعاً. إنَّ قَدَر أي طفلة ليس كذلك، والأبوان يقفان ويتفرجان، يعضّان على بشرتها ويُصلّيان.

بعد ذلك بعامين وجدْتُني مشهورة، مع كتاب ذي غلاف ورقيّ احتلّ قمة لائحة الكتب الرائجة على الجزء الأكبر من العامّ.

لكنَّ شهرتي لم تكن من النوع الذي يمكن أنْ تتوق إليه مرشّحة لنيل درجة الدكتوراه في الأدب. حيث برامج الحوار وتغطية الأحداث، ومصوِّرون يحتشدون في عشب الكثبان خارج كوخي المُستأجَر في كاليبو، ومشاريع أفلام لم تتمّ، وأبطال هوليوود، وبقايا عقاقير مُبعثرة. ولكن أيضاً طلبات لملابسي الداخليّة (متّسخة إذا أمكن)، ورسائل قصيرة في زجاجات من أشباه كروزو جانحين أرادوا أنْ أُحطِّم سفينتي عندهم لكي أُنقذهم. إنَّ الصلوات التي تُلبّى دائماً أصعب من تلك التي لا تُلبّى. وواجهتُ صعوبة في إكراه نفسي وتدمير ذاتي. لقد حصلتُ على ما أردتُ. والآن لم أعُد أُطيقه وأريد التخلُّص منه.

عندما يُصبح الطالب مُستعداً، يظهر الأستاذ، وكانت جوليا فيليبس هي أستاذتي في تدمير الذات. كانت تتقدّمني كثيراً في ذلك التخصُّص. وعندما قابلتُها - تلك الكتلة الضخمة من الأعصاب والشَعر الذي كان يُصدِرُ شراراً كالألعاب الناريّة - وقعتُ صريعة الحب. كانت حيويتها هستيريّة؛ ولا تكفّ عن الكلام. وكان لديها طفل، وحازت على جائزة أوسكار، ولديها زوج مُطيع. كانت تُدير العالم من مكانها في فندق هولندا. وعام 1974 لم يكن عاماً عادياً بالنسبة للمرأة.

تقول إحدى بطلات إدنا أوبراين في إحدى القصص إنَّ العاملين في مجال السينما ممسوسون بالشياطين، لكنهم أشكال *سافلة* جداً من الشياطين.

لكنَّ الشيطان demon كان ذات يوم daemon – طاقة خلاّقة – وهكذا كانت جوليا. كانت تُطلقُ طاقة، وأفكاراً، وما يُشبه الجاذبيّة. وكنتُ أشعر بالرهبة أمامها قبل أنْ أكرهها.

تودّدت إلي كي أمنحها حقوق تحويل رواية *«الخوف من الطيران»* إلى فيلم سينمائيّ ثم قامت ببيعها مقابل حق بيع متواضع، مع بند في العقد يمنع التراجع عنه، ومبلغ 50000 $.

حتى في عام 1974، لم تكن تلك صفقة جيدة. وطالت الصفقة، وأخذت تتغيَّر البنود بصورة سِحريّة على جهاز كومبيوتر مُحاميها على امتداد ما لا يقلّ عن عام. وفي تلك الأثناء، كنتُ أكتب أول سيناريو سينمائيّ، وأشارك في مؤتمرات لا نهاية لها حول القصة في فندق شيري-هولندا مع قُدوتي، وأُفسِدُ زواجي في كل يوم. والكتاب يزداد شهرة. وأول إشارة على ذلك كان ملء شاحنات من الرسائل.

مع رجوعي إلى كاليفورنيا في الخريف، متأبّطة أول مُسوّدة لسيناريو الفيلم، كانت جوليا قد انتقلتْ إلى مستوى آخر من تعاطي المُخدرات. ولما لم أكنْ أعرف أي شيء عن الكوكايين، فكّرتُ في أنني مجرد فظّة وأنني أسأتُ التعامُل معها.

كنتُ أنتظر في غرفة في الفندق – فندق بيفرلي هيلز – وتتصل لتقول «هناك حادث تحطُّم على أوتوستراد سان دييغو، وسوف أتأخّر مدة ساعة».

وبعد مرور ساعة تتصل سكرتيرتها لتنقل إليّ تقريراً عن حادث تحطُّم آخر، أو عن اجتماع طارئ، أو عن كارثة بخصوص العناية بالطفل. ومع مرور الساعات من واحدة إلى اثنتين إلى ست، أبدأ أشعر بأنني ضحيّة وأثور غضباً. وكانت تُنفّر المُخرجين والممثلات بالطريقة نفسها،

ثم تنفي سلوكها الخاص بنوع من الوقاحة والتباهي كانا على التوالي مُلهِمَين ومُحبِطَين.

يمكن للمزعجين أنْ يكونوا مصدر إثارة. نحن جميعاً نكره نِفاق العالم ونريد أنْ نُطالب العالم به، ولكن عندما يُصبح المُزعِج مُنافِقاً، فإنّ ذلك يكون خيانة أشدّ إحباطاً من أية خيانة أخرى. وكما يقول و. هـ. أودن، «أنْ يغشّنا بائع جوّال أقلّ إزعاجاً أخلاقيّاً من خداع كاهن». جوليا لم تكن كاهنة، لكنني جعلتُ منها كاهنتي العليا في إزعاجي. تمرُّد المتمرِّد. وعندما برهنتْ على أنها مجرد واجهة للمختلس ديفيد بيغلمان، احترت. *إذن مَنْ هو الفخّاري ومَنْ هو قطعة الفخّار؟*

بين جلسات الاجتماع التي لم تقع أبداً وفيض من الدعاية للكتاب، كنتُ منشغلة بالاجتماع بجوناثان فاست والوقوع في حبّه، وكان والداه قد أصبحا من أصدقائي عبر حفلات عشاء آل أوترماير. وفي تلك الأثناء كانت جوليا منشغلة بتنفير كل شخص منها يعمل في مجال السينما بعاداتها السيئة.

بعد إبعاد مُخرجين من أمثال هال آشبي وجون شليسنجر وممثلات مثل غولدي هون وباربرة سترايساند بسبب جنون جوليا، قررت جوليا أنْ تقوم بإخراج الفيلم بنفسها.

هنا انهرتُ. على الرغم من الدورة الوجيزة التي قضتها في الإخراج في مؤسسة الفيلم الأميركي. كانت جوليا مجرد مبتدئة - ومبتدئة فخمة في هذا المجال. (وهكذا كنتُ أنا، طبعاً، لكنني لم أكنْ أُخطّط لإخراج الفيلم).

بحلول ذلك الوقت، كنتُ وجوناثان نعيشُ معاً في ماليبو وكنتُ أحاولُ أنْ أتخلَّص من زواجي من الدكتور يونغ.

كان منزلنا في ماليبو مزوّداً بسريرٍ مائي يُشرف على المحيط الهادئ، وبمغطس من الماء الحارّ يشرف على المحيط، وبردهة كأنها غاب مركزيّ مفتوحة على العناصِر. تعبثُ فيها أفعى الغرطر وسحالي. وذات مرة رجعتُ إلى المنزل لأجد الأفعى في غرفة الجلوس - وهي ليست من النوع الذي تجده في غرف الجلوس في ماليبو.

كان المنزل أحد منازل المرح مكسو بألواح الخشب على غرار بناء المُحترَف لكي يُمارس فيه المُنتِج الجنس في منتصف الأسبوع، وفي منتصف النهار، مع نجمة صغيرة.

كنا سعيدين. وكنا عاشقَين. لكننا كنا أيضاً مجروحَين. كانت مجلة نيوزويك تنشر مقال الغلاف عنّي وتزرع المصوِّرين في مصنع الثلج ووسط النباتات المتسلِّقة. وكان جوناثان يحاول أنْ يباشر مسيرته المهنيّة ككاتب سيناريو ويُعاني من اللحظات المعتادة من الرفض. وكنتُ أحاول أنْ أُبعِدَ العالم عنّي وأكتب رواية ثانية - على الرغم من أنَّ أصدقائي ككاتبة أكّدوا لي بأنه لا فائدة من ذلك بما أنَّ كل ما أنجزتُ بعد *«الخوف من الطيران»* مصيره الإدانة، وأنه لا توجد فصول ثانية (أو فُرَصٌ ثانية) في حياة الأميركيين.

قال لي ماريو بوتزو «اكتبي سيناريوهات أفلام. إنها مُربِحة أكثر».

كنتُ خريجة مدرسة صغيرة قذرة، وتلفَّتُّ حولي في ماليبو - بما فيها من أصحاب الملايين الكئيبين ذوي الأسماء المُركّبة يركضون على الشاطئ، يزدادون ثراء على ثراء وشيباً، ولم أفكِّر إلا في الأدب بفخامة.

سألتُ ماريو «إذا لم تكتب روايتك الثانية، فكيف لي أنْ أكتب روايتي الثالثة. وإذا لم تكتب الثالثة كيف يمكنني أنْ أكتب الرابعة، وكيف أكتب الخامسة...» إلى آخره.

لقد أردتُ أنْ أكونُ أيفي كومبتون-بيرنيت أو سيمون دو بوفوار، لا روبرت تاون.

تمتم ماريو برتزو: «الحمقى يموتون».

أو ربما لم يقُل إلّا «الأحمق».

هل ذهبتُ إلى هوليوود؟ لو أنّي فعلتُ لأصبحتُ نظير إشر وود، أو هكسلي أو توماس مان - وحتماً ليس الأخوين ماركس. ولطالما رفعتني أفكاري الطَّمُوحة في الأدب إلى خداع نفسي.

أو لعلَّ خطأً طرأ على إدارة والدي لعالم الاستعراض.

في الوقت الذي وضعت جوليا يدها على صخرة وأعلَنتْ نفسها مُخرِجة وكرَّستُ أنا نفسي سيدة الأدب، قابلتُ رجلاً معيَّناً. أحضرتُه إلى إحدى الحفلات التي أُقيمَتْ في منزلنا على الشاطئ. كان يمكن أنْ يكون أي شخص. وفي العام الذي طبَّقَتْ فيه شهرتي الآفاق توافد عدد من الشخصيات البغيضة إلى منزلنا في ماليبو.

قال صانع عيدان الكبريت، مُستخدِماً ذلك التعبير الوصفيّ الذي يَمحو تماماً معنى كلمة «صداقة»: «أُقدِّم إليك أعزّ أصدقائيّ». والحيويّة التي ينطوي عليها معنى تعبير أعزّ الأصدقاء لم تكن جليّة. كيف استطاع أنْ يُصبح مدير أعمال، أو مديراً شخصياً، أو مُنتِجاً، أو مُروِّض أُسُود طوال ذلك الوقتْ؟».

لكنه استطاع. تلك كانت هوليوود.

لم يكن أمراً جديداً على أحد (ما عدا عليّ أنا، الشخصيّة الأدبيّة، المتعجرفة، في عام 1974) أنَّ هوليوود كانت وما زالت تغصّ بشخصيات غسلت ماضيها لكي تُشبه سير حياة ممثلين.

وأُلغِيَ الاحتيال الماليّ. وأُزيلتْ المحاولات الفاشلة ولم يُحتَفَظ إلا بالمحاولات الناجحة، مهما كانت الصِّلة بعيدة. وكانت الأسماء الشهيرة المُسقَطَة تنتثر على الأرض كأوراق الخريف.

كان للسيد «المدير» عينان خضراوان برّاقتان وشعراً شائباً شعِثاً. وأتذكّر أنه كان يتزيّن بحليٍّ رخيصة ويلبس رداءً من الكتّان يُشبه الرداء الروماني القديم - ولكن كان ذلك حتماً خطأً. لقد ادّعى أنه كان صبي واعظ في عروض كارني المسيحيّة في شبابه. وادّعى أنّه كان آثماً تابَ وولج النور قلبه، هللّويا. لقد ذكّرني بمسيحيّ من العالم القديم يُلقي خُطبة قبل أنْ يُلقى به إلى الأسود لتأكله. ويبدو أنني ذكَّرته بالشيء نفسه.

فتحتُ مع ذلك الرجل حديثاً في الخارج بالقُرب من مغطس المياه الحارة أمام المشهد الخلفي المُلتهِب للغروب في المحيط الهادئ

(الذي تبادلنا عنده التهاني لأنّه انتهى بنا الأمر إلى الوقوف أمامه). كان يُتابع جلسات محاكمة كتاب *«الخوف من الطيران»* على أعمدة صفحات الإشاعات. وثار غضباً لصالحي.

«والآن تقول إنها مُخرِجة لكنها لا تستطيع حتى أنْ تتعامل مع أي ممثّل لأكثر من مدّة اجتماع واحد. أعلم أنَّ هذا ليس من شأني، ولكنْ إذا أردتِ أنْ تُنجزي شيئاً من ذلك الاتّفاق، أستطيع أنْ أُعيد إليك حقوقك. لقد خُدِعتِ. لقد وقَّعتِ على أسوأ عقد. والوكلاء دفعوك إلى القبول به».

وأُعِدَّ الفخّ. كان عقلي ينبض كالقنبلة الموقوتة. وكانت مُخرجتي العابثة بالقذارة تنهضُ وتجوس كالأسد، كانت مُخرجتي القذرة قد تحطّمتْ.

في غضون بضعة أيام دُعِيتُ مع جوناثان إلى مقابلة أُسُود صديقنا الجديد.

كانت محفوظة في وادٍ سرّيّ في الصحراء، تجوب بيئة انتهى بها الأمر إلى أنْ بدتْ أشبه ببيئة إفريقيا.

دُعيتُ أنا وجون إلى تدليلها، والتمشّي بينهما والتمدُّد عليها، وبين مخالبها. والتقطنا صوراً فوتوغرافيّة أخذناها معنا من أجل آل هاوارد وبيت فاست في بيفرلي هيلز، ونحن نعلم أنهما سوف يُصدران ضجيجاً أبويّاً يهودياً مُناسِباً.

قفز المُروّض بين الأسود، مُزمجراً في وجوهها ليُبرهن على أنَّ في استطاعته أنْ يُزمجر في وجه أي شخص. وقام برفع المقاعد، والكراسي، والسياط. وبدا أنَّ زوجته، الممثّلة الجميلة التي نادراً ما تعمل هذه الأيام، لا تقلُّ عنه حماساً بشأنها. وكذلك بدتْ ابنة زوجته المراهقة الممتازة مشروع نجمة.

قال مُحذِّراً «يُستحسن أنْ تخرجي من القفص، فقد يكون هناك الكثير من الشَعر».

وقفنا في الخارج نراقب مُروّضنا وهو يُقحِم يده داخل الـ *bocca di leone* (جوف الأسد)، ثم ابتسم. كيف كان لي أنْ أعلم أنه كان يستعرض دوري في هذه العلاقة كلها؟

من عُرُن الأُسود، انتقلنا إلى مكاتب المحامين. وشرح لي السيد «المدير» لماذا رفعُ دعاوٍ على جوليا، وشركة أفلام كولومبيا، وICM أمر آمن تماماً ولا ينطوي على أيّة مخاطر. وحسبتُ أنه كان يتحدث عني. لكنه، في الواقع، كان يتحدث عن نفسه. وأحضرَ مُحاميه الخاص، وقدّمَ نفسه بوصفه مُنتجاً، وعرَّفني على كابوس حياتي (وأكمل الأمر بعملاء من الشهداء، وأحدث في سجلات الهاتف الكثير من الثقوب الضخمة تشبه ثقوب الجبن السويسريّ). ووعدَ، طبعاً، بأنْ يُسدِّد التكاليف كلها من جيبه، لكنَّ وعوده كانت وعود ممثّل هزلي في فرقة جوّالة.

إذا وعدكِ أحدهم بإقامة دعوى «مجّانيّة»، أو بأنك لن تُضطري إلى دفع ضرائب بعد اليوم، أسرعي بالاختباء. إنَّ خِدعة الضريبة مورِسَتْ عليّ أيضاً، في الفترة نفسها من حياتي، ومنذ ذاك الحين وأنا أدفع. هذان الخطآن المُدمِّران في الحُكم أصبحا وسيلة لتدمير نفسي وشُهرتي دفعة واحدة.

بما أنني نشأتُ على مُشاهدة الأفلام السينمائيّة التي ينتصر فيها الصِّغار في معركتهم ضد النظام فإنه ليست لديّ أيّة فكرة عن قاعة المحكمة إلا بقدر ما لدى فأر عن مسابقة الحُكم على الجبن.

كان في وسع أي أحمق أنْ يرى أنّ قضيّة إقامة دعوى ضد شركة سينمائيّة في مقرّ بيربنك تنطوي على ذكاء لا يقلّ عن ذكاء دخول عرين الأسود في وادٍ في الصحراء. توقَّعَ مُستشاري الجديد مُلخَّصاً سريعاً وانتصاراً فوريّاً. وبرهنَ على أنّه أشدّ تماسّاً مع الواقع مني.

أتتْ الصحافة على ذِكر تلك القضيّة وأثارت ما تُثيره مثل تلك الدعاية الشنيعة من أشياء وتستمر إلى ما لا نهاية. كان صعباً جدّاً تأليف رواية ثانية، بعد كل ذلك الهرج. (عندما كتبتُ رواية ***«الخوف من الطيران»*** بدتْ لي عملاً غِرّاً، والآن أضحتْ علامة على الطريق، أو على الأقلّ أصبح

شِعار «النكاح الحُرّ» شِعاراً عاماً). أما تأليف رواية ثانية بينما أخوض في دعوى قضائيّة فكان مجرّد مسار مُعيق احتجتُ إليه لكي أشعر بأنني عفنة بعد إحراز كل ذلك النجاح. الجميع حذّروني منه. وبدل ذلك اتّجهتُ إلى جوهر الأمر، وقرّرتُ أنَّني، وليس مَنْ كان صِهري حينئذٍ، كنتُ توماس بين وسبارتاكوس في وقت واحد.

لقد نَسَفَ ذلك عامَين من حياتي كان ينبغي أنْ يكونا مُمتعَين، كما يمكن لأي شخص عاقل أنْ يتوقَّع، بالسير في مسار شرعيّ تماماً، ودفع قيم فواتير ضخمة، وغياب للأفلام السينمائيّة. ورجعتُ إلى نيويورك، ودعمتُ برنامج *«كيف تنقذ حياتك»* حول العالم، ولكن لا أحد سألني عن *«النكاح الحرّ»* والدعوى القضائيّة. وفي نيويورك باشرتُ تأليف رواية ثالثة، تحكي عن مسيحيّ قديم تلتهمه الأسود، لكنني سرعات ما تخلّيتُ عنها واستكنتُ عائدة إلى دِعتي الآمنة القديمة بين طيّات غطاء أحضرته من جامعة بارنارد، إلى ماضي القرن الثامن عشر الآمن. وبدأتُ بحثاً عن حكاية جميلة عن فتاة يتيمة تُصبح شاعِرة، وساحرة، وقاطعة طريق، وعاهرة، وأخيراً أمّاً لابنة جميلة، وبذلك تنتصر على كل حظٍّ عاثر - إنها البطلة المثاليّة التي سوف تنقذ حياتي قبل نيل الشُهرة.

خلال السنوات الخمس حين كدحتُ لإنجاز حكاية القرن الثامن عشر، شعرتُ بسعادة فريدة من نوعها، ومع تعقُّد الحبكة، وضعتُ أيضاً طفلتي، وكتبتُ عنها من خلال عَيْنَي فاني:

«عندئذٍ أثار إعجابي الأنف الصغير الشامخ (المكسوّ بقشرة من دماء الرحم)، واليدان الصغيرتان وهما تتلمّسان شيئاً لا تعرفان ما هو، والفم الصغير الذي يمصّ دون أنْ يرى من ثديّ لا يعرف ما هو، والقدمان الصغيرتان اللتان لا تعرفان الدروب التي ستسير عليها ولا في أية قارة لم تُكتَشَف بعد، ولا في أي بلد لم يولَد بعد.

قلت من بين دموعي «أهلاً بك، أيتها الغريبة الصغيرة. أهلاً بك، أهلاً بك»، ثم غمرني بحرٌ مالح من دموعي وبكيتُ أمواجاً كاسحة من محلول مالح. آه كم بكيتُ إلى أنْ غسلتْ دموعي نفسها جزءاً من توردُ وجنتيّ الطفلة وبيَّنتْ لي كم كانت بشرتها شفّافة، بلون فجر صيفيّ».

عندما دخلتُ المستشفى لم أكنْ متيقّنة إنْ كانت بطلتي أم أنا مَنْ كانت تُنجِبُ تلك الطفلة. ونتيجة لذلك كُتِبَ اسم مولي على شهادة الميلاد في أول الأمر «بيليندا» - اسم ابنة فاني. ولاحظتُ خطأي، وأمضيتُ وقتي مُسترخية في السرير أعمل على ابتكار أسماء لطفلتي الجميلة. غليساندا، أوزما، روسالبا، روزاموند، جوستينا، بوديكيا... ورحتُ أتقلّب على الفراش. ثم خطر اسم مولي ميراندا إلى ذهني. ووافق جون.

تقول مولي «لقد توصَّلْتِ إلى اسم جميل، يا أمي».

صحّحَ مولِد مولي كل شيء، وقامت فاني بما تبقّى. أعتقد أنني (حتى الآن) أحبّ فاني أكثر من بطلات روايات الأخرى، لأنَّ التحديات الفريدة هي التي تمنحني المتعة الأعمق. تحدّي إعادة خلق لغة القرن الثامن عشر وحبكته، تحدّي قلب المشهد الذكوريّ الجميل رأساً على عقب. لقد أسعدني سعادة تامة بطريقة لم أختبرها منذ أنْ كنتُ في السادسة - وكذلك كان زواجي من جون، إلى أنْ لم يعُد كذلك.

من الأسهل الكتابة عن الألم من الكتابة عن المتعة. المتعة لا توجد كلمة تصِفها. وبعد فورة الحياة تلك وهي تقوم بدورتها، أسعدني أنْ أُصبح مغمورة، أختبئ في الريف.

فكّرنا في الانتقال إلى برينستون من أجل المكتبة العامة وإلى بيركشاير من أجل المشاهد الجميلة، وإلى كي ويست من أجل الضوء، وإلى كولورادو من أجل الجبال، ولكن انتهى بنا الأمر إلى ويستون، كونيكتيكت (حيث تقع مكتبة باينك ومانهاتن على مسافة واحد من القيادة بالسيارة)، نعيش حياة شبه ريفيّة: الكتابة، اليوغا، الكلاب،

الطبخ. والخطأ الوحيد الذي ارتكبناه كان ترك مجلة *بيبول* تلتقط لنا صوراً فوتوغرافيّة من أجل مقالة عنا بوصفنا الزوج السعيد. إنَّ مثل تلك المقالات هي التي تجعل الطلاق أمراً محتوماً، تماماً كما أنْ المقالات الافتتاحيّة لمجلة *تايم* تؤدي إلى الموت، والإفلاس، واختطاف الأطفال الأحبّاء.

لقد جعلتني فاني سعيدة لأنها تركتني أعيش *وقاموس أكسفورد اللّغة الإنكليزيّة* مفتوح دائماً على طاولة مكتبي - وأي شيء يبعثُ على السعادة أكثر من ذلك؟ إنَّ جون يُسعدني بسبب حسّه الفكه وإحساسه بأنَّ لا شيء أفضل من الكتابة والقيام بتمارين اليوغا. ومولي جعلتني سعيدة لأنها مُعجزتي العاديّة، أنجزها الله بصورة ما، بينما عقلي يُركِّز على أمور أخرى - كأصل كلمة[1] fichu، على سبيل المثال.

أما *الشهرة* فلم توفِّر لي أي قدر من السعادة، على الرغم من أنَّ هذا، طبعاً، لم يعن أنني أردتُ التخلّي عنها. إنَّ الشهرة هي أعظم اختبار للشخصيّة. هل تفقدين نفسك أم تعثرين عليها نتيجة لها؟ إنَّ غالبيتنا تفقد نفسها لفترة وجيزة على الأقلّ. والبعض يستعيدها. ومُعظمنا لا يفعل. وفي ذلك الوقت، *أردتُ* أنْ أضيع في غابات كونكتيكت، وأنا أرعى طفلتي، وأُفتّش عن الكلمات في القاموس، وأقرأ مؤلفات سموليت أو فيلدينغ أو سويفت في صباح كل يوم لكي أستجمع إيقاع الفترة الزمنيّة في رأسي. لقد أرعبتني الشهرة وأربكتني. وفي غضون ثلاث سنوات رفعتني ثم رمتني إلى الأشواك. أردتُ أنْ أبتعد قدر استطاعتي عن تلك الذكريات المؤلمة. كانت فترة حُكم الملكة آنْ مثاليّة. كنتُ قد متُّ، لكنني كنتُ أوشك على أنْ أولَدَ من جديد حمراء الشَعر أرتدي زيّ ركوب الخيل.

على الأقلّ نجوتُ. وهي كذلك.

1- الكلمة قديمة، وتعني وِشاح أو شال، للنساء - المترجم.

أُعيدُ القراءة وأُلاحظُ أنَّ هذا الفصل لا يحتوي أيّ شيء عن هنري ميللر. ربما لأنني أكتبُ هنا عن نهمي إلى تدمير ذاتي أما هنري فكان عكس ذلك: لقد أعطاني دروساً في العيش.

الغريب في الأمر هو أنّني قابلتُ هنري ميللر في اليوم نفسه الذي قابلتُ فيه جوناثان فاست - وكان يوماً رائعاً في كاليفورنيا من شهر تشرين أول، عام 1974.

كنتُ قد استقللتُ سيارتي البويك المُستأجَرَة وهبطتُ جادة صنسيتْ إلى باسيفيك باليساد وأمضيت فترة ما بعد الظهيرة مع فتى من بروكلين عجوز-وشاب بصورة مُذهلة في الثالثة والثمانين، كان يكتبُ لي رسائل تفيض بالحيويّة على مدى ستة أشهر والآن ظهر بلحمه المتهالك وبروحٍ أشدّ شباباً من روحي.

نهضَ هنري ميللر - الذي غالباً ما يجلس على كرسيّ متحرك، وأعمى في إحدى عينيه، ويرتدي بيجاما ورداء من القماش الوبريّ الرثّ، وذو وجه أشبه بحكيم صينيّ - عن سريره ليُقابلني مُستخدِماً عصا مشي، باذلاً جهداً مُضنياً، مُفضّلاً ذلك على أنْ يبدو سلبياً وهو يلزمُ كرسياً.

سوف يُصبح عَينِي الصافية وسط الإعصار.

إنَّ الكُتّاب الأميركيين يميلون إلى إدمان الخمر وإلى الاكتئاب، وصِلتهم الوحيدة بالشبّان الطامحين إليهم هي: «أعطني سبباً وجيهاً واحداً *يدفعني إلى الانتحار*». وإذا أردتَ أنْ تذهب لتقابلهم وتُبدي إعجابك بهم خُذْ معك زجاجة جنْ أو كتاب اجتماعات الممتنعين عن شرب الخمر وكُنْ مُستعداً لإثارة الكثير من المرح. لكنَّ ميللر كان، حسب تعبيره الخاص، «دائماً مرحاً ومُشرِقاً». كان مزاجه هو موهبته وكان أيضاً هِبَته للجميع.

لو أنني قابلته وهو شاب، لكان أقرب شبهاً بالإعصار، وبالعماء. لكنَّ نجاته مما مررتُ به، وحِفاظه على مركزه، كان هو الأهمّ. وبما أنّه سُمّيَ «ملك القذارة» استمرَّ في كتابة ما كان عليه أنْ يكتب. وبما أنه كان

لديه كل الأسباب التي تُقرِّبه من الإنسانيّة، بقيَ منفتحاً، وكان يمنح تلك الموهبة طوال الوقت.

إنَّ كل مَنْ يضغط على زرّ الجنس في أميركا يجب أنْ يكون مُستعدّاً لسماع صفّارات الإنذار، وأي شيء آخر نقوم به في حياتنا سوف يغرق وسط ضجيجها.

سألني هنري عندما أزعجتني رسائل المُعجَبين الذين يطلبون مني فيها إرسال ملابسي الداخليّة القذرة، «لِمَ لا تعتبرين الأمر مجرَّد مُزاح؟». وما زلتُ أطرحُ على نفسي هذا السؤال عشرين مرّة في اليوم. وما زالت مقدرتي على الإجابة عنه في أية لحظة دلالة على صحّتي العقليّة.

قدتُ السيارة عائدة إلى جادّة صنسِت، مُحمَّلة بلوحات الألوان المائيّة، والكتب، والمطبوعات. لم يكن هنري من النوع الذي يدعك ترحلين فارغة اليدين.

كل تلك الأشياء الممتعة كانت منتشرة على السرير عندما عُدنا جون وأنا (بعد لقائنا في حفلة أقامها والداه) في وقتٍ متأخّر من تلك الليلة أو باكر صباح اليوم التالي. كنا قد جلسنا مدة ساعة في المولْهولاند درايف، نراقبُ أضواء لوس أنجليس تتلألأ من خلال مزيج الضباب والدخان، ونتحدَّث عن إمكانيّة حدوث علاقات زواج بين العقول والقلوب، ونُدرك أنَّ الحب بدأ يجمع بيننا.

كنتُ في الثانية والثلاثين وكان في السادسة والعشرين، ولكننا شعرنا معاً أننا، بصورة ما، خرجنا إلى العالم توّاً. وفي تلك الليلة الأولى أخذ كلٌ منا عهداً على نفسه بالإخلاص للآخر، وبسبب مولي، إلى الأبد.

في مناسبات لاحقة، تسبّب كلٌّ منا بالكثير من الأذى للآخر، وقمنا بأعمال دافعها الغضب، وكنا عاشقَين وأبوين غير مسؤولَين، أعمانا الكبرياء، والغيرة، والحنق. ليس من شأني أنْ أنتقده - على الرغم من أنني فعلتُ ذلك عبر بضعة كتب، بيَّنتُ فيها أنني ما زلت أعتقد أنَّ لوم الآخرين سوف يُحرِّرني.

إنني في حاجة إلى أنْ أُقدّم ترضيةً له ولمولي: ليتني عرفتُ نفسي بصورة أفضل وتسبّبتُ لك بقدرٍ أقلّ من الأذى. ليتني عرِفتُ حينئذٍ ما أعرفه الآن: أي أنَّ من العبث وضع اللوم على الأزواج أو الأبناء من أجل عيوبك، وأنَّ هذا لا يعمل إلا على تأخير مواجهتها. وهو يؤخِّر فقط التغيير. وإلى أنْ تقبلي مسؤوليتك اتجاه هذا، لن تعيشي بسلام.

إنّه يتّضح أنَّ الشهرة هي أداة قويّة تتّسم بالجمال لأنها تجعل ضحاياها المُنتقَيين على عجَل متواضعين. إنك تُبحرين فيها، وتمتلئ أشرعتك المنتفخة بالعَظَمة، ومع انتهاء الدقائق الخمس عشرة تهدئين، تُدركين أنَّ العَظَمَة لا تأخذكِ إلى حيث تريدين الذهاب.

حينئذٍ فقط تتعلّمين التجذيف بنشاط، طالبة من الله أنْ يمدّك بالقوة من أجل البقاء عائمة.

الكتابة، التي كانت قد بدأتْ بالنسبة إليّ كغواية للإلهام ولحبّ الجمهور، أصبحَتْ لها الآن وظيفة مختلفة تماماً في حياتي. لقد عادتْ إلى وضعها كعزاء كما كانت في طفولتي - كوسيلة للاستمتاع، لمعرفة الذات. والعديد من الكتّاب الحُكماء، من بينهم روبرت بن وارن، قالوا إنكِ لن تتمكني من الكتابة حقاً إلا بعد أنْ تتخلّي عن الطموح.

أعتقد أنَّ المجتمع فقيرٌ بنُدرة منافذ نشاطاته الخالية من الطموح. إنَّ التأمُّل، والألعاب الرياضيّة، والشِّعر، واللوحات، والألوان المائيّة، وكتابة اليوميات، والصلاة، مُغْنِية بقدر ما هي بعيدة عن التزلُّف الخارجي. وعندما يزحف عفريت الطموح إلى النشاط، فإنه يُلوّثه. ولكن من الصعب على عفريت الطموح أنْ يزحف إلى الشِّعر، لأنّه لا أحد يُريد الشِّعر مقابل المال، والشهرة، والكتب الرائجة، لذلك ينبغي إنجاز الشِّعر لذاته إنْ كان لا بدّ من إنجازه أصلاً.

من ناحية أخرى، إنَّ الشهرة سجينة التسويق وتتطلّب منكِ أنْ تفعلي الشيء نفسه مراراً وتكراراً - على الأقلّ لكي تُطعمي الطفلة. وكانت فاني قد ذكّرتْ الناس بجذوري الأدبيّة، وجمعتْ ملاحظات جديّة،

وانتشاراً في أرجاء العالم، كانت شهرتي الأشدّ صموداً هي سيدة العاهرات الوحيدات، المُعبِّرة عن أشد حوافز المرأة الأميركيّة غموضاً.

إنني مهما غصتُ أعمق في شِعري، ومهما بلغ عدد دواوين شِعري، فإنَّ عفريت شُهرتي كان يُريدني أنْ أعود إلى مركز خشبة المسرح بوصفي مُبتكرة «النكاح الحرّ» - كرمز لنهم بنات جيلي إلى حريّة المرأة عبر المتعة الجنسيّة.

إنكِ لا تتوصلين إلى اختيار الشيء الذي تشتهرين بسببه ولا تُحدّدين أي معركة من معارك حياتك العديدة سوف تدعمك. إنَّ أفضل ما في وسعك أنْ تفعلي هو أنْ تعملي على ألّا تُبدي الكثير من الاهتمام بالرموز الخارجيّة وأنْ تواصلي القيام بما يجعل منكِ شخصيّة مركزيّة ويجعلك تتذكّرين ذاتك الحقيقيّة.

لقد بقيَ الشِعر هكذا بالنسبة إليّ.

إنْ كان هدف حياتنا القصيرة هو إجبارنا على قبول أنفسنا، ونقل المُستقبل إلى أولادنا، وعقد الصلح مهما انطوى عن ضغينة – مع فنائنا، فإنَّ الشِعر يبقى الوساطة المثاليّة.

إنَّ الفنائيّة هي هوس الشِعر الأساسيّ – يدعمها الحب، خادم الفنائيّة. الخادم ينثر الورد. وهي تُعيد جمعها في حجرها النحيل.

-9-

طفلتي، طفلتي، طفلتي

«ليس من الحِكمة ولا من صالح الطفل شحنه بالكثير من الأفكار».

• كوليت، من *«نجمة المساء: ذكريات».*

يُفترَض بالأمومة أنْ تكون جزءاً من الطبيعة - خالدة، راسخة، نسخة أنثويّة من «عصر الروك». في الحقيقة، لا شيء أكثر رسوخاً من الأمومة - تُحيط بها هالة من أعراف المجتمع وطموحاته التي تظهر فيه. إنَّ كل ما يتّصل بالأمومة يتغيّر مع تغيُّر أيديولوجياتنا: حول الإرضاع من الثديّ والقِماط، وإرضاع المرأة لغير ولدها وحضانة الأطفال، والخدار وتحاشي الخِدار، وارتباط الأم بطفلها وانفصال الأم عن طفلها، الإنجاب وقوفاً أم جلوساً أم استلقاءً، الإنجاب وحدك أم مع إحدى القريبات، أم مع القابلة، أم الطبيب المولِّد. ربما ليس في عمليّة الإنجاب شيء واحد لا يمكن أنْ يتغيَّر بالثقافة ما عدا أنَّ ذلك لا يحدث على يد المرأة! حتى المشاعر التي من المُفترَض أنْ تنتاب المرأة يمكن تغييرها.

كم نكره نحن معشر النساء أنْ نسمع هذا. وربما نُفضّل أنْ نعتقد أنَّ الإنجاب ومُعدّاته صنعتها الآلهة نفسها ولم تتطوّر من لحظة تاريخيّة إلى أخرى. قد تكون الشعائر الهرمونيّة هي نفسها، وتطوّر الجنين هو

نفسه (بما أنّه يُلَخِّص عملية النشوء - وِفقاً لأساتذة مادة علم الأحياء في المدرسة الثانويّة)، أما عن ردّة أفعالنا على عمليّة الوضع، والإنجاب، وتدفّق الحليب استجابة لبكاء الطفل، فهي متغيِّرة على الدوام.

إننا معشر جيل السوط كانت تُحرّكنا نظريات الأمومة كما كان يفعل الجنس، والأنوثة، والنجاح، والمال، والمثاليّة، والرجال، وكل شيء آخر في حياتنا ثُنائيّة القُطبين على الدوام.

لقد نشأنا بين صور أمهات بيتي كروكر[1] اللواتي يُثبِتن أنوثتهنّ *بالخَبز*. (أهي نسخة حقبة الخمسينيّات من أسطورة إسيريز[2]؟). لقد طمأنتنا المجلات التي قرأناها في غرف انتظار عيادات الأطباء بأنَّ ترك الأطفال والتوجّه إلى مراكز العمل سوف يُعيقُ نموّهم النفسي ويقضي على راحة بالنا. كان الأطباء الذكور يُلقّنوننا ونادراً ما شككنا (ولا هم شكّوا أيضاً) في أنَّ هناك مُخططاً سياسياً خلف كلماتهم.

في مدرسة التخرُّج، بعد زواجي الأول، حذّرني طبيب العائلة الباطني من أنني وأنا في سن الثانية والعشرين أصبحتُ مُستعدّة كل الاستعداد للحمل.

قال مُحذّراً «ينبغي ألا تُطيلي الانتظار. في سن الثلاثين سوف تُصبحين عجوزاً في ذروة فترة الحمل».

عجوزاً في ذروة فترة الحمل. يا لها من عبارة مروّعة. عجوزاً في الثلاثين؟ (قبل مائتيّ عام، كانت النساء الحوامل يمتن مع بلوغهن سن الثلاثين!) إنَّ الإنجاب لا يتطلَّب منا أنْ نعيش حتى سن الخمسين - وأقلّ بكثير من الثلاثين أو الأربعين عاماً *الزائدة* التي نتوقّع جميعنا أنْ تكون المدة المناسبة.

لم تكن لديّ أقلّ نيّة في الإصغاء إلى ذلك الطبيب الباطني (كانت

1- بيتي كروكر: شخصيّة وهمية نسائية أميركية تمثل ست البيت المثالية وتُستخدم في الإعلانات عن الأطعمة والأطباق - المترجم.

2- إسيريز: إلهة الزراعة عند الرومان.

أختي الكبرى هي الأرض الأم. وكنتُ أنا الفنانة)، لكنَّ بذرة الخوف التي زرعها كانت تُعطي ثمارها في كل شهر. وكلما نزف الدم غزيراً، كنتُ أرى جثّة طفل مُصغَّرة داخل الدفق. قد يكون طفلي الأخير. كنتُ أحزن على كل بويضة، وأكتب قصائد عنها، شاعرة بالقنوط وبالارتياح معاً.

كان كامل كفاحي لتعلُّم الكتابة والتردُّد على مدرسة التخرُّج يحدث كأنما تحت تهديد يلوح في الأفق. ربما باستخدامي حجابي الحاجز بإخلاص شديد، كنتُ أُكـرِّسُ حياتي للفراغ ولليأس. كان نفوري الجسديّ من الأطفال عظيماً حينئذٍ إلى درجة أنّ رؤية زميلة لي في معهد بارنارد تدفعُ أمامها عربة أطفال قديمة بيضاء مجدولة في جادّة ويست إند، كان يُثير *غثياني*. فإما أنني كنتُ أتوقُ إلى الحمل إلى درجة أصبحتُ حسّاسة ضد أشواقي الخاصة، أو أنني صمّمتُ على ألاّ أفقد السيطرة. كنت أكره وأرثي لحال زميلتي التي استسلمتْ لضعف الأنثى وتتودّد بحبّ وترسم تعبيرات غريبة على وجهها لتلك الكتلة المنفوخة داخل عربة الأطفال. وأقول في نفسي بامتعاض، *لن تُنجِز أي شيء في حياتها*.

كانت بطلاتي هنّ سيمون دو بوفوار، وفيرجينيا وولف، وإليزابيث الأولى ملكة إنكلترا - أي ملكات الأدب والسُلطة اللائي لم يُنجبن أطفالاً. كان جليّاً بالنسبة إليّ أنَّ نكران انغماس الأنثى الضعيفة في قذارة الأمومة هو ثمن التفوُّق العقليّ. لقد كان حجابي الحاجز يحميني من لهبي، من عقلي، ومن استقلالي.

إنْ كان الخيار المتوفّر لديّ هو بيتي كروكر أو إليزابيث الأولى، فإنني لم أُبدِّد أيّ وقت في الانتقاء. لقد كانت الأمومة فخّاً بالنسبة إلى أمّي، وإلى جدّتي، وإلى النساء على امتداد مسار التاريخ. حتى قبل صدور كتاب ميري مكارتي *«المجموعة»*، ذهبتُ إلى عيادة مارغريت سانجر من أجل فحص حجابي الحاجز. كان ذلك من مراسم الانتساب إلى العام الأول في معهد بارنارد. والشيء الوحيد غير المؤكَّد هو ما إذا كنتِ ستذهبين أولاً إلى وُولوورث من أجل الحصول على خاتم زواج

أم لا. وانتقيتُ خيار ارتداء قفّاز أطفال أبيض اللون - كأنني نلتُ تثبيت عِمادي.

عندما اتَّضحَ أنَّ زوجي الأول مُصاب بانفصام الشخصيّة، هنّأتُ نفسي على بصيرتي لأنني لم أحبل. لكنَّ رعب الحبل لم يدعني بسلام. كان كل شهر عذاباً مُقيماً. كنتُ أدوّن دوراتي الشهريّة في مفكّرتي وكنتُ أُجنّ إذا ما تأخّرت يوماً واحداً. التحكُّم، التحكُّم، التحكُّم. كان السبيل الوحيد أمام المرأة لتبقى مسؤولة.

لم نكن أنا وألان قد تناقشنا في أمر الأطفال قبل الزواج. وبعد أنْ تزوّجنا لم نعُد نتناقش في *أي شيء*. ولكن حالما وصلنا إلى ألمانيا، بدأتُ أُصدِّق أنّه مخلوق غريب. لم أتمكن أبداً من هدم الجدار الذي فصل بيننا - ولذلك ما كان يمكن أنْ أتخيَّل أنني سوف أُنجبُ طفلاً منه. لقد فشلتُ في *حمله*، وبالتالي فشلتُ في الحمل - وهو أمر يمكن لبعض النسوة أنْ يُنفّذنه فقط مع رجالٍ مُعيَّنين، دون غيرهم. ولا أعتقد أننا حاولنا ذلك إلا في النهاية، عندما علِمتُ أنني راحلة، وفي فورة من الإحساس بالذنب، رغبتُ في أنْ أوقِعَ نفسي في الفخ. وحينئذٍ، كنتُ قد خرجتُ من الباب.

لكنَّ جون لطالما شعر كأنه لحم لحمي. كان قد قُيِّضَ لنا أنْ نُنجب مولي. لقد رأيتها تحوم فوق دخان لوس أنجليس الممزوج بالضباب ليلة لقائنا في منزل والديه وتحدّثنا طوال الليل في مولْهولاند درايف.

قالت «هيا، يا أمي. لقد وصلتُ!».

قلنا «انتظر لحظة - كائناً مَنْ كنت».

وبعد ذلك بثلاث سنوات، رحّبنا بقدومها.

كيف نجحتْ امرأة شديدة الخوف من فقدان السيطرة على الحَبَل؟

كان الدربُ تحفُّ به كلابٌ ضالّة.

بحلول ذلك الوقت، كنا قد انتقلنا إلى كونكتيكت، واشترينا منزلاً

يضمُّ خمس غرف نوم، وانتقلنا إليه مع شجرة مطاط من نيويورك وكلب فريشون فريز اشتريناه من المحل التجاريّ، من جادة ليكسنغتون، بالقُرب من بلومنغسدايل، قبل أنْ نهتدي إلى العناية بالحيوان. أو فلنقُل قبل أنْ أهتدي أنا.

أصبحتُ أعتني بالحيوانات بالتنافُذ (بغسيل الدماغ) جرّاء صداقتنا مع جون هافوك. نعم - ما زالتْ حيّة، العزيزة بيبي جون، أخت جيبسي روز لي، ذات الأنف النرويجي المثاليّ (الذي شاع شكله في هوليوود حقبة الأربعينيات)، وهي تُقيم في منزل مس هافيشام المثالي في كونكتيكت مع حشدٍ من الكلاب المُعاقة، والعرجاء والعوراء، وقطط بثلاثة قوائم، وحمير مُصابة بالتهاب المفاصل، وخنازير مُصابة بالسُكّري، وطيور بجع مكسورة الأجنحة.

إنها تُسمّيها «الأطفال»، وتُسمّي ملجأها مأوى الممثلين العجائز - وتعتني بها بتكريس متفانٍ حتى تكاد تنهضُ في أية لحظة واقفة على قوائمها الخلفيّة وتتلو مقاطع من مسرحيّة *«هاملتْ»*. جون، التي كنا قد قابلناها في إحدى النزهات البحريّة «المجّانيّة» (التي اتَّضح أنها ليست مجّانية كثيراً بما أنَّ المُعجبين يُلاحقونك على سطح السفينة حاملين مخطوطات تخصّ أقرباءهم، ومجموعات من العجائز يترجمون رباعيات الخيّام إلى لغة الأوردو أو يُعيدون صياغة مجموعة روايات أوز بأبيات شِعريّة كاملة وبالتالي ونتيجة ذلك تحتاجين إلى «وكيل أعمال جيد من نيويورك» يُبادرك بالكلام في ملهى من النيون عند الساعة الثالثة صباحاً لمناقشة «وضع النشر في نيويورك»).

كانت جون على متن السفينة - برفقة جمهرةٍ من المشاهير الجُدُد أو المعروفين قليلاً.

وأفضينا جون وأنا إليها بأننا كنا نفتش عن منزل في أرجاء الولايات المتحدة كلها خلال هذا العام بمناسبته المئويّة المزدوجة - بدءاً ببحيرة داهو مروراً بوايومينغ وسانتا فيه وإسلامورادا وكي ويست وحتى

بيركشايرز – وقد سئمنا إلى درجة أننا أوشكنا أنْ ننتقل عائدَين إلى كاليفورنيا، إلى بيغ سور هذه المرة، أو إلى نابا، أو حتى إلى بيركلي.

أشرقتْ عينا جون!

قالت «تعالا إلى ويستون، سوف أجدُ لكما منزلاً».

وفعلتْ. وساعَدْتنا على سُكناه. وبسبب جون، بقيتُ دائماً أهرعُ إلى أقرب ملاجئ الحيوانات عندما يصلني نداءٌ يقول إنَّ يوم القتل الرحيم يقترب موعده. كنتُ أشتركُ مع جين في العمل في التلفزيون (عندما كانت محطة التلفزيون المحليّة تعرض ذلك) من أجل الإعلان عن الحيوانات الرائعة المحكوم عليها بالموت، وعندما لا يعرضها التلفزيون المحلّي، كنا في المعتاد نعود إلى المنزل مع تلك الحيوانات المنبوذة.

في إحدى تلك الجولات، وقعنا أنا وجون في حب بَفي – أو بالأحرى، بفي وقعَتْ في حب جون. وكانت ذات الخطم الأحمر الكبير – التي كانت أقرب شَبَهاً بكلب اليتيمة الصغيرة آني، ساندي – تلاحقه في كل مكان من مِحرقة الكلاب تلك، وعندما رفَضَ أنْ يتبناها، بدأتْ تعوي كذئب في وجه القمر البدر.

قال جون «عزيزتي، أعِدكِ بأنك لن تندمي. وإذا لم تتقبّليها سوف أُعيدها إلى مأوى الممثلين العجائز، أعدك». وهكذا أخذنا بَفي معنا إلى المنزل.

لم يبدُ المكان أشبه بمحرقة كلاب – كان الجلد والعِظام مكسوّة بوبر أحمر رثّ، وبدا كأنَّ العيون البُنيّة الواسعة تعكس بؤس الإنسانيّة كلها من بدء الزمان في أعماقها الكلبيّة، وميلاً إلى قلب حاويات النفايات وأكل ما تحتوي، بالإضافة إلى ديدان ذات طول يكاد لا يُصدَّق تسكن أمعاءها والنتيجة الإصابة بإسهال لا عِلاج له.

بعد أنْ عضّت يده بينما كان يتفحّص أسنانها، قال أوّل طبيب بيطري أخذناها إليه: «هذه لا يمكن ترويضها، ويجب أنْ تُعدَم».

جعلنا ذلك أشدّ تصميماً على الاحتفاظ بها. وأعدنا بفي إلى المنزل، خلّصناها من الديدان، طهّرناها بالدخان، ونفضنا عنها القمل وغسلنا شعرها بشامبو البابونج وشطفناه بالكريم، وبدأنا نُطعِمها شرائح اللحم، ونزوّدها بأقراص فيتامين E، وبالأرز والجزر. وبقيَتْ تزمجر في وجهينا، وتتبرّز في أركان المنزل، وحاولتْ أنْ تلاحق سيارة نقل النفايات على الطريق. ولكن شيئاً فشيئاً، هدأتْ.

في غضون شَهرَين، بدتْ أشبه بساندي، كلبة آني - بعد أنْ تبنّاها دادي ووربكس وقدَّم معها برنامجاً استعراضياً دام طويلاً على مسارح برودواي - بخطمها الأحمر الكبير وقوائمها النحيلة وكثّة من الشعر المائل لونه إلى الحُمرة فوق قمّة رأسها الضيّق والطويل والجميل. غيّرنا اسمها وأصبح فيرجينيا وولف (ليتماشى مع اسم الكلب بوتشكين، تيمّناً باسم الشاعر ألكسندر بوشكين)، لكنّ اسمها في الأسر بقيَ عالقاً في أذهاننا بصورة ما. وبقيَتْ بفي، بوفوون، سكوفوون، السيدة ووف، هي أسماؤها المُستعارة. وأصبحت قُدوة للكلاب المُروّضة - درّبها بطريقة جميلة شخص أقوى إيماناً منّي، على أنْ تعدو، وتنبح على الغرباء، وعلى «ألا ترتكب أخطاءً» أبداً داخل المنزل - وهذا أكثر مما يمكننا القول في صالح الكلب بوتشكين، الذي كان يُحدِّد منطقته خارج المنزل أو داخله ويستمني على وسائد الأريكة إلى أنْ تُصبح يابسة.

في أول الأمر كان كلاهما لا يُطيق أحدهما الآخر في المنزل، ولكن أصبح كلٌّ منهما يُلاحظ أوضاع الآخر أمام الموقد أو وهما جالسان كمسنديّ كتب على طرفيّ الباب الخارجي. كانت بفي تعشق جون وكان بوتشكين يعشقني. وكان كلٌّ منا لديه كلب حميم في دراساته. لكنَّ بفي كانت كلبة تتصف بروح أعمق. في الأصل كانت قد نُبِذَتْ، وها هي قد نجتْ من الموت. إنَّ الكلاب والبشر يُصبحون أشدّ لطفاً بعد أنْ يصلوا إلى الدرك الأسفل.

قلت في نفسي، *إنْ كان في استطاعتي أنْ أُغيّر سلوك هذا الكلب* ،

فسوف أبذل أقصى جهدي. هل سـأسـتطيع حتى أنْ أُنجِب طفلاً - على الرغم من *أنني* كاتبة؟

لكنني تردّدتُ، لأنني كنتُ لا أزال أخشى المعركة الداخليّة للنساء. بحلول فصل الصيف كنتُ سأبلغ سن الخامسة والثلاثين، وكنتُ لا أزال أغازل الكلاب الضالّة في مواقف السيارات في السوق العامة، وأبكي على كلاب دهستها سيارات، وأكتبُ قصائد عن ذكاء الكلاب وحدسِهم.

ذات يوم، نظرتُ إلى بوفوون، وقلت في نفسي، لا يمكن للطفل البشري أنْ يكون مُزعجاً هكذا. والآن أنظر إليها - وأرى أنها مثاليّة. وما لم أعرفه كان أنَّ أوجه التشابُه بين الكلاب وأطفال البشر لا تدوم أكثر من عام أو نحوه. وبعد ذلك تُصبح مخلوقات صغيرة عنيدة لها إرادتها الخاصة، إلى أن تصل سن الثانية عشرة، عندما يُصبحون شياطين أو كوابيس - حسب قناعتك الدينيّة.

لكنَّ بوفوون، سكروفوون، سبيتوون، السيدة ووف المتميِّزة، هي التي جعلتني مُستعدة لإنجاب طفل. كان نوعاً آخر من الاستسلام. فحالما يسكن كلبٌ قلبك، لا يعود صعباً أنْ تفتحيه لطفل بشريّ.

كان بوتشكين هو سَنَدي، ومصدر إلهامي، وحارسي في شوارع نيويورك، وابني، وعشيقي. لكنَّ بوتشكين جاءني كجروٍ صحيح، مثاليّ. كان مُقدّراً لبفي أنْ تكون محبوبة على الرغم مما تُسبّبه من إزعاج. وأعتقد أنني عرفتُ أنَّ ذلك الإزعاج يُشكّل جزءاً من الأمومة وأنه إذا كان في استطاعتكِ أنْ تولعي بالكلاب، ففي استطاعتك أنْ تفعلي الشيء نفسه مع طفل بشريّ أو مع رجل. (يمكن أنْ تشكّل هذه الفكرة كتاباً رائجاً: *النساء اللائي يركضن مع الكلاب ويعشقنهم*).

طفل! طفل! وبدأنا نلعب لعبة الحواجز الموسيقيّة. بدأنا نفكّر في الأسماء. وأسسنا لإنشاء حديقة للخضروات واشترينا سيارة جيب (لم تكن مثاليّة لركوب امرأة حامل لكنها مع ذلك تصلح للشؤون المنزليّة)

كانت مولي ابنة بفي بقدر ما كانت ابنتي. لقد كان إخلاص بفي

وإخلاص جون ثابتين. أما إخلاصي فمتذبذب. ولهذا السبب كنتُ في حاجة إلى الكلب وإلى الرجل معاً. أنا أعلم أنَّه يُفترَض بالمرأة أنْ تكون قادرة على الالتزام بالتوالُد العُذري وألا تتراجع أبداً. لكنني كنتُ في حاجة إلى أمان رجل وكلب. هل كان في استطاعتي أنْ أُدرّب بفي لكي تكون أشبه بنانا في قصة *بيتر بان*؟ كان ذلك أمراً حاسِماً. في ذهني كنتُ أحوم فوق ويلتشاير، ولندن، وساحل العاج، ومنطقة الكاريبيّ. وفي جسمي، كنتُ أستعدّ لحمل طفل.

لطالما أردتُ أنْ أضعَ كتاباً يأسر جوهر غرابة حياة الكاتبة: أي أنْ تعيش حياتها الوهميّة المتطرّفة داخل غرفة مكتبها، داخل دفاترها، بين رفوف مكتبتها، بينما حياةٌ أخرى، عائليّة، تدور من حولها. كيف يمكن أنْ تتضافر هاتان الحياتان في قصّة واحدة. كيف يمكنكِ أنْ تكتبي في صباح أحد الأيام *هذا*...

« كان هناك فقط خمسة متشردين، يقودهم صبيٌّ لا يتجاوز العاشرة، يُريّل، ويرتعش كالمعتوه، ويصرخ طوال الوقت: هذه الساحرة الشريرة! إنها ترميني بسِحرها! مُشيراً بإصبعٍ معقوف إلى كلٍّ من أخواتي الساحرات.

في مركز الدائرة رجلان يقبضان على حسناء جميلة من مجمّع الساحرات ويُثبّتانها إلى الأرض الباردة، بينما الآخرون يتناوبون على اغتصابها، وبأقصى وحشيّة، ليس، كما بدا، للمتعة التي يمكن لحيوان أعجم أنْ يستمدّها من فعل شهوة إجباريّ بل لاستعراض وحشيتهم أمام إخوتهم المتوحشين. ربما اغتُصِبَت عشر مرات، أو اثنتي عشرة مرة. وفي حين أنها في أول الأمر تذمّرتْ وقاومتْ، إلا أنها بعد قليل بدتْ هادئة، وحدّقتْ عيناها جهة السماء، وفمها يُتمتم «أيتها الإلهة الكريمة، الرحمة». وعلى الأثر ازداد هياج ذلك المتوحش الذي كان حينئذٍ يقوم بتعذيبها بقضيبه الأحمر المنتفخ، بسبب ألمها، فأخرج

عضوه القبيح من عضوها المسكين المُنتهَك (الذي كان عندئذٍ يسفحُ دماً قاتماً)، ثم أقحمه بعنف داخل فمها، قائلاً: «سوف يُعلِّمكِ هذا كيف تُصلّين للشياطين وضغط عضوه عميقاً داخل بلعومها حتى احمرَّ وجهها واختنقتْ حتى بدا أنها توشك أنْ تموت. وعلى الأثر أخرجه، ثم تناوب كل من الرجال الآخرين على اغتصاب فمها، إلى أنْ أدمى بصورة رهيبة كما أدمتْ شفتها السفليّة المسكينة. وعندما ظننتُ أنني قد شاهدتُ الأسوأ ولم أعُد أتحمّل مشاهدة المزيد، قام أشدّ المجموعة قُبحاً، متشرِّدٌ ذو أنف بلوز الفريز وعينيّ خنزير طويلتين، بإخراج سيفه من غمده، متجاهلاً صراخها الأشدّ إثارة للشفقة ونزف باقي عضوات المجمّع، وحفر علامة الصليب داخل لحم جبينها، وحفرها عميقاً إلى درجة أنّ كامل وجهها اصطبغ بالدم، وسرعان ما خارت قِواها بين ذراعيه وماتت...».

ومن ثم تجلسين لتتناولي طعام الغداء مع عائلتك؟ تستطيعين ذلك. إنَّ السِمة الأجنبيّة للكتابة تُدعَم بأُلفة الحياة اليوميّة.

ولكنْ ماذا عن تلك اللحظات التي تبدو خلالها حياتكِ اليوميّة تنزفُ دماً في الكتاب، عندما لا تعلمين ما إذا كنتِ إريكا أم فاني، عندما لا تعلمين ما إذا كانت فاني هي الحامل أم أنتِ؟

إنَّ هذا الكتاب، وهذا الحمل، قُدِّرَ لهما أنْ يُغذّي أحدهما الآخر، وكل منهما سمن وتحول بمصير الآخر.

لقد نقلتُ فاني من كونها سندريلا في عائلة عريقة في ويلشاير، إلى فتاة اغتصبها زوج أمّها، إلى هاربة «تسعى وراء حظّها»، إلى الانضمام إلى مجمع ساحرات يعبدنَ إلهة الأرض، إلى الانضمام إلى عُصبة من اللصوص على غرار جماعة روبن هود تحمل اسم «رجاله المرحين»، إلى منبوذة وحيدة في لندن لتكسب قُوْتها من ممارسة الدعارة في ماخور الأم كوكستارت الشائن، وفجأة تنقطع أحداث الرواية برحلة قمتُ بها

إلى باريس من أجل دعم روايتي الثانية «*كيف تنقذين حياتك*»، أو، كما سُميّت بالفرنسيّة *La planche de salut* (الملاذ الأخير).

كنتُ وجون ننزل في فندق صغير بالقرب من سان سولبيس. وذات ليلة سقطنا على السرير مُرهَقَين، مُستنزفين، ومملوئين بالنبيذ الجيد، وكلانا يرغب في النوم، ولكنْ بدل ذلك تشبّث أحدنا بالآخر ومارسنا جنساً لم ينته وكأننا في غشوة.

بعد ذلك، بقيتُ يقظة ونامَ هو. كان رحمي مملوءً بالضوء. وكأنَّ كوكباً ضخماً يتوهّجُ داخلي. كأنَّ تينك البوصتين النابضتين تحت السُرَّة التي تجعلك تشعرين أنك قطعة موبيوس[3] Mobius strip تضم داخلها الكون كله.

في الصباح، كانت تُلتَقَط لي صور من أجل إحدى المجلات الأنيقة وأنا واقفة أمام مجموعة من الأسود الهائجة في نافورة - فإذا بمُترجمتي إلى اللغة الفرنسيّة تسـألني عن سبب ذلك الخبث الظاهر في عينيّ.

فقلتُ بوقاحة «كنا نصنع طفلاً ليلة أمس» - دون أنْ أتيقّن من أنَّ هذا صحيح.

سألتْ، وقد صدَّقتني: «وماذا عن *كتابك* التالي؟».

قلت بمرح «ماذا عنه؟»، مع تلك الفورة من النشاط التي كانت في الحقيقة استباقاً للحمل.

كانت هورتنس شابرييه حمراء الشَعر ضئيلة الحجم ومُدخّنة مُدمنة أخذتْ عهداً على نفسها أنْ تكون حارسة أدبيّة. كان لديها طفلان وكانت على علاقة ثلاثيّة متحضّرة جداً مع مترجمي الآخر إلى الفرنسيّة، جورج بالمون. وكنتُ قد قابلتُ جورج وهوتنس عبر هنري ميللر. كان هنري وجورج صديقين حميمين عظيمين من حقبة الثلاثينيات وكانت

3- سطح أُحادي الجانب مستمر، ويتشكَّل بليّ طرفيّ شكلٍ مُستطيل. وهذا المقطع من الناحية الرياضيّة لا يمكن توجيهه، ولا يُدرَك إلا كسطحٍ محكوم. نسبة إلى مخترعه الرياضي الألماني غوستاف موبيوس (1780 - 1867).

هورتنس مُحرِّرة شابة لامعة تعمل لمصلحة روبير لاغون. وكان هنري قد اكتشفَ رواية *«الخوف من الطيران»* وأرسلها إليهما، لكنه اكتشفَ أنَّ لافون رفض نشرها مُبرِّراً رفضه بـأنَّ «المرأة الفرنسيّة لا تحتاج إلى مُحلّلين نفسيين». (ربما لأنَّ لديهنّ **رجالاً** فرنسيين).

أعاد جورج وهورتنس فتح موضوع رواية *«الخوف من الطيران»*، وترجماها تحت عنوان *Le complexe d'Icare* (عقدة إيكاروس)، واكتشفا أنَّ المرأة الفرنسيّة أحبّتها بقدر ما أحبّتها المرأة الأميركيّة – وللأسباب نفسها. وفي سياق ذلك، أصبحنا أصدقاء مُقرّبين.

على الرغم من فرحي خلال اليوم الأول من الحمل، إلا أنَّ الرعب تولاني لاحقاً.

لقد تقبّلتُ تردُّد المرأة المُثقّفة (بين الطفل والكتاب) حتى أنني تأرجحتُ بين نوبات من الشك حول قُدرتي على تحقيق هذا التوازُن المُذهل.

لحُسن الحظ أنَّ الطفل ليست لديه أية شكوك، ولا جون، ولا بفي أو بوتشكين. كانوا ينامون معي ليلاً ككتلة من الحب، وفي الصباح، ارتقيتُ إلى العليّة لأواصل المزيد من مغامرات فاني، التي اكتشفتْ، ويا للدهشة، أنها هي أيضا حبلى.

«إنَّ توقُّع إنجاب طفل بالنسبة إلى امرأة بلا مهر، أو زوج، أو في اعتقادي بلا علاقات حب، يخلقُ، فوق كل شيء، مُقدرة هائلة على العمل الشاقّ.

إنَّ النساء الحوامل اللواتي يهزلن في الريف بينما أزواجهن يسعون وراء الفجور والقمار في المدينة، يمكن أنْ يُصابوا بكل مرض ينتقل إليهم عبر لحم المرأة. أما النساء المُضطرات إلى العمل ليُعِلْنَ أنفسهن، فإنهنّ، في اعتقدي، يُعانين من صنوف الوهن والكآبة، بدءاً بالكسل أو

الشقيقة، وعرق النِسا أو القيء. إنَّ الكسل بحدّ ذاته يُسبّب الكآبة، أما العمل الشاقّ والجيد فيُشفي الأمراض كلها بصورة أفضل من أي دواء باهظ الثمن.

لقد كان عملي شاقاً - شديد الوطأة على جسدي وأشدّ وطأة على عقلي، إذ ليس من السهل مُضاجعة رجل لا تكنّين له إلا الخوف والاشمئزاز. تخيّلي فتاة صغيرة ما زالت تعشق الحب نفسه، لأنها أُجبِرَتْ على المرح بين أغطية السرير مع رجال عجائز هزيلين، وممثّلين متقوّسي السيقان، وبائعي كتب رائجة تكسوهم نُدب الجدري، وتجّار شبان مُبتدئين لا تزال البثور تغطي وجناتهم الصبيانيّة».

إنَّ المشاعر التي تنشأ عن الحمل كلها - الرعب، الثقة في النفس، والسعادة - انتابت فاني وتُرجِمَتْ بلغة القرن الثامن عشر.

فكّرتُ في التخلُّص من الحمل ولم أفعل أي شيء. ولجأتْ فاني إلى صاحبة صيدليّة غير شرعيّة، هي السيدة سكينر، مع نيّة التخلُّص من الطفل، لكنَّ شجاعتها لم تُسعِفها. وتساءلتُ كيف سأكسب قُوْتي إذا لم أتمكّن من الانتهاء من تأليف هذا الكتاب. ومن ناحية أخرى، قرّرتْ فاني أنْ تكون عشيقة سريّة، بعيداً عن راعيها، والذي يتّضح أنه زوج أمّها، اللورد بيلارس، والد الطفل. إنَّ طفلتي تنام بأمان بعيداً عن الأذى في مهدٍ سلِّيّ أبيض. أما طفل فاني، من ناحية أخرى، فقامت بخطفه ممرّضة خبيثة واضطرتْ إلى أن تهرب إلى البحر لتنقذه. إنَّ كل موجة عاتية من الأمومة الباكرة تُرجِمَتْ إلى حبكة أخرى في الرواية. هكذا يصنع الكُتّاب كتبهم من اللحم.

ويسأل زوجك «هل نذهب إلى محل بيع الأطعمة الصحيّة؟»، وتخرجين من أحد شوارع لندن الصاخبة (تحفّ به قنوات مملوءة بمياه المجاري، ورؤوس السمك، والفاكهة العفنة، وجيف الحيوانات). وتهتفين من الطابق السفلي «سآتي في الحال!». وتُضيفين بضعة رؤوس

من السمك والقطط الميتة إلى القرن الثامن عشر قبل أنْ تندفعي خارجة لتشتري التوفو في القرن العشرين.

سمّاها غراهام غرين «نوع من الحياة» [4] - ولم يعمل أحد بعد على تطوير هذه العبارة. لكنها حياة أشدّ غِنى من معظم الحيوات، لأنها دائماً تُعاش في مكانَين، في قَرنَين، في استمراريّة زمنيّة واحدة.

تخيّلي أنكِ تعبرين الأكوان، متشبثة بأذيال المُذنبات، وأنت تعلمين أنَّ لا وجود للزمن. هذه هي حياة الكاتب. إنها أنقى صِلة بالكون يمكن لبشر أنْ يُقيمها. وهي أيضاً نوع من الصلاة.

إنَّ روايةً يُصبح فيها هذان المستويان من الحياة مستوى واحداً، ويتَّضِح أنَّ الكتاب المتنامي *يُحدِّد* الحياة الجديدة، سوف يكون أمراً مُثيراً لو أنها تُكتَب على أعمق مستوى. لكنَّ غالبيّة الكتّاب يلجؤون إلى وهم الحلم-الواقع بطريقة رخيصة. والعديد من الكتب *تبدأ* في «الواقع» وتُغامر داخل مرآة عالم الوهم، ثم تعود في النهاية إلى «الواقع». في المعتاد، يُستخدَم «العالم الحقيقيّ» كإطارٍ أو مُنطَلَق. وأحياناً تُعيد الشخصيات أغراضاً عاديّة من عالم الحلم لكي تُثبت أنها كانت هناك: جلد حذاء مُتهرِّئ للأميرات الراقصات الاثنتي عشرة. وشاح الطفلِ المتروك على طبق رويال دولتون في رواية *«ميري بوبنز تعود»*. ولأنَّ من تجربتنا اليوميّة في الحياة أنْ نحلم نصف الوقت ونكون يقظين في النصف الآخر، فمن الطبيعيّ بالنسبة إلينا أنْ نخترع قصصاً تُجسّد اضطرابنا بشأنْ أيّ العالمَين هو الواقعي. أيُعقَل أننا فقط *نبدو* نائمين هنا في حين أننا يقظون في مكان آخر؟ أيُعقل أننا نضع حياتين متناقضتين بانسجام في ما يبدو شخصيّة واحدة متكاملة؟ إنَّ هذين السؤالين يُبهرانا لأنَّ حياتنا منقسمة على الدوام بين الوهم والواقع. إنَّ الكاتب هو الذي يستخدم ذلك الانشقاق بوصفه ركاماً مختلطاً من القصص.

وأنا حامل بمولي، كنتُ أشدّ سعادة مما كنتُ في أي وقت آخر من

4- *«نوع من الحياة»*: عنوان الجزء الأول من السيرة الذاتية لغراهام غرين - المترجم.

حياتي. كنتُ كياناً يُصبحُ كيانين، أو اثنين يُصبحان واحداً. كانت أمزجتي هادئة. شعرت بالإشعاع، بأنَّ لديّ هدفاً، بأنني مُفعمة بالحياة. ورحتُ أكتب وأنا بعيدة عن كل الشكوك التي كانت قد شلّتني في الماضي. كنتُ أتمتع بتكامُل مثاليّ بين العقل والجسد. كان إلهامي داخلي. يحتلّ مركزي. كان في استطاعة عقلي أنْ يحوم. وكان جسمي يعرفُ معنى أنْ يتخلّص من تدخّلي.

ذلك كان أغرب شيء في الحمل. إنني لم أكن *مُضطرة* إلى أنْ أُسيطر. كان في استطاعتي أنْ أسترخي. وكانت قوّة عُليا تُدير هذا الأمر. يا له من نعيم بالنسبة إلى امرأة لطالما اعتقدتْ أنها يجب أنْ تتحكَّم في كل شيء.

في شهر حملي الثالث، تزوّجنا أنا وجون سرّاً في منزلنا في كونكتيكت. أخفينا الأمر عن آبائنا، وأصدقائنا، ووسائل الإعلام لأنني كنتُ قد كتبتُ مقالةً لصالح مجلة «فوغ» أُعلنُ فيها أنني لا أؤمن بالزواج. فكيف أتراجع عن رأيي؟ أيضاً. شعرتُ أنَّ حياتي كانت عامة أكثر مما ينبغي، وأردتُ أنْ أستعيد القوة التي تمنحها السريّة.

ظل هاوارد وبيت يلحّان علينا بوجوب الإنجاب. وتظاهر آباؤنا بعدم المبالاة. وقُبيل ولادة مولي تنازلنا وأخبرنا آباءنا بأنَّ الطفلة شرعيّة.

دُهِشتُ لأنني أحببتُ تجربة الحمل، وأنا التي كنتُ أخشاه. ودُهِشتُ لأنني وجدتُ نفسي سعيدة، وأنا التي استنكرتُ فكرة الزواج. وتملّكني هدوء لم أعرفه إلا نادراً. لعلّه من صِفات الطفلة. لقد كان الحمل تحوُّلاً سِحرياً إلى درجة أنني تفهّمتُ لماذا أنجبتْ أختي الكبرى ستة أطفال، وأنجبتْ أمي ثلاثة، وأختي الأصغر سناً طفلَين. إنَّ كثرة الإنجاب متأصّلة في عائلتي. وأنا العضو الشاذّ.

إنَّ الحمل يبدو سهلاً جداً إلى درجة أنَّ كل شخص بدءاً بطبيبي المولّد إلى مُدرّبي الرياضي لاماز وافقني: «سوف تنجبين تلك الطفلة بسهولة».

أقنعتْ تمارين اليوغا في الوقوف على الرأس في الشهر السادس

والانحناء إلى الأمام في الشهر السابع (أي جون ومُدربنا المشترك في تمارين اليوغا) بأنَّ عملية الوضع سوف تكون سهلة. وجولة الترويج للكتاب في الشهر السابع *أقنعتني* بذلك. واحد فقط ممّن أجروا معي حواراً تجرّأ على أنْ يسألني إنْ كنتُ حاملاً تحت ثوبي الفضفاض.

قلت «أنت أوّل مَنْ يسألني. أما الباقون فربما فقط اعتقدوا أنني أصبحتُ بدينة».

ظلّت طاقتي فائضة حتى الشهر الثامن تقريباً - وحتى في ذلك الوقت، وأنا أجرّ بطني معي كبيضة ديناصور، ظننتُ أنني أبدو رائعة. لقد جعلني الإحساس بنرجسيّة الحمل أقفُ لكي تُلتَقَط لي صور فوتوغرافيّة. وأنا أداعب بطني. ربما كانت ديمي مور معي في المدرسة الابتدائيّة، وما كان يمكن لأحد أنْ ينشرها على صفحات المجلات في عام 1978، ولكنني كنتُ حتماً سوف أقف لتؤخذ لي صور لو أُتيحت الفرصة. كنتُ أرتدي، كلما أُتيحت لي الفرصة، أثواباً شفّافة تُظهِرُ بطني.

أتذكَّر أنَّ الكاتب جيرزي كوزينسكي داعبه في حفل كوكتيل. قال «أنا مستعد أنْ أهَبَ أي شيء مقابل أنْ أمرّ بتجربة الوضع ولو مرّة واحدة».

لكن الطفلة لم «تخرج بسهولة». كان الموعد المُحدَّد هو الأول من شهر آب، لكنها ظلّتْ عالقة هناك، تضغط على مثانتي حتى آخر ذلك الشهر. ولم تُقرِّر أنْ تتزحزح إلّا بعد الثامن عشر من آب. وكنتُ أقرأ كتاباً من القرن الثامن عشر عن «المهرجانات التنكريّة والراقصة» في مكتبة بيكو عندما بدأتْ مياهي تتدفق. فقمتُ بهدوء بإعادة الكتاب إلى أمين المكتبة ورجعتُ إلى المنزل.

اتصلنا أنا وجون بالطبيب وانتظرنا بدء الانقباضات.

ولم يحدث أيُّ شيء.

ولجتُ المطبخ وصنعتُ شطيرة ضخمة من شريحة اللحم مع بندورة مزروعة في المنزل. وحالما التهمتُ الشطيرة كلها، بدأ الانقباض.

كانت الاتصالات من الآباء المترقّبين كل خمس دقائق أشدّ إزعاجاً من الانقباضات. كان هوارد يصرُّ على ذهابنا إلى المستشفى. فهي حفيدته قبل أي شيء! وبدل أنْ نتجادل، وافقنا. كنتُ قد اتصلتُ بمُدرّبي لاماز، وأعددتُ نُسخي من *«الخداع الصِرف»* وديوان *«أوراق العشب»*. كنتُ قد صمّمتُ على إنجاب هذه الطفلة بصورة طبيعيّة - كائناً ما كان معنى هذا.

وكما كان حال كلّ فصل آخر من فصول حياتي، أوشكتُ أنْ أضع طفلتي في توقيت ذي صِبغة سياسيّة حادّة. كان التخدير في ذلك الوقت يُعتبَر إجراءً فظّاً ومُناهِضاً لحقوق المرأة. وحدهم المُخنّثون يحدث لديهم خِدار شوكيّ. لا يمكن لأي امرأة-أمّ قوية أنْ ترضخ للضربات القاضية! لذلك استمرّت ولادتي تسع ساعات كاملة من الألم الفظيع، إلى أنْ خارت قِواي.

وعندما اقترح طبيبي إجراء عملية ولادة قيصريّة، رفضتُ، مُستشهدة بنصوص من حقوق المرأة. وحده بطء نبض قلب الطفلة دفعني إلى تغيير رأيي.

كان جديراً بفاني أنْ تموت جرّاء ذلك، وكان الطفل سيُصاب بندوب مبضع الجرّاح، سيكون مُقطَّع الأوصال، أو قد يولد ميتاً. وهناك تحت تأثير التخدير، وأنا في حلم من القرن الثامن عشر، كيف كان لي أنْ أعرف أنَّ تشوُّهاً في العصعص (نتيجة حادثة قديمة لركوب على الحصانّ) قد سدّ السبيل أمام ابنتي إلى العالم وأنَّ إجراء العمليّة القيصريّة هو الخيار *الوحيد*.

صرختُ في وجه ديفيد واينستاين، طبيب توليدي المحبوب، ونحن عالقان في المصعد في طريقنا إلى غرفة العمليات، «لا تقتلني، إنني في منتصف الطريق إلى إنجاز أفضل كتاب في مسيرتي المهنيّة!». أنقذنا عامل صيانة ملاك يرتدي زيّاً أخضر بلون جندب (وبجناحين غير مرئيّين)، وهرعنا نغادر المصعد - والطبيب يدفع المِحفّة وأنا أهذر - على طول الرواق إلى غرفة العمليات.

لم يُسمَح لجوناثان بدخول غرفة لعمليات. وأنا لم أكن على طبيعتي. كانت تلك حلقة مُقدَّسة من الأطباء. قاموا بتخدير الحبل الشوكي وزال إحساسي بساقيّ. استطعتُ أنْ أشعر بالقطع ولكن بلا ألم.

رَفعوا كتلة من الدماء لكي أراها.

سألتُ «أهذا غشاء الجنين؟».

قال ديفيد، واضعاً مخلوقاً صغيراً مُجلَّلاً بدماء بلون فلز الحديد بين ذراعيّ. كانت مُغطّاة على عجل بقطعة ورديّة اللون وهي تُرفرفُ جفنيها الغارقين بالدم. قابلتْ عيناها بزُرقتهما البحريّة عينيّ.

قلت، وأنا أبكي وأغسل وجهها بدموعي «أهلاً بك، أيتها الغريبة الصغيرة».

لقد وُلِدَتْ كفكرةٍ مُفاجئة ناقشها اثنان قُدِّرَ لهما أنْ يُصبحا عشيقين على متن غيمة ممزوجة بالدخان تُخيِّم فوق أخدود كاليفورنيا، قاطعة كل تلك المسافة إلينا، مُسافرة بصبر سيراً على قدمَين لم تلمسا الأرض أبداً (كما قالتْ كوليت عن ابنتها هي). كانت ملكي وليست ملكي في وقت واحد. كانت أجمل ما شاهدتْ عيناي وأشدّها إثارة للرعب. لقد سقط الله إلى حياتي متلبّساً وجه مولي. أو بالأحرى رهينة الله. ومنذ ذلك الوقت لم تعُد حياتي تخصّني وحدي.

انتظرتُ، وأنا مُرهقة، ومبتهجة، إحضارها إلى غرفتي. وصلت طفلة وليدة موصولة بالأنابيب، بالعينين الفاحمتين نفسيهما، وجزّة الشعر المائل إلى الحمرة جُعِلَ على شكل قوس ورديّ لامع، داخل صندوق من البلاستيك الشفاف الصافي كأنها هدية عيد الحب. ضممتُها إلى صدري، مُتسائلة إنْ كانت تلك هي الوضعيّة السليمة. ونجح الأمر. وَرضَعَتْ. ولم أقوَ على إزاحة عينيّ عنها وكأنها شكلٌ ظهر وسوف يختفي بسرعة كما ظهر.

ثم انهرتُ. مرَّ يومٌ أو ليل من أحلام التخدير ومن ثم استيقظتُ من

جديد على الوجه الوردي والعينين الفاحمتين وجزّة الشعر المائل لونها إلى الحمرة. ما هو مصيرنا - أقصد مصيرها ومصيري؟ أيّة معجزة خلقَتْها؟ كيف يمكن لمثل تلك المعجزة أنْ تكون عاديّة وخارقة في وقتٍ واحد؟ لقد حوّلَ مولد مولي هذه اللا أدريّة إلى مؤمِنة.

«آه ما أعظمَ معجزة ولادة طفل! يُنتَزَع من الفراغ، ولم يعِش من الحياة أكثر من تسعة أشهر، لكنه يصل بأصابع يديه وقدميه كاملة النموّ، وشفتيه الرقيقتين كأوراق وردة، وعينيه اللتين بزُرقة البحر العميقة (وكأنه أعمى)، ولسانه الورديّ أكثر من داخل صَدَفَة، يتلوّى ويتمعّج كدودة حديقة في فصل ربيع مُخضّل بالماء.

مرّتْ ما يُقارب ثلاثة عقود منذ أنْ رأيتك للمرة الأولى، يا عزيزتي بيليندا، لكنني لن أنسى ما حييتُ مشاعري وأنا أملأ عينيّ المُتعبتين من مرأى وجهك النحيل والطويل. قد تتلاشى آلام الوضع (آه، كم تلاشتْ!) لكنَّ أُعجوبة تلك المعجزة - تلك المعجزة العاديّة جداً - لولادة طفل جديد هي حكاية تُحكى مراراً وتكراراً أينما وُجِدَ الجنس البشري!».

تلك كانت الأسطر التي كتبتُها من أجل فاني عندما كانت التجربة جديد ونضرة في ذهني.

لقد احتفظتُ بكل مُزقة من الورق من المستشفى (لائحة الأسماء المُشوّشة)، بكل صورة فوتوغرافيّة (بما فيها خطوط الصونوغرام على مدى عشرة أسابيع)، والسوارين المتطابقَين - سوارها وسِواري. وبدافع من هذه التذكارات ألّفتُ كتباً من أجلها - كتباً من أجل عيد مولد كل فتاة صغيرة، وكتاباً خاصاً بمناسبة انتقالها إلى مرحلة المُراهقة في سن الثالثة عشرة. لقد كنتُ كاتبة قبل أنْ أُصبح أمّاً، والكاتبة هي الأكثر اكتمالاً. إنَّ الأمومة هي مذاقٌ مُكتسَب. تتعلّمينه وأنت راكعة باتّضاع على رُكبتيك. أما أنْ تُصبحي كاتبة عن الأمومة فهو الجزء الأسهل.

وأخذناها إلى المنزل، ولكن في أول الأمر لم تفرح جرائي كثيراً بمجيء طفل جديد. وعندما أرضعتها من صدري نبحتْ بفي، وخلّفَ بوتشكين قرصاً من برازه في كل ركن من كل غرفة.

جاءتني ممرّضة مُريعة من وكالة في غرينيتش لتواصِل القيام بأفضل ما تقوم به حاضنات الأطفال: أي أنْ تجعل الآباء يشعرون بأنهم أغبياء. وعلى مدى يومين كانت تأكل وكأنها حاضنة مُرضِعة. حجبت الطفلة عن الأنظار داخل غرفتها وكانت تُحضِرها إليّ مرة كل بضع ساعات، فقط لكي تلقي بتلك العبارة الكلاسيكيّة الخاصة بالحاضنة: «سيدة فاست، إنَّ حليبك ليس دسماً بالقدر الكافي». وفي يوم عطلة الحاضنة، كنتُ أُخرِجَ العربة الموضوعة بالقُرب من سريري وأبدأ بمداعبة طفلتي بشوق طوال النهار وطوال الليل – وذلك عندما لا أقوم بإرضاعها من صدري بجنون أو ألتقط لها صوراً فوتوغرافيّة بجنون. كانت تأسر انتباهي كأنها كوكبة متوهجة من النجوم. وكانت عيناها تسحرانني. وابتسامتها الأولى جعلتنا أنا وجون نرقص الفالس حول الغرفة والطفلة بيننا. كنا مفتونين بها، كأننا الوالدان الأوّلان في التاريخ.

لكنني كنتُ قد صمّمتُ أيضاً على إنهاء روايتي في الوقت المُحدَّد. كنتُ في صباح كل يوم أقطع المسافة إلى مكتبي الكائن في الطابق الثالث سيراً على الأقدام، مُصمّمة على الالتزام بالموعد النهائيّ. كان الناشرون قد منحوني مبلغاً من المال لا تكسبه المرأة في المعتاد. فإذا لم ألتزم بالموعد النهائي، فسوف يستعيدونه. ولم يخطر في بالي أنْ أرتاح يوماً. بل ببساطة ضاعفتُ عملي وتقدّمتُ. كنتُ أغذّي الطفلة طوال الليل. وزاد عدد الصفحات التي أنتجتها، ولم ينقص. ربما كنتُ أخشى أنْ تتلاشى موهبتي داخل الأمومة. وكنتُ أختبر هذه الفرضيّة في كل يوم.

على غِرار أفراد جيل ضربة السوط الآخرين، كان أمامي الكثير لأُثبته – لنفسي، لأمي، ولكل الرجال الذين قالوا إنه أمر مستحيل. كنتُ في حاجة إلى إثبات أنَّ أمي كانت على خطأ. إنَّ المرأة *تستطيع* أنْ تقوم

بالأعمال كلها. كنتُ أمزح قائلة «لقد كسبنا حقّنا في أنْ نكون مُرهَقَات إلى الأبد».

ولكن ألم يكن ذلك أفضل من عدم السماح لنا بنشر أي كتاب؟

هل أندم على انسياقي؟ كيف أستطيع ذلك؟ كنتُ تحت الاختبار من أجل حياتي. كان حق المرأة في أنْ تخلق الحياة والفن لا يزال قضية مطروحة في كل مكان. وما زال كذلك، بطرق متعدّدة.

لم يخطر في بالي أنْ «آخذ إجازة من العائلة». لقد شعرتُ بأنني محظوظة جداً لأنني امرأة يُسمَح لها أنْ تعمل من دون أنْ تُثير شغباً. كانوا سيرمونني من القارب دون التفوُّه بكلمة واحدة.

عندما أصبح حجم مولي بحجم سلّة، كنتُ أُحضِرها أحياناً إلى مكتبي لتنام على الأرض تحت طاولة مكتبي وأنا أكتب. لكنها سرعان ما أضحت كبيرة جداً ونهمة جداً بحيث تفعل ذلك.

كانت عصبة الحليب[5] قد نسيتْ أنْ تُبلغني أنَّ الأطفال الذين كبروا يُحبون أنْ يرضعوا بين حين وآخر. كانت تحاول أنْ تجلس معتدلة، وتنظر حولها، تقبضُ على الأشياء، وتتكلَّم مع نفسها. ورحلت الحاضنة وجاءت لولا لتحلّ محلّها. وكانت لولا تمثّل حلم الجميع عن الحاضنة.

كانت لولا في السابق تمارس لعبة الأرقام[6] أثمتْ وعشقتْ عدداً من الآثمين قبل أنْ تعود إلى يسوع، ولكن عندما قابلتُها، كانت سيدة متديّنة ورعة، وقسيسها هو مركز حياتها - أسمعتني الأشرطة التي توزِّع مجاناً - وكانت مولعة بفطائر البطاطا الحلوة، وقوائم الخنزير، ومُخلل الخضروات، والأطفال. كانت تغني لمولي، وتهزّها، وتدهنها بالمرهم لتُبعِد عنها الأنفلونزا - كانت لولا تقول «إنَّ أمراض البرد لا تحبّ المراهم» - وكانت تأخذها إلى الكنيسة في هارلم «لكي تتبارك».

5- عصبة الحليب: منظمة غير حكومية، وغير ربحيّة، تقدّم نصائح من أجل الإرضاع من ثدي المرأة - المترجم.

6- لعبة الأرقام: لعبة قمار يمارسها المشردون في الشوارع - المترجم.

واكتشفتْ أمي الأمر ولم يُعجبها. لكنني رأيتُ أنه لا يمكنكِ أنْ تُصبحي مُباركة بالقدر *الكافي*.

قالت لولا «إنَّ تلك الطفلة تُصفّق بيديها وتسبّح باسم يسوع. تلك الطفلة تهتف *هاللويا*».

قلت «أعلم، أعلم يا لولا، لكنَّ أمي قلقة».

سألتْ لولا «وما سبب قلقها؟».

قلت «إنها لا *تحتاج* إلى أي شيء».

قالت لولا «أنتم اليهود قوم مجانين».

وافقتها «معك حق».

كان في استطاعة لولا أنْ تُرسِل الصداع «إلى النوم»، وتُشفي أمراض البرد بعصير الليمون مع مرهم فيكس، وتقع كتب الصلاة في قمة لائحة أفضل كتبها. كانت إلهة منزل تشكّل تهديداً مُضاعفاً، وتقوم بالأعمال كلها. وبوجود لولا لا تشعرين بأي خوف. فإذا لم يستطع مرهم فيكس شفاء المرض، فإنَّ يسوع يستطيع.

جاءت لولا وأنهيتُ العمل على روايتي. ومع صدور الرواية كانت مولي قد بلغت الثانية من العمر.

إنَّ نعيم تأليف رواية في أجواء القرن الثامن عشر وأنا حامل بطفل منحني إحساساً بالامتنان لمجرّد كوني حيّة. ولو أنني كنتُ حقاً فاني ولديّ تاريخ في الإنجاب، لكنتُ الآن ميّتة، ومولي أيضاً. ومهما فعلِ العِلم ليُدمِّر العالم، فإنه قد قام حتماً بإنقاذ حياة النساء وأطفالهن. إنَّ الطبيعة لا ترفق بنا إذا تُرِكَتْ لتستخدم أدواتها. والآن إننا ننجو من مخاض ونواجه أزمة سن الخمسين. إنَّ ميري وولستونكرافت لم تمر بهذه التجربة.

إننا بشرهنا إلى المزيد فالمزيد من الحياة، نادراً ما نحمد الله على ما بين أيدينا. لقد أصبح العديد من صديقاتي أمهات وهنّ في أربعينيات

أعمارهن وأطفالهن غاية في الجمال والذكاء. لقد وسّعنا حدود الحياة، لكننا نجرؤ على الغضب على التقدُّم في السن.

إنَّ ذلك يبدو عقوقاً. لكننا نحن جيل ما بعد الحرب الكونيّة ثلّة من العاقّات الملعونات. لا أحد وضع لنا حدوداً، ولذلك نحن بارعات في الإسراف والشكوى، ورديئات في إبداء الشعور بالامتنان. وعندما نكتشف أنَّ للحياة حدوداً، نحاول أنْ نحطّم أنفسنا في ثورة غضب قبل أنْ نعرف أهميّة الاستسلام. نحن الأطفال الموهوبون، والجيل المؤهّل. علينا أنْ نضرب القاع مراراً وتكراراً قبل أنْ نفهم أنَّ الحياة أساسها الاستسلام. وإذا لم يصعد القاع لاستقبالنا، فإننا نعيش فيه، حاملين معنا أحباءنا.

وحدها القِلَّة المحظوظة تسبح عادة إلى الهواء والنور.

-10-

الطلاق وما بعده

«إنَّ كل شيء يتغيَّر ما عدا القلب الإنسانيّ، كما يقول الحكماء القُدامى، لكنهم على خطأ».

• دنيس دو روغمون، من كتاب
«الحب في العالم الغربيّ».

هذا الفصل لا أرغبُ في كتابته. ولكن يجب أنْ يكونَ جزءاً من كتاب *«الخوف من الخمسين»*، لأنَّ الطلاق هو شعائر وصول سن البلوغ في جيلي - إنه ندبة شعائريّة تجعل كل ما يحدث بعد ذلك يبدو قابلاً للاحتمال.

لا شكّ في أنَّ للأمر صِلة بطول أعمارنا. إنَّ تلك النسوة اللائي متنَ في أثناء المخاض لم يُتَح لهنّ أنْ يحصلن على أكثر من زوجٍ واحد، وكل أولئك الرجال، إذا لم يموتوا متأثّرين بالجُدري أو بالحمّى أو بداء المفاصل أو بغرق سفينة أو بالسُكر، تزوّجوا مراراً من دون أي إحساس بالذنب ومن دون دفع نفقة.

إننا نتزوج كما لو أنَّ حياتنا ملكهم، ولكن مع بلوغ سن الثلاثين أو الأربعين أو الخمسين، بعد أنْ يموتوا، نجد أنفسنا أشخاصاً مختلفين. لقد تغيّرتْ قيَمُنا: تبدو مسرّاتنا أحلى مذاقاً، وآلامنا أكثر حِدَّة، لكننا

أيضاً أقلّ عُصابيّة. نحن الآن نريد حياةً مختلفة مع حبٍّ مختلف. إننا نتفوّق على أزواجنا في النمو كما أنَّ أُناس القرن الثامن عشر تفوقوا في نموهم على حجم مقابر عائلاتهم. لم يكن *مُقدّراً* لنا أنْ نعيش كل ذلك العمر.

في الثامنة والثلاثين، وأنا مع طفلة وكتاب رائج، بعد أنْ حرّرتُ أنثى القرن الثامن عشر التي في داخلي، شعرتُ بأَنَّ في استطاعتي أنْ أفعل *أيّ* شيء. وشعر جون، الذي كان في الثانية والثلاثين، بالقلق بشأن مسيرته المهنيّة، بسبب الطفلة.

قال «إنَّ ترتيبي في هذا المنزل هو الثالث دائماً. أولاً الطفلة، ثم الكتاب، وأين موقعي أنا بينهما؟».

حقاً أين؟ لم يستطع أنْ يرعى الطفلة أو يُعيلنا. ولم ينشر كتباً رائجة. لا بدّ أنني كنتُ أزدري عجزه، ولكن هو أيضاً ازدرى عجزي. كان الوقت قد حان لرعايته وطمأنته هو - ولكن كانت لديّ طفلة وموعد مُحدَّد للانتهاء من تأليف الكتاب، وعلى الرغم من شجاعتي الظاهريّة، لم أستطع أنْ أقوم بذلك كله. لقد كنا نحن الاثنين نرزح تحت مطالب الطفلة بحيث لم يتوفّر لدينا وقت ليُساعد أحدنا الآخر. لذلك بدأنا نقوم بالأشياء التي يؤذي بها اليائسون كل منهم الآخر، ونحن نشعر في وقت واحد بأننا مُثقَلان بالأعباء ومُسَاءٌ فهمُنا ووحيدَين.

كان لدينا أكثر من أي وقت سابق سببٌ لنكون معاً. وتباعدنا أكثر مما فعلنا في أي وقت سابق.

مع بلوغ مولي سن الثالثة، كان كل منا قد راكمَ ما يكفي من الشعور بالضيم من الآخر ليشعر بأنه على صواب. وكانت الطفلة هي المتفرِّج البريء على هذا كله.

لقد كنتُ فخورة بأنني الشخص الرئيس الذي يكسب لقمة العيش. أما الآن فبتُّ أمقت هذا. كان الضغط شديداً جداً، وشعر جون بالفخر لأنه كان الراعي. والآن أصبح يشعر بأنَّ ذلك نال من رجولته - أو هكذا

بدا أحياناً. إنَّ الطفل يرمي بكل أدوار الآباء التي تعرفينها من عهد الطفولة في وجهك. لقد أردتُ «أنْ يعتني أحدٌ بي» - مهما كان معنى هذا. وهو أراد «أنْ يتحرَّر» ويطير.

في حفلة عيد مولدي الثامن والثلاثين (عندما كانت مولي في عامها الأول)، دفعني التوتّر والإرهاق إلى ممارسة لعبة الروليت الروسيّة مع حياتي. كانت حفلة ذات طابع مكسيكيّ، فشربتُ عدداً كبيراً من كؤوس المارغريتا وكنتُ أترنح عندما اقترب مني «صديق» ليُقدِّم لي أقراصاً صغيرة زرقاء اللون كهدية عيد ميلاد. فتناولت اثنين منها وسرعان ما فقدتُ الوعي.

أما الباقي فلا أستطيع أنْ أُعيد تركيبه إلا عبر ما سمعت من أقاويل.

انخفض نبضي وشعرتُ بالبرد. لم أقوَ على الحركة وأنا على أرضيّة الحمّام ولاحقاً وأنا على السرير. أخرجني صديقٌ طبيب وأطعمني وقدّم لي القهوة وفيتامين سي. تقيّأتُ، وشربت القهوة، ثم تقيّأتُ من جديد. أمضيتُ ليلة من الأحلام المشوّهة، وصور الصحراء في حنجرتي.

عندما استيقظتُ في نهاية المطاف في الصباح، كان الضيوف قد غادروا. شعرتُ بالمهانة وبالمرض. لقد فاتتني حفلة عيد ميلادي. ولاحت نهاية العالم في الأفق على شكل صف من زجاجات التكيلا الفارغة. كان شعوري بالخزي هائلاً.

الأمر الذي لا يُصدَّق أنَّ الطفلة كانت على ما يُرام. فجأة فكّرتُ فيما كان يمكن أنْ يحدث لها وانتابتني نوبة متأخّرة من الرعب. كانت مشكلتي أعمق مما ظننت. لقد تحولت متعة حصول كل شيء إلى إرهاق الحصول على كل شيء. كنتُ مفرطة التعب. إن ضغطَ رغبتي في أنْ أمنح الطفلة كل ما احتاجت إليه وأمنح جون ما احتاج إليه، وأمنح نفسي ما احتجتُ إليه، أوصلني إلى هذا الجرف. ودخل إدماني على الخط، طالباً أنْ يتغذّى. إنَّ إدماني يتحول إلى طعام أو خمر أو إدمان على العمل بالحماس نفسه. وحالما أبدأ بفهمها، تُعدِّل من سرعتها.

إنَّ الإدمان أيضاً جزءٌ من القصة التي لا أريد أنْ أحكيها - وليس فقط لأنَّ الكثيرين حكوها وتباهوا بالعثور «على الجواب». واحترمت فيهم جزئياً القُدرة على ألا يستخدموا الكلمات للتعبير عن كل شيء. والروح لا تسمع إلا في الصمت. ومواجهة النفس لا تحدث في العلن. وإعلان شفاءك هو الطريقة المُثلى لفقدانه. وهناك ساحرة عجوز تقول «إنَّ تقاسُم السلطة يعني ضياعها». وهذا يصحّ خاصّة على الإدمان.

إنَّ الإدمان هو مرض العصر. إنه ماكر وقويّ. إنه ينشأ من نهمنا الروحيّ المُزمن ويتغذّى بتركيزنا على الربح والإنفاق، وعلى الأخبار والإشاعات خارجنا. إنَّ كل ما نحتاج إليه يحدث داخلنا. والتركيز على تقارير الآخرين ما هو إلا إلهاء عن حاجات روحنا. إنَّ الإدمان يسْمَن على سحقنا المُزمن لحياتنا الداخليّة. إننا نعتقد أنَّ الروح لا وجود لها لأننا لم نفسح لها إلا مساحة ضئيلة لكي تظهر في حياتنا. إنها لغو تحقيق الذات.

إننا نمنح زيجاتنا أيضاً مساحة ضئيلة جداً للاستمتاع. والنتيجة هي أننا نهرب منها، ونفتش عن أنفسنا. نحن نعتقد أننا فقدنا أرواحنا. وهذا صحيح. ولكن ربما نستطيع أنْ نعثر عليها معاً - إذا عرفنا كيف نفعل ذلك.

إنَّ النّدم هو الأشدّ مرارة. لا غرابة أنَّ دانتي جعله العقوبة الأساسيّة في الجحيم. إنني الآنْ أندم على فشلي في إنجاح ذلك الزواج - على الرغم من أنَّ ذلك لم يكن في مقدوري.

في فصل الصيف الذي كانت مولي ستبلغ فيه الثالثة من العمر، هربتُ من جون إلى أوروبا، آملة أنْ يلحقَ بي. ذهبتُ إلى المنزل الريفيّ لمترجمتي إلى الفرنسيّة في مين. لكنَّ جون لم يحضر. بدل ذلك، ذهب ليقوم برحلته الطويلة، غرباً. تشاجرنا بمرارة عبر هاتف الأطلسي. وخلال إحدى تلك المُشاجرات، قلت بغضب، من غير قصد مني «اخرج من حياتي».

وفعل. ورجعتُ إلى الوطن إلى حطام منزل متهدِّم، وكان جون ينتقل.
كنتُ قد استعدتُ صوابي وأردتُ منه أنْ يعود. لكنه رفضَ رفضاً باتاً. أراد أنْ يرحل. وأعطيته الإذن «بالتحرُّر». كان يمر بفترة من اليأس الشديد منذ ولادة الطفلة. لقد شعر بأنه فقد مكانته، ونُبِذَ، ولم يعُد محبوباً. لا شك في أنني أتفهّم ذلك الآن. أما حينئذٍ، فكان العبء على كاهلي ثقيلاً جداً. لم يكن في نفسي حيزٌ للتعاطُف إلا مع مولي *(وفاني)*. بل إنني لم أتعاطف حتى مع نفسي.

استمر هذا الوضع بضعة أشهر. وعاد إلى الوطن، ثم سافر، ثم عاد، ثم سافر - يجمع الأحزان ويُقابل زوجته التالية.

كنا قد نسفنا الثقة التي كانت بيننا. وبعد ذلك، أصبح كل شيء مستحيلاً.

انتهى الجزء القانوني من إجراءات الطلاق بسرعة كبيرة. لم أطلب منه أي شيء. وهو لم يطلب شيئاً. وغادرنا وكأنه لا وجود لطفلة بيننا. لذلك لم يكن الأمر قد انتهى بيننا. وبما أننا تقبّلنا الأمر، تقبّلته مولي أيضاً.

ماذا يحدث عندما يُصبح شريكك وأفضل أصدقاءك عدوّك؟ إنكِ تصرخين وتقطعين المكالمة الهاتفيّة في منتصف الليل. وترتمين على السيارات وعلى الرجال. وتُسرفين في الشرب. تُقيمين دعوى وتُقام ضدك دعوى، تنفقين نقوداً - وتثورين غضباً.

لا يمكنكِ أنْ تلغي هذا كلّه - على الرغم من أنّه يبدو عديم النفع في نهاية المطاف. إنه، خلاف المخاض، لا ينتهي إلا بالفراغ. وكما يحدث في الحرب، سوف يُسعدك ببساطة أنْ تخرجي منها حيّة.

لا أعلم كيف اجتزتُ تلك الأيام المؤلمة المريرة الظلاميّة. كنتُ أتعثّر وأنا أعبرها وانتابني صداع شديد.

أتذكّر أنني ذهبتُ لأدرِّس في مؤتمر كتّاب بريدْلوف، بما أنني مُنحِتُ شرف الإقامة والكتابة في منزل روبرت فروست الريفي المبني

من الخشب الأبيض، وأنني لم أشعر إلا باليأس. كنتُ أجرُّ نفسي لحضور الدروس (تاركة مولي مع شبح فروست ومُدبّرة منزل أجنبيّة)، وأجرُّ نفسي وأنا عائدة إلى المنزل. يبدو أنني ظننتُ أنَّ الكحول سوف يساعدني، وكنتُ في أتمّ الاستعداد لتعاطيه، لأنه في تلك الأيام كان في استطاعتك أنْ *تتخصّصي* في الخمر في بريدلوف. وكانت الاجتماعات المعقودة تدور حصراً حول كيف تعلّمين الزجاجات. إنَّ كامل الجبل يحتاج إلى برنامج من 12 خطوة. حتى الأشجار كان لديها عقول مخمورة. إنها تنحني وتتمايل. وأشجار القيقب تحول لونها إلى الأحمر من فرط الخجل. كان هناك كحول على كراسي جبال أديروندايك، وكحول في الحظيرة، وكحول في قاعة استراحة هيئة التدريس. كانت السماء عند الغسق ملوّنة بالكحول. وتمّ تحديد موضوع الدورة: إنه شرب الكحول حتى فقدان الوعي (كما كان والدي يقول عن صناعة الموسيقى في حقبة الثلاثينيات)، ثم النوم وشرب القهوة للتغلّب عليه. قاومي تلك الأفكار السوداوية بأي ثمن. ولكن علام تحصلين في النهاية؟ على اللاوعي.

كنتُ أتّصل بجون من أكشاك الهاتف من جميع أنحاء فيرمونت، آملُ في أنْ أُرجئ الأمر، ولكن لا شيء بدا في الأفق. وبكيتُ إلى أنْ احمرَّت عينايّ. ثم بكيت أكثر.

معظم الناس ذهبوا إلى بريدلوف هرباً من أزواجهم. أمّا أنا فكنتُ أرغبُ في العودة. كان هناك السُكر المعتاد ومُضاجعة ذريعة الأدب النبيلة. كان هناك العماء المعتاد متخفّياً خلف قِناع الشهوة.

كانت مجلة *تايم* تكمن، تعدُّ مقالاً رئيساً حول جون إرفينغ، الذي كان يوشك أنْ ينشر الرواية التي صدرتْ بعد «غارْب». وكان جون غاردنر يمتطي بمرح دراجة ناريّة سوف تقتله قريباً. وهيلما وميغ وولتزر - تينك الأم والابنة الموهوبتين - كانتا على الدوام تُعاملانني بلطف وأنا وسط حزني المُشوّش.

بلغت سمعي إشاعة تقول إنَّ مجلّة تايم سوف تنشر إشاعة حول زواجي المُحطَّم. وانفجرتُ في وجه صحفيّ كامن، مؤكِّدة الإشاعة بغباء.

بدأتُ علاقة حب بريئة مع كاتب لطيف، متزوج. ولجأنا ذات ليلة إلى نُزُل وكان من دواعي ارتياحنا معاً أنه كان عنيناً. كان يفكّر في زوجته التي كانت في تلك اللحظة تنطلق مُسرعة إلى فيرمونت للّحاق به. وكنتُ أفكّر في جون، الذي لم يكن قادماً. كان يمدُّ يده نحو شبح جسدها لكي يلمسني. وكنتُ أمدّ يدي نحو شبح جسد جون لكي ألمسه. وبعد فترة وجيزة، تخلينا عن محاولاتنا المُجهَضَة لممارسة الجنس، على الأقلّ بعد أنْ أثبت كل منا للآخر جاذبيّته. وأصبحنا صديقين.

وبقيَ الجنس ورطة. فبقدر ما احتجنا إليه، لم نكن نستطيع أنْ نمارسه من غير إحساس. دائماً الإحساس يقفُ عائقاً، اللعنة.

بعد بريدْلوف، أخذت الأمور تزداد سوءاً.

كان الفراغ في المنزل فظيعاً.

كنتُ عزباء وأنا في التاسعة والثلاثين، ولكنْ في هذه المرّة مع طفلة ومجموعة كاملة جديدة من الظروف يجب أنْ أتعوَّد عليها. واختلفت طقوس المواعيد. *ومن جديد* تغيَّر عالم الجنس. وبدا أنه من *المتوقَّع* منكِ أنْ تنيكي أي رجل وألا تأخذي الأمر على محمل الجدّ.

وأنا عزباء في السابعة عشرة، أردتُ أنْ أتزوّج وأتجنّب إلهاء الجنس. وأنا عزباء في الثانية والعشرين، حظيتُ بعامٍ أو عامَين من الحريّة، ثم انتابني الرعب وتزوجتُ من ألان. وفي سن الثلاثين، انتقلتُ من تلك الزيجة مباشرة إلى المغامرة الرومانسيّة التالية، مع جون. أما الآن، وأنا في التاسعة والثلاثين، أصبح في استطاعتي أنْ *أعيش* خيالاتي إذا شئت. ولكن فجأة بدا الآتي كئيباً. إنَّ الأخيلة تبدو حلاً فقط بالنسبة إلى المتزوجات.

في غرينتش، كانت تعيش صديقة لي متزوجة كأنها الكاهنة الكبرى

للزنا. كانت مِثال المرأة الجنوبيّة التي انتقلتْ إلى الشمال. كان زوجها طبيباً جرّاحاً بارداً يتعامل فقط مع أدوية الرياضيين الشائعة. ولم يكن يلزم المنزل أبداً. أما هي فكانت تبدو كأنها لا تغادره *أبداً*. كأنها كانت تقضي يومها في المحافظة على عتق الأثاث، وترميم اللحف العتيقة، والمحافظة على المنزل الخلّاق على نمط مارثا ستيوارت - المرأة التي فازت بحرّيتها عبر تمجيد عبوديّة المنزل.

في الواقع، كانت زوجة الجرّاح تمضي أسابيع عديدة من الساعة الحادية عشرة وحتى الرابعة في غرفة فندق في ستامفورد مع مجموعة من الخنازير يبلغ عمر كل منهم نصف عمرها. كانت ماهرة في الإبقاء على الزنا ممارسة أنيقة ومنفصلة - كما تفعلين عندما يتعلَّق الأمر «بأسلوب حياتك». كانت شقراء، لكنها تذهب إلى ستامفورد وهي تعتمر شعراً مُستعاراً شائباً. كانت دائماً تجلب معها اختيارها الخاص من الشمبانيا المُعتّقة، وكافيار بيلوغا، وخبز الأرز المصنوع بيتياً، ومُخلّل الكبير، وأنواع البصل المزروعة بيتياً - مفرومة. كانت مناديل طاولة الطعام من الكتّان، والأزهار نضرة من حديقة المنزل. كان جديراً بالسيدة ستيوارت أنْ تستحسن ذلك.

كانت تحتفظ بملفّ يضم سير حياة خاصة لصديقاتٍ ترمّلن أو تطلّقن حديثاً. وصنّفتها حسب الأحرف الأبجديّة حسب مهاراتهن في السرير، وشفّرت المهارات وِفقاً للحرف الأول من أول عبارة *كتبتها* عنهن - ل، ن،ع،ح، والتي اتّضَحَ أنها تشير إلى لعق البظر، النيك، العِناق، حكّ الظهر.

وهذ يُخبركِ شيئاً عن أولويّاتها.

حصلتُ على سبع من السير مُرفَقَة بصور (لقطات قذف قضيب بلا رأس)، ووصف واضح للرجل وجسمه، وكلمات تحذير من الاجتماع به في المنزل. والتوصية باستخدام الواقي، ولكن في عام 1982، كان استخدامه لا يزال اختيارياً.

قدّم اثنان من أولئك الرجال المساعدة لي على مدى شهرين. كان

أحدهما سائق شاحنة، والآخر مُشغِّل أسطوانات. وفي كتابي ***«مظلات هبوط وقُبلات»*** سمّيتُه «مُشغِّل قضيبي» ساخرة، كالمعتاد، من ألمي. ولكن اتَّضحَ أنَّ التخلُّص من كل منهما أمرٌ صعب.

يقول الرجال إنَّ كل ما يُريدون هو الجنس، ولكن عندما تمنحهم النساء ذلك، يتّضح أنهم يريدون المزيد. التملُّك. الزواج. الملكيّة المشتركة[1].

عندما تريدين الجنس فقط دون إعطاء أرقام هاتف المنزل، غالباً ما يسخطون ويرفضون إخراجه. وأحياناً، يُصابون بالوهن.

إليكِ سبباً آخر لن يستطع الرجال والنساء التعامُل معه: إنها السلطة. إنَّ المرأة التي تريد الجنس فقط تمتلك السلطة كلها، والعديد من الرجال يُفضّلون أنْ يحدث لديهم ارتخاء القضيب على أنْ تسيطر عليهم المرأة. إنها تُصبح أقرب شَبَهاً بالمومياء. والرجال الذين يُشكّلون استثناءً لهذه القاعدة يتحولون في الغالب إلى عالة بصورة تامة وشبه عاجزين عن مسح حتى أنوفهم بأنفسهم. وأخيراً ترسلينهم لكي يحزموا الأمتعة لأنهم يتطلّبون من العمل أكثر مما يتطلَّب الأطفال. أو الكلاب.

أما لعب الأدوار فمسألة أخرى. قد يحبّ الرجل أنْ يلعب قليلاً دور المتبوِّل في السرير، والشحّاذ، والفتى المُشاغب مع امرأة مُسيطرة جنسياً مأجورة. والرجال يتفهّمون مثل تلك الصفقات. إنَّ لعبة السلطة واضحة. أمَّا أنْ تسيطر عليه امرأة يتقاسم حياته معها فأمر مُزعج. عندما يتحول دور تمثيليّ إلى واقع، تبدأ المشكلات.

هل هذه قاعدة أبديّة؟ لا توجد قواعد أبديّة. لكنها حالة عامة بما يكفي لتستحق الانتباه.

إنَّ العديد من الرجال يُفضّلون المرأة القويّة ولكن مع ذلك عليهم أنْ يحتفظوا بمساحة ما تحت سيطرتهم. وبدونها، الجنس مستحيل وتتيه عيناه.

1- أي بين الزوج والزوجة - المترجم.

بوصفي أماً عزباء تكسب عيشها كنتُ مُقبلةً على تعلُّم كل الأشياء التي لم تتمكن بنت حقبة الخمسينيات من تعلُّمها. كانت تلك الفترة الأشد حرجاً في حياتي - السنوات التي تغيَّرتْ خلالها خلايا جسمي وعقلي وأصبحتُ سيدة - ولا أقول المُهيمنة - على قَدَري.

ولكن قبل أنْ أتقدَّم نحو نفسي بعد الطلاق، كان على جسمي أنْ يتخلَّصَ من سمومه. سنوات اعتمادي على والديّ، وعلى جَدّي، وعلى الرجال، الذين تجلّوا على شكل صداع واحد هائل دام ستة أشهر. لم ينتج أي شيء في تخليصي منه - لا الأسبرين، ولا الكودئين، ولا التومفرانيل، ولا النارديل، ولا الخمر، ولا المخدرات، ولا الرجال.

بدل أنْ أضاجع رجالاً لا أرغب كثيراً في مضاجعتهم، كنتُ ألجأ إلى المخدرات. وبدل أنْ أتسكّع مع أصدقاء ليسوا أصدقاء حقاً، كان هناك الخمر. وفي أوقات الصباح، كنتُ أتناول أقراص الأسبرين. وفي الليل، أتناول الفاليون أو الكودئين. وتمرّد رأسي. كان ينبض كنابضٍ في الفضاء. كانت كل جرعة من الأنودين تجعله أشدّ تصميماً على التألُّم. كان *في حاجة* إلى أنْ يشعر بذلك الألم. تلك كانت الرسالة الكونيّة. وكلما فشلتُ في الإصغاء، كان يضرب كأنه طبولٌ خفيّة على جمجمتي.

إنَّ الجسد أكثر حِكمة من ساكنه. الجسد **هو** الروح. إننا نتجاهل أوجاعه، وآلامه، وثورانه، لأننا نخاف الحقيقة.

الجسد هو رسول الله.

عثرتُ على طالب طب صغير، عضو بارز رائع، وثلّاجة مملوءة بالفِطر السِحريّ. غصتُ معه في أيامٍ من الطيش والتهوّر[2] لم أعِشها في أيام المدرسة. كانت السَلَطة مزيجاً من ألوان الأسود والعفنيّ، مذاقها لاذع. لكنها تجلب النسيان. كنتُ قد اشتقتُ إلى حقبة الستينيات. تلك كانت طريقتي لاستعادة شبابي.

2- بالإنكليزيّة، يُقال حرفياً أيام السَّلَطَة، وهذا يُبرِّر ما ستقوله الكاتبة في الجملة التالية - المترجم.

لكنَّ طالب الطب، بقدر ما كان عذباً، لم يتمكّن من شفاء صداعي. لقد كان أكبر مني. كان بحجم أنف غوغول - كان صُداعاً تجريدياً. كان صُداعَ قَدَري. كان الصداع الذي تحوّلتْ إليه حياتي.

كان الصداع إشارة إلى استعصاء معرفة الذات. أين كان الدكتور ميتشرايخ حينئذٍ؟ كان أبعد من أنْ يتمكن من مُساعدتي. كان مريضاً في ألمانيا. وسوف يموت قريباً.

كان رأسي يتفجّر. هل أراد أحدٌ أنْ يولَد؟ هل كانت أثينا تستعد للاندفاع؟ أم كانت باندورا؟ هل كنتُ سأُصبحُ مُحاربة أم فقط حاملة صندوق الشرور؟

ربما الاكتئاب عند المرأة هو شغف غير مُعترَف به للولادة من جديد. ثمة شيء يلحّ في الظهور. إنه ليس الطفل؛ لا يمكن أنْ يكون إلا الأمّ.

إنَّ الأمومة تُثير مخاوفنا القديمة كلها بشأنْ الهجر. عندما تؤدّي الأمومة إلى الطلاق، يُثبتُ الهجر أنه ليس فقط خوف بل أعمق حقيقة نعرفها. لقد عثرتُ وأنا أتغلغل خلال الكهوف البدائيّة لذاتي، على طفلة تبكي. لم تكن ابنتي، بل كنتُ أنا.

وهكذا بدأتْ الملحمة - سبع سنين من دورة الموت، والبعث ثم الموت. وآخر دورة من سبع سنين أنتجتْ مولي. والتي تليها أنتجتني.

في سن التاسعة والثلاثين، تعلّمتُ كيف أُبدِّل إطار سيارة، وكيف أجرف الثلج وكيف أُكوِّم الحطب. تعلّمتُ كيف ألتزم بموعد نهائيّ من دون أنْ أنتحب على كتف أحد. أصبحتُ ممسوسة بحطب الوقود. ليت كان هناك دائماً نارٌ في الموقد، إذن كان كل شيء على ما يُرام.

لا بدّ أنَّ بروميثيوس كان امرأة. لقد ارتددتُ إلى طبيعتي القديمة: أخترع النار طوال النهار، وأترك كبدي يُنتزَع طوال الليل.

قبل الرحيل كان جون قد صرف لولا من عملها. صرفها لأنه كان يعلم أنَّ عملي يعتمد عليها. إنَّ وجود كاتبين في منزل واحد أمرٌ مُتعِب.

وعندما يكون أحدهما رجلاً والآخر امرأة، تُصبح الحاضنة، بالإضافة إلى الطفل، مُرتهنين.

إنَّ الحاضنات يأتين ويذهبن. إنهنّ لا يرغبن في أنْ يُجرفنَ إلى الريف مثلي. ولا يأبهن بما إذا أنهيتُ كتاباً أم لا. لقد أتينَ إلى أميركا بحثاً عن أزواج أو للحصول على شهادات أو على بطاقة إقامة أو ليُصبحن مُدمنات- يحدث هذا مع الصبايا منهن على أية حال. أما الأكبر سناً فهنّ إما غريبات الأطوار أو خرجنَ حديثاً من المصحّات العقليّة أو أنهنّ مُصابات باكتئاب مُزمن. والمتبقيات يتركن العمل إذا لم تدفعي لهن نقداً.

كتب و. ه. أودن ذات مرة يقول إنَّه في مدينته الفاضلة، سوف تمثّل كل التماثيل العامة طباخين موتى وليس قادة مُرتزقة. وفي مدينتي الفاضلة سوف تمثّل التماثيل العامة نساءً عشن حياة خاصة وعامة بالحماس نفسه: كهارييت بيتشر ستاو، ومارغريت ميد، وهيلاري روام كلينتون. (زويه بيرد[3] هي جان دارك لكونها حصلتْ على كل شيء. لقد حصلتْ على العناية وهي طفلة، ولكن العناية *الخاطئة*. والأعجوبة هي أنها حصلت على أيّ رعاية أصلاً).

لا شك في أنني عانيت من أجل دفع نقود لامرأة أخرى لترعى ابنتي - ولكن كيف كان لي أنْ أعيل نفسي وإياها إذا لم أعمل؟ كنتُ قد أصبحتُ الأب والأم. والوالدان يتحاربان داخل رأسي.

إنَّ هذا كلّه شأنٌ دنيويّ: مجرد تجربة عاديّة لجيلي المتمرّد. إننا عالقات بين أمهاتنا (اللواتي يلزمن المنزل) والجيل التالي (الذي تشبّث بحقّه في أنْ يُنجِز دون مقابل)، وعانينا كل الفترات الانتقاليّة في تاريخ

3- زويه بيرد (مولودة عام 1952): محامية أميركيّة ورئيسة منظمة ماركل. كانت هيلاري كلينتون قد رشّحتها لتكون المحامي العام للولايات المتحدة، لكنها سحبتْ ترشيحها بعد اكتشاف أنها عيّنتْ مُهاجرين غير شرعيين ولم تدفع الضرائب، وذلك في قضية مشهورة، قضية ناني غيت. بعد ذلك كرّست جهودها للعمل لصالح منظمة ماركل من أجل تحسين الظروف الصحيّة والأمن القومي - المترجم.

المرأة داخل رؤوسنا. وكل ما فعلناه بدا خاطئاً. وكل ما فعلناه تلقّى انتقاداً قاسياً.

إنَّ مقدرة المرأة على الإنجاز يتوقف على عدم وجود طفل أو عناية بطفل. وفي أميركا، عندما لا نؤمن بأنَّ الطبقة الدنيا تستطيع أنْ تقوم «بعمل المرأة»، فإنَّ المرأة نفسها تُصبح طبقة دنيا. من أجل الحب.

لا أحد يشكّ في أنَّ الحب حقيقيّ. إنه من أجل أطفالنا. ولكن من المُفتَرَض بنا أنْ نبديه في الخفاء وألا نأتي على ذكره. قال الفيلسوف ألفريد نورث وايتْهيد، الذي لم يكن امرأة أصلاً، إنَّ حقيقة مجتمعٍ ما هي ما لا يمكن البوح به. وعمل المرأة ما زال لا يمكن الكلام عنه. إنه يُسمّى *بالأنين* – حتى من قِبَل نساء أُخريات. إنه يُسمّى *الانغماس الذاتيّ* – حتى من قِبَل نساء أُخريات. ربما الكاتبات من النساء مكروهات لأنَّ التجريد يسمح بالاضطهاد ونحن *نرفض* أنْ نكون مُجرّدات. كيف يمكن أنْ نكون كذلك؟ إنَّ معارك كفاحنا ملموسة: الطعام، الوقود، الأطفال، توفير غرفة خاصة لكل فرد. إنَّ هذه الأشياء الأساسيّة نادرة – حتى بالنسبة إلى المميَّزات. إنَّ الأمر يقترب من المُعجزة في كل مرّة تُنهي امرأةٌ تربّي طفلاً تأليفَ كتاب.

إنَّ حياتنا – من المولد وحتى طاولة الكتابة – هي حياة مُعظمِ أفراد الإنسانيّة: ليس هناك وقت كافٍ للتفكير، والإرهاق لا ينتهي. إنَّ نُخبة الذكور التي تتلقّى العناية، والنساء المُستعبَدات اللواتي يعمدنَ إلى إرضاء حاجاتهن الجسديّة، لا يجعلون مصاعبنا «حقيقيّة». إنَّ الحقيقيّ هو «العجز»، وحروب البترول في الشرق الأوسط، أو كم سيقتطع البنتاغون من حليب أطفالنا.

هذا هو التقسيم الحقيقي في العالم اليوم: بين الذين يقولون بلا مبالاة «العالم الثالث» ويعتقدون أنهم جزء من «العالم الأول»، والذين يعلمون أنهم هم العالم الثالث – أينما عاشوا.

إنَّ النساء في كل مكان هنّ «عالم ثالث». وفي بلدي، حيث معظم

النساء لا يعتقدنَ أنهنّ جزء منه، هنّ في الغالب عالم ثالث، واقعات في فخ أسطورة أنهن «عالم أول».

قبل أنْ أُنجبَ طفلة كنتُ بدوري واقعة في فخ تلك الأسطورة. كنتُ أُسلِّمُ بتميُّزي. ولم أعلم أنها أسطورة إلا بعد ولادة مولي. عندئذٍ فقط اندمجتُ مع أمي.

بعد رحيل لولا، توافد عدد من الحاضنات رفضتُ أنْ أترك ابنتي في رعايتهن، ثم جاءت ميري بوبنز، أو بريدجيت من برايتون. كان لبريدجيت من برايتون ثديان ضخمان، وشعر أسود، وشفتان حمراوان، ووجه جميل على شكل قلب. وسرعان ما وقعَتْ في حب عامل الكهرباء الذي كان يُساعدني على بناء غرفة مكتب فوق الشجرة. وسرعان ما غادرا إلى نيو هامشير مع مشروبه، وشاحنته، وأدواته، ووصفاتها لكعكة البندورة، وخثارة الليمون، وفطيرة الكاسترد، ورغبتها في خدمة (إذا لم أكنْ أنا) رجل. كان صديقها يغار من مولي. كان هو يحتاج إلى حاضنة.

بأية طريقة أخرى كان يمكن لهذين الشابين المسؤولَين تماماً أنْ يتركا طفلتي في مغطس الحمّام ويهبطا إلى الطابق السفلي لكي يُحمّلا سيارة شاحنة؟ وهرعتُ مُسرعةً، بحاسّة الأم السادسة التي تكمن في الغدّة الكظريّة، خارج غرفة مكتبي لأجد ابنتي تُقرقر وتهدل وسط فقاعات الصابون في حمّامها. ماذا لو أنني وجدتها غارقة داخلها؟ وفي أثناء مُغادرة الحاضنة وعامل الكهرباء، دهسا كلبي الحبيب بوتشكين - طفلي الأول، ورفيقي. ومات وهو يعوي كروح ضائعة على طاولة الطبيب البيطريّ. ولم أعلم إنْ كان هو الذي مات أم أنا.

لقد رحل بوتشكين، لكنَّ مولي كبرتْ، كما يفعل الأطفال. وتعلَّمتُ أنْ أواصل الكتابة من الفجر إلى الفجر خلال عطلتها الأسبوعية التي تقضيها مع والدها. وغيّرت ساعات تركيز النشوة باللجوء إلى الإرادة الصِرف. (وعلى غرار الكاتبة جورج صاند، وعلى خُطى كل الكاتبات الأمّهات، كنتُ أكتبُ طوال الليل وأتهاوى على الأريكة عند الفجر).

ولم أعُد أنام. ولكن ما أهميّة النوم عندما يحوم شبح كلبك وهو يئنّ عند الباب خلال الليالي المُمطرة، الطويلة؟ كانت بفي قد غادرتْ مع جون. ومات بوتشكين تحت دواليب سيارة نقل حبيب الحاضنة، عامل الكهرباء (وحلَّ محلّه – ولكن طبعاً لم يحلّ محله أحد حقاً أبداً – إميلي دوغنسون، كلبة فازت بجائزة، وببوتشيني، جروها القزم). طبعاً، لا يمكن استبدال الكلاب حقاً إلا بقدر ما يمكن استبدال الناس. إنَّ لكل شخص تكوينه الخاص ورائحته. ولا عَجَب أنَّ أعمق خساراتنا دائماً تُعلنها الكلاب. نحوّلها إلى قصائد ونسير في طريقنا.

أفضل الأصدقاء

جعلناهم
على هيئة مخاوفنا
لكي نبكي على الأبواب،
عند الفراق – ولو بإيجاز،
لكي يستجدوا الطعام عند المائدة،
وينظروا إلينا بتينك العينين
الكبيرتين المتوجّعتين،
ويبقوا بجوارنا
عندما يهرب أولادنا،
ويناموا على أسرَّتنا
في أشد الليالي حلكة،
وينكمشوا لدى سماع الرعد
كما فعلنا
في نوبات خوفنا
ونحن أطفال.

جعلناهم بعيون حزينة،
مُحبّين، مُخلصين، خائفين
من الحياة من دوننا.
رعينا استقلاليتهم
وحزنهم.
نبقيهم لنتذكّر خوفنا.
نحبهم
بوصفهم الضيوف غير المُعتَرَف بهم
لرُعبنا
من القبر – الهجران.

أمسكي مخلبي
لأنني أحتضِر.
نامي على تابوتي.
انتظرني،
يا ذا العينين الحزينتين
في وسط الممر
الذي ينعطف مُجتازاً جدار المقبرة.

أسمع نباحك،
أسمع عواءك الحزين –
آه ليت كل الكلاب التي أحببتُها
تحمل تابوتي،
وتعوي في وجه السماء الخالية من القمر،
وتتمدَّد معي وتنام
عندما أستلقي.

ثم عادت الإلهة الأم - التي غابت بعض الوقت بصورة غريبة - رقيقة، وأرسلتْ إليّ مارغريت.

جاءت، كما اكتشفتُ لاحقاً، لأنَّ ابنتها المجنونة شاهدتْ إعلاناً في صحيفة *بريدجبورت بوست*، فقالت «أعتقد أنَّ هذا موجَّه إليك، يا أمي».

قالت مارغريت «حاضنة؟ لكنني لم أتلقَّ التدريب لأكون حاضنة».

«لكنكِ ربّيت أربعة أطفال، يا أمي، وتحبّين القراءة».

من الواضح أنَّ الوكالة أطلقتْ إعلاناً بالتعاون مع « كاتب مشهور». ربما توقّعتْ كيم وأمّها رجلاً. وربما لا. لقد كانت الذبذبات الحسّاسة على صواب. لقد تنبّأتْ كيم بضوء يسطع لأجلنا جميعاً خلال السنوات القليلة القادمة. سوف تنمو مولي. وأنا سأكتب. ولن يموت المزيد من الكلاب.

عندما قابلتُ مارغريت علِمتُ أنها حقيقيّة وفرحتُ كثيراً. كانت صاحبة عينين زرقاوين صافيتين تقابلت مع عينيّ على الفور. كانت مارغريت قد ترمّلت قبل نحو عام، وسهرت على صحة «عزيزي بوب» أثناء إصابته بمرض لو غيريغ[4]، لذلك كانت في حاجة إلى طفل تعتني به بقدر ما احتجتُ إلى امرأةٍ مثل مارغريت. كان زوجها قد وقعَ مريضاً حالما تقاعد. ثم مرّ عامان من الانحطاط، ثم كان احتضاره الذي طال أمده.

عندما قابلتُ مارغريت في فلوريدا، مكتئبة ووحيدة، كانت تعاني من حزن عميق. ذهبتْ لحضور لقاءات أل-أنون لكي تتعلّم كيف تتوقف عن صبّ جام غضبها على الله. وتعلّمتْ كيف تكون حازمة، وليس مُستنكرة.

بما أنها والدة سائق شاحنة لمسافات طويلة يقود عربة نصف مقطورة، كانت متعوّدة على الركض إلى كل مكان وعلى اتّخاذ قرارات سريعة. كانت قد فقدتْ طفلاً واحتفظتْ بأربعة آخرين. لقد استسلمتْ لحياتها كما لم أفعل أنا. وجاءتني لتعلّمني كيف أفعل ذلك.

4- مرض لو غيريغ: مرض يُصيب الأعصاب المتحكمة في حركة العضلات الإراديّة، وسُمّيَ باسم لاعب البيسبول الأميركي الذي كان أول مَنْ أُصيب به لو غيريغ (1903 - 1971).

عندما قابلتُ مارغريت، كانت ممتلئة من فرط الحزن. امرأة ضئيلة مُستديرة ذات عينين حادّتين وشعر أشيب. جاءت لتعيش معي ومع مولي مدة عقد من الزمن. عندما وصلتْ كانت مولي في الخامسة، وفي الخامسة عشرة عندما تقاعدتْ مارغريت إلى الأبد (خلال تلك الفترة الفاصلة حدثت عملية تقاعد أخرى، لكنّها لم تدُم).

لم تكن مارغريت خادمة - إلا إذا كانت خادمة الرب. كانت في حاجة إلى مَنْ يحتاج إليها. ولكي تقهر الموت، كانت في حاجة إلى جعل الأشياء تنمو. كانت دائماً تقول «لا يمكن أنْ أقوم بهذا العمل إلا لأجلك». لقد كانت مُعلِّمتي، عرّابتي في احترام الذات، بالإضافة إلى كونها حاضنة مولي. وقد عرَّفتني إلى التأمّلات اليوميّة، إلى الاعتناء بروحي، وإلى عيش كل يوم على حِدة. لقد كان العيش مع مارغريت أشبه بالحصول على فرصة ثانية لعيش فترة الطفولة. كنتُ قد عشتُ طفولة يهوديّة عُصابيّة. والآن أحظى بالنوع الثاني.

إنَّ أمّ الطفل تحتاج بدورها إلى أم. لقد أعدنا أنا ومولي ومارغريت بناء القبيلة البدائيّة. كان يمكن لتجمُّعنا في كونكتكت أنْ يكون بمثابة كهوف لاسكو[5]. ومنحتني مارغريت في كل يوم الساعات الخمس المتواصلة التي احتجتُ إليها لأكتب. وساعدتني على إبقاء نار الحماس مشتعلة.

كانت منحتُها هي أنفَسُ ما تلقّيت - بعد مولد مولي وحليب أبويّ المُخمَّر. والداي منحاني الحياة. ومولي منحت تلك الحياة معنى. وساعدتني مارغريت على الحِفاظ على حيويّة تلك الحياة. من دونها، كان يمكن للأمومة أنْ تبتلع كتاباتي كلها.

سافرنا أنا ومارغريت ومولي إلى كل أرجاء العالم. عاملنا العديد من الرجال برقّة، ثم تراجعنا. وأطعمتْ مارغريت عشّاقي حساء دجاج بيتيّ الصُنع، كانت تُبلغهم بصدق أنني «آخذ دشّاً» عندما يتّصلون بينما أنا أُضاجع رجلاً آخر، وكانت حاضرة للاعتناء بمولي في أثناء غيابي. لقد

5- كهوف بدائيّة تضم رسومات بدائيّة وتقع في جنوب غرب فرنسا - المترجم.

علَّمتني أنَّ الأمومة هي مسؤوليّة مُشتركة. وعلَّمتني أيضاً كيف أُصغي إلى طفلتي. وأخيراً تخلّتْ عن كل شيء وتركت لي زمام الأمور كلها. وعندما طالبتْ مولي بي وليس ببديلة لي، تراجعتْ مارغريت إلى القيام بدور مُدبّرة المنزل التنفيذيّة.

في المرحلة الأولى من فترة المراهقة، كانت مولي محظوظة بما يكفي لتكون لديها أُمّان في المنزل لتتمرّد عليهما. كان لديها قدر كافٍ من الأجوبة البارعة لكلٍّ منا. وقدر كافٍ من الحنق. إنَّ كل فتاة تحتاج على الأقلّ إلى أُمَّين لتشجبهما.

كم دمَّرَ عالَمُنا حياةَ المرأة! إنَّ الفلاحة المصرية التي تحفر في طين النيل الرخو لديها على الأقلّ أخوات وقريبات يُساعدنها. وعلى الرغم من أنها قد تكون فقيرة وأُميّة، لكنها ليست وحيدة مثلنا في حمّاماتنا الفخمة. إنني أتخيَّل المرأة الأميركيّة «صاحبة الامتيازات» وهي في حمّام الفخم مع طفلة تحبو وتحدّق إليها بين ساقيها وهي جالسة على العرش. إنَّ لديها الكثير من الأدوات ولكن ليس يدان إضافيّتان تحتاج إليهما أكثر. ربما لدى المرأة في أميركا أفضل أنواع الحمّامات لكي تنظّفها. ولكن في الغالب ليس لديهن مَنْ تتشارك معهن الأطفال.

إنَّ المرأة في أميركا تقرأ صفحات «أسلوب الحياة» التي تقوم في الحقيقة على تمجيد التسوُّق. إنها تُعلِّمنا كيف نضع خِماراً من مساحيق التجميل لنُصبح محبوبات. ونحن نتقبّل ذلك الخِمار طواعية، مُعتقدات أننا نتحرَّر به. إنَّ مساحيق التجميل ليست اختياريّة بالنسبة إلينا إلا بقدر ما النِقاب كذلك بالنسبة إلى المرأة العربيّة: إنّها نسختنا الغربيّة من النِقاب.

وأنا في التاسعة والثلاثين، كان لديّ ابنة في الثالثة، وكل مسؤوليات الرجل، وكل أعباء المرأة. كنتُ أكسب عيشي من قول هذا – ومن المُفتَرَض بالمرأة أنْ تفعل العكس. وفجأة فهمتُ أشياء عن التمييز ضد المرأة كانت حياتي المُبكّرة قد حجبتها عني. ومن دون دعم الطفلة، لم يكن أمامي من خيار إلا أنْ أواصل الكتابة – كانت الطريقة الوحيدة التي

أعرفها لكسب العيش - لكنَّ كتاباتي كانت دائماً تضعني في قلب حقل تبادل إطلاق النار بين الجنسين. لقد أردتُ حياة هادئة، لكنني لم أكنْ أعلم كيف أحصل عليها. كنتُ أعايش التجربة النموذجيّة لجيلي، وعلى مستوى من الامتياز لم تبدأ مُعظم بنات جيلي في الحصول عليه. وسواء أكان جيلي متميِّزاً أم لا، إلا أنه كان مُتعِباً إلى أقصى مدى. لقد نشأتُ لكي أحتلّ مكاني في عالمٍ لم يعُد له وجود.

ولو أنني اضطررتُ أنْ أعيش كرجل، لشدّدتُ على حقي في الحصول على مُتع الرجل: محظيات قابلات للزواج.

كان عيد مولدي الأربعين متميِّزاً وكنتُ أنتظر أنْ أحصل على هدية عيد الميلاد المثاليّة. ألم أكن أستحقّها مقابل كل العمل المُرهِق؟ مقابل إبقاء نار الحماس مُتّقدة والطفلة حيّة؟

تخيّلي، إذا أردتِ، شاباً أزرق العينين في الخامسة والعشرين، يتجاوز طول قامته الستة أقدام. له أنف بانحناء مثاليّ، وأسنان أشبه باللآلئ، وابتسامة مُذهلة، وصدر مُدجَّج بالعضلات، وساعدين عضليين، وعضلات ذات رأسين، وربلات ساقين. وفوق ذلك كله، يُحب أيضاً الشِعر، ولديه ميل إلى الأدب، وقضيب أيضاً ذو ميل أدبيّ، ينحني نحو الأعلى كسيف معقوف مصقول.

كيف قابلتُه؟ ليس عبر نشرة تُعلن عن رجال مزوّدين بعضو ضخم (على الرغم من أنَّ المُعجبين يُرسلون إليّ تلك النشرات بانتظام)، بل في النادي الصحّي، عبر صديق. كان يتدرب ويتصبّب عرقاً على آلة التمرين - بأسلوب لقاء كان شائعاً بين نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات.

كان ويل وادسوورث أوتس الثالث العضو الغضّ على شجرة العائلة المتعفّنة. جاء ليتناول الشاي في إحدى ليالي الشتاء ولم يُغادر أبداً - اللهم إلا لكي يشتري أثقالاً جديدة للرفع ودراجة ناريّة قديمة.

كما قال لورينز هارت[6] عن بال جوي[7]، «وهو مُستلقٍ، يكون في أحسن حالاته». ولكن وهو واقف، يكون جيداً أيضاً. كانت ملابس السهرة تليقُ به. كانت لديه عائلة تتدرّب على معرفة الملابس المناسبة التي ينبغي ارتداؤها. لم يكن يخلط أبداً بين محتويات وعاء غسل الأصابع ومرق اللحم. وبدا وسيماً أيضاً بالقبعة، دلالة على أنه زير نساء - أو ممثل. كان يُحسِن الإبحار، والسباحة، والغناء، ويتعرّى في لحظات. كان أيضاً لطيفاً. كان المثليون من أصدقائي يعبدونه. وصديقاتي النساء كنَّ يشممن الهواء ويُسمّينه أجير نساء من خلف ظهري. (لكنه أجير نساء مُثقّف، حسب القول السائر). كان مهووساً بالكتب، ورومانسياً، وبطلاً متشرّداً. كان يحب الكتب الصعبة والنساء الناعمات.

إنَّ الحبّ يتغذّى على التشابُه أو التشابُه المُتخيَّل. وعندما يُدمَّر نثور غضباً. لماذا؟ لأننا خدعنا أنفسنا بشأن توأمنا.

كيف استطعتُ أنْ أعرف أنَّ ويل (أو أوتسي، كما كان أصدقاؤه المُقرَّبون يُسمّونه) سوف يُغوي معظم صديقاتي من النساء، ويضرب أصدقائي الرجال في تجارب الأداء، ودائماً «يقترضُ» نقوداً؟

حسبتُ أنني أعرف الأصول: فحصلتُ له على بطاقة ائتمان، ولم أكن أعرف أنواعها كلها؛ كان الحد الأقصى عالياً جداً.

اشتريتُ له ملابس فاخرة، وأعطيته سيارة (ولكن، بما أنه كان رجلاً عملياً، نسيَ أنْ يُسجّلها باسمه). في أوقات الصيف، كنتُ أصحبه إلى تشيبرياني في البندقيّة وكأنه نجم سينمائي صغير. وفي أثناء ممارسته السباحة في البركة، كانت السيدات والرجال على قدم المساواة يبدون إعجابهم به. وكان ويل شديد التوق إلى إثارة الإعجاب إلى درجة أنه كان يستطيع أنْ يجعل أي شخص يقع في حبّه. وكل ذلك التمثيل شكّلَ جزءاً من حياته.

6- لورينز هارت (1895 - 1943): مؤلف أغاني شهير لمسارح برودواي.

7- بال جوي: بطل لمسرحية غنائيّة تحمل هذا الاسم. وتتحدث عن شاب يعمل كمؤدي صغير على مسارح برودواي ويقع في حب امرأة في منتصف العمر وثريّة - المترجم.

لكنَّ الفتيات اليهوديات والمسدسات لا يجتمعان، وكان ويل دائماً يشحن المسدسات في منزلي. وعندما اكتشفتُ ذلك - متأخّرة خمس سنوات - طردته. على أية حال كنتُ مستعدة لفعل ذلك. في البدء، حسبتُ أنَّ المسدَّسات ليست مشحونة («كلام معقول، يا سيدتي») لأنه أقسمَ على أنه يحتفظ بالذخيرة على حِدة.

عندما أتذكّره الآن، يبرز في ذهني مع شيري، بطل قصّة كوليت. أعتقد أنني أراه يُجرّب ارتداء لآلئي في السرير. كان يتّصِف بمرح أجير النساء الأصيل، وكل امرأة متحرِّرة *تحتاج* إلى رجل تستأجره بين حين وآخر. والمعنى الضمني للكلمة تكشّف عن استهجاننا للمتعة بحدّ ذاتها. لكنَّ العيش من أجل الإثارة والمتعة ليس بالشيء السيِّئ دائماً بالضرورة. لقد كان ويل هو إله المتعة الحسّية بالنسبة إليّ - جميل، خنثويّ ويانع.

إننا نعترض على أجير النساء لأنه يتلقّى أجراً مقابل ممارسة الجنس، لكننا لا نعترض على المرتَزَق الذي يتلقّى أجراً مقابل القتل. إنَّ تماثيلنا هي لمُرتزقة، وليس لـ *cavalieri serventi* (عشّاق خدم). لكان عالمنا أفضل حالاً لو أنَّ الوضع كان معكوساً.

إنَّ الرجال المثليِّين يفعلون ذلك أفضل من النساء بكثير. ربما يفهمون الصفقة بصورة أفضل. أحياناً يختارون عشّاقهم، لأنهم يعتبرون هذه العلاقة كنوع من لعب دور الأب. ولكنْ في نهاية الأمر حتى هم يضجرون. وعندما تتغيَّر الصفقة، يثورون غضباً. ثم يرمون أولاد الحرام خارجاً.

كان ويل في الأساس لطيفاً - على الرغم من أنَّ الداعر داخله تصبح له اليد العليا. كان يحب التمثيل، في الحياة اليوميّة كما على خشبة المسرح. كان يرفع الأثقال على المرج عندما جاء جون لكي يأخذ مولي. كان يأمل أنْ يبدو خطراً بما يكفي لحمايتي. وتأثّرتُ بذلك.

كان يلحّ عليّ لكي أتزوجه وكنتُ أُماطل. ليس فقط لأنني كنتُ أرغب في أنْ أبقى غير متزوجة شرعياً، بل لأنني كنتُ أعلم أنني لن أتزوج ويل

أبداً. إنَّ حياتي قد تتغيَّر في أي يوم، بعيداً عن تدخّل المحامين. لذلك لم أوافق ولم أرفض. وغضب.

لطالما حسبتُ أنَّ مولي مُعجبة به. ولاحقاً أخبرتني أنها كانت تخاف منه. إنَّ الرعشة تنتابني عندما أتذكّر المُسدسات المُخبّأة. كان ويل دائماً يُقسِم على أن المسدسات بعيدة عن متناول الجميع. ولكن من أين كان له أنْ يعرف ذلك بينما حالته العادية هي أنْ يكون *مُخدَّراً*؟ لا بدّ أنَّ الملائكة كانت تحرسنا. ولا بد أنَّ مارغريت كانت معهم.

عندما بدأتْ الأمور تُصبح رهيبة على الدوام في حياتنا، أدركتُ كم كنا نعاقر الخمر. الكثير منه. ودفعتُ ويل إلى الالتحاق بجمعية المُدمنين، معتقدة أنه في حاجة إلى أنْ يكون صاحياً. وهمٌ ذاتيّ آخر فخم. وكالعديد من المُدمنين، كنتُ في حاجة إلى إدمانه لكي أواجه إدماني.

بدأنا نحضر تلك اللقاءات معاً. في أول الأمر، أثارتْ رعبي وكنتُ أبكي طوال فترة حضوري لها. ولم أعلم السبب. كنتُ أكره الرطانة والشِعارات، وسخرتُ من الأسلوب المتزمّت للمُدمنين المهتدين وهم يتحدثون بلغة البرنامج الغريبة: الأمر سهل، كل يوم على حِدة، أزيلوا ذلك عن لائحة قلقكم، استرخوا، دعوا الله وشأنه. ثمّ بدأتُ أدركُ أنَّ جمعية المدمنين هي المكان الوحيد في العالم الذي يُرحِّبون بي فيه من دون أنْ يحكموا عليّ. وأحببتُ الجمعيّة – كبديل مُبارَك للطبيعة «حمراء الناب والمخلب» وهذا ما يتميَّز به باقي مجتمعنا. إنَّ القائمين على جمعية المُدمنين كيّسون *في المبدأ*. إنهم يعلمون أنَّ عليهم أنْ يخدموا الآخرين لكي يخدموا أنفسهم.

حافظ ويل على امتناعه عن الخمر مدة عام. وامتنعتُ أنا عامين. وذلك المذاق للاستقامة حفّزني، وأيضاً فصمَ علاقتنا. باشرتُ السير في طريق الاستسلام الطويل والمتعرِّج الذي لم ينته بعد. وما أزال قوية الإرادة وخائفة، ولكن على الأقلّ أنا *أعلَمُ* أنني كذلك.

بينما كان ويل ينتقل، اكتشفتُ ورماً في ثديي الأيسر. وفي أثناء انتظار نتيجة استئصاله، تصالحنا أنا وويل فترة وجيزة بالخوف القاتل.

وفي اليوم الذي تبيَّنَ فيه أنَّ الورم حميد، انتقل من المنزل. وظلّ الورم موجوداً بعض الوقت، ثم تلاشى وكأنّه لم يكن.

كنتُ أحلمُ به باستمرار. وما أزال أحلم أحياناً. وفي الأحلام، بقيَ قادراً على جعلي أقذف. وعندما أكون وحدي في غرفة الفندق أو أُقيم في منزلٍ مُستأجَر في أي مكان في العالم، يصل في الحال.

لقد سمعتُ أشخاصاً كثيرين يقولون إنهم لا يزالون يُحبون عشاقهم القُدامى في مكان ما عند نقطة معيَّنة. والأمر نفسه ينطبقُ عليّ. إنَّ الذاكرة تُخفي الحب وهذا هو عملها، ولكن تحت ضباب النسيان، يبقى الحب. ما أزال أحبّهم كلهم - جون، ويل، مايكل، ألان. بل إنني أحبّهم *أكثر* مما فعلتُ عندما كنا معاً، لأنني الآن أكثر تعاطُفاً. ولعلهم لا يريدون حبي، لكنه موجود في كل الأحوال. لا يمكن أنْ أفقده. إنه يعود إليّ في أحلامي.

يبدو أنني مررتُ على موضوع الطلاق كما لو أنّه موضوع صعب. لكنه ليس كذلك: لقد كان أشبه بالسقوط. سقطتُ إلى أعماق مياه قاتمة، غصتُ في حبر، لكنني لا أستطيع أنْ أكتب به (بلا ريشة، ولا ورقة)، لا أستطيع أنْ أتنفّس، لا أستطيع أنْ أقف على قاعٍ قذر. بعض الأحداث تومض خلال السواد، تُعيد حزن كل شيء.

في صباح ذات يوم، أستيقظ على سرير الماء في كونكتيكت مع ويل. ويزعق جرس الباب. إنه مُحضِر محكمة كأنه خارج من إحدى قصص ديكنز بوجه أحمر خشن وكتّة من الشَعر الأصفر.

خرجتُ وأنا أترنّح، أُدثّر جسدي العاري برداءٍ وبريٍّ مُبلّل.

يقول، بالتهذيب البارد الذي يتّصف به البوليس السرّي في بلد نابوكوف زمبلا[8]: «عذراً».

«هل أنتِ السيدة يونغ؟».

«أنا هي».

8- زمبلا: بلد وهمي دكتاتوري ورد في إحدى روايات فلاديمير نابوكوف Pale Fire، يُقال إنه يرمز إلى روسيا - المترجم.

«هذا لك».

وناولني مُغلّفاً سميكاً، ثم استدار بسرعة وهرع على طول الشارع المكسو بالجليد وقاد السيارة مبتعداً.

مزّقتُ المُغلَّف عند الباب، وأنا أرتجف. لم أكن قد رأيتُ مُحضِر محكمة قبل ذلك. لم أكنْ قد رأيتُ مثل تلك الورقة. كأنها تقول إنني إذا انتقلتُ من مقاطعة فيرفيلد، فسوف أُقاضى «إلى آخر ما يمكن أنْ يذهب إليه القانون» وأخسر رعاية مولي («قضيّة ذلك الاتّحاد») إلا إذا بقيتُ «مُقيمة» في إحدى البلدات الأربع التالية: ويسيتْبورت، ويستون، فيرْفيلد، أو ريدينغ.

إنها دعوى مُزعجة جداً، ربما ليست دستوريّة ولا يمكن كسبها، لكنها كالإبرة في القلب. فقبل كل شيء، إنني أشعر أصلاً بأنني سوف أبقى دائماً «أمّاً فاشلة»، لأنني يجب أنْ أعمل لكي أعيلها. لقد قبلتُ بصورة ما عجزي عن إعالة طفلة، والتصرفات القاسية (كإقفال الهاتف وترك السيارة تُقلِع قبل أنْ تركب الطفلة ذات العامين)، لكنَّ هذا هو مُنتهى التخريب: سوف يأخذون ابنتي مقابل كتبي المُتمرّدة. إنَّ هذه الخيانة تطعنني في الصميم. (في تلك المرة لم يكن لدي أي سبيل لمعرفة أنَّ دعوى الرعاية أضحتْ عقاب جيلي القاسي والمعتاد على جرأتي في الأمومة وفي مسيرتي المهنيّة في وقت واحد).

بعد عامين وعدّة آلاف من الدولارات، جلسنا أنا وجون في عرين العاملين في المجال الاجتماعي في الطابق التحتيّ من دار محكمة ستامفورد. العاملان الاجتماعيان، ذكَر، وأنثى، سألانا بلغة العمل الاجتماعي الغريبة: «ما الذي يبدو أنه منطقة خلافكما؟».

كان مُحاميَّ قد نجح، بصورة ما، في إبعاد مولي عن المحكمة، وأعدَّني بإمدادي بشهادات خطيّة نفسيّة تشهد على صحّة عقلها، وتخلَّصَ من قضية الرعاية وأرسلنا بدل ذلك من أجل «التوسُّط» – وهو علاج لا يُريحُ أحداً غير القاضي. وفي التوسّط الشخص المُنصِف يستسلم والمجنون يتوصّل إلى اتّخاذ قرار – بالصراخ عادة.

كنا ننتظر منذ ساعتين في رواق طابق تحتيّ مملوء بآباء سود مراهقين من حيّ الأقليات، ونساء لاتينيات في حالة يُرثى لها، وبآخرين من شدّة الفاقة إلى درجة أنهم لا يقدرون على *دفع تكاليف* الطلاق.

طلبا منا أنْ نعرض مشكلتنا، فاكتشفنا أننا لا نستطيع حتى أنْ نُصيغها في عبارات. وأخيراً، قال جون فجأة «إنَّ زوجتي السابقة تريد أنْ تلتحق ابنتنا بمدرسة الثقافة الأخلاقيّة - وأنا أعتقد أنها يجب أنْ تذهب إلى دالتون».

«في الواقع - سوف تكون أحسن حالاً في مدرسة الثقافة الأخلاقيّة، لأنها...» وقطعتُ كلامي.

ينظر عاملا الخدمة الاجتماعية إلينا وكأننا ضرطنا معاً.

تقول المرأة، بصوت مخنوق: «لا شك في أنَّ في استطاعتكما أنْ تحلّا هذه المشكلة».

وتم التوصُّل إلى «حلٍّ وسط». سوف أُرسِل مولي إلى دالتون (مدرسة جون السابقة) وهو سوف يُسقِط الدعوى. وأقيِّمُ اضطراب مول بسبب الدعوى القضائيّة المُقامة ضد إرسالها إلى مدرسةٍ أعتقد أنّها لا تناسبها، وأُقرِّر اختيار أقلِّ الحلَّين شرّاً. يهزّ جون كتفيه استخفافاً ويُسقِط الدعوى. لقد ملَّ الأمر.

بعد ذلك بعام، أوشك أنْ أنشر «*كتاب مولي عن الطلاق*»، وهو مُصوَّر للأطفال يحكي عن فتاة صغيرة تنتقل جيئة وذهاباً بين منزل الماما ومنزل البابا. الكتاب ساخر، لكنّه أيضاً بطاقة حب إلى الأطفال والآباء الذي يُعانون الطلاق. وقد كتبته بوصفه قصة تُروى قبل النوم لأساعد مولي في التعامُل مع حياة دائماً تتركُ فيها جوارب، وملابس داخليّة، ودمى دببة في منزلٍ آخر. وكتبته أيضاً من أجل نفسي. وهي تنتهي بحفلة يتبادل فيها المُطلَّقان وشريكاهما الجديدان القبلات ويُسوُّون الأمور بينهم حُبيّاً. إنها مجرد أمنية. إنَّ الكتاب في المطبعة - وفجأة تُوقِفُ رسالةٌ تصلني من المحامي كلَّ شيء.

إنَّ محامي جون يُهدِّد بأنّني إذا لم أُغيِّر اسم الطفلة، فسوف يلجأ إلى السُبُل كافة للحصول على إنذار قضائي ضد نشر الكتاب.

إنَّ والد أليس في بلاد العجائب لم يفعل مثل هذا، ولا فعل ذلك والد كريستوفر روبن[9] (طبعاً هو كان المؤلِّف)، ولكن من العبث اللجوء إلى القضاء من أجل إثبات أنَّ كتب الأطفال تُسمّى تقليدياً بأسماء أطفالٍ حقيقيين. وكان الناشر قد أصابه الرعب. واستُدعيتُ إلى مكتبه وأُمِرتُ بالرضوخ للأمر.

ولكي أتجنّب إقامة دعوى قضائيّة، غيَّرتُ اسم الطفلة إلى ميغن ودارت المطبعة من جديد. وسدّدت تكاليف الطباعة التي تلفتْ. وكانت هناك لقاءات لا تنتهي مع محامين من أجل طمأنة الناشر، لكنَّ الحماس خبا نوعاً ما. وانتقتْ مجلات الإشاعات هذه القصة وحوّلتها إلى ثرثرة كالمعتاد. وتكلَّم نُقّاد الكتاب عن «الفضيحة» وليس عن الكتاب. أية فضيحة؟

لم تُقَم دعوى قضائيّة، ولا وُجِّه إنذارٌ قضائيّ، كانت هناك فقط رسالة من المحامي، وكلمات فظّة، ولقاءات لا تنتهي. لكنَّ الكتاب كان قد تلوَّثَ في كل الأحوال. وتجنّبه الناشر. والآباء الذين كان يمكن أنْ يجدوه مواسٍ لأطفالهم لم يعثروا عليه في محلات بيع الكتب. لكنني رفضتُ، كطفلة فاسدة، أنْ أستسلم. وصمّمتُ على أنْ أنشر الكتاب بشكل آخر، وحوّلت بعض أجزائه إلى عمل تلفزيونيّ: قامت لوريتا سويتْ بدور الأم، وكيري هوليهان بدور الفتاة الصغيرة، وألان كاتس بدور الربّان. الربّان رائع. لكنّ العمل لم يتحوّل إلى مُسلسل.

يقول المدراء التنفيذيون في التلفزيون «إنَّ الطلاق موضوع كئيب».

ويقول المدراء التنفيذيّون (الذين كانوا، قبل ذلك بستة أشهر، ألحّوا على انتقائها للدور: «إنَّ لوريتا *كبيرة جداً* في السن». وقد قدّمتْ أداءً رائعاً أيضاً، وسرقتْ قليلاً بعضاً من أسلوب كما تفعل الممثلات عادة. وبمزجها الفريد بين الخشونة والعذوبة، كان يمكن أنْ تكون مصدر إلهام للأمهات اللواتي يُربّين أطفالاً وحدهن. لكنَّ المُسلسل ألهمته نساء

9- كريستوفر روبن (1920 – 1996): هو ابن الكاتب أ.أ ميلن، وجعله والده بطل عدد من القصص التي ألّفها للأطفال – المترجم.

واعترضَ عليه رجال - كالمعتاد. وبين عبارة «لوريتا طاعنة في السن» و«الطلاق موضوع كئيب» مات المُسلسل. وبُثَّ كربّان فاشل، وحصل على نقد أفضل مما حصلت عليه كتبي. لكنه اختفى في غياهب الفيديو.

إنَّ نصف العائلات الأميركيّة تطلّقتْ في عام 1986، ولكن ليس في المسلسلات التلفزيونيّة الكوميديّة. وما زال «الطلاق» كلمة بغيضة في التلفزيون. وبعد ذلك ببضع سنوات، حدث تدافع مجنون لتقديم مثل تلك البرامج.

الآن يقول لي المدراء التنفيذيون «لقد كان كلامك كالنبوءة. لقد سبقتِ وقتك بسنوات».

نفِدَتْ طبعات رواية *ميغان* من الأسواق. والأطباء المُعالجون للأطفال يكتشفونها ويشترونها من محلات الكتب التي نفِدَتْ من الأسواق ليساعدهم في التشاور مع أطفال يعيشون حالة الطلاق. إنني أرسل إليهمْ كل ما يتبقّى لديّ من نسخ. ولكن في الغالب لا يمكن العثور على الكتاب - إنه إحدى ضحايا الطلاق.

بعد ذلك التخريب، أُصابُ بقدرٍ من الجنون وأُقاضي جون بتهمة التحرُّش، مُستشهدة بفقدان الحيويّة والانقطاع في سياق عملي. وأمر التحرُّش صحيح، ولكن لا يوجد قانون من أجل هذا - كما لا يوجد علاج لتحطُّم القلب. وهذه القضية الجديدة العبثيّة تطول وتُكلِّفُ الكثير بعض الوقت، وتُسبّب الانقطاع في عملي.

وأخيراً، أكتشفُ أنني لا أستطيع أنْ أبقى غاضبة بالقدر الكافي من والد مولي بحيث أستمر في مُقاضاته. إنني ما أزال أحنُّ إليه. وأحلمُ في أنْ نُصبح أصدقاء ذات يوم. وأريد أنْ أواصل حياتي.

لقد نبذ جون وأنا كلٌ منا الآخر، وآذى كلٌ منا الآخر، وآذينا طفلتنا. والآن باشرت حضور الصف الأول في مدرسة دالتون. لقد كان الوقت لكي نتعلَّم أنْ نكون أبوين إذا لم نُصبح صديقين بعد. لقد استقررت، في كل يوم من أيام الأسبوع على الأقلّ، في شقّة جميلة تُشرف على

إيست ريفر في مانهاتن. ثمة مسافة قصيرة بيننا وبين ألمنا. لقد بدأ نسيج الندب يتشكّل. إنه ينكأ باستمرار، ولكننا نتعلَّم كيف نتقاسمه. طوال أيام الأسبوع، نتقابل أنا وجون في كونكتيكت. إنني أحتفظ بمنزل كونكتيكت لمولي لكي تكون قريبة من والدها. إلى جانب أنَّ المنزل هو ملاذ الكتابة بالنسبة إليّ.

إنَّ شقتي الجديدة في نيويورك تُثبتْ أنها تقع في إحدى تلك الأبنية التي يعود عهدها إلى ما قبل عصر الطوفان حيث يتشجَّع اليهود بتنمية قَلَفَة لكي يُنظر إليهم على أنهم ليسوا يهوداً. إنهم يعلمون أنهم موجودون هناك كُرهاً لأنَّ البناء كان في السابق «مقتصراً»، لذلك أصبحوا فارضي نظام، وأبعدوا اليهود الآخرين.

كما كان الحال في نادي ميدستون في هامبتون، حيث لم يقصد الآباء المؤسسون أنْ يفتحوا المنطقة «للمنايك، والعاملين في مجال الاستعراض، أو لليهود»، أصبح المقيمون في هذا البناء المزدحم يجدون أنفسهم مُحاصَرين.

باعوني الشقّة - على الرغم من أنني كنتُ صورة مُصغَّرة مما هربوا منه طوال حياتهم. وعندما انتقل ويل إليها - مع درّاجته الناريّة، وسترته الجلديّة السوداء، وأساوره ذات الأشواك، ولكْنة مُرتادي المدرسة الداخليّة - أصبحتُ بمثابة جان دارك ساحة غريسي.

دار همسٌ في المبنى أنَّ «صريراً يصدر عن سريرنا ليلاً»، وأنَّ ويل يُدخن - أو يبيع المخدرات في متنزه كارل شورتز، وأنَّ الصغيرة ذات السنوات الخمس وحمراء الشَعر والحاضنة اللطيفة بيضاء الشَعر تُدرّبان الوثنيين الذين يعبدون الرب ذا القرنين هناك في جادّة إيست إند.

وفجأة قررت الهيئة التعاونيّة أنْ تُرسل لجنة من أجل تفحُّص شقّتي. هل لدينا ما يكفي من السجّاد أم لا؟ هذا هو السؤال.

تشكّلتْ لجنة من أجل رقّاس السرير. قامت تلك الهيئة المهيبة - المؤلَّفة من يهودي ذي قَلَفَة مُعدَّلة (محامي)، وغير يهودي مُدمن كحول

لا شِفاء له (أيضاً محامي)، وامرأة ذات تسريحة دُمية شانيل-يبنتا مثاليّة تحمل حقيبة من جلد الحمل مكسوّة بحرفي CS متراكبين (مُهندسة ديكور متزوجة من محام) - بتفحّص شقّتي بجديّة. كان لون السجاد الرمادي-البنفسجي يتماشى مع النهر. والجدران مكسوة بالمرايا لكي تعكس صورته. والسرير المائي مُستتر تحت لحاف من صنع الآميش[10] ومن قطعة نحاسيّة رأسية لكي يبدو كسرير الأزواج يُغري بالعناق. كل بوصة من المنزل مكسوّة بالسجاد ما عدا مساحة الردهة الصغيرة جداً المكسوة بالمرايا. وطبعاً سرير الماء غير قانوني - أعلمُ هذا. ولكن لحُسن الحظ جنرالات التفتيش مفرطو الاحتشام ولم *يلمسوا* سطح السرير، ولو فعلوا لتموّجَ من تحت لحافه القديم المغطى بالنجوم، وفضح أمري. وبعد أنْ أدّوا عملهم، غادروا، ولم يُبدوا أدنى قدر من الحيرة بسبب التزامي بالقوانين.

الآن تبدأ حملة التحرُّش بجديّة. هناك مكالمات هاتفيّة مجهولة تصلني في كل ليلة عند الساعة الثالثة صباحاً ورسائل مجهولة المصدر خبيثة تُترَك تحت عقب الباب. وفي إحدى المناسبات، يصرخ أحدهم في وجه مولي في المصعد بسبب آثامي المُفترَضة.

قمت مع ويل باستشارة محامين. لا يُفيدوننا بشيء ويريدون مُقدَّم أتعاب ضخماً. ويعدون بمناقشة الأمر مع الهيئة التعاونيّة. وتخطر على بالي فكرة مفاجئة: هذه مشكلة أخرى لا يستطيع القانون أنْ يجد لها حلاًّ! وماذا أفعل في ذلك المبنى على أية حال؟ إنني أنتمي إلى الويست سايد، حيث ترعرعت. ويتَّضح أنَّ الشقة التي ترعرعت فيها معروضة للبيع. ويتّصل بي سمسار عقارات، يسأل إنْ كنتُ أرغب في رؤيتها؟ نعم أرغب - إلى أنْ أسمع السِعر. مليونان؟ عندما عاش والديّ هناك، كان

10- طائفة الآميش: طائفة أميركيّة منعزلة عن كل مظاهر الحضارة الحديثة، يعيش أفرادها على نمط الحياة الذي كان سائداً في القرن الثامن عشر. ويعملون كل شيء بأيديهم - المترجم.

الإيجار يبلغ 200$ في الشهر. لقد كان توماس وولف على صواب: لا يمكنكَ أنْ تعود من جديد إلى منزلك[11].

في صيف ذلك العام استأجرنا أنا وويل ومولي ومارغريت شقّة في فينيس مدة ثلاثة أشهر وعرضنا بهدوء شقّة ساحة غريس للبيع. وبعد ظهيرة أحد الأيام بينما كنتُ وويل مستلقيين على السرير، نراقبُ مياه القنال تعكسُ تموّجاتها السِحريّة على السقف، اتَّصَلَ مدير أعمالي حاملاً خبراً يقول إنَّ هناك شخصاً يريد أنْ يشتري شقّة نيويورك.

أقول «بِعْها!». ونمارس أنا وويل الجنس إلى أنْ ينفجر رأسانا، ثم نرقص في أرجاء الغرفة، ونقهقه.

أيها المنايك، والعاملين في المسرح الاستعراضي، واليهود اتّحدوا! ليس لديكم ما تخسرون غير عقاراتكم! إنَّ الأمهات اليهوديات غير المتزوجات مع عشّاقهنّ الشبّان لا يستطيعون أنْ يُقيموا في الأبنية «الراقية» في نيويورك. والخطأ الذي ارتكبتُه كان رغبتي في الإقامة في مبنى «راقٍ». يُستحسن أنْ ألتزم مع قومي.

وهكذا نبيع الأبراج ذات القلفة وننطلق بحثاً عن بناء من حجارة بنيّة. لا نريد المزيد من هيئات إيست سايد التعاونيّة. نريد مرجاً خاصاً بنا نسمّيه منزلنا.

عثرنا على منزل ضيق ذي مسطبة في الشارع الرابع والتسعين بين المتنزّه وليكسنغتون، يشغله طبيب نفسيّ لطيف، مع زوجته المرحة، وثلاثة أطفال غاية في الذكاء. إنهم يأملون في أنْ ينتقلوا إلى باريس. فوق سرير الطبيب لافتة تقول:

«إنَّ الصحّة العقليّة هي ثروتنا الأعظم».

ووجدتُ هذا فألاً حسناً، فاشتريتُ المنزل في الحال.

11- *«لا يمكنك أنْ تعود من جديد إلى منزلك»*: عنوان مسرحية للكاتب المذكور توماس وولف Wolfe (1900 – 1938) – المترجم.

إنه في حاجة إلى *كل شيء* - سقف جديد، ومطبخ جديد، وغرفة للغسيل، ومرجل، وحمامات. وفعلتُ ما أفعله دائماً في المنازل - أُنفقُ إلى أنْ تنفد النقود مني، ثم أعود إلى العمل لأنهي تأليف كتاب.

عاجلاً أو آجلاً أركضُ وأنا أصرخ من كثرة أعمال التجديد، وأهتف، «*إنَّ النقود تنفد*». إنَّ ثلاثة من الطوابق الأربعة جذّابة، وإنْ كانت الحديقة والطابق الأرضيّ لم ينته العمل فيهما. حينئذٍ، كانت الجدران مكسوّة بورق جدران وليم موريس من النمط الفيكتوري نفسه الذي بُنيَ المنزل به. جدران مطلع الدَرَج قرمزيّة اللون والثريات على طراز مدينة البندقيّة. ويُخبرني والدي أنه يُشبه الماخور.

أسأله «ما أدراك؟».

وداعاً، يا أبراج القَلَقَة. لا أحد يستطيع أنْ يفرِض عليّ الشخص الذي أعيش معه في منزلي ذي الحجارة البنيّة. لكنَّ المنزل ليس عملياً جداً. فبما أنه كان دائماً يشغله الأطباء، كانت الطبقة التحتيّة مملوءة بالأدوات الطبيّة القديمة والمُخيفة. صور بالأشعة السينيّة للقفص الصدري، وأحواض، وجماجم. وكان زبائن قُدامى، يتكلّمون بلكنات إسبانيّة متنوعة، لا يزالون يصلون في منتصف الليل يطلبون المساعدة. وحتى في النهار، يكون المنزل مُظلماً، كما هو حال المنازل المتجاورة، ولأسباب تتعلَّق بالأمن، كل أعضاء مجموعتي - فيما عدا الكلب بوتشيني (خليفة بوشكين) - مُلزمون بحمل أزرار الذُعر من أجل تشغيل نظام الإنذار إذا أخرجنا النفايات أو أجبنا على جرس الباب.

إنَّ المنزل ذو الحجارة البنيّة يحلّ مشكلات السكن لفترة من الزمن. ويوفّر لويل عملاً يقوم به ولي شيئاً أشعر بالامتنان له عليه. ولكن تبيَّنَ أنه مسكون بصُداعي القديم. وتقيمُ فيه أشباح السكان السابقين مع مرضاهم. في ذلك المنزل تتراءى لي الأحلام الخاطئة - أحلام يبدو أنها تخصّ مرضى أحد الأطباء المالكين السابقين. أو أنَّ الأشباح يعود عهدها إلى زمن أبعد بكثير.

هل كان جثمان مدير روبرت بروبري (الذي بُنيَ المنزل لأجله) مدفوناً في السرداب تحت الرصيف؟ هل اغتال زوجٌ حانق زوجته الخائنة؟ ولجأتُ إلى شافية مجنونة (مشهورة بأنها ساعدت مارغريت ميد في عامها الأخير) لتخليص المكان من أرواحه. ووعدتْ بأنْ تفعل، ولكن فقط إذا قبلتُ أنْ أكون إحدى مرضاها أولاً. كنتُ أتردَّد على «محترفها» في جادة يورك، وأتمدَّد على طاولة وأنا عارية، وأدعها تتحدث إلى غدّتي الدرقيّة غير الموثوقة، وتجسّ كبدي السليم، وتصِفُ الزيارات الوهميّة التي ستقوم بها إلى منزلي ذي الحجارة البنيّة عند الساعة الخامسة صباحاً («جئتُ في الصباح الباكر، ألا ترينني؟») ثم أدفع لها نقداً.

إنها دائماً تُشدّد على كراهيتها لطرد الأرواح الشريرة (*عمليات التنظيف*، كما سمّتها)، وأنها تُسبّب لها صداعاً هائلاً. ولكن لا بدّ أنها تنجز عجائب، لأنني بعت المكان مع ربح قُبيل انهيار سوق العقارات.

وهكذا انتقلتُ من جديد. وعندما قابلتُ كين، كان يُقيم في مبنى مُخصَّص للـ«منايك، وأهل مسرح المنوعات، واليهود». واشترينا شقّة أكبر في ذلك المبنى وطال مكوثنا. لقد ابتهجتُ لكوني في الطابق السابع والعشرين بعد سنين من الظلام.

وأسعدني أنْ أكون بين قومي. إنَّ المبنى الذي أُقيمُ فيه هو أيضاً مأوى كبير للكلاب والقطط. يبدو أنَّ المنايك، وأهل مسرح المنوَّعات، واليهود، يحبّون الحيوانات.

انتقلتْ مولي إلى المدرسة النهاريّة، حيث الأمهات لا يضعن مجوهرات كراب بمناسبة يوم الرياضة ولا يركب الأطفال سيارات ليموزين. (كثير من أطفال مدارس نيويورك الخاصة كانوا يذهبون إلى المدرسة بسيارات ليموزين في الثمانينيات – قبل أنْ يذهب آباؤهم إلى السجن).

كنتُ دائماً إما بجيوب عامرة أو مُفلسة، ولكنني استطعتُ بصورة ما أنْ أُسدد ما عليّ من فواتير وأُربّي ابنتي. بل إنني تعلّمتُ كيف أكون أمّاً لائقة. وأخيراً توقّفنا أنا وجون عن مُقاضاة أحدنا الآخر وبدأنا نتحدّث. بل إننا

أحياناً كنّا نتذكّر الأيام الخوالي ونتذكّر سبب وقوع كلٍّ منا في حب الآخر. ويُضيء وجه مولي كأنما بألف شمعة.

أكاد لا أطيقُ صبراً على سماعها تروي الحكاية من منظورها، على الرغم من أنني أعلم أنَّ ذلك لن يكون في صالحي. وسوف تبقى القصة الحقيقيّة مجهولة إلى أنْ تُضفي عليها معنى. يجب سماع قصّتها هي، لا قصّتي.

إنَّ كل شيء عن الطلاق في وقت واحد معروف جداً وفريد جداً. هناك كاتبان - يواجهان الشهرة، والرفض، وهموم النقود، وآلامهما - يُحاولان أنْ يُربيا طفلة. والطفلة التي يُربيانها يتبيَّن أنها تُشبههما، لكنها في الغالب لا تشبه إلا نفسها: مُضحكة بعنف، ساخرة، كلماتها قاتلة. كان عليها أنْ تُثبت نفسها لكي تنجو من والديها.

إنَّ جيلي يعجّ بحوادث الطلاق. وعندما نستعيد الماضي، غالباً ما نتساءل. ماذا كسبنا بعدم العيش معاً إكراماً للأطفال؟ هل كسبنا أي شيء مهما كان؟

لقد كنا جيلاً سيعيش إلى الأبد. وبلغنا سن الخمسين كأي شخص آخر. في كل الأحوال، لن نَهزِم *malach hamovis* (ملاك الموت).

أحياناً يبدو أنّ أطفالنا وآباءنا كانوا أشدّ ذكاءً منا. ونسقط بين مثاليّة آبائنا في حقبة الثلاثينيات وسُخرية أولادنا في حقبة الثمانينيات. ***وما زلنا*** في مكان ما من أعماقنا السحيقة نعتقد أنَّ ***كل ما نحتاج إليه هو الحب، الحب، الحب***[12]. وفي مكان ما من أعماقنا السحيقة نتساءل كيف حصلنا على الشعر الشائب. كيف بحقّ الله أصبحنا بالغين؟ والعجيب هو أنَّ أولادنا يُصبحون بالغين - على الرغم من كل ما نفعل لندمّرهم.

12- عنوان أغنية فريق البيتلز الشهيرة - المترجم.

-11-

دونيا خوانا تتصرف بذكاء، أو
دليل الفتاة الطيّبة إلى الشبّان الأشرار

«إذا كنتَ تفتقر إلى الحرّية، لا تستطيع أنْ تمنحها للآخرين»

• **مثل عربي**

«أتعلمين أنني كلما تقدّمتُ في السن ازددتُ ثقة في أنّ الرجل الوحيد الذي يمكن للمرأة أنْ تحبّه هو الرجل الذي لا تحترمه».

• **ماري دورفال، اقتطفه أندريه موروا في كتابه *«ليليا، حياة جورج صاند»*.**

لقد تربّيتُ لكي أكون فتاة صالحة في حقبة الخمسينيات، لأؤمن بأنَّ «الحب والزواج يسيران معاً كالحصان والعربة»[1]. زواجي الأول كان في عام 1963، والثاني كان في 1966، والثالث في 1978، والرابع في 1989. لقد اتّضحَ حينئذٍ أنَّ حياتي كانت كوناً مُصغَّراً من الحب والجنس بالنسبة إلى بنات جيلي. وفي كل مرة تطلّقت، شعرتُ كما شعرت مارغريت

1- عنوان أغنية كانت شائعة في الخمسينيات في أميركا - المترجم.

ميد[2] بين قبائل المانوس والمندوغومور، بأنَّ التزاوج ومواعدة الرجال «تغيّرا تغيّراً تاماً»، وولِد «الجمال الشديد».

من بين كل تلك العصور المُظلمة السحيقة، كانت الثمانينيات هي الأسوأ. والمشكلة كانت أنَّ الرجال جميعاً اعتقدوا أنهم يجب أنْ يكونوا سادة الكون واعتقدت النساء أنهنّ فاشلات إلا إذا أوقعن في أسرهن الرجال الذين يستطيعون أنْ يشتروا لهنّ زمرّداً كبيراً بحجم فندق الريتز[3]. ويبدو أنني في موقع ما من تلك الحقبة قرّرتُ أنْ أُجرّب وضع دليل يكون مُحصّلة لكل ما تعلّمتُ عن الرجال خلال فترة حياتي العاطفيّة الطويلة جداً.

عنوانه المؤقّت كان *«الجميلة والوحش: دليل الفتاة الصالحة إلى الشبان الأشرار»*. كنتُ أعلم أنَّ المرأة تريد القواعد. كيف عرفتُ ذلك؟ لأنني أنا نفسي أردتها. لذلك منحتها لنفسي:

عدد من المغالطات التي تقبلها المرأة:

المغالطة 1:

إذا كان يُحبّني، فسوف يبقى مخلصاً لي إلى الأبد.

الحقيقة:

إنَّ حبّه لك لا صِلة له بكونه مُخلصاً. وبعض الرجال لا يتزوجون أكثر من امرأة واحدة. ومعظمهم لا يفعلون. الجذابون جنسياً منهم عادة لا يفعلون. إنَّ العلاقة الأحاديّة تدوم ثلاثة أيام، أو ثلاثة أسابيع، أو ثلاثة

2- مارغريت ميد (1901 – 1978): أشهر متخصصة في عِلم الإنسان وداعمة لحقوق الإنسان في أميركا. كانت مهتمة خاصة بسلوك البشر وبتأثير مرحلة المراهقة على المراحل التالية للإنسان. ومن أجل ذلك عاشت بين قبائل وثقافات أصلية في جزر المحيط الهادئ لإجراء أبحاثها – المترجم.

3- عنوان قصة قصيرة للروائي الأميركي ف. سكوت فيتزجيرالد، الذي اعتقد في وقتٍ ما، كما قال عنه إرنست هيمنغواي، أنَّ الأغنياء قوم أرقى من باقي البشر – المترجم.

أشهر، أو في أحسن الأحوال تدوم ثلاث سنوات مع معظم الرجال. وغالباً تدوم مدة كافية ليجعلك تحبلين. إنَّ لدى الطبيعة سبباً لهذا. إنَّ الرجال مُبرمجون لنشر نُطفهم على أوسع نطاق والنساء مُبرمجات لتنشئة أطفال أصحّاء، حيويين. إنَّ أطفال البشر يستغرق منهم وقتاً طويلاً لكي يكبروا وينتقلوا إلى مرحلة الاكتفاء الذاتي - كما لاحظتن. وبعض الرجال أفضل من غيرهم، لكنَّ الكذب مرض مستوطن في النوع. وأنماط قليلة من الذكور مُخلصة. وأغلب الباقين يخونون. والسؤال المطروح هو: هل تتحملين هذا؟ إذا لم تكن الخيانة وقحة ومُهينة وتحصلين أنتِ على الكثير من العلاقة بطرق أخرى (على صديق، عشيق، والد لأطفالك، أو شريك في الشؤون الاقتصاديّة)، ثم تفكّرين في البدائل التالية: يمكنكِ أنْ تقبلي خيانته بكياسة، وفي الوقت نفسه تحصلين على فوائد شعوريّة وماليّة من إحساسه بالذنب. وتستطيعين أنْ تخوني أنت نفسك سراً - *إذا* (وفقط إذا) *استمتعت* بذلك (وليس نكاية). يمكنكِ أنْ تُدركي أنَّ الأمر لا صِلة له بك. لقد ارتكب الخيانة من أجل إثبات رجولته، وليس ضد أُنوثتك.

المُغالطة 2:

إنني في حاجة إلى رجل لأشعر بالاكتمال.

الحقيقة:

أنتِ لستِ في حاجة إلى رجل بقدر ما الرجل في حاجة إليك. إنَّ المرأة جنس مُكتفٍ ذاتياً. والرجل هو الجنس المُتّكل. المرأة تُنتج النوع: إنها تخلق الحياة داخلها (أو هذا ما تفعله الإلهة الأم، عبرها). والرجل يعلمُ هذا وخلق داخل نقص كفاءته عالماً يُعيق ويُحطّ من قدر إنجاز كل أنثى - بدءاً بمجد الإنجاب نفسه وحتى عمل المرأة في كل مجال خلّاق ومهنيّ. ربما لا تستطيعين أنْ تُغيّري العالم - **بعد** - ولكنكِ لستِ مُضطرة إلى قبول هذه الكذبة. أنتِ ممتلئة بالطاقة، وقوية، ومُكتفية ذاتياً. وكلما أدركتِ هذا، تُصبحين أسعد حالاً مع رجل أو من دونه.

المُغالطة 3:

إذا استخدمتِ طاقتك من أجل دعم الرجل، فسوف يقوم دائماً بدعمك.

الحقيقة:

للأسف، هذا ليس صحيحاً. أمرٌ رائع أنْ تُساندي رجلك، أنْ تُعطي مَنْ تُحبّين، ولكن لا ينبغي أنْ تنسي نفسك أبداً، وأطفالك، بما أنه هو قد يفعل. وبما أنه رجل، يعتبر بداهة أنَّ تلبية حاجاته تقع في المقام الأول. وبما أنك امرأة، تعتبرين أنتِ أيضاً ذلك أمراً بديهياً. لا تفعلي. احمي نفسك - ليس ببلاغة وحجّة المرأة الداعمة لحقوق المرأة، بل بالأفعال. رصيد في البنك وعِقار باسمك، مال مدَّخَر من أجل تعليم أولادك ممنوع عليه أنْ يلمسه (لكي يُعطيه للزوجة التالية - الأصغر سناً - *ولأولادها*)، ومهنة لكِ تتّكلين عليها. وفوق ذلك كله، شدّي أزر نفسك، ومن ثم ساعديه في شد أزر نفسه إنْ كان يُسعدك أنْ تفعلي ذلك.

المُغالطة 4:

يُحب الرجل أنْ تقولي الحقيقة بشأنْ علاقتك.

الحقيقة:

إنه يكره هذا. على أية حال، إنَّ الحقيقة كما يراها والحقيقة كما ترينها أمران مختلفان. الحقيقة بالنسبة إليه تتعلَّق بأولوياته (الغزو، الفوز، النكاح). أما الحقيقة *بالنسبة إلينا* فتتعلَّق بأولوياتنا *نحن* (التنشئة، الإبداع، الحب). إنَّ أولوياتنا تجعل *الحياة* ممكنة. وأولوياته تجعل فوزه أمراً ممكناً. إنه يعتبر أولوياتنا تافهة، لكنه لا يستطيع أنْ يعيش من دونها. إنه يُنكِر اتّكاله الإنسانيّ، وأولوياتنا تُمكّنه من الثبات على إنكاره. كيف يمكنك أنْ تتحدثي عن هذا؟ وكأنَّ شخصاً يتكلَّم اليونانيّة وآخر يتكلَّم السواحليّة. لغوٌ مُتبادَل.

لا تتحدثي عن العلاقة - بل *افعلي* شيئاً. أحبّي العمل أو اتركيه. فلتكن حاجاتك واضحة. تمسّكي بالسُلطة الشرعيّة. ودائماً بوحي بمشاعرك، وأفصحي عن حاجتك، *وإياك* أنْ توجّهي الاتّهامات. كوني رقيقة ولكن حازمة. اعرفي ماذا تريدين واطلبيه. إذا أكثرَ من الرفض، فكّري في خياراتك. إذا كنتِ مازوشيّة، كوني صريحة مع نفسك. إنَّ العالم شديد القسوة فلا ترتكبي جريمة القسوة على نفسك. تحدّثي معه بلطف وتحدّثي مع نفسك بلطف أشدّ. أحبّي نفسك. إنَّ الرجل مُحاكي. فإذا أحببتِ نفسك، فسوف يُحبّك أيضاً.

المُغالطة 5:

الرجل يُحبّ المرأة التي لا تُعارضه أبداً وتغذّي نزواته.

الحقيقة:

لقد أشاعتْ مارابيل مورغان[4] وأنيتا برايانت[5] هذه الكذبة الكبرى قبل عقد ونصف من الزمن وانظري إلى أين أودت بهما. والحقيقة هي أنَّ الرجل يشعر بعدم الأمان مع المرأة التي تسايره باستمرار وترضخ لنزواته، ولا تُملي عليه ما ينبغي أنْ يفعل. إنه لا يريد أنْ يُهدَم، بل أنْ *يُقاد*. إنه يعلم أنه فتى شرير، والمرأة التي تغذّي كل نزواته إنما تُفاقِم من إحساسه بالذنب. فإذا أردتِ من الرجل أنْ يُحبّك، اجعليه يشعر أنه مهمّ، ولكن قوديه بحزم وبرقّة. إنه يعتمد عليك لإنقاذ حياتك. هو يعلم أنه ليس الفارس الذي يمتطي صهوة فرس أبيض أو فارس الأحلام - فلِمَ لا تفعلين؟

4- مارابيل مورغان: كاتبة أميركية أصدرت مجموعةً من الكتب التي تُعنى بشؤون المرأة. ناهضتْ حركة تحرير المرأة ودعت المرأة إلى عمل كل ما في وسعها لإرضاء زوجها - المترجم.

5- أنيتا برايانت: مغنية سابقة عُرِفَت بين أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات. كانت تناهض المثليّة. وتؤمن بالتفرقة الجنسية بين الرجل والمرأة مما أثّر سلباً على شعبيّتها - المترجم.

المُغالطة 6:

الرجل يريد أنْ يكون فارساً على صهوة جواد أبيض ويُنقذك.

الحقيقة:

هذا صحيح. وهو لا يتناقض مع المغالطة رقم 5. إنه يُريد أنْ يبدو أنه يُنقذك، على الرغم من أنه يعلم في حلكة الليل[6] أنكِ أنتِ، في الحقيقة، التي تنقذينه. دعي فارسك يستغرق في الوهم، أشبعيه. ارويه. استخدميه في غرفة النوم من أجل ممارسة جنس أفضل. ولكن احتفظي بالحقيقة في قلبك. وما يحدث هو أنكِ إذا كنتِ تبحرين في نهر الأمازون ثم جنحتِ إلى مياه تعجّ بالتماسيح، فسوف تنقذينه ويتلقى هو الفضل.

المُغالطة 7:

الرجل يكره مناصرة حقوق المرأة.

الحقيقة:

الحقيقة هي: إنه يكره النساء اللواتي *يُثرثرن* عن حقوق المرأة من دون أنْ يفعلن أي شيء خلاف وضع اللوم على الرجل، لكنه يُحبّ النساء اللواتي يعرفن مدى قوّتِهن، في حين يتملّقن الرجل بالمُغالاة في إظهار ضرورته. فهل هذا خيانة؟ نعم ولا. إنها خيانة إذا شعرتِ أنك دائماً مُضطرة إلى قول الحقيقة للرجل - وهذا أكبر خطأ ترتكبينه إذا أردت منه أنْ يُضاجعك. إذا كنتِ لستِ في حاجة إلى هذا - أي أنّكِ إما عزباء سعيدة أو مثليّة سعيدة - إذن لا تواصلي القراءة. يجب أنْ تعرفي.

المُغالطة 8:

الرجال يُحبّون الأطفال وكلّ ما يُعانيه الآباء المتفانون.

6- هناك تلاعب في كلمتيّ knight (فارس) وnight (ليل) تلجأ إليه الكاتبة، وكتبت الأولى بدل أنْ تستخدم الثانية - المترجم.

الحقيقة:

بعضهم كذلك، والبعض الآخر ليسوا كذلك. ومعظمهم - مثلك - متأرجحون فيما يخص الأبوّة، وهذا سِمة إنسانيّة. ولكن أنت لديك هرمونات تجري في جسمك تجعلك - أو تجعل معظم النساء - كلِفات بحب الأطفال بطريقة لا يعرفها معظم الرجال. وخلال سنوات طمثك، يُذكّرك جسدك في كل شهر بموتك وخصوبتك - أما جسده فلا يفعل ذلك. إنَّ جسده يُذكّره بأنَّ قضيبه حاضرٌ دائماً، هشّ، مُلِحٌّ، ووحيد. إنّه يدفعُه إلى أنْ يقول لكِ تقريباً أيَّ شيء ليبدو أنّه لا يُقهَر، وصُلْبٌ، وليس وحيداً. وبعد ذلك سوف يجعله يقول أي شيء من أجل أنْ يبتعد. وبقدر ما تتوقين إلى الاندماج مع آخر، يخشى هو ذلك. إنَّ ارتباطك الأوليّ كان بكائن بشريّ من الجنس نفسه، أما بالنسبة إليه فالارتباط هو بكائن بشريٍّ من الجنس المقابل. وهكذا يخاف هو الاتحاد حتى وهو يسعى إليه. إنَّ توقك إلى الاتحاد ليس متناقضاً. أنت لا تخشين أنْ تحاصرك أمّك من كل جانب. في الحقيقة أنت تتوقعين أنْ *تُصبحي* هي. أضيفي هذا إلى الفروق الهرمونيّة بين الجنسين فتحصلين على جنسٍ يتوق إلى الاندماج وعلى جنسٍ آخر يريده ويخشاه معاً. إنَّ الرجال انفعاليُّون ويُعانون من رُهاب الاحتجاز في الوقت نفسه؛ إنهم يتقدّمون ويتراجعون في وقتٍ واحد. هذه هي مزحة الله الصغيرة عن الجنس البشري. إنَّ بعض الأطباء النفسيِّين يُنظِّرون قائلين إذا قام الرجال بالاهتمام بالأطفال، فهذا الوضع سوف يتغيَّر. ونحن راغبات في تجريب هذا، لكنَّ الكثير من الرجال لا يرغبون فيه. يبدو أنَ الأطفال يُثيرون أعصابهم. وطبعاً هناك تلك الأنماط التي تكتب مقالات لعمود الرجال في صحيفة *نيويورك تايمز*. إنهم لا يُحصون. مَنْ يعلم ماذا *يفعلون* بعد كتابة العمود؟ ثم، إنهم لا يمثّلون الإنسان العادي إلا بقدر ما تمثّل كاثرين هيبورن المرأة العاديّة. فإذا كان لديكِ رجلٌ كهذا، فأنتِ لا تقرئين هذا الكلام. ربما تحصل ابنتك على رجلٍ كهذا - أما بالنسبة إليك فقد فات الأوان. في جيل السوط كان

الأطفال يُفاقمون رهاب الاحتجاز عند الذكور - وهذا هو السبب في أنّكِ في تلك اللحظة تكونين في أشدّ حالاتك أُلفة، وهو في أشد حالاته توتراً. إذا فهمتِ هذا ولم تأخذيه على محملٍ شخصيّ، فسوف تكونين أسعد كثيراً.

المُغالطة 9 :

الرجال يُحبّون المرأة الشهوانيّة.

الحقيقة:

بالنسبة إلى معظم الرجال، المرأة المثاليّة شهوانيّة في الوقت المناسب. المناسب له. وهي سوف تنتقل إلى حالة أخرى بسرعة انتهاء عرض صندوق الدنيا أو إغلاق الصورة العارية في مجلة. هل لاحظتِ مرة كيف يسيل لعاب أشدّ الرجال شهوانيّة وهو ينظر إلى صورة امرأة عارية في مجلة بلاي بوي بينما يتجاهل امرأة حقيقيّة حيّة في سريره؟ أهي مُفارقة؟ ليس بالضبط. إنَّ الصورة العارية (مثل صندوق الدنيا) أكثر أمناً. إنها موجودة على جدوله. أما المرأة الحيّة الحقيقيّة فليست كذلك. والأفضل من ذلك - امرأتان. واحدة شهوانيّة ومتوفّرة على فترات. وواحدة غير مُثيرة وأقرب إلى الأم ومتوفرة دائماً (لتربية الأولاد). بالنسبة إلى ذهنيّة الذَكَر، هذه جنّة. (أي، آمنة تماماً) - وهذا يُعيدنا إلى المُغالطة رقم 1.

المغالطة 10:

الرجال عقلانيُّون، والنساء غير عقلانيّات.

الحقيقة:

إذا كان التماسُك هو العقلانيّة، فإنَّ النساء أكثر عقلانيّة. إنهن يَتُقْنَ إلى التكامُل، والصدق، والاتحاد. قد يُعانين من أعراض ما قبل الطمث، وكآبة ما بعد الوضع، وخوف ما قبل سن اليأس، لكنهن في المعتاد متناغمات

في الانغماس في الحياة. والرجال يعلمون هذا ويرغبون في أنْ تقودهم نساء قويات. نساء قويات يتظاهرن بطريقة استراتيجيّة بأنهن ضعيفات.

المغالطة 11:

الرجال يكرهون المرأة التي لديها مال أكثر منهم.

الحقيقة:

إنَّ الرجال يكرهون المرأة التي تتحكّم فيهم. ويسعدهم كثيراً أنْ يكون لديهم امرأة لديها مال ما داموا (أي الرجال) يتحكمون في هذا المال - أو يبدون أنهم كذلك. أتتذكّرين دستور نابوليون[7]؟ أتتذكّرين كل تلك الوارثات اللواتي تزوّجن بسبب أموالهن أيام كان مال المرأة ينتقل تلقائياً إلى زوجها؟ إنَّ ما يكرهه الرجل في المرأة هو قُدرتها على التحكُّم فيه. والمال، في مجتمعنا، هو التمثيل الأمثل للسلطة. إذا كسبتِ أو جمعتِ مالاً أكثر من زوجك، فعليك أنْ تجدي وسائل حقيقيّة - أو وهميّة - لتسليمه زمام الأمور - ما يكفي من الزمام لتحقيق التوازُن - ومع ذلك لن يُسامِحَكِ أبداً.

المُغالطة 12:

الرِّجال يُحبّون الجميلات ذوات التقاطيع والأجساد المثاليّة.

الحقيقة:

في الحقيقة، إنَّ الرجال يُعجبون بهنّ عن بُعد وليس عن قُرب، لأنهنّ يُثرنَ أعصابهم قليلاً - ما عدا للاستعراض.

عندما أقرأ هذا الآن، يبدو أشبه بصراخ من الألم مُقنَّع على هيئة

7- يقضي الدستور المذكور، والذي وُضِعَ ما بين عاميّ 1804 و 1810، بأنْ يكون الرجل هو المُهيمن على كل شيء في منزله وعلى زوجته وأولاده، وبالتالي يُصبح كل ما تملكه الزوجة تحت تصرّفه

نصيحة للمحروم من الحب. والمحروم من الحب هو أنا - سواء اعترفتُ بهذا أم لم أعترف.

كنتُ أخرج مع أحدهم، أحاول للمرّة الأولى في حياتي أنْ أفهم الجنس الآخر. كان عليّ أنْ أفعل. شعرتُ بأنَّ نجاتي على المِحك. كان هناك دائماً عدد من الرجال لأختار منهم. حينئذٍ كنتُ في الأربعينيّات من عمري وكان الرجال في معظمهم متزوِّجُون أو موتى. وآخرون لا يتواعدون إلا مع نساء تحت الثلاثين. الباقون كانوا مثليِّين - رائعون كأصدقاء، ولكن في العموم لا يمارسون الجنس. كان عليّ إما أنْ أتخلّى عن الرجال - وهي ربما ليست فكرة رديئة، لكنني اعتقدتُ أنَّ في استطاعتي أنْ أفعل ذلك *لاحقاً* - أو أنْ أتعلَّم، بعد طول انتظار، كيف كانوا *يعملون*. لا بدّ أنَّ كتاب النصائح هذا الذي لم ينته كان مُحاولة لتصنيف معرفتي. وما زلتُ أؤمن بكل واحدة من «قواعد الحب» هذه. وبعد عدة سنوات من زواج منتصف العمر، آمنت بها *أكثر*.

يمكننا أنْ نسأل لماذا اعتقدتُ - في أربعينيات عمري - أنني احتجتُ إلى رجل. إنني أحبُّ صُحبة نفسي. وفي استطاعتي أنْ أكسب قوتي. ولم أجد أبداً صعوبة في العثور على عشّاق. لماذا، إذن، أردتُ أي شريك؟

احترتُ في التفكير في هذا السؤال ولم أتوصّل إلى جواب معقول. ربما الجواب *ليس* معقولاً. ربما هو فقط السبب الوحيد الذي يجعل شريك الإوز وقرد الريص[8] يُفضّلان أمّاً حقيقيّة على درع القماش والأسلاك المُسخَّن. ربما الأمر كله يتعلّق بالدفء. أو ربما الحقيقة الحزينة التي تُعرِّض المرأة للتمييز في عالم يحكمه الرجل تجعل من الأفضل الحصول على حليف معيَّن على مواجهة عالم التمييز الجنسي بأكمله وحدها.

ما أشد غِنى عبارة «زوجي» بالدفء والحماية! أي يقين، وأمان، وتضامُن! ربما هذا هو السبب في أننا نتزوج على الرغم من أنَّنا نعلم أنَّ

8- قرد الريص: قرد هندي صغير وقصير الذيل.

الزواج يمكن أنْ يعني أنْ يُضيِّع المرء ماله، وأنْ يُستخدَم أولاده كرهائن، أو مواجهة إيذاء جسدي. وعلى أقلّ تقدير، الزواج يعني:

«الجزء من الوساطة بين المسيو وباقي الإنسانيّة... الزواج يعني... يعني: اربطي لي ربطة العنق!... تخلّصي من الخادمة!... اقرضي لي أظافر قدميّ!... انهضي وأعدّي لي بعض البابونج... إنه يعني: أَعطيني بذلتي الجديدة، ووضّبي حقيبتي لكي أُسرع وأنضمّ إليها! قهرمانة، ممرضة مريضة، حاضنة أطفال - كفى، كفى، كفى، كفى!».

ربما لهذا السبب انتهت شخصية كوليت، رينيه، في رواية «*الشريدة*» إلى قول: «لم أعد شابّة بما يكفي، ومتحمّسة بقدر كافٍ، أو كريمة بما يكفي لأخوض تجربة الزواج من جديد، أو الحياة الزوجيّة، إذا شئت. دعيني وحدي في غرفة نومي الموصدة، في كامل زينتي وخاملة، في انتظار الرجل الذي اختارني ليضمّني إلى حريمه... باختصار، لا أريد من الحب أي شيء، غير الحب».

بعد ثلاث زيجات، أنا حتماً أتّفقُ معها. أية حماقة تلك التي ما زالت تدفعني إلى السعي إلى العثور على الرجل المثالي - الذي أعلم أنّه غير موجود؟

بعد انتهاء مرحلة الياقة الزرقاء[9]، بدأتُ أنخرط في الجانب الذكوريّ مما اعتُبِرَ الطبقة العليا من مانهاتن. وإذا كانت هذه هي الطبقة العليا، فأين كانت الطبقة *السفلى*؟ إنّ أولئك الرجال كانوا بيزنطيِّين وكأنهم من بلاط القسطنطينية القديمة.

أتذكّر المواعيد الأولى التي بدتْ أشبه بمُحقِّقي الهيئة التعاونيّة أو الاستفتاءات حول تقدير الائتمان من شركة دَنْ وبرادستريت. أتذكّر

9- الاهتمام بشؤون العمال والطبقة الكادحة - المترجم.

رجالاً «شبه مُطلّقين». أتذكّر رجالاً يضعون كتلة من الشعر فوق رؤوسهم ويقودون سيارات بنتلي من أجل التعويض عن فقدان الشَعر. بل إنني خرجتُ مع حاخام لا يزال تحت التمرين ومع كاهن مُرتدّ. وربما كان يمكن أنْ أُجرّب الخروج مع آية الله لو أنَّ أحدهم وجدني صالحة دينياً للخروج معه.

بعض الرجال مررتُ بهم مرور الكرام في حلقات العزّاب. الجميع مرّوا بهم. والرجال المُستهلَكون كانوا يبدون مثاليين على الورق ولكن عندما تعرفينهم على أرض الواقع تجدين فيهم عيباً قاتلاً. والعيب القاتل نادراً ما بدا واضحاً من النظرة الأولى. كان الرجل ينقصه فقط قلب، على سبيل المِثال، أو قضيب.

أحد أولئك النماذج كان طويل القامة، أسمر، أزرق العينين ويعيش نصف الأسبوع في بلد آخر. وخلال الأيام الثلاثة التي خصّصها للإقامة في نيويورك، كان عليه أنْ يُلبّي العديد من المواعيد قبل أنْ تُقلِع طائرة الكونكورد - لذلك كنتِ دائماً تشعرين بأنكِ خُدِعتِ أو عُصِرت. كان يختفي عند الساعة الثامنة صباحاً في يوم الاثنين ولا يتصل هاتفياً طوال ثلاثة أسابيع. وتكونين قد أوشكتِ على نسيانه وإذا به فجأة يبدو كأنه تذكّر أنكِ موجودة. كان يبدو أنه يُناوب النساء على جدول دقيق كلائحة طعام في منتجع صحّي. كان يبدو أنكِ يجب أنْ تنالي مكافأة لأنك ضاجعته - ربما عدداً كبيراً منها.

لكنَّ عطل نهاية الأسبوع بالنسبة إليه كانت تُقطَّع كفطيرة الكرز. ربما كان يخشى أنْ تقع منها ثمرة كرز واحدة. آه، كم كان ذكياً وجذّاباً، وكان دائماً يحمل معه واقيات ذكرية. والشيء الأكثر إذهالاً، أنه كان *يستخدمها*. بعد ذلك، كان دائماً يختفي.

لكنه على الأقلّ كان في الحقيقة *أعزب*. *وبدا* أنه طبيعي في ميله الجنسيّ - ولكن مَنْ يدري في هذه الأيام؟ كنتُ أخرجُ معه على فترات متقطّعة طوال عام، لكنني تصرفتُ بحِكمة ولم أتخلّ عن عشّاقي الآخرين.

إنَّ أشدّ ما يُثير الكآبة في كونكِ عزباء هو شراهة الرجال المتزوجين. وزواج أي امرأة من جديد بعد ثماني سنوات من العزوبة في نيويورك - أو أي مكان آخر - لا بدّ أنه يُعزى إلى «انتصار الأمل على التجربة» (حسب تعبيرنا أنا وكين في إعلانات زواجنا). إما ذلك أو فقدان الذاكرة.

لا شك في أنَّ المتزوجين من الرجال هم أفضل العشّاق - إلا إذا تصادفَ أنْ كنتِ متزوجة منهم. إنَّ لديهم *دائماً* وقتاً كافياً يُخصّصونه لأجلك. ثم، إنهم يغيبون مدة كافية تناسب كاتبة تعمل طوال الوقت. مع الرجال المتزوجين، تتوفر لديك عُطل نهايات الأسبوع، والعطل الرسمية، وعشيّة العام الجديد لكي تمارسي الكتابة. وعندما يتظاهر العالم كلّه بأنه في حالة هيجان، تكونين أنت حقاً في حالة من الهيجان، تكتبين. وهذا وضعٌ مثاليّ، ربما ليس للجميع، بل بالنسبة إلى كتّاب في منتصف حياتهم المهنيّة. وعندما يكون طفلك مع زوجك السابق، تتوفر لديك عطلة الأسبوع المباركة كلها حرة لتعملي فيها. كم امرأة متزوجة تتوق إلى هذا؟

أين قابلتُ أولئك الرجال؟ في كل مكان تقريباً. إذا كنتِ ودوداً حقاً، فلن يكون صعباً أنْ تقابلي رجالاً. إنَّ معظم الرجال يرتعبون من أمهاتهم، وأخواتهم، وزوجاتهم، وبناتهم إلى درجة أنَّ المرأة التي تُعاملهم بلطفٍ ظاهريّ وتضحك على نكاتهم يتّضح أنها أشدّ نُدرة من الحصان وحيد القرن. إنَّ سر مقابلة الرجال هو *الإعجاب* بهم. وأنْ تكنّي قليلاً من الـ *rachmones* (التعاطُف) لهم.

قابلتهم على متن طائرة الكونكورد أيامَ ظننتُ أنَّ في استطاعتي أنْ أتحمّل تكاليف السفر على متنها. قابلتهم في المؤتمرات، وفي مناسبات الافتتاح، وفي الحفلات. إنَّ العالم ما زال مملوء بالرجال المتزوجين، كما كتبت جاكي كولينز تقول. يمكنكِ أنْ تُضيفي أنَّ: *العالم مملوء بالرجال المتزوجين الذين يشعرون بالوحدة.*

لأنهم يبدون وحيدين حقاً وممتنين حقاً لقليل من الإصغاء وقليل من

الحنان. إنهم لا يأتون إليك من أجل الجنس وحده، بل من أجل الحب والأذن المُصغية - من أجل شيء من الواضح أنهم لا يحصلون عليه في المنزل. وأنا عشيقة، أكون في أحسن حالاتي: فاتنة، رقيقة، مرحة. وعندما تعيشين بعيداً عن الرجل، من السهل أنْ تكوني لطيفة معه. إنَّ لديك حمّامك الخاص، وغرفة نومك، وخزانة ملابسك، ومطبخك. في استطاعتكِ أنْ تنامي طوال النهار وأنْ تكتبي طوال الليل. تستطيعين أنْ تخرجي في مواعيد في عطل نهاية الأسبوع بمُصاحبة أولادك أو وحدك. يمكنكِ أنْ تسترخي في مغطس الحمّام، وتقرئي قصائد، وتأكلي لَبَنة على العشاء. ويمكنك أنت وابنتك أنْ تطلي كل منكما أصابع قدميّ الأخرى. يمكن لكل الأشياء التي تتعلّق بتنشئة الأنثى التي يبدو أنّ الرجال يجدونها سخيفة (إلا إذا استفادوا منها) أنْ تُصبح دعامات حياتك.

بما أنني أكره مواعدة الرجال، فإنني انتقل بسهولة إلى إقامة علاقات مع رجال متزوجين (ثم أنَّ «الجديرين بالانتقاء» كانوا دائماً متعجرفين. وهم متيقّنون من أنكِ خرجتِ لكي تتصيّديهم. والنتيجة، كلما أثاروا إعجابك، يفرّون منك أكثر).

لقد أنذرتني طبيبتي النفسيّة بأنني *أغالي* في حب الرجال المتزوجين. وادّعتْ بأنني أخاف الزواج. بعد خروجي ثلاث مرات مع متزوجين، لِمَ لا ينبغي أنْ أخاف الزواج؟ لقد كان الزواج في المعتاد بالنسبة إليّ صفقة خاسرة. لقد تزوّجت بدافع الحب وانتهى بي الأمر إلى القتال في قاعة المحكمة لصالح ابنتي. أما كان من الأفضل لي ألّا أتزوج أبداً؟

ربما كنت أُسيء اختيار الرجال. إذا لاحقني رجل لطيف، فإنني دائماً أختار الوغد المُراوغ. لِمَ لا أعترفُ إذن بأنَّ الزواج لا يصلح لي وأتخلّى عن الأمر؟

كانت طبيبتي النفسيّة شديدة الانتصار للزواج. ومشهورة بدفع مرضاها إلى الزواج، وكانت تنظر باشمئزاز إلى الرجال المتزوّجين في حياتي.

لقد أحرقتُ دفتري الصغير الأسود. وقرّرت أنْ أستبدله بصورة الرجل المتزوّج المُركّبة.

تتقابلان في حفلة لعرض فيلم سينمائي، أو للنشر، أو لافتتاح مناسبة فنيّة، أو حدث سياسيّ. يواجه تحديقك بتركيز أشدّ مما يفعل الآخرون. لقد قرأ كتبك وادّعى أنه أحبّها (ربما زوجته أحبّتها). ويرميك بتلك النظرة الخجول، المُراهِقة التي تُربك الخطوة.

الحديث يبدأ ولا يتوقّف. وعند نقطة ما تتساءلين إنْ كان يتعمّد إطالته، أو إنْ كنتِ أنتِ التي تفعلين ذلك. تنظرين لحظة في عينيه فترَين الفتى الصغير الذي كان عليه ذات يوم. ويقول شيئاً حميماً عن عِطرك أو عن شَعرك. يسألك إنْ كان يستطيع أنْ يقلّك إلى منزلك. وفي السيارة، تعيَّنَ وجودُ شيءٍ يجذبك إليه - قوّة شبه مِغناطيسيّة لكنكِ لا تستخدمينها. وعند باب بيتك، تقدمين له رقم هاتفك ولكن بلا قُبلات. ويلمس يدك بقدر من الحميميّة أو يلمس شَعرك بشبه ربت تملُّكي. إنه لا يرغب في تركك ترحلين، لكنكِ توضّحين أنك ذاهبة. إنه يبدو ككلب محبوب في وجار قبل بدء العطلة.

في الصباح قبل الساعة العاشرة، تأتيك مكالمة هاتفية. إنه يدعوكِ على الغداء، قريباً جداً - ربما في ذلك اليوم. وأنت تعلمين أنّه متزوج لأنه لم يدعُك على العشاء. وأيضاً لأنه يُبدي توقه علناً. إنّ العزّاب لا يُعبّرون عن توقهم أبداً علناً.

على مائدة الغداء - في مكان ساحر قريب من الدرب الوعر - تُشدّدين على أنه متزوج. ليس لأنه هو يقول هذا بل لأنه ***يحذف*** الكثير عن حياته.

يقول أشياء مثل «ذهبت إلى السينما» أو «ذهبتُ إلى أوروبا»، ولكن من الوصف الذي تعرفينه تعلمين أنه ليس وحده. الرجال في المعتاد يُقيمون وحدهم في فندق سبليندينو في بورتوفينو أو في فندق دو كاب أو إيدن روك. إنَّ سريراً خالياً مزوّداً بأغطية من الكتّان الأبيض الناصع

قد تكون فكرتك *أنتِ* عن الجنّة، لكنَ السرير ليس كذلك في المعتاد.

لا بأس في أنْ تسأليه عن أولاده. إنكِ بتلك الطريقة تستطيعين أنْ تُشدّدي على وضعه كمتزوج. إذا كان مُطلّقاً، فسوف يأتي على ذِكر أمّ أولاده - بكلام سلبيّ عادة. ولكن إذا كان متزوّجاً، فسوف يظهر كأنه أنجبهم وحده.

إذا بقيَ الشك ينتابك، يمكنك أنْ تسألي دون مقدمات: «أنت متزوج أم مُطلَّق؟». عادة سوف يقول شيئاً ماكراً على غرار: «بين-بين» أو «أنا أحاول أنْ أعرف» أو «إننا نعيش حالة زواج مفتوح». قد يكون مفتوحاً *بالنسبة إليه*، لكنه ربما ليس كذلك بالنسبة إليها.

بل إنَّ رجلاً متزوجاً قال لي ذات مرة، «نحن هيبيّان سابقان ونعيش حالة من الزواج المفتوح منذ حقبة الستينيات». ولاحقاً علِمتُ أنَّ ذلك *كان* صحيحاً قبل عشرين عاماً، ولكن ليس الآن - وربما هذا ما يُفسِّر كونهما ما زالا متزوجين. وقال آخر «إنَّ زوجتي ***لا ترغب*** في وجودي، ويُسعدها أنْ تتخلَّص مني». وقال آخر «إنها في منزلنا في باربيدوس مع الأولاد». وقال آخر «إنها في رحلة عملٍ في كاليفورنيا». والمعنى أنها *بعيدة عن الأنظار، وبعيدة عن التفكير*. إنّ لدى الرجال قُدرة على تقسيم مشاعرهم وهو أمر لا تستطيع المرأة حتى أنْ تفهمه.

إنَّ ممارسة الجنس تستغرق وقتاً لتبدأ. ويبدو أنَّ صبره لا ينفد، وأكثر اهتماماً بعقلك من جسدك. يتّصل بك مرات عِدّة في اليوم، لكنه يُصبح صامتاً بصورة غريبة بعد غروب الشمس وفي عطل نهاية الأسبوع. وأنت دائماً تتصلين به في المكتب. بل ليس في ***حوزتك*** رقم هاتف آخر له. وهذا الحذف يُغْفَل بعناية.

أحقاً ترغبين في الحصول على رقم هاتف آخر؟ إنَّ أمامك الكثير من العمل تؤدّينه. إنك تفضلين أنْ تأوي إلى السرير وحدك، وتقرئين حتى وقت متأخّر من الليل كما تشائين، ولديك مطبخك الخاص النظيف، وحمّامك، وسيارتك. وتندسّين بين الأغطية البيضاء النظيفة كشطيرة

الخبز والزبد. وتتذكرين فوضى الجوارب المتسخة، والمناشِف، وعبوات الصودا الفارغة - وتُقسمين، *لن يحدث هذا من جديد*. لكنك تشعرين بالنشاط، وبالحيوية، وبأنك أنثى. إحساس ممتع أنْ يكون لديك رجل لا يُقيم معك. وجميل أنْ يكون معك رجل ولا يكون معك في وقت واحد. تشعرين بالصفاء. ربما تُحافظين على هذا الوضع إلى الأبد - والقوة كلها إلى جانبك.

ولكن بينما أنت تبتعدين، يُصبح هو مجنوناً بامتلاكك. وهكذا تُبنى ذكورة النوع.

يُعدُّ المكان منزلك في عطلة الأسبوع حيث تكون طفلتك مع والدها، ونُزُل في فيرمونت (في عطلة نهاية الأسبوع تكون الزوجة غائبة)، وجزيرة تحت أشعة الشمس (خلال أسبوع تكون فيه الزوجة في أوروبا أو آسيا). إذا اقترح الذهاب إلى منزله، لا تذهبي. وأعيدي النظر في علاقتكما. إنَّ الرجل الذي لا يتردَّد في جلب امرأة أخرى إلى سرير زوجته لا يمكن الوثوق منه - حتى وإنْ كان عاشقاً في يوم ما. ثم، إنك تريدين رجلاً بعض الوقت، وليس رأس امرأة أخرى علَى طبق. إنها الزوجة لذلك يمكنكِ أنْ تكوني العشيقة. والعشيقة لها نقاط سِحرها الخاصة.

إنه يصل في ذلك اليوم، يبدو كمُتودِّد خجول. قد يُحَضِر معه أزهاراً أو نبيذاً، أو أسطوانات مُدمجة، أو ملابس نوم من الحرير الأحمر. (إذا كان ينوي أنْ يرتديها هو نفسه، أعيدي حساباتك). قد تكون لديه كل تلك الملابس، ولكن بلا حلي. إنه يتساءل إنْ كنتِ استثماراً مُربِحاً. (هل تستسلمين بسرعة كبيرة؟ هل كان ينبغي أنْ تجعلي مدّة المطاردة أطول؟ هل ستحصلين على حلي أفضل إذا لم تستسلمي؟ لا أعلم - ولكن ربما لهذا السبب لا أمتلك حليّاً).

ثم إلى السرير. هنا تنتقل القوة. إذا كان يُناسبك في السرير، فأنت في ورطة. وإذا كنتِ مناسبة له *هو*، فهو في ورطة. إنَّ السرير هو مركز انتقال القوة. السرير هو النواسّة بين *قبل وبعد*. وما يحدث بعد ذلك يعود إليك.

إذا أصبحتِ جشعة، فسوف تنفّرينه منك. وعندما يُعرِّج عليك يوم الإثنين ويمدحك مديحاً رومانسياً مُثيراً، دقّقي في الأمر. قد يكون ذلك أفضل متعة حصلتِ عليها في حياتك. لا أحد فهمه بشكلٍ أفضل. إنه حتى يستخدم كلمة «حب». وهذا سبب آخر *لتعرفي* أنه متزوج. إنه مُلقَّح. يستطيع أنْ يقول ما يريد ولا يناله أي شيء.

إنَّ الرجال مخلوقات بسيطة جداً. أطعميهم، ضاجعيهم، ولكن احتفظي بمفاتيح القلعة. إنهم محلّيون حتى اللّب، وهم أشدّ عذوبة عندما لا يضعون أحذيتهم تحت سريرك.

هذه العلاقات يمكن أنْ تستمر سنين عديدة ومع ذلك تُفسِحُ لك الوقت لممارسة كل ما تبقّى من حياتك. إنها ليست ذات أهميّة. وليست بالضرورة أن تتحول إلى زواج. رجل متزوج أخذ إجازة من الزواج واستأجر منزلاً ريفيّاً قريباً من منزلي. ومع ذلك ظلّ يعود إلى منزله في عطلة نهاية الأسبوع. وعندما حان الوقت وأراد أنْ يُدعى إلى الانتقال إلى منزلي، ذكّرته بمدى حبّ زوجته له. لا أعتقد أنه كان يتوقّع هذا. لكنني كنتُ أحبّ حريتي ورأيتُ أنَّ العلاقة قد تُصبح متوتّرة إذا عانيتُ من مشكلاته طوال الوقت.

أيمكن لهذا حقاً أنْ يكون حبّاً؟

لِمَ لا؟ ألا تستطيع المرأة أنْ تحبّ من دون أنْ تتخلّى عن حياتها؟ إنَّ الرجال يفعلون هذا طوال الوقت.

إننا نميل إلى الاعتقاد أنَّه إذا لم نتخلَّ عن كل شيء، فنحن لا نعرف الحبّ حقاً. ولكن هذا النمط لا يعمل بعد بلوغ الخمسين. ولِمَ يجب أنْ يعمل؟ بعد الخمسين، حياتنا تخصّنا، وليس للنوع. أصبحتْ حياتنا أشدّ أهمّيّة لنا من أهمّيتها لعالم الذكر - أخيراً.

ولكن حينئذٍ كنتُ لا أزال في أربعينيات عمري، لذلك اضطُررتُ إلى التساؤل: *هل سأتزوج هذا الرجل إذا ترك زوجته؟*

قرّرتُ أنني لن أفعل. ولذلك أمرني ضميري بأنْ أُعيده إلى زوجته. لقد أرادتْه كما لم أرِده. كان إرساله إلى منزله تصرّفاً مُنصِفاً.

هناك علاقات لا تنتهي أبداً. إنها تتواصل على فترات متقطّعة على مدى سنين – حتى بعد أنْ يعود أحدكما (أو كلاكما) إلى زوجه أو زوجته أو يتزوج شخصاً آخر. إنَّ العلاقة تُصبح مكاناً خاصاً لا صِلة له، أو وثيق الصِلة، مع باقي حياتك. إنها بلا ألم، فقط ممتعة، لأنها بطبيعتها، زائلة. والخيال الجامح يضمُّ عاشقين يتقابلان مرة في العام (كما في فيلم *«نلتقي في الموعد نفسه في العام القادم»*) ويعثران على واحة صغيرة خارج الزمن – من وقتٍ إلى آخر.

ولكن عاجلاً أو آجلاً، حتى أفضل العلاقات تفتر. ربما ذاتك التي احتاجت إلى تلك الواحة تقدّمتْ عليها ذاتك الأخرى. ربما تجدين ملاذاً في علاقة أخرى، يبدو أنَّ إنجازها بحدّ ذاتها كافياً. وربما تتقدّمين كثيراً في السن وتصبحين مُتعبة ولا يعود في استطاعتك أنْ تمارسي الخدع الضروريّة. أو أنك تقرّرين أنكِ تريدين حياتك نظيفة وصادقة.

إنَّ العلاقة هي التي أوصلتكِ إلى هذه النقطة. سوف تبقين دائماً ممتنّة. وكذلك هو. وتقابلين عشيقك السابق في حفلة أو على متن طائرة ويرميك بتلك النظرة الجديرة بفتى صغير. لقد لمستِه في الموقع اللعوب فيه وهو ممتنّ لأنكِ تعرَّفتِ عليه. وتعرُّفكِ عليه يكسر شعور الوحشة لكونه بشرياً. وأنتِ أيضاً ممتنّة لذلك.

وتعانقينه بقوة وترحلين – بلا قُبُلات.

كل الشبّان الطيّبين هم أيضاً شبّانٌ مشاغبون. ونحن نحبّهم للسَّببَين. شيء مُضجِر أنْ يكون لديك الرجل المثالي – إنْ كان لمثل هذه المعجزة وجود. كم هو مُضجر أنْ يكون المرء طيّباً *دائماً*.

إنَّ النساء الرقيقات ينجذبن إلى الرجال المتمرّدين لأنَّ تدرُّبنا على الطيبة الأنثويّة كامل إلى درجة أننا في أمسّ الحاجة للعثور على الجزء المكبوت من أنفسنا: التمرّد. ليس دائماً نستطيع أنْ نتحرَّر وحدنا، نحن

في حاجة إلى رجل لنقصّ الشريط معنا - إذا لم يكن من أجلنا. أي شريط؟ الشريط الأحمر الدمويّ الذي ما زال يربطنا بأمّهاتنا وبآبائنا.

فكّري في كل المناصِرات لحقوق المرأة اللواتي هربن مع شبّان مشاغبين! ميري وولستونكرافت هربتْ مع غيلبرت إيمالاي - وهو ثوري مُشاغب تركها مُفلِسة وحامل. فهل اشتكتْ؟ على العكس، بل كتبت تقول: «آه! يا صديقي، أنت لا تعرف البهجة الفائقة، والسرور الغامر، اللذين ينشآن من اتّحاد الحبّ والرغبة، عندما تستسلم الروح والأحاسيس لمُخيّلة حيّة».

جورج صاند تزوّجتْ فتى مُشاغباً في كازيمير دوديفان، وانتقت ألفريد دو موسيه عشيقاً مُشاغباً (إذا لم نقُل فريدريك شوبان المفرط في أخلاقه). ومن قبلهما، كان هناك العديد من الشبّان المُشاغبين، بمَنْ فيهم ستيفان غراندساني، الذي كان والد ابنتها الوحيدة، سولانج. وعشيقها الأول، أوريليان دو سيز، كان يحمل اسماً يبدأ بالأحرف الثلاثة نفسها لاسمها، أورور. وبعد هذين الاثنين، كان هناك العديد من الشبّان المُشاغبين الآخرين الذين أثاروا شغفها وسكنوا كتبها.

قد تحالف الشغف والشِّعر بوضوح لصالح صاند. كان الشبان المُشاغبون مصدر إلهامها. ولحُسن الحظ، نجتْ منهم جميعاً، وانتهى بها الأمر إلى أنْ أضحتْ جدَّة مُكافحة لا تتوقف عن الكتابة. حتى في أثناء علاقة ما، حتى وهي مُسافرة، كانت تكتب من خمس إلى ثماني ساعات كل ليلة. وعندما أوصدت الباب في وجه دو موسيه لكي تُنتج حصّتها الليليّة من الصفحات، أقام علاقات مع راقصات فينس، وهي دار الأوبرا الجميلة في البندقيّة. إنّ ذلك لم يُعِق صاند عن الكتابة - على الرغم من أنه كسر قطعة من قلبها. ولما كانت تُعامل عشاقها كلهم بحنان وأمومة، كانت تعلم أنّ العمل، لا الحب، يُبقيها على قيد الحياة. إنها تمثّل سلالتنا الحديثة من الكاتبات-الأمهات-العاشقات.

ربما لا يمكن القول إنَّ إليزابيث باريت براونينغ اختارتْ الشاب المُشاغِب الأصلي في روبرت براونينغ، لكنه كان حتماً مُحرِّرها من المنزل وأصبح مُلهِمها. إنَّ عبارة «كيف أحببتكَ؟ دعني أُحصي الأساليب» تلقي الضوء على تراث الشاعرات دفعها الحب المُحرِّر. والتراث يتواصل في هذا القرن مع آنّا أخماتوفا وإدنا سينت فنسنت ميلاي. ومَنْ هي سيلفيا بلاث لو لم تكن فتاة طيبة تعشق شاباً مُشاغباً أصلياً؟ لقد دفعت حياتها ثمناً لـ*Liebestod* (حب موت) شاعرها.

ميري غودْوين شيللي (ابنة ميري وولستونكرافت من وليم غودوين)، الكاتبة التي ابتكرتْ ذلك الجنس المرغوب دائماً رواية الرعب، أحبّها شاب مُشاغب اسمه بيرسي بيش شيللي. كان ثورياً، وخائناً لطبقته الاجتماعيّة، ومتمرّداً جنسياً، ولهذا السبب، بما أنها تشبه أمّها، اختارته في سن السادسة عشرة المبكّرة. وأبدى احترامه لأمّها الميّتة بقدر ما فعلتْ هي. لذلك وقعت مشاهد غواية مُثيرة في المقبرة، وكان شاهد قبر أمها بمثابة تميمة سِحريّة. (ولكنَّ من الأسهل على الفتيات المراهقات توقير الأمهات الأموات على توقير الأحياء منهن).

الأخوات برونتي - إميلي، شارلوت، وآنْ - كلهن كنَّ ضعيفات أمام الشبان المشاغبين، وإنْ كان ذلك فقط في رواياتهن وشِعرِهن. لقد أنجب هيثكليف[10] وروتشستر[11] آلاف الأبطال المُشاغبين في روايات وأفلام سينمائيّة أقلّ قيمة (كتبها أشخاص لم يقرؤوا يوماً مؤلّفات الأخوات برونتي بل أخذوا النموذج الأصلي عبر تنافُذ ثقافة البوب). إنَّ نبرة الشوق في قصائد حب إميلي برونتي ولّدتْ الصوت السائد الذي ساد مُعظم شِعر القرن العشرين النسائي.

إنَّ النساء الشابات يُردن أنْ يعشقن بطريقه تُلغي الذات. و«إنَّ نعيم حياتي كلّه هو في القبر معك» هي صرخة نردّدها في عهد المراهقة.

10- هيثكليف: بطل رواية *«مرتفعات ويذرينغ»* لإميلي برونتي - المترجم.

11- روتشستر: بطل رواية *«جين إير»*، لشارلوت برونتي - المترجم.

والمرأة الناضجة وحدها تعلِّمنا قيمة الصداقات الأنثويّة الحميمة، والصداقات الفكريّة، وخدمة حيوات غير حياتنا.

في سن السادسة عشرة، نجد في هيثكليف وروتشستر مصدراً للغواية أقوى من أيّ شيء. ولا نطيق صبراً على التخلّي عن كل شيء من أجل الحب. ولا بد أنَّ هناك سبباً ثورياً لذلك. أهو لأنَّ هيثكليف وروتشستر يُساعداننا في قطع الروابط مع المنزل ويُحرّراننا لكي نسعى إلى تحقيق مغامرات حياتنا؟ أم لأنَّهما ينتزعاننا من طفولتنا؟ أم لأنَّهما يمثّلان قوة أعظم من الرغبة الشديدة في المكوث في المنزل مع الماما؟ أعتقد أنَّ هذا كله صحيح. إنَّ النساء الشابّات يحلمن بالرومانسية وبالشغف بقدر ما يحلم الرجال بالغزو، لأنَّ تلك الأحلام حوافز ضروريّة لترك المنزل وبلوغ مرحلة النضج. بأية طريقة أخرى يمكننا أنْ نخرج بمغزى من حقيقة أنَّ أشرس المُناصرات لحقوق المرأة كنَّ أيضاً أشرس العاشقات؟

حتى وإنْ لم يضمن الشغف الجنسي استمراريّة الجنس البشريّ، سيكون ضرورياً كسر روابط الفتاة المُراهقة بأمها لكي تستطيع في نهاية المطاف ***أنْ تُصبح*** أمّها. إنَّ الشغف هو مُحفِّز عظيم من أجل النضج.

إنَّ العديد من النساء اللواتي يُنجزن طاقاتهنّ الفنيّة والعقليّة هنّ أيضاً متأثّرات بالوالد. وكانت ميري غودوين شيللي مثالاً مثالياً على هذا. ومشكلتها كانت أمّاً أسطوريّة، وأباً حقيقياً أكثر مما ينبغي. كان لامع الذكاء وضعيف العاطفة، لذلك تزوّج من عجوز شمطاء مُشاكسة - وهذا ما يفعله الرجال الضعفاء عاطفياً. وأصبح بيرسي شيللي أمّاً، وأباً، ومهرباً لميري. كان مُستحيلاً عليها أنْ تقاومه - خاصة بعد أنْ أقسم على أنْ يقتل نفسه إذا لم يحصل عليها.

إنَّ المُحرَّم الأدويبيّ يتطلَّب تنفيذه شخصاً غريباً (لا يُشبه الوالد على ما يبدو) يُثير الشغف الذي يتفوّق على الاعتبارات العمليّة كلها. والشاب المُشاغب مثاليّ للقيام بهذا الدور. يجب أنْ يأتي عبر المستنقعات منطلقاً على وقع حوافر غاضبة. يجب أنْ يُحبّ عمل المرأة الخلّاق ويحملها

إلى إيطاليا أو إنكلترا أو إلى القمر. يجب أنْ يكون من سلالة، وجنسيّة، وطبقة اجتماعية مختلفة. يجب أنْ يتكلَّم لغة مختلفة. يجب أنْ يرقص على إيقاع مختلف. وإلا فإنَّ الجاذبيّة الأوديبيّة أقوى من أنْ تدعنا نترك الأب والمنزل.

لماذا نغادر، وحبّنا الأول هناك؟ لأننا إذا لم نفعل، لا نستطيع أنْ نعود إلى المنزل مع كنوز الفن.

عندما ننظر إلى حيوات النساء المُبدعات أمثال ميري وولستونكرافت، وجورج صاند، وسيلفيا بلاث، وكوليت، وإدنا سينت فينسنت ميلاي، وآنّا أخماتوفا، وميري مكارثي، وأُخريات كثيرات فربما ينبغي ألّا نندم على أنَّهن دائماً يقعن في حب الرجل الخطأ. وأحياناً عشق الرجل الخطأ هو الشيء الوحيد الذي تستطيع المرأة المُبدِعة أنْ تفعله عندما تكون شابّة وفي حاجة إلى أنْ تنفصل عن المنزل. إنَّ حب شاب مُشاغب يعني أنْ تحب الشاب المُشاغب في داخلها، مُشدّدة على حرّيتها، وجموح روحها. إنَّ الشاب المُشاغب هو الجزء المتمرِّد من نفسها الذي حاولَتْ تنشئتُها الأنثويّة أنْ تسحَقه. وفقط عندما تَدمُج الشابَ المُشاغب مع شخصيتها *الخاصة* تستطيع أنْ تتخلّى عن حبّه الخشن. فإذا نجتْ، تُصبح أقوى في مواجهته. إنه بمثابة بلوغها سن الرشد، زواجها من القوة والحنان، واستقلالها.

بعد سن الخمسين، لا شيء من هذا ضروريّ. نكتشف أنَّ في استطاعتنا أنْ نكون الشاب المُشاغب والفتاة الطيّبة معاً. بعد الخمسين، يمكننا أنْ نُشدِّد على قوة الشاب المُشاغب، بالإضافة إلى دفء الأمومة. ولا نعود في حاجة إلى الشاب المُشاغب إلى جوارنا ليُطالب بحيويتنا. ولا نحتاج إلى أنْ تكون أمهاتنا هنَّ نحنُ كأمهات. نحن بشر خنثويُّون بشكل كامل الآن – شرسون ورقيقون في وقت واحد.

في كفاحنا لتحقيق هويّاتنا كنساء، من المهم ألا نخلط ممرات الحياة المختلفة مع بعضها. وما قد نحتاج إليه في عهد الطفولة والمراهقة ليست

الصِفات نفسها التي نحتاج إليها في عهد الأمومة. إنَّ مهمّة المراهقة هي مغادرة المنزل. والمرأة في مجتمع يعتنق التمييز بين الجنسَين لطالما وجدتْ فعلَ هذا أمراً صعباً. لقد دعم عِلم الأحياء التواكل نفسه الذي استطاعت عقولنا أنْ تتجاوزه. والممارسات الأبويّة كالزيجات المُدبّرة، وشجب الإجهاض، والتشويه الجنسي الأنثويّ شجّعتنا على التمجيد بدل المغادرة كاستراتيجيّة لحماية النفس.

لا عجب أنَّه *كان* على بطلاتنا المُبدعات أنْ يجدن استراتيجيات للمغادرة. المستقيمات جنسياً ابتكرنَ استراتيجيّة عشق الشبّان المُشاغبين كوسيلة أساسيّة للانفصال. ونُخطئ إذ نعتقد أنهنّ كنّ مجرد ضحايا. لقد كنّ مُغامرات في المقام الأول. أما تحوّلهنّ إلى ضحايا فلم يكن في *نيّتهن*. إنَّ سيلفيا بلاث لم تكن فقط مازوشيّة بل مُغامِرة جريئة حصلت ربما على أكثر مما توقّعت.

مع تقدّمي في السن، أتوصل إلى فهم أنَّ الهواجس المُدمرة للذات ظاهرياً لمراحل عمري وأنا أصغر سناً لم تكن *فقط* مُدمّرة للذات. لقد كانت أيضاً خالقة للذات. وعلى امتداد مراحل حياتنا، نمرّ بتحولات قد لا تتبدّى إلا بعد أنْ تنتهي بأمان. إنَّ المتمرّدين والشبان المُشاغبين الذين أحببتهم كانوا بوادر لحبّي لتلك الصِفات في نفسي. لقد أحببتُ الشبان المُشاغبين وتركتهم، لكنني شكرتهم على مُساعدتي في جعلي الناجية القوية التي هي أنا الآن.

-12-

كيف أصبحتُ من أهل البندقيّة

«إنَّ الوهم القائل إنَّ الفن والطبيعة هما شيء واحد في إيطاليا أثار غضب بايرون، الذي كان أحد أبرز ضحاياه، عندما شعر به عند الآخرين. إنَّ توماس مور يحكي هذه القصة الموحية عن لقائه بصديقه الكبير في البندقيّة بعد فترة انفصال طويلة:

«خرجنا إلى الشرفة لعلّنا نلقي نظرة، قبل تلاشي آخر خيوط النهار، على المشهد الذي يُقدّمه القنال العظيم. وتصادف أنْ علّقتُ وأنا أنظر إلى الغيوم، التي كانت لا تزال برّاقة جهة الغرب قائلاً «إنَّ ما فاجأني في شمس غروب إيطاليا هو ذلك التدرُّج الخاص للّون الوردي» - وما إنْ نطقتُ كلمة «ورديّ» حتى أغلق لورد بايرون فمي بيده، وقال مع ضحكة «كفى، اللعنة، توم، كفاك شِعراً»».

• لويجي بارتزيني، من كتاب *«الإيطاليون»*

إنَّ الماء يُعادل الزمن ويزوّد بالجمال مع قرينه. إذا ابتعدنا عن الماء، فإنّنا نبتعد عن الجمال بالطريقة نفسها. وبملامسة الماء، تعمل هذه المدينة على تحسين مظاهر الزمن، وتُجمِّل المستقبل.

• جوزيف برودسكي، من *«أثر الماء»*

وسط سنوات التحطُّم هذه، سنوات الاضطراب هذه، وقعت في حب مدينة: البندقيّة، *Venezia, La Serenissima* (الهادئة)، *Venise, Venedig* . اعتقدتُ أنَّ هذه الجزيرة السِحريّة سوف تنقذ حياتي. تخيّلتُ أنَّ الأساطير الأدبيّة التي نُسِجَتْ حولها تشبه ضبابها الشهير. وكنتُ أعود إليها باستمرار بحثاً عن الحب، بحثاً عن نفسي.

بالنسبة إلى الكتّاب الذين يستخدمون اللغة الإنكليزيّة، أضحتْ البندقيّة أسطورة أكثر منها حقيقة واقعة.

والذنب كله يقع على حفنة من شعراء القرن التاسع عشر: أولاً، الثنائي براونينغ - السيد والسيدة - اللذان جلبا الحشود إلى فلورنسا بحثاً عن فرا فيليبّو ليبّي[1] والحب المتحوِّل (الذي يُصبح أفضل بعد الموت)، فلم يجدوا إلا عوادم السيارات، والجليد الذائب، والمتاحف التي يرتادها السوقة، وتُجّار الجلد المدبوغ الساخرين، والصاغة الغشّاشين على الجسر العتيق. وثانياً، لورد بايرون، الذي سبح في القنال العظيم وخادمه يُجذّف خلفه (حاملاً رداءه الرومانسيّ وفاتحاً بنطلونه القصير)، الذي أضفى النبل على قصر موسينيغو بكتابة أشعار عن القُدسيّ **«دون جوان»** هناك، ولكن الذي كان بغيضاً في تعامله مع النساء في حياته وترك ابنته الحبيبة، ألليغرا، تموت في دير بدل أنْ يُعطيها لأمّها. وثالثاً، بيرسي بيش شيللي، الذي ترك قلبه على الشاطئ بالقرب من فياريجيو، لكي يُنتَزَع من اللهب الذي التهمَ ما تبقّى منه. وأخيراً، وليس آخراً، ميري وولستونكرافت غودوين شيللي، التي تخيّلتْ وحشها الشبيه بالرجل في جبال الألب، ثم جاءتْ إلى إيطاليا، لتشهد غرق زوجها، مُحقّقة النبوءة التي وردتْ في روايتها.

دعكِ، برهة، من جورج صاند وألفريد دو موسيه (اللّذين خدع كلٌّ منهما الآخر في البندقيّة)، وهنري جيمس، وجون سينغر سارجنت، وجون رسكين، وفيتا ساكفيل-ويست، وناثانييل هوثورن، وبارون

1- فرا فيليبو ليبّي (1457 - 1504): رسّام إيطالي.

كورفو، وإيغور سترافينسكي، وعزرا باوند، وكل الآخرين المخبولين. وبايرون وبراونينغ والثنائي شيللي *وحدهم* يكفون لإحداث البلاء السياحيّ لإيطاليا بآثارها المنتشرة على نطاق واسع. الشعراء يأتون ويكتبون. ثم تأتي الحشود. مَنْ يقول إنَّ الشِعر ليس له هدفٌ اقتصاديّ؟

إنَّ السِحر الذي يرميه أولئك الشعراء على الأماكن المُكرَّسة في هذه الجزمة[2] الجميلة ولكن القذرة فتَنَ كل الذين فَتَنَتهم الكتب. لقد ذهبنا إلى إيطاليا سعياً وراء الحب والشِعر - وكان في الإمكان بالنسبة إلينا أنْ يتبادل الحب والشِعر الأماكن.

أول مرة أتيتُ فيها إلى البندقيّة كنتُ في التاسعة عشرة ووصلتُ وحدي على متن قِطار من فلورنسا (حيث كنتُ ألتحقُ بذلك البرنامج الصيفيّ لدراسة الإيطاليّة). كانت المدرسية تقع في توريه دي بيلوسغواردو من القرن التاسع عشر (الذي أصبح الآن نُزُلاً ريفياً خيالياً وإنْ كان متهدّماً قليلاً يُشرف على مدينة فلورنسا من ذلك التل نفسه الذي هربت إليه فيتا وفيرجينيا). إنَّ كل شيء في إيطاليا مكسوٌّ بصِبغة شِعريّة-جنسيّة؛ ذلك أنَّ إيطاليا، قبل أي شيء، هي بلد الفرار الشاعريّ - على الأقلّ بالنسبة إلى الأميركيين والإنكليز. أما بالنسبة إلى الإيطاليين، فهي بلدٌ مختلفٌ تماماً.

وقفتُ على حافة محطّة سانتا لوتشيا وأنا أقبضُ على نسخة صغيرة، ذات غلاف أزرق اللون من *«دون جوان»*. الدَرَج الرخاميّ للمحطّة بدا أطول وأشدّ انحداراً مما هو حقاً. لم أرَ القطط الصغيرة الميتة تطفو، ولا الأعمدة الفارغة ولا زجاجات شراب فانتا. رأيتُ فقط الشِّعر والحبّ. إنَّ الشعراء هم أفضل المُختصّين بالإعلان قاطبة.

استقللتُ القارب البخاري إلى سان ماركو، تفتنني القصور المُطلّة على القنال الأكبر. وعندما رأيت الرقعة المكتوب عليها *Qui abito Lord Byron* (لورد بايرون يُقيم هنا) على جدار قصر موسينيغو، كدتُ أتأوّه افتتاناً. لقد كنتُ في حضرة الأدب - ذلك الدجّال العجوز، ذلك الأجير

2- إشارة إلى شكل دولة إيطاليا - المترجم.

الفكري. وكما قالت ميري شيللي عن رحلتها إلى الخارج خلال شهر عسلها: «إنها رومانسيّة بصورة تتجاوز الرومانسيّة».

وهكذا تجولت خلال سان ماركو المزدحمة، وخلال قصر دوغس في هذه المدينة-المتحف الحيّ.

اشترى لي طبيبٌ صينيّ شاب وسيم (ليس الذي تزوجته لاحقاً) أزهار بنفسج وقرن من المثلجات وحدثني عن بايرون. وطلب مني طالب أميركي جلف أنْ أتقاسم معه غرفته القذرة في فندق وضيع قريب من المحطة. وعددٌ من الإيطاليين قرصوا مؤخرتي. وواصلت تطوافي، يحميني الشِعر.

لا شيء غيَّر السِحر. كنتُ مُثبَّتة، مُنوَّمة. كانت الكتب حينئذٍ هي مادة إدماني. كنتُ أحملها في قلبي وفي رأسي.

ولجتُ منزلاً مكتوباً على جانبه اسم رسكين واستقبلني سيلٌ من الشتائم - إنه *ليس* مُتحفاً. أكلتُ قطَعَاً صغيرة جداً من البيتزا وشربتُ نبيذاً حامضاً. كل شيء كان بمثابة المَنْ بالنسبة إليّ.

الأسطح القرميديّة الحمراء المتداعية، النواقيس، النوارس، الكرة الذهبيّة *La Dogana* [3] (دار الجمارك، التي أغنتْ البندقيّة بالبحث والاستحواذ)، والقبعة المخروطيّة الخضراء للـ *campanile* (برج ناقوس) سان جيورجيو ما جيوره، المواجِه لصحن كنيسة سان مارك وبرج ناقوسها، ونهوض البرجين في القنال ليشكّلا علامة واضحة للقوارب الشراعيّة التي تبحر إلى المرفأ، وانسياب سفن الرحلات على مياه قنال جيوديكا كأنما على سكّة حديد خفيّة - هذا كله فتنني، ورماني بسِحرٍ أعادني إلى عمق الماضي. ذهبتُ إلى البندقيّة مع صديقات من النساء، وأخيراً مع ألان، ومع جون، ومع ويل، وذهبتُ مرات عديدة وحدي. نزلتُ في كل مكان - من أوستيلو ديلا جيوفنتو، إلى فنادق

3- لا دوغانا: كانت داراً للجمارك ثم تحولت إلى متحف الفن الحديث في البندقيّة - المترجم.

رخيصة، إلى نُزُل متواضعة، إلى أشد القصور فخامة وبذخاً مثل غريتّي أو تشيبرياني. ولاحقاً صرتُ أستأجر منازل - بعيدة عن السياح قدر ما استطعت. ومدحتُ نفسي لأنني، إنْ لم أكن مواطنة، فأنا مُقيمة.

كثيراً ما كنتُ أصل إلى البندقيّة وأتساءل عمّا جلبني إليها أصلاً. إنه الوهن. كان ينال مني ويوقعني في شَرَكه. لكنّ الـ *ensorcellement* (السِحر) (كما أطلقتْ عليه أنييس نن) *لم* يكن دائماً ممتعاً. كنتُ أشعر كأنني فراشة واقعة في شبكة عنكبوت، كبحّار يجرّه أخطبوط هائل. لم أعرف أبداً ماذا تريد المدينة مني.

يمكن لسماء الصيف الزرقاء والبحيرة المتلألئة أنْ يكونا خادعَين. كان السياح يتوافدون حشوداً كمتسوّلين متّسخين حرقتهم أشعة الشمس، مُشتاقون إلى العودة إلى الوطن ليقولوا إنهم شاهدوها. ولكن عندما تسكنين البندقيّة بعض الوقت، شتاءً أو صيفاً، تكتشفين أنَّ المدينة تُخفي آلاف الأسرار وأنها تُطلعكِ عليها فقط في الوقت المناسب.

في صيف عام 1983، دُعيْتُ إلى الاتحاد السوفييتي لحضور مؤتمر للكتّاب. والدعوة جاءت عبر ذاك الرجل المحبوب المرحوم هاريسون ساليسبري. وكانت المجموعة تضم ستدز تركل، وسوزان سونتاغ، وروبرت بلاي، وغويندولين بروكس، إرفينغ وجين ستون. ووعد فوزنسينسكي بالحضور، لكنه لم يظهر. وحضر العديد من بيروقراطيّي الحزب. انتقلنا بالقطار من موسكو إلى كييف. وشعرتُ بالرعب من الطريقة التي كان فيها وجه غويندولين بروكس الأسود يجذب تحديقاً صريحاً في موسكو وكييف. كانت رفيقتي في الغرفة على متن القطار وبقينا يقظتين طوال الليل، نتحدث عن الشِعر والأمومة.

لماذا جاء دور البندقيّة بعد تلك الرحلة؟ إنه بسبب المُغنّية كارلي سايمون. وإلا كنتُ رجعتُ مباشرة إلى كونكتيكت، حيث كان ويل يُلازم المنزل في انتظاري.

كانت كارلي سايمون قد اقترحت قبل ذلك ببضعة أشهر على مائدة

غداء شهيّة دُعينا إليها في منطقة فيليج: «فلنتقابل في البندقيّة في الأول من آب في فندق تشيبرياني». وأخذنا نُقارن متباهيتين بين العشّاق الشبّان. كنا نُحضرهم إلى البندقيّة ونرى ما يحدث. (أكنا نعزم على تبادلهم؟ فقط في الخيال). وهكذا حجزتُ غرفة في تشيبرياني (الذي لم أكن أعلم بوجوده قبل أنْ تأتي كارلي على ذِكره). وبعد رحلة موسكو، قابلتُ ويل في مطار ميلانو. وهرعنا إلى غرفة في فندق وتعاهدنا - إذا صحّ التعبير - ومن ثم طرنا إلى البندقيّة عند الغسق. عندما تكونين في حالة عشق يبدو مشهد المدينة مترامياً، لا آسراً.

حينئذٍ كنتُ أملك المال - أو ظننتُ أنه لي وليس لخدمة الريع الداخلي - حجزنا جناحاً مُجاوراً للبركة في فندق تشيبرياني. ولم نكن نغادره طوال النهار. وطوال فترة الصباح وما بعد الظهيرة نبقى في السرير، نتضاجع ونطلب خدمة الغرفة. وطوال الليل كنا نجوب الشوارع.

لم تظهر كارلي أبداً مع آل كورلي، الذي كان حبيبها حينئذٍ. كانت واحدةً من الدعوات الممتعة التي نَسيَها المُضيفُ على الفور، لكنّنا لمْ نفوِّت أيَّةَ واحدةٍ منها. وليلاً، كان ويل يُعلّمني السباحة في البركة الضخمة المنبوذة (جُعِلَتْ أكبر مما ينبغي لأنَّ أحدهم خلط بين مقاييس المتر والقدم). واستكشفنا أزقّة جزيرة جيوديكا الصغيرة في الظلام. شربنا في المقاهي، وفي غرفتنا، وفي السرير، وبجوار البركة. وتضاجعنا وكأننا نحن الذين اخترعنا المُضاجعة، ومعتقدين أننا فعلنا. وفي هذا كنا نشبه العشّاق جميعاً.

أصبحت البندقيّة مكاننا الخاص. وفي كل صيف، كنا نأتي لنُقيم في شقّة مُستأجَرَة أو منزل أو *piano nobile* (طابق سفلي فسيح وفخم) مع مولي ومارغريت. كنا ننساب على الإيقاعات الهادئة للبحيرة. وكنا نخرج في الصباح لنشتري خبزاً طازجاً. ونتناول الإفطار بكسل. ثم أباشر الكتابة. ثم نخرج كلنا معاً لنتناول وجبة الغداء في مطعمٍ محليّ.

منذ سن الخامسة ومولي تقضي الصيف في البندقيّة. كنا نسبح في التشيبرياني معظم فترة ما بعد الظهيرة، ثم نأخذ دشاً، ثم نُعيد القارب

البخاري إلى مرساه، ثم نبدّل ملابسنا ونخرج لتناول وجبة العشاء – كعائلة من أربعة أشخاص.

كان النهار يدور حول الكتابة، والتمشي، والسباحة، والوجبات. وتلاشى توتّر نيويورك. كنتُ أحتفظ بملاحظات، أستوحي القصائد، وأبدأ قصصاً ظننتُ أنه يجب أنْ أكتبها. أحياناً تتحول إلى كتب وأحياناً لا تكتمل. لكنَّ إيقاع الحياة الكسول هو الذي أنتج تلك الأزهار. وعمّدها عالـم المياه. كنتُ دائماً أعود إلى المنزل ورأسي ممتلئ بالبراعم الغريبة.

كم *حلُمتُ* بالبندقيّة – ذلك القارب العائم فوق البحر الأدرياتيكي! إنها كالنوم على متن مركب شراعيّ، والماء ينقلب إلى داخله وحركتا المدّ والجزر تتواليان. أحياناً أعتقد أنني أتيتُ إلى البندقيّة فقط لكي أنام.

خلال فصول الصيف تلك بدأتُ بحثي في حيّ اليهود في البندقيّة ووقعتُ تحت تأثير سِحر القرن السادس عشر.

كنتُ أنا وويل نصل مُحمَّلَين بالكتب لكي نقرأها معاً. كنا نقرأ بصوت مرتفع، نُعلِّم الصفحات ونُعلنها. ومنذ الأيام الأولى، تعرَّفنا إلى أشخاص من البندقيّة كانوا دليلنا في الأماكن، وفتحوا لنا المتاحف والمكتبات العامة. وبدأنا نستكشف المدينة لنرى إنْ كان لديها قصة تريد أنْ تحكيها لي – أو أنْ تحكيها من *خلالي*.

إنَّ حيّ اليهود في البندقيّة أسرنا. وتعبيراً عن دعمه لنا، بدأ ويل يرتدي نجمة داوود داخل كأس من زجاج البندقيّة. وبدأنا أيضاً نقرأ تاريخ يهود البندقيّة.

بفضل سيسيل روث، وريكاردو كاليماني، والحجارة نفسها، بدأتْ بندقيّة القرن السادس عشر تعود إلى الحياة أمام عينيّ. لقد كانت جزيرة للّاجئين، جاء إليها كل اليهود سعياً إلى مأوى. يهود سيفارديم من إسبانيا. أشكينازيم من ألمانيا، ويهود شرقيون من الشرق الأدنى، اجتمعوا واختلطوا في البندقيّة مع مسيحيين ومُسلمين، خالقين بذلك سِحر ثقافة البندقيّة.

وفي الحال رأيتُ تشابهاً بين تلك الجزيرة المُسمّاة البندقيّة والجزيرة المُسمّاة مانهاتن. البندقيّة في القرن السادس عشر كانت مانهاتن في أوائل القرن العشرين: تعجّ بيهود طُرِدوا من أوروبا ومن الشرق الأوسط، وقد قُدِّرَ لهم أنْ يُغنوا العالم المسيحي ويُغيِّروه إلى الأبد.

جاء اليهود إلى البندقيّة لأنَّ البندقيّة قبِلَتهم، وسرعان ما أصبحوا تجار ملابس عتيقة، وعاديات، وكتب. وتخصّصوا في الصناعة المسرحيّة، والطباعة، وتجليد الكتب، والفن، والعاديات - كما هم الآن. وأنشؤوا الكنائس اليهوديّة، والمسارح، ودور النشر، والشركات التجاريّة. ومارسوا الفنون. وبتركيز طاقاتهم على الأشياء القليلة غير المُحرَّمة عليهم، أصبحوا *قوة*. وازدهروا. وازدهرت البندقيّة. وجلبوا نوعاً آخر من الخمائر إلى كعكة المدينة الصافية المُحلّاة.

خلال فترات الصباح الطويلة والكسول في البندقيّة، بدأتْ الحجارة تتهامس بقصّة. ثمة فتاة يهوديّة، جيسيكا[4] *الحقيقيّة*، سجنها والدها شايلوك (أو شالاخ، كما كان ينبغي أنْ يُنطَق قبل أنْ يتحوّل إلى الإنكليزيّة) في حي اليهود.

في أثناء قيامها بنزهتها اليوميّة العادية، تقابلُ صاحبتنا شاباً إنكليزياً في حي اليهود - جاء إليه ليُصغي إلى عِظات الحاخامات المشهورين ويتعلَّم صناعة المسرح الجديدة (التي اشتُهِرَ بها يهود البندقيّة في القرن السادس عشر). لم يكن قد تجاوز الثامنة والعشرين، وهو شاعر، وممثل، وكاتب مسرحيّ، قدِمَ إلى البندقيّة مع راعيه ثنائي الجنس الفاسق، إيرل ساوثهامتن. كان الطاعون قد تسبَّبَ في إغلاق مسارح لندن وهناك وقت للسفر مع سيّده (الذي يعشقه بجنون وأيضاً، على طريقة العشّاق المجانين، يُريد أنْ يكون سيّده).

جمع الحب من النظرة الأولى بين ويل - هذا هو اسم الشاب، ويا

4- جيسيكا الأخرى التي يقصدها، هي الشخصية التي تظهر في مسرحية شكسبير «تاجر البندقيّة»، وابنة التاجر اليهودي شايلوك - المترجم.

للمفارقة - وجيسيكا، كما ينبغي على عشّاق كل القصص الخرافيّة أنْ يفعلوا، وألهمهما حبّهما أنْ يفرّا من الحي اليهوديّ، ويفرّا من ساوثهامتن، ومن شالاخ، ومن كل سخرية - بما أنَّ الحبَّ وُجِدَ ليهزم السخرية.

على هذا المسار كان هناك شيء ينضج في رأسي مع انتهائي من تأليف رواية «*مظلات هبوط وقُبلات*». في شتاء ذلك العام وصلتني دعوة غريبة لأكون حكماً في مهرجان البندقيّة السينمائيّ. ولعِلمي أنني في حاجة إلى أنْ أدفع هذه الرواية لتخرج إلى النور، قبلتُ في الحال - مُصطحبة معي ويل الخاصّ بي كـ*cavaliere servente* (الفارس الخادم).

كان المهرجان السينمائي كمستشفى للمجانين. كان يفجيني يفتشينكو قد قدِمَ من موسكو، مع زوجة إنكليزيّة قُدِّرَ له أنْ ينفصل عنها سريعاً، وسلوك إنسان منغوليّ. كان طويل القامة، ومُتكلّفاً، متعوّداً على وضع قائمة بالمُعجبين به، وكان شديد التوق إلى إثارة شِجار. ووصل مُدخّن الغليون والمتأمّل الحزين غونتر غراس من ألمانيا مع المزاج نفسه، لكنه كان أبرع وأذكى من أنْ يُظهِره. كان بالتوس[5] يُفضّل لو أنه يرسم. مكثَ في فندق قصر غريتي، مع زوجته اليابانيّة الجميلة وبناته، وبدا أنه يتعامل مع الرحلة بوهن على أنها شيء تافه ولا يستحق الاهتمام - وهذا موقف حكيم. كنا نادراً ما نراه، ولم نره أبداً في أوقات العروض السينمائيّة. والأخوان تافياني - باولو وفيتوريو - كانا متواضعَين، وفكهين، وعصبيّين قليلاً. كانا على وشك أنْ يعرضا فيلمهما اللامع *Caos* (فوضى) لبيرانديللو. ومايكل أنجلو أنطونيوني لم يكن على ما يُرام جسدياً، لكنه كان جديّاً بحماس وشاهد الفيلم.

طوال النهار كانت هيئة التحكيم تشاهد الأفلام على التوالي - الأفضل، الأسوأ، المبتذل. الأفلام الاشتراكيّة-الواقعيّة من الكتلة

5- بالتاسار كلوسوفيسكي دو رول، المعروف باسم بالتوس (1908 - 2001): رسام بولوني- فرنسي حديث، مشهور برسومه الجنسيّة لفتيات يحتلمن، وأيضاً بصوره الخياليّة الجامحة - المترجم.

الشرقيّة، أفلام هنديّة من طاحونة نيو دلهي السينمائيّة، وأفلام صينيّة من إنتاج أقطاب هونغ كونغ، وفن ياباني أو أفلام استثماريّة، وأفلام تصدم وأفلام تُخدِّر، أفلام يفوق عددها ما يمكن أنْ تحلم بأنه يمكن أنْ يُصنَع على الكوكب في عام واحد.

أصبح الوضع مملاً. لا شيء أشدّ إثارة للضجر من أفلام مبتذلة. ومع مرور الأيام، أخذت الغيوم الرعديّة تلوح فوق البحيرة.

عندما وصلت كلوديا كاردينالى مع زوجها المنتج الصقلّيّ، كانت خشبة المسرح قد أُعدَّت من أجل اللحظة الحاسمة، إنها المعركة في أو. ك. كورال[6]. كانت كاردينالي تلعب دور كلارا بيتاتشي، آخر عشيقة لموسوليني، في فيلم شنيع لا يقوم كثيراً على أساسٍ تاريخيّ بقدر ما هو دراما مبتذلة. وفي الحال وجد الحكم الروسيّ شيئاً يحتجّ عليه. ورأى الألمانيّ روسياً يستطيع أنْ يهزمه. وبدأتْ الحركة.

أما كيف بدأ الأمر فهذا لغز. في المعتاد يبدأ النشاط عفوياً في المؤتمرات والمنتديات بعد مرور خمسة أيام أو نحوها. لعلّه الانضباط الذي يفرضونه على المُنضبطين. أو ربما هو أنَّ الفنانين غير متعوّدين على العيش ضمن تجمّعات ولا يتحمّلون ذلك أكثر من فترات وجيزة. ربما كلّ ذلك التجمُّع يتطلَّب صمّام أمان وسوف يتلو الانفجار حتماً.

أولاً، كانت هيئة التحكيم تناقش «فضيلة» مشاهدة فيلم يُصوّر موسوليني عاشقاً، ثم دارت مناوشات لفظيّة على مائدة الغداء وفي أثناء شرب الشايّ، وفجأة إذا يفجيني يعقد مؤتمراً صحفياً ويتوفّر للصحف الإيطاليّة شيءٌ تكتب عنه! قد يكون المهرجان مملاًّ، لكنَّ الحكّام لم يكونوا كذلك. *باو! بام! سوكو! سماش!*

«إنَّ تمجيد الفاشيّين بوصفهم عُشّاقاً شيء يُثير الحنق» - أو ما شابه. والهراء يتغذّى من نفسه، كما تفعل الصحافة. إنَّ وسائل الإعلام لا

6- استخدام لعنوان فيلم من إنتاج عام 1957، بعنوان «*مبارزة بالمسدسات في أو. ك. كورال*»، من بطولة بيرت لانكستر وكيرك دوغلاس - المترجم.

تحب شيئاً أكثر من حبّها للجدل الكاريكاتوريّ. والفرنسيون والإنكليز يتنافسون في السُخف. والإيطاليون قفزوا منضمّين إليهم بمرح. والصحف الأميركيّة تأخذها من هناك.

وطبعاً أُجريَتْ معنا جميعاً مقابلات ونُقِلَتْ عنّا أقوال كثيرة. وكان علينا أنْ نتّخذ مواقعنا لنشرف على هذه الميلودراما غير المؤذية. (كانت أنيتا هيل قد قالت إنه حالما تُصبحين شخصيّة عامّة، يُتوَقَّع منك أنْ تكوّني آراءً حول كل شيء. قالت «وأحتفظ بحقّي بعدم التعليق». ليتني كنتُ - مع باقي لجنة التحكيم - أجاريها في الحِكمة!).

صوّروا كلوديا كاردينالي صورة جميلة في أثناء ثورة غضبها. وأقسم زوجها المُنتِج (أو المُنتِج-الزوج) على *الانتقام* الصارم.

وهكذا حصلَ المهرجان على الحدث الإعلامي الذي أراده وحصل الجميع على الدعاية - برغبتهم أو من دونها. وحصلت مدينة البندقيّة من المشاهير الذين دفعتْ لهم لكي يطيروا إليها ويأكلوا مقابل ما دفعتْ. وظهرت ليف أولمن لكي تُقدِّم الأسد الذهبي - تنتصبُ، من جديد، على حقل من المدفعيّة.

إنَّ روعة هذا المهرجان وحيويته العفويّة دفعتاني إلى التفكير في روايتي عن البندقيّة من جديد. إنَّ كل كاتب يتوقُ إلى أنْ يكتب ما يشبه قصة *«كونكتيكت يانكي في بلاط الملك آرثر»*[7]. وكل كاتب يريد أنْ يسافر إلى الزمن الماضي ما دام المستقبل ينتظر بأمان لكي يعود إليه.

ماذا لو أنَّ نسختي عن جيسيكا لم تكن يهوديّة، عندما تقابلنا أوّل مرّة، بل مسيحيّة؟ ماذا لو أنها كانت ممثّلة مُبتدئة متردّدة تعلّمت في رادكليف وتنحدر من أسرة مسيحيّة أوروبيّة عريقة سحيقة في القِدم في الجانب الشرقي الأعلى، والتحقتْ بالأكاديمية الملكيّة للفن المسرحي في لندن بدل أنْ تتزوج زيجة محترمة، وصمّمت، رغم أنف معارضة العائلة، على

7- قصة للكاتب الأميركي مارك توين - المترجم.

أنْ تُصبح ممثّلة. ماذا لو أنها كانت مولعة بشِعر شكسبير طوال حياتها، وذات يوم في البندقيّة، بعد المشاركة في لجنة تحكيم مهرجان سينمائيّ، انزلقت داخل شرخ في الزمن، ووجدتْ نفسها يهوديّة في حي لليهود في القرن السادس عشر، تقع في حب شاعر إنكليزيّ شاب اسمه ويل؟

إنَّ عبارة *ماذا لو* دائماً هي بداية أي قصة.

حصلتُ على قصتي. أو هي حصلتْ عليّ.

بدأتُ أدوِّن الملاحظات بشكلٍ مسعور. ها هنا فرصة لخبز كعكة مصنوعة من كل ما عرفتُ عن البندقيّة، وشكسبير، وأناس العصر الإليزابيثي، واليهود.

كتبتُ القصة على النمط الشكسبيريّ اللائق والدموي. كان وجود الخناجر بأنواعها، والسُّموم، والخناجر الصغيرة، إلزامياً. أردتُ أنْ أسمع موسيقى الكلام الإليزابيثيّ في أُذنيّ، فواظبتُ على الإصغاء للسير جون غيلغود[8] يقرأ السوناتات حتى لم أستطع التوقّف عن سماعها. وبحثتُ عن كل عروض مسرحيّة «تاجر البندقية» في ذلك العام. وشاهدتُ أفلاماً قديمة وأشرطة فيديو للمسرحيّة. قرأتها بصوت مرتفع لنفسي. ثم قرأت كل ما عثرتُ عليه مما كُتِبَ عنها. قال جيمس جويس (عبر شخصيّة ستيفن ديدالوس) «إنَّ شكسبير هو ساحة صيد ممتازة للعقول التي فقدتْ توازنها». أنا لم أرغب في إثبات صحّة كلامه، لكنني أردتُ أنْ أعود في الزمن إلى الوراء. فعدتُ إلى حيّ اليهود في فصل خريف مُمطر ورحت أتأمّل. ومن جديد سمعتُ تهامُس الحِجارة. ومن جديد، تراءى لي شكسبير والسيدة الغامضة تسير تحت المطر.

إنَّ سر صناعة أعمال شكسبير في الزمن الحاضر ليس جعل الحقائق الأساسيّة عن الشخصية مُبهمةً بتفاهةٍ وزخرفات إليزابيثيّة. لقد نفذ الجمهور الشكسبيريّ خلال هذه الأشياء، طبعاً، لأنه كان متعوّداً على

8- السير جون غيلغود (1904 – 2000): ممثل ومخرج مسرحي إنكليزي، وأحد عمالقة المسرح الشكسبيريّ.

تقاليد اللغة والصناعة المسرحيّة. يجب أنْ نجعل المسرحيات شفّافة كما كانت بالنسبة إلى الجمهور الإليزابيثيّ. والإنتاج الجيد لها ينبغي أنْ يُزيل الحاجز الذي يفصل إنكلترا الإليزابيثيّة عنّا.

لكنَّ *«تاجر البندقيّة»* مسرحيّة شديدة الصعوبة في تحويلها إلى مُعاصِرة لأنَّ موقف شكسبير من شايلوك ممجوج جداً على أساس مُعاداة الساميّة لكنه جوهريّ جداً بالنسبة إلى المسرحيّة. إنَّ شكسبير يرى شايلوك كائناً بشرياً مثله، لكنَّ تحامُل الإليزابيثيِّين القديم ضد اليهود (في زمنهم الذي اتّسم بكراهيّة شديدة لليهود) يبقى. حتى شخصيّة جيسيكا أضعف من شخصيّة بورشيا. لكنَّ تخلّي جيسيكا عن والدها تصرّفٌ قاسٍ. وكذلك سرقتها لخاتمه الثمين (الذي أعطته إياه أمّها المتوفّاة). ومقارنة شايلوك البنات (daughters) بالقطع الذهبيّة يمكن قراءتها ببرودة بوصفها افتراءً على اليهود، ولكن يمكن أيضاً تأويلها بصورة مُلائمة، على أنها تسليط الضوء على حنق والد وحبّ والد. (كما فعل لورنس أوليفييه ودستن هوفمان).

أردتُ من رواية *المدينة الصافية* أنْ تحلّ ورطة جيسيكا حلّاً نهائياً، أنْ تبيِّن لماذا خانت جيسيكا والدها - ليس فقط من أجل الحب والحريّة، بل أيضاً من أجل *الشِعر*. أردتُ أيضاً أنْ أكشف النقاب عن لغز السيدة الغامض في السوناتات. وفكّرتُ في قتل عصفورين بحجر واحد، جاعلة منها فتاة الحيّ اليهوديّ نفسها التي أوحَتْ بشخصيّة جيسيكا.

لقد كانت المُهمّة المُستحيلة نفسها بالنسبة إليّ. من المفترَض أنَّ الكتاب أدبيّ، ولكنّه أيضاً بصورة ما يُثقّفُ امرأة القرن العشرين، وأيضاً هو حكاية جيّدة تُجبر القارئ على متابعة الصفحات، وأيضاً دعم مركزيّة الشِعر بالنسبة إلى حياتنا.

على الرغم من أنَّ رواية *Serenissima* *(المدينة الصافية)* ما زالت تفتنني *بطاقتها الكامنة*، أعتقد أنني أخفقتُ في هذه الرواية لأنني لم أفهم تماماً صِلتي بمدينة البندقيّة. أيضاً، حاولتُ أنْ أفعل أشياء كثيرة جداً في

كتاب واحد صغير. كان ينبغي أنْ تكون أطول وأغنى، كرواية *«فاني»*. كان ينبغي أنْ تضم شخصيات أكثر، ومزيداً من التيارات المتعارضة، والحبكات الفرعيّة. وكان ينبغي أيضاً أنْ تتعرّض لحذف أقلّ.

بسبب خجلي من ميلي إلي التطويل، استأجرتُ مُحرّراً مُستقلاً لكي يُشذّب أشرعتي. وشجّعَ كلٌّ منا الآخر على الإفراط في التشذيب، على قصّ الرواية بدل توسيعها. ويقول ف. س. بريتشيت أنَّ مواطن قوة وضعف كاتب متضافرة إلى درجة أنك لا تستطيعين أنْ تتخلّي عن أحدها من دون أنْ تتخلّي عن الأخرى.

إنَّ البندقيّة، على غرار نيويورك، كانت بالنسبة إليّ مدينة الأسلاف، مدينة أعادتني إلى جذوري اليهوديّة. لكنها كانت أكثر من ذلك: أسطورتها هي أسطورة جزيرة مسحورة حيث تُحَلُّ المشكلات، والألغاز تحلّ نفسها بنفسها، أو على الأقلّ تذوب في الماء.

إنَّ مسرحية *«تاجر البندقيّة»* هي *واحدة* من نسخ عديدة لتلك الحكاية. لكنها، أيضاً، لم تنجح كثيراً – على الرغم من الأبيات العنيفة التي قالها شايلوك عن كونه يهودياً، وعلى الرغم من سماء بلمونت السِحريّة المُرصّعة بالنجوم، وعلى الرغم من جمال جيسيكا الغامض والمُحيِّر وتلخيص بورشيا النَيِّق للعدالة بأنها نوع من فرض النبالة يُمنَح للبؤساء الفقراء كاليهود ما داموا يتحولون إلى دين آخر وهم راكعون، ويتبرّؤون من نسلهم من أجل طعامهم، ونقودهم، وبناتهم، ومن هوية أحفادهم اليهوديّة.

يجب القول، إذاً لم تنجح مسرحيّة *«تاجر البندقيّة»* كثيراً أيضاً. ربما الحقد الكامن فيها هو الذي أفشلها. نادراً ما ينجح الحقد في الأدب الجيد. ولكن تلك المسرحيّة الأخرى التي تتحدث عن جزيرة مسحورة *«العاصفة»*، تحلّ ألغازها كلها بصورة جميلة، ويجب القول إنها نجحت نجاحاً ساحقاً.

هناك حُبٌّ حقيقيٌّ بين العشّاق، وتوبة حقيقيّة من جانب الملك

الساحر، بروسبيرو، وحريّة حقيقيّة للروحَين المغلولتين، كاليبان وآرييل، وحريّة حقيقيّة للشاعر وهو يُغادر. يمكن للجزيرة المسحورة أنْ تكون البندقيّة هنا (إنها أصلاً جزيرة بعيدة في شمال إيطاليا)، لكنها بكل وضوح ليست كذلك. لا يمكن أنْ تكون، لأنَّ البندقيّة هي قبل كل شيء جزيرة الموتى، كما علِمَ توماس مان أفضل من أي شخص آخر. البندقيّة هي المكان الذي يأسر الأرواح المُعذَّبة. إنها جزيرة ورق الذباب. يجب أنْ تحصل على الدوام على دماء جديدة تستكمل الدماء القديمة. إنَّ البندقيّة نفسها ليست أكثر، ولا أقلّ، من مصّاصة دماء.

تعرّفتُ على عازف بيانو دانماركيّ كان يعود إلى البندقيّة ليعزف في بار وضيع عاماً بعد عام. في الشتاء وفي الربيع، كان يعمل عند شيخ الشارقة مقابل مبلغ كبير جداً من المال. ولكن في الصيف والخريف، كان يُضطر إلى العودة إلى البندقيّة وكأنَّ روح ذاته السابقة كانت تستدعيه إلى هناك.

كان هذا الكئيب الدانماركي قد قام ببحث عن طيفه، الذي بدا أنه كان خبّازاً من القرن الثالث عشر. وليلاً، كانت غرفته تمتلئ أحياناً بعبير الأزهار أو بعبق الخبز الطازج الدافئ. وتقعقع المقالي والمناصِب وتتلاطم. وعندما يستيقظ، يُغطي غبار أبيض ناعم كل شيء، ويفتح عينيه بسرعة، غير متفاجئ.

كان أزرق العينين، أشقر، ضئيل البنية والوزن، وصاحب وجه نحيل بارز العِظام كالذي يُرى عادة في البلاد الاسكندنافيّة. عندما يعزف على البيانو يبدو شاباً، ولكن عندما تقتربين، تجدين أنه يتراوح بين الخمسين واللانهاية. كان الجنون قد رسم خطوطاً دقيقة على وجهه. كان، مثلي، مُدمناً على البندقيّة، على الرغم من أنكِ يمكن أنْ تدركي أنَّ ذلك ليس جيداً لصحّته.

طبعاً كان يجب أنْ يكون هناك عاشق - عاشق مستحيل، كحبيبي بييرو، الذي جاء واختفى دون سابق إنذار. والعاشق يتّصف بالقسوة

الصِبيانيّة اللا واعية نفسها على غرار عشيق فون آشنباخ، تادزيو[9]. كل العشّاق في البندقيّة هكذا.

ربما كان بييرو هو عشيق هذا الدانماركي بقدر ما كان عشيقي. ربما كان أيضاً عاشق تادزيو. وعاشق ألفريد دو موسيه. وعشيق بايرون. وعشيق شكسبير. مَنْ يستطيع أنْ يعرف؟ في البندقيّة من المستحيل عيش حيوات متعددة في أوقات متعددة. إنَّ ممرات الأبواب المتعددة تجعل ذلك الأمر ممكناً. الضباب والظلال في كل مكان. والـ *acqua alta* (المياه المرتفعة) ترتفع بعناد، مكتسحة الطوابق السفليّة.

تحدثنا على مدى ليال عديدة، أنا وعازف البيانو الدانماركي، وعلى الرغم من أنني لا أتذكّر اسمه، إلا أنني أعرف أنَّ لقصّته صِلة بقصتي. في نهاية المطاف الأشخاص الذين لا يستطيعون التحرُّر من البندقيّة يموتون فيها. والبحيرات تحتاج إلى أطيافها لاسترداد أطياف أخرى مُستقبليّة.

ها هنا كانت مشكلة أخرى مع رواية البندقيّة: إنها لا تقول الحقيقة المُطلقة عن البندقيّة. ليس لأنني لم أبذل فيها أقصى جهدي. لقد بذلت. لكنني لم أكن قد *عِلمتُ* بعد الحقيقة المُطلقة عن البندقيّة. إنَّ البندقيّة ليست مُعرَّضة لأشعة الشمس. البندقيّة قبر.

إنَّ المُضاجعة السريعة بين موعد الإفطار وموعد الغداء، والشغف العنيف من الخامسة وحتى السابعة، هي سُبُل لإعادتكِ إلى البندقيّة مرة بعد مرة بعد مرة. لكنَّ المُضاجعة لا تُنتِج حياة. بل تُنتِجُ فقط أطيافاً، أطيافاً غاوية، أطيافاً تتمتّع بقوة جنسيّة ومغناطيسيّة هائلة، أطيافاً تستطيع أنْ تجعل القدور تُقعقع جرّاء أعظم رعشة جنسيّة معروفة على الـ *terra firma* (الأرض الثابتة). في الحقيقة إنها ليست أرضاً ثابتة. إنه البحر، وسفينة الموت تُبحِر غرباً نحو الشمس الغاربة.

قبل وقت قريب (في وسط هذا الكتاب)، ذهبتُ من جديد إلى

9- الإشارة هنا إلى بطليّ رواية «*موت في البندقية*» لتوماس مان – المترجم.

البندقيّة مع ابنتي. تمشّينا وتحدثنا وتذكّرنا فصول صيف أخرى، عندما كانت فتاة صغيرة وكنتُ عزباء. ولكن عندما ذهبتُ لزيارة أصدقائي القُدامى، رفضتْ أنْ ترافقني، مُفضّلة أنْ تمكث في غريتي، تشاهد قناة CNN وتطلب خدمة الغرفة. لذلك ذهبتُ وحدي.

تمسّك بي أصدقائي كما يتمسّك أهالي الجزيرة بالوافدين الجُدُد - بدافعٍ من الضجر المُرعِب. أعدوا لي وجبات غداء، وعشاء، وشاي، وأخبروني عن بيع لممتلكات خاصة في البندقيّة. وترك لي عشّاق قُدامى رسائل في مكتب الفندق، ولكن عندما كنتُ أتصل بهم هاتفياً لا أجدهم في المنزل. وعندما أرجع، أجد رسائل جديدة، وأيضاً لا يمكن إعادتها إلى مصدرها. كانت هناك رسائل من أناس لا أعرفهم. هل كان خبّاز القرن الثالث عشر من بينهم؟

كان صديقي الدانماركي قد رحل. ظننتُ أنني رأيتُ بييرو في زورق بمحرّك، يتجول على طول القنال الأكبر وحده، ولكن تبيَّن أنه ليس هو. حاولتُ أنْ أتّصل به، لكنَّ السكرتيرة قالت إنه *fuori Venezia* (غادر البندقيّة). انخفضت السماء واكفهرّتْ. وانفتحت النوافذ بعُنف في غرفتي القديمة (غرفة هيمنغواي، كما قيل لي) في فندق غريتي. وصرّ وقع أقدام فوق السقف طوال الليل، ولكن عندما قدّمتُ شكوى بهذا الشأن قال لي البواب إنَّ أحدهم شغل الغرفة التي في الطابق العِلويّ.

أخيراً، في اليوم الخامس، وجدت نفسي في حديقة نضرة (معروف أنها كانت مقبرة ذات يوم) في دورسودورو. تكمن بين ظلالها الرقيقة ما يشبه التماثيل بأردية وأشكال تضع قبعات وجوهها مُحجَّبة. كانت السياجات خضراء تعلوها بقع من الطحالب، وهنا وهناك، تنبثق أزهار الفوشيّة القرمزيّة المُحمرّة وبخور مريم من بين الخضرة كأصيص من الأزهار على قبر.

كنتُ جالسة في قلب مجموعة من النساء. إحداهن فنّانة نمساويّة كانت تعيش هناك منذ ما يُقارب الثلاثين عاماً (جذبها العشّاق الإيطاليّون

والضوء). وهي الآن تخلّتْ عن الرجال (من القوميات كلها). وأخرى، مُطلَّقة أميركيّة ممتلئة، باعت أخيراً منزلها في نيويورك واستقرّتْ هنا. وأخرى، أرملة إنكليزيّة ثريّة، اشترت قصراً يطلّ على القنال الكبير وهي تُجدِّده. وأخرى، دوقة ضخمة تحتفظ بعشيقي بييرو، بعشيقها بييرو، بييرو أيّ امرأة. كان يُبحِر في البحر المتوسط. لا أحد يعلم أين.

تحدثنا عن أساليب الحِمية، والتمارين الرياضية، والدروس، والطعام، والأطفال المشاكسين، والخدم المعاندين، والرجال المتمرّدين. كلهنّ حَثَثْنَني على التخلّي عن عشيقي في نيويورك، وعن عائلتي، وعلى الانتقال إلى هنا إلى الأبد. كان إيقاع الحياة أسهل، كما قلن، وفي استطاعتي أنْ أكتب هنا.

ولكن رأيتُ أنني لن أتمكن من الكتابة إلا عن الماضي، وأخيراً لم أتمكن من الكتابة على الإطلاق لأنَّ العشب كان يغطي أصابعي. كانت المقابر تزحفُ عليّ، والبندقيّة جعلتْ تلك العملية أكثر عذوبة. القارب الذي تقدَّمَ من الشمس الغاربة كان ينتظر عند حافة القنال. وضجيج الماء القافز والغاوي كان ضجيج البندقيّة: *vieni, vieni*.

إنّ الموت الذي تُقدِّمه لم يكن *la petite morte* (الموت الصغير). بل كان الموت الكبير. وكان عنيداً.

إنَّ عشّاق البندقيّة، كائناً مَنْ كانوا، ومهما كان جنسهم، هم مجرد خدم لها، وكلاء إعلان، مُرافقوها في المشي. هنا يغوون أناساً آليين. ولكن كان في استطاعتنا فقط أنْ نمكث بمحض إرادتنا – وهذا ما يُريده الموت. إنه يجعلنا مستعدّين في البندقيّة، خطوة خطوة، ضربة مجداف بعد ضربة مجداف، ورعشة جنسيّة بعد رعشة جنسيّة.

تذكّرتُ المرة الأولى التي انجذبتُ فيها إلى بييرو، قبل ذلك بثماني سنوات أو تسع. كنا على متن قاربه الشراعيّ في حوض كنيسة القديس مرقس في ليلة هادئة في منتصف شهر تموز. كان احتفال رودانته، في ذكرى تحرير المدينة الصافية من الطاعون قبل نحو ألف عام. وبُنيَ

جسرٌ من القوارب من ساحة ديل جيغليو في سان ماركو إلى سانتا ماريا دي سالوته في دورسودورو إلى كنيسة بالاديو الرائعة في ريدينته على ضفة جيوديكا. كانت المدينة تمشي على الماء، أو هكذا بدا. والذين لم يتمشّوا على الجسور، حاملين شموعاً، وطعاماً، ونبيذ *prosecco* الأبيض، كانوا يضطجعون في قواربهم المفروشة بالأزهار، ويشربون عصير الكرمة. وتنساب موسيقى فيفالدي، ومونتيفردي وألبينوني عبر المياه. والعِظام - المُستغلون الذين تلقّوا تهديداً بصدور أحكامٍ عليهم بالسجن ولم تصدر - يستكينون على ما يُشبه الصندوق الملكيّ العائم، منصّة تعليق تعوم على طوف تبثّ بقوة موسيقى البندقيّة عبر المياه. وتنشر فرق التلفزيون قوارب صغيرة بمحركات لتبثّ هذا الاحتفال إلى باقي المشاهدين في إيطاليا، الذين ما زالوا يعتبرون البندقيّة كياناً غريباً، نصفه إيطاليّ، ونصفه شيء آخر.

كانت دوقة بييرو المُترفة تطبخ الإربيان، والحبّار، والأرزيّة السوداء التي تُصنع من حبر الـ*seppie* (الحبّار). كنتُ أراقبُ مذهولة براعتها في الطبخ وهدوءها. وتسلّل بييرو مقترباً مني.

شعرتُ بأنفاسه على عنقي، ومرَّرَ أحد أصابعه نحو أسفل ساعدي بطريقة تملّكيّة، تحذيريّة. وأسرني بعينيه.

تهتُ في تينك العينين البنيّتين الجديرتين بغزال، وشممتُ النار من تحت بشرته السمراء، وشعره الذهبيّ المُجعّد الجدير بـ«ساطير» [إله الغابات الإغريقي]. كان عَرَقُه حيوانيّاً ولذيذاً - أم تُراه كان عَرَقي؟ كأنّه كان لدينا الرائحة نفسها.

قال «يؤسفني أنني لستُ حراً كثيراً «مُشيراً إلى الدوقة. ما قصده هو العكس - كما هي عادة القضيّة: *أنا سعيد لأنني لستُ حراً كثيراً. إنها لقاحي، وحمايتي، وحاجبي الساتر. ولكن سوف يُسعدني أنْ أُعيدك إلى البندقيّة مراراً وتكراراً لتتذوّقي قليلاً من سِحري*».

هكذا بدأ الأمر. وتخمّرَ في البحيرة على مدى عام كامل، واكتمل

في ليلة تمَّ فيها البدر بعد ذلك بعام، واستمر بصورة متقطّعة على مدى سنوات، وانتهى إلى الأبد عندما فررتُ من البندقيّة مذعورة، دون حتى أنْ أراه.

هبّتْ الرياح عنيفة من القنال. وقعقعت النوافذ، والقدور، وآلات البيانو وتحطّمتْ وعزفت ألحاناً خشنة، ونفختْ سحابة من غبار الطحين فوق كل شيء. نظرتُ في المرآة. كنتُ بيضاء كشبح.

قالت ابنتي التي كانت قد بلغت الخامسة عشرة من العمر «أيتها المرأة التي أُسمّيها أمي - إنْ كان هذا حقاً هو اسمك - يجب أنْ نغادر هذا المكان. ثمّة أمر رهيب سوف يقع».

خلال ساعة كاملة، حزمنا حوائجنا واستأجرنا قارباً أوصلنا إلى محطة استئجار السيارات مع أمتعتنا كلها. وبينما نندفع بالسيارة بعنف عبر الطريق المُعبّدة إلى اليابسة، لاحقتنا عاصفة هوجاء، وهزّت سيارتنا الستيشن واغون، وأعتمتْ نوافذنا.

كنا قد غادرنا في الوقت المناسب. كانت الأشباح تدوِّمُ وتزعق في الهواء فوق البحيرة. وكانت نساء حديقة المقبرة يهتفن *Non scappi!* (لا تهربن!)

ودستُ بقوة على مكبح السرعة قاصدة ميلانو. والعودة إلى الحياة، إلى اندفاع حركة المرور وبشاعتها، إلى عالم الأعمال، إلى الهواتف التي لا تتصل بالأموات.

حتى براونينغ غادرها، وبايرون وشيللي أيضاً. وجورج صاند تخلّتْ عن البندقيّة بعد أنْ أنجزتْ كتابها. وحده آشنباخ مكثَ. وباوند. وسترافنسكي. كلّهم دُفِنوا هنا.

حالما أصبحتُ على الطريق المُعبَّدة، لم تُدركني سيدات الحديقة المظلمة.

فقالت مولي «ماما، لم أشعر مرّة بمثل هذه السعادة للخروج من هناك. وأنا صغيرة كنتُ *أحبّ* البندقيّة - ماذا حدث؟».

قلت، وأنا أقود بجنون نحو اليابسة: «حينئذٍ كنتِ صغيرة جداً لتعرفي البندقيّة».

«لا أفهم، ماما».

قلت «نحن لسنا مُستعدات بعد لنُصبح من أهالي البندقيّة».

لكنني رأيتُ بعين عقلي المياه تغمر المكان، والفسيفساء الذهبيّة تطفو وتتهاوى وتتحطّم، والقديسون البيزنطيون يتفتّتون ببطء.

هذه الأتلانتيس المحكوم عليها بالفناء سوف تغرق تحت المياه الدافئة ذات يوم دون أنْ يعلم أحد. وفي عام 5040 سوف ينبشها علماء الآثار، ويتعجّبون من عمل يد الموت.

تذكّرتُ اليوم الذي دفنّا فيه صديقتنا الفنانة فيستي إنتْويسل في الحديقة النَّضِرة لمقبرة سان ميشيل، جزيرة المقبرة، وكيف أسقطنا الآجر الذهبيّ داخل الأرض فوقها لأنها صنعت ساحات ذهبيّة جميلة داخل أعمالها الفسيفسائيّة. إنها حياة أخرى من أجل إطعام الأطياف المحتشدة. إنَّ *المدينة الصافية* تنتصر أينما دُفِنَ أحدهم هناك.

بعد ذلك باثنيّ عشر عاماً، نبش الحفّارون نحيلو الوجوه عِظام الذين لم يكونوا مشهورين بالقدر الكافي من أجل جذب سيّاحٍ جُدد. ورموا بالعِظام التافهة إلى مستودع العِظام العام - جزيرة عِظام فقط سمعتهم يتهامسون حولها. خلال السنوات الاثنتي عشرة الأولى، تتذوقين طعم الخلود. ومن ثم، بعد أنْ تغيب عنك شمس الشُهرة، ترحلين - بالجمجمة، والحوض، والعمود الفقري وعظمة الساق الكبرى، والعظمة الخارجيّة لساق، وكل شيء. مَنْ الذي يدوم خلوده أطول من ذلك؟ إنَّ الخلود في الأصل هو ذكراك في أذهان الذين يُحبّونك.

لم أعد أرغب في أنْ أموت في البندقيّة. وبالتالي، طبعاً، لا أستطيع أنْ أعيش هناك.

أعتقد أنني تقدّمتُ في السن بحيث لا يمكنني أنْ أُخاطر بأنْ أكون من أهالي البندقيّة.

-13-

حياة التشرُّد

بعد الخمسين، نتعلَّم بدهشة وحسٍّ
بغفران الانتحار،
أنَّ ما خطّطنا له وفشلنا فيه،
ما كان يمكن أنْ يُنجَز.

• روبرت لويل – من *«من أجل شيريدان»*

«إنَّ كل ما كسبته كان دائماً منشؤه الحب ولا شيء آخر».

• شاؤول بيلو، من *«هندرسون ملك المطر»*.

ما هي شخصيّة المرء، بمنأى عن شخصيات الأصدقاء التي ربطه القدر بهم؟ إنني لا أستطيع أنْ أفكِّر في نفسي بعيداً عن تأثير الصديقين أو الثلاثة في حياتي، وأي سرد لنموّي يجب أنْ يكونَ سرداً لنموّهم وتأثيرهم المُضيء.

• إديث وارتون، من *«نظرة إلى الخلف»*.

إنَّ أشدّ الحقائق قداسة عن أي كاتبة هي القصة الداخليّة، القصة التي تكتبها من دون أنْ تعرف السبب، القصة الآليّة، الغريزيّة التي يُزوّدها بها لا وعيها. إنَّ قصّتي هي قصّة تشرُّد.

لم أكتشف هذا إلا بعد أنْ ألّفت ست روايات - كلها روايات تتحدث عن طريق ما (الطريق إلى فيينا ذهاباً وإياباً، وإلى كاليفورنيا ذهاباً وإياباً، وإلى لندن القرن الثامن عشر ذهاباً وإياباً، وإلى الطلاق ذهاباً وإياباً، وإلى البندقية القرن الساس عشر ذهاباً وإياباً، وإلى إدمان الكحول ذهاباً وإياباً، إلى آخره). وفي كل واحدة، تنتصر بطلة مُضطربة وهي تبتسم على محنتها بعد أنْ تواجه الكثير من العقبات والعوائق، والرجال الأشرار والمشاغبين، على درب الحياة الوعر.

بما أنني وُلِدتُ كئيبة، ومفرطة الذكاء، رُهابيّة، مرتابة، من عائلة روسيّة-يهوديّة، كنتُ *في حاجة* إلى تلك القصة. وإلى تلك النهاية. كذلك الأمر مع قرّائي.

وأنا في منتصف العمر، انجذبتُ إلى المذكرات لأنني احتجتُ إلى أنْ أفهم نفسي قبل أنْ يفوت الأوان. وأية طريقة لفهم نفسك أفضل من النظر في الأساطير التي عشتِ حياتك على أساسها؟

لقد نشأ جيلي مع أسطورة مفروضة - أسطورة العيش في الثبات والنبات - ودائماً تتضمن رجلاً - أميراً سوف يأتي ذات يوم (ويجعلك تفعلين الشيء نفسه).

سواء أكتبنا هذه الأسطورة أم نقيضها - فليس هناك أمير، وحتى إذا وُجِدَ، فإنه لا يأتي، وحتى إذا جاء، فإنه لا يجعلك تأتين - كنا لا نزال ننظر إلى حياتنا على أساس هذه الأسطورة. وسواء أكانت مُناصِرة للأمير أم مُناهِضة له، فإنَّ شروط المناظرة حُدِّدت - وليس من قِبَلِنا. حاولنا أنْ نؤلِّف أساطير أخرى - ذات يوم سوف تأتي أميرتي، أو أنني أنا أميرة نفسي، هكذا. ولكن كانت كلها مُشتقّة. الشكل العام للحبكة هو نفسه. كنا نُبدي *ردّة فعل*، لا نخلق. نحن لم نوسّع الشروط التي رأينا فيها حياتنا.

هل هناك فقط حكاية واحدة؟ الأمير يأتي أم لا يأتي؟ وهل *تحل* الأميرة محل الأمير؟ وهل تحل العزلة محل الاثنين؟

أما كان في وسعنا أنْ نجد قصة لا صِلة لها بهذا، قصة لا تكون فيها العلاقة ولا إنكار العلاقة هما أهمّ شيء؟

يبدو أننا لا نستطيع. إنَّ كتّابنا وفلاسفتنا شقّوا طريقهم إلى هذه المنطقة وخرجوا بنُسخٍ جديدة، وليس أساطير مخلوقة من جديد.

حتى واضعو الفرضيات عن النساء الشُمُط والنساء الأكبر سناً ليس لديهم تجاعيد جديدة يضعونها على الموضوع القديم. قالت غيل شيهي: يبقى في استطاعتك أنْ تجذبي انتباه الرجال بعد بلوغك سن اليأس. وجيرمين غير قالت: مَنْ يريد هذا أصلاً؟ لكنَّ العلاقة كانت لا تزال هي الموضوع. وإيفا غلوريا ستاينم اعترفَتْ بأنها لا تستطيع أنْ تعيش فقط من أجل *«الحركة»*. وبيتي فريدان قالت إنه على الرغم من أنَّ التقدُّم في العمر أمرٌ عظيم، إلا أنها لم تتخلَّ عن الرقص. إنّ النساء اللواتي تخلّين عن الرجال كان يزداد حبّهن دائماً للنساء *في كل الأحوال*، أو أنهنّ اكتشفن حينئذٍ حناناً أكثر هناك، دون أنْ يُدركن أنَّه بعد بلوغ سن الخمسين، يُصبح هناك المزيد من الحنان *في كل مكان* وحتى العلاقات مع الرجال، إذا استطعتِ أنْ تجديها، تُصبح أرقّ.

ربما بتركي لا وعيي يُملي عليّ نموذجاً متشرّداً، سعيتُ إلى بلوغ حياة امرأة ثريّة، وبطوليّة، وفخمة من نواحٍ متعددة كحياة بطل من الطراز القديم (حتى الرجال أصبحوا نادراً ما يحصلون على حياة مُشابهة)، لكنَّ بطلاتي دائماً يعجزن عن التقدُّم في علاقاتهن. إنَّ إيزادورا تتعلَّم عن الحياة بعد أنْ يتخلّى عنها ابن حرام لا قلب له. وفاني تتعلَّم البطولة بإنقاذ ابنتها. وليلى تتخلّى عن شرب الخمر بعد أنْ تدفع صديقها الشرس إلى التخلّي عنه.

أين هي المرأة التي تبدأ بنفسها، التي لا تكتفي بإبداء *ردّة فعل*، التي تعيش حياتها من أجل مَثَلٍ أعلى *بعيداً* عن إقامة علاقة؟ ألا نستطيع حتى أنْ *نتخيل* وجود مثل تلك المرأة؟ وحتى لو فرضنا أننا تخيّلنا وجودها، هل ستتطابق قارئاتنا معها؟

في الصيف الفائت وجدتُ نفسي أعيشُ من جديد حياة تشرّدي - ولكن مع بعض الاختلاف هذه المرّة.

كنا قد استأجرنا أنا وابنتي منزلاً لا يطل على أي مشهد يقع فوق تل مزروع بأشجار الزيتون والسرو، في توسكاني، بالقرب من لوكا. كان من المتوقع أنْ نصل في نهاية شهر تموز، بعد أسبوعين من التدريس في سالزبرغ، وبضعة أيام في البندقيّة، وميلانو، وبورتوفينو. وكان من المفترض أنْ تنضم إلينا اثنتان من صديقات مولي، ثم مارغريت، ثم أفضل أصدقائي. وكان زوجي سيأتي لاحقاً، وأخيراً أصدقاء آخرون.

استأجرنا مكاناً قريباً من لوكا، وليس البندقيّة (حيث كنتُ قد أمضيت سنوات عديدة)، لأنَّ صديقينا كين وبربارة فوليت كانا قد استأجرا مكاناً هناك في العام السابق ودعيانا لنكون ضيفين في دارتهم الفخمة. لم يكونا يُغادران من دون أطفالهم من سلالات مختلفة، وأطفالهم بالمعموديّة، وأقاربهم، وأصهارهم، وأصدقاء أولادهما. وأصبحا أيضاً بمثابة مؤتمر حزب العمال المتنقّل، ويظهر فجأة أناس أمثال نيل وغلينز كينوك لتناول المُعجّنات، والنبيذ، وتبادل الجدل العنيف.

أحببنا عذوبة الريف وكونه لم يتحوّل بعد إلى أطلال مُتحفٍ للموت على غرار البندقيّة. وأحببنا أيضاً كون مولي، ابنتي الوحيدة والشاعرة بالوحدة، بين حشدٍ من الأطفال. وأحببنا كين وبربارة، اللذين لم يكونا فقط ذكيّين وموهوبين بل غاية في اللطف والإخلاص.

شققنا طريقنا أنا ومولي، وسط الحرّ وغبار الطريق، على متن عربة أوبل مُستأجَرة مزوّدة بناقل معطوب للسرعة ومكابح ليست في أحسن حالاتها، إلى لوكا. وكنا قد أمضينا يومين مع آل فوليت في دارتهما الفخمة المُستأجَرة في قرية قريبة. كنا قد نقلنا مارغريت وأمتعتها من مطار بيتزا والآن نحن في طريقنا إلى منزلنا الريفيّ في توسكان مع آمال أعرض من آمال الآنسة هافيشام[1] بالزواج. (كانت حتماً ستُصبح

1- إشارة إلى شخصية تشارلز ديكنز في روايته «*آمال عريضة*» - المترجم.

السيدة هافيشام اليوم وتنضم إلى برنامج الخطوات الاثنتي عشرة لعلاج فرط التواكُل).

من المدينة المُسوَّرة الجميلة، توجَّهنا شمالاً على طريق قديمة وبدأنا نُحصي القُرى وكروم العنب، ومعامل إعداد النبيذ والمنازل الريفيّة.

انعطفنا يميناً عندما بدا أنه بقعة بائسة في توسكان على طريق ظل ينحدر ويتلوّى فوق نهرٍ جافّ، ثم بدأنا نرتقي درباً موحلاً مُخدّداً، مُكوّناً من صخور سائبة ومن أقنية ريّ غير مُنتَظَمة، وسرعان ما وقعنا في أخدود. توقفت العربة، ومن ثم تحرّكت من جديد، ثم جثمتْ مع صرير حزين. خرجنا نحن الثلاثة وأخذنا ندفعها لنُعيدها إلى الطريق لكنها عادت ووقعت في الأخدود التالي - ثم التالي.

هرع إطفائيٌّ بدين ضخم الجثّة لا يزال يرتدي زيّه المطاطي وقبّعته، إلى شرفة بناء رماديّة من الحي الفقير وبدأ يصرخ بلهجته التوسكانيّة الصافية *Questa macchina non va su quella strada*(هذه السيارة لا تصلح للسير على هذا الطريق) وكان ذلك واضحاً على أية حال.

من خلفه ظهرت زوجة رجل الإطفاء مع الـ*la bambina* (الطفلة) - التي كانت تزعق لأننا أيقظناها.

ارتقينا التل ببطء ثم توقفنا من جديد، وترجلنا من السيارة، لقد أعاقنا جرف تحتنا، مُغطّى بامتداد جميل من أشجار الزيتون.

شعرتُ بالتجمّد. كنتُ سائقة سيارة مُصابة بالرُّهاب في أفضل الأوقـات، وعدتُ أهبط التل، وارتطمتُ بكتلة من الفلز، وضربت السيارة المُستأجَرة فاستسلمتْ. ثم وقعتُ في الأخدود الذي كان حينئذٍ قد أصبح مألوفاً جداً.

كان رجل الإطفاء وزوجته وطفلتهما يضحكون.

لكنَّ مولي ظلّتْ متحفّظة.

قالتْ، وهي تترجّل من السيارة: «سوف أرتقي التل لأتفحّصه، يا أمي». رأيتُ كتفيها العريضَين وشعر عنقها يختفي عند منحنى الطريق

الصخري. منذ أنْ أصبحتْ أطول قامة مني بأربع بوصات بات من الصعب إملاء أوامري عليها. صرختُ «مولي»،

ردّتْ صارخة «اهدئي يا أمي!» كأي بطلة متشردة.

وسرعان ما عادت تهبط التل بسيارة لاند روفر، يقودها رجل مربوع، هو صاحب المنزل. كانت مولي ترسم ابتسامة واسعة. بدا محتاراً.

قال «أمرٌ غريب، لا أحـد يواجه مشكلات مع هذا التلّ، هيا، اركبي، يا حبيبتي!».

قلت باكتئاب، وأنا آمل أنْ تشوب كلامي نبرة تهديد: «لم تذكر وكالة استئجار السيارات أننا سوف نحتاج إلى سيارة جيب». كنتُ أحمل في الأصل أفكاراً عن صحف تُقاضى لأنها «تُخفي معلومات»، ولكن مَنْ يجرؤ على أنْ يُقيم دعوى في إيطاليا؟ سوف يستغرق ذلك منك حياتك كلها. قفزتُ إلى سيارة لاند روفر، وارتقينا أعلى التل ذي المنعطفات الحادة والمُخدَّد إلى قلعة السيد الإنكليزي على القمة.

كان منزلاً ريفياً توسكانياً مُبهِجاً يطل على الجنّة - *all'italiana* (الإيطاليّة). أخذتُ أحدّق برهبة. ثم هبط مُضيفنا ليُنقذ مارغريت وأمتعتنا.

قالت سيدة المنزل «مرحباً يا عزيزتي!» بينما كنتُ ومولي نجرُّ أقدامنا جراً ونحن نرتقي ثلاثة مطالع للدرج من ألواح الأردواز إلى المنزل الريفي كيانتيشير.

سرعان ما عاد الزوج يقود عربتنا - على متنها مارغريت - إلى أعلى التل.

يقول «حتى بسيارة كهذه، الأمر سهل».

تقول الزوجة، التي تبدو أشبه بنيلي كويكلي[2] وهي بثوب استحمام

2- السيدة كويكلي: شخصية صاحبة حانة شائنة وفاسقة تظهر في أربع من مسرحيات وليم شكسبير - المترجم.

قابل للتمدُّد ومُغطّى برسوم ثمار الملفوف، ولديها لغد[3] وبطن كأنها جِراب لا يمكن لقائدة المُهللات ذات اللياقة البدنيّة التي وصلت إلى سن اليأس أنْ تقبل به - ولا لوته بيرك[4] وصاحباتها من فاقدات الشهية حسب الموضة من إيست سايد، «لم يسبق لأحد أنْ اشتكى من الطريق». لكنها كانت متصالحة مع نفسها.

توجهتُ إلى المنزل لأستلم ما استطاعت نقودي أنْ تستأجره.

تقول السيدة «كلا لن تفعلي. ليس وأنتِ في مطبخي إلى أنْ تنتهي الخادمة من مسح الأرضيّة. ليس من أجل الحب أو النقود، أنا فخورة بمنزلي».

زوّدني زوجها بكأسٍ من النبيذ الأبيض والماء الفوّار، وجلسنا لنتبادل حديثاً ممتعاً حول كيف احتال وكيل العقارات علينا معاً، وغالى في طلب النقود (تقاضى عن ستة أشهر مُقدَّماً) ولم *يدفعها*، لكنهما أملا في أنْ نحبّ المكان في كل الأحوال.

قلت «إنه جميل»، وكان ذلك صحيحاً.

ما كان يمكن للسيد والسيدة أنْ يبدوا أشدّ قلقاً مما ظهرا ونحن جالسون في الخارج تحت أشعة الشمس ساعتين أُخريين، ومارغريت تُثير حديثاً حول الملكة، والملكة الأم، والأميرة ديانا، متباهية بعضويتها في أخويّة *«بنات سكوتيا»*[5]، وتصف بالتفصيل منزل إحدى قريباتها عاشت في ريف الخلنج والجولق في الأراضي المرتفعة وكيف مات قريبها الاسكتلنديّ ومتى وأين دُفِنَ وماذا أكلوا جميعاً في ساعة الشاي بعد ذلك.

الحديث. إنه يسدّ الكثير من فجوات الحياة الصغيرة.

3- اللغد: كتلة من الدهن الزائد تظهر تحت الذقن.

4- لوته بيرك (1913 - 2003): راقصة بالية ومُعلّمة رقص ألمانيّة عاشت في إنكلترا - المترجم.

5- بنات سكوتيا: جمعيّة أخوية تضم نساء من اسكتلندا ولهن أزواج وأقارب من اسكتلندا - المترجم.

وأخيراً، بعد أنْ لسعتنا أشعة شمس توسكان، وشوّشنا عنبها، أصبحنا جاهزين لتفقّد المنزل.

قال الزوج «لقد بنيناه من أطلاله».

وكان على صواب، كان يمكن رؤية الخادرة التي خرجت منها هذه الفراشة. كان كوخ الراعي على سفح التل قد تحوّل إلى معقل للسِمة البريطانيّة، يكتمل بمحطات Sky TV, MTV, CNN، ورفوف من أقراص الفيديو، وخرائط الطُرُق، ولكن مع قليل من الكتب ما عدا فن الطبخ وتصليح المنزل (والرف المعتاد للكتب الرائجة المُهمَلة تركها المُستأجرون المتنوعون). كانت هناك كتب فضائح المشاهير بأقلام أشخاص مجهولين، وأخرى كتبها جنرالات وكبار الجرّاحين، وروايات ألّفها نجوم سينما أفل نجمهم، ووزراء سابقون، ومبشرون في التلفزيون. (بعضهم كان لا يزال يبثّ)، لكنَّ المنزل مع هذا كله لم يكن أقل سِمة أدبيّة، بما أنَّ جون مورتيمر كان قد استأجره مدة عام من أجل أنْ يؤلِّف كتاباً عن توسكاني.

أزعجني زوجي عبر الهاتف من نيويورك «لقد أخبرتُك بأنك يجب أنْ تدرسي رواية «*عقد إيجار الصيف*»[6].

أجبتُ «مَنْ يستطيع أنْ *يقرأ* في نيويورك؟ لكي تفعل هذا يجب أنْ تذهب إلى توسكاني».

في الوقت المناسِب سُمِحَ لنا بولوج أرض عجائب ويتابيكس[7]، بمناظرها المدهشة من أركان المنزل كلها. أشجار سرو تنتشر نحو أسفل التل، داكنة وتشبه السِهام أمام مشهد أشجار الكستناء غزيرة الأوراق وأشجار الزيتون الفضيّة. ونمت أزهار الفوشيّة والويستريا بغزارة في كل مكان. وطيور السنونو تميل هابطة من قمة تل إلى قمة تل آخر أمام امتداد

6- *عقد إيجار الصيف*: قصة للكاتب جون مورتيمر – المترجم.

7- ويتابيكس: ماركة مسجلة لطيف واسع من المنتجات المحفوظة والوجبات الجاهزة.

شاسع من السماء صافية الزرقة؟ مَنْ ذا الذي يرفض أنْ ينتقل إلى هنا من لندن؟ إنها حلم شاعر إنكليزي بإيطاليا.

كانت الأسرَّة ثقيلة، والوسائد بدت كأنها مصنوعة من رخام كاريرا المحلّي. كانت هناك أربع غرف نوم مزدوجة، لا سبعاً كما وعدونا، ووصفُ «مزدوجة» كان يعني امتداد اليد. في وسع خمسة عشر شخصاً أنْ يناموا في هذا المنزل فقط إذا كانوا ميالين إلى الشجار وإذا كان بعضهم سينام على المسطبة، تحت التعريشة، أو في بركة السباحة.

لا يهم. كنا سنُقيم هناك، وأصدقاء مولي سيرحلون بالطائرة. كنتُ قد دفعت الثمن بأكمله، وهذان الزوجان المُحبان للمنزل كانا في حاجة إلى قضاء الشتاء في ويتابيكس على *soldi* (ما أدفع من أجر).

تقول مولي، التي أحبّته ***فعلاً*** «ألم يقع حب هذا المكان في قلبك يا أمي؟».

تقول «إنه أليف، وليس مُخيفاً». إنها تتذكّر المكان الذي كنا نسمّيه قصر إريكا في البندقيّة - والطابق الأرضي الشاسع المتداعي، بنَفَقِهِ السرّيّ المؤدي إلى قصر بييرو.

قصر إريكا يتّصف بشيء واحد أساسي يُحسَب له - قُربه من بييرو، والمُحترَف الصغير قبالة حديقة الورد المُسوّرة حيث كان في وسعنا أنْ نلتقي بينما العائلة تستكين في الطابق العِلويّ. وما كنتُ لأجازف بهذا، بوجود مراهقة في عهدتي. فجأة حوّلتني ابنتي المُراهقة إلى قيِّمة مثاليّة، ولا أعلم إنْ كان ذلك يُعجبني أم لا. إنَّ الأولاد لا يريدون إلا ***كل شيء*** - القلب، والروح، والأعضاء التناسليّة، والـ MTV والـCNN. (وفي الغالب نحن نرغب أيضاً في منحها لهم).

«لقد شاهدتُ هذه المقالة في مجلة *Elle Decor*، يا أمي، أو ربما في مجلة أخرى، تقول إنَّ عليكِ دائماً أنْ تغيِّري أماكن قِطع الأثاث في المنزل المُستأجَر. ويجب أنْ تُضفي عليه شخصيتك، كما تقول».

مولي تقوم بدوريّة على مناديل المائدة، وتنتزع منديلاً من تحت كل نبتة، وكل ترتيب للأزهار الجافّة، وتُزيل كل المناديل (هل ما زالوا يُسمونها غطاء ظهر الكرسي؟) وتضعها في أدراج خزانة الفضيات.

ثم تصفّ التفاح رتلاً واحداً بانتظام كما شاهدت في مجلة الديكور. ثم تجرّ طاولة غرفة الطعام الضخمة والقبيحة لتلامس الجدار لكي تضع طاولة كتابة لأجلي.

تقول، وقد أصبحتْ فجأة شريكتي في التآمُر، وليس مُخرِّبتي «يمكنك أنْ تكتبي هنا، ماما. أعلم هذا». إنَّ لديها سَمَكها الخاص يجب أنْ تقليه – المنزل ممتلئ بفتية من إنكلترا وجنوب إفريقيا ذاهبون إلى فورنو، وثمة أصدقاء قادمون، وزوج أمها يعِدها بتعليمها القيادة في إيطاليا. (تقول بفخر لصديقتها عبر الهاتف «إذا استطعتِ أنْ تقودي السيارة في إيطاليا، فسوف تستطيعين القيادة في *أي* مكان آخر»). إنها *تريد* من الماما أنْ تكتب الآن دون إزعاج. لقد أصبحتْ خبيرة في استغلال تأثيري القاتل دائماً كطريقة للتخلّص مني، وفي الوقت نفسه العثور عليّ عندما تحتاج إليّ. إنَّ طفل الكاتبة واسع الحيلة إلى أقصى مدى، وهو أفضل إبداعات الكاتبة حتماً.

إنَّ مولي الآن هي البطلة المتشردة، وأنا سانشو بانزا[8].

إنها تُرمِّم منزلها من أجل أصدقائها، وتجرّب ارتداء أثواب السباحة لكي ترتديها وهي تتنقّل حول بركة السباحة مع الفتية، وتفكّر في الفتى الذي كانت قد قابلته في العام السابق في لوكا. هل ستعيش حياةً لا تتمحور حول العلاقات؟ أشكّ في هذا. إنها منذ الآن تتعامل مع سعادتها أو حزنها الناتجين عن الصداقات المشبوبة. ولديها أخيلة حول الفتية. وتريد منزلاً أليفاً لكي تُحضِر إليه أصدقائها الذين تحبّهم.

لكنها تجوب الطريق كأي بطلة متشرّدة وتستطيع أنْ تعثر على

8– سانشو بانزا: هو رفيق دون كيخوته في مغامراته الوهميّة – المترجم.

المطارات والـ *autostrade* بلا تردُّد. وتتنقّل بين الأسواق المركزيّة الإيطاليّة خلال أقل من ساعة. ووضعت خريطة للطريق المؤدّية إلى المنزل الآخر - حيث يُقيم الفتية.

هي الآن تقوم برحلة التشرّد الخاصة بها، لكنَّ المغزى من بحثها منذ الآن هو إيجاد منزل جديد. لقد أخذت عني كل عيوبي وحوّلتها إلى حسنات: أنا ضعت، وهي كذلك. أنا شغوفة ورومانسيّة، لذلك هي عمليّة وساخرة. أنا عشتُ من أجل الكتابة وهي تعيش من أجل الحياة. إنني أحبّها أكثر من حبي لنفسي.

بعد ذلك ببضعة أيام استأجرتُ سيارة جيب، وسيطرتُ على الطريق، وتعوّدتُ على الأسرّة، وتبنّيتُ قطّتين شبه برّيتين، وملأتُ المنزل بالطعام، ونقلتُ بالسيارة أول أصدقاء مولي، وأنا الآن جالسة تحت ضوء القمر أراقب البدر يرتفع، تتخلّله أشجار السرو الداكنة. وطيور السنونو ما زالت تميل منحدرة من تلٍّ إلى تلّ. وأوراق الزيتون تخفق باللون الفضيّ تحت ضوء القمر. والقطة السوداء التي من المُفترَض أنها شبه بريّة ذات الذيل المبتور تقفز إلى حجري، وتنطح بطني بخطمها المُدبّب، ثم تضع رأسها على حِجري طلباً للمداعبة وتبدأ تُصدر خرخرة كمطحنة القهوة.

إنني جالسة على مائدة الطعام الخارجيّة مع أوراقي وقلمي. والقمر البدر يبدو كأنه يُحاول أنْ ينتزع أحشاءه على أشجار السرو لكنّه سرعان ما يرتفع فوق ذُراها المُدبّبة ويُصنع قوساً فضيّاً، بطيئاً عبر صفحة السماء. أجلسُ، مفتونة، وصرير الجدجد المتناغم في أُذنيّ، مع تحرُّك القمر نحو التل التالي. ألقي نظرة سريعة إلى ساعة يدي وألاحظ أنَّ ثلاث ساعات قد انقضتْ. لم أكن قد كتبتُ سطراً واحداً. إنَّ الزمن دائماً يمارس خدعه هكذا في إيطاليا. الدرب المُخدّد، والمنطقة البائسة في الأسفل، والأسرة الصلبة، نسيتُها كلها بينما القمر يقود عيني خلال الأبديّة.

من جديد أقعُ في حب المشهد الطبيعي العام، ومسرّات اللون

الأخضر القاتم، والأخضر الفضي، وتدرّجات اللون القرمزي الداكن لثمار العنب والتوت البرّي، أنا أعرف لماذا إيطاليا دائماً تغوي الشعراء. إنَّ الموت ليس ثمناً باهظاً لهذا الجمال. أذهب إلى النوم والقمر البدر يشعّ على نافذتي وعلى كل الرجال الذين أحببتُهم على بطاقة الرقص في الحلم ودعوتهم لزيارة سريري. إنني أشتاق إلى زوجي، لكنني أعلم أنه ليس أمراً مهماً بالنسبة إلينا أنْ نمضي بضعة أسابيع منفصلَين في كل صيف. إنها طريقة لتذكُّر من نكون ونحن منفصلَان، ويُتيحُ لنا أنْ نحصل على حياة وأخيلة ليست دائماً متضافرة.

في صباح اليوم التالي، أتوقَّع وصول أعزّ صديقاتي من نيويورك. وفجأة تصلني مكالمة هاتفية ملؤها الرعب من مطار روما.

« لقد فاتتني الطائرة المتوجهة إلى بيتزا واستأجرتُ سيارة صغيرة لرجل يعمل في الديسكو لكي أصل إلى لوكا. المشكلة الوحيدة هي أنني أشعر بضعفٍ شديد، ولا أعتقد أنني أستطيع أنْ أصل...».

«ما المشكلة؟».

قالت بقلق «إنني أنزف». ثم كان انفجار من التشويش وانقطع الخط على أيدي الساديّين الذين يُشغّلون - أو يفشلون في تشغيل - شركة الهاتف الإيطاليّة. رحتُ أتمشّى حول البركة في انتظار أنْ يرنّ الهاتف من جديد. جررتُ كابل الهاتف إلى الخارج بجوار البركة ورحتُ أُحدّقُ إليه، آمل أنْ أجعله يرنّ. أتسكع تحت الشمس الحارقة، وأروي أزهار الجيرانيوم، وأضع على جسمي واقٍ من الشمس. وأتمشّى وأفكّر. منذ أنْ توفي والد جيري، شعرتُ بالمسؤوليّة تجاهها، ومع ذلك لن يكون هناك من سبيل للوصول إليها إذا لم تتصل من جديد. وأتخيلها تقود السيارة على الأوتوستراد تحت أشعة الشمس اللاسعة - على الرغم من شدة ضعفها وعجزها عن القيادة. لا بدّ أنها استأجرت سيارة رخيصة وغير مُزوّدة بمُكيف للهواء. وحتى لو كانت مريضة، لا يمكن إقناعها باستئجار سيارة ليموزين مع سائق - لأنَّ جيري تتفاخر باكتفائها ذاتياً.

ربما «سيارة عامل الديسكو» مزوّدة بمكابح غير مأمونة وبناقل سرعة على لوحة الأجهزة.

ثم أرسلتُ نظري عبر تلال توسكانيا بأشجارها الكثيفة من السرو وغمرني شعور بالسكينة.

أقول لنفسي، طبعاً هي على ما يُرام.

آخذ نَفَساً عميقاً وأبدأ بتدوين شيء في دفتر مذكراتي أتذكّره عن سنوات صداقتي مع جيري.

كلٌ منا تعتبر الأخرى أعزّ صديقة لها.

كأننا في الثانية عشرة، ولكن الغريب هو أننا لسنا كذلك. نتقاسم المرض، والكتل الصدريّة، والمنازل، والمخاوف العُصابيّة حول طفولتنا، والمخاوف الحقيقيّة حول طفولتنا. نحكي أسراراً رهيبة عن أزواجنا، وأزواجنا السابقين، وأزواجنا الذين ماتوا. ونعرف أحجام قضبانهم وكم من المال يكسبون/ يُنفقون وما إذا كانوا/ أو هم كئيبون أم عابثون في السرير وما إذا كانوا يغطّون أو يعهرون، وما إذا كانوا يُذكّروننا بأجداد قضوا/ أو ما زالوا أحياء، وبآباء، وأقارب أو بإخوة.

أنا ليس لديّ أخوة. هي لديها اثنان. واحد، مرح وجميل، توفي متأثراً بالإيدز. وقد اختيرتْ لكي تساعده على الموت. لم يتبقَّ لها إلا أخوها الأكبر. وجيري هي طفلة وسطى مثلي.

ولكن كان لديّ أختان غالباً ما تحسدانني، وكانت هي دائماً بمثابة أختي الطيّبة، وتعرف أنَّ لديّ مشكلات أيضاً. ويبقى هناك تنافس الأخوات ولكن نادراً ما يُترَك من دون لجم. وهذا لا يعني أننا لا نصرخ ونتقاتل ونتبادل ألفاظاً فظيعة. خلال سبعة عشر عاماً تتفوّهين بألفاظ فظيعة. لكنَّ الأخرى دائماً تتطلَّع إلى ما بعد الصراخ، لا أعلم كيف نتعلَّم فعل ذلك. وليس دائماً أطبّقه على أُختيّ الحقيقيَّتين. ولكن لاحقاً، تُقيم كل منا جسوراً جديداً للأخرى، يحثّنا في ذلك إحساسُنا في منتصف العمر بالموت.

جيري وأنا تقابلنا بعد ظهيرة يوم أحد في حقبة السبعينيات. كنتُ أرتدي ثوب استحمام خيطيّاً مُخرَّماً عاجيّ اللون فيه من الثقوب أكثر من الخيوط وكانت ترتدي ثوباً أشبه بالدبابة - وربما عدّاد السرعة. (إنها تُثير الضحك وأنا لستُ كذلك. وهي لا تفهم أبداً النظرات الجوفاء التي أرميها بها عندما تأتي على ذكر لاعبي كرة شهيرين. أفراد عائلتها كلهم يتألّفون من النكات. وعندما لا يلعبون بالكرات أو يُشاهدون الناس يلعبون بها، يوظفون المال: وهو عالم يُبلبلني بقدر ما تفعل الألعاب الرياضيّة).

عندما قابلتُ جيري، أول ما لاحظته كان عينيها الهائلتين البرّاقتين بلونهما الرمادي المائل إلى الخُضرة، وشعرها المُجعّد البنّي المحمرّ، الذي يُحيط بوجهها كهالة نحاسيّة، وعِظام وجنتيها العالية، وفمها الممتلئ، كثمرة خوخ شهيّة.

كنا متناقضتين من أوجه عديدة. كان لديها ثلاثة أولاد وكان لدي ابنة واحدة. ولطالما رغبتْ في أنْ تكون أمّاً وارتبكتْ عندما لم تعُد الأمومة عملاً بدوام كامل. أنا لم أرغب أبداً في أنْ أكون أمّاً، لكنني صدّقتُ قولها إنها شيء عظيم. كانت سريعة وماهرة بالمعنى الحرفيّ، لكنّها لم تشعر بحاجتي إلى تدوين كل شيء على الورق. كانت رياضيّة البُنية وأنا أقضي وقتي خلف طاولة الكتابة. وكدتُ لا أصدّق أنها يهوديّة. كانت تمارس التزلّج كأوروبيّة مسيحيّة.

وسرعان ما اكتشفنا أننا في السن نفسه تقريباً، وأننا كلانا التحقنا بالمدرسة الصيفيّة نفسها في فلورنسا، وكلانا أحببنا إيطاليّاً، والنكات البذيئة، وشرب الفودكا وعصير البرتقال بعد الظهيرة في الصيف بجوار بركة السباحة. كنا نسبح في برك من الفودكا كما فعل سبّاح جون تشيفر. كنا نقيم على مسافة شارع فيما بيننا في كونكتيكت (حيث كنتُ أعيش طوال الوقت في تلك الأيام). حينئذٍ كانت تأتي إلى كونكتيكت في أيام العطل الأسبوعيّة.

كنتُ أعيش مع جون، وكانت علاقتنا في ذلك الوقت في قمة السعادة. لم نكن قد تزوّجنا بعد. كنا نلزم المنزل طوال الوقت. وكنا نكتب طوال النهار في المنزل، ونمارس تمارين اليوغا، ونعتني بكلبينا ويعتني كل منا بالآخر. كانت متزوجة من ديفيد، الضخم الرائع المُدجَّج بالعضلات على غرار تمثال ديفيد لمايكل أنجلو، وأخضر العينين (إحداهما تائهة - ولكن ليس بالمعنى التوراتيّ)، وكان لديها ثلاثة أولاد رائعون: رياضيّ (وشاعر) وفتاة صغيرة اسمها جن وصبيان مُضحكان يهذيان اسمهما أندي وبوب. كانوا أفضل مَن قابلتُ من أولاد: حرونون، محبوبون وأذكياء.

وفي الحال تبنّت كلٌّ منا الأخرى.

بما أنني اعتبرتُ صديقتي خبيرة في الأمومة، سألتُها إنْ كان عليّ أنْ أُنجب طفلاً. (طبعاً كنتُ أعرف الجواب مُسبقاً. فيما عدا ذلك لم تطلب أيٌّ منا النصيحة من الأخرى)

قال بلا تردُّد «لن تندمي أبداً». وهكذا أصبحتُ عرّابة مولي - على الطريقة اليهوديّة - مهما كان معنى هذا. (أعتقد أنه يعني القيِّمة).

عندما حملتُ بمولي في الصيف الذي تلا، ساعدتني في جعل الحمل احتفالاً طويلاً. وأتذكّر أياماً أمضيناها بجوار بركة منزلها بوجود العائلتين، وليالٍ في حوض استحمام من المياه الحارة، عندما كنا نحنُ الأربعة نلقي نظرات مختلفة كلٌّ منا على جسد الآخر العاري وقرّرنا أنَّ صداقتنا أشدّ أهميّة.

عندما وُلِدَتْ مولي، أصبح الرباط بيني وبين جيري أوثق. وأنا الآن أفهم كيف عاشتْ ما اعتبرتْه أفضل أيام حياتها. عند تلك النقطة، أُصِبتُ بالرعب من الاعتناء بطفلة. وحاولتُ أنْ أتخيّل *أنني* جيري، لكنني لم أستطع. لم أستطع أنْ أولي كل ذلك التركيز المستمر الذي يتطلّبه الأطفال، ولكن على الأقلّ كان لديّ مِثال يُحتذى في ذلك.

كان ذهني مُنقسماً باستمرار. وعندما كنتُ أغنّي لطفلتي، أسمع أغنية

كتابي المُنذِرة. وعندما أنغمس في كتابي، كنتُ أشتاق إلى ابنتي. ولكن أحياناً أسقط في ذلك الإصغاء المنتشي الذي هو هِبة الأمومة الأساسيّة.

منذ البدء، احترمَتْ كلٌّ منا، أنا وجيري، مواهب عند الأخرى تاقت إلى أنْ تتحلى بها. هي أحبّت الكتب، وأنا أحببتُ تأليفها. أنا كنتُ أقرأ فصولاً من رواية « *فاني*» على مسمعها، وهي كانت تُشجّعني على الاستمرار. ولاحقاً، وظّفتْ النقود التي حصلتْ عليها في تحويلها إلى نسخة موسيقيّة. وكلما تعرَّضَ عملي للخطر، كانت تهبّ لإنقاذه.

لقد أحببتُ الأطفال وأحببتُ أنْ أحصل على المزيد منهم. وتبنّيتُ أطفالها.

أنا حصلتُ على الطلاق. وهي لم تحصل. هي بلغت الخمسين أولاً. هي فقدت أحد أقاربها أولاً، خسرتْ الوالد أولاً. واعتنت بي في أثناء مراحل الطلاق. وأنا اعتنيتُ بها في فترات حزنها، فبكيت معها على مدى سنين بعد أنْ اعتقد بعض أصدقائها الآخرين أنَّ عليها أنْ تكفّ عن البكاء.

لقد مررتُ بأوقات عصيبة مع الرجال، وكانت دائماً موجودة لتساندني. وبعد وفاة زوجها، كانت الشخص الوحيد، بعد مولي وكين، الذي كان في استطاعته أنْ يُقاطعني في أثناء الكتابة.

كانت تشعر بأنَّ الموت يُطاردها خلسة. وكنتُ أشعر بالثوران والخذلان يطاردانني. أحياناً يكون الخذلان جزئياً على الأقلّ من صُنع يديّ، ولكن لا أستطيع أنْ أقول الشيء نفسه عنها. أنا كنتُ أحتاج إلى العزلة بقدر ما كانت تكرهها وتخشاها. أحياناً كنتُ أُبعِد الرجال عني لكي أتمكن من الكتابة. أما هي فكانت متمسّكة بزواجها، ***وتجعله*** ناجحاً حتى عندما يُنذر بالفشل.

كنا نتقاسم الطبيبة النفسيّة – دمية السكر الخاصة بنا – دمية الأمّ المترفة المملوءة بالمهدّئات والبصائر العنيفة. كانت قدماها صغيرتين وترتدي ثوباً فضفاضاً ككاهنة دلفي. كانت الكاهنة الكبرى لاحترام الذات والزواج. وكانت تكره أنْ تودِّع المرضى.

بجسمها الضخم وساقيها وقدميها النحيلَتين، ووجهها الهادئ، الجميل، الذي يشيخ، كانت تبكي عندما تخبرينها قصصك الحزينة عن حياتك، أو أنّكِ قابلتِ رجلاً مُميَّزاً، أو حققتِ «اختراقاً».

تقول «كم أنا فخورة بكِ». لقد كانت أمّاً طيّبة لا أحد يشعر بوجودها. كانت مثاليّة في كل شيء ما عدا تركك تذهبين.

على أيّة حال، مَنْ تستطيع أنْ تكون بشكل كامل الأم التي تحتاجين إليها؟ بل في استطاعتك أنْ تكوني أمّ *نفسك*. وطفلة نفسك، وتجدين نفسك تقومين بكل تلك الأمور الرهيبة التي قام بها والداك. أحياناً أجد نفسي أصرخ في وجه مولي مُستعينة بصوت أمي.

تقول «كأنكِ جدّتي. إنَّ هذا يُعتبَر إساءة إلى *طفلة*. أنا ذاهبة الآن».

أحقاً قلتُ إنَّ عليها أنْ تشعر بالامتنان من أجل المدرسة لأنَّ الأولاد في البوسنة لا يستطيعون أنْ يلتحقوا بالمدارس؟ *أحقاً* قلتُ لها إنَّ منتجات بينيتون، وغاب، وكالفن كلاين ليست غايات روحيّة؟ *أحقاً* قلتُ إنني وأنا في الخامسة عشرة لم يكن يُسمَح لي بشراء أدوات تجميل مصنوعة حسب الطلب؟ أحقاً قلتُ إنها كانت طفلة مُدلَّلة؟

يبدو أنني فعلتُ. إنَّ عبارة «إساءة إلى الأطفال» لم يكن لها وجود في زمني. ولا عبارة «اغتصاب بموعد» و«ناجية من سِفاح القُربى» و«صحيح سياسيّاً». كيف نجحنا فقط في «الزلّة الفرويديّة» [9]، و«المُداعبة» و«هيمنة الأم»؟ لا بدّ أننا تعرّضنا لتحدّي لفظيّ. كيف نجحتُ في منع أمي من الصراخ في وجهي بعيداً عن عبارة «الإساءة إلى الأطفال»؟

كانت أمي وأم جيري متشابهتَين: صِلة أخرى. كلتاهما كانتا مُحبّتين ولكنّهما جامحتان ولا يمكن التكهّن بتصرفاتهما. كلتاهما تنطلقان إلى عِنان السماء، وفجأة تعودان. وكلانا اضطررنا إلى تعلُّم التعايُش مع هذا.

9- الزلّة أو الهفوة الفرويديّة: شيء ينطق به المرء من دون قصد لكنه يُعبِّر عن حقيقة كامنة في لا وعيه – المترجم.

وبما أننا كنا طفلتين وُسطَيَين، نبحث عن موقعنا وسط كوكبة العائلة، فإنَّنا عثرنا عليه بكوننا مُهرِّجتَي العائلة. ولم تتخلّ أيٌّ منا عن دور الـ *Ridi, pagliaccio* (المُضحكة، المهرّجة). كلتانا كنا نضحك لنُخفي الألم.

وعلى أية حال ما هو الضحك؟ إنه تغيير في زاوية الرؤية. من أجل هذا تحب الصديق: إنّه المقدرة على تغيير زاوية رؤيتك، واستعادة ذاتك الأفضل عندما تشعر بالأسوأ، ويُذكّرك بنقاط قوّتك عندما تشعر بالضعف. وقُل الحقيقة - ولكن من دون خبث. إنَّ الصدق المُحبّ هو سرّ الصداقة.

بدأتْ صداقتنا خلال فصول الصيف الطويلة والنضرة في كونكتيكتْ وازدهرت كعشب صحيّ باسق. أعتقد أنني كنتُ مجرّد أمٍّ مقبولة (على الرغم من أنني فزتُ بشيء يُدعى جائزة «أمّ العام» التي منحها اتّحاد بائعي الزهور في عام 1982). لكنَّ جيري كانت إحدى الأمهات العِظام في كل العصور. كنتُ أشعر بالمهابة عندما أرى الطريقة التي تستطيع أنْ تتكلّم بها مع الطفل. كنتُ في أول الأمر أشعر بالتوتّر في التعامُل مع مولي. كنتُ أخشى من أنني لن أتوصّل إلى معرفة المفتاح إلى حلّ لغز الأمومة. كانت مولي طفلة قوية، لكنني كنتُ دائماً متيقّنة من أنها سوف تختنق من قطعة خبز أو تُصاب بارتجاج في المُخ جرّاء سقوطها من مهدها. وفي شهرها السابع تقريباً، قامت بالشقلبة وهي في كرسيها ذي العجلات فتدحرجتْ إلى أسفل الدرج على رأسها على أرضيّة الآجر. واتصلتُ وأنا مذعورة بطبيب الأطفال.

سأل الطبيب «هل تعاني من فقدان الذاكرة؟».

سألتها، ناسيةً أنَّ مولي لم تبلغ العام من العمر. كانت تبكي. هل كانت تتذكر نُدَب ولادتها أم أنَّ دماغها كان ميتاً؟ وازداد بكاؤها. ثم انتعشَتْ وأخذتْ تضحك.

سألتُ الطبيب «كيف *أعرف* إنْ كانت تعاني من فقدان الذاكرة؟».

«اجعليها تعدّ الأرقام بالعكس».

«إنها لا تستطيع أنْ تعدّها حتى بالترتيب العادي».

«أوه. عمّن تتحدثين؟».

«عن مولي - مولي يونغ فاست».

«أوه، نعم، تلك، ذات الشعر الأحمر. أنا واثق من أنها ستكون على ما يُرام».

كيف يمكنني أنْ أكون أمّاً وكاتبة؟ لطالما كنتُ متيقّنة من عدم قُدرتي على ذلك. وأنني حالما أتوقف عن العناية بالطفلة، سوف تموت. وحالما أتوقف عن الاهتمام بكتابي، سوف يموت الكتاب. هكذا عشتُ خلال العقد الأول من عمر ابنتي - وأنا متزوجة ومُطلّقة. كنتُ دائماً متأكّدة من أنني سوف أُعاقَب على ممارستي الكتابة بانتزاع ابنتي الجميلة منّي. وعندما بدأ جون برفع دعواه المجنونة مُطالباً بحضانتها، أُصِبتُ بالرعب.

أرى تخيّل العقاب نفسه في العديد من روايات النساء. في المعتاد يتعلَّق الأمر بالجنس. في رواية *«آب شهرٌ خبيث»*، تذهب بطلة إدنا أوبراين إلى جنوب فرنسا لقضاء أول عطلة لها بعد سنين عديدة، وفجأة يُقتَل ابنها. الابن يقضي العطلة مع والده، ولكن في تخيُّلات المرأة الوهميّة، لا ينفع إلا أنْ تكون الأم هي السبب. وفي رواية *«الأم الصالحة»* بقلم سو ميللر، تظهر على السطح نماذج مُشابهة. إنَّ البطلة تسعى إلى المتعة ونتيجة لذلك تفقد ابنتها. إنَّ الأسطورة مدفونة عميقاً في نفوسنا. لا يمكننا أنْ نكتفي بتسميتها جنون الارتياب لأننا الجيل الذي تحقّق فيه هذا الكلام. وقد عوقِبنا فعلاً بسبب استقلالنا ونجاحنا في قضايا الحضانة.

كدتُ أؤمن بأنَّ الأشياء العاديّة - كتشخيص مرض طفل مُصاب بالحمّى - تتجاوز مقدرتي. كنتُ أعتقد أنني وُلِدتُ فقط لكي أكتب، وليس لكي أعيش. إنَّ أعظم هدية منحتني إياها جيري هي التحلّي بالشجاعة على الإمساك بزمام حياتي.

لقد ترعرعت جيري في الأصل في نيو جيرزي، لذلك هي تعرف أشياء لا يمكن لطفلة نشأتْ في مانهاتن أنْ تعرفها - كقيادة السيارة وهي في السادسة عشرة، والشراء بالجملة، وكيف تكون أمّاً *حقيقيّة*.

كنتُ أقول لجيري «إنَّ الكتابة *سهلة* إذا ما قورنتْ بالعناية بطفل طوال النهار» - لكنها لم توافق. وبعد أنْ تقابلنا مباشرة، استأجرَتْ مكتباً صغيراً وصارت تتردّد عليه في كل يوم، أملاً في أنْ تُصبح كاتبة. وحملتُ أنا بمولي. تلك كانت لفتة الثناء التي قدّمتها كلٌّ منا إلى الأخرى.

هي لم تُصبح أبداً مُنافستي، ولا أنا أصبحتُ مُنافستها. وعلى الرغم من كوني أمّاً هاوية مع طفلة، لم آخذ حتى شهر إجازة من الكتابة. وكان الوقت في الأصل قد فات بالنسبة إليّ لأنجب ثلاثة أطفال. إذن بالنسبة إليّ كانت طريقاً لم تُطرَق بعد - أمّاً كونيّة تشبه أختي الكبرى. كانت برهاناً على أنَّ العديد من النساء المرحات، المثقّفات، الذكيّات يمكن أنْ يَخترْنَ أنْ تكون الأمومة هي مركز حياتهن.

كانت حياتها بالنسبة إليّ دولاب توازُن. تعلّمتُ منها أنْ مناصرة حقوق المرأة ينبغي أنْ تتضمّن أنْ تكون صانعة منزل، ولا تعني أنها تريد اجتماعاً مُخصَّصاً للرجال فقط، أو محكمة عُليا للرجال فقط. كان يمكن لجدّتي أنْ تُعلّمني هذا، لكنَّ جدّتي درّبتني على ألّا أُصغي إليها.

في منتصف حقبة السبعينيات، عندما أصبحتُ وجيري صديقتين، كانت حركة المرأة في قلب هذه الأزمة بالذات. وكانت موجات الحماس العنيفة في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات قد ضعُفتْ وكان الوقت قد حان لكي تطوِّق الحركة المرأة العاديّة بالأطفال بدل إبعادها. إنَّ فشل بيتي فريدان وغلوريا ستاينم في صياغة حلفٍ كان من أعراض المشكلة. والمرأة التي رفضتْ الحياة العائليّة تحتقر المرأة التي احتضنتْ الحياة العائليّة. ربما الكراهية كانت جزئياً عنباً حامضاً. والحافزُ لإنجاب أطفال قويٌّ إلى درجة أنكِ تتخلّين عنه وتدفعين ثمناً باهظاً.

لقد فهمتْ أعزّ صديقاتي هذا كله قبل أنْ أفهمه أنا بوقتٍ طويل.

«كيف أتطابق مع حركة تقول إنَّ عليّ أنْ أكون بلا أطفال أو مثليّة لكي أُعتَبَر مناصرة لحقوق المرأة؟».

قلت لها «أنتِ تبالغين في حجم المشكلة، وأنتِ أيضاً جزء من المجموع».

لكنها شعرتْ بأنها منبوذة. وكذلك كان حال العديد من النساء. إنني أقابلهم في كل مكان – أولئك المناصرات لقضايا المرأة اللواتي يُحببن الرجال والأطفال. إلى أنْ نعترف صراحةً بالأخطاء التي ارتكبتها حركة حقوق المرأة قبل حلول عقد ردّة الفعل العنيفة، لا نستطيع أنْ نمنع ردّة الفعل من الحدوث من جديد.

بوصفنا نساء ما زلنا في حاجة إلى التمرين لتشكيل تحالفات مع نساء أُخريات. ما زلنا نميل إلى أنْ نرى في النساء الأُخريات منافسات لنا يجب إزالتهن. ما زلنا نمثل قصّة *«كل شيء عن حوّاء»*[10]. المرأة الأصغر سناً التي تُخطِّط لتحلّ محل المرأة الأكبر سنّاً. إن النساء الأكبر سنّاً يجدنَ صعوبة في مدح النساء الأصغر سناً. والرجال يرتقون سُلَّم النجاح يقودهم مرشدون ذكور، بينما نجد نحن سُبُلاً للقضاء على عضوات من جنسنا. ولا يُسمَح لنا حتى بالاعتراف بهذا التخريب لأنه لا وجود له رسمياً. لكننا كلنا مارسناه. وكلما طال صمتنا بهذا الشأن، طال أمد قوة تأثيره علينا.

***

مقتل ديفيد. كيف سمعتُ بمقتل ديفيد؟

حدث ذلك في شهر آذار – ذلك الشهر الرطب المكفهرّ الذي يجلب معه عيد مولدي، وعيد الفصح اليهوديّ، وعيد الفصح المسيحي. في

10- فيلم *«كل شيء عن حوّاء»*، أو *«كل شيء عن إيف»*: يصح العنوانان لأنَّ بطلة الفيلم اسمها إيف، والفيلم يدور حول أساليب حواء الخبيثة والبارعة في السيطرة التي تلجأ إليها من حيَل لتحصل على ما تريد من حواء أخرى. الفيلم من إنتاج عام 1950، ومن بطولة المُبهرة بيتي ديفيز وإخراج جوزيف مانكيفيتش – المترجم.

المعتاد أشعر كأنني وُلِدتُ من جديد في شهر آذار بينما الأيام تطول ويزداد ضوْءُها ويقترب موعد عيد مولدي. ولكن شهر آذار هذا بالذات كانت سماؤُه أقرب إلى الشتاء الذي يرفض أنْ يزول. ومع اقتراب منتصف الشهر، كنتُ أتحدث عبر الهاتف مع صديقي القديم آرفن براون، نتناقش حول اختيار طاقم تحويل قصتي *«فاني هاكاباوت - جونز»* إلى مسرحية غنائيّة، وفجأة وصلته مكالمة هاتفية أخرى.

سألَ «هل أستطيع أنْ أستأذن منك لحظة؟».

«طبعاً». ثم انتظرت فترة بدت كأنها طويلة جداً.

عاد صوت آرفن براون - متغيِّراً كلّياً.

قال بصوت منخفض، ونبرة متردّدة «لقد سمعتُ توّاً خبراً رهيباً، ولا أعرف حتى إنْ كان صحيحاً».

«ما هو؟».

«لقد قُتِلَ ديفيد».

سألتُ «كيف؟ أين؟».

قال آرفن «هذا كل ما أعرف».

قلتُ له إنني سوف أعاود الاتصال به وضغطت زر إعادة طلب رقم جيري السريع في كولورادو.

«ماذا حدث؟».

«مات ديفيد». قالت كأنما من مسافة شاسعة في الفضاء حيث تتوقف الخطوط الهاتفيّة.

قالت «كان ديفيد في حالة انهيار هائل... يا ربي...». كان في صوتها سِمة نهائيّة ختاميّة وكأنها كانت دائماً تتوقّع حدوث هذا.

هتف آرفن عندما عاودتُ الاتصال به، «يا الله!»، وكرَّرَ «يا الله!» وقطع الخط وكأنه ينتظر أنْ يُقال له إنَّ الخبر ليس صحيحاً.

كان آرفن هو أعزّ أصدقاء ديفيد، ولِعِلم بعض المعارف الذين كان

لهم صديق آخر على المسار اللولبي نفسه بالأمر، قاموا بالاتصال به ونقلوا إليه الخبر المشؤوم. وانتشر الخبر في طول البلاد وعرضها عبر الألياف البصريّة.

أول طريقة تعرف بها مجموعة من الأصدقاء مأساة ما: أشبه بسُمّ يتسرَّب إلى المياه الجوفيّة. وفي يوم معيَّن يعلم الجميع. وانهالت المكالمات من كل مكان، أولاً تبلِّغ الخبر، ثم يؤكدون صحّته، ثم يتقاسمون المشاعر. وكل منا يرتعش في وجه رياح الموت القاسية. إنها لحظة الاسترخاء الكبير[11] Big Chill. إنَّ ديفيد الجميل قد مات.

كنا جميعاً في مثل عمر ديفيد تقريباً – ديفيد الذي سبق أجاكس بالتزلج استعداداً ليوم كامل من التزلج إلى أسفل التل. ولم يخطر لنا قط أننا سنعيش أكثر منه. كان ديفيد صلباً كصخرة، لا يعرف الخوف، وصاحب بُنية جسم مثاليّة. كان جديراً به أنْ يدفننا كلنا. والآن لم يعد *يمتلك* أي جسم.

كان شيئاً مُذهلاً ولا يُصدَّق. لم تستطع الحقيقة أنْ تنفذ بأي حال إلى فهم أحد.

ومع مرور الأيام بدأ اللغز يتكشّف. لكنه بقيَ فوق استيعابنا. أخذت المعلومات الصغيرة تتجمَّع كقطرات من الكريستال على عصا برتقال[12] مغموسة بمحلول سُكّريّ.

قام بانزلاق أخير إلى أسفل منخفض الثلج الأوّليّ. كان من فرط التعب بحيث لم يقوَ على حمل حقيبة الطوارئ، فأعطاها إلى متزلّج آخر – نجا من الموت. اهتزّتْ الأرض، ولكن لم يُسمَع أيُّ صوت. وزعقت الدليلة قائلة

11- الإشارة هنا إلى الفيلم السينمائي الشهير الذي يحمل العنوان نفسه، ويحكي عن مجموعة من الأصدقاء الذين ينتمون إلى جيل الستينيات وفرّقت بينهم السُبُل، إلى أنْ اجتمعوا في مواكبة جنازة أحدهم، وبعد الجنازة يجتمعون في شقّة أحدهم ويبدؤون في استعادة الماضي بكل مسراته وتناقضاته ومشكلاته وأحقاده – المترجم.

12- عصا البرتقال: عود من خشب البرتقال يُستخدَم للعناية بالأظافر.

«انزلاق!» ونجا العدد القليل من أوائل المتزلجين على النهر الجليديّ من المجزرة الثلجيّة المندفعة بسرعة مائة ميل في الساعة بثقل إسمنتٍ رطب.

ونجحتْ الدليلة في العودة إلى أعلى وخرجت من بين الثلوج، لكنَّ ديفيد سُحِقَ على موجة صلبة مندفعة من الثلوج، وارتطمت بشجرة. وتدلّى مقلوباً رأساً على عقب، متشابكاً بين أغصانها، وجهازه المُرسِل يبثّ إشارته المُرعبة. مات تسعة أشخاص. وكان ديفيد هو الوحيد الذي لم يُقطَع رأسه أو يتشوَّه. معظم الضحايا لمْ يَمنعْ تناثُرَ أشلاءَهم إلّا البدلاتُ التي يرتدونها.

عاد ما كان يوماً ديفيد إلى المنزل - أو على الأقلّ إلى دار فرانك كامبل للجنازات. كانت الرسالة: اللحم وهم. الروح وحدها حقيقيّة.

تقول صديقتي المُحطَّمة «لقد كانت جريمة قتل. لقد علّموا الدليلة السباحة خلال الثلوج، لكنهم لم يُعلّموا الزبائن الذين يدفعون نقوداً. لقد بدا وجهه وكأنه يقول *اللعنة*، وكان ظهره الجميل مكسوراً، ورئتاه مسحوقتين، وانفجر الشريان الأورطيّ. بدا صدره كالإسفنج في ملمسه - صدره القويّ والجميل. لا بدّ أنه مات من الاصطدام. ولم يعرف ما الذي ضربه». وأخذت تجهش بين ذراعيّ وكأنَّ دموع العالم كلّها ملكها. وقد كانت كذلك. كانت دموعاً لا تنضب.

اقترحتُ، شاعرةً بأنني بلا فائدة بصورة لعينة: «على الأقلّ مات على الفور. لم يُعانِ».

تقول «كان *يعلم*. كان يعلم».

أُقيمتْ الجنازة حيث دفنّا أخاها الأصغر ووالدها.

مشينا جميعاً نترنّح وسط الموكب كالسائرين نياماً.

إنني المسؤولة عن إلقاء الشِعر والملابس الداخليّة من أجل تلك المناسبة الكئيبة. أخذتُ معي جيني لكي نشتري حمّالة صدر سوداء. ليس لديها واحدة، لأنها كانت لا تزال طفلة. تقول، مبتلية «أشتاق إلى

أبي». وتناقشنا حول ما سنرتدي من أجل الجنازة ومن ثم ذهبتُ إلى المنزل. أوصدتُ على نفسي باب غرفة المكتب في نيويورك، وفصلت خط الهاتف، وحاولتُ أنْ أعالج مشاعري الفوضويّة لأرى إنْ كان في وسعي أنْ أُكثّفها داخل قصيدة.

لون الثلج

إلى ديفيد كاريتسكي (14 نيسان، 1940 - 12 آذار، 1991). قُتِلَ في انهيار ثلجيّ.

نُنزِل السماوات
إلى الثلج الأبيض،
الريح تغني،
عاصفة الزمن
تمرّ أمام عينيك،

الأمر يشبه قليلاً
هطل الثلج
في منزل كونكتيكت
في يوم ينهار فيه
العالم.

والضباب الأبيض فقط
يتبعك
ليترك آثار أقدام جديدة
في الظل الأزرق الطويل
للجبل.

ونحن في منتصف الطريق،
مُفضّلين ألّا
نفكّر في الأمر.
أنت تهبط الجبل
أولاً،
في سطوع الضوء،
يُذكّرنا
بأنْ نقبض على حياتنا،
ونعيش والريح
تُصفِّر في آذاننا،
والضوء يُبهر
ذرى سماواتنا.

والأشخاص الذين نحبّهم
ينتظرون في المسكن السفلي
ندوّن أسطراً
على ورق بلون
الثلج.

نعرف أنه لا سبيل
إلى التماسُك
لكنَّ الريح فقط تغني
وخطوط الضوء هذه
تشرق
في الثلج الجديد.

في نهاية المراسم في دار الجنازات، وبعد أنْ توافد الأولاد وجيري وباقي أفراد العائلة على إلقاء الكلمات، ألقيتُ تلك القصيدة - سمّيتُها في ذهني «قصيدة ديفيد». كانت حشودٌ من الناس تتدفّق إلى الشوارع. لم يتزوّد مُعدّو الجنازة بالكراسي. حتى المشاهير - أحياناً خاصة المشاهير - ليس لديهم مَنْ يحزن عليهم إلا الباحثون عن الفضول. وبعد انقضاء لحظة ذروتهم، لا يأتي أحد - ولا حتى صديق. أما ديفيد فلديه أصدقاء لا أحد منّا يعرف شيئاً عنهم. كان هناك أطفال علَّمهم، وبالغون ساعدهم، ورفاق من سنين عديدة، وأصدقاء دراسة، ورفاق عمل لم يكن قد قابلهم منذ سنين عديدة. كلهم وقفوا جانباً ليُبرّروا وجودهم.

ألقتْ صديقتي خِطاباً جميلاً لا يتذكّره أيٌّ منا. وقفتْ هي وأطفالها متعانقين معاً، يتمايلون بحركة خفيفة. كان الجميع يُحاولون أنْ يجدوا بعض الفكاهة وسط الظلام الدامس، لكننا جميعنا كنا نعلم أنَّ الدَّور التالي هو علينا.

هذه الوفاة جعلتني أعي أنني فانية.

كنت أعلم أنَّ ديفيد رغب في أخذ الأطفال معه في تلك الرحلة الأخيرة ومنعَتْه جيري. كنتُ أعلم أنه أراد أنْ يأخذها ورفضتْ. كانت قد ذهبتْ إلى هناك مرة قبل ذلك وشعرتْ بالموت يُخيِّم على المكان. كل ما فكّرتُ فيه هو أنه لم يُرِدْ أنْ يُصبَح عجوزاً. لقد منعتها معرفةٌ مُسبّقة من الذهاب، والآن أصبحت تعرف الإحساس بالذنب لأنها بقيتْ على قيد الحياة.

إنني لم أرَ إلا المظهر الخارجي للحزن، لذلك لا يحقّ لي أنْ أدّعيه بالكلمات. لاحظتُ تردُّد جيري في تركِهِ يذهب - وكأنَّ تركَهُ يذهب سوف يقتله إلى الأبد، وكأنها حارسة ذكراه المُقدّسة وإذا توقّفت عن تركيز تفكيرها عليه ولو لحظة، فسوف ينساب بعيداً.

إميلي برونتي عرفَتْ هذا. إنه ينتابنا في وقت الحزن. نحن *نريد* أنْ ننسى لكي نعيش، لكننا نخشى أنْ يجعل النسيان الموتى يموتون من جديد. وهذا الموت سوف يكون نهائيّاً.

البرد في الأرض، والثلج العميق متراكمٌ فوقك!
أُخِذتَ بعيداً، بعيداً، بارداً داخل القبر الكئيب!
هل نسيتُ، يا حبيبي الوحيد، أنْ أحبّك،
بعد أنْ قطَّعَتْ موجة الزمن الحادة أوصالك؟

خلال الليالي القليلة الأولى، نامت جيري والأطفال في عشٍّ من الحب، كالجراء والقطيطات. ثم اضطروا جميعاً إلى التعوُّد على حزنهم - كلٌّ بطريقته الخاصة.

وصَلَتْ الملابس إلى المنزل، ثم المزالج، ثم «المؤثّرات الشخصيّة». وكان لا بدّ من التعامُل مع الأشياء القانونيّة: النقود، ومواعين الورق. كانت صديقتي تترنّح وهي تمشي فيه، غير راغبة في العيش. أحياناً تكون فترات الصباح جيدة، لكنَّ الليالي كانت دائماً سيئة. والنوم أيضاً كان قد اغتيل. لم يكن في استطاعتها أنْ تفقد نفسها في النوم خشية أنْ تفقد ديفيد، الذي أضحتْ صِلته الواهنة بالحياة الآن ذكرى تحمِلُها.

إنَّ أشدَّ ما تذكّرته كان أنَّ كل شخص أراد منها أنْ تطرح عنها مظاهر الحزن، وتدفن الميّت، وتتزوج من جديد. لكنها كانت في حاجة إلى الحِداد. وحاجتها أصبحت أشدّ إيلاماً بنكران الموت الذي يسود ثقافتنا. كان عليها أنْ تصرخ وتثور وتنتف شعرها. وأهالي نيويورك وأهالي أسبن وجدوا ذلك غير مقبول.

قال الصوت الجماعي للحِكمة الجماعيّة «انفضي الغبار عنك وتابعي. ألا ترَيْن أنّ حزنك طال أكثر مما ينبغي؟». كان هذا السؤال ينطوي على فكرة تقول إنَّ أيَّ زوجٍ يمكن استبدالُه. احصلي على آخر - كما «تحصلين» على كلبٍ جديد. ولكن حتى الكلب لا يمكن «استبداله» إلا بعد فترة حِداد كافية. والجرو الجديد **لا يمكن** أنْ تُحبِّيه إلا بعد أنْ تكتفي من البكاء على الكلب القديم وترسليه إلى البحر مع

دموعك. والجرو الجديد ينتظر بعينين دامعتين إلى أنْ تقومي بذلك بطريقة صحيحة. عندئذٍ فقط يمكنك أنْ تحتضنيه بقلبٍ مفتوح.

يهمس الناس في أُذني بأنَّ سنتين *كافيتين*. ولا أعلم كيف تجرّؤوا على الحُكم على حزن شخص آخر. ربما لم يسمحوا لغياب أيِّ شخص أنْ يؤلمهم كثيراً - أو أنهم اعتقدوا أنَّ عليك أنْ تُنكري مشاعرك لتكوني على اطّلاع. كان الأمر أشبه بتثبيت عينيك وذقنك، كأنْ تبقي لائقة بدنيّاً. كانت المشاعر المُشوّشة مرفوضة كالبدن المُشوَّش.

أنا لم أكنْ مرّةً أرملة، لكنني عرفتُ كم كنتُ مُحطَّمة عندما انتقل جون إلى مكان آخر. كأنني صرت أرملة، تتقاذفني تيّارات ومشاعر لم أسمح لنفسي بمعرفتها من قبل، في أول الأمر لم أرغب في المواساة. لم يُلفِت الفحولُ اهتمامي كثيراً، ولا العشّاق السابقون، ولا طالب الطب، ولا ويل. وكان الجنس مُهدِّئاً مؤقّتاً، ولكن كان ينبغي أنْ أعيش إلى أنْ يعود جلدي المسلوخ إلى النمو من جديد. واستغرق ذلك منّي سبع سنين. وقد تزوّجتُ *فعلاً* مرة أخرى، بعد ذلك بسبع سنين بالضبط.

فجأة جاءني اتصال هاتفي من بربارة فوليت (كنتُ أدوّن هذه الملاحظات في يومياتي، وعندما أنظر إلى ساعة الحائط، أتبيَّن أنَّ خمس ساعات قد انصرمتْ):

«إنني أنطلقُ مسرعة إلى لوكا لأُحضر جيري. لقد أضاعتْ رقم هاتفكِ وعثرتْ على رقمي. لقد أضاعت الاتجاهات المؤدّية إلى منزلك».

أسألُ «كيف حالها؟».

«تشعر بالضعف جرّاء إصابتها بالإنفلونزا وبالتهاب المثانة، كما يبدو، ولكن أعتقد أنها سوف تصبح على ما يرام. أنا في حاجة إلى رقم الطبيب».

أعطيه لها وأجلس من جديد بجوار جهاز الهاتف لا أقوم بأيّة حركة.

أفكّر في أنّه أمرٌ غريب أنني لم أعُد أجلس بجوار الهاتف في انتظار مكالمات من رجال، بل أنتظر صديقاتي من النساء لكي تساعد إحدانا الأخرى. إنها حلقة مذهلة، جيري المستعجلة جداً. «أنا في بهو فندق في لوكا. بربارة أعطتني توّاً رقم هاتفك. كنتُ قد تركتُه مع الاتجاهات على منضدة سيّارة مُستأجَرة في روما. وأُصِبتُ بالرعب. ثم عثرتُ على رقم آل فوليت على قُصاصة من الورق».

«لا تشرحي لي! إنَّ بربارة قادمة إليك لتنقلك إلى الطبيب».

بعد ذلك بنحو ساعة، تصل قافلة من السيارات، تُعيد ترتيب الصخور على دربنا.

يسير في المقدّمة سائق سيارة أجرة (بربارة وجيري تجلسان في المقعد الخلفي)، وبعده يأتي ابن آل فوليه بالمعموديّة، يقود سيارة جيري، ثم وكيل أعمال فوليت، يقود سيارة كين فوليت، التي تحمل لوحة لندن.

انهارت جيري بين ذراعيّ، وقد بهرتها أشعة الشمس والمشهد. وأقودها إلى السرير، وأُحضِرُ الكثير من الماء، وشاي بالنعناع، ودواءَها. تبدو واهنة ومُتعبة. نقوم أنا ومارغريت بنقل ملابسها المُلطّخة بالدَّم إلى حوضٍ من الماء البارد.

أقول «سوف أغسلها».

تقول «إكراماً لله، *لا تفعلي*».

أقول «إنه مجرد دم. كيف نخاف الدم بعد كل تلك السنين من الحيض والأمومة؟».

تُغمضُ عينيها المُرهقتين.

أقول «حاولي أنْ تنامي».

وتغيب عن الوعي.

لاحقاً يرتفع القمر - كان أكثر اكتمالاً قليلاً في تلك الليلة. أجلسُ

وأراقبه بينما النساء الخمس الأخريات في المنزل مستغرقات في النوم.

ماذا أريد من هذا القمر العتيق؟ أريد منه أنْ يعتقني. لم أعد أرغبُ في حياة التشرُّد هذه التي تُمليها دماء النساء، وجاذبّية حركة المد والجزر، وجاذبيّة القمر. أريد من الجنس أنْ يُحرّرني. وأريد أنْ أتحرَّر من ذلك المكان في داخلي الذي يتشبّث بالرجال ويجعلهم مركزَ كلِّ مغامرة.

إنني مستعدة الآن لتجسيد شخصيّة إريكا أورلانـدو (ولا أعني بكلامي عالم ديزني). أنا مستعدّة لأنْ أكون مخلوقاً خنثوياً، أنتقل من قرن إلى قرن، داخل خزانة ملابس مملوءة بالتنانير وبنطلونات ركوب الخيل، وسترات الردينغوت والأوشحة، وقبعات ثُلاثيّة الزوايا والقلنسوات، وأوشحة العنق وربطات العنق، والشعر المُستعار بأنواعه. أنا مستعدّة أنْ أتكلَّم طوال الطريقّ لا يتعرّف عليّ أحد ككائن ذي ميولٍ جنسيّة، أغنّي أغنياتي من تحت خِمار، أو قِناع، أو غطاء للرأس - كتلك التماثيل الغامضة التي تسكن حديقة صديقي في فينيسيا. سوف يكون شيئاً مُحرِّراً أنْ أكون بلا جنس كالموت - أحمل صِفات رجل وامرأة كما يُناسِب إغوائي الفوريّ.

هذا لا يعني أنني لم أعد أحبّ الرجال، بل يعني أنني أريد أنْ أختبر تجربةَ ألا يمسَسْني الجنس حتى أستطيع أنْ أعرف ما هو الحبّ *حقاً* - الحبّ الذي يجمع كل شيءٍ بين ذراعيه حتى نهاية الرحلة.

خلال الأيام القليلة الأخيرة كنتُ أُعيد قراءة كتابٍ قرأته في عشرينيات عمري - إنه *«هندرسن ملك المطر»* من تأليف شاؤول بيلو. ومن جديد، هو مغامرة تشرُّد. وفيها يذهب البطل، لأنَّ قلبه يخفق دائماً بقوة *أريد! أريد!*، إلى إفريقيا لأسبابٍ حتى هو نفسه لا يعرفها. وهناك يُقابل عدداً من رجال قبائل يأخذونه في رحلة روحيّة وخلالها يُخلِّص روحه. وفي نهاية قِصّته، ينسب إلى الحب قدرته على إعطائه كل تقدُّم روحيّ أحرَزَه في حياته. ويبدو أنه يعني بالحب حبّ المرأة والأطفال. وقبل أنْ يذهب إلى إفريقيا لم يكن لديه أي أصدقاء من الرجال. ورجال إفريقيا هم الذين علّموه أنْ

يثِق في رجال آخرين. وكانت حياته مع الرجال - بدءاً بوالده فصاعداً - في مُعظمها ساحة قتال. والنساء كنّ *الحب*. لقد زوّدته المرأة بالنصف المفقود.

ربما يعزو هندرسن ملك المطر جمال حياته إلى الحب، أما النساء، فإنَّ الحب الجنسيّ هو مسألة أشدّ خطراً. قرون من الموت في المهد، ميتات الأطفال، وأعداد هائلة من الوعود المنكوثة من الرجال، علَّمتنا أننا لا نستطيع أنْ نثق بالحب الجسديّ أكثر من بقائنا على قيد الحياة.

بالنسبة إلى المرأة، قد يكون الحبّ الجنسيّ رفاهية تنالها في المنزل في آخر الرحلة. وبالنسبة إلى الرجال، هو ضروريّ على درب تشرّدهم. إن هندرسن يعود إلى المنزل طلباً للحب. ويوليسيس وتوم جونز فَعَلا الشيء نفسه. أما بالنسبة إلى النساء فإنَّ هذا النوع من الحبّ هو «حفرة بريا الضخمة المملوءة بالقطران» - تلك البركة الصمغيّة التي تستطيع أنْ تلتهم كل شيء ما عدا عِظامنا.

في هذا الموقع من التاريخ، ربما لا نستطيع أنْ نتحمّل تكاليف ذلك الحبّ المُستسلِم. ربما يأخذ منا الكثير. وبوصفنا نتمي إلى جيل لسعة السوط، فإنَّ ورطتنا كانت دائماً كيف نحبّ وفي الوقت نفسه كيف نحبّ أنفسنا.

إنَّ جزءاً منّا يريدُ أنْ نحبّ كالآلهة - ببرودة ومزاجيّة - وجزءاً منّا يتحالف مع كالي، التي تأكل عشيقَها وتُحيط رسغها بجمجمته. وجزءٌ منا يريد أنْ يُحبّ مثل جونو، تُجوِّف الرجال الفانين، وتلهو بهم، ثم تُطلقهم، بعد أنْ تحوّلهم إلى كهوف تتحطّم فيها أمواج البحر، وإلى قضبان ذكرية ضخمة من الحجارة، أو حتى إلى خنازير، إذا كنا رحيمات. وجزءٌ منا يريد أنْ يكون أثينا وديانا، اللتين لا تحتاجان إلى عشّاق، وتتّصفان بدل ذلك بالذكاء وبالبراعة في الرماية.

القمر نفسه، برأسه الفارغ الكبير، ينصح بالبرودة. يقول، *إنَّ التشرُّد ينتهي بالعقل. والعقل دائماً يحكمُ الحبّ.*

ولكن أهو على صواب؟ في نهاية المطاف، قد نتوصل إلى نوع

آخر من الحب وبما أنه مشحون بالحب الجنسيّ، وحب الأم، وحب الارتباط، قد نتوصّل إلى الحب الذي يربطنا بالأبديّة. ولكي يحدث هذا، ينبغي أوّلاً *أنْ نؤمن* به. وهذا يحدث ببطء أولاً، ثم بتردُّد، ثم بشغف. يجب أنْ نؤمن بأنَّ الحب الجسدي ليس كافياً. حينئذٍ يُصبح محيط الروح الذي نسبح فيه جلياً.

يستلزم الأمر قواعد انضباط معيَّنة لاختراق عمانا الاعتياديّ عن كل شيء ما عدا المادّة. قد يكون الامتناع عن شرب الكحول وتعاطي المخدرات ضرورياً للبعض. والامتناع عن الأكل لأسباب ماديّة قد يكون ضرورياً للبعض الآخر. إنَّ الزهد يُساعدنا في رؤية الدرب بوضوح أشدّ، لكنَّ القضيّة لا تتعلّق أبداً بالشرب والأكل. إنَّ الامتناع عن تعاطي بعض الأشياء يُبيِّن الطريق فقط الذي كان موجوداً هناك دائماً.

***

بعد ذلك بأسبوع شُفيَت جيري تماماً. وتمشّينا معاً على الدرب الصخريّ من منزلنا وحتى الدرب الريفيّ نحو (أُقسِم) مطعم دانتي. كان الدرب يُصبح صخرياً ووعراً أقلّ مع مرور كل يوم والريف التوسكانيّ يُصبحُ يانعاً مع اقتراب شهر آب. كانت ثمار البندورة تتدلّى، وعناقيد العنب القرمزيّة، وشجرة ورد وحيدة مثقَلة بالرؤوس العطرة.

نحن نتحدث عن الحب، كالمعتاد، وعن الاستسلام.

تقول جيري «الأمر لا يتعلَّق بالامتناع عن الشرب، بل بالتخلّي عن الصراع - بألّا تعتبري نفسك صخرة على درب الطبيعة، بل الدرب نفسه».

تذكّرتُ، وقد فاجأني جمالُ العبارة، صفاءَ ذهني عندما كنتُ واعية: صفاءٌ هادئٌ ألهمَ كل مَن حولي ما عدا أعزّ صديقاتي على وجه الخصوص.

لماذا فقدتُ رزانتي؟ ليس لأنني كنتُ أسرف في الشرب، أو لا أتحكّمُ

في نفسي. والشرب ليس مادة إدماني *الوحيدة*. يمكن للعمل أنْ يكون إدماناً، أو الطعام، أو القلق، أو العقاقير الموصوفة، أو إنفاق المال، أو عدم القدرة على قول لا، أو الرجال. إنَّ ما أُدمن عليه يُغيِّر أشكاله لكي يخدعني. إنه يتسلَّل إليّ - ماكراً، قويّاً، يحمل معه أشياءه الخاصة التي ينكرها.

ولكن ذات مرّة كنتُ أتّصف بهدوء حقيقيّ وقد نقلْتُه إلى أعزّ صديقاتي عندما كانت حزينة على زوجها الجميل، الذي مات ميتة لا معنى لها في انهيارٍ ثلجيّ. كنتُ الصخرة التي تتشبّثُ بها بينما الثلوج تتدفق من حولها مع سرّها الرهيب. والآن هي تُعيد إليّ ذلك الثبات. إذا كنا كلنا من خلق الله، فإنَّ أصدقاءنا هم الذين يُذكّروننا بهذا.

إنَّ درب التشرُّد يمكن أنْ يكون أيضاً مجازاً لطريق عودة الروح إلى باريها. واللصوص على طول الطريق - لصوص المال، والحب، والسِحر، والزمن - هم مجرد عقبات إنسانيّة لمنع المُسافرة من إدراك أنها هي *نفسها* الدرب.

إنَّ الدرب يكون شديد الانحدار وسحيقاً كما نجعل منه، ومستوياً ومنساباً كما نصنّفه، وثابتاً بقدر ما نكون نحن كذلك، ومُمهَّداً أو وعراً حسب إرادتنا في اجتيازه.

في قصة تشرّد حقيقيّة، يكفّ البطل عن الصراع *ويُصبح* هو الدرب.

في سن الخمسين، نحتاج إلى هذه المعرفة أكثر من أي شيء آخر.

في توسكاني كنتُ وجيري نتأخر في النوم ونتقاسم أحلامنا عندما نستيقظ. كانت أحلاماً عن حيوات قديمة، وعلاقات حب قديمة، وعن حقول من الثلوج تميل إلى الزُرقة، وجثث مُقطّعة الأوصال وسيارات مُبعثَرَة الأجزاء على المنحدرات. أحياناً كانت أحلامنا تغزو نوم كل منا الأخرى. وقرأتْ كلٌّ منا للأخرى من دواوين شِعر وتأمّلات. وحلّلت كلٌّ منا للأخرى متاعبها، كما نفعل دائماً. وكنا نضحك على كل شيء.

أيضاً كنا نتقاتل حول كل شيء - كأُختين حقيقيّتين. تقاتلنا من أجل النقود، وغرف النوم، وحول السيارة التي يجب ركوبها. وسببُ كلّ قتال في الحقيقة من أجل شيء آخر - في المعتاد عن التنازُل. أنا أردتُ أنْ أكون الأولى في لائحة اهتماماتها وهي أرادت أنْ تكون الأولى في لائحة اهتماماتي. طلبتُ كامل انتباهها، وحبّها، وكل عنايتها. أردتُ منها أنْ تكون أمي، وأبي، وأختي. وهي أرادتْ الأشياء نفسها مني. أرادتْ مَنْ يُطعِمها، ويعتني بها، ويرعاها بلا حدود. أرادت مَنْ يدعَكُ لها ظهرَها، وقصائد، ومُعجَّنات، وأنْ تُترَك وشأنها. أرادتْ أنْ تكون في ترتيب اهتماماتي قبل الكتابة، وقبل طفلتي، ورجُلي. وأنا لم أُرِدْ منها أقلّ من ذلك.

في أول الأمر كانت مريضة، واعتنيتُ بها. ثم شعرتُ بالغيرة من الاهتمام، فقامت بالاعتناء بي. وغصنا إلى أعماق كهف صداقتنا البدائيّة. شعرنا بقدرٍ كافٍ من الحب لنثور غضباً ونتقاتل، لنكشف عن حناجرنا العارية ونُبرِز أنيابنا المُجرّدة، وتقوم الصداقة بقفزة أخرى إلى الأمام نحو الألفة. فمن دون غضب، لا تكون هناك ألفة. لقد تعلّمتُ هذا من زواجي - الرابع - الذي يمكن أنْ يدوم.

عقد الإيجار انتهى اليوم. الجميع غادروا عند الفجر ما عدا أنا وكين. مولي بلغت الخامسة عشرة من العمر ويومين. وفي الصباح الباكر من هذا اليوم شكرتني على «أعظم فصل صيف أقضيه في حياتي!». ثم طارتْ إلى الوطن إلى والدها مع مارغريت وصديقاتها. وجيري أيضاً كانت قد طارت إلى الوطن. وأنا وحدي فوق التل التوسكاني عند الساعة السابعة صباحاً، أراقب نجم الصباح يتلاشى داخل لون الشمس المُشرقة الورديّ.

الديك يصيح. وزيز الحصاد يستعد لاستقبال نهار حارّ.

أشجار السرو ما زالت قاتمة، وأشجار الزيتون ما زالت بلون فضيّ كليل، والكستناء ما زالت خضراء.

القطة السوداء التي كنا نُطعمها طوال الشهر تجوس المسطبة الحجريّة، تهسّ في وجه القطة البيضاء والبُنيّة التي اقتربت لتتقاسم الهِبة السخيّة. إنهما تعيشان على هذا التلّ، ويُطعمهما رجل الإطفاء وزوجته، صاحبا المنزل، وعائلة إنكليزيّة أخرى، لكنهما لا تنتميان لأحد. وهذا التل *يخصّهما*، ولا يخصّنا. إنّ الإقليميّة تحكم مملكة الحيوان ونحن لا ننتمي إليها إلّا على مضض.

حزمنا أمتعتنا. سوف نترك النبيذ وزيت الزيتون وأكداس من الكتب من أجل المنتقلين التالين لكي تحتل هذا الرف الصغير المواجه للسماء. الدرب ما زال وعراً، ولكن ليس بالنسبة إلينا.

لا شيء من هذا لنا. لقد استأجرناه مدة شهر وها نحن ننتقل. أشجار الزيتون، والسرو، والجوز (بثمارها التي ما زالت طازجة)، ليست لنا، ولن نكون موجودين وقت الحصاد. سوف آخذ قصائدي وصوري الفوتوغرافيّة، والفصول التي كتبتُها هنا، وأتابع طريقي إلى الغاية التالية.

كل الأشياء التي أثارت جنوني - الخادمة التي لا تغسل الأطباق، بل فقط المناشِف من أجل المُستأجرين التالين، والمالك الذي يترصّد، متظاهراً بأنه يُصلِح مصفاة البركة، لكنّه في الحقيقة يتجسّس على ابنتي ورفيقاتها وهن يتشمّسن، والفرن الذي يرفض أنْ يشتعل، والدبابير التي تحتشد أينما قطعنا ثمرة مشمش أو بطيخ، أو فتحنا علبة كوكا، وشجار القطط شبه البريّة - هذه الأشياء كلها أبهجت مولي في نهاية المطاف وملأتْ خزينة ذاكرتها بقطع نقديّة لامعة.

وتقول «إننا دائماً نقضي فصل الصيف في إيطاليا، لكي تتمكّن أمي من الكتابة».

وكل مناوشات الأم والابنة سوف تُنسى مع تراكُم الذكريات.

طبعاً تبادلنا الصراخ في السيارات من أجل خرائط الطريق، وفي المطبخ حول الأطباق القذرة، وفي المتاجر حول أسعار السِلع. وطبعاً أوصلتني إلى حافة الجنون بسبب حاجاتها التي لا تنتهي، وأنا أثرتُ

جنونها بحاجاتي - خاصة حاجتي إلى الصمت وهو أمر لا تفهمه المراهقات على الإطلاق.

أحياناً أشعر بأنني بتّ متقدّمة في السن إلى درجة بحيث لم يعُد في مقدوري التعامل مع ابنة في الخامسة عشرة. وأحياناً أشعر بأنني شابّة إلى درجة أنَّ مجرّد وجودَها يدفعني إلى الادّعاء أنني بالغة.

كيف *وصلتُ* إلى سنِّ البلوغ؟ أحياناً أتخيّل أنني ما زلتُ جالسة على سفح التل، أُخطِّطُ للانتقام من عالم الراشدين. وما زلتُ أقول «ماما» عندما يُصيبني الخوف - على الرغم من أنني لم أخاطب أمّي أبداً هكذا وعلى أية حال فإنَّ «ماما» مُشوّشة الآن إلى درجة أنها تعجز عن مساعدتي. ومولي تحتاج حقاً إلى أنْ تعرف أشياء نسيتُ أنني أعرفها. على سبيل المثال لا بأس في الاتصال بفتى أو كيف تستظهر شيئاً أبله من أجل اختبار الجدارة المدرسيّة، ومتى تجرّب أشياء جديدة مُخيفة ومتى تتخلّى عنها حِفاظاً على الحياة. إنني أستيقظ وأتذكّر أنْ أكون بالغة من أجلها. وتستدعيني لكي أتخلّى عن أساليبي الطفوليّة.

لديّ خُطط كثيرة. تركتُ *«الخوف من الخمسين»* وقفزتُ عائدة إلى روايتي التي تدور حول المستقبل، وكرّستُ نفسي لموهبة كتابة القصائد من جديد، وتأليف بعض القصص القصيرة، والانتهاء من مسرحيَّتي الغنائيّة، وإكمال كتابي عن التأمّلات. وفي صباح كل يوم أُشدِّد على حياتي وأدعُ نفسي أقضي يوماً ممتعاً، وأتفرَّغ في كل ليلة لكي أحلم الأحلام الضروريّة، وأستمدّ متعةً من خِدمة الذين أُحبّهم، وأتخلّى عن الإحساس بالذنب عند الرفض عندما يطلبون إلغاء نفسي، والاستمتاع بالتعليم، وفي التحدّث إلى القُرّاء المُحبّين (الذين يعتقدون أنَّ لديّ أجوبة في حين أنَّ كل ما أملك هو حفنة قليلة من الأسئلة المُحدَّدة)، وأمنح نفسي وقتاً في كل يوم للمشي أو لارتياد المتحف، وأكون كريمة لأنَّ ذلك يُذكّرني بوفرة ما وُهِبْتُ، وأكون مُحبَّة لأنَّ هذا يُذكّرني بألّا أشعر بالغيرة من الذين فقط يبدو أنّهم يملكون أكثر مني، وأتمسّك

بحياتي، وأُنفِّس عن غضبي، وأُبارك العالم المعروف وغير المعروف، وأبارك تل أشجار الزيتون، وأبارك كيزان الصنوبر وهي تسقط من مظلات أشجار الصنوبر، وأبارك أشجار الجوز التي ما زالت خضراء، وأبارك الوهج الورديّ للشمس، التي قد لا أشاهدها في صيف آخر، أو حتى في يوم آخر.

إذا جرؤت على أنْ أتذكَّر، في كل يوم، أنني هنا دخيلة، وأنَّ هذا المنزل، وسفح التل هذا، وهذه الدقائق مؤجَّرة لي، وليست موهوبة، فلن ينالني اليأس. إنَّ اليأس هو من نصيب الذين يتوقعون أنْ يعيشوا إلى الأبد.

أنا لم أعُد كذلك.

-14-

كيف تتزوَّجين

«إنَّ الزواج الحقيقيّ للعقول الحقيقيّة يعني بالنسبة لكل زوجين أنْ يمتلكا حساً فكاهياً أو ساخراً متناغماً، بحيث أنَّ نظرتيهما معاً إلى أي موضوع تتقاطعان كمصدريّ ضوء مُوجَّهين».

• **إديث وارتون، *«نظرة إلى الخلف»*.**

«ولكن مررتُ بتجربة الحب مراراً ولا أعتقد أنها صمدت في وجه البلى والتمزُّق».

• **إنيد باغنولد، *«سيرة ذاتيّة»*.**

قابلتُ زوجي على ناصية الشارع، وكدتُ أضربه بسيارتي. كنتُ على موعد معه دون أنْ أعرف هويَّته (أعدَّه صديقٌ ظريف) وكنتُ حتماً لا أرغب في أنْ أتورَّط في حادث سيارة الشخص الذي أرتبط معه بموعد.

على مائدة العشاء، شهقَ غاصّاً بطعامه بعد أقلّ من دقيقتين، وكان يتكلَّم في الوقت نفسه. حاولتُ أنْ أتذكّر مُناورة هايمليخ[1] - على الرغم من أنه ربما كان سيُفضّل مناورة أخرى. ولا بد أنني أُعجِبتُ به لأنني تركته يُكلِّم نفسه طوال الليل. في المعتاد *أنا* التي تُكلِّم نفسها.

1- مناورة هايمليخ: طريقة في الإسعافات الأوليّة من أجل إخراج جسم غريب في القصبة الهوائيّة، وذلك بإحداث ضغط داخلي مُفاجئ على الجزء العلويّ من البطن.

عند تلك النقطة كنتُ لا أزال على صِلة بعدد من الفحول نحيلي الخصور في العديد من القارات، ولم أرَ أنني *في حاجة* إلى زوج، ولكن كنتُ حتماً في حاجة إلى صديق. وأشعر بالحرج وأنا أعترف بهذا، لكنني تزوّجت منه بعد ذلك بخمسة أشهر. أبحرنا إلى البحر المتوسط لقضاء شهر العسل. ثم كان علينا أنْ نتعرَّف على بعض. وأنا الآن أنصح بفترة أطول من المغازلة.

حتى الآن، نُصاب بالتهاب الحنجرة من كثرة ما نتبادل الصراخ: وهذا هو السرّ الصغير القذر للزواج الدائم.

لن أُطلّقه أبداً - كيف أفعل وهو مُحامٍ مُتخصّص في قضايا الطلاق - ولكن في وسعي ربما أنْ أُطلِقَ النارَ عليه. هكذا يعرف اثنان أنهما متزوجان.

يبدو أنه يريد الأفضل لي (وأنا أريد الأفضل له). سجلّه في السجن لا يمكن العثور عليه في أي جهاز كومبيوتر. إنه يتّصف - شهيق - بـ«شخصية طيبة»، كما كان يمكن لأمي أنْ تقول إذا ما قالت أي شيء بهذا الخصوص. إنني أكره أنْ أكتب أي شيء جيد عن هذا الزواج، لأنَّ القاعدة المعروفة عن الحياة هي أنَّه كما أنَّ أية مقالة عن «زوجين سعيدين» في أية مجلّة تُسبِّب طلاقاً فورياً، كذلك تُسبّب كتابة أشياء جيدة عن زوجك في كتاب مشكلات زوجيّة (كذلك تفعل كتابة أشياء سيئة).

بعد لقائنا الأول انا وكين، اكتشفتُ بصورة ما أننا نتحدّث معاً أينما كنا في العالم. فقد ذهبتُ إلى كاليفورنيا لأزور وكيل أعمالي، الذي كان يُقيم هناك لفترة وجيزة من الوقت، ومن دون أنْ أقصد حقاً اتّصلتُ بكين. وذهبتُ إلى إيطاليا، في الأصل بُغية الالتحاق بمدرسة للطبخ في أومبريا، لكنَّ الهدف الفعلي كان مقابلة عشيق لا أعثر عليه وفعل المستحيل لكي لا يُقابلني إلا في ليلة واحدة - واتّصلتُ بكين. وانتظرتُ جهاز الهاتف الأومبريّ غير الموثوق كي يرنّ وكان المتصل دائماً هو كين. وفكّرتُ في الذهاب إلى البندقيّة لمقابلة الآخر ولكن بدل ذلك حضرتُ موعداً مع كين في باريس. في الحقيقة كان زوج المستقبل البارع قد أرسل إليّ برقياً بطاقة

سفر إلى باريس، وعلى الأثر أذهلتُ نفسي إذ طرتُ لكي أقابل رجلاً متوفراً في الوقت الذي كان فيه رجلٌ غير متوفّر ينتظر في إيطاليا. لا بدّ أنَّ شيئاً قد تغيَّر في عقلي المازوشي الصغير، أو أنني كنت - ويا للرعب! - *عاشقة*.

لكنني لم أرغب في أنْ أكون عاشقة. أردتُ فقط أنْ أُثير *الإعجاب*. إنَّ الحب لم يُثبت إلا أنّه مُسبِّبٌ للمتاعب. وكما قالت إنيد باغنولد، لم يتحمّل البلى والتمزُّق. لذلك عندما قابلتُ كين، قرّرتُ أنْ أنفض يدي من الحب. في الماضي، كنتُ في المعتاد أتزوَّج وأنا أصالب إصبعيّ.

في الليلة الأولى لمقابلتي كين، كنتُ قد رجعتُ تواً من ذلك الزفاف الذي أُقيم في كنيسة القديس موريتس حيث كان أفضل أصدقائي (من الذكور)، الروماني الجميل، قد تزوّج أميرة شقراء جميلة وبارعة - تحمل لقب *فون وتزو* لكي تُثبت ذلك. كانت في عشرينيات عمرها. وكنت في الأربعينيات. وكان هو في الثلاثينيات. وبصورة ما أسعدني أنْ أقابلَ رجلاً في نفس عمري. وأعجبني شكل كين: أشبه بدبٍّ يتعثّر نحو موقع معسكر في غابة يلوستون.

إنه رجل ضخم، طويل القامة، مُشوّش الشكل له شارب أسود ولحية، وعلى رأسه كتلة من الشَعر الأسود (يخطّه الشيب على الحواف)، ويرتدي بدلة من ثلاث قطع ويضع ربطة عنق فراشيّة حمراء اللون، كان أشبه بحيوان أليف يشمّ الهواء. كانت عيناه بنّيتَين ودافئتَين. وبدا أنه في حاجة إلى أنْ يخرّ على ساقيه (كما تُطوى مظلّة) لكي يتمكن من ولوج سيارتي. التفت وابتسم لي كقطّة تُحدِّقُ إلى طبق من الكريما.

قال، بارتياح واضح، «مرحباااااا». أكان يتوقّع مصّاصة دماء أَمْ بوديسيا[2] أم ملكة أمازونيّة[3] تحمل رمحاً ولها ثديٌ واحد؟

2- بوديسا، أو بوديكا (القرن الأول الميلادي): ملكة إنكلترا البربرية. قادت تمرّداً ضد الرومان وأحرقت مدناً وقامت بأعمال وحشية كثيرة. لكنَّ تمرّدها فشل، فقتلتْ نفسها بالسُم - المترجم.

3- أمازونيّة: صِفة للمرأة القوية التي تقوم بأعمال الرجال وتقاتل مثلهم - المترجم.

كان صديقي المُضحك، لويس فرومكيس، قد أخبرني أنّه في مثل سني. وذكي. ولطيف. قال لويس «إنه مزيجٌ نادر. عادة يكونون إما أذكياء أو لطيفين، ولكن ليس الاثنين معاً».

«آمل ألّا يكون أعزبَ مرغوباً فيه؟».

حيّرتْ هذه العبارة لويس - كما هو متوقَّع منه. كيف كان له أنْ يعرف أنني أكره «العزّاب المرغوبين» - الذين يتبيَّن في المعتاد أنهم مُدمنون على العمل ويخافون الجنس ويريدون منكِ حلَّ مسألة الاتّفاق قبل الزواج منذ اللقاء الأول؟ وكنتُ قد قرّرت قبل ذلك بوقتٍ طويل أنَّ الإيطاليين غير المؤمنين، وأنَّ الممثلين العاطلين، والورَثة من البروتستانت الأوروبيين الذين لم يبلغوا سن الرشد، والرجال المتزوجين هم الأشد تمييزاً جنسياً.

وقد حلّلت طبيبتي النفسيّة ذلك بأنه حساسيّة ضد الزواج - وهو في الحقيقة تولُّه أوديبيّ بوالدي الرائع. كانت الأفضل في إسداء النصائح مع أنها كانت دائماً تحتج وتقول إنها لا تفعل هذا. كان جلياً من تستحسنه ومن لا تستحسنه.

كانت دائماً تقول عندما أُشيرُ إلى رجل ثريّ أو مشهور، أو كليهما، وكنتُ أخرجُ معه، ولو لفترة وجيزة، في الماضي: «وأين هو *الآن*؟»، وتنتصب أُذناها كأُذنَي إحدى عقيلات الكاتبة إديث وارتون.

نظرتْ إليّ وكأنَّ أصحابي من الممثلين الجوالين وأزواجي الضالين *مُحرَّمون*.

أرادت مني أنْ أتزوج، وأنْ *أحصل* على بطاقات ائتمانيّة بدل أنْ أوزّعها. كانت ترى أنني أنتثر كحبّات اللؤلؤ أمام الخنازير، ورأتْ أنني أبخس نفسي حقّها. ربما فعلتُ. لكنني كنتُ أحبّ الجنس، ومُعظم منْ يُسمَّون بالرجال المرغوبين كانوا يرتعبون حتى الموت من ذلك.

سأل لويس «لو أنني كنتُ أعزب، هل كنتُ سأصبحُ مرغوباً؟».

قلتُ وأنا أضحك «حتماً لا».

بدا مرتبكاً، لا يعلم إنْ كان هذا ذمّاً أم مديحاً.

قال كين «لقد أخبرتُ لويس بأنني لا *أريد* أنْ أُقابل شخصيّة مشهورة، لكنه قال: إنها ليست من هذا النوع».

«أتعني أنكَ كنتَ *تحكمُ* عليّ قبل أنْ تقابلني؟».

قال، وهو يدفع مقعد السيارة نحو الخلف ويمدّ ساقيه: «دائماً كلّ شخص يحكم على كل شخص آخر. وكلما تناقشتُ مع مُحامين آخرين يكون النقاش حول منْ هو صاحب القضيب الأطول. أنتِ تعلمين هذا. إنَّ كتبكِ كلها تدور *حول ذلك*».

«إذن لماذا تردّدتَ في مقابلتي؟».

«ربما بسبب الخوف. ظننتُ أنكِ قد تكونين مفترسة رجال. من الواضح أنك لستِ كذلك».

أكان ذلك ذمّاً أم مديحاً؟ مَنْ يدري؟ وعرفتُ على الفور أنه صادق وعصبيّ إلى أقصى مدى. لم يكن يستطيع أنْ يبقى هادئاً. كان أشبه بتيغر[4]، بدا أضخم بسبب القفزات.

ركنتُ السيارة في المرأب في الناحية القصوى من الجادّة الخامسة ومشينا حتى مطعمٍ في قلب المدينة أسعاره باهظة بصورة مروّعة – ويوشك أنْ يُصبح ضَحيّة أزمة اقتصاديّة في أواخر الثمانينيات.

رفضَ الجلوس على الطاولة الأولى، ثم الثانية. وجلسنا على الثالثة. حسبتُ أنه من سكان نيويورك.

قال «كلا – بل من منطقة غريت نيك، لكنني كنتُ في سنترال بارك ويست وأنا طفل صغير. أتذكّر أنني كنتُ أرمي قسائم المؤونة – بالعلامات الحمراء – من النافذة، أو هم تذكروا هذا. فقد وُلِدتُ في أثناء الحرب».

قلت في نفسي، وأنا أيضاً. هل أجهر به؟ أم كان من المتوقّع مني أنْ أكذب بشأن سنّي؟ وأنا في أربعينيات عمري لم أكن قد اتخذتُ قراري

4- تيغر: شخصية كرتونيّة لنمر – المترجم.

بعد. كانت طبيبتي النفسيّة تؤمن بوجوب عدم الجهر. ولم أتفق معها. مَنْ أنا إذا لم أكنْ شخصاً وُلِدَ في قلب أتون الحرب العالمية الثانية؟ إنَّ سنّي هو جزء من هويتي. لكنَّ النساء، حتى المرغوبات منهنّ، دائماً يخشين أنْ يَبدين غير مرغوبات. إنَّ الصدق يستغرقُ وقتاً طويلاً. ولما لم أكن واثقة كيف أكون صادقة، تركته يتكلَّم. لم أُلقِ خطابي الحرون، ولم أغنِّ لأحصل على عشائي. وموعدنا الأول خلا من أي أثر للمبارزة اللفظيّة لنيويورك على طريقة *أتستطيع أنْ تتفوّق على هذا؟*

روى لي كين قصة حياته، بدءاً بحادثة قسائم المؤونة فصاعداً. حكى عن والديه، والمدارس التي ارتادها، والأعمال الأولى التي تولّاها – الصحافة، الأفلام – إلى أنْ أصبح محامياً. حكى عن زوجتيه السابقتين، وابنة زوجته المحبوبة، والعلاقة طويلة الأمد التي انتهت توّاً، وعن حبّه للطائرات وجمع الكتب النادرة. هذا كله سقط من فمه مع الكثير من الانتقاص من الذات. والكثير من التظاهر بالشجاعة. وهو يشبهني كثيراً.

لم يكن يختبئ مني. كثير من الرجال الذين عرفتهم اختبئوا مِنّي ولم أعِ ذلك.

أذهلَني كونه قائد طائرة. والرواية التي سلَّمتُها للناشر بعد ظهيرة ذلك اليوم (وكنتُ قد أمضيتُ السنوات الثلاث الأخيرة أكافح لإنجازها) تنتهي أحداثها بزواج إيزادورا وينغ من قائد طائرةٍ هاوٍ، زوجها الرابع. كان ابتكاراً صِرفاً. ولم أكن حتى *خرجتُ* مع ربّان طائرة هاوٍ. لقد كانت إيزادورا بكل بساطة في *حاجة* إلى أنْ تتزوج من ربّان وتتلقّى دروساً في الطيران لكي تتغلّب على خوفها من الطيران إلى الأبد.

تبدأ رواية «*أحزان أية امرأة*» بموتها. كانت قد تركت مخطوطة كتاب أخير لكي يُنشَر بعد رحيلها. ويقع الكتاب بين يدَي رجلٍ مُدَّعي ثقافةَ ومُناصِر لقضيا المرأة ومجرّد من أي حسّ فكاهي، تعامَلَ مع نكات إيزادورا كلّها بحرفيّة واعترضَ عليها سياسياً. لكنَّ إيزادورا لا تموت حقّاً. بل فقط تختفي في جنوب المحيط الهادئ كما حدث لإميليا

إيرهارت[5]. ولكن خلافاً لإميليا، استطاعت أنْ تنقذ نفسها. وعادتْ إلى كونكتيكت لتُصبح شاعرة من جديد - أي أنها اختفت بالنسبة إلى العالم، ولكن ليس بالنسبة إلى نفسها.

كان لا وعيي قد اخترع هذه الأسطورة الذاتيّة عن المولد الجديد الأثيريّ-الشِعريّ لأنني أميل إلى وضع مجازات للصراعات التي أعيشها. وعندما باشرت تأليف *«أحزان أية امرأة»* شعرتُ بأنني ميّتة. وبسبب اشمئزازي من صورتي العامة، لم أرغب أبداً في تأليف كتابٍ آخر عن إيزادورا، لذلك قمتُ بقتل أشهر بطلاتي بحركة عابثة. ولكن بينما كنتُ أكتب، عادتْ إلى الحياة، وكذلك عدتُ أنا. لقد أنقذتنا إبداعاتنا.

وهكذا، سلّمتُ الكتاب في اليوم نفسه الذي قابلتُ فيه رُبَّانَ طائرة هاوٍ. إنَّ المؤلفين كلهم يعلمون أنَّ أي كتاب هو مجموعة من الأحرف الأبجديّة، وقراءة طالع، وخريطة لراحة الكف والقلب. إننا نخترع المحيط - ثم نسقط فيه. لكننا أيضاً نكتب طوف نجاة الحياة. ويمكننا أنْ ننفخ الروح في أفواه مخلوقاتنا.

على الرغم من محاولاتي كلها لقتل ذاتي الأخرى، إيزادورا، بقيتْ عصيّة على القتل بعناد. وكذلك الأمر أنا. والآن كل ما بقيَ عليّ أنْ أفعل هو أنْ أتعلَّم الطيران.

قلت في نفسي، بينما كان يتكلَّم عن سبب حبّه للطيران، *أستطيع أنْ أعقد صداقة مع هذا الرجل*.

قال «إنه الحريّة، وتحدّي الحدود».

سألتُ «كيف توصَّلتَ إلى أنْ تكون صادقاً إلى هذه الدرجة؟».

سألَ «وما هو البديل؟ إما الآن أو أبداً».

5- إميليا إيرهارد (1897 - 1937): طيّارة أميركية. كانت أول أميركية تطير عبر المحيط الأطلسي وحدها. اختفت في ظروف غامضة فوق المحيط الهادئ - المترجم.

الموعد الأوّل تمّ في ليل يوم أربعاء. أوصلته بالسيارة حتى شقّته في الإيست سكستيز وهرعتُ إلى منزلي في كونكتيكت - وهناك كانت مولي ومارغريت والكلب بوتشيني يستكينون لقضاء عطلة الربيع.

في اليوم التالي اتصل في الساعة العاشرة. لم يكن يعبث.

«لقد أمضيتُ وقتاً رائعاً معك».

قلتُ «وأنا أيضاً».

وعندما أصابني الرعب لأنني بحتُ *بالكثير*، سكتُّ. لقد تعلَّمتُ من عدد من العشَّاق غير الملتزمين ألَّا أُثرثر. كان ذلك تصرّفاً أخرق بصورة خطرة.

سألَ «ما رأيك في يوم الأحد القادم؟».

«ماذا عنه؟».

«هل تخرجين معي؟».

قلت بنبرة عاديّة «أنا لا أخرج في ليالي أيام أحد. بل أذهبُ إلى الريف في العطل الأسبوعيّة... لأكتب».

«إذن سآتي إلى الريف».

قلت «كلا *لن تفعل*».

«ولِمَ لا؟».

«أنا لا أدعو رجالاً جُدداً إلى منزلي... هذا مُنافٍ لديانتي».

«إذن... غيّري دينك».

قلت «ليس بهذه السرعة».

سادت فترة صمت وجيزة مُربِكة بينما كنّا معاً نفكّر في أوّل صراعٍ قويّ بيننا.

أخيراً قلتُ «سوف *أقابلك* في نيويورك».

«عظيم! استقلّي القطار وسوف أقلّك في غراند سنترال. ثم يمكنني أنْ أوصلك بالسيارة إلى المنزل».

قلت بشراسة «كلا» (لم أرغب في أنْ أكون بلا سيارتي وأنا مع رجل جديد) «سوف أستقلّ السيارة وأقابلك».

«لا تفعلي هذا. إذ أين *ستركنين* السيارة؟».

«سوف أركنها في مرأبي – أو سأُحضِر سائقاً. نعم سوف أُحضرُ سائقاً لذلك أستطيع أن أعود بسرعة وأتفقّد ابنتي في الصباح».

«*أنا* الذي سأعيدك بالسيارة – أنا أحبّ القيادة».

قلتُ «كلا لن تفعل».

«حسنٌ – كما تشائين. ما دمتِ ستأتين».

«ولِمَ لا آتي؟».

قال «قد تخافين. هذا يحدث عادة».

هل فكّرتُ فيه كثيراً بعد تلك المكالمة؟ كلّا. كنتُ واعية بما يكفي بحيث لا أفكر في أيّ رجل في تلك الحالة.

أمضيتُ أيامي في تقرير متى أتّصل بالبندقيّة، وتخمين العُطل الأسبوعيّة التي تكون فيها زوجة صديقي المتزوج مُسافرة، والقيام بمراجعة كتابي *«أحزان أية امرأة»* بلا توقف – على الرغم من أنني سلّمته. (أنا إحدى تلك الكاتبات اللواتي يُضطر ناشروهنّ إلى انتزاع المخطوطة من بين أيديهن انتزاعاً). كنتُ أعمل أيضاً على تحويل *«فاني هاكاباوت–جونز»* إلى عمل موسيقيّ، وأقوم بالبحث من أجل وضع كتاب عن هنري ميللر، وأضع ملاحظات من أجل رواية جديدة. ووسط ذلك كله، يظهر أحد أشد المتودّدين إليّ تحفّظاً، بعد أربعة أشهر من الغياب.

أرسلَ إليّ هدية بمناسبة عيد ميلادي – تمثالاً مُنمنَماً لإلهة هنديّة راقصة – وبعد ذلك اتصل هاتفياً. ماذا أفعل احتفالاً بعيد مولدي؟ أراد أنْ يعرف. وكأنه حدسَ بأنني غير متوفّرة. وإلا كان سأل.

أخبرتُه أنَّ كين وبربارة فوليت قادمان إلى كونكتيكت لحضور عيد

ميلادي (وتصادفَ مع أحد الفصح في ذلك العام). وسأل إنْ كان في استطاعته أنْ ينضم إلينا. فقلت سوف أتصل بهما لأرى ردّة فعلهما.

أراد فوليت أنْ يعرف «أيَّ نوع من الرجال هو؟»، بما أنه كان قد رآني قبل ذلك بستة أشهر في البندقيّة مع بييرو. ثم ضحك. طبعاً، دعوته هو أيضاً. أودّ أنْ أرى الفرق بينه وبين الآخرين.

سألتْ بربارة « أنعرفُه؟». على مدى السنوات القليلة الماضية كنتُ أتنقّل في أرجاء لندن مع أنواع مختلفة من المرافقين - متزوجين وعزّاب. كان أصدقائي دائماً يُفتنون بي ولكن أيضاً يحمون أنفسهم بشراسة مني. وسألت بربارة ذات مرة أحد عشّاقي دون مقدمة: «هل أنت *متزوّج*؟»، وكان مؤرّخاً برتغالياً وسيماً قابلته في مؤتمر أُقيمَ في روما. لم تكن لديه أدنى *فكرة* بماذا يُجيب عن ذلك السؤال.

قال بارتباك «أعتقد أنني كذلك».

رمته بربارة بنظرة مُدمّرة.

قالت بربارة عبر الهاتف «فلنلقِ نظرة على هذا. لِنَرَ كيف يُلوّن بيض الفصح على أية حال».

في عطلة نهاية ذلك الأسبوع كنا *حقاً* نلوّن بيض الفصح في كونكتيكت. جلسنا حول طاولة غرفة الطعام الكبيرة والمستديرة مع مولي، نرسم صوراً ذاتيّة بالألوان الزيتيّة على البيض المسلوق.

قالت بربارة، الخبيرة في قراءة الكف، وعِلم الفراسة، ومعرفة الناس: «كيف ترين نفسك وهي تقول شيئاً عن تكوينك».

«وأي حيوان يمثّلك. كين يمثل الذئب - ألستِ تنفرين من الذئاب؟ ومولي تمثل الفيل - الجبين المقوّس الكبير. وإريكا هي كلب البيشون مُجعّد الشعر على غرار بوتشيني».

كلُّنا نرسم أنفسنا على البيض - حتى المتودِّد المتردِّد. كان وجهه مُلتبساً. لقد أخافه قليلاً سلوك بربارة المُتحدّي. كنتُ سعيدة.

نمنا معاً في تلك الليلة، لكننا حتى لم نتلامس. وحلمتُ بالطيران بطائرة صغيرة مع إيزادورا وينغ وبييرو ودبٌّ أسود ضخم. كان بييرو متوتراً، أما الدب فلم يكن كذلك. قال «لا تجزعوا، سيداتي سادتي». وفجأة أصبح كين وبربارة فوليت أيضاً داخل الطائرة، مع مولي، وأولاد آل فوليت كلّهم.

سألتُ الدب «هل سبقَ لك أنْ جرّبت السير على الجناح[6]؟».

قال «أنا ربّان مُحافِظ، ولا أريد أنْ أموت منذ الآن. أمامي الكثير لأعيش من أجله».

في يوم عيد ميلادي، في أحد الفصح، اتصل الدب بي من تورنتو.

سألتُ «كيف هي عطلتك؟».

قال «سيئة جداً. لا يمكن عيش الماضي من جديد».

لم أفهم.

«لقد أتيتُ لكي أقضي عيد ميلادي مع صديقتي السابقة».

ابتعلتُ لعابي، لكنَّ فمي بقيَ مع ذلك جافاً.

«عيد ميلادكَ؟ متى يحين موعد عيد ميلادك».

«اليوم – السادس والعشرين من آذار».

ابتلعت لعابي مع ضجيج «يا إلهي. وهو عيد ميلادي أيضاً».

وفترة صمت طويلة. لكنه لم يبدُ مندهشاً.

أراد أنْ يعرف «هل أراكِ في الأسبوع القادم؟».

«السبت؟».

«نعم – في الليلة التي تكتبين فيها».

قلت «نعم، إنني أُقدِّم استثناءً في حالتك».

أزعجني أنْ يكون عيد ميلاده هو نفسه عيد ميلادي. أولاً، لا ينبغي

6- نوع من الرياضة حيث يقف المرء على جناح طائرة هوائيّة وهي تطير – المترجم.

أنْ يتطابق موعد عيد ميلاد *أي شخص* مع عيد ميلادي. وثانياً، يبدو هذا نذير شؤم آخر لعين. كأنّ شيئاً ما يخنقني ولم يُعجبني هذا. وكما قالت أنيتا لوس، *إنَّ القدر دائماً يحدث*.

كيف *يجرؤ* ذلك الرجل على أنْ يولَد في يوم ميلادي *أنا*؟ ألا يحترم أي شيء؟ أيريد أنْ يتطفّل على كل ما لديّ؟ إنَّ عيد ميلادي يخصّني *وحدي*.

في ليلة يوم السبت تلك، أقلَلْتُه بسيارتي - واستأجرتُ سائقاً من أجل تلك المناسبة - وتوجَّهنا إلى المدينة إلى المسرح العام لمشاهدة مسرحية موسيقيّة بلغة هي مزيج بين اليديّة والإنكليزيّة. من اختياره. ومن الطريقة التي نظر بها إليّ، أدركتُ أنه كان *اختباراً*. لقد أراد أنْ يعرف إنْ كنتُ سأضحك في اللحظات المناسبة، وإذا كنتُ أفهم اليديّة، وإذا كنتُ *Yidderate* (ذكيّة). آه - فهمت. كان الأمر أشبه بالمحنة: الموضوع يدور حول ثلاثة توابيت، وجبل من الزجاج يجب ارتقاؤه، وتقبيل الأمير النائم لمعرفة إنْ كان في الإمكان كسر السِحر. قلت في نفسي، كيف يجرؤ على اختباري؟ أنا التي يجب أنْ أختبره.

سألتُ ونحن نستقل السيارة «حسن، هل اجتزت الاختبار؟».

«ماذا تعنين بحق الله؟».

«اسمع - أنا أعرف تجربة الاستماع عندما أمرّ بواحدة. أنا لست غبيّة».

نظر إليّ بمُحاكاة ساخرة.

سألَ «أين تعلَّمتِ اليديّة؟».

قلت «في المكان نفسه الذي تعلَّمتَها أنت. ثم، إنني لا أعرف الكثير منها».

قال «لقد ضحكتِ في كل المواقع الصحيحة».

قلت «حسب تقديرك أنت. يا إلهي - أنت ابن حرام مغرور».

قال «لقد أحببتِها».

بعد ذلك، صرنا نخرج معاً على العشاء في كل ليلة.

أخبرتُ مجموعة العلاج النفسي «لقد قابلتُ رجلاً لطيفاً جداً».

قالوا «رائع، رائع. لو كان *حقاً* لطيفاً، لما استطعتِ أنْ تُعجبي به... ».

قلت «أوه أحقاً؟».

قالوا «نعم، نعم، نعم».

كنتُ وكين متعودين على إغلاق المطاعم. كنا نجلس ونأكل ونشرب ونتحدّث وفجأة نرى العمال يكنسون الأرضيّة ويمسحونها من حولنا.

عمَّ كنّا نتحدث؟ لا أتذكّر. لكننا لم نكن نسكت. كنتُ أُحدّق إليه على المائدة وأفكّر: لن أُضاجعه أبداً. كنتُ قد سئمت كثيراً الأشياء التي تبدأ بالجنس ومن ثم تُخفِق. قلت لنفسي، سوف نكون صديقين – صديقين، وليس عشيقَين. وهكذا لن يقع أي خطب. إنَّ الصداقة هي الأفضل، أصلاً. الصداقة لديها *فرصة* للدوام.

إذن كنا نتناول العشاء معاً في كل ليلة ولم نمارس الجنس معاً.

أصبحتْ محاولتي معرفة إلى متى أستطيع أنْ أستمر في ذلك أشبه باللعبة. قلتُ في نفسي، لقد اتّضحَ أنَّ الجنس لا أهمية له. إنه فقط يُعكّر المياه. كنتُ قد افتُتِنتُ جنسياً بالعديد من الرجال، وعندما كنتُ أتخلص من ذلك الإدمان، فإنَّ ما يتبقّى في المعتاد لا يستحق الاهتمام. وهذه المرة كنتُ أنوي أنْ *أُعجَب* بالرجل في أول الأمر. لم أكن سأتزوج من الرجل في الحال وكنتُ سأقوم بتغييره لاحقاً.

في تلك الأثناء، كان هناك بييرو. كان حبّه لا يُمحى لأنَّ حياته مُكرّسة لشخص آخر. وكان قد جاء لزيارتي في كونكتيكت قُبيل تعرّفي على كين، وكان بعيداً عن وسط عالم البندقيّة المائيّ أقلّ جاذبيّة. على غرار أونداين[7] على اليابسة كان في حاجة إلى حراشفه قُزحيّة الألوان

7- أونداين: في الأساطير اليونانية والرومانية واللاتينيّة، اسم لجنيّة من جنيات الماء أو الأمواج – المترجم.

لكي تُبهِر الأبصار. كنتُ قد رأيته فترة وجيزة بعد مراسم الزواج في كنيسة سان موريتس وعاد السِحر جزيئاً. ولكن أعتقد أنَّ الحقيقة هي أنّني بدأتُ أملّ تملّصه المتوقَّع. فإذا جعلتُ نفسي في المتناول، فسوف يظهر كما هو متوقَّع - فترة وجيزة. وطبعاً، لم يكفّ الجنس عن أنْ يكون هذيانياً، ولكن حتى للهذيان حدود. ومن دون مازوشيّة تغذّيه، يُصبح بارداً. والفحول الضخام، على غرار الرجال الذين يُلاحقونك بكل شوق ومن ثم يهربون، وعلى غرار المرغوبين الذين يمتحنونك في ممتلكاتك وتوظيفاتك، يُصبحون مملّين، بعد وقت قصير. لقد اكتشفوا مصدراً جديداً للمرح - هذا كل شيء: مرح مُصاحبة النساء. لقد عرِفوا كيف يجعلونكِ تصلين إلى الرعشة مرة بعد مرة بعد مرة بعد مرة. وماذا في هذا؟ حالما تُدركين السخرية الكامنة تحت السطح، لا تعود النشوة شديدة الأهميّة. إنه تلاعُبٌ وليس بوحاً.

مكثتُ في لوس أنجليس بضعة أيام لأقابل وكيل أعمالي الأدبيّة وأدفع بروايتي الجديدة إلى مجموعة مُنتقاة بعناية من الأقطاب الصِغار (الذين قرأوا *«الخوف من الطيران»* في المدرسة *الابتدائية*)، وأقمتُ في منزل شقّة ممثلة صديقة في غرب هوليوود. وفي صباح كل يوم، بعد أنْ أستيقظ قبل حاجتي إلى الاستيقاظ بثلاث ساعات، أجدُ نفسي أتّصل بكين حتى من دون أنْ أُعِدّ لذلك. وأجد نفسي أصِفُ له المشهد الذي أنقل فيه حبكة روايتي الجديدة إلى غرفة ممتلئة بشبّان في عشرينيات أعمارهم ويرتدون أشهر الماركات العالمية تعوّدوا أنْ يسرقوا روايتي الأولى من بين رفوف كتب آبائهم ويستمنوا أثناء قراءتها في المراحيض. إنني أحاول أنْ أبيِّن لهم لماذا من المتوقع لهذه الرواية التي تدور حول فنانة في منتصف العمر مفتونة بفحل شاب رائع الجمال أنْ تُصبح فيلماً *ناجحاً كبيراً*. لكنهم لم يُقبلوا عليه. بالنسبة إليهم، أنا تحفة، قطعة أثريّة من عصر مدفون في ضباب التاريخ: السبعينيات.

يقول أحدهم «إنَّ أمي تحبّ كتبك». وإذا بالجميع يقولون دفعة واحدة: *وأمي أيضاً، وأمي أيضاً، وأمي أيضاً*.

سوف يتوجّهون إلى أعمالهم ويتّصلون بأمهاتهم بفخر. يقولون «خمّني مَنْ قابلت؟». ولكن هل يرغبون في صُنع أفلام يمكن أنْ تُعجِب أمهاتهم؟ حتماً لا. إنَّ الأمهات، تعريفاً، *عجائز*.

أخبرُ كين عبر الهاتف «لقد انتقلتُ من كوني أصغر سناً بالنسبة إلى كل شيء إلى كوني أكبر سناً بالنسبة إلى كل شيء. عندما كنتُ في هوليوود في السبعينيات، كنتُ حديثة العهد في الشهرة وأولَعُ بأيٍّ مُحتال. وكلّ الأشخاص المسؤولون كانوا *أكبر سناً*. أما الآن فكل المسؤولين هم *أصغر سناً* - لكنهم لا زالوا كلهم ذكور».

لماذا أخبره هذا كله؟ أتساءل. هل لأنه يتفهّم؟ أم لأنه *يصل* إلى المعنى؟ أم لأننا نستطيع أنْ نتحدّث كما لو أننا كنا نتحدّث طوال حياتنا؟

مع ذلك، أنا لا أثق في كلامي. متى سيتحول إلى وحش أو إلى قزم ضئيل؟ متى سيهرب من الصداقة الحميمة؟ متى سيكشف النقاب عن مستر هايد من خلف دكتور جيكل؟

خلال الأسبوع الذي قضيتُه في لوس أنجليس، كنتُ دائماً أتذكّر قول هانا باكولا[8] الذي لا يُنسى عن العودة إلى الشرق: «إنَّ هوليوود ليست المكان المناسب لامرأة تجاوزت الأربعين تحمل بطاقة انتساب لمكتبة عامة». إنَّ هوليوود دائماً تجعلني أشعر بأنني لن أُصبح ثريّة بالقدر الكافي أو نحيلة بالقدر الكافي أو شابة بالقدر الكافي. حتى عندما كنتُ شابة *فعلاً*، شعرتُ بأنني عجوزٌ جدّاً ولا أصلح لهوليوود. لذلك ابتهجت أكثر عندما اقتربت امرأة هي مثال للعجائز اللواتي غزين هوليوود من مائدتي في مطعم مورتون - حيثُ كنتُ أتناول وجبة العشاء مع وكيلي - وكلّها حماس بشأن كتبي، ودعتني إلى الغداء معها في منزلها في اليوم التالي

8- هانا باكولا: كاتبة أميركية. معروفة خاصة من أجل كتابها «الإمبراطورة الأخيرة» - المترجم.

واكتشفتُ أنَّ الفخمة جداً، والبراقة جداً جون كولينز هي في الواقع أمٌّ عظيمة يهوديّة مُغرية تحت كلّ ذلك التبرُّج.

نجلس في غرفة جلوسها البيضاء نتبادل الحكايات عن رجال أصغر سناً. وكانت قد نجت توّاً من محنة نفقتها مع ذلك الميّاس الزلق بيتر الذي لا أعرف كنيته.

تقول «لم أعرف قطّ أنه كان يكذب أو ينكح صديقاتي. لقد كان شديد الرومانسيّة. وهذا ما نفتقده - رجالاً لا يخشون أنْ يُعاملوننا برومانسيّة.

رجعتُ بالطائرة إلى نيويورك، وكان كين ينتظر في المطار.

قال، بعد أنْ صرف السـائق المُستأجَر «حسبتُ أنكِ تحتاجين إلى مَنْ يسـتقبلك».

بعد ذلك بقليل، أخذني بطائرة قادها بنفسه للمرة الأولى. كانت طائرته من نوع سيسنا 210 ركنها في مطار تيتربورو في نيو جيرزي. وعلّمني كيف أتفحّص لوحة المفاتيح، والوقود، ومفتاح الهبوط، والجناحين الصغيرين، ودفعني إلى قراءة لائحة الفحص من أجل الإقلاع. ثم أصبح هادئاً تماماً وركّزَ وهو يقوم بالإقلاع. كان الطيران حالة بديلة للوعي بالنسبة إليه. كان في منتهى السعادة وهو محمول في الجو. وبينما كنا نرتفع فوق مضخات الغاز والنفايات الصناعيّة لنيو جيرزي، تلاشت مشكلات العالم كلها. كان الفضاء ممتلئاً بالطائرات الصغيرة - وكل واحدة متّصلة بالأرض بسيل متواصل من البث الإذاعي. كان الفضاء هو المكان الأخير المتبقّي الذي فيه الحريّة أكثر من مجرّد كلمة.

طرنا شمالاً إلى هيوستن بأجرافها القرمزيّة الشاهقة، ثم انعطفنا شرقاً فوق لونغ أيلند ساوند وقمنا بجولة سريعة في نهاية الجزيرة بأمواجها المُزبدة الصالحة للتزلج وحقول البطاطا النضرة. وأصغينا إلى النشرة الجويّة التي بثّها ربابنة آخرون وعلونا فوق مطبّات حراريّة وترتفع إلى ذُرى الغيوم. لا عجبَ أنني اخترعتُ زوجاً ربّاناً من أجل إيزادورا!

تلك كانت الحرية التي سعيتُ إليها طوال حياتي. ولكن كيف نجحت شخصيّة روائيّة في أنْ تستحضر رجلاً حقيقياً؟ لا بدّ أنني كتبت تعويذة قويّة المفعول.

وهبطنا.

قال «أنتِ لم تخافي أبداً».

وكان ذلك صحيحاً.

بعد ذلك الطيران الأول، رجعنا بالسيارة إلى منزلي، حيث كانت مولي تنتظر، إبّان عودتها من منزل والدها. وكانت تلك المرة الأولى التي يُقابلها كين فيها. كانت منكبّة باجتهاد على إتمام فروضها المدرسيّة وهي جالسة على طاولة غرفة الطعام.

سألَ (بفظاظة): «ماذا ستصبحين عندما تكبرين؟».

قالت بذكاء «في الادّعاء المدني».

ووقع في حبّها في الحال.

انطلقت صفّارات الإنذار من جديد. قلتُ في نفسي، هذا الرجل لا يمزح. ماذا كنتُ سأفعل؟

أغادر إلى إيطاليا، بأسرع ما يمكن، هذا هو الحل. ولحُسن الحظ كان لديّ صديق دعاني إلى وليمة في مدرسة للطبخ في أومبريا. وكان من المفترَض أنْ نلتقي جميعاً في روما، ثم نذهب إلى تلال أومبريا لقضاء أسبوع من أجل تعلّم تذوّق زيت الزيتون، وإعداد عجينة صُنع الباستا، والطهو على نارٍ هادئة صلصة السوغو. كنتُ قد كرّستُ نفسي لهذه الرحلة قبل أنْ أقابل كين بوقت طويل، ولكن حالما وصلتُ إلى روما شعرتُ باشتياقٍ إليه. واشتقتُ أيضاً إلى مولي. بدا أنه لا سبب يدعوني إلى البقاء هنا. كان قد فات وقت طويل منذ أنْ تخلّيتُ حتى عن *الادّعاء* بأنني أطبخ.

وضعونا جميعاً في نُزُل رائع الجمال في موقع كان اسطبلاً في السابق. كانت الغرف مبنيّة الحجارة، وكانت شديدة الرطوبة وكئيبة،

ولا تحتوي أجهزة هاتف. كان ريف أومبريا دغلاً من الأزهار البريّة – الخشخاش، السوسن، المكحلة – لكنَّ المطر هطل ولم يتوقف. طلبتُ الاتصال ببييرو، وكالمعتاد كان الاتصال به أمراً صعباً. ثم عاد واتصل بي (بينما كنتُ منهمكة في إعداد عجينة الباستا) وقال إنه لم يتمكن من المجيء. ثم جعل ابن زوجته يُكلّمني عبر الهاتف – وعلِمتُ لاحقاً أنه كان من المُفترَض أنْ يكون بمثابة إشارة إلى أنّه كان *ينوي* أنْ يأتي، لكنّه لم يرغب في إبلاغ العائلة بذلك.

افترضتُ أنه *لن* يأتي، ونويتُ أنْ أعود إلى الوطن في الحال. ولكن عندما اتصل وقال *Non scappi* (لا تهربي) أسرني صوته من جديد.

في تلك الأثناء، اتصل كين من نيويورك وطلب مني أنْ أقابله في باريس. ارتبكت. ثم ظهر بييرو وكأنما فجأة. وأمضينا ليلة من النعيم معاً في الإسطبل الحجريّ. مارسنا الجنس بالسهولة المُعجِزة المعتادة، ونام كلٌ منا بين أحضان الآخر طوال الليل. وفي اليوم التالي، رحنا نستكشف ريف أومبريا الرطب وحطّ بنا الرحال في تودي، تناولنا الطعام في مطعم ريستورانته أومبريا. كنا نضحك ونتلامس، ونأكل ونشرب، وسألته لماذا يبقى مع امرأة لا يُحبّها.

قال «إنها بمثابة مُضاد حيويّ. من دونها كنتُ سأتزوج عشرين مرة».

قلت في نفسي، أنا لديّ جوابي الخاص. هي المضاد الحيويّ وأنا المرض.

أعادني بالسيارة إلى مدرسة الطبخ وتبادلنا القُبَل وعبارات الوداع. وعندما رجعتُ إلى غرفتي، وجدتُ في انتظاري ثلاث رسائل من كين، في الأخيرة بينها يُبلغني بأنَّ ثمة بطاقة سفر إلى باريس تنتظرني في مطار روما.

اتصل لاحقاً ليقول «لا تشعري بأنكِ تدينين لي بفضل، ولكن إذا شعرت بهذا فهو أمر عظيم».

ثم طلع فجر اليوم الذي من المُفترَض أنني سأعود فيه إلى الوطن،

وتوجهتُ بسيارة أجرة إلى مطار روما وأنا غير متأكّدة إلى أين سينتهي بي المطاف في آخر ذلك النهار.

إذا توجّهتُ إلى البندقيّة، فسوف أنتظر وأنتظر إلى أنْ أتمكن من قضاء سويعات مع بييرو. إذا ذهبتُ إلى باريس فقد يحدث أمر آخر.

في المطار، ذهبتُ إلى نافذة الخطوط الجويّة الفرنسيّة فوجدت البطاقة. تفحّصتُ لائحة المواعيد. الرحلة التالية إلى البندقيّة سوف تغادر بعد ساعة، والرحلة التالية إلى باريس بعد ساعة ونصف. رحتُ أتجول في محطة الخط النهائي وأنا في حالة رعب، أدفع أمتعتي في حركات دائريّة. وغطت عينيّ غشاوة. كنتُ أرتطم بالأشخاص وبالجدران. لقد بدا لي أنَّ هذا القرار مركزيّ في حياتي. فكّرتُ في البندقيّة الجميلة وفي الجميل بييرو وفي الأيام السحرية القليلة التي قضيناها بعد مراسم الزفاف في كنيسة القديس موريتس. كان في استطاعتي أنْ أستعيدها. أم هل أستطيع؟ إننا لا نطأ أبداً غرفة النوم نفسها مرّتين. ما إنْ تبدئي بملاحظة روتين السعادة، فهل تبقى سعادة؟ حتى الشهوانيُّون يمكن أنْ يُقيَّدوا إلى ساعاتهم. آه – حان الوقت لانغماسي الليليّ في «العماء والليل العتيق»[9]. لن توضع آلهة العالم السُفلي على جدول المواعيد. فما إنْ تصبح روتينيّة، تبتعد. وماذا عن بان؟ إنه يخبّ عائداً إلى الغابة البدائيّة.

وماذا إذا ذهبتُ إلى باريس؟ حسنٌ، سوف يحدث أمر جديد. سوف يُفتَح بابٌ آخر. أو يُغلَق. أصابني الإرهاق من فرط التفكير في هذا. خفتُ من التخلّي عن حرّيتي، عن حياتي.

طرتُ إلى باريس. وعندما ذهبتُ لأستلم أمتعتي، رأيتُ، من خلال الحاجز الزجاجي، هذا الرجل الشبيه بدبٍّ ضخم، يلوّح لي بجنون، ويبتسم. كان وجهه مُستبشراً وصريحاً. وعندما قابلتُه خارج الحاجز، لم يتوقّف عن قول كم هو سعيد لأنني جئت. وعندما ركبنا السيارة التي

9- *«العماء والليل العتيق»*: عبارة مأخوذة من قصيدة ميلتون الملحميّة *«الفردوس المفقود»*، وتصف ما يواجه الشيطان بعد أنْ يُطرَد من الجنّة – المترجم.

استأجرها، لم يتوقف عن النظر إليّ بتمعّن إلى درجة أنه كان طوال الوقت يقود السيارة على الرصيف. ولم يكفّ عن قول «أنا شديد السعادة لأنك أتيت. أنا شديد السعادة لأنك أتيت».

حجزنا غرفة في فندقه المُفضّل، وهو *relais* (استراحة) في متنزّه في مركز الدائرة السادسة عشرة. وفي الماضي كانت *maison de passe* (فندق رخيص) يتألّف من غرف صغيرة جداً مزوّدة بأثاث شنيع بطراز الروكوكو، لكنَّ جناحنا كان يطلّ على حديقة غنّاء.

قلت «أنا في حاجة إلى الاستحمام». كان الحمّام هو حلّي لكل مشكلة.

أخذ كين يُثير الضجيج في المكان، يفتح صنبور ماء الاستحمام، ويُضيف محلول الاستحمام الأخضر برائحة الصنوبر، ويُحاول أنْ يُساعدني في فكّ أمتعتي، وقفز هنا وهناك في جناحنا الصغير إلى أنْ صرخت «اهدأ من فضلك! أنت تُثير جنوني!». كان شديد التوق إلى إسعادي، لكنّه أثار أعصابي.

أخيراً انفردتُ بنفسي في الحمّام، غصتُ في الماء وفكّرتُ: «ماذا أفعل هنا بحق الله؟».

سمعتُ قرعاً على الباب.

سألَ «أتريدين بعض الشاي أم القهوة؟ هل أطلبُ شيئاً؟».

أزعجني أنْ يُقاطعني وأنا وسط حمّامي الساخن. لكنني هتفت «قهوة».

بعد أنْ خرجت من المغطس، جلسنا في غرفة الجلوس من الجناح وشربنا القهوة.

قال «أحبّ مدى ارتياحك مع جسمك. أنتِ فقط تتمشين في أرجاء الغرفة، مرتدية ملابسك، أو نصف عارية، أو عارية، وأنت سعيدة مع بشرتك، ولم يسبق لي أنْ رافقت امرأة مثلك».

«ماذا تعني؟».

«في المعتاد يوصدن الباب ويضعن المساحيق. إنَّ النساء يخشين كثيراً أنْ يراهن الناس بوجوههن الطبيعيّة».

تحدثنا. وخرجنا لتناول وجبة العشاء في مطعم محلي صغير. وتحدثنا وتحدثنا، وتحدثنا أكثر. تساءلتُ كم كان يمكن للأمسيّة أنْ تكون مختلفة لو أنني توجَّهتُ إلى البندقيّة. كان سيتوفر الكثير من الوقت للاتصال بالهاتف، والإعداد، والإلغاء، والإعداد من جديد. ثم نمارس الجنس المحموم - ثم الوداع. أما هذه فعلى النقيض. كنا في بداية أمر، وليس في نهايته. تحدثنا وتحدثنا ونحن نجوب شوارع باريس. تحدثنا. وعندما رجعنا إلى الفندق، تحدثنا المزيد. قلتُ في نفسي، عند نقطة معيَّنة يجب أنْ نزيح الجنس من الطريق، ومن ثم ماذا؟ كان كالحدود التي يجب اجتيازها، وربما معركة كبرى.

قال، متظاهراً بالمرح والفكاهة ليُغطي على رعبه عندما يُفتَح موضوع الجنس: «إنني لم أستخدم الواقي الذكري منذ سنين. عشتُ مع امرأة وقتاً طويلاً» والحقيقة، لقد سبّبَ كامل واجب استخدام الواقي الإلزامي إلى الانتصاب الفوري.

قال «كفّي تصحيحاً سياسياً». تظاهرتُ بالضحك. لكنني كنتُ يائسة وهو كان كذلك. عندما استيقظتُ في صباح اليوم التالي كان انتصابه يضغط عليّ، وعلى الفور منحتُ نفسي إحساساً كاملاً بالذنب حيال بييرو لكي أتجنّب حتى احتمال ممارسة الجنس. قلت في نفسي، *مسكين بييرو*. كيف *أفعل* هذا به؟ كيف أخذله من أجل رجلٍ آخر؟

أقول *مسكين بييرو*؟ لقد صاحب بييرو المسكين سلسلة من النساء طوال فترة معرفتي به، وأنا لم أُجبره على استخدام الواقي. (إنَّ لدينا مجموعة من القواعد من أجل الشبان المشاغبين ومجموعة أخرى للطيبين).

ماذا أردتُ؟ هل أردتُ أنْ أعود إلى مرح مُرافق النساء؟ في الأصل، كانت تسري شائعة في جيلي تقول إنَّ ممارسة الجنس للمرة الأولى تخلو من السِّحر، والانطلاق، وروعة الانسجام. كنا قد توقفنا عن الإيمان

بفكرة الله واستبدلناها بالجنس الفوري العظيم. وعندما تحول ذلك إلى مشكلة، أعلنّا موت الله. كانت أرض النكاح هي وطننا المُقدَّس، وعندما تبيَّن أنَّ من الصعب بلوغه، أعلنّا أننا منبوذون.

في الصباح، كان كين مُرتبطاً بموعد اجتماع، شكراً لله. ولزمت المنزل كي أكتب. تأمّلت بهدوء قليلاً، ثم اتصلتُ ببيبرو في البندقيّة. بدا غير مبالٍ بشكل مُلفِت لعدم حضوري، وتمتم ببعض الكلام عن مشاريع عليه تنفيذها مع امرأته وعن مدى ضيق الوقت بالنسبة إليه (توقّع أنْ يراني في صيف ذلك العام حين كان متوقَّعاً أنْ أستأجر المنزل الكبير البائس المعتاد).

عندما عاد كين، أبهجني مرآه. كان يرسم تلك الابتسامة المُشرقة التي تجعلك تشعرين بالسعادة لأنك حيّة. أعطاني لُفافة صغيرة. فتحتها. كانت الطبعة الأولى لرواية «*نهاية شيري*» لكوليت.

قال «أردتُ أنْ تحصلي على شيء يُذكّركِ بهذه العطلة، إذا تبيَّن أنها الأخيرة لنا».

هتفتُ «كيف عرفتَ أنه أحد كتبي المُفضّلة؟».

«لا أعرف. لقد شعرتُ كأنه يُناديني من فوق الرف».

كيف استطاع أنْ يعرف أنني أقيس مراحل حياتي على مسار حياة كوليت؟ كان لدي حبيبي ويلي، نسختي عن شيري – فهل سيكون ذلك الرجل المستحيل الذي يُصبح أيضاً صديقاً؟ لقد رأتْ كوليت في ذلك المرحلة القصوى في حياة امرأة. وهو اشترى ذلك الكتاب، اعتقاداً منه أنه تذكار لفراقنا. كان يعلم أنه وقت الخلاص.

ولكن أي خلاص! لقد انتقى بصورة ما الكتاب الوحيد الذي يمكن أنْ يفتح قلبي.

وإلى الآن يُذهلني أننا حافظنا على علاقتنا.

لأنَّ الحقيقة هي أنَّ ما وجدته مع كين كان الشيء الوحيد الذي لم أُسجّله في الفصل الذي كتبته عن الجنس: التعاطُف. حسبتُ أنني عرفتُ

كل شيء، لكنني لم أعرف ذلك. إنَّ الرجال مقموعون بميثولوجيا الفحول على قدم المساواة مع النساء. إنهم *مذعورون* من اضطرارهم إلى أنْ يكونوا فحولاً. وباسم التحرُّر اختزلناهم إلى فحول أو لا شيء. لقد أصررنا على وجود مُرافقي النساء ومن ثم صرخنا بأنَّ مرافقي النساء هم كل ما لدينا. وأصبح «الامتزاج» هو الدكتاتوريّة الجديدة بالنسبة إلى جيلنا المُفتَرَض أنه مُتحرِّر جنسياً. لكنّ الامتزاج يمكن منعه بالاقتراب.

إنَّ ما تعلّمته مع كين هو أنَّ بعضنا يخشى الحب أكثر من رغبتنا فيه وتعلَّمنا أنْ نستخدم الجنس كوسيلة لنبذ الحب.

إنَّ نظاماً غريباً في ترتيب النجوم قاد الممثلة جون كولينز إلى أنْ تتواجد في باريس في الوقت نفسه الذي كنا هناك. ودعتنا لمشاهدتها وهي تصور سينمائياً مقابلة صحفية لصالح التلفزيون الفرنسي. وبعد ذلك كنا سنذهب جميعاً إلى مطعم ليب الصغير لتناول وجبة العشاء.

كان العرض الذي قدّمته جون يتطلّب منها أنْ تُجيب عن الأسئلة وهي ترتدي زياً وردياً رائعاً من تصميم شانيل، وسط ديكور من قطع أثريّة من ديدييه آرون. ولسبب ما، كانت تتكلّم عن القطع الأثريّة وعن متعة اقتنائها. وجلستُ أراقبُ حرفيَّتها المثاليّة. ها هنا امرأة انتصرت على النظام، ونجت من أزواجها كلهم، وأنقذتْ أولادها، وسخرت من عالم يضحك من النساء المتقدمات في السن (ويُعامِل الممثلات ككماليات يمكن الاستغناء عنهن). وانتهى بها الأمر إلى أفضل انتقام: أنْ تعيش حياة رغيدة. وفي عالم عاقل، كان يمكن أنْ تُصبح قدوة، وليس هدفاً لهجوم نساء أُخريات. لكنَّ المناصرات لقضايا المرأة كنَّ أشدّ قسوة عليها بقدر ما كان الشوفينيون الذكور. لماذا؟ لأنها كانت تضع مساحيق تجميل؟ أم لأنها تجرّأتْ على أداء دور امرأة متقدمة في السن وجذّابة جنسياً؟ أم لأنها تعرف، بما أنها ممثلة، كيف تُحسِن الدخول في المشهد؟

بعد انتهاء التسجيل، سرنا أنا وجون وصديقها روبن، وكين، إلى

فندق بريستول لشرب الشاي. ورآنا زوجان أميركيان - أنا وجون ونحن نسير متقدمتين الرجال. توقّفتْ المرأة وهتفت «ها هي جون كولينز!».

قال زوجها «أيُّهما؟».

يا للشهرة.

في تلك الليلة في مطعم ليب، شكّلنا مجموعة مرحة. بعد انتهاء محنتها مع الصحافة باتت جون لا ترغب في أنْ تُلتقَط لها صور مع صديقها، روبن هرلستون، لذلك طلبتْ من كين أنْ يكون وسيلة تخفّيها. فتكلّمتْ معه وتكلّمتْ مع روبن فتبلبل الصحفيون المتطفّلون كما أرادتْ لدى دخولنا. فاحتشدوا في الشارع خارج المطعم (لا عجبَ أنَّ الصحفيين المتطفلين يكرهون المشاهير الذين يكسبون عيشهم بسببهم. كانوا في الخارج ينتظرون في البرد بينما الفريسة تستدفئ في الداخل، وتأكل).

إنَّ قُربي من طاقة شُهرة جون دائماً يجعلني ممتنّة لكوني مجرّد كاتبة. قد أصبح معروفة لفترات وجيزة وأنا أُروِّج لأحد كتبي، أما فيما تبقّى من الوقت فأنا خفيّة، أدوّن ملاحظات.

في وقت ما وسط ذلك الجو المرح (على الرغم من وجود كثير من الجمهور) هبطنا أنا وجون، وسكرتيرها، إلى الطابق السفلي إلى حمّام صغير جداً.

قالت جون عن كين «إنه جذّاب، ولا يبدو ذكياً بقدر كافٍ ليكون مناسباً لك». وأدارت عينيها الواسعتين داخل محجريهما.

لما كنتُ أبذل قُصارى جهدي لكي أبتعد عن كين في ذلك الوقت، دُهِشتُ لأنّ جون وجدَتْه «جذّاباً». وبقيتُ أفكّر في مغادرة باريس والطيران إلى البندقيّة، لكنني تذكّرت أنه ليس لدي أي سبب للذهاب إلى هناك.

من الصعب أن تنفتحي على شخص قد لا يحبك حقاً. وظللتُ أحاول أنْ أُبعِد كين وأواظب على اجتياز الامتحان بالبقاء.

إنه دائماً يُحاول أنْ يقوم بأعمال إكراماً لي - بدءاً بفتح ماء صنبور

الحمّام وانتهاءً بإعداد وجبات سريعة لي. وأتذكّر كيف كنا نقفز في أنحاء ذلك الجناح الصغير جداً كمُلاكمَين في الحلبة.

صرختُ في وجهه بسخط «ألا تُصدّق أنَّ أي شخص سوف يُحبّك إلا إذا أنجزتَ أعمالاً كثيرة من أجله!».

أسكتُّه.

قال «كلا».

صرخت «حسن – أنت محبوب **فعلاً**. والمشكلة هي – ***أنت*** لا تصدِّق هذا».

بدأ يبكي. واستلقى على السرير والدموع تجري سخيّة على وجهه. فطوّقته بذراعيّ.

قلت «أنت ***حقاً*** محبوب، ***حقاً***». ومارسنا الجنس في تلك الليلة للمرة الأولى، ونحن نبكي.

هكذا بدأتْ علاقتنا. ولو كنتُ وكيل مُراهنات، لما راهنتُ على ذلك.

بعد ذلك ببضعة أسابيع، في الولايات المتحدة، أخذني إلى منزله في فيرمونت لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. كان الجو عاصفاً جداً ولا يصلح للطيران، لذلك قدنا السيارة على طريق 91 الذي يقود إلى براتلْبورو ومن ثم توجّهنا إلى غرين ماونتنز. في بوتني، توقفنا لتناول وجبة العشاء. وكالمعتاد تدفق الحديث بيننا وتفاقمَ رعبي من تزايد تقارُبنا.

قال «طوال حياتي وأنا أنتظرك».

قلت، وقد عرفتُ أخيراً، «إنني مرعوبة».

«ممَّ؟».

قلتُ «إذا أحببتُكَ، فسوف أحاول أنْ أُرضيك طوال الوقت ومن ثم لن أتمكن من الكتابة. يجب أنْ أكون حرَّة لكي أصدُق فيما أكتب، وهذا ينبغي أنْ يكون البند الرئيس في أولوياتي. لا يمكنني أنْ أحمي رجلاً».

قال «اكتبي كل ما تحتاجين إلى كتابته عني، عن كل شيء، ولن أُعيِّب عليك. لهذا أحبّك».

«أنت تقول هذا *الآن* – لكنه سوف يتغيَّر، إنه دائماً يتغيَّر. إنَّ الرجال يقولون شيئاً عندما يُلاحقون المرأة ويقولون شيئاً آخر عندما يوقعونها في الفخ. ربما أنتَ تُصدِّق ما تقول الآن، لكنه سوف يتغيَّر، أعِدكَ بهذا».

قال «كلا، لن يتغيَّر. ثم، أنا لستُ كل *الرجال*» وقبض على أحد مناديل المائدة، وكتب عليها: *«أنا أُحِلُّكِ – من كل شيء»*. ثم: *«اكتبي ما يحلو لك، دائماً»*. ثم أضاف توقيعه والتاريخ.

ما أزال أحتفظ بتلك الوثيقة في مكان آمن.

لكنّ الحقيقة هي أنني كنتُ أخاف من نفسي أكثر من خوفي منه. إنْ كنتُ أحبّه، فهل سأمارس الرقابة على كتابتي إرضاءً له؟ وإذا تزوّجته، فهل سأُجبِر كتابتي على الزواج أيضاً؟

تلك كانت ورطتي في أول الأمر – لأننا تزوّجنا، بعد ذلك بثلاثة أشهر، في فيرمونت. كان ينبغي أنْ أقاوم ميلي إلى محاولة الإرضاء بممارسة الرقابة على الحقيقة.

قال «إذا مارست الرقابة على أي شيء، فسوف تصابين بالجنون في نهاية المطاف وتتركينني. ولو كنتُ مكانك لفضّلتُ أنْ أخبرك الحقيقة *وأمكث*».

أما جنوني الخاص فكان أنْ أعتقد دائماً أنّني مُضطرة إلى الاختيار بين كتابتي والحياة. ربما هذا جنون كل كاتب. كنتُ لا أزال أقاتل في حرب أمِّي وجدَّتي.

قبل أنْ نتزوج، أقام والداي حفلة عشاء صغيرة في نُزُل ريفيّ. حينئذٍ أعادَ كين والديه بالسيارة إلى نُزُل شوغَرْبوش إنْ وأوصلتُ أنا مولي. وعند موقع ما أخذتُ المنعطف الخطأ وانطلقتُ أرتقي الجبال نحو نيويورك. كان المطر يهطل غزيراً. وواصلت القيادة.

كانت مولي تنتقدني بسخرية كعادتها بشأنْ إحساسي العفن بالاتجاه.

قالتْ «أتعلمين، ماما، لستِ في *حاجة* إلى أنْ تتزوجي إلا إذا *أردتِ* ذلك».

في تلك اللحظة، اقترب منا كين بسيارته التي يصطحب بها والده.

لم نكتشف إلا بعد أنْ تزوّجنا كل الأسباب التي جعلتْ من زواجنا أمراً محتوماً. إنَّ وصْفَته الطبيعيّة ضد الاكتئاب تُعوّض عن اكتئابي المعتاد. كان يتّصِف بالعناد المجنون الذي لدى والدي. إنه لا يستسلم أبداً في أي قتال. وهو ممسوس بشخصيّة ماد جوك ديمون[10]. يستيقظ في منتصف الليل وهو يضحك. إنه في حاجة إلى أنْ يُحبّني أكثر مما يحتاج إلى إبعادي عنه. وأنا أحتاج إلى أنْ أحبّه أكثر من حاجتي إلى الشعور بالهجر والحرمان.

لماذا تزوَّجنا بدل أنْ نكتفي بالعيش معاً؟ لأننا كنا في حاجة إلى معرفة أنه عندما تأتي المرحلة الصعبة سوف نبقى ونحل المشكلة. وكانت هناك مشكلات من الأنواع كافة. مشكلات جنسيّة، مشكلات ماليّة، والمصاعب الفريدة للعائلات الثانية. أحياناً نتشاجر كامرأتين مُشاكستين ونمارس الجنس كعاشقين. أحياناً يُدير كلٌّ منا ظهره للآخر. حتى عندما نصرخ ونتبادل رمي الأشياء، نبقى صديقَين. مَنْ منا الرجل ومَنْ منا المرأة؟ أحياناً لا أحد منا يعرف. إنَّ الزواج خنثويّ - كالصداقات الشديدة التقارُب. سوف يبقى.

كلانا قبلنا حقيقة أنّنا، بمحاولتنا أنْ يكون زواجاً بين طرفين متعادلين، نصنعُ تاريخاً (كباقي جيلنا الرائد). كلانا قبلنا أنَّ لا أحد منا يمتلك الآخر. وكلٌّ منّا كان قادراً على قول أي شيء للآخر - ودارت بيننا شجارات قاتمة إلى درجة بدا كأنَّ الشمس لن تُشرق من جديد.

ولكن في عمق كل ذلك السواد هناك إحساس بأنَّ كلّاً منا مسؤول عن الآخر - إذا لم نكن مسؤولين عن سعادة كل منا الآخر. هناك تعاطُف، إعجاب، واحترام كلّ منا لذكاء الآخر، وصدقه. ولا أتصور أنني أؤلّف كتاباً صريحاً تماماً كهذا الكتاب لو لم يكن من أجل هذا الزواج.

10- ماد جوك ديمون: شخصية كرتونيّة تمثل الشيطان أو مخلوقاً شريراً يتفوّه دائماً بنكات مُستخدماً لغة شديدة البذاءة - المترجم.

عندما يرى كين أنَّ الكتابة تعصى عليّ، يقول «وماذا إذا هاجموك أو سخروا منك – لقد مررت *بهذا* من قبل. إنه لا يلغي كلماتك».

وأُدركُ أنني مررتُ بالتجارب كلها وخرجتُ منها وأنا أضحك وأقرأ بصوت مرتفع على مسمع أفضل أصدقائي في السرير.

-15-

المشكلةُ لا تكمنُ في الرجال

«إنَّ النساء جبانات لأنهنّ بقين شبه جوارٍ مدة طويلة. وعدد النساء المُستعدّات للنضال من أجل ما يعتقدن، ويشعرن، ويختبرن مع رجلٍ عشقنه ما زال صغيراً. إنَّ غالبيّة النساء سيبقين يركضن كجِراء ويُرجمنَ بالحجارة عندما يقول رجل: أنتن مُجرّدات من الأنوثة، وعِدائيات، وتُجرّدنني من رجولتي».

• **دوريس ليسينغ، من مقدمة** ***«المفكّرة الذهبيّة»***

«إنَّ الرجال والنساء هما تابوتان مُوصَدَان، يحتوي كلٌّ منهما على مفتاح الآخر».

• **إيزاك داينسن، من** ***«سبع قصص قوطيّة»***

لما كنتُ قد نشأتُ كقطعة اللحم في شطيرة بين أُختَين، لطالما وعيتُ قسوة النساء التي لا تعرف الرحمة، وروح المنافسة الشرسة الممكنة بين الأخوات. وأنا طفلة صغيرة، أردتُ أنْ أنضمَّ إلى نادي الكتاب «براونيز» أو إلى فتيات الكشّافة ولم أجرؤ على فعل ذلك لأنَّ أختي الكبرى اعتبرتْ أنَّ فتيات الكشّافة يتكلّفن الفضيلة ومُحافِظات بصورة تدعو للرثاء. ولما

كنتُ في كلية بارنارد، مُكرّسة لشغل منصِب في الهيئة الشرفيّة (وهو شيء يمنحك امتيازاً مُريباً بارتداء ثوب أسود والمُراقبة في الامتحانات الختاميّة)، أخفيتُ هذا عن أختي الأكبر سناً، وهي أيضاً خريجة بارنارد، لعِلمي أنها سوف تسخر مني. كانت المتمرّدة وكنتُ الطيّبة المثاليّة، بينما أختي الأصغر سناً، كلوديا، كانت، في اعتقادي، المسؤولة منّي، كانت مسؤوليتي، صليبي الذي أحمله. كنتُ أستلقي على السرير وأتساءل إنْ كان مقصّ الأظافر الذي في حمّام أمي سوف يطير بصورة غامضة خارجاً من علبة معدات قص الأظافر ويطعن أختي الصُغرى في قلبها. ثم أفكِّر في وضع خطط متقنة لمنعه من فعل ذلك – وإفشال مُؤامرتي.

إذن أنا أعرف ما يمكن أنْ تفعله امرأة خسيسة بامرأة أخرى. أعرفه من رغباتي المكبوتة. لقد كان الرجال في حياتي في المعتاد أكثر لطفاً وأقلّ انتقاداً. حتى مسيرتي الأدبيّة شجّعني فيها رجال رقيقون – بدءاً بجيمس كليفورد وحتى لويس أونترماير، ومن جون أبدايك إلى هنري ميللر وأنتوني برجس. أحياناً هؤلاء الرجال أنفسهم، المعروفون بأنهم يؤمنون بالتمييز بين الجنسين، أبدوا من الاستحسان الودود للمخيّلة الأنثويّة أكثر من العديد من النساء. وبدا أنَّ كثيراً من النساء، في الحقيقة، يطلبن ألا يكون الأدب عابثاً، وأنْ تدعم البطلات حزباً من الأحزاب. ولطالما شعرتُ بأنَّ كتابة الرواية والشِعر لا تنفع لأنَّ الاحتمال ليس هو الهدف بل صحّة سياسيّة بيزنطيّة إلى درجةٍ يبدو معها كأنَّ لا أحد يمكن أنْ يُباريها – ولا حتى المُشرّعين. إذا كتبتُ عن امرأة يستعبدها رجل، اعتبروا أنني أخطأتُ في فعل ذلك، وكأنَّ أدبي يمكن أنْ يخلقَ *واقعاً*، كأنَّ المرآة الموضوعة أمام الطبيعة كانت بدل ذلك سيفاً. وإذا كتبتُ عن حب رعاية الطفل، اعتبروني مُناهِضة للثوريّة، وأختاً شريرة – كأنَّ الثديّ ليس رمزنا. وإذا كتبتُ أنه يمكن للمرأة أنْ تكون قاسية، اعتبروني خائنة – وكأنَّ التظاهُر بأنَّ كل النساء هنّ دائماً رقيقات ليس خيانة *أفدح*. لم يكن يُسمَح لي بأنْ أعبث على الورق. كان كل شيء يُنظَر إليه على أنّه قاعدة سياسيّة

وهو بالتالي خَطِر. واكتشفتُ (على غرار العديد من النساء الكاتبات) أنَّ القواعد تكون أشدّ صرامة إذا صدرتْ عن امرأة وليس عن رجل.

في عام 1979 كنتُ شعرتُ بمرارة أشدّ حول هذا، حين قرأتُ – وأنا أمٌّ حديثة العهد، توقفتْ تواً عن الإرضاع – مجموعة من القصائد عن الحمل والإنجاب في مهرجان شِعر المرأة في سان فرانسيسكو، بدأتها بهذه القصيدة:

في الليلة الأولى:

في الليلة الأولى
للقمر البدر،
انشقّ
كيس المحيط البدائيّ،
وأنجبتكِ
امرأة صغيرة،
برأس كجزرة صغيرة،
وأنف صغيرة شامخ،
دفعتكِ خارجي
كما دفعتني أمّي
خارجها،
وفعلتْ أمّ أمّها من قبلها،
كلّنا وُلِدنا
من نساء.

أنا الابنة الثانية
لابنة ثانية،

لكنكِ ستكونين الأولى.
سوف ترين عبارة
«جنس ثان»
مُحيِّرة،
وتتساءلين كيف يمكن لأي شخص،
إلا إذا كان مجنوناً،
أنْ يضعك في المركز «الثاني»
في حين أنكِ أولى بامتياز،
تتناقشين حتى حول
لياقة جسم، وضخامة، وامتلاء،
أمك،
بينما القمر بكامل استدارته
يُنيرُ السماء.

الآن عاد القمر بدراً من جديد
وأنتِ في عمر أربعة أسابيع.
شِبل، لبؤة،
تعوي طلباً لثديي،
تهرّ في وجه القمر،
كم أحببتُ شبقك،
ووجهك الأحمر المتلهِّف،
وفمك الفاغر العاوي،
وصراخك، وبكاءك
التي كلها تضجّ بالحياة
بحروفٍ كبيرة
وبلون الدم.

لقد وُلِدتِ امرأة
تمجيداً لذلك،
زاعقة صغيرة حمراء الرأس، وجميلة.
أنتِ لستِ جنساً ثانياً،
بل أولى الأوائل:
وعندما تملأ مراحل القمر
دورة حياتك،
سوف تنعقين
تعبيراً عن متعة
كونك امرأة،
تَأمرين القمر الشاحب
بأنْ يذهب ويُغرِق نفسه
في زُرقة المحيط،
وتزدهرين، تزدهرين، تزدهرين
في الأعجوبة الورديّة
لذاتك العجائبيّة
المُشرقة.

عندما انتهيتُ، أدركتُ أنَّ العديد من الحضور يُصدرون هسيس الاستهجان.

بعد أنْ انتقلتُ إلى قوة الأمومة المتحوّلة، توصّلتُ إلى فهم كونها جزءاً من البطولة الأنثويّة: إلى أنه حالما تُصبح المرأة أماً، قد تتطرَّف في انتصارها لقضايا المرأة. لقد كان لها باع طويل في إنقاذ الأرض من السياسيين الذكور، ولها باع طويل في مجال التعليم والصحّة، وفي البيئة، وفي كل السياسة الاجتماعيّة. وأخيراً فهمتْ الطريقة التي يضع بها مجتمعنا الأطفال والأمهات في آخر جدول أولوياته.

لكنَّ المرأة في ذلك المهرجان - وكثير منهن كنّ مولعات برواية *«الخوف من الطيران»* و*«كيف تنقذين حياتِك»*، وبدواوين الشِعر الأولى - بدا أنهنّ يشعرن بأنهنّ تعرّضن للخيانة بهذه الأشعار وبقصائد أخرى تدور حول الأمومة. وسخرن واحتججن على سلسلة *«معجزات عادية»*، على الرغم من أنَّ الكثير منهن كنَّ يحملن أطفالهن على أذرعهن. في ذلك الوقت، كنتُ منهارة. ألم أسع إلى أنْ أُصبح كاتبة وأماً؟ ألم أحاول أنْ أدعم نساء أخريات مُبدعات؟ ألم أحاول أنْ أُبيِّن أنَّ الأمهات يمكن أنْ يكنَّ أيضاً مُبدعات شغوفات؟ إن النقد الصادر عن النساء يؤلِم أكثر بكثير من ذاك الصادر عن الرجال. كأنه مكتوب على جِلدي بأيدي أمي وأخواتي، اللواتي لطالما كرهنني بسبب نجاحي.

لكنَّ جيل السوط الذي أنتمي إليه نشأ مع أفكارٍ عن الأمومة الإلزاميّة. كنا نُنعَتْ بألقاب مثل *«عجوز قبل الحمل»* وأسوأ. إنَّ التحرُّر يعنى كفى إكراهاً. لعلّ النساء المُستنكرات بين ذلك الجمهور كن يشعرن بأنَّني كنتُ أزداد وزناً ولا أصلح أنْ أكون أمّاً بالإكراه - على الرغم من أنني طبعاً لم أكن كذلك. لقد استنفذَتْ الأم المترددة، المتأخّرة، والعجوز قبل الحمل، كل طاقتي وشجاعتي لتقرير إنجاب طفل. ثم فوجئت بأنَّ الحمل قد غيَّرني وبأنني تولعت في حب الطفلة. والأمومة لم تُنضِجني كثيراً. وإذا كان قد حدث شيء، فهو أنَّ انتصاري لقضايا المرأة ازداد شراسة.

لكنني لم أستطعْ أنْ أُعبِّر عن ذلك كله بالكلام في ذلك اليوم في سان فرانسيسكو. أنا نفسي لم أكنْ قد فهمتُ هذا بعد.

إنَّ هذه التجربة، وأخرى مثلها، علَّمتني أنَّ تحالف النساء معاً أمرٌ حاسِم. لقد تدرَّبنا عن عمد على ألا نكون بارعات في تشكيل التحالفات. حتى مع وجود كل الفرق الرياضيّة في الوقت الراهن بين الفتيات المُراهقات، فإنهنّ يتآمرن ضد بعضهن البعض كما فعلتْ فتيات جيلي. إنهنّ يتنافسن في الملابس، والشبان، والمركز الاجتماعي، والمال، وما زلن يتبادلن النعوت النابية.

ذات مرة ولجتُ غرفة ابنتي، فسمعتها تتبادل مع بعض صديقاتها وصف «عاهرة».

قلت «إياكِ أنْ تنعتي فتاة أخرى بالعاهرة. إنها كلمة تدلّ على التمييز بين الجنسين».

مولي: «لكنها *فعلاً* عاهرة، ماما».

الماما: «إنها طريقة للحطّ من شأن المرأة لأنها تميل إلى الجنس».

مولي (لإحدى صديقاتها): «هذا لأنَّ أمي كاتبة العالم الغربي عن الجنس. لقد تزوجت *كثيراً*».

أقول، مقتطفة قول بربارة فوليت، التي كانت قد تزوجت أربع مرات: «إنَّ أربعة أزواج ليسوا كثيرين، إذا أخذنا بعين الاعتبار سنّي».

ضحكتْ صديقات مولي ضحكاً مكبوتاً.

أغلقتُ الباب.

إنَّ مبدأ الفصل بين الجنسَين لا يعني بالضرورة مناصرة قضايا المرأة، ومناصرة قضايا المرأة لا تعني بالضرورة كراهيّة الرجل. إنَّ العديد من الأمّهات والزوجات اللواتي أردنَ أنْ ينخرطن في حركة نظاميّة لدعم حقوق المرأة في حقبة السبعينيات عانينَ نوعاً من الرفض المؤلِم عرفتُه بنفسي. إنَّ الأفكار الداعمة لحقوق امرأة لم تكن أقوى بالنسبة إلى بنات جيلي مما كانت عليه حينئذٍ. لكنَّ قِصَر النظر المُزمن جعل من الصعب على بعض المُنظّمات الداعمة لحقوق المرأة أنْ تضرب بينما الحديد ما زال حامياً. فإذا تبنّيتِ «أسلوب الحياة البورجوازيّ»، تُعامَلين كمنبوذة. وينتابك إحساس بأنكِ ما لم تتحلّي بصِفات السُحاقيّة الليبراليّة، فسوف تُنبَذين. وقد كانت زخارف. وكان هناك حينئذٍ أسلوب سائد من المتوقَّع منكِ أنْ تتلاءمي معه: ارتداء زي العمل، وانتعال حذاء العمل، وبلا تبرُّج. كان أمراً مهماً أنْ تبدي وكأنكِ أتيتِ مباشرة من عامّة الشعب. وأحمر الشِفاه وتظليل العينين لم يكونا فقط ضد الروح الثوريّة، بل سوف تُذكَر

في المقابلات الصحفيّة عن كتبك. لا أحد كان أشدّ تطبيقاً للتمييز بين الجنسين من تلك المناصرات لحقوق المرأة.

كيف استطاع جيلنا فجأة أنْ يُنكِر القيم التي نشأ عليها؟ لم يستطع. بعضنا أصبحن متطرّفات، كما يُصبح كلّ الخائفين. وكما يحدث عادة في الثورات، طرد المتعصبون المعتدلين. واستغلّ الحاقدون على مناصرة حقوق المرأة الشرخ لغاياتهم الخاصة. وهكذا، نشأ جيل كامل من البنات متفادياً تعبير «مُناصرة حقوق المرأة».

الحقيقة كانت أننا كلنا كنا نتعرّض للتمييز الجنسي لمجرد كوننا إناثاً - لِمَ لم نرَ هذا؟ إنَّ كراهية النساء بعضهن للبعض الآخر بسبب قذارتهن السياسيّة لن تدعم حقوق المرأة أبداً وتنشرها. كنا في حاجة إلى *أنواع* المناصرات لحقوق الإنسان كافة. وما زلنا.

مَنْ هو الأكثر اضطراباً في أثناء الحرب الكبرى - أهي القِلّة التي انضمّتْ إلى المقاومة وكرّستْ حياتها للكفاح أم الكثرة التي اعتقدتْ أنها ستنتهي وتعود الحياة إلى طبيعتها من جديد؟

يجب تجنيد النساء اللواتي لديهن أطفال، لأنهنّ مُعرّضات إلى خِداع أنفسهن بشأن «الحماية» التي يتلقّينها من الرجال. قد يتطلّب الأمر حوادث طلاق جائرة، أو تحرُّش بأطفالهن واختطافهم، أو مُعاملتهن بوحشيّة لكي يستيقظن. قد تُحدِث الممارسات الوحشية اليوميّة، العادية في المنزل التي تظهر في زواج الرجل والمرأة، غضباً، لكنها لا تبني حركة. وهذا هو دور حركة الدفاع عن حقوق المرأة.

إنَّ النساء جميعاً لديهنّ قضيّة مشتركة. إنَّ مبدأ الانفصال يضرّ بحركتنا. والميول إلى الانفصال التي سادت السبعينيات أعاقتْ حركة تقدّمنا وساعدتْ على فتح الباب إلى الحركة الرجعيّة.

لا عجبَ أنَّ عبارة «مناصرة حقوق المرأة» كانت تبثّ الخوف. كان تعريفها بالمعنى الضيق جداً. وأنا أُعرِّف التي تناصر حقوق المرأة بأنها *امرأة تُقوّي نفسها* وترغب بحدوث الأمر نفسه لأخواتها. ولا

أعتقد أنَّ العبارة تنطوي على نوعٍ من التوجّه الجنسيّ، نوعٍ من أسلوب في الملبس، أو عُضويّة في حزبٍ سياسيّ معيَّن. والمناصرة لحقوق المرأة هي مجرد امرأة ترفض أنْ تقبل فكرة أنَّ قوة المرأة يجب أنْ تُستَمَدَّ من الرجل.

لقد كان بروز كراهية المرأة في الثمانينيات جزئياً نتاج السلطة السياسيّة اليمينيّة. لكنه كان أيضاً جزئياً على الأقلّ ردّة فعل على سياسة المرأة-ضد-المرأة. تصوّري ماذا كان في وسعنا أنْ نفعل لنواجه الحركة الرجعيّة *ونتّحد* بدل أنْ *ننقسم*؟ إننا لم نستيقظ إلا لنبدأ عمليّة بناء التضامُن عندما كانت ردّة الفعل ضد حركة حقوق المرأة مُحاصَرَة لأكثر من عقد من الزمان.

لماذا النساء خسيسات في تعاملهنَّ مع نساء أخريات؟ لأننا بقينا نماذج مدة طالت أكثر مما ينبغي؟ أم لأنَّ هناك حِقداً أعمق عاهدنا أنفسنا على اكتشافه؟

إنَّ الناشر المُتخصّص في إصدار دواوين الشِعر الممتازة كتب لي مؤخراً مُعبراً عن يأسه من أنَّ كل شاعرة كبيزة تعاقد معها رفضَتْ أنْ «تضع تعريفاً» لكتاب من تأليف شاعرة شابة جديدة موهوبة ينشر لها عملها. لم يفهم سبب مقت النساء لتقديم المساعدة لنساء أخريات - حتى فيما يُفترَض أنّه «عام المرأة» - وتوسّل إليّ أنْ أقرأ الكتاب. فقرأته، وتأثّرتُ به، و«وضعت تعريفاً به». ولكنْ جال في بالي أنني، بمساعدتي تلك الشاعرة، قد أضرُّ بفُرصي في مجال ما - و*هذا* ما لم أعرفه. إذا كان هناك حيِّز يتّسع لشاعرة واحدة، فإنَّ حيِّزاً آخر سوف يُشغَل.

قلت لنفسي «اللعنة!». وأرسلت تعريفي بالبريد. لكنَّ ردّة فعلي قويّة. إذا كنتُ لا أزال أشعر بأنني في تنافُسٍ مع نساء أُخريات، فكيف تشعر نساءٌ أقلّ شُهرة؟ يجب أنْ أفترض أنه شعور *فظيع*.

كان عليّ أنْ أوطّن نفسي على أنْ أولي الكثير من الانتباه للنساء في الحفلات بقدر انتباهي للرجال. وكان عليّ أنْ أُعزّز علاقاتي مع أُختَيَّ

وأحاول أنْ أنتزع العِدائيّة والحسد. وبدأنا أنا وأختي الصُغرى بالتدريج إعادة بناء علاقة جديدة راشدة. إنني أتوقُ إلى فعل ذلك أيضاً مع أختي الأكبر سنّاً. كان عليّ أنْ أجتهد في علاقتي مع أفضل صديقاتي وأجعلها تصمد في وجه كل المصاعب. كان عليّ أنْ أُجبِر نفسي على ألا أرفض إبداع نساء أُخريات. لقد كنا أشباه عبيد ردحاً طويلاً من الزمن (حسب قول دوريس ليسينغ) بحيث بات ضرورياً أنْ ننمّي الإحساس بالحرية داخلنا. وهذا لا يحدث بصورة طبيعيّة. ليس الآن.

إنَّ أليس ميللر، بكتابتها عن دراما تطور الطفولة، ابتكرتْ، من بين أشياء كثيرة، نظرية للحريّة. فلكي يتقبّل طفلٌ الحرية يجب أنْ يكون قد تلقّى تنشئة وحبّاً كافيين. إنَّ الأمان والوفرة هما أساس الحريّة. وتبيِّن كيف أنَّ تنشئة طفل مؤذٍ تنتقل من جيل إلى آخر وكيف أنَّ الفاشيّة تستفيد من أجيالٍ من أطفالٍ أُسيئت معاملتهم. والنساء أُسيئت معاملتهم على مدى قرون عديدة، لذلك لا ينبغي أنْ نندهش لأننا بارعات في سوء معاملة بعضنا للبعض الآخر. وإلى أنْ نتعلَّم كيف نكفّ عن فعل ذلك، لن نستطيع أنْ نجعل ثورتنا تنجح.

إنّ العديد من النساء تعرّضن للأذى في عهد الطفولة، بلا حماية، ولا احترام، وعوملنَ معاملة غير شريفة. فهل من المُستغرَب أننا أقمنا دفاعات هائلة في وجه نساء أُخريات، بما أنَّ مُرتكبي الإساءة للأطفال كنّ في الغالب من النساء؟ وهل من المُستغرَب أننا نبادل المعاملة السيئة بمثلها، أو أننا نحتفظ بغضبنا الأكبر للآخرين الذين يُذكِّروننا بمواطن ضِعفنا - أقصد نساء أُخريات؟

لكنَّ الرجال، من ناحية أخرى، مهما تصرفوا بفوقيّة فكرية، وكانوا فاسقين جلفين، وذوي شعبية واسعة، فإنهم نادراً ما يكونون قُساة ماكرين كما النساء. بالأحرى، هم يقتربون منا ونحن شابات وظريفات (ونبدو بنات محبوبات) ويتجاهلوننا ونحن أكبر سناً وأشدّ ثقة في آرائنا (ونبدو أشبه بأمهات مُخيفات)، لكنهم لا يعرفون حقاً ماذا يفعلون. إنهم

منهمكون في التواصُل مع رجال آخرين ووضع نظام هرَميّ ذكوريّ[1] لإيلائنا انتباههم. فإذا برعنا في التفاهُم وبناء التحالفات، يمكننا تغيير المجتمع. والمشكلة هي: لم نُصبح بارعات بعد في ذلك. مازلنا نتشاجر. هذه هي المشكلة التي تواجهها حركة حقوق المرأة اليوم.

لقد كانت قراءة ما تكتبه مناصرات لحقوق المرأة أمثال ناعومي وولف وكيتي رويف مفيدة. ها هنا امرأتان ربّتهما أُمّان مناصرتان لحقوق المرأة لامعتان وراسختان في وقت استطاعت فيه المرأة أنْ تلتحق بجامعتَيّ برينستون وييل وتُصبح من حاملي منحة رودس، وكلتاهما لم ترتاحا، بطرق متعددة، من حركة حقوق المرأة المعاصرة المُبرمجة. ممَّ كانتا منزعجتين؟ ببساطة: من فشل حركة تحرير المرأة في أنْ تضع في حسبانها رغبة الأنثى الجنسيّة وتأرجُح الأنثى في مسألة السلطة. لقد أبدتْ كيتي رويف ردّة فعل على مسيرات[2] *«أزيلوا الليل»* في حرم جامعة برينستون التي نادتْ باعتبار الجنس سِمة إنسانيّة وليس شيئاً فرضَه على المرأة مُغتصبون مهووسون. وجرأتْ ناعومي وولف على تفجير أسطورة «حركة تحرير المرأة الخاصة بالضحايا» وناشدتْ بالسماح للمرأة بأنْ تكون ممتلئة بالرغبات الطيبة والسيئة على قدم المساواة مع الرجل، وتشتهي إنجاز الجنس وسلطته كما يفعل الرجل، ولكن أعاقتها الأسطورتان التوأم عن الفتاة الطيبة والأخوّة الرومانسيّة. وعلى الرغم من أنَّ وولف ربما مفرطة في التفاؤل حول السرعة التي ستقهر بها المرأة خوفها من القوة، إلا أنها ملأتني بالأمل لأنني أجد أنَّ تحليلها هشَّمَ التصنيفات الزائفة التي قيّدتْ بنات جيلي. إنَّ المرأة ليستْ مُضطرة إلى الموافقة على كل شيء لتنضم إلى التحالف مع بنات جنسها لكي تدعم سلطة الأنثى. والمرأة ليستْ مُضطرة إلى نبذ الفتاة المشاغبة داخلها لكي تؤكّد حقّها في السلطة. المرأة ليست مُضطرة إلى نبذ دوافعها الجنسيّة لكي تكون «أختاً طيبة».

1- أحد الظرفاء سمّاهما قُطبَي الصفن. - المؤلِّفة

2- مسيرات مناهضة للعنف جرت في السبعينيات.

إنَّ مجيء داعمات حقوق المرأة الشابّات لبثّ الحياة في حركة المرأة بهذه المناظرة أمرٌ مُثير (سوزي برايت صوتٌ شابٌ آخر مُعبِّر بشراسة عن حرية المرأة والخطأ السياسي الشَّبِق). هؤلاء المناصرات لحقوق المرأة والعديد من معاصراتهن منَحْنَني الأمل بحركة جديدة تستطيع أنْ تكون حقاً حركة جماهيريّة. أنا أعرف العقبات التي سوف تواجهها رويف، وولف، وبرايت في رحلة النضج ككاتبات. ومعظم العقبات سوف تأتي من نساء أُخريات، يمكن أنْ يبدين غضباً - بعد أنْ حرمن أنفسهن من التعبير عن ذواتهن طوال سنين عديدة - تتجرّأ نساء شابات ذكيات ومتميزات على توجيهه إلى عالم من النقاش الفكري بطريقة حرّة ومُشاكسة. وهذه الكاتبات الشابّات شُجِبْن بقوة منذ الآن بسبب انفتاحهن جنسياً.

وهذا يوصِلني إلى مسألة النساء الأكبر سنّاً والنساء الأصغر سنّاً والتنافُس بيننا. فحين كنتُ شابة ومُفضّلة - كما هو حال وولف، وريف، وبرايت اليوم - أُصِبتُ بالذُعر من حقد وعِدائيّة الغيرة التي واجهتها من نساء أكبر سنّاً. وهذا شيء لم أتوقّعه. بل إنه مؤلِم الآن أكثر من الانتقاد الذي تلقّيته من الرجال، وهو ما توقّعته بصورة أو بأخرى. بل من الصعب الآن أنْ أتذكّر الحقد الذي نشأ إثر صدور *«الخوف من الطيران»*. والنساء الصحفيات اللواتي اعترفن بتطابقهن بعمق معه في السرّ كنّ مُستعدّات لمُهاجمتي علناً، غالباً باستخدام موجات الثقة في النفس التي استمددنها منّي، مُحدِّدات تطابقهنّ مع مناصرة حرية المرأة. لقد كان حسّ الخيانة في أقصى مداه. والهجمات الشخصيّة المريرة أثّرتْ فيَّ أكثر مما فعلتْ تلك التي تلقّيتُها من نقّاد ذكور.

لقد توصّلتُ بالتدريج إلى إدراك أنَّ هذا الميل إلى الإيذاء ليس بحدّ ذاته سِمة أنثويّة بل هو سِمة أُنثى محرومة من أجزاء مهمة من الجسد والشخصيّة. إنَّ قدميها مُقيّدتان، وبظرها مُستأصَل، ولم يُترَك لها إلا الأظافر والأسنان. إنَّ هؤلاء لَسْنَ نساءً طبيعيّات، إنهنّ نساء بأجزاء مفقودة. وعبارة *أنثى خَصِيَّة* أحدثتها جيرمين غرير لتلك الأنماط من النساء، بعد أنْ فهمت بالحدس أنَّ

الأحاسيس الجنسيّة الأنثوية الكاملة تحتوي ضِمناً كامل الثورة الأنثويّة. لكنَّ النساء اللواتي تدرّبن على النهج التطهيري وعلى أنهنّ درجة ثانية لم يكنّ مستعدات للقيام بثورة أنثويّة كاملة. ولما كانت كل واحدة تحرّض الأخرى في التنافُس، لم يتمكّن حتى من *تخيُّل* مجتمع تتعاطف فيه نساء أكبر سناً مع الأصغر سناً، وتُقدَّر فيه مشاعر النساء الجنسيّة، ويُحتفى بتفوُّق النساء. لقد أحدثَ نظام كابو[3] capo system انقساماً بين النساء على مدى قرون وبثّ العداوة بينهم وكراهيّةً لتقدُّم الأنثى.

لطالما مررتُ بتجربة الترحيب بصحفية شابّة ألهمتها كتبي أو أثّرتْ فيها ولاحقاً أرسلتْ إليّ مُزقة من صحيفتها مع اعتذار حزين لأنها أُجبِرَتْ على ممارسة الرقابة على مشاعرها، وتحويل موافقتها إلى عدم موافقة، وإضافة المزيد من «الحِدّة» (على سبيل المثال، ضربات عنيفة واغتيالات الشخصيّة - سواء أكانت صحيحة أم لا). وغالباً ما يكون المُحرِّرُ المُكلَّف الذي يطلب هذا النوع من الختان امرأةً - امرأة أوسعها النظام ضرباً - امرأة احتفظتْ بعملها بادّعائها تبنّي آراء رؤسائها الذكور وبالتالي جعلها تبدو أقوى مما هي فعلاً.

يجب أنْ نتعلَّم أنْ نكون مخلوقات أكثر كمالاً لكي نجعل حرية المرأة جزءاً من مجتمعنا. والمطالبة بتلك المنطقة منوطة بنا. **لا يمكن** للرجال أنْ يقوموا بذلك عوضاً عنّا. فذلك ليس مجالهم. ويجب أنْ نتعلَّم أنْ نحبّ وندعم إحدانا الأخرى *دون أنْ نُطالب بالتطابُق الأيديولوجي*. يجب أنْ نتعلَّم أنْ نوافق لكي لا نوافق، وأنْ نكافح كبالغات ونُحسِن الحرب، أنْ نسمح بدخول أنواعٍ عديدة من مناصرة حرية المرأة إلى الحظيرة، وألّا نسمح لأنفسنا بأنْ نتشرذم إلى فئات أصغر فأصغر وإلى مجموعات أقلّ فأقلّ قوة. هنا يكمن انتصار التمييز الجنسيّ - بعيداً عن مُشاركتنا. إنَّ مناصرة حرية المرأة لا تتحمّل «كذبة كبرى»، وقد تضمّنت

3- نظام كابو: هو تعيين مُشرِف على مجموعة من العمال، أو الجنود، أو حتى المجرمين من أجل حثّهم على أداء عملهم.

كذبة خلال الحقبتين الأخيرتين - مما يُفسّر جزئياً السبب الذي جعل العبارة تُصبح مشكوكاً فيها. إنَّ النساء *لسن* فقط رقيقات وعذبات، لا نريد أنْ نكون جزءاً من ضحايا اغتصاب جنسيّ، ولا نحن مخلوقات ضعيفة وعزلاء، وحياديّة. وباسم مناصرة زائفة لحقوق المرأة، طُلِبَ منا أنْ *نتظاهر* بأننا كذلك. واللواتي بيننا كتبنَ عن نساء بطريقة مختلفة لُقِّبنَ بـ«الأخوات المشاغبات» وطُرِدنَ من خيمة السيرك.

بما أنَّ هذا كان قَدَري ككاتبة في بلدي (وإنْ كنتُ أقلّ من ذلك في الخارج)، أشعرُ بأنَّ لي الحق في الحديث عنه. بالنسبة إليّ كان نتيجة فترات من الاستعصاء المؤلِم حاولت خلالها أنْ أكتب ولم أستطع لأنني علِمتُ أنَّ كل ما سأقول سوف يكون خطأً. وأدركتُ تدريجيّاً أنَّ النساء نجحن في أنْ يُقدّمن لي ما لم يعُد في طاقة الرجال أنْ يقدّموه: أي أنْ يجعلوني أشعر بأنني على خطأ تامّ وكامل، وجعلي أكره إبداعي الخاصّ، وأنْ أشكّ في انطباعاتي الخاصّة، وأُعيدَ تقييم نفسي إلى أن لا يعود أيُّ شيءٍ أقوله واضحاً ومفهوماً. كنتُ أجلسُ لأكتب وأنا ممتلئة بكراهية نفسي بحيث أعجز عن العمل. وكلّما وضعتُ القلم على الورقة أرى جمهرة من النساء الساخرات يُخبرنني بأنَّ كلّ ما قُلْتُ لا يساوي شيئاً.

عندما استوعبت النساء بشكل كامل مرض التمييز بين الجنسين بحيث أصبح في إمكان كلٍ منهنّ أنْ تُعدي الأخرى به، حصلنا على آلة مثاليّة، ذاتيّة الامتلاء بالوقود من أجل استمراريّة نظام التمييز بين الجنسين. ولأننا عاجزات عن تحويل إصرارنا ضد الرجال، حوّلناه ضد إحدانا الأخرى. وهكذا نبقى متورّطات في المشكلات التي دائماً ما نعاني منها. من المُلحّ أنْ نُجدِّد الآلة - كلّا، ليس نُجدّدها، بل أنْ نُحطّمها بالكامل، بحيث نسمح للنساء بأنْ يكنّ ما يحتجن إلى أنْ يكنّ.

لقد وصلتْ المُحلّلة النفسيّة تلميذة يونغ، كلاريسا بينكولا إيستس، إلى جمهور واسع جزئياً بسبب بصيرتها النافذة إلى جموح النساء:

«إنَّ جزءاً كبيراً من أدب النساء حول موضوع قوة المرأة يُقرّر أنَّ الرجال يخشون قوة المرأة. ولطالما أردتُ أنْ أهتف: يا إلهي! هناك الكثير جداً من النساء يخشين قوة المرأة. بالنسبة إلى الأنثى القديمة المزايا والقِوى شاسعة، وهي هائلة... فإذا كان الرجال سيتعلّمون كيف يتحمّلونها، فإنَّ على النساء حتماً أنْ يتعلّمن تحمّلها».

لكننا ما زلنا في البداية. وتبادل الانتقاد القاسي فيما بيننا أكبر دليل على هذا. ودعمنا للنحافة، وغياب الجنس، ومناصرة حقوق المرأة «الصحيحة» في مقابل مناصرة حقوق امرأة «الزائفة»، هي دليل على كوننا في بداية، وليس نهاية، مسيرة. وكون مناصرات حقوق المرأة الشابّات يتقبّلن دوافعهن الجنسيّة إشارة إلى وجود أمل - دلالة على أنَّ حياة المرأة سوف تُصبح ذات يوم أقلّ تقييداً، وأقلّ خوفاً من الجانب المُظلِم من الإبداع (الذي يُعطي إله الحب مفتاحه). إذا حدث هذا، فسوف نحصل على الأقلّ على قفزة كاملة من الإلهام لطالما أُنكِرَتْ علينا. سوف نحصل على أعضائنا كلها - كل الحيوانات داخلنا، من الذئب وحتى الحَمَل. وعندما نتعلَّم أنْ نحبّ الحيوانات كلها داخلنا، سوف نعرف كيف نجعل الرجال يُحبّونها أيضاً.

وماذا عن التقدُّم في السن؟ هل يفرِض الرجال قوة الخوف من التقدّم في السن علينا أم أننا نحن أنفسنا مذعورات لأننا لا نعرف إلا نوعاً واحداً من القوة - قوة الجمال الشاب؟

أليس ممكناً أننا إذا أصبحنا مرتاحات مع أشكالٍ أخرى من قوة الأنثى، قد يرتاح الرجال أيضاً معها؟ وفي روايتها المُستقبليّة، *«هو، هي، والشيء»*، تتخيّل مارج بيرسي كائناً آلياً بُرمِجَ لكي يُحب أجساد النساء الأكبر سنّاً. عرضٌ لذيذ، لأنه يُخبرنا أنه مهما كان ما نتخيَّل يمكن أنْ يتحقّق. غالباً ما تكره النساء أجسادهن. وأحياناً أعتقد أنَّ أهمّ شيء في إقامة علاقة واحدة على الأقلّ مع شخص من جنسك

- خاصة إذا كنتِ امرأة - يعني مواجهة كراهية الأنثى لذاتها وتحويلها إلى حبّ للذات.

في أربعينيات عمري، وقعت في حب فنان أشقر وكأنه توأمي. كانت علاقتنا حميمة بحيث أنها أحياناً تضمّنت ممارسة الجنس وفي أحيان أخرى لم تتضمن. ولكن حين كنا نتبادل نظرات الشهوة، كانت شبق اثنين يسعيان إلى قبول صورتيهما في المرآة. كانت تأكيداً، ليس فقط على الصداقة بل على الذات. وفي عالمٍ عاقل، لا يفصل جنس الشخص بين الحب والجنس. نستطيع أنْ نحبَّ كالمخلوقات أو ليس مثلها، نحبّها لأسباب متنوعة. سوف تختفي النعوت البالية للمثليّة - الشاذ، السحاقيّة، المثليّ - ولن يكون لدينا إلا أناسٌ يمارسون الجنس بأشكال متعددة، وبأجزاء مختلفة من الجسد. لقد قطعنا شوطاً طويلاً في زيادة عدد السكّان بحيث لا يمكن أنْ نُصرّ على أنَّ الإنجاب هو جزء ثابت من الرغبة. إنَّ الرغبة لا تحتاج إلا إلى نفسها، وليس إلى برهان من طفل. سوف نفعلُ خيراً بمراعاة كل منا الآخر بدل أنْ نُنجب كل أولئك الأطفال غير المرغوب فيهم بحيث لا يعود يتوفّر وقت لأي شخص لتنشئتهم أو حبّهم.

عند هذه النقطة من حياتي، كنتُ سعيدة بصداقاتي مع النساء. إنني لا أُميِّز بين صديقاتي المثليَّات والطبيعيّات. إنني أكره العبارة نفسها، وأشعر بأنَّ أياً منا يمكن أنْ تكون *أي شيء* - إذا ما حدث وأطلقنا سلسلة الإمكانات التي داخلنا كلها.

وليست النساء فقط يمررن بتحوُّل في الأدوار. كان مطلوباً من الرجال أيضاً أنْ يُغيِّروا كل شيء في حياتهم. إنهم دائماً يؤدُّون أعمالهم وهم جالسون، وهذا أمر صعب بالنسبة إلى المخلوقات القلقة، والمفعمة بهرمون الخصي. المطلوب منهم الاعتناء بالأطفال وتقاسُم المسؤوليات التي لم تُعدَّهم أمهاتهم لها. إذا كنا سنطلب من الرجال أنْ يُغيّروا من أساليبهم المعتادة في الاستجابة والرواية، فيجب أنْ نستعدّ لفعل الشيء

نفسه. يجب أنْ نتذكّر أنَّ حب نساء أُخريات قد لا يأتي بسهولة في أول الأمر بسبب كراهيتنا المتأصّلة لأنفسنا. ولكن شيئاً فشيئاً، سوف نتعلّم أنْ نراعي، لا أنْ نهاجم، النساء الأخريات. لن ندع الرجال يعملون على التفرقة بيننا أو استغلالنا كنماذج. سوف يُصبح هذا أسهل، بالتمرين. عندما نشعر بعدم الرغبة في تقاسم السلطة، في ألا نتعاون، سوف نتذكّر أنَّ سلطة المرأة تعتمد، ليس فقط على تغيُّر الرجل، بل على تغيُّرنا من الداخل. سوف نتبادل نموذج الحريم الراسخ منذ زمن بعيد في نفوسنا ونستبدله بنموذج الرعاية المشتركة، والدعم المشترك. وعندما يبدأ الرجال يرون أنّه لا يمكن التفريق بيننا، فإنَّ طاقتنا الإحصائيّة في عدد السكان سوف تكتسب القوة التي كان ينبغي أنْ تكسبها قبل عقود عديدة. عندما نتوقف عن ضرب أنفسنا وإحدانا الأخرى، سوف نتمكّن من أنْ نتعاون ونقهر المُسيئين للنساء والأطفال.

ألسيستيس في دائرة الشِّعر

(في ذكرى مارينا تسفيتاييفنا، وآنا ويكام، وسيلفيا بلاث، وأخوات شكسبير، إلخ، إلخ)

أفضل الجواري
لا داعي إلى ضربها.
هي تضرب نفسها.

ليس بسوطٍ من الجلد،
أو بعصا أو بغصن،
ولا بهراوة مكسوة بالجلد
أو بهراوة شرطي،
بل بسوط رائع
من لسانها

والضرب المرهف
على عقل عقلها.
إذ مَنْ يستطيع أنْ يكرهها بطريقة أفضل
مما تكره نفسها؟
ومَنْ يستطيع أنْ يُضاهي رُقي
إيذاءها لنفسها؟

يتطلّب ذلك
سنين من التدرُّب.
عشرين عاماً
من الانغماس في الذات المُرهَفة
ونكران الذات.
إلى أنْ تعتقد
المرأة أنها ملكة
وأيضاً متسوّلة -
الاثنتان في وقت واحد.
يجب أنْ تشكّ في نفسها
وفي كل شيء ما عدا الحب.

يجب أنْ تختار بشغف
وبشكل سيِّئ.
يجب أنْ تشعر كأنها كلب تائه
عن صاحبه.
يجب أنْ تُحيل كل الأسئلة الأخلاقيّة
إلى مرآتها.
يجب أنْ تقع في حب قوقازيّ
أو شاعر.

ينبغي ألا تغادر المنزل
إلا إذا كانت مُحَجَّبة بالمساحيق
يجب أنْ تنتعل حذاءً ضيّقاً
وهي دائماً تتذكّر عبوديَّتها.
ينبغي ألا تنسى
أنّ جذورها تتغلغل في الأرض.

على الرغم من أنها سريعة التعلُّم
وبارعة باعتراف الجميع،
إلا أنَّ شكّها الطبيعي في نفسها
يجب أنْ يجعلها شديدة الضعف
إنها تعمل بصورة لامعة
بمواهب متعددة
وبذلك تزيِّن
ولكن لا تغيِّر
حياتنا.

إنْ كانت فنانة
وتقترب من العبقريّة،
فإنَّ حقيقة موهبتها
يجب أنْ تُسبِّب لها ألماً مُبرحاً
وإنها سوف تنتحر
بدل أنْ تهزمنا.
وبعد أنْ تموت، سوف نبكي
ونجعل منها قدّيسة.

هذا هو النمط *القديم* لكراهية المرأة لنفسها - التي ينبغي أنْ نُحطّمه. إنَّ التغيير لا يأتي عبر النكران بل عبر القبول. إنَّ أولئك المناصرات لحقوق المرأة اللواتي اشتكين من أننا ينبغي ألا نكتب عن تعذيب المرأة لنفسها، واشمئزازها من نفسها، وعلاقات الحب الممسوسة، إنما يُقلّلون من شأن المرحلة الحاسمة في الثورة الأنثويّة. واستسلام اشمئزازنا من أنفسنا، والجارية في نفوسنا، هي المرحلة الأساسيّة التي ينبغي أنْ نمرّ بها - بما يشبه طرد الأرواح الشريرة الجماعي أو التحليل النفسي الجماعيّ. فإذا طالبنا بأنْ يكون أدب المرأة توجيهياً بدل أنْ يكون وصفياً، فلن نتمكن من طرد الجارية. إنَّ مستقبلاً من الفن الاشتراكي- الواقعي - الذي يُصوِّر مناصرات لحقوق المرأة سعيدات برداء العمل الأزرق يلوّحن بأيديهن من تراكتورات برّاقة، أو النظير المُعاصِر - لن يوصِلنا إلى حيث نحتاج أنْ نذهب، نحن في حاجة إلى تحرير إله الحب في نفس الأنثى. لقد تركنا إله الحب يعني العبوديّة، لكنَّ إله الحب أيضا لديه القوة على تحريرنا. يجب أنْ نُطالب بالحق في تصوير حياة المرأة كما *نعرفها*، وليس كما نودّ لها أنْ تكون. ينبغي أنْ نتوقف عن تطبيق وصفات سياسيّة على الإبداع.

لقد كنّا أكثر حريّة بكثير لنَهَبَ النساء الملوّنات الحقَّ في تصوير حياتهن من دون وصفات سياسيّة، وتُبيِّن كتابتُهم حريّةً غالباً ما تفتقر إليها كتابات المرأة البيضاء. والازدهار، والانفتاح، والثقل الأخلاقي الذي نجده عند كاتبات أمثال زورا نيل هيرستون، وغويندولين برووكس، وتوني موريسون، ومايا أنجلو، وأليس ووكر، وتيري ماكميلان، ولوسيل كليفتون، وريتا دوف، وأُخريات كُثُر لها مصدر واحد؛ كانت النساء السوداوات يتقدّمن على الأقلّ على النساء البيضاوات بمقدار قرنٍ من الزمان في مجال طرد الجواري داخلهن. كانت مسألة ضروريّة: إذا عمل العالم الأبيض والرجل الأسود على تجريدك من القوة، فيستحسن ألا تجرّدي نفسك منها. كتبت الشاعرة الأميركيّة-الإفريقيّة (المتخفّية باسم

مغنّية البلوز) إيدا كوكس، تقول «النساء الجامحات لا يعرفن الأحزان». والطاقة التي تُثير إعجابنا في كتابات المرأة الأميركيّة-الإفريقيّة هي طاقة تأتي عندما نكفّ عن إنكار الواقع. ليس هناك من شعور بالخزي في تلك الكتابة، لا إعادة ترتيب للواقع كي يتلاءم مع غايات سياسيّة. والعنصريّة المُزمنة في ثقافتنا تسمح بالانتقاء للمرأة السوداء بالتواصُل مع الدوافع الداخليّة الكامنة تحت الطبقة الخارجيّة لحضارتنا. يُسمح للمرأة السوداء أنْ تكون عرّافتنا، شاعرتنا الكبيرة، عرّافتنا. أودّ أنْ أرى النساء الكاتبات كلهن - مهما كانت جنسيتهن - ينلنَ تك السلطة، بحيث يمكن للّون والعرق في نهاية المطاف أنْ يُصبحا بلا أية أهميّة.

إنني أنظر إلى عِرقي - اليهودي - فلا أجد تطابقاً مع زميلاتي. نبدو كأننا قد أدرنا ظهورنا لشاعراتنا العِظام أمثال ميورييل روكيسير، ونعكس امتعاض الرجال اليهود المُثقفين من أخواتهم. هذا التأرجُح يجب أنْ نتفهّمه وننتصر عليه إذا أردنا أنْ نُطالب بحقّنا بأنْ نغنّي أغانٍ متناغمة. إننا معشر الكاتبات اليهوديات غالباً ما نُخفي عِرقنا وكأنه غير مهم. من إيما لازاروس المتطابقة مع «الجماهير الغفيرة» إلى غلوريا ستاينمان وهي تقرأ قصائد أليس ووكر بصوت مرتفع لكي تعبِّر عن نفسها المكبوتة أحياناً، تنكَّبنا دور العاملات الاجتماعيات والمقاتلات من أجل الحريّة، لكننا لم نجرؤ على القيام ***بأول*** خطوة نحو الحريّة - نحو التحرُّر. في كتابها ***«ما عُثِرَ عليه هناك: دفاتر عن الشِعر والسياسة»***، تقتفي أدريين ريتش آثار رحلتها لقبول نفسها كشاعرة، ومثليّة، ويهوديّة. اليهود يأتون في الآخر، إنها هويّة تعلّمنا ألّا نكون أداة للإزعاج. ربما لهذا السبب يجب أنْ تأتي أولاً.

ما معنى أنْ تكوني امرأة في تراثٍ يُعلِّم رجاله أنْ يبتهجوا لأنهم ليسوا نساءً؟ ما معنى أنْ يكون لديك نكران ذات قائم على مبادئ ديانتك ذاتها؟ وما لم نطرح تلك الأسئلة ونكفّ عن الاختباء خلف «الحشود الغفيرة»، لا نستطيع أنْ نُطالب بحقّنا في الولادة: أي بحريّة التعبير. كيف يمكن أنْ تكون

كتابات الكاتبات الأميركيات اليهوديات إذا توقّفت عن الاختباء خلف مبدأ تحسين المجتمع وتجرّأتْ على أنْ تعبّر بشكل كامل عمّا في قلوبنا؟

يا للمفارقة في أننا احتفينا بتلك الحريّة في الكاتبات الأميركيات الإفريقيات في حين أنكرناها على أنفسنا! لماذا ما زلنا نتظاهر بأننا نندمج في مجتمع ذكوريّ أبيض يريدنا فقط أنْ نكون وكلاء ثقافة، وليس فنانات؟ إنني أتنبّأ بازدهار تعبير الكاتبات اليهوديات عن أنفسهم إذا جرؤنا على الإجابة عن ذلك السؤال.

أمرٌ غريب أنَّ عدداً قليلاً جداً من كاتباتنا تجرّأ على المطالبة بيهوديتهنّ الأنثويّة الخاصة. وأولئك اللواتي بدأنَ اكتشافها - ليتي كوتين بوغريبين، وفيليس تشسلر وآن رويف، ومارج بيرسي - أنكرهُنَّ، أحياناً، النقّاد أنفسهم الذين رحّبوا بالعرقيّة عند الكاتبات الأميركيات-الإفريقيات أو الأميركيات-الآسيويات. هذه الصعوبة في المطالبة بهوية مزدوجة للنساء واليهود تزعجني لأنني أرى الشاعرات اللائي سرن على خُطى نيلي ساخ وميورييل روكيسير يتجهن بدل ذلك إلى التضامُن الزائف مع الرجال اليهود الذين لن يقبلوا أبداً حضورهن الورع عند حائط مبكى الأدب!

إنَّ سينثيا أوزيك وغريس بيلي هما من بين الكاتبات اليهوديات القليلات اللواتي سُمح لهنّ بالتصريح عن مناصرة قضايا المرأة والهويّة اليهوديّة ولم يُرجَمْن بالحجارة لأجل ذلك. لكن دفاعهن عن المرأة وقضاياها تمَّ تجاهله في الغالب بوصفه أحد منابع موهبتهن.

يبقى الكثير ينبغي فعله. يجب أنْ نعترف قبل كل شيء بكراهيتنا الذاتيّة المزدوجة لأنفسنا ثم لكتابتنا. يجب أنْ نكفّ عن ارتداء كساء جلديّ للساق ومعاطف. يجب أنْ نرمي بعنجهيّة المُهاجرات خلفنا ونكفّ عن الادّعاء بأنَّ في استطاعتنا أنْ نتصرّف كأنَّ إحدانا جين أوستن. يجب أنْ نستعيد إيما غولدمان وميورييل روكيسير والقوة التي تمثّلها أصواتهن.

نحن أنفسنا ليس فقط استوعبنا كراهيّة النساء في ثقافتنا ولكن أيضاً معاداة الساميّة. نحن أنفسنا نساوي بين الهوية اليهوديّة والسوقيّة والصراخ،

وهكذا خضعنا لإغراء التخفيف من أثرها. إننا نترك هويّتنا اليهوديّة ليُعبِّر عنها نجوم المسرحيات الهزليّة الموسيقيّة والممثلون الهزليون. ربما المرأة اليهوديّة تُخيف لأنها تمثّل القوة، والجنس، والصوت المرتفع. في الحقيقة، لم نكن يوماً في أمسّ الحاجة إلى شجاعتها أكثر منا الآن. لا أعني بكلامي أنَّ علينا بلقَنَة[4] مناصريّ حقوق المرأة إلى يهود-أميركيين، وأفارقة-أميركيين، وآسيويين-أميركيين، وسكان أصليين-أميركيين. في الحقيقة، إنَّ عالميّة تجربتنا أشدّ أهمية بكثير من تفاصيل الفروق بيننا. إنني فقط أُشير إلى غرابة كبت عرقنا وفي الوقت نفسه الاحتفاء بعِرق جماعات أخرى. إنْ كنا حقاً نؤمن بأنّ معرفة الذات تؤدي إلى الحريّة، فيجب أنْ نسمح لأنفسنا بالطريقة نفسها أنْ نعرف عِرقنا.

بعد سن الخمسين، أبدأ باستجواب علاقتي المتناقضة مع هويتي اليهوديّة ومع الاستيعاب غير المدروس الذي كتبتُ عنه سابقاً. يبدو لي أمراً مُدهِشاً أنَّ امرأة وُلِدَتْ في ذروة الحرب ولكن تتدرّب على إحساس أقوى باليهوديّة. وأبدأ أيضاً بالندم لأنني لم أنشئ مولي بطريقة أكثر يهوديّة، ولأنني لم أُنجِب المزيد من الأطفال اليهود لكي يحلّوا محلّ الذين ضاعوا من بين الملايين الستة. ولاحقاً بدأتُ أتوقُ إلى التضامُن مع مناصرات يهود لحقوق المرأة، ولكي أنضمّ إلى البحث عن طقوس يهوديّة لا تتّسم بالتفرقة بين الجنسين، ولكي أحتفل بيهوديّتي من دون إحساس بالخجل، من دون إحساس بمعاداة الساميّة، وقبول هويتي اليهوديّة بوصفها جزءاً من بحثي عن الحقيقة في كتابتي. في هذا المجال، استمددتُ الإلهام من كاتبات إفريقيات-أميركيات، وآسيويات-أميركيات، ومن سكان أميركا الأصليين، تغلّبنَ على موقف الاستيعاب الزائف. وبوصفي يهوديّة عِلمانيّة، سوف أُضطر إلى أنْ أبتكر إرثاً بقدر ما أُعيد اكتشافه. وللمرة الأولى، أرغبُ في ذلك. بقلبٍ منفتح.

4- زرع الشقاق والفرقة بين الناس، كما حدث لبلاد البلقان في تسعينيات القرن الماضي - المترجم.

-16-

امرأة كاملة: لقاء مع أمي

«صدّقني، إنَّ العالم لن يمنحك أية هِبات. إذا أردتَ أنْ تكون لك حياة، اسرقها»

• لو أندرياس-سالومه

«على السجن أنْ يكون صديقاً...»

• إميلي ديكنسون

«إنَّ الكثير مما تحتاج إليه ضاع. والقصائد التي نعرفها ليست إلا شذرات... يجب أنْ نستخدم ما يتوفر بين أيدينا لابتكار ما نريد».

• أندريين رينتش، من *«ما عُثِرَ عليه هناك»*

أوّل ما أتذكّر عن مجيئي إلى أميركا كان استقبال والدي لي على متن السفينة. قلت «إنه ليس والدي!». لم أكن قد رأيتُ والدي منذ أنْ غادر إلى نيويورك وأنا في الثانية من عمري، ولا بد أنني اعتقدتُ أنه يُشبه عمي بوريس - الذي كنتُ أعبده.

أقمنا في بريستول مع خالتي سارة، أخت أمي، ومع قريبتيّ ميني

وليني. وبين وقتٍ وآخر، كان ينشب بين أمي وخالتي شجار عنيف فننتقل إلى نُزُل - لكنّنا بتنا نلجأ إلى ذلك أقلّ فأقلّ بعد أنْ أُصيبَتْ أمّي بالسّل وأضحتْ نحيلة كالخيال.

أتينا إلى أميركا على متن سفينة تعجّ بالجنود العائدين إلى الوطن بعد انتهاء الحرب العظمى. وعلى الرغم من نحول أمّي وضعفها بقيتْ دائماً امرأة جميلة يلتفت إليها الرجال ويُبدون إعجابهم بها. ولم تلاحظ أنها كانت تُلفِتُ الانتباه.

في أثناء عبوري إلى أميركا، كنتُ ألعب خلف قوارب النجاة (حيث لا يوجد درابزين) وكدتُ أقع في البحر. فرفعني أحد الجنود وأنقذني. وأصبحنا حديث العبور. لقد كنتُ الفتاة الصغيرة التي تمّ إنقاذها!

أول مكان أقمنا فيه كان يقع في إيست برونكس. كنا نلبس كأميرات إنكليزيات صغيرات ظريفات مع أقواس شعر وكنا نعرف كيف ننحني باحترام ونقول «من فضلك، آنسة فلانة الفلاني» أو «شكراً لك، آنسة فلانة الفلاني». ومقارنة بأطفال برونكس، كنا من العائلة المالكة. وطبعاً اعتقدت المُعلّمات، اللواتي كنّ أيرلنديات-أميركيات عجائز متهالكات، أننا رائعات. كنَّ يرافقننا في جولة في أنحاء المدرسة بوصفنا قدوات في حسن المظهر والملبس والسلوك. وكان لهذا تأثيره. كان الأولاد ينتظروننا بعد انتهاء دوام المدرسة ويضربوننا. وسرعان ما أصبحنا أميركيات. بعد ذلك لم نعُد تلك الفتيات الإنكليزيات الصغيرات الطيبات. كنا نرتدي جوارب صوفيّة وشيئاً يُسمّى «أمشاط مُستديرة» كالأولاد الأقوياء في برونكس.

اشتاقت الماما إلى حديقتها في بريستول، فنقلنا البابا إلى هذه المنطقة المُقفِرة، إدجيمير، في لونغ آيلند - التي كانت منتجعاً راقياً سابقاً، والآن في أسوأ حالاتها. كان البحر رماديّ اللون وبارداً. وكانت لدي صديقة هناك والدها يعمل موسيقياً في مسرح الكابيتول وأتذكّر أنني كنتُ أعتقد أننا نحن الاثنتان ابنتا فنانِين لا يريدوننا. وفي ذلك الوقت، كان لدى البابا

مُحترَف في الشارع الرابع عشر في يونيون سكوير وكان نادراً ما يعود إلى المنزل. وعندما يفعل، كان ينشب بينه وبين أمي شجارات فظيعة. كانا يصرخان بالروسيّة، وكنتُ وكيتي نختبئ تحت طاولة المطبخ. وأتذكّر أنَّ والدي كسر ذات مرة باب الزجاج بيديه ثم ولج البحر، وعاد إلى المنزل ببنطلون منقوع ويده لا تزال تنزف. كانت الماما تجهش بالبكاء على طاولة المطبخ.

لاحقاً، أتذكّرها تُجري عملية إجهاض على طاولة المطبخ تلك - شيئاً سرّياً وفظيعاً ويجري الهمس حوله أيضاً بالروسيّة. بعد ذلك أسرعوا بنقلها إلى المستشفى - وهي مُقطّعة وتنزف دماً. وعلمنا أنا وكيتي أنَّ شيئاً رهيباً يحدثُ لكننا لم نكن واثقتين ما هو. ولم نفهم إلا لاحقاً. ولم يرغب البابا في إنجاب طفل آخر بُتَّ الأمر. كان يتّخذ القرارات كلها. والماما لم تكن فقط تعيسة، بل كانت غاية في التعاسة. ولم يخطر في بالها أنَّ في إمكانها أنْ تغادر.

ولكن في كل صيف، وطوال فترة حياة جدّي، كنا نذهب إلى إنكلترا. وكان ذلك بمثابة الهروب الأكبر! كان والدي يكسب نقوداً وفيرة خوّلته إرسالنا إلى هناك. كنا نقوم بزيارة جدّي عندما كانا لا يزالان يُديران محلّاً للبقالة في الإيست إند في لندن. كانت جدتي صاحبة عينين زرقاوين برّاقتين وكان لجدّي لحية صغيرة مُستدقّة وكان يمتطي الجياد. لم يكن يأبه بالتكلّم مع الفتيات من الأطفال، كان يعتقد أنهن لا يستحققن العناء. لكنَّ جدّتي كانت تعبدنا. كان جدّي في روسيا يعمل حِراجيّاً، تاجر أخشاب يشتري أشجاراً قائمة - على الرغم من أنّه لم يكن يُسمَح لليهود بامتلاك الأراضي. كان يركب الخيل ببراعة وجمال وعندما جمع ابنه الوحيد، جيكوب، ثروة - أولاً كتاجر فِراء، ثم من عرض الأفلام السينمائيّة - وتقاعد هو وجدّتي واستقرّا في مزرعة خيول جيكوب في سري، حيث الأكواخ المسقوفة بالقش، وحقول استعراض الخيول، وما إلى ذلك. طبعاً تخلّى عمي جيكوب عن زوجته اليهوديّة وتزوج أخرى

غير يهوديّة. جياد وغير اليهود - هما البرهان على الرقيّ بالنسبة إلى الشبان اليهود. وأحضر جدّي إلى مزرعته وأنقذهما من محلّ البقالة. وفي سن متقدمة درس جدّي ليُصبح حاخاماً. وطبعاً، ظل ممتنعاً عن فتح أحاديث مع الفتيات.

يبدو أنَّ والدي جمع ثروة صغيرة في عشرينيات عمره - أولاً من رسم لوحات بالنيابة لصالح أولئك المُسمَّون «مُزّيفي اللوحات»، ثم من رسم رؤوس نجوم السينما على مُلصقات لصالح ميترو غولدن ماير. كانوا في ذلك الوقت يشتغلون بالقطعة - كفناني البيانات المُصوّرة. بعض الناس تخصصوا في رسم الرؤوس، والبعض الآخر بالأجساد. هو كان يرسم الرؤوس.

كان «مزّيفو اللوحات» جماعة يُسمُّون أنفسهم فنانين في منتجعات مثل بالم بيتش. كانوا يعملون في محترف كبير، ويعتمرون قلنسوة، ويرتدون رداءً فضفاضاً، ويتحدثون مع نساء المجتمع. كانوا يقفون كفنانين، ويُخفون اللوحات بعناية عن الأنظار. ثم يتسلل البابا ليلاً ويُنفّذ اللوحة نقلاً عن صورة فوتوغرافيّة، من كتلة من الشَعر، أو عيّنة من القماش. وقد نفّذ مئات من تلك اللوحات. وذات مرة أخبرني أنه خسر أكثر من مائة ألف دولار في انهيار البورصة عام 1929 - لذلك لا بدّ أنّه كان مليونيراً حينئذٍ - وكله كسبه من الرسم. واضطر إلى جمع ثروته من جديد بعد ذلك الانهيار.

كان يمكن أنْ ألتحق بالكليّة التي أشاء - ولكنْ بما أنَّ كيتي كانت قد تركت المدرسة والتحقت بالأكاديمية الوطنيّة للتصميم، وبما أنها كانت دائماً تعود إلى المنزل مع حكايات عن مدى روعتها، وعن الشبان الوسيمين هناك، وكم كان الأمر ممتعاً، قررتُ أنني أريد أنْ أترك المدرسة أنا أيضاً. وسمح لي البابا بذلك. فلم يكن يضمر إلا الاشمئزاز من التعليم الرسمي. كان قد علّم نفسه بنفسه. وفي الأكاديميّة الوطنيّة للتصميم، كان المُعلّمون دائماً يقولون للصِّبية:

«احذروا الفتاة التي اسمها ميرسكي - سوف تفوز بجائزة روما» وتلك المنحة كانت تعني الرحلة الكبرى. لكنها لم تُمنَح أبداً للفتيات وكنتُ أعلمُ ذلك. في الحقيقة عندما فزت بميداليتين برونزيتين، غضبتُ بشدّة لأنني كنتُ أعلم أنها مجرد جوائز ترضية - وليست جوائز حقيقيّة. وذلك لأنني فتاة. لماذا يقولون احذروا الفتاة التي اسمها ميرسكي!» إذا لم يكن لتعذيبي؟

ما كنتُ لأقابل والدكم لولا صديق للبابا اسمه ريباس، وكان روسياً أبيض. كان أحد فناني الكتيّبات المُصوّرة المتخصّصين في رسم الرؤوس، وقام هو وصديق له، اسمه السيد هيتلمان كان يعزف على الكمان، بشراء منتجع في الكاتسكيل اسمه يوتوبيا. وكان من المُفترَض أنْ أعمل هناك كمُستشارة للأطفال. كنتُ في السابعة عشرة. لكنَّ السيد ريباس - لسبب ما - أصرَّ على أنْ ينام في غرفتي. قال إنَّ ذلك من أجل حمايتي. لم يُحاول أنْ يلمسني. أعتقد أنه كان مثلياً وأنا كنتُ اللّحية. على أية حال، عندما وصل والدك مع فرقته، بدا كأنني كنتُ أضاجع مالك المكان. كنتُ أرتدي ملابس رائعة - ثوباً من المخمل الأسود صنعته بنفسي - وأعتمرُ قبعات راقية. كنتُ أتنقّل في حقول من براز البقر كشبحٍ من أشباح مسرحية «حلم منتصف ليلة صيف». لذلك صمّم والدك على الزواج. وكان شديد الوسامة. وعدوانياً جدّاً.

كان صاحب عينين زرقاوين وشعر بنيّ خفيف. كان سيد المراسم، ومدير قاعة الرياضة، وقائد الفرقة، والكاتب الساخر الأول - كان يقوم بكل الأعمال. وكنتُ أرى أنَّ نكاته صاعقة إلى أقصى مدى - وبذيئة. وكان مستوى الفكاهة عميقاً جداً. وفي ليالي أيام الجمعة كانوا يتبادلون النكات حول وصول القطار المتيبس - وأزواج المدينة الشبقين.

لكنَّ أختي العزيزة لم ترَ أي شيء يخصّني ولا تريده. لذلك حالما عادت من المدينة، بذلتْ أقصى جهدها للفوز باهتمام سايمور. ولو لم تحاول نيل اهتمامه، لما تيقّنتُ من أنه المقصود - لكنَّ هذا بتَّ بالأمر. ولو أنَّ كيتي أرادته لأخذتُه لنفسي. هكذا كانت أخوّتنا! لم أرَ أية أهميّة في

الزواج. لقد كنتُ صاحبة روح حُرّة، كنتُ فنانة. من المفترَض بالمرأة أنْ تكون حرّة. وقُدوتي في ذلك كانت الشاعرة إدنا سينت فينسنت ميلاي. وحتى أمي، التي حصلت على زيجة فظيعة، كانت شديدة الافتخار بصديقتها طبيبة الأسنان. لقد آمنت بقوة بما نُسمّيه تحرير المرأة. لم تكن إحدى تلك النسوة اللائي يخرجن في مظاهرة للتعبير عنه - لكنها آمنت به. وفي الوقت الذي كنتُ أواجه مشكلات مع والدك قبل أنْ تولدي، قالت «اتركيه إنْ كان هذا ما تريدين. وسوف أساعدك قدر استطاعتي» لقد أرادتْ أنْ أحصل على حياة أفضل مما حصلتْ هي عليه. لم ترغب في رؤيتي واقعة في فخ زواج فاشل.

ذات مرة، في أثناء رحلة إلى اليابان مع أبي، راودني حلمٌ عن أمي لن أنساه ما حييت. كانت ساقاها مبتورتين وتنزفان وكانت موثقة إلى عمود، أو إلى أعلى برج كنيسة، وأتذكّر نفسي أزحف على الأرض وأبكي لمنظرها، لكنها بقيت تردِّد: «لا بأس يا عزيزتي، الأمر ليس بهذا السوء». وهذا يُلخِّص علاقتنا.

لم يكن والدي مُستعداً ليكون أباً عندما كنتُ وكيتي صغيرتين، ولكن عندما وُلِدتْ أختكما نانا، اكتشفَ الأبوّة وكأنها شيءٌ عتيق الطِراز. ولم تتحسّن علاقته بأمي، لذلك أصرَّ على أنْ نعيش كلنا معاً - ربطنا داخل تلك الشقة الكبيرة وجعل الطفلة الوليدة هي مركز كل اهتمام. كنتُ أقوم بدور الخادمة، ووالدك كان الساقي، والماما كانت الطبّاخة. كان البابا هو الملك وأختك هي الأميرة. لذلك - الجدّ الذي أحببته حباً جماً كان اختراعاً حديثاً. لم يكن أبداً بمثابة أب لي. ولديك ذكريات رائعة عنه - وبالنسبة إليّ لم يكن أكثر من طاغية لعين. لقد قام عملياً بإحراج السوق بشأن الشوفينيّة الذكوريّة! كان يُعامل الماما كأنها بلهاء - ودائماً يُشوّه سمعتها. واضطررتُ إلى أنْ أكون مُحاربة لكي أنشأ مع أبٍ كهذا. ثم، مع جدّيه، كان يُصبح قديساً! أولاً يُدمّر حياتي، ثم يختطف أولادي!

عندما وُلِدتِ، في أثناء الحرب، كدتِ تموتين بالمعنى الحرفيّ.

كنتِ الطفلة الوحيدة التي نجت. لطالما أحببتك أكثر من أي شيء لأنني كافحتُ بشراسة لأحافظ على حياتك.

إنه يوم صيفيّ حارّ جميل في منتصف شهر أيلول – بعد مرور عام على حواري مع والدي. نحن في منزلي في كونكتيكت. وأمي تتكلّم وتسجّل صوتها على شريط تسجيل بإلحاحٍ مني. لقد باحت من دون قصد بشأنْ العداوة مع كيتي.

أقول «وهكذا كلنا ندين بالكثير إليها. ومن دونها ما كنا *هنا*».

تقول أمي «أعتقد ذلك» من دون أنْ تعني ذلك.

دار بيننا شجار آخر من النوع القديم: هي تمقت تأليهي لجدّي، شاعرة بأنني حصلتُ بصورة ما على أفضل ما فيه ولم أُبدّد المرارة التي أكنّها له. إنها تريد مني أنْ أفكّر فيه كما تفعل هي.

أقول مُحتجّة «لكنّه بدا لي *مختلفاً*. ألا أستطيع أنْ أُكوِّن فكرتي الخاصة عنه؟».

واضح أنني لا أستطيع. حتى وأنا في الخمسين من العمر، وأحاور أمي، محاولة أنْ أحصل على المادة من أجل سيرة ذاتيّة، غضبتْ لأنَّ لديّ وجهة نظري الخاصة. يجب أنْ يكون رأيها هو الصائب الوحيد.

سألت «لماذا مكثت معهم إذا كنت تكرهين ذلك كثيراً؟».

تقول أمي «كان الطريق الأقلّ مُقاومة. في آخر المطاف، نجونا. ولم ندعهم يعودون».

هذه الضغينة تفوح برائحة دم بائت، وأشعر بأنني لن أصل إلى أعماقها، لقد مات جدّاي، لكنَّ الضغينة تبقى. لقد استنزفتْ طاقتنا على مدى سنوات وتبقى في الذاكرة عبر الأسماء التي يُطلقها كلٌّ منّا على الآخر. أنا أُطلق على جدي وجدّتي اسمَي بابا وماما – وعلى والديّ إيدا وسايمور. في سن الرشد حاولتُ أنْ أُخاطب والديّ بأمي وأبي، لكنني شعرتُ بأنها مجرد إضافة ثانويّة – وغير طبيعيّة بصورة ما. ما زال جدّاي يهيمنان على المنزل – على الرغم من موتهما منذ زمن طويل.

كان والدي غاضباً مثل أمي وأجلستهما معاً ليسجّلا معاً. لقد شعر بأنه مُستثنى. والآن هو يتجول، حاملاً بطاقة كتبَ عليها مُقتطَفاً طويلاً. ويقرأه على مسمعي ومسمع أمي بصوت مرتفع، وكأنها قصيدة:

لقد أصبحتُ ما أنا عليه،
عجوزاً، متهدماً، غير حقيقيّ بالنسبة إلى نفسي،
ضحيّة الإبهام المُطبِق
وعشوائيّة العيش،
وفوات الأوان البغيض.

لماذا أنا، أنا وليس شخصاً آخر؟
شاب، ليس عجوزاً أو لم يولَد بعد -
بدل أنْ أكون نتيجة
اتحاد عشوائيّ -
جُعِلَ لحماً - وأودِعَ
عالماً قاسياً،
أزدهر، وأتزوج ومن ثم أموت في الحال.

يسأل «هل تعلمان مَنْ قال هذا؟».

وقبل أنْ يتمكّن أي منا من الإجابة، يُجيب «غور فيدال. كاتب عظيم. من كتابه ***1876***».

أقول، لكي أبثّ الأمل في والدي «وعانى الكثير من النقّاد».

يقول والدي بشجاعة «أيري فيهم. يكفي أنْ تتغلّبي على الظروف الصعبة مرّة، حتى تتغلبي عليها من جديد».

تقول أمي «كدتِ تموتين، بما أنكِ وُلِدتِ». ثم تسكت برهة وتضيف بجديّة: «لكنني رفضتُ أنْ أدع أيّاً من بناتي تموت».

كان يوماً يانعاً بصورة خارقة. كانت أمي قد رسمت على ظهر السفينة – رسمت لوحة مائيّة تمثّل برميلاً يفيض بنبات الكبوسين. كان كين قد أعدّ وجبة غداء لكل شخص وارتاح كل منا بصحبة الآخر بطريقة كان يمكن أنْ تكون مستحيلة قبل أنْ أتزوّجه. لكنَّ التقسيم بقيَ. ولا أستطيع حقاً أنْ أتخيَّل حدود حياة أمي أو حياة جدّتي ولا أستطيع أنْ أُجيب عن السؤال المُربِك حول السبب في كوني أكثر تحرُّراً من أمي وجدّتي. أعلم أنَّ هناك شيئاً في ضرب البنات يُناقِضُ حدود الأم التي تدفعنا إلى اكتشاف هويتنا. أتخيّل ابنتي وهي تُحطّمني، تُدمّرني. عليها أنْ تفعل هذا لكي تتحرَّر مني. إنها تسخر من شرودي، ومن ميلي إلى القلق، ومن مواعيدي الأخيرة المتكررة. وتضحك ساخرة من زيجاتي، وأصدقائي، ومن سمعتي الوضيعة كمُصوِّرة. عليها أنْ تفعل هذه الأشياء لترسِّخ هويّتها في مقابل هويتي. هكذا كبرتْ. إنني الأرض التي نبتتْ منها. وعليها أنْ تخترقها لتبني صرح نفسها. بالنسبة إليها، أنا مجرد موقع بناء – وهكذا يجب أنْ أكون.

هل الحب حريّة أم عبوديّة؟

هذا هو موضوع النقاش الذي كان يدور بيني وبين كين كلما تطرّقنا إلى موضوع الزواج. وهو النقاش الجوهريّ، أليس كذلك؟ «الحب في مقابل الحريّة»، كتبتُ هذا في مكان ما في دفتر الملاحظات عن هذه الذكرى: «كيف نُزيل كلمة *مقابل*».

كان كين يقول «أنْ نعلم أنَّ كلاً منا يُحبّ الآخر، فذلك يعني الحريّة. أيُّ حريّةٍ في أنْ تعرفي من أجل مَنْ تعودين إلى المنزل ليلاً؟! أيّ حريّة في ألّا تثوري وتصخبي حول أُسُس حياتك؟! أيّ حريّة في معرفة أنَّ هناك شخصاً يُحبّك كما أنت؟!».

في أول الأمر، تشاجرتُ معه حول هذا، وأنا أقول في نفسي *هذا جدير برجل*. إنَّ الزواج كان دائماً، بالنسبة إليّ، يعني العبوديّة والاستسلام، ولا

أطيق صبراً على الفرار منه. قد يشعر الرجل بأنه ثابت في الزواج نفسه الذي وجدت المرأة فيه فخاً.

ولكن هذه المرة أقسمتُ على أنه سيكون مختلفاً. كانت قواعدنا الأساسيّة مختلفة. وتزوّجتُ وقد صمّمتُ على ألّا أكون ذلك الشيء المريع - *زوجة*. أصررتُ على المشاركة المتعادلة، لعِلمي أنَّ الأمر لن ينجح بغير ذلك.

ومع ذلك وجدت نفسي في أوائل الزواج - على الرغم من كلّ وعودي لنفسي - أنجرف نحو أداء دور الزوجة: أركّزُ على إحداث تجديدات على الشقّة، وأقوم بأعمال منزليّة صغيرة وتافهة بدل أنْ أكتب، مُستخدمة دور الزوجة لأتهرَّب من عملي، عملي الذي لطالما ورّطني في الكثير من الجدل والذي يتوق جزءٌ مني إلى الانسحاب منه. أستطيع أنْ أضع اللوم على كين في هذا، لكنَّ الذنب لم يكن ذنب كين، بل ذنب حافز الزوجة فيَّ. حتى عندما بلغت السابعة والأربعين من العمر، وأنا مُفعمة بطاقتي الخاصة، بهويتي الخاصة، أراد شيءٌ ما داخلي أنْ يهرب من الشجار ويستكين في *الزوجة*. بدا ذلك مريحاً جداً، وآمناً. كنتُ قد سئمتُ القتال. وانجرفتُ مع الأيام، أنام وأتسوَّق. لم أرغب في الاستمرار في الحرب.

العديد من النساء المقاتلات ردَّدن هذه الفقرة - هذه الرغبة في الاستقرار والاختباء، الرغبة في ترك الرجل يتولى القيادة. إلى أنْ تحدّيتُ ذلك التنين داخل كهفها، كيف استطعت حتى أنْ أتظاهر بأنّني أتكلَّم بالنيابة عن نساء أُخريات؟

كم من مرّةٍ تساءلتُ كيف أمكن أنَّ ثورة المرأة بدأتْ وتوقّفتْ مرّات عديدة جداً على مسار التاريخ - بدأتْ بفُجاءة الزلزال وغالباً ما احتضرت بالسرعة نفسها. النساء يُرِقْنَ محيطات من الحِبر، ويُغيِّرن بعض القوانين، ويُغيِّرن بعض التوقّعات - ثم يهدأنَ ويُصبحن نُسخاً من جدّاتهن من جديد. أي منطق يقودهن؟ أي إحساس بالذنب يدفعهنّ إلى إفساد مكاسبهن؟ أو ربما ليس إحساساً بالذنب. ربما، كما تقول مارغريت ميد

في كتابها ***شتاء العلّيق***: «إنَّ الطفل الوليد يُفرِطُ في الابتسام». أو ربما هو توتّر عاطفيّ بسبب اضطرارك إلى قتال العالم في كل يوم.

إنَّ معركة نيل المرأة حقوقها لم يفُز فيها أحد بعد. والمرأة لا تستطيع أنْ تُدرك مدى مكر الفِخاخ الأبويّة إلى أنْ تتمرّس قليلاً. إنَّ المناصرات لحقوق المرأة الأصغر سناً أمثال ناعومي وولف استخففن بمدى غِنى القوة الأبويّة ورضوخ المرأة لها في أعماق روحها. إنهن لم يأخذن في حسبانهن بعد كامل مدى حياة المرأة. إننا نرضخ إلى عالم الزوجة لأننا تعوّدنا كثيراً على وضع اللوم على شخص ما وعلى عدم التعوّد على الحريّة. إننا نفضّل مُعاقبة الذات على غزو مخاوفنا. ونفضّل غضبنا على حرّيتنا.

لو كانت المرأة واعية تماماً للجزء منها الذي يتخلّى عن سُلطته للرجل، لبرهنَ توقّعُ الانتصار على أنه صحيح. لكننا أبعد ما نكون عن معرفة أنفسنا. ونحن نبتعد أكثر مع انسحابنا عن النموذج المُحلَّل نفسياً من الذات. وما دمنا نُنكر أهميّة الدوافع اللا واعية، ووجود الذات اللا واعية، لا نستطيع أنْ ننتزع الجارية داخلنا. من الصعب أنْ نُحبّ الحريّة. الحريّة تُلغي الأعذار كلها.

إنَّ كان هذا وعياً، فكل شيء سيكون سهلاً – ومن السهل تغييره. لكنه مدفون عميقاً. وفي المعتاد لا نعرف أننا نُعْلِي من قيمة الذَكَر ونبخسُ قيمة الأنثى. في المعتاد لا نعلم أننا منقسمون رغماً عن أنفسنا. لا نعلم أننا تبنّينا كون البابا على صواب والماما على خطأ.

إنَّ كل كتاب كتبتُه كُتِبَ على الجثّة الدامية للجدِّة. كل كتاب كتبتُه مع إحساس بالذنب، مدعوماً بالألم. كل كتاب كان بمثابة طفل لم أُنجبه، وعشرة آلاف وجبة لم أطبخها، وعشرة آلاف سرير لم أرتّبه. أتمنى، قبل كل شيء، أنْ أكون غير منقسمة، أنْ أكون كُلّاً كاملاً (إنَّ هذا، في الحقيقة، هو الفكرة الرئيسة لأعمالي كلها)، لكنني في مكان ما بقيت غير منقسمة. كشخص ارتكبَ ذات يوم جريمة فظيعة لم يُعاقَب عليها،

لطالما انتظرتُ سقوط شفرة المِقصلة. في هذا المجال، أشكّ في أنني أختلفُ عن أي امرأة أخرى.

توفيتْ جدّتي في عام 1969. بعد ذلك بعشرة أعوام كتبتُ هذه القصيدة، في محاولة لأسرِ قدرٍ من المشاعر التي أثارتها قُدوتها داخلي:

امرأة كاملة.

لأنَّ ساعات جدّتي
أمضتها في خبز كعك التفاح،
وفي جمع الغبار،
وصبغ الأغطية
وفي الدرز وصنع الحواشي
التي لا تنحلّ أبداً -
أنا لا أُحسِن العناية بالمنزل -
على الرغم من حبي للمنازل
وأتمنى أنْ يكون لديّ منزل نظيف.

لأنَّ دقائق أمي
يبتلعها هدير
المكنسة الكهربائيّة،
وترقص الفالس مع الغسّالة-المُجفِّفة
وتنتف شَعرها وهي تنتظر عمال الإصلاح -
أُرسِلُ أنا غسيلي ليُغسَل،
وأعيش في منزل يعلوه الغبار،
على الرغم من أنني *حقاً* أحبّ المنازل النظيفة
كأيّ امرأة أخرى.

إنني امرأة بما يكفي
لأحبّ عجن الخبز
وملمس
مفاتيح الآلة الكاتبة
على أصابعي -
مرنة، مرنة.
ورائحة الغسيل النظيف
وغليان الصابون
عزيزان عليّ
كرائحة الورق والحبر.

ليتني لا أختار بينها.
ليتني امرأتان.
ليت الأيام أطول.
لكنها قصيرة.
لذلك أكتبُ بينما
التراب يتراكم.

أجلسُ عند آلتي الكاتبة
أتذكّرُ جدّتي
وأمهاتي كلهن،
والدقائق التي بدّدنها
في حب المنازل أكثر من حبّهن لأنفسهن -
والرجل الذي أحبّه يُنظّف المطبخ
لا يكاد يتذمّر
لأنه يعلم
أنَّ الأمر بعد مرور كل تلك القرون

أصبح أسهل بالنسبة إليه
مما هو عليّ.

والآن، بعد مرور عقود، أصبحت هذه المشاعر أقوى.

إلى أين يؤدي هذا بالأنثى المُبدعة؟ إلى مأزق، كالمعتاد. تجلسُ جدّتي على كتفي وأعملُ على إسكاتها. إنها تُذكّرني بواجباتي: اجتماع المدرسة، التسويق، بناء عشّ، الاعتناء بالعالم الخاصّ. لكنني في حاجة إلى العمل ولأنْ أقول كلّا لطفلتي. على زوجي أنْ يطبخ ويرعى الطفلة أيضاً. وعليه أنْ يقوم بتنظيف المنزل أيضاً. هل هناك حريّة خنثويّة تتجاوز الأنثى والذَكَر؟ إنَّ النساء والرجال معاً يحتاجون إليها.

تعود إليّ ذكرى من عهد الطفولة من خلال تلافيف الأعصاب. أنا مُستلقية على سريرٍ كبير بين والديّ. ربما أنا في الرابعة أو الخامسة. استيقظتُ بعد أنْ راودني كابوس، فحملني والدي الناعس إلى السرير ووضعني بينه وبين أمي.

إنه النعيم. تذوُّق مُسبق للجنة. ذكرى محيط من السائل النُخطيّ[1] - دفء جسد أمي على أحد الجانبين ودفء جسد أبي على الجانب الآخر (الفرويديون سوف يقولون إنني سعيدة بالتفريق بينهما، وربما هم على صواب، ولكن لنضع هذه المسألة جانباً الآن). يكفي أنْ نقول إنني سعيدة لكوني هنا في الكهف البدائيّ، أغتسل بإشعاع الجنّة.

وأعود بعيداً، بعيداً في الزمن. أنا مستلقية أنظرُ عالياً والسقف يبدو مشكالاً مكوّناً من مكعبات البازيلاء والجزر - طعام الحضانة - مستكينة ودافئة. تمتزج روائح أمي وأبي برائحتي. روائح العائلة الأساسيّة. روائح مألوفة نولَدُ منها. للحظة من الزمن، لم يكن هناك إلا هذا العالم، لا أطفال، لا معلمات، لا شوارع، لا سيارات. جنّة عدن هنا بين والديّ

1- السائل النخطيّ: السائل الذي يُحيط بالجنين وهو في بطن أمه.

النائمَين ولا يوجد عِقاب في الأفق. وأتعمّد أنْ أبقى يقظة لأتذوّق طعم الـ *paradiso* (الجنّة) متسللة خلال *purgatorio* (مطْهَر) الحياة اليوميّة، من *inferno* (جحيم) المدرسة وأخواتي، وحروب صندوق الرمل التنافسيّة، وقسوة الأطفال الآخرين.

من هنا نبدأ كلنا - في جنّة الطفولة. وإلى هذا المكان يسعى الشِعر إلى إعادتنا. إلى قُطبَي وجودنا - الحب والموت: السرير الأبويّ والقبر. وننتقل من أحدهما إلى الآخر.

جدّتي الجالسة على كتفي غاضبة، لا تريد مني أنْ أكتب هذه الأشياء، وتؤمن طبعاً بأنَّ الحِكمة في حياة المرأة هي التزام الصمت بشأن كل الحقيقة التي تعرفها. لقد تعلَّمَتْ أنَّ من الخطر استعراض المعرفة الحميمة. المرأة الماهرة تبتسم وتلزم الصمت. ومشكلتي هي أنَّ الكتب لا تُكتَبْ بهذه الطريقة. خاصة الكتب التي تحتوي أقلّ قدر من الحقيقة.

إذن نعود، حتماً، إلى مشكلة المرأة التي تكتب الحقيقة. يجب أنْ نكتب الحقيقة لكي نُصادق على مشاعرنا الخاصة، على حياتنا الخاصة، ولم نكتسب تلك الحقوق إلا مؤخّراً جداً. وفقط مؤقّتاً. إنَّ الطُغاة يحرقون الكتب لأنهم يعلمون أنَّ الكتب تساعد الناس في التعبير عن مشاعرهم، والذين يُعبّرون عن مشاعرهم من الصعب سحقهم.

إنَّ المجتمع الأبويّ وضع تقليدياً حظراً على تعبير المرأة عن مشاعرها لأنَّ الصمتَ يفرض الإذعان. وجدّتي تعتقد أنها تريد أنْ تحميني. ولا تريد أنْ تراني وأنا أُرجَم في السوق العامة؟ ولا تريد أنْ يُشهَّر بي بسبب كلماتي. وتريد أنْ أكون آمنة لكي أُنقِذَ الجيل التالي. إنَّ لديها اهتمامَ الأم في الإبقاء على حياة العائلة.

صمتاً، يا ماما، لقد تغيَّر العالم. إننا نعبِّر عن أصواتنا الخاصة. وسوف نتكلَّم ليس فقط بالأصالة عن أنفسنا بل وبالنيابة عنكِ. ونأمل ألا تُضطر بناتنا إلى قتل جدّاتهن.

قمتُ بغزو المطبخ من أجل إعداد شطائر الزبد والسُكّر بينما أختي الكبرى تحمي الحصن (والطفلة).

تسأل جدّتي «ماذا تفعلين؟».

أقول، وأنا أهرع إلى الخلف لأحتمي مع بالشطائر «أوه، لا شيء».

تهتف جدّتي «يا بنات! يا بنات!».

نتظاهر بأننا لا نسمع.

تهتف «يا بنات! ماذا تلعبن؟».

نقول، ونحن نمضغ الشطائر داخل الخزانة، مختبئات من النازيين الوهميين «أوه، لا شيء».

لا نستطيع أنْ نقول إننا نلعب لعبة الحب والموت. إننا حتى لا نعرف كيف نكتب الكلمتين. لكننا نلعب لننجو بحياتنا، نلعب لكسب الوقت، ونلعب لتعلّم الحياة.

أختي الكبرى، التي اخترعت هذه اللعبة، وُلِدَتْ في عام 1937. كان العالم على حافة نشوب حرب عندما خرجَتْ إليه، وشربتْ التهديد بالخطر مع حليب أمّنا. وسرتُ على خُطاها، كما تفعل الطفلة الوسطى عادة. سحرتني التفاصيل: الطفلة المُحزّمة داخل عربة الدُمى، مهمتي الذهاب إلى المطبخ واختطاف الشطائر، وعودتي بسرعة جنونيّة على طول الرواق مخترقة غابة وهميّة، تعجّ بالنازيين الوهميين، المتنكّبين رشاشات وهميّة، وإحساسي بأهميتي كناجية من الموت، وكمُعيلة، ومموّلة بالطعام.

يقول الشاعر دلمور شفارتز[2] «في الحلم تبدأ المسؤوليات». وفي الألعاب يبدأ العمل الجادّ في حياتنا. ما زلت المرسال، ما زلت المُعيلة، وما زلت أختبئ داخل الجوف العطِر لخزانة البياضات لكي أكتب، ثم أندفعُ خارجة لأستمدّ الدعم من العالم، ثم أهرع عائدة لأُطعِم الطفلة ونفسي.

2- دلمور شفارتز (1913 – 1966): شاعر وكاتب قصة قصيرة أميركي يهودي من أصل روماني. ومقولته *«في الحلم تبدأ المسؤوليات»* هي أيضاً عنوان لأشهر قصة قصيرة كتبها – المترجم.

الطفلة التي أُطعِمها هي أحياناً ابنتي، وأحياناً أنا نفسي، وأحياناً كُتبي. لكنَّ مِثال النجاة المسعورة واضح. إنني أتذبذب بين نوبات من الهدوء وأخرى من التوتّر الأقصى. الحرب العالمية الثانية ما زالت تستعر في رأسي.

أحاول أنْ أتخيّل حياة جدّتي بالمقارنة مع حياتي. وُلِـدَتْ في ثمانينيات القرن التاسع عشر في روسيا، ونشأتْ في أوديسا، وجاءت إلى إنكلترا خلال فترة المراهقة، وتزوَّجَتْ وأنجبت ابنتين قبل نشوب الحرب العالمية الأولى. وفي العشرينيات، قامت بتنشئة طفلين صغيرَين في نيويورك، بعد نجاتها من مذابح، واضطرابات ثوريّة، ووباء إنفلونزا، ومرض السّل، والحرب العالمية الأولى، والعزل، والهجرة، ولغتين جديدتين، وأرضين جديدتين. وأنا، الابنة الثانية لابنة ثانية لابنة ثانية، أحمل أعباءها في داخلي.

إنني أقبضُ عليها كأنها فُرصٌ ثمينة. وأعانقُ الشجاعة والثبات اللذين نقلتهما إليّ. لكنني فزتُ بالحق في التحدّث عن الأمر - حق لم تحلم هي به قط.

أين تذهب كل الذكريات؟

والآن بعد أنْ علِمتْ أمي أنني أكتب سيرة ذاتيّة، جلبتْ إليّ ملاحظات مدوّنة على قُصاصات ورق صغيرة صفراء اللون. وآخر تلك القُصاصات تقول: «دي-دي، فنالايك، والرجل الشهير».

أخبر أمي «لا أحتفظ إلا بذكريات مبهمة جداً. مَنْ كانوا؟».

تقول «أوه - كانوا أصدقاءك الوهميين. كنتِ تتحدثين معهم على مدى *ساعات*. لم تكوني تذهبين إلى *أي مكان* من دون دي-دي، وفنالايك، الرجل الشهير».

أنا واقفة في وسط مقبرة. في كل يوم، يموت شخصٌ أصغر مني سناً.

في كل يوم تحمل أوراق النعي خبراً عن أنَّ شخصاً ما من الجامعة أو من المدرسة الثانوية أو المُعسكر قد توفي وهو في سن السابعة أو الثامنة أو التاسعة والأربعين أو حتى الخمسين. أحياناً أشاهد أحد زملائي في المدرسة ويبدو رجلاً أو امرأة عجوزاً. وأحياناً أقابل أناساً لا أتذكّر أسماءهم على الإطلاق. متى سوف أصبح كخالتي كيتي؟ متى سأنسى كل شيء؟

والآن حتى أصدقائي الوهميين المحبوبين من عهد الطفولة ماتوا. كل ما تبقّى لدي هي أسماؤهم مدوّنة على قُصاصات من الورق. ولا أتذكّر أي شيء عنهم. مَنْ كانوا أصلاً؟ هل سنعيد اختراع أولئك الأصدقاء بدءاً بأسمائهم؟

أعتقد أنَّ «الرجل الشهير» هو نوع بديل سخيف لوالدي. إنه يرتدي سترة من الجوخ الأبيض بلون الثلج ويضع زهرة زرقاء برّاقة في عروته. شعره مُسرَّح صقيلاً إلى الخلف بالكريم ويفوح بعبق عطر أكوا فيلفا الأزرق بلون الثلج. والرائحة تُثير ذكرى عزف بيانو ينبعث من الشقّة المجاورة وسيارات ليموزين بلون أزرق منتصف الليل بأجنحة على شكل قضبان. إنه يرقص كحلم، منزلقاً على أرضيّة من فحم الأنتراسيت المصقول بحذائه الأسود الصقيل. إنه الشهوة، والحب، والحظ، ورحلة إلى القمر على أجنحة مهفهفة. يستطيع أنْ يعزف أي شيء من كتابه الزائف – أغانٍ منسيّة مثل «ذكريات كثيرة جداً» أو «قفزة جيرزي» وأغانٍ مشهورة مثل «ودخل الحب» و«الدخان يدخل في عينيك». يستطيع أنْ يرقص التانغو، والمامبو، والرومباه مع حرف هاء، وعندما يُغادر، يعزف لك البلوز (لكنك تفضّلين البلوز أكثر من أي رجل آخر). إنه أبي والفتى ذو الشعر الأحمر المشعّث مع وشاح هارفارد الذي يفتح باب قطار النفق في الشارع الثامن والسبعين وسنترال بارك ويست. وذات مرة، تصبّب بالعرق وهو يرتدي قميصاً رياضياً، وتركه في سلة غسيلك، وأنتَ ارتديته ولم تغسليه. ومنذ ذلك الحين وأنت تنامين به.

كل شخص آخر أحببته أو تزوجته هو بديل للرجل المشهور. عيناه زرقاوان وخضراوان وبنّيتان وبلون ذهبيّ دافئ كل هذا معاً. يستطيع أنْ يُغيِّر الرؤوس أسرع مما تفعل الأميرة لانغوايدر[3]. ومع تقدّمك في السن، تقلّ مرّات لقائك به. وتتسرّب نفحة من النغم من خلال الجدار، ورائحة عرق وكولونيا عذبة، وكأنكِ ترينه. وذات مرة، تجولتِ في المدينة بسيارة ليموزين في منتصف الليل بحثاً عنه، وطبعاً عندما تجدينه سوف تجبرينه على ممارسة الجنس هناك على أرضيّة السيارة بينما السائق بعينيه الشبيهتين بعينَي بريل[4] والجمجمة الزجاجيّة يقود كمخمل رطب، مانحاً الفرصة لكِ لتفعلي الشيء نفسه. *آه، أيها الرجل المشهور – متى ستأتي وتعيش في حياتي؟*

«مستحيل»

«*لماذا؟*»

«*أنت* تعلمين»

لأنَّ الشهوة سيارة ليموزين لا تتوقف عن الاندفاع، سجادة طائرة تنساب فوق أعالي المداخن كما يراها بيتر بان في الفضاء، مقطع من أغنية لا تتذكّر متى أُطلِقَتْ. *آه، أيها الرجل المشهور، تعال وضاجعني في الحال.*

«أنا، أنا أفعلها بتلقين هذه الكلمات».

وماذا عن دي-دي؟ دي-دي هي مثال الفتاة الأميركيّة. إنها التي ليس لديها جدّان روسيّان أو لا تضع قماشاً مطبوعاً على الطريقة الباليّة[5] على درابزين الدَرَج. وهي ذات أسنان بلون بياض ثلج البرّاد وشعر مصنوع من أشقر قماش داينل. ترتدي بطانة مُخطّطة بلون السكاكر وفوقها تنورة

3- الأميرة لانغوايدر: شخصية روائيّة ظهرت في سلسلة روايات «*ساحرات أوز*» من تأليف إريك شانوير – المترجم.

4- لوي بريل (1809 – 1892): مخترع وموسيقيّ ومبتكر أسلوب بريل في القراءة للعميان. كان أعمى – المترجم.

5- باليّة: نسبة إلى جزيرة بالي الأندونيسيّة – المترجم.

زرقاء من اللباد عليها رسوم كلاب - كلاب مربوطة معاً بسلاسل. أنتِ لديكِ واحدة مثلها أيضاً، لكنّكِ لا تنظرين إليها كما نظرتْ دي-دي إليها. كيف كان ذلك؟ *عادي*. دي-دي كانت فتاة عاديّة وأنتِ لن تكوني عاديّة حتى وإنْ عشتِ حتى بلغتِ مائة وست سنوات. كانت لديك التنورة برسوم الكلاب والتوأم واللآلئ والدبّوس الدائريّ، لكنكِ لم تخدعي أحداً. لقد كنتِ حتماً *غير عاديّة*. ثم أتعلمين؟ أنتِ ما زلتِ غير عاديّة - حتى بين الكُتّاب، أنتِ غير عاديّة. لن تكوني أبداً دي-دي. أنتِ لا تنتمين إلى أي مكان، وتحملين اسماً غريباً، ولطالما اعتبروك شيئاً ليس أنتِ. لا يمكنكِ أنْ تغيّري اسمك إلى دي-دي، مهما فعلتِ. أنتِ إريكا، إريوتيكا، إيرويكا - كما كانوا يُطلقون عليكِ في المدرسة الثانويّة. أو إيزادورا، وفاني، وجيسيكا، وليلى - كما أطلقتِ على نفسك في الكتب. لكنك لستِ أبداً مجرد دي-دي عادية سعيدة تتزوج من رئيس فريق كرة قدم ولا حتى *تشتاقين* إلى الرجل المشهور، ناهيك عن جولاتك في المدينة، بحثاً عنه ودعوته للانضمام إليك في سيارة الليموزين الطويلة تلك.

دي-دي لديها ثوب عرس أبيض وطفلان ونصف. ولم تمتلك شيئاً لا تريده ولا أرادت شيئاً لم تحصل عليه. ماذا كانت تقصد بحق الله باللعب معك؟ هذا هو السؤال. لقد أخذتْ قطع الكلّة وذهبت إلى منزلها، دون أنْ تتركْ أي أثر لذكرى. لم تسمح لها أمها بذلك. إنها لم تنتم يوماً إلى منزلك أصلاً. لكنكِ تشتاقين إليها. وهي تقرأ كتبك وتحاول أَنْ تُخبرك في محلات بيع الكتب أو التسوّق في الساحات العامة أنها غير عاديّة مثلك وأنَّ دي-دي ليس لها *وجود* فعلي. إنها تحبّك لأنكِ *لستِ* دي-دي، لأنكِ أطلقتِ دي-دي كأسطورة، ولأنك أخذتِ ملابسها وملأتِ رأسها بأحلامٍ جنسيّة لا تنتهي.

فنكالايك هو اسم اخترعتُه لنفسي: طفلة وسطى، أنا أيضاً، لديها فنكالايك، مرحة، تتوق إلى إرضاء الآخرين، طفلة طيبة تحب الاختلاط، مؤدّبة، شكرت والديها على وجبة العشاء، وأكلت البازيلاء، والتزمت

بكفايتها، ولم تكن تتبول *أبداً* في مياه الاستحمام. فنكالايك قبّلتْ الصبيان الذين لا تحبهم *كثيراً*، لأنها لم ترد أنْ تُعتبَر ليست فنكالايك. وأدّتْ مهاماً، وادّخرت قطعاً نقديّة، وصرخت *عربة، عربة!* على متن العبّارة إلى جزيرة فاير إلى أنْ جمعت ما يكفي من النقود لشراء كل ألغاز نانسي درو. ثم قرأتها واحدة إثر أخرى إلى أنْ عَرفَت كيف يتمّ تأليف كل كتاب وكيف تجعلين القارئ يلتهم الصفحات - وهو أشد ما حصلت عليه فنكالايك من مرح.

أوه، يا فنكالايك، هل تقبلين الزواج من الرجل الشهير؟ قالت، فقط في الكتب، لكي تتمكّن فنكالايك من الزواج منه أيضاً.

الصديق الوهمي الرابع لم يكن من اختراعي بل من اختراع أمّي أو جدّتي أو ربما حتى جدّتي الكبرى. هذه كانت هاشكا المجنونة (إنها غير مذكورة في القُصاصة - ولكن بصورة ما جلبتها الأشياء الثلاثة الأخرى معها).

مَنْ كانت؟ (لأنها كانت حتماً أنثى). لقد استُحضِرَتْ عندما استيقظتْ إحدانا بطريقة مجنونة (وهذا يتكرّر حدوثه في منزلنا) وقال شخص آخر «تبدين أشبه بهاشكا المجنونة». أكانت شبحاً من قرية نائية؟ أكانت مجنونة غرودنو[6] أو جامعة نفايات من ضواحي أوديسا؟ كانت تعتمر قبعة مجنونة - صيفاً وشتاءً. ملابسها ضخمة وفضفاضة وسوداء تُخفي بين طيّاتها بوم، وأطفال، وأجزاء من جسم مُقطَّع. تَقُوق كدجاجة، وترفرف كطائر التّم، ولها عينان مجنونتان برّاقتان. تحكي حكايات عن أطفال صُنِعَ منهم مربّى فاكهة وسجق يُغنّي ودُمى تحوّلن إلى أطفال حقيقيين.

كانت على صِلة وثيقة بالشاب المشهور. كان يأتي إليها في كل ليلة بسيارته الليموزين الطويلة (لا أحد في القرية كان قد شاهد سيارة، فما بالك بسيارة ليموزين). نحن لا نعلم ماذا أراده معها، ولكننا اعتقدنا أنَّ من الواضح أنَّ جنونها *ضلّله*.

تزوّجا وأنجبا عدداً من البنات. إحداهن كانت دي-دي، التي كانت

6- غرودنو: بلدة في بيلاروسيا.

طبعاً مثاليّة. وأخرى كانت فنكالايك، التي حاولتْ أنْ تكون، بفيض من المرح وبنشر المرح، مرحة، كأنها مرحة. وأخرى كانت إريكا ذات الكنيّة المُبهمة. كانت تُغيّر كنيتها باستمرار، على أمل في الحصول على المال. لكنَّ الذاكرة هي صديقٌ متقلِّب. وفي النهاية، كل ما تبقّى منها هو ما قرأتهِ في الكتب.

وهكذا رأينا أنَّ خيط الذاكرة الواهي يمكن أنْ يعلَق في أي أمل خادع. إذا عشت طفولة لم يُعاقبك خلالها أحد على تخيلاتك، بل ابتهجتْ أمك بتذكُّر أسماء أصدقائك الوهميين، فقد تكبرين لتصبحي ذلك الثلاثيّ من الذوات البديلة: دي-دي، وفنكالايك، وإريكا العاديّة. ومن بين كل الأشياء التي باركتُ أمي عليها، أورثتني هذا الابتهاج بالتخيُّل، الحقّ في الحُلم. إنه هِبة - أعظم ما منحتني إياه.

لم أصل إلى هذه الهدنة مع أمي إلا بعد أنْ تزوّجت من كين بفترة من الزمن.

أولاً، كنتُ أخشى من أنْ أُصبح هي - وهو تطور طبيعي جداً في زواجٍ يُكرّر العناصر نفسها لزواج أبويّ: التقارُب، القتال الشرس، والإحساس بالأمان. أعتقد أنّه ليس غريباً بالنسبة إلى زوجين أنْ يمرّا بمرحلة مُحاكية للزيجات الأبويّة، ولكن من المهم أيضاً أنْ نترك تلك المرحلة خلفنا. وإلّا، خاطر الزواج بأنْ يُصبح مُجرّداً من الجنس.

وأنا طفلة، شعرتُ بأنه حُكِمَ عليّ بأنْ أكون وحيدة، غير متلائمة اجتماعياً، وشهيدة. ولم أفقد إحساسي بالوحدة إلا وأنا مع أبويّ، نائمة بينهما في ذلك التجويف السِحري. لكنني أُسوة بكل الأطفال، كنتُ متطفّلة. لم يكن لدي شريك خاص بي. وعلى مدى سنين عديدة عبّرتُ عن تشكيلات من الأحلام الأوديبيّة. كان سفري الدائم، ولقائي برجال في غرف فنادق نائية، كما علِمتُ في أربعينيات عمري، بمثابة حلم متنكّر بلقاء والدي في الخارج في أثناء أسفاره التي لا تنتهي. عندما

سلّطتُ الضوء على ذلك - ربما حدث خلال تلك الرحلة المشؤومة إلى أومبريا - أصبحت لعبة فندق الجنس فجأة بلا معنى. لم أكن أنوي أنْ أقابل والدي وأغويه في فندق أجنبي. إنه يخصّ أمي. وعندما تخلّيتُ عن تخيّلي بتحريره والاحتفاظ به لنفسي، استطعتُ أخيراً أنْ أقبل اتّخاذ شريكٍ وأتوقف عن الانتقال من مدينة إلى أخرى لأقابل رجلاً بعد آخر (ربما اختياري رجالاً متزوجين ومن ثم اختيار *ألا* أجعلهم يتركون زوجاتهم كان إبطالاً أوديبياً - كنتُ سأحتفظ بهم ولا أحتفظ بهم، في وقتٍ واحد).

قبِلَتْ أمي كين كما لم تقبل أي شخص من قبل. ربما كان مجرد إرهاق. أو ربما كان ذلك صوت الأم. أو ربما كانت تعلم أنني اعترفت بزواجها أخيراً. لم أعد مُنافستها. كان لديّ رجلي الخاص الذي يُحبّني في كل يوم. أنا وأمي تحدثنا بأسلوب جديد. ربما تعلّمتُ أنْ أُصغي بطريقة جديدة. وأعتقد أننا نرى حياة أبوينا بصورة مختلفة في كل مرحلة من رحلتنا، وفي سن الخمسين، وأنا متزوجة من صديق وأقبل كوني محبوبة، أستطيع أنْ أعتبر أبويّ من الناس.

لم يخطر في بالي أبداً أنَّ أمي قد تقبل إجراء حوار معها، ولكنْ تبيَّن أنني على خطأ. لقد كنتُ مُخطئة بشأن الكثير من الأشياء في حياتي - فلِمَ لا أكون كذلك في هذا الأمر؟

إنَّ أمي الآن شديدة الهشاشة إلى درجة أنّه على الرغم من أنني أريد أنْ أضمّها بين ذراعيّ وأعانقها، إلّا أنني أخشى أنْ تنكسر. إنني أمشي حولها كأنني أمشي على بيض - وهو تشبيه مُضحك في تطبيقه على الأمهات. حتى وأنا أُجري الحوار معها، أحاول ألا أُهينها. والحقيقة هي أنني وصلتُ إلى هذه النقطة لأنني، ذات مرة، وأنا في عشرينيات عمري، أهنتها *فعلاً*. وضعتُ إبهامي على أنفي ساخرة من حياتها. لقد تحرّرتُ مع *«الخوف من الطيران»* وانطلقتُ. وكتبتُ بياناً مُضاداً لأمي. وهي نفسها التي منحتني الشجاعة لأفعل هذا.

كانت تقول بعد أنْ تقرأ بعض قصائدي «أشعر كأنني قرأتُ ورقة نعيي». أما الروايات، فادّعتْ أنها لم تقرأ أياً منها، مُفضّلة أنْ أكون شاعِرة.

قلتُ «إنها ليست ورقة نعيك. أنا أحبّك». لكنها كانت على صواب وكنتُ على خطأ. وعلى أية حال، ما صِلة ذلك بالحب؟ تستطيعين أنْ تحبّي وأيضاً أنْ تقتلي، ثم تحزني. متى أعاق الحب وقوع جريمة؟

طبعاً كتبتُ نعيها، تماماً كما كتبتْ هي نعي أمها في ذلك الحلم المُخيف، وكما تكتب مولي نعيي. إنَّ كتابة نعي أمك هو دلالة كونك حيّة. إنه عمل لا مفرّ منه. إنه الطريقة التي تسرقين بها حياة.

والأم التي انتُزِعَ قلبها لتقديمه أُضحية على مذبح الشِعر أو القصة أو الحب أو الحريّة ما زالت تقول، عندما يتعثّر طفلها في مشيه «هل تألّمت، يا بُنيّ؟».

-17-

مواليد، وميتات، ونهايات

أنْ نعمل ونصنع زهرة...

• ميورييل روكيسير، من *«حياة الشِعر»*

هناك أمثولة ختاميّة علينا أنْ نتعلَّمها: أنْ نُحبّهم ثم ننساهم. هذا الموقف يتحقق بصعوبة وينبغي بلوغه بمعاناة.

• لويس بوغان، من *«رحلة حول غرفتي: سيرة لويس بوغان الذاتيّة: فسيفساء»*

مع وصولي إلى نهاية هذا الكتاب، شيءٌ داخلي يُصاب بالرعب ويريد أنْ يتوقف. وأتوقف عن الاستمرار في الكتابة. وأبدأ بإعادة كتابة الفصول القديمة من حياتي – أعيد صياغتها، وأشحذها، وأغيِّر في الأحداث، وفي النظام، وفي النهاية. والحقيقة هي: أنا لا أريد أنْ أُنهي الكتاب وأتركه. وكأنني أتخلّى عن حياتي. لن يعود ملكي. سوف ينطلق إلى العالم ويصبح كخرطوم إطفاء النار يتبوّل عليه كل خسيس. سوف يباشِر رحلته الطويلة انطلاقاً من إرادتي، ومن عقلي، ومن لغتي، إلى قلوب مَنْ يحتاجون إليه. ولكن، في تلك الأثناء، بما أنه ما زال طفلاً، فقد يتلقّى الكثير من سوء المعاملة. أحياناً تكون كتبي رُسُلاً يُريد الناس أنْ يقتلوهم. ومن ثم تصمد، على الرغم من كل الظروف الصعبة.

أتلفّتُ حولي في أميركا فأرى الجنون يسود، يتحكّمُ بها فريقٌ من المُعادين للجنس. بعض المناصرات لحقوق المرأة من بنات جيلي خرجن في مسيرة قوية لمناهضة قضية المُعادين للجنس. والحقيقة هي: إنَّ الجنس مُخيف *حقاً*، مملوء بالظلام الذي لا يمكن السيطرة عليه وغير منطقيّ حيث من الأسهل بكثير كبته. إنَّ الصراخ اغتصاب! أسهل من الاعتراف بالاشتراك في الرغبة، وادّعاء الأخلاق العالية للضحايا أسهل من الاعتراف برغباتنا لكي نُضحّي بالآخرين، وإبراز الشرّ نحو الخارج أسهل من الاعتراف به كجزءٍ من الذات الفوضويّة.

هل نحرق اللحم بدل أنْ نسمح له بالغليان من الداخل؟ إنَّ النساء يتأثّرن بشدّة بالجنس، ويعجزن تماماً عن تجزئته، بحيث أننا دائماً نُعتَبر لعبة مُنصِفة لإماتة اللحم، وأميركا ما زالت بلداً تطهيرياً. إننا لا نعبد مريم بل كوتون ماثر[1]، ليس الأم بل العذراء المجنونة العاجزة، التي لم تبلغ سن المراهقة وتُعلن أنَّ كل ما تُطلقه الإنسانية كريه وترغب في قتل كل ما هو كريه في نفسها - وفي الآخرين.

إنَّ ما قاتلتُ من أجله في حياتي وفي كتبي - المفارقة، والنظرة المزدوجة التي ترى أنَّ الخير والشر هما وجهان لقطعة النقد الإنسانيّة نفسها، تكامُل الجسد والعقل، والحسّ والروح، الشهوانيّة الحلوة وقشعريرة الفلسفة - هذه هي الأشياء الأشدّ تعرُّضاً للخطر هذه الأيام. إننا نجد في كاثرين ماكينون[2] نسخة مُعاصِرة لسافونارولا[3] - مستعدّة للتضحية بالفن بالحرق لأنه قد «يؤذي» النساء، النساء اللواتي تعرّضن للأذى على امتداد القرون بحرمانهم من هذا الغذاء بالذات. ولكن

1- كوتون ماثر (1663 - 1728): قس تطهيري - المترجم.

2- كاثرين ماكينون (1946): مثقفة أميركيّة، ومحامية، ومُدرّسة، وكاتبة وناشطة. تركّز خاصة على المطالبة بحقوق المرأة، والمساواة بين الجنسين، والتحرش الجنسي - المترجم.

3- سافونارولا (1452 - 1498): راهب ومُصلِح ديني إيطالي. شن حملة قوية ضد فساد الكنيسة في زمنه. أُحرِق - المترجم.

ما من سبيل لمناقشة هذا في عالمٍ لا يعرفُ دقّة لُغويّة ولا مفارقة ولا سخرية، عالم يتمّ التواصل فيه بقُصاصات الفيديو التي تُقاس بالميللي-ثانية.

إنني أؤلّف الكتب منذ أكثر من عشرين عاماً، وفي كل مرة أنتهي من تأليف أحدها يُصبح الأمر أكثر صعوبة. إنني أرى عمليّة النشر أشبه بطقوس اليانصيب على طريقة شيرلي جاكسون[4] حيث كل ردّة فعل هي حجر مُسدَّد. وهذا لا يعني أنَّ الحجر *فقط* يُرمى. هناك استحسان كبير - حتى الحب - من القرّاء. ولكن من أجل الوصول إليهم، أجد أنني يجب أنْ أُجري ما يُشبه النزال. وهذه المهانة، والمُحاكاة الساخرة، والسخرية، والمهانة هي التي تجعل النساء يرتجفن لافتراض تولي القيادة (أو السيطرة). إنَّ الحقد شديد، والغضب لا يعرف الغفران، والاشمئزاز من الذات لا حدود له. ما هي الجريمة؟ أهي الجراءة على حمل آراء؟ أم هي التحدّي بأنْ تكوني ممتلئة بالحيوية، وتعبرين عن ميلك الجنسي، ومرحة، متشبثة برأيك، ومُفرِطة؟ إذا شككتِ في أنَّ هذه الأشياء تُعتبَر جرائم، انظري إلى الأشياء التي كُتِبَتْ عن حماسة المرأة الشديدة، وتعبيرها عن الجنس، والفكاهة والإفراط! سوف يُسكتونك.

إنَّ الأمر برمّته يبدو أنّه يدور حول إسكاتنا بجعلنا نُسكِتُ إحدانا الأخرى. متى سنتوقف عن ممارسة هذ اللعبة الجبانة؟

إنه الوقت من العام الذي أمقته أكثر من غيره: الفترة الفاصلة بين عيد الشكر وعيد الميلاد. الأيام قصيرة. والظلام يتقطّع إلى شرائح خلال

4- شيرلي جاكسون (1916 - 1965): كاتبة قصص رعب وألغاز. أميركيّة. لها قصة قصيرة بعنوان «اليانصيب»، وفيها تُقيم قرية صغيرة طقساً سنوياً من أجل أنْ يكون المحصول جيداً، يجتمع فيه أهالي القرية كلها، وينتقون شخصاً من بينهم على طريقة اليانصيب بوضع الأسماء داخل صندوق، وصاحب الاسم المُختار يتم رجمه حتى الموت - المترجم.

فترة بعد الظهيرة. إنَّ المدينة لا تتحرّك، ترقد آسنة كما هي وسط مرح زائف وطقس خاوٍ.

كان قد مرَّ عام تقريباً منذ أنْ قُبِلَتْ كيتي في الدار العبريّة للمسنّين. إنها تشتكي من أنهم يُعطونها أقراصاً لكي يمحوا ذاكرتها، وربما هذا تفسير جيد. إنها غير قادرة على الرسم. والعامل الاجتماعي المُشرف عليها يشرح لي أنَّ ذلك ربما يجعلها مُضطربة إلى درجة تعجز فيها عن الرسم أو ربما هي لا تتذكّر *كيف* ترسم *وهذا* ما يُسبب لها الاضطراب. لا أحد يعرف السبب. وإذا كانت قد توقف عن الرسم، فأعتقد أنها نجت من زمنها. لكنني لا أقول هذا. أنا فقط أُحدِّد موعداً معها ومع «فريقها الداعم» ومن ثم أعود إلى صراعي مع الكتاب.

في نهاية شهر تشرين ثاني، حدث خسوفٌ للقمر. كنتُ وكين قد قطعنا بالسيارة طريق العودة من فيرمونت تحت قرصها الذهبيّ الكامل، وعند منتصف الليل، ارتقينا الدَرَج الخلفيّ لمبنى شقّتنا إلى الطابق التاسع والعشرين، وخرجنا من مطلع الدرج عند مستوى السطح، ومشينا بين النجوم. السكون يرين فوق المدينة. الأسقف تبدو أشبه بمشهد على سطح القمر. يبدو كأنَّ ضجيج حركة المرور قد سكتَ فجأة. نقفُ وحدنا في وسط السطح، رأسانا مائلان إلى الخلف حتى الألم، نراقبُ ظلاً أسود يجلس القرفصاء عبر وجه القمر. استغرقَ اكتمال الخسوف ساعة ونصف الساعة. نقفُ جامدَين ونرتعش، عاجزَين عن المغادرة إلى أنْ يكتمل خسوف القمر بالكامل في الظلام. وعندما يظهر خيط فضيّ من الضوء على الجانب المقابل، أقول «أنا سعيدة بمشاهدة هذا».

يقول كين «وأنا أيضاً».

لم يستطع أيٌّ منا أنْ يشرح السبب.

بعد الخسوف، أجد نفسي غير قادرة على النوم. القطة باسيل والكلب بوتشيني عثرا على فجوة دافئة بيني وبين كين وهما نائمان بسلام. كين غير واع، أنفاسه قصيرة، وجهه الطفولي الملتحي هادئ. أشعر بقليل من الجوع لكنَّ الكسل المفرط يمنعني من النهوض. وفجأة أشعر في فمي بمذاق جبن المزارع الطازج ومربى المشمش المصنوع بيتياً بقشرته المُجعّدة - وأستحضرُ جدّيّ.

كانا يتناول هذا على مائدة الإفطار: خبز الجاودار الطازج أو خبز شالاح، وجبن المزارع الطازج، مُقطَّع على شكل شرائح مستطيلة مُفتتة، باردة، حامض، وطعمه يشبه قليل طعم الطباشير على اللسان، ومربّى مشمش جدّتي وتُرِكتْ عليه القشرة المُجعّدة، وأحياناً البذرة أيضاً. الجبن تمدّد على الخبز، والمربّى تقطر عبره. أكلتِهِ بسرعة كي لا تُحدثي فوضى. وكان الشاي مع الحليب والعسل هو الشراب.

جدّاي يجلسان على طاولة إفطارهما الصغيرة، يأكلان ويُطعمانني.

قال لينيوتانغ «إنَّ النزعة الوطنيّة هي ذاكرة الطعام الذي أُكِلَ في عهد الطفولة».

وفجأة أتذكّر تخلُّصي من أغراض جدّي بعد وفاته. وأُدركُ بأنَّ عليّ أنْ أفعل الشيء نفسه من أجل والديّ ومن أجل كيتي، وسوف يكون على مولي أنْ تفعل الشيء نفسه معي. ومذاق تلك الأطعمة سوف يزول - يتلاشى كتلاشي القمر في أثناء الخسوف.

ما الذي سيُعيده؟ لا شيء.

نحن مخلوقات ذكرياتها أوسع من أنْ تُستخدَم في الحياة اليوميّة - إلى أنْ تُصبح شديدة الضآلة. خلال تلك البرهة من الأرق، يتألَّم مخي بما امتلأ من الماضي، والحاضر، والمستقبل. لكنني سرعان ما يُعاودني النوم.

اذهب لزيارة كيتي في دار المُسنين العبريّة فأجدها جالسة بين رجلَين. أحدهما يُعرِّف عن نفسه بأنه طبيب أسنان وأبدى إعجابه بأسناني.

ويسأل «إنَّ السن القاطعة هي أقوى سن في الجسم - هل تعلمين هذا؟». والرجل الثاني، اسمه السيد غولدليلي، كان يضع يده على فخذ كيتي. يبدو أنها نسيتْ أنها مثليّة.

تقول «عزيزتي، أنا سعيدة برؤياك». تبدو بصحة جيدة - متعافية، بل ممتلئة. تخاطب الجميع بـ«عزيزي» لكي تُغطّي على نسيانها الأسماء. (ربما هذا يُفسِّر شيوع استخدام الكلمة في المسرح أيضاً). تترك كيتي المُعجَبَين بها الاثنين، وتمشي معي إلى منطقة استراحة أخرى. نجلس، ننظر إلى النهر، يتلألأ في ضوء شهر كانون أول.

تقول «أنا سعيدة جداً برؤيتك».

أقول «وأنا أيضاً». وأنا سعيدة حقاً بلقياها.

أسأل «ماذا تفعلين؟».

«ليس الكثير. فقط أعيش من يوم إلى يوم. لكنني قلقة على شقّتي».

«لا تقلقي، كيتي، أنا سأعتني بها».

لا أخبرها بأننا مُضطرون إلى بيعها لتسديد فواتير هذا المنتجع الفخم المُخصص للمُسنّين.

«لِمَ لا تأخذين الشقّة، يا حبيبتي، وتؤجِّرينها؟ بعد ذلك أستطيع أنْ أعيش فيها معك. إنَّ كل ما أحتاج إليه هو غرفة لطيفة يدخلها الضوء من الشمال، وحمّام. أنا لستُ من النوع المُتطفّل. يمكننا أنْ نتبادل الزيارات بين وقت وآخر».

فجأة، يحدث هياج في الوحدة. تأتي مولي مع اثنتين من صديقاتها راكضة على طول الرواق. وبشعورهم الطويلة، وبنطلونات الجينز الممزقة، وأحذية العمل الضخمة، والقمصان القذرة المزينة بمربعات، يُغيِّرن طاقة المكان. فكلّهن طويلات القامة. وكانت كيتي تنكمش كلما كبرن هنّ في السن.

بينما كنتُ أتحدث مع كيتي، كانت امرأة ذات وجه طفوليّ وشعر أبيض تدفع أمامها هيكلاً على دواليب وتدور في الصالة. ثم تتوقف

وتسأل مولي: «أين غرفتي؟ لا أعرف أين غرفتي». تأخذها مولي برفق إلى موقع الممرضة وتسأل عن موقع غرفتها. ثم أراها تقود المرأة العجوز إليها.

تقول كيتي، عندما تقترب مولي ورفقتاها منها «من هؤلاء؟ مَنْ هؤلاء؟». تُقدِّم مولي صديقتيها، سابرينا وإيمي.

تقول كيتي «سعيدة بلقائكما». كانت ذاكرتها قد امّحتْ لكنَّ سِحرها لا يزال كما هو. وتبتسم ابتسامة جميلة.

تقول كيتي لمولي «عزيزتي، لا يمكنني أنْ أعيش هناك حتى آخر حياتي، أليس كذلك؟ أريد أنْ أعيش معكما».

تقول ابنتي «كلا، كيتي، أنت أفضل حالاً هنا. لقد كنتِ تشعرين بالوحدة الشديدة وبالخوف في الشقّة». إنها قوية جداً وصريحة جداً. وأشجع مني بكثير. تقول «أعتقد أنَّ الماما سوف تُضطر إلى بيع شقّتك».

«وماذا عن لوحاتي؟».

تقول مولي «سوف أعتني بها. أنا أحبّ لوحاتك».

في عام دخول كيتي هذا المكان، كانت ابنتي قد أصبحتْ إنسانة طيبة.

تُخبرني كيتي «أعتقد أنك على صواب».

عندما أغادر لأعيد مولي، وسابرينا، وإيمي إلى المدينة، تعود كيتي إلى صديقيها المبهورين.

«هذه ابنة أختي» أسمعها تقول لطبيب الأسنان وللسيد غولديليلي. لكنها ما زالت لا تتذكّر اسمي.

تحتفل أمي بعيد مولدها الثاني والثمانين في العاشر من شهر كانون أول. يُحيط بها أحفادها، وتضحك وتبدو شبه سعيدة. وعندما أرى أمي مرتاحة أشعر بشي داخلي يسترخي. وإذا تقبّلتْ حياتها باستمتاع، فسوف أفعل أنا كذلك. أشعر بأنّني طوال حياتي وأنا أُعذِّب نفسي لأنني أشعر

بأنها تعرَّضتْ للتعذيب. طوال حياتي وأنا أعاني لأنني أشعر بأنَّ هذا ما تريده. أقول في نفسي، كوني سعيدة، وأنا أراقبها بين أحفادها. *أرجوك أنْ تكوني سعيدة لكي أستطيع أنْ أكون كذلك.*

بعد ذلك بليلتين، وصلني اتصال هاتفي من والدي في غرفة الطوارئ من مستشفى نيويورك.

يقول «لقد انهارت أمك. نحن في غرفة الطوارئ. لا تأتي».

إذا تقبّلتُ هذا الكلام بمعناه الظاهريّ، فسوف يثور غضباً، أعلم. ولكن لمرّة واحدة تحدّيته بتقبُّل كلامه بظاهره. ولاحقاً، اتصلتُ به في المنزل لأسأله عن حال أمي.

يقول والدي «أمك شديدة الغضب منك لأنكِ لم تأت». وقطع الخط في وجهي.

أنام نوم الموتى، وآمل ألا أستيقظ أبداً كي لا أُضطر إلى مواجهة والديّ من جديد. وأحلمُ بأنني أتجول في رياض الجنّة بين الأسلاف، وأسألُ كلاً منهم «ألمْ أمُتْ بعد؟».

في جيبي جنين جافّ بحجم سبّابتي. طفل لم أُنجبه - أو أنه أنا. ساقاه تفتتتا. وكذلك ذراعاه. لِمَ لم أُنجِب هذا الطفل؟ لِمَ يتفتّت داخل جيبي؟

في الصباح، أذهبُ إلى مستشفى نيويورك، أمشي كالأحياء الموتى في الجو البارد. إنني لا أضع مساحيق تجميل وألبس كساءً أسود للساقين، وسترة صوفيّة عالية العنق سوداء، وسترة جلديّة سوداء ذات قلنسوة وكأنني دخلت في الحِداد منذ الآن. حس جداً، إذن، إذا كنتُ الابنة السيئة، فليكُن. أجوب الممرات الشبيهة بالمتاهة تحت مستوى الشارع، متسائلة أي رواق أسلك لأصل إلى المصعد الذي سينقلني إلى وحدة النوبات القلبيّة. وأخيراً أعثر عليه. أصعد إلى الطابق الثالث، وأشقّ طريقي إلى غرفة أمي، وأحيي وجهها المُزمجر.

تقول «لِمَ أتيتِ أصلاً؟».

أقول «لأنني أحبّك».

تقول «هاه، أين كنتِ ليلة أمس؟».

«البابا طلبَ مني ألا آتي».

تقول «إنه مضطرب. لا يمكنك أنْ تأخذي كلامه على محمل الجد».

أقول «أعلم».

لكنني أنتظر، أنتظر كتاباً ضخماً عن قواعد العيش (أو الموت)، أنتظر ضماناً هائلاً من الحب، بعض الغذاء الختامي، لحظة تجلٍّ، بعض السموّ الروحيّ ز أمي تميل إلى الخلف على وسادتها، وشَعرها ينتشر خلفها، وعيناها باردتان ورقيقتان في وقت واحد.

تقول «ليس شيئاً ممتعاً أنْ تتأمّلي في موتك».

وأقول في نفسي، لو كان في وسعي أنْ أقتطع سنوات من عمري وأُعطيها لها كأنني ألسيست[5] عصريّة، فهل أفعل؟ كلا. ما كنتُ لأفعل. كنتُ سأنتزع ما تبقّى لي من سنين بيدين طمّاعتين. سوف أُنهي هذا الكتاب وأنتقل إلى التالي فالتالي. سوف أنفّس عن ابتهاجي الداخلي وسط عجزي.

لقد ضحّت أجيال من النساء بحياتهن ليُصبحن على صورة أمهاتهن. ولكن لم تعُد هذه الرفاهية تتوفر لنا. لقد تغيَّر العالم تغيُّراً جذرياً بحيث لم يعُد يسمح لنا بعيش حياة أمهاتنا. ولم نعُد نتحمّل إحساسنا بالذنب لأننا *لسنا* أمهاتنا. لم نعُد نتحمّل أي إحساس بالذنب يجرّنا نحو الخلف إلى الماضي. يجب أنْ نكبر، شئنا أم أبينا. يجب أنْ نتوقف عن نضع اللوم على الرجال والأمهات ونستغلّ كل لحظة من حياتنا بحماس. لم يعُد في وسعنا أنْ نتحمّل تبديد إبداعنا. لا نستطيع أنْ نتحمل الكسل الروحيّ.

لن تمنحني أمي قواعد العيش - ولكن ربما أستطيع أنْ أمنحها لنفسي.

تسأل «فيم تفكرين؟».

5- ألسيست: في الأساطير اليونانيّة: زوجة أدميتوس ملك تيسالي. ولكي تُنقِذ حياته، ماتت بدلاً عنه، لكنَّ هرقل يُنقذها من الجحيم - المترجم.

«في أنني أحبّك، وأنني لا أريد أنْ تموتي».

تقول، وقد أشرقتْ فجأة «لن أموت».

يملأ الدم وجهها. وتجري الدموع على وجنتيّ.

عندما أغادر المستشفى، أذهب إلى المنزل وأسكر بشرب النبيذ الأحمر للمرة الأولى منذ وقت طويل، وأنا أنتظر زوجي ووالدي للانضمام إليّ على مائدة العشاء.

أتمتم بيني وبين نفسي، والأمور تزداد غموضاً باطراد «سوف تموت أمي، إنْ لم يكن الآن، ففي المرة التالية، أو المرة التي بعدها...» أنا في انتظار النبيذ ليمدّني بالإلهام، ولكن كل ما يمدّني به هو الخَدَر.

عندما نجلس حول مائدة العشاء، أشعر بضبابيّة في ذهني وصداع ويفوتني معظم مسار الحديث. يحدث ذلك على حواف وعيي. كين ووالدي يغنيان أغان من مسرحيات غنائيّة كطقسٍ للتضامُن. وأبدأ بشرب القهوة كي أنشط. وعندما أصبح يقظة تماماً، يستعد والدي للمغادرة.

في الصباح، أنهضْ لأتناول طعام الإفطار مع مولي كعادتي، ومن ثم أعود إلى السرير. وتنتقل الساعة من الثامنة إلى التاسعة، ومن التاسعة إلى العاشرة، ومن العاشرة إلى الحادية عشرة. أتمدّد على السرير كأنني أحتضر – نيابة عن أمي. وطبعاً أنا أحتضر *فعلاً*. كلنا نموت، في كل لحظة. لكنَّ انفصالي عن نفسي هائل. إنني غاضبة بشراسة، ومكتئبة، وفي حالة جمود، لا أريد أنْ أُطلِق هذا الكتاب.

ما فائدة أنْ أحبّ أمي وهي ستموت وما فائدة أنْ أحبّ نفسي وأنا سأموت وما فائدة هذا الكتاب إنْ كان سيخرج إلى فوضى النشر؟

لقد نسيت قرّائي. نسيتُ أنَّ عملي هو أنْ أكونَ صوتاً، وتذكّرتُ فقط ذاتي التافهة ورضوضها. إنني أفكّر في النهايات، وليس في المسيرة. وكلما فكّرتُ في النهايات، يحدث لديّ استعصاء.

طوال فصل الصيف الفائت وأنا أبذل مجهوداً لكي أخسر وزناً وأبدو

شابة، أتناول أقراصاً لكي أقضي على شهيتي إلى الطعام. وخسرت الكثير من وزني، ولكنني أصبحتُ أيضاً كثيرة الحركة ولا أستطيع أنْ أجلس بهدوء. وعندما تركتُ الأقراص، شعرتُ كأنَّ شخصيتي قد تفتّتت. صرتُ أشاهد حيوانات برّية في زوايا عينيّ. وشعرتُ بنخر في قلبي وبرغبة في الصراخ في الشوارع. وعندما انتهت تلك المرحلة، هبطتُ إلى وادٍ من اليأس. وانفصلتُ عن نفسي، أردتُ مادة ما لتعيد أجزائي لتنضم معاً. لم أعد أُفرط في الشرب - ولكن ما الفائدة إذا كان القليل الذي أشربه يسبب لي الاكتئاب؟ إنَّ المادة التي احتجتُ إليها هي روح، وليس أرواح. احتجتُ إلى نفسي لكي أُنهي هذا الكتاب، وكنتُ أعثر على مليون طريقة للهروب من نفسي.

أجرُّ نفسي، تدريجياً، من السرير لأبدأ يوماً جديداً. أقول لنفسي «لا أستطيع أنْ أشرب. يجب أنْ أتذكّر هذا». لديّ قهوة، وممارسة الرياضة على دراجة التمارين، وارتداء الملابس، وعبور الشارع إلى مركز عملي.

أقول لنفسي «طبعاً، لا أستطيع انْ أُنهي الكتاب إذا كنتُ لا أمتلك نفسي». إنَّ النفس تستيقظ عبر أداء الخدمة، والكتابة هي أسلوبي في الخدمة. الخدمة هي طريقتي في الجمع لبن العقل والروح. من دون الروح، أنا لا شيء. يُستحسَن أنْ أُبقي ذهني نقياً من النبيذ والأقراص لكي أتمكن من الكتابة.

هذا ليس وعداً أقطعه تحت تأثير السُكر. إنه اعتراف شرس بالحقيقة. لقد كنتُ أنأى بنفسي عن الطاقة التي تبقيني حيّة.

في اليوم التالي، لا أشرب ولا أتناول أقراصاً، تعود أمي إلى المنزل من المستشفى. وفي اليوم الذي يليه، لا أشرب ولا أتناول أقراصاً. تذهبُ أمي إلى الطبيب لكي تُعدّل من دوائها. وفي اليوم الذي يليه، لا أشرب ولا أتناول أقراصاً. أذهب لأتناول الغداء مع بعض الأصدقاء، مانحة نفسي يوماً نادراً من الصحّة العقليّة. إذا كان الكتاب لن يخرج إلى العلن، فسوف أدعه وشأنه. فليجمع قطع زجاجه الغريبة في الظلام.

بعد الغداء، أذهبُ لزيارة أمي. إنها مستلقية على أعلى سريرها، مرتدية كيمونو من الحرير الأصفر. نافذتها مفتوحة على سنترال بارك - تطل على مشهد إنسانيّ للمتنزّه من الطابق الثاني عشر - تبدو فيه ذُرى الأشجار، وسطح «حانة على المرج»، وأفق الجادة الخامسة. غرفتها مدهونة بلون أصفر الكروم تتراقص عليه ثمار قرنبيط قرمزيّة. وبين تلك الثمار رسوم لأطفال صغار. والجدار يضم الأطفال كلهم، نفّذتها يدها الماهرة: مولي بأشرطة رأسها الحمراء، وأنا بحلقات شعري التبنيّ، ونانا بشعرها الأسمر المحمرّ، مع الطفلة كلوديا ذات الرأس الأحمر، وتوني وبيتر بشعرهما القاتم، وألكس الأشقر - كل الأطفال والأحفاد التقطت صورهم وهم نيام بعد مولدهم بشهرين أو ثلاثة.

تسأل أمي «ماذا تفعلين هنا؟ أثمة مشكلة؟».

«كلا، أنا فقط أريد أنْ أعرف ماذا تفعلين لتعتني بنفسك».

تُخبرني أمي بإبهام عن أدويتها. تبدو ضجرة من الأمر كله، ولا تولي الأمر انتباهها.

أقول «انظري، إذا أردتِ أنْ تموتي، لِمَ لا تتّصلي بالجميع ليحضروا إلى هنا ويودّعوك؟ إنه خيار مُشرِّف. إنه خيارك. أما إذا أردتِ أنْ تعيشي فتناولي دواءك وحاولي أنْ تحصلي على بضع سنين أخرى جيدة».

تقول «أريد أنْ أعيش».

«أنا أحبّك. ولست مستعدة بعد للعيش من دون أمّ»، وأميل إلى أسفل وأضمّها بين ذراعيّ وكأنها واحدة من أولئك الأطفال المرسومين على الجدار. إنَّ جسمها ضئيل، كأنه عِظام مكسوّة بالحرير، لكنَّ الرائحة هي كل ما يتألّف منه تاريخي. إنه أقوى عِناق تمّ بيننا منذ سنين.

تسأل «لِمَ لم تُنهي ذلك الكتاب؟».

أقول «لا أعلم».

تقول «أنتِ تخشين النقد. لكنَّ النقد هو دلالة على الحياة! أتعلمين مَنْ الذي لا يتلقّى نقداً؟ النكرات! وحدهم الموتى يفلتون من النقد».

أقول «هذا صحيح».

تقول «كلنا سوف ننام نوماً طويلاً جداً. لا تنامي وأنتِ خائفة. أتظنين أنّني أبقيتُ على حياتك عندما مات كل أولئك الأطفال لكي تجلسي على يديك وترتجفي؟».

«لا أعتقد ذلك».

«إذن – اذهبي إلى المنزل وأنهي الكتاب!».

أقول «سأفعل».

«إذن – ما هو السطر الأخير؟».

أسكتُ لأفكِّر، وأنظر إلى جدار الأطفال، وأنا بينهم. وفجأة يخطر إلى بالي سطر. وأجهرُ به بصوت مرتفع. «أنا لستُ أمي، والنصف الثاني من حياتي يقفُ أمامي».

– انتهى –

كلمة أخيرة:

زيارة أخرى لـ «الخوف من الخمسين»

آه أيّها الولودون، يا إخوتي وأخواتي الصغار، أنتم بحقّ أقوى جيل وُجِدَ حتى اليوم. لكنَّ ذلك لم يُنقذكم. إنَّ الجيل الذي لم يثِق في أحد يتجاوز الثلاثين من العمر ويقترب من سن الخمسين بنسبة زيادة تبلغ سبعة وسبعين مليون في العام. لقد كتبتُ *«الخوف من الخمسين»* لأنني شعرتُ في أعماقي بأنَّ بلوغ الخمسين من العمر سوف يكون اختباراً صعباً بالنسبة إليّ وإلى الولودين. إنْ بلوغ سن الخمسين يعني أنك سوف تفعل ما لا يخطر على البال – أنْ تُصبح عجوزاً وغير متأثّر بالجديد – وهذا يُغيِّر كل شيء.

أنا لستُ من الجيل الولود[1]. أنا ابنة الحرب، وُلِدتُ قُبيل بدء الاجتياح السكاني الأعظم، لكنني عشتُ مع أشخاص من ذلك الجيل وتزوجت منهم – وأنا نفسي أنتمي قليلاً إلى ذلك الجيل: نرجسيّة، مهووسة بالجنس، وجرّتني الأبوّة إلى سن البلوغ وأنا أرفس وأصرخ. وفعلتُ العديد مما يفعله فرد من ذلك الجيل: تعاطي الماريغوانا (عندما كانت شيئاً جيداً)، سماع البيتلز، والمشاركة في مسيرات السلام والمظاهرات المناهضة لحرب فييتنام مع زملائي من سيتي كوليج في نيويورك (عندما كنتُ في الثالثة والعشرين وكانوا في الثامنة عشرة). أتذكّر أنني أتمدّد في

1– الجيل الولود: هو جيل ما بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية حين بدأتْ نسبة المواليد تزيد زيادة عالية جداً – المترجم.

جادة أمستردام مع مئات من الطلاب في أوائل ربيع عام 1970 احتجاجاً على مذبحة كينت ستيت، حيث قُتِل أربعة من الطلاب رمياً برصاص حرّس أوهايو الوطني في أثناء اشتراكهم في مظاهرة سِلميّة ضد اجتياح نيكسون لكمبوديا. وأتذكّر أنَّ الصوت الوحيد الذي صدر أتى من أضواء إشارات المرور وهي تنتقل من الأخضر إلى الأصفر إلى الأحمر.

الحرس المشوّش الذين قتلوا أولئك الأولاد - أليسون كراوس، وجيفري ميللر، وساندرا شوير ووليم شرودر - لم يتلقّوا أي عقاب. كان الجو العام في أثناء إدارة نيكسون يغفر ممارسة العنف ضد المحتجين على الحرب، وقد عملت الإدارة على ذلك باجتهاد - مراقبة خطوط الهاتف، وإدانة الحركة المناهضة للحرب، واقتحام مكاتب الجماعات المُناهضة للحرب - لتجعل المناهضين لحرب فيتنام يبدون شاذين خونة. لكنَّ جرائم القتل استقطبتْ حركة مناهضة الحرب، بل إننا، في الحقيقة، أصبحنا الغالبيّة.

إنني احتفظ بأوراق اعتمادي كمنتسبة لجيل الولودين وأشعر بالفخر لأنني أرتبط بذلك الجيل. وكنتُ أتمنى لو أنني شاركتُ أكثر في النشاط السياسيّ. لكنني سرعان ما آمنتُ بأنَّ أفضل مُساهمة لي كانت الكتابة عن تلك الأوقات في روايات، ومقالات، وقصائد.

طبعاً ما زال جيل الولودين يقوم على تغيير العالم كما فعل عندما بلغ سن الرشد. لم يكن أحد يأتي على ذكر سن اليأس. أما اليوم فهي عبارة أنيقة. كانت كلمة تقاعُد تُستخدَم لتعني الاختفاء في غياهب القبر. أما الآن فتعني قهر التحديات الجديدة. وكان الجنس شيئاً لا يُسمح لكبار السن أنْ يُمارسونه. أما الان فهو الشيء الذي يفتخر به المرء للمحافظة على شبابه. وكنا نشجب آباءنا بشدّة، أما الآن فنريد أنْ نعقد السلم معهم. كنا نعتقد أنهم مُضلَّلون، والآن أصبحوا، إذا لم نقُل أذكياء، فبصيرين. كنا نعتقد أنَّ الجنس أشدّ الأشياء أهميّة، أما الآن فنعلم أنَّ أولادنا هم كذلك. وكنا نعتقد انَّ الحريّة هي كل شيء، أما الآن فنحترم الصفاء. والعماء أقل جاذبية لنا بكثير ممّا كان ونحن في سن العشرين.

حسن، ها قد كبرنا – وإنْ ليس بصورة تامة. وما زلنا نحب البيتلز، والجنس، والـ«الرياح الحرّة، المنعشة التي تتغلغل في شعرنا». نحن نريد أنْ نسافر – ولكن ليس قسراً. ونفضّل فنادق خمسة نجوم. ونحب الطعام ولكن ليس بالضرورة أنْ يكون مأخوذاً من مجلة *«كُتيّب الأرض برمّتها»*[2]. بل كما ورد في مجلة *«غورميه»*. ونحب السيارات – ولكن لم نعُد نحب حافلات الفوكسفاغن. نريد كفايتنا من الوقود والراحة – على سبيل المثال، سيارة ليسكوس الهجين. نحن نعتني بصحتنا – خاصة في منتجع مرفّه. وقمنا بتمارين اليوغا في العراء إلى أن بدأتْ تُصبح فكرة مبتذلة. واستبدلنا أُصص النبات المتدلية من نسيج المكرمة بالحدائق العضويّة.

ولكن لنكن صريحين: ليس كل شيء سهل، فحالما اعتقدنا أنّنا استعدنا حياتنا من جديد، كان آباؤنا يحتضرون وأولادنا يتمرّدون ويُعاد تأهيلهم. وكل ما اعتقدنا أننا بثثنا فيه روح الثورة كان فوضى عارمة. إنّ الأولاد في هذه الأيام يسعون إلى العودة إلى المنزل بالحماس نفسه الذي سعينا به إلى الفرار منه. إنه الاقتصاد، أيها الأحمق. إنهم لا يستطيعون تحمُّل تكاليف دفع قيمة الإيجار. وازدهار تجارة العقارات التي جعلت منا أثرياء هي التي أفقرتنا. نحن أردنا الحريّة. وهم أرادوا أعشاشاً. نحن أردنا التجريب في ممارسة الجنس. وهم انتهوا من ممارسة التجريب ويسعون الآن إلى الاستقرار. آخ. مَنْ كان يمكن أنْ يتوقّع أنْ يحبوا الأعراس وخواتيم الخطبة ذات الأحجار الكريمة الضخمة؟

وكل شيء في المرأة تغيّر، مرة أخرى. فنساء جيلنا يردن أنْ يسرن على خُطى غلوريا شتاينم. والنساء في جيلهم يُردن السير على خُطى لورا بوش. نساء جيلنا قلن: كفانا نفقة! والنساء في جيلهم يقلن: سوف آخذ المنزل. نساء جيلنا أردنَ أنْ ينجحن وحدهن. أما نساء جيلهم فيعلمن أنه

2– مجلة مناهضة للثقافة، أو تدعم ثقافة بديلة. صدرت في أميركا، خاصة بين عاميّ 1968 و1972 – المترجم.

من المُستبعَد أنْ يحدث ذلك إلا إذا أنكرن الأولاد. إنهن عمليات أكثر منا.

وهم أولاد طيبون. ويشبهوننا، على الرغم من أنهم يعتقدون أننا بؤساء. ومنحونا أفضل الهبات - الأحفاد - أشدّ الحجج إقناعاً لإنجاب الأطفال في المقام الأول. مَنْ قال: *لا تنجبوا أطفالاً، ولكن احصلوا على أكبر عدد يمكنكم الحصول عليه من الأحفاد!*

إنَّ سن الخمسين ليس سيئاً جداً، ولا واحد وخمسين ولا اثنين وخمسين، أو حتى تسعة وخمسين. كان سن الستين يلوح أمامي من بعيد كأزمة أخرى لتأليف كتاب آخر - إلى أنْ بلغتُ الستين، واكتشفتُ متعة الجنس على الطريقة البوذيّة وكوني جدّة، وأختبر متعة تأليف كتاب من دون خوف. الآن أصبح الموت هو الأزمة التي تلوح في الأفق.

قال الدكتور جونسون (في كتاب بوزويل «*حياة صمويل جونسون*»): «ثِق في كلامي، يا سيدي، عندما يعلم رجلٌ أنه سيُصبح زوجاً في غضون أسبوعَين، سوف يجعله ذلك يُركّز تفكيره بصورة رائعة»

إريكا يونغ
مدينة نيويورك
شباط عام 2006

المحتويات

إهداء المؤلِّفة 5
مقدِّمة: إياكِ أنْ تقتدي بالكلاب 7
1- الخوف من الخمسين 25
2- كيف كان والدايَ «وكل ذلك الهراء الشبيه بقصة *ديفيد كوبرفيلد*» 47
3- سُحاقيّة مجنونة في العلّيّة 79
4- كيف أصبحتُ يهوديّة 109
5- كيف أصبحتُ من الجنس الثاني 129
6- الجنس 175
7- إغواء المُلهِمة 203
8- الخوف من الشهرة 241
9- طفلتي، طفلتي، طفلتي 263
10- الطلاق وما بعده 287
11- دونيا خوانا تتصرف بذكاء، أو دليل الفتاة الطيّبة إلى الشبّان الأشرار 321
12- كيف أصبحتُ من أهل البندقيّة 345
13- حياة التشرُّد 367
14- كيف تتزوَّجين 405
15- المشكلةُ لا تكمنُ في الرجال 433

16- امرأة كاملة: لقاء مع أمي 457
17- مواليد، وميتات، ونهايات 481
كلمة أخيرة: زيارة أخرى لـ «الخوف من الخمسين» 495

آه أيّها الولودون، يا إخوتي وأخواتي الصغار، أنتم بحقّ أقوى جيل وُجِدَ حتى اليوم. لكنَّ ذلك لم يُنقذكم. إنَّ الجيل الذي لم يثِق في أحد يتجاوز الثلاثين من العمر ويقترب من سن الخمسين بنسبة زيادة تبلغ سبعة وسبعين مليون في العام. لقد كتبتُ «الخوف من الخمسين» لأنني شعرتُ في أعماقي بأنَّ بلوغ الخمسين من العمر سوف يكون اختباراً صعباً بالنسبة إليّ وإلى

الولودين. إنْ بلوغ سن الخمسين يعني أنك سوف تفعل ما لا يخطر على البال - أنْ تُصبح عجوزاً وغير متأثّر بالجديد- وهذا يُغيِّر كل شيء.

أنا لستُ من الجيل الولود. أنا ابنة الحرب، وُلِدتُ قُبيل بدء الاجتياح السكاني الأعظم، لكنني عشتُ مع أشخاص من ذلك الجيل وتزوجت منهم - وأنا نفسي أنتمي قليلاً إلى ذلك الجيل: نرجسيّة، مهووسة بالجنس، وجرّتني الأبوّة إلى سن البلوغ وأنا أرفس وأصرخ. وفعلتُ العديد مما يفعله فرد من ذلك الجيل: تعاطي الماريغوانا (عندما كانت شيئاً جيداً)، سماع البيتلز، والمشاركة في مسيرات السلام والمظاهرات المناهضة لحرب فييتنام مع زملائي من سيتي كوليج في نيويورك (عندما كنتُ في الثالثة والعشرين وكانوا في الثامنة عشرة). أتذكر أنني أتمدّد في جادة أمستردام مع مئات من الطلاب في أوائل ربيع عام 1970 احتجاجاً على مذبحة كينت ستيت، حيث قُتِل أربعة من الطلاب رمياً برصاص حرّس أوهايو الوطني في أثناء اشتراكهم في مظاهرة سِلميّة ضد اجتياح نيكسون لكمبوديا. وأتذكّر أنَّ الصوت الوحيد الذي صدر أتى من أضواء إشارات المرور وهي تنتقل من الأخضر إلى الأصفر إلى الأحمر.

ISBN 978-9933604325